

مكتبة

أليف شافاك

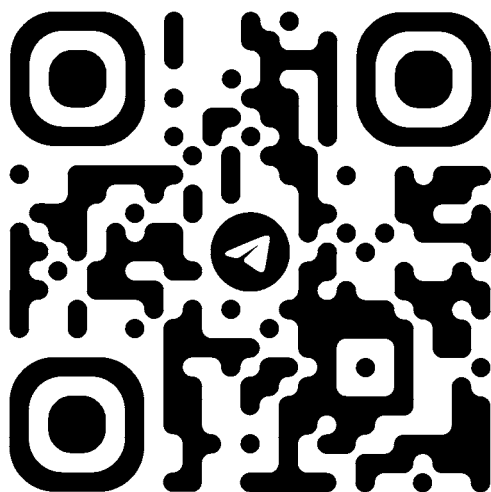
هناك أنهارٌ في السماء

رواية

ترجمة: أحمد حسن المعيني

دار الآداب





سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

هناك أنهارٌ في السماء

هناك أنهارٌ في السماء

أليف شافاك / مؤلفة تركيَّة

الطبعة الأولى عام 2025

ترجمة: أحمد حسن المعيني

ISBN 978-9953-89-787-5

There Are Rivers in the Sky

Copyright © 2024 by Elif Shafak

<http://www.elifshafak.com>

مكتبة  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

دار الآداب للطباعة والنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة

موقعنا [www.daraladab.net](http://www.daraladab.net)

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

[info@daraladab.net](mailto:info@daraladab.net)

[rana.adab@gmail.com](mailto:rana.adab@gmail.com)

أليف شافاك

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

# هناك أنهارٌ في السماء

ترجمة: أحمد حسن المعيني

رواية

دار الآداب





إلى كاتبة حبيبة، حين طُلب إليها أن تتحدّث عن «المرأة  
والرواية»، جلستُ إلى ضفّة نهر، وراحت تفكّر في معنى  
الكلمتين.



والماء إذ يتقطرُ

يحفرُ الحجر

لا من تلقاء قوّة

بل بالمشاورة.

(أوفيد)

فاخرج أيُّها الطفل البشريّ

إلى الماء والبيداء

وسِرْ مع الجنيّة يدًا بيد

فالعالم مُترعٌ بالنواح

أكثر من قدرتك على الفهم.

(وليم بتلر بيتس)

ثُمَّ آبَارُ فِي دَوَاخِلِنَا  
مِنْهَا مَا يَمْلَأُهِ الْمَطَرُ  
وَمِنْهَا الْمَفْرُطُ فِي عَمَقِهِ  
فَلَا يَكْفِيهِ الْمَطَرُ.

(حافظ الشيرازي)

في تلك الأيام، تلك الأيام البعيدة  
في تلك الليالي، تلك الليالي البعيدة  
في تلك السنين، تلك السنين البعيدة  
في سالف الأزمان...

هل رأيت أبناء سومر وأكاد؟  
أنا رأيتهم.

فما بالهم؟

إنهم يشربون الماء من موقع المذبحة.

(اللوحة الثاني عشر، ملحمة گلگامش<sup>(\*)</sup>، ترجمها إلى  
الإنكليزية أندرو جورج)

---

(\*) نعتد في هذه الترجمة الكاف الفارسيّة (گ) في اسم الملحمة، للإشارة إلى صوت الجيم المصريّة. (المترجم).



## المحتويات

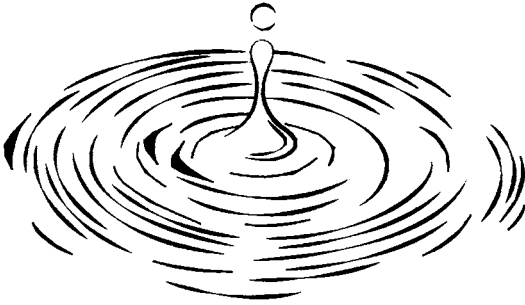
|     |                         |
|-----|-------------------------|
| 13  | 1 - قطرة مطر .....      |
| 219 | 2 - أسرار الماء .....   |
| 345 | 3 - أنهارٌ قلقة .....   |
| 455 | 4 - ذكريات الماء .....  |
| 533 | 5 - الطوفان .....       |
| 651 | ملاحظة إلى القارئ ..... |
| 667 | شكرٌ وعرفان .....       |





1

قطرة مطر





## بجوار دجلة، في سالف الأزمان

وبعد أن تمرّ العاصفة، سوف يحكي الجميع عن الدمار الذي كان، غير أن أحداً لن يتذكّر، ولا حتى الملك نفسه، أن هذا كله إنما ابتدأ بقطرة مطرٍ واحدة.

\*\*\*

كان ذلك في عصر يوم قائيظ في أوائل الصيف في نينوى، والسماء حبلى بمطرٍ وشيك. صمتٌ غريبٌ وكئيبٌ حلّ على المدينة. فلا زقزقة للعصافير، ولا رفرقة للفراشات واليعاسيب، ولا الضفادع في مواطنها التي تتناسل فيها، ولا صوت للإوزات إذ تستشعر الخطر. بل إن الخراف نفسها انكتمت أصواتها، ولا تنفك تتبول من شدة الخوف. رائحةٌ غريبةٌ تتهادى في الهواء. رائحةٌ مالحة، لاذعة. وثمة ظلالٌ داكنةٌ ما فتئت تتراكم في الأفق، وكأنها جيش عدوٍّ يُعسكر على مقربة، يحشد قوّاته. يخدعك سكونها حين تراها من بعيد، فليس هذا إلا وهم البصر.

تمور السحب وتقترب، على عين رياح قويّة، لا تريد إلّا أن تغمر الأرض وتعيد تشكيلها. هنا، حيث الأصياف الطويلة الحارقة، والأنهر المتقلّبة التي لا ترحم، والطوفان الأخير الذي لم تنجرف ذكراه بعد، هنا الماء بشارّة الحياة ومرسأل المنيّة.

نينوى أرض لا نظير لها، أكبر مدن الدنيا وأغناها، تقوم على سهل فسيح في الضفّة الشرقيّة لنهر دجلة. ولفرط قربها من النهر لا تهدد الأمّيات صغارهنّ بتهويدات، بل بصوت الأمواج إذ تضرب الشاطئ. نينوى عاصمة إمبراطوريّة جبّارة، معقل تحميهِ أبراج راسخة، ومتاريِس عظيمة، وخنادق، وتحصينات، وأسوار هائلة يبلغ الواحد منها تسعين قدماً أو يزيد. يقيم في هذه المدينة مئة وخمسة وسبعون ألفاً، فهي آية حضريّة على مفترق بين جبال الشمال العامرة، والمنخفضات الخصبة جنوباً في كلدة وبابل. أمّا الزمان فهو أربعينيّات القرن السابع قبل الميلاد. وأمّا المكان فهو بلاد الرافدين، تلك المنطقة العتيقة الوارفة بجنان عطرة، ونبابع فوّارة، وقنوات ريّ، غير أنّ الذين سيأتون في أجيال لاحقة سوف ينسونها، ولا يرون فيها إلّا صحراء قاحلة، وأرضاً ياباً.

من بين السحب التي تسعى إلى المدينة عصر هذا اليوم سحابة أكبر وأعمق من أخواتها، وأدنى منهنّ صبراً. تندفع في خيمة السماء الفسيحة نحو وجهتها، وما إن تصل حتى تتباطأ حدّ الوقوف، فتطفو وهي معلّقة على ارتفاع آلاف الأقدام، فوق صرح مهيب تزينه أعمدة الأرز، والأروقة، والتماثيل الجسام. هذا هو قصر الشمال الذي يُقيم فيه الملك، بكلّ مجده وجبروته. تستقرّ كتلة البخار المتكثّف فوق البيت الملكيّ، تلقي بظلّها. فالماء غير

البشر؛ الماء لا يحفلُ بمكانةٍ أو بألقاب الملوك.

تدلى من حافة السحابة في هذه العاصفة قطرة واحدة من مطر، هي أدنى من فولة وأخف من حبة حمص. تظل فترة في اختلاج، صغيرة، كروية، وخائفة. كم مرعب أن تنظر إلى الأرض من تحتك وهي تنفتح كزهرة لوتس وحيدة. ليست المرأة الأولى بطبيعة الحال؛ فقد خاضت هذه الرحلة من قبل، صعوداً إلى السماء، وسقوطاً إلى اليابسة، وصعوداً ثانياً إلى السماء. ورغم ذلك ما تزال ترتعب من السقوط.

تذكروا تلکم القطرة، على تفاهتها إن قورنت بالكون الفسيح؛ ففي ذلك الفلك الصغير سرُّ اللانهاية، وقصة تتفرّد بها هي وحدها. وحين تستجمع شجاعتها أخيراً، تقفز في الأثير. ها هي تسقط الآن، بسرعة أكبر، فأكبر. الجاذبية في عونها دائماً. تهرع إلى الأرض من ارتفاع ثلاثة آلاف وثمانين قدماً. ليس إلا ثلاث دقائق حتى تصل إلى الأرض.

هناك في الأسفل، في نينوى، يدلفُ الملك من باب مزدوج إلى شرفته. يمدُّ رأسه فوق الحاجز المزخرف، يحدّق في رغد المدينة الذي يستفيض أمامه على مدّ النظر. ضياع مشدّبة، وقناطر بديعة، ومعابد مهيبية، وبساتين زاهرة، وحدائق عامّة ساحرة، وحقول وارفة، وحديقة حيوانٍ ملكيّة يعيش فيها الطي والغزال والنعام والفهد والوشق والأسد. يملأه المنظر زهوًا. مغرّم هو بالحدائق التي تنضح بأشجار مزهرة ونباتات عطريّة. لوز ونخل

وَتُؤَبِّ وتِينُ وَزُعْرُورٌ وَفِرْصَادٌ وَزَيْتُونٌ وَإِجَاصٌ وَبِرْقُوقٌ وَرَمَّانٌ وَحُورٌ وَسَفَرَجَلٌ وَخَشَبٌ وَرِدٍ وَأَثَلٌ وَبِطْمٌ وَجُوزٌ وَصَفْصَافٌ، وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَهُوَ لَا يَحْكُمُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا فَحَسَبَ، بَلْ يَحْكُمُ الْيَنْابِيعَ أَيْضًا، وَرَوَّافِدَهَا. وَجَّهٌ هُوَ وَأَسْلَافُهُ نَهْرٌ دَجَلَةٌ فِي شَبَكَةٍ مَعْقَدَةٍ مِنَ الْقَنَوَاتِ وَالسَّدُودِ وَالْخَنَادِقِ، وَخَزَنُوا الْمَاءَ فِي أَحْوَاضٍ وَخَزَانَاتٍ، فَجَعَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ فِرْدَوْسًا.

هُوَ أَشُورْبَانِيَالٌ، بِلَحِيَّتِهِ الْمَجْعَدَةُ الْمَهْدَبَةُ، وَجِبْهَتِهِ الْعَرِيضَةُ فَوْقَ حَاجِبَيْنِ غَلِيظَيْنِ دَاكِنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ مَقْوَسَتَيْنِ مَكْحُولَتَيْنِ. يَعْتَمُرُ عِمَامَةً مُسْتَدَقَّةً مَرْصَعَةً بِجَوَاهِرٍ تَلْتَمِعُ مِثْلَ النُّجُومِ الْبَعِيدَةِ كُلَّمَا سَقَطَ الضَّوُّ عَلَيْهَا. ثَوْبُهُ أَزْرَقٌ دَاكِنٌ مَنْسُوجٌ مِنْ أَجُودِ الْكُتَّانِ، مَطْرَزٌ بِخِيُوطِ فَضَّةٍ وَذَهَبٍ، مَزْرَكُشٌ بِمِائَاتِ الْخُرَزَاتِ الزَّاهِيَةِ وَالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ وَالتَّمَائِمِ. فِي مَعْصَمِهِ الْأَيْسَرِ سِوَارٌ عَلَيْهِ نَقْشُ زَهْرِيٍّ يَجْلِبُ الْحِظَّ وَالْحِمَايَةَ. يَحْكُمُ أَشُورْبَانِيَالٌ إِمْبَرَاطُورِيَّةً ضَخْمَةً، حَتَّى إِنَّهُمْ يَخَاطِبُونَهُ بِاسْمِ «مَلِكِ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ لِلْعَالَمِ». ذَاتَ يَوْمٍ سِيْذَكْرٌ وَيُعرفُ أَيْضًا بِاسْمِ «الْمَلِكِ الْكُتُبِيِّ» وَ«الْعَاهِلِ الْمُتَعَلِّمِ» وَ«حَاكِمِ بِلَادِ الرَّافِدَيْنِ الْمُثَقَّفِ». كُلُّهَا أَلْقَابٌ سَتُنْسِي النَّاسُ أَنَّهُ رَغْمَ تَعْلِيمِهِ وَثِقَافَتِهِ، لَمْ يَكُنْ أَقْلَ قِسْوَةٍ مِنْ سَابِقِيهِ.

يَسْتَنْشِقُ أَشُورْبَانِيَالٌ إِذْ يُمِيلُ رَأْسَهُ جَانِبًا كَيْ يَتَفَقَّدَ الْمَدِينَةَ، فَلَا يَلَاظُ مِنْ فُورِهِ تِلْكَ الْعَاصِفَةُ الَّتِي تَخْتَمِرُ مِنْ بَعِيدٍ. يَسْتَحُوذُ عَلَيْهِ الْعَطْرُ الْبَهِيجُ الَّذِي يَتَنَاهَى مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ. ثُمَّ يَرْفَعُ عَيْنَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا نَحْوَ السَّمَاءِ الْمُثْقَلَةِ. تَسْرِي فِي جِسْمِهِ الْقَوِيَّ رَعِشَةٌ، وَتَغْزُو أَفْكَارَهُ نُذْرٌ صَارِخَةٌ وَعَلَائِمُ شَوْمٍ كَثِيبَةٍ. قَدَّرُ نِينَوَى أَنْ تُهَاجَمَ، وَتُسَلَبَ، وَتُحْرَقَ عَنْ آخِرِهَا. هَكَذَا تَنْبَأُ بَعْضُ

العرَّافين. حتى حجارتها لن تبقى في أماكنها. قالوا إنَّ هذه المدينة البديعة سوف تُمسح من على وجه الأرض، وناشدوا الجميع بأن يغادروا. وقد حرص الملك على إسكات أصحاب الشؤم، فأمر بأن يُختَم على شفاههم وتُخاط. أمَّا الآن، فثمة اعتلاجٌ ينذر بالسوء في داخله، مثل جَذبة التَّيار في النهر. ماذا لو صَحَّت تلك النبوءات؟

يهشُّ آشوربانيبال ذلك الشعور المشؤوم. فرغم أعدائه الكثيرين، بمنْ فيهم أخوه من لحمه ودمه، إلَّا أنَّه لا يوجد ما يستدعي القلق. لا شيء يمكن أن يدمر هذه العاصمة المجيدة ما دامت الآلهة في صفِّه. وليس يشكُّ في أنَّ الآلهة، رغم تقلُّباتها مع البشر الفانين، ستدافع دومًا عن نينوى.

في أثناء ذلك، ها هي ذي قطرة المطر توشك على الوصول. وفيما هي تقترب من الأرض، تشعرُ لحظةً بأنَّها لفرط حرِّيتها وخفَّتْها يمكنها أن تحطَّ في أيِّ مكانٍ تريد. عن يسارها نخلةٌ طويلةٌ عديمة الأغصان، يحلو الهبوط على سعفاتها. وعن يمينها قناةٌ رِيٌّ تسير في حقلٍ مزارع، سيُرْحَب بها هناك إذ تساعد في نموِّ الحصاد. ولها أن ترتاح على درجَات زُقُورة<sup>(\*)</sup> قريبة للآلهة عشتار، إلهة الحبِّ والجنس والجمال والشغف والحرب، وإلهة العواصف الرعدية أيضًا. هي وجهةٌ جديدة. حارت القطرة الصغيرة ولم تقرِّر بعد مكان سقوطها، لكنَّ هذا لا يهمّ، فالريح

(\*) الزُقُورة معبَدٌ مدرَّجٌ عُرف في حضارات بلاد الرافدين. (المترجم).

هي التي ستقرّر نيابةً عنها. هكذا هبّت الريح فجأة، رفعتها وحملتها مباشرةً نحو الرجل الواقف على شرفةٍ قريبة. بعد نبضة، يحسّ الملك بشيءٍ رطبٍ يسقط على فروة رأسه، ويستريح في شعره. يحاول في ضيقٍ أن يمسحها بيده، لكنّ عمامته تعوقه. يعبس عبوسًا قليلًا، ثم يرنو إلى السماء مرّةً أخرى. وحين يبدأ المطرُ في هطوله القويّ، يولي الملك ظهره للمشهد الذي كان أمامه، ويقفل لاجئًا إلى داخل القصر.

يختال آشوربانيبال في دهاليز قصره الطويلة، يستمع إلى صدى خطواته. من أمامه يركع الخدم، لا يجروّون أبدًا على النظر في عينيه. إلى جانبه تتقدّ المشاعل إذ ترتعش عاليًا في حواملها الحديدية. والضوء الغريب الذي ينسابُ منها يغمُر النقوشَ على الجدران، نقوشًا منحوتةً من جبس، مرسومةً بأبهى الألوان. في بعض مشاهدّها يظهر الملك ممسكًا بقوسٍ ويُطلق سهامًا مجنّحة، يصطاد حيوانًا وحشيًا أو يذبح أعداءه. في مشاهد أخرى يقود عرباتٍ تشرifiّة ذات عجلتين، ويسوط خيولًا ملجومةً بزخارف من شرّاباتٍ ثلاث. لكنّه في مشاهد أخرى يصبّ شرابًا فوق أسودٍ منحورة، قرابين للآلهة رجاء في دعمهم وحمايتهم. في الصور كلّها عظمةُ الإمبراطورية الآشورية، وتفوّق الرجال، وجلال الإمبراطور. ولا تكاد النساء تظهر فيها أبدًا، باستثناء صورةٍ يشرب فيها آشوربانيبال خمراً مع زوجته، يستمتعان بنزهةٍ في حديقةٍ شاعريّة، فيما يتدلّى من فروع شجرةٍ قريبةٍ وسط الثمار الناضجة رأسٌ عدوّهما، تيومان ملك العيلاميين. يُكمل الملك مسيره في القصر، ساهيًا عن القطرة التي ما تزال تسكن في



شعره. يمرّ بخقّة عبر القاعات الوثيرة، فيصلُ إلى بابٍ مزينٍ  
بنقوشٍ بارزة. هذا مكانه المفضّل في القصر: المكتبة. فهي  
ليست مجرد مجموعة عشوائية من الكتابات، بل صنيعة الأعظم  
والأبهى، وطموح حياته. إنجازٌ لا مثيل له في مداه وحجمه.  
سيكون هذا ميراثه للأجيال اللاحقة، أكثر من أيّ شيءٍ حقّقه في  
حياته، بل أهمُّ حتى من غزواته العسكرية وانتصاراته السياسيّة.  
صرخُ ثقافيٍّ لم يشهد العالم مثله من قبل.

مدخلُ المكتبة مُحاطٌ بتمثالين هائلين: مخلوقين هجينين،  
نصفهما بشريٌّ ونصفهما الآخر حيوانيّ. ذلك الثور المجنّح (أو:  
اللاماسو) روحٌ حارسة. يُنحتُ من لوحٍ حجرٍ جيريٍّ واحد، وله  
رأس إنسان، وجناحا نسر، وجسم ثورٍ أو أسد. ولمّا كان هذا  
المخلوق قد وُهب أفضل ما تملكه تلك الأجناس الثلاثة، فإنّه  
يمثّل ذكاء البشر، وبصيرة الطير، وقوّة الثور أو الأسد. هو  
حارس البوّابة التي تنفتح على عوالم أخرى.



لمعظم اللاماسوات في هذا القصر خمس سيقان، فحين تنظر إليها من الأمام تبدو وكأنّها تقف راسخة، لكنّك حين تنظر إليها من الجانب تبدو وكأنّها تدكّ الأرض، في استعدادٍ لسحق أعتى الأعداء. وهكذا، يمكن لها أن تنبري للدخلاء، وتدرأ أيّ شرّ يلوح في المكان. والحقيقة أنّ الملك يستشعر الراحة والأمان في حضرتها، رغم أنّه لم يعترف لأحدٍ بذلك، ولهذا السبب كلّ بعض الفنّانين مؤخّراً بنحت اثنتي عشرة منحوتة أخرى مثلها. فلا توجد حمايةٌ تفيض عن الحاجة.

يدخل آشوربانيبال المكتبة محمّلاً بهذه الأفكار. تتراصّف الأرفف على الجدران في غرفةٍ تلو أخرى، من قاعها إلى سقفها، تحمل آلاف الألواح الطينيّة المصفوفة في نظام دقيق، مرتّبة وفق موضوعها. لملم شتات تلك الألواح من كلّ مكان، قريبٍ أو بعيد. أنقذ بعضها من الإهمال، واشترى بعضها من مالكيها السابقين بأزهد الأثمان، لكنّه استولى على عددٍ كبيرٍ منها بالقوّة. في هذه الألواح معلوماتٌ من كلّ نوع: اتّفاقيّاتٌ تجاريّة، وعلاجاتٌ طبّيّة، وعقودٌ قانونيّة، ومخطوطاتٌ سماويّة، وغير ذلك. يعلم الملك جيّدًا أنّه لكي يسيطر على الثقافات الأخرى، لا ينبغي له أن يكتفي بأراضيهم ومحاصيلهم وممتلكاتهم، بل لا بدّ أن يهemin أيضًا على مخيالهم، وذكرياتهم.

يمدّ آشوربانيبال خطواته، فيتجاوز الأقسام المخصّصة للنذر والتمايم والطقوس والعلاجات واللعنات والابتهالات والمناحات والتعاويد والتراتيل والحكايات الخرافيّة والأمثال والمرثيّات، تلك التي جمعها من شتّى بقاع الإمبراطوريّة. يتابع طريقه عبر مجموعةٍ

إضافيّة عن استخدام أحشاء الحيوانات للتكهّن بمصائر البشر ومكر الآلهة. ورغم أنّه يولي أهمية كبيرة لِعِرافة الأحشاء، ويأمر دائماً بذبح الخراف والماعز كي يقرأ العرّافون أكبادها ومراراتها، إلّا أنّه لن يدرس العِرافة اليوم. يتوجّه نحو غرفة في الخلف، شبه مخبوءة خلف ستارة سميكة. ليس لأحد أن يدخل هذا المكان المعزول إلّا الملك وكبير مستشاريه الذي يعدّه والده الثاني، وهو رجلٌ عالمٌ تولّى تعليم آشوربانيبال وتوجيهه منذ أن كان صبيّاً.

ثمة مصابيح برونزيّة موضوعة في تجاويف عند مدخل هذا المكان الخاصّ، تتقدّ بزيت السمسم، وتنفث دوائر دخان. يختار الملك واحداً، ويسحب الستارة من خلفه. المكان هادئٌ هدوءاً مفرطاً هنا، وكأنّ الأرفف تحبس أنفاسها، في انتظاره.

ترتعش القطرة. لا نوافذ أو مناقل في هذه الغرفة، ولفرط برودتها تخشى القطرة أن تتصلّب إلى بلّورة من جليد. لم يمض وقتٌ طويلٌ على تحوّلها من الغاز إلى السائل، وليست ترغب الآن في أن تتصلّب قبل أن تأخذ كفايتها من هذا الطور الجديد في حياتها. لكنّ هذا ليس السبب الوحيد في اختلاج القطرة؛ فهذا المكان يُثير القلق، إذ ليس من هذا العالم ولا من العالم الآخر. هو فجوة بين الأرضيّ وغير الأرضيّ، في مكانٍ وسطٍ بين الأشياء التي تسهل رؤيتها والأشياء التي لا تُرى، بل لا ينبغي لها أن تُرى.

يخطو آشوربانيبال إلى الغرفة بحركاتٍ من يعرف طريقه وهدفه. هناك طاولةٌ في الوسط عليها صندوقٌ من الأرز. يضع الملك المصباح إلى جانبه، فينحّ الضوء ظلالاً على وجهه تعمّق

الخطوط عند زوايا عينيّه. وكأنّه في حلم، يمسّد الخشب الذي ما يزال ينفثُ شذا الغابة التي جاء منها. فهذه الأشجار الصنوبريّة ذات الجودة العالية نادرةٌ في بلاد الرافدين، ولا بدّ من قطعها في جبال طوروس، ومن هناك تُربط على متون الطوّافات، كي تعوم في نهر دجلة.

بداخل الصندوق قصيدة. مقطعٌ من ملحمةٍ قديمةٍ معروفةٍ ينشدها الناس مرّةً بعد مرّةٍ في بلاد الرافدين والأناضول وفارس والمشرق. روثها الجدّات لأحفادهنّ قبل أن يخطّها النساخ بزمن. هي حكاية بطلٍ يُدعى گلگامش.

يعرف آشوربانيبال القصيدة كلّها كما يعرف خطوط يديّه. فلقد درسها منذ أن كان وليّاً للعهد. لم يكن من المنتظر أن يُصبح ملكاً، فقد كان الابنُ الثالث والوريثُ الأصغر. تعلّم أخواه الفنون القتاليّة والخطط الحربيّة والمناورات الدبلوماسية، في حين تلقّى هو تعليمًا رفيعًا في الفلسفة والتاريخ والتنجيم الزيتيّ واللغة والأدب. وقد فوجئ الجميع (وهو منهم) حين اختاره والده خليفةً له، وبذلك عرفت الإمبراطوريّة أكثر حكامها تعليمًا وثقافة. وما تزال ملحمة گلگامش النصّ الأثير عنده، من بين النصوص الكثيرة التي تدبّرها منذ صباه.

يفتح الملكُ الصندوق، وبه لوحٌ واحدٌ فقط، لكنّه على عكس الألواح الأخرى التي تحتويها المكتبة ملوّنٌ بلونٍ برّاق: أزرق الأنهار المضطربة. فلم تُنقش الكلمات في طينٍ بنيٍّ محمّر، بل في لوح من اللازورد، ذلك الحجر المدهش الذي ذخرته الآلهة لنفسها. الخطُّ أنيقٌ مرّتب، والنصُّ مكتوبٌ على أكمل وجه.

ولفرط حرص الملك وتلطفه يكاد يلامس الكلمات، لا أكثر. وشيئًا فشيئًا، يغوص في الأبيات التي ظلَّ يقرأها مرَّةً بعد مرَّة، لكنَّها ما تزال تثير شغاف قلبه، وكأنَّه يقرأها للمرَّة الأولى.

هو الذي رأى كلَّ شيء...

لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة

وجاء بأنباء الأيام ممَّا قبل الطوفان(\*)

ثمَّة ملوكٌ يُغرَمون بالذهب والياقوت، وآخرون يُغرَمون بالحرير والزرابيّ، ومنهم من تستهويه ملذَّات الجسد. أمَّا آشوربانيال، فغرامُه القصص. يرى أنَّ الحاكم ليس مضطرًّا إلى أن يقطع رحلةً خطيرةً كما فعل گلگامش كي ينجح، أو أن يصبح محاربًا غازيًا ذا قوَّة وبسطةٍ في الجسم، أو أن يجتاز الجبال والفيافي والغابات التي قلَّ من يعود منها سالمًا. كلُّ ما يحتاج إليه حكايةٌ مأثورة، حكايةٌ تصوِّره بطلًا.

لكنَّ الملك بقدر ما يثمَّن الحكايات، فإنَّه لا يثق بالحكَّائين؛ فخيالهم الذي لا يستقرُّ في مكانٍ واحدٍ (شأنه شأن دجلة في وقت الربيع) يغيِّر مجراه فجأة، ويتلوَّى في منعطفاتٍ تتَّسع وتدور في دوائر عشوائية، فيظلُّ جامحًا حتى النهاية. حين أنشأ هذه المكتبة، كان يعرف أنَّ هناك نسخًا أخرى من ملحمة گلگامش، فقد ظهرت القصيدة بأشكالٍ جديدةٍ بعد أن نسخها النساخون وأعادوا نسخها عبر القرون. أرسل آشوربانيال مبعوثيه لجمع

---

(\*) الترجمة العربيَّة مأخوذة من ترجمة طه باقر لملحمة گلگامش. وفي ترجماتي أُخرى: هو الذي رأى الأعماق/العمق. (المترجم)

الألواح من كلِّ مكان، كي تصبح كلُّ النسخ المحتملة تحت سقفه. وهو واثقٌ من أنَّه أنجز هذه المهمة الضخمة. لكنَّ اللوح الذي يحتفظ به في صندوق الأرز يختلف عن كلِّ الألواح الأخرى؛ لا لأنَّه مكتوبٌ على حجرٍ كريمٍ بدلاً من الطين فحسب، بل لأنَّه موصومٌ بالكفر أيضًا.

رفع الملكُ القصيدة يقرِّبها من المصباح، ويقرأ النصَّ الذي يعرفه جيّدًا. لقد أدَّى النَّسَّاح الذي نسخ هذه القصيدة عمله على الوجه المألوف، عدا ملاحظةٍ واحدةٍ في النهاية.

فهذا ما خطَّته يدا كاتبٍ صغير  
واحدٍ من شعراء ومنشدين وحكَّائين كثيرين  
يمشون على هذه الأرض.  
إنَّما نحن ننسجُ القصائد والأغاني والحكايات من كلِّ نَفْس.  
عسى أن تذكرونا.

صحيحٌ أنَّها إضافةٌ غريبة، لكنَّ الإهداء الذي جاء بعدها هو الذي يُثير القلق: الحمدُ لنيسابا، دائماً وأبداً. تقسو ملامح الملك وهو يستوعب ما تعنيه تلك الكلمات الأخيرة. يعبس، ويقوى نبضُ جبينه في غضب.

نيسابا (إلهة الحكيم) روحُ إلهيَّةٍ من زمنٍ غابر، واسمُ راح للنسيان. لقد ولَّت أيامها، رغم أنَّها ما تزال تلقى تبجيلًا في أركانٍ قصيَّةٍ من الإمبراطوريَّة، عند قلَّةٍ من النسوة الجاهلات

اللائي يتشبَّثن بأخبار الأولين. وقد حلَّ في مكانها إله آخر منذ زمن. ففي هذه الأيام تُهدى جميع الألواح في المملكة إلى الإله الذكورِي الجبَّار نابو، لا إلى نيسابا الأنثويَّة الرقيقة. يرى الملك أنَّ هذا هو الوضع الصحيح؛ فالكتابة شأن الرجال، تتطلَّب راعيًا رجوليًا، إلهاً ذكراً. وهكذا بات نابو الراعي الرسمي للنسَّاحين، وحافظ كلِّ المعارف التي تستحقُّ الحفظ. ولذلك يؤمر الطلاب في المدارس بأن يختموا ألواحهم بهذا النقش:

### الحمدُ لنابو.

لو أنَّ اللوح الأزرق قديم، أو أثرٌ من الماضي البعيد، لما كان ذلك الإهداء مثيرًا للجدل. لكنَّ الملك واثقٌ كلِّ الثقة من أنَّها نسخةٌ معاصرة، فالخطُّ جديد. ومعنى أن يصرَّ النسَّاح على تبجيل إلهةٍ منسيَّةٍ محظورةٍ (وتجاهل سلطة نابو، وبالتالي أوامر الملك) هو أنه يتعمَّد انتهاك القانون. كان يمكن لآشوربانيبال أن يُتلف هذا اللوح، لكنَّه لم يقوَ على ذلك. ولهذا السبب لا بدَّ من حفظ هذا النصِّ المسيء مخبوءًا في هذه الغرفة، معزولًا عن بقيَّة أجزاء المكتبة، خشية أن تقع عليه أعين الجموع غير المستنيرة. فليس كلُّ ما يُكتب ينبغي له أن يصل إلى كلِّ قارئ، مثلما أن ليس كلُّ ما يُقال ينبغي أن يصل إلى كلِّ متنصِّت. لا يجدر بالعامَّة أن يعرفوا أبدًا عن ذلك اللوح الأزرق؛ فقد تصيبهم تلك الضلالة أيضًا. ولو تُرك المتمرّد طليقًا دون عقاب، فقد يشجَّع كثيرين غيره على أن ينشقُّوا.

يهطلُ المطر على نينوى، فيما يبقى الملك معزولاً في مكتبته، منغمساً في اللوح الأزرق. يظلُّ فترةً هناك ينسى فيها كلَّ شيء. ينسى مؤامرات أخيه الأكبر في بابل كي يستولي على العرش، ودسائس القصر، والثورات التي تندلع في أرضه أو خارجها، في الأناضول وميديا وأورارتو ومصر وسورية وقيليقية وعيلام، وغيرها. كلُّ هذا يمكن أن ينتظر. لا شيء يمكن أن يعكّر صفوه حين يدفن نفسه في مغامرات گلگامش، غير أن شيئاً طارئاً ينغص عليه خلوته في هذا اليوم.

صخبٌ باغتٌ في الممرّ. أصواتٌ مفزعة، مزعجة. يستلُّ آشوربانيبال خنجره بيدٍ واحدة، وهو ما يزال متشبّهاً باللوح في يده الأخرى، ويندفع إلى الخارج.

- «من ذا الذي يجرؤ على إزعاج الملك؟».

يطلُّ قائد العسكر، وهو رجلٌ قليل الكلام، فيحني رأسه ويقول: «مولاي، شمسنا، اغفر لنا اقتحامنا خلوتك».

من خلفه أربعة جنودٍ يجرّون رجلاً مغطىً بخيشٍ يلطّخه قيءٌ تبيّس ودمٌ جديد. ينشجُ باكيًا وينوحُ نوحاً متقطّعا من خلف غطاء الخيش الذي يغلف وجهه.

يقول الملك أمراً: «تكلّم، وبرّر فعلتك الشنيعة هذه».

- «مولاي، لقد قبضنا على الخائن الذي كنّا نبحث عنه فترةً طويلة. وقد اعترف بشرُّ أعماله».

يسحب أحد الجنود الغطاء عن رأس السجين.

تعبّر لمحةً من حزنٍ على محيّا آشوربانيبال، لكنّها ما تلبث



أن تختفي. يُخزّر عينه، كأنما ينظر إلى شيء يتراجع سريعاً، فيما يظلّ محدّقاً في السجين: معلّمه ومرشده السابق وحافظ أسرارهِ، الذي كان أقرب إليه من أبيه. ضُرب الرجل وعُذّب شرّاً تعذيب، حتى تشوّه وجهه، وظهرت فجوةٌ قبيحةٌ من دمٍ وصديدٍ في مكان أسنانه. بالكاد يستطيع أن يستقيم في وقفته.

يقول قائد العسكر: «مولاي الجليل، إنّ كبير المستشارين جاسوسٌ بحقّ الآلهة آشور وعشتار وشمش ونابو. هو الذي كان يسرّب أسراراً مهمّةً إلى أخيك. لم يكن يريد أن يعترف بوقوفه في صفّ العدو في أوّل الأمر، وظلّ ينكر جرمه، لكنّنا واجهناه بدليلٍ لا يقبل الجدل، فلم تبق له أكاذيب يتقيّاً بها علينا».

ينبشُ القائد في الكيس الذي يحمله على كتفه، ويقدّم لوحاً يعرضه على الملك. رسالةٌ موجّهةٌ من كبير المستشارين، يُعرب فيها عن ولائه ودعمه. رسالةٌ تثبت حجم خيانتِهِ من دون أدنى مجالٍ للشكّ.

يسأله الملك بصوتٍ جافّ كالخشب المجروف: «أين وجدتموها؟».

«صادرناها من أحد جنود العدو وهو يعبر الحدود. وكان معه ختمُ كبير المستشارين، واعترف بأنّه ينفذ أوامره».

يلتفت آشوربانيبال ببطءٍ إلى السجين. «ما الذي دفعك إلى هذا؟».

صوتُ الرجل المكبّل مكشوط، وأنفاسه تحشرجُ في صدره. عينُهُ اليسرى مغمضةٌ لفرط انتفاخها، وعينه اليمنى مكدومةٌ مدماة،

ترتعش في محجرها مثل طير حبيس. «مولاي... تذكر أنهم حين أحضروك إليّ لم تكن سوى صبيّ صغير. أولم أعلمك القراءة والكتابة والحساب؟ أولم أعلمك كيف تستمتع بالملاحم وتكتب الشعر... الرحمة، كرمي لتلك الأيام».

- «سألتك: ما الذي دفعك إلى هذا؟».

صمتٌ يتجمّع في الهواء.

يتمتمُ السجين: «الماء...». يظنون لحظةً أنه يريد أن يشرب، لكنّه يُكمل قائلاً: «الماء نعمةٌ من الآلهة، يمنحنا الحياة، والفرح، والثروات. لكنك يا مولاي حولته إلى سلاح مميت. لم تبق أسماكٌ في نهر أولاي. خنقته بالجثث الكثيرة حتى صار يصبُّ لون الصوف المدبوغ بالأحمر. في البدء جفاف، ثم مجاعة. رعاياك يتصوّرون جوعاً يا مولاي. سهول سوسة تفيضُ بالموتى والمحتضرين. وقد سمعتُ أنّك ستفعل الشيء نفسه في كاستروم كيفا...».

كاستروم كيفا(\*)، أو «قلعة الصخرة». المدينة الكبيرة المسوّرة شمال نينوى، على الضفاف العليا من نهر دجلة. فجأة، يرفرف الإدراك على عيني الملك. «أوليس أبوك من قرية هناك؟».

- «أهلي... لقد زرعت جنودك عند كلّ نبع كي تحرمهم من الماء. سممت الآبار، وصار الناس يذبحون حيواناتهم ليشربوا دمها من شدة العطش. لم يبق للأُمّهات حليبٌ يرضعن به

---

(\*) الاسم القديم لهذه المدينة التاريخية، وتُسمّى الآن «حسن كيف»، أو «حصن كيفا» كما هو دارجٌ في العربية. (المترجم)

أطفالهنّ. مولاي، لا حدودَ لقسوتك».

يهوي قائد العسكر بلكمةٍ تحت ضلوع السجين، فيتلوّى ويسعل دمّا، ثم يستقيم بسرعةٍ مفاجئة. ترى عينه المفتوحة ذلك الشيء الذي يمسك به الملك.

يقول السجين فيما يرتفع ركنٌ من فمه في طيف ابتسامة: «آه، اللوح الأزرق... وزندقته. درسناه معًا أوّل مرّةٍ حين كان مولاي أميرًا شابًا. لطالما كان مولاي مغرمًا به. أوليس في قراءتنا للشعر ذكرياتٌ لا تُنسى؟».

حتى وإن كان آشوربانيبال يذكر تلك العُصُر الهادئة في صباه وهو يرتّل الشعر مع معلّمه، فإنّه لا يعلّق بشيء.

يقول السجين: «گلگامش... أراد أن ينتصر على الموت، فسافر إلى أطراف الأرض، لكنّه فشل. لم يعرف أنّ الطريقة الوحيدة للخلود هي أن تُخلد ذكراك بعد رحيلك، وأنّ الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هي أن تترك بعدك حكايةً جميلة. مولاي، لماذا تريد أن تجعل من حياتك حكايةً قاسيةً إلى هذا الحدّ؟».

يخطو قائد العسكر إلى الأمام، في انتظار الأمر بقتل السجين، لكنّ آشوربانيبال يرفع يده ويوقفه. فيسأله قائد العسكر وهو يحني رأسه: «أيودّ مولاي أن يجهز عليه بنفسه؟».

فيبدأ السجين بالبكاء، في صوتٍ هاديٍّ رصين، يخرج من أعماق صدره. صوتٌ لا يستطيع السيطرة عليه. يحرك الجنود أقدامهم، ينتظرون أوامر الملك.

لكنّ آشوربانيبال لن يقتل معلّمه القديم. لم يكن قطّ في

حياته حريصًا على أن يقود الجيش في ساحات المعارك، بل يفضل أن يصدر أوامر الذبح والهدم والسلب والاغتصاب وهو مستقرٌّ على عرشه، أو في كثيرٍ من الأحيان، وهو مختلٍ بنفسه في المكتبة. لقد أشرف على سلب مدنٍ وتجويع شعوبٍ بأكملها، فلم يترك للناس خيارًا سوى أن يأكلوا جثث ذويهم. سوَّى البلدات بالأرض، وحطَّم المعابد عن آخرها، ونثر الملح على الحقول المحروثة، وسلخ جلد القادة المتمردين، وشنق أنصارهم، وأطعم أجسادهم لـ «طيور السماء وأسماك البحر». حفرَ فكوك خصومه بسلاسل الكلاب وتركهم في أوجرتها، واستباح قبور أسلاف أعدائه كي لا تنام أرواحهم في سلام. كلُّ هذا وغيره كثيرٌ فعله وهو في قاعة القراءة. لا يلوّث يديه أبدًا، فهو في نهاية المطاف ملكٌ متعلِّمٌ مثقَّفٌ درسَ أشراط السماء والأرض. وبعكس أسلافه المبجّلين، يستطيع أن يقرأ اللغة الأكاديّة، بل حتى النصوص السومريّة الغامضة التي يرى معظم الناس أنّه يستحيل الكشف عن مغاليقها. في وسعه أن يناظر العرّافين، والرهبان، والفلاسفة. فهو ليس رجل القوة الغاشمة والغضب الجهول، بل رجل الأفكار والمُثل.

يستشعر قائد العسكر تحفُّظ الملك، فيتنحنح ويقول: «إن شاء مولاي سلّمني خنجره الكريم، أو اسمح لي باستخدام سيفي، حتى أغرزه في قلبه الخائن».

فيقول آشوربانيال: «لا داعي لذلك. لن نسفك دمه».

هنا، ترفرف ومضةٌ شاحبةٌ من أملٍ على ملامح السجين المحطّمة.

غير أنَّ آشوربانيبال لا ينظر إلى معلّمه. يظلُّ يحدّق في النقش الغائر على الجدار من خلفه. يتفحّص الصورة فترة: حفلة صيد في سهول نينوى، يمتطي الملك حصانًا مسرعًا، ويحمل رمحًا على وشك أن ينفذ في أسدٍ يحاول الهرب من مصيره. يمشي الملك نحو النقش، كأنّه يُسحب إليه بحبلٍ لا يُرى. وما إن يصل إلى هناك، حتى يأخذ مشعلًا ويحمله قرب الصورة. ينعكس الضوء المرتعش على الأشكال، فتنبض بالحياة. الصياد، والرمح، والفريسة.

يلتفت الملك إلى الوراء، وهو ما يزال ممسكًا باللوح الأزرق، فيناول قائده المشعل. ثم يقول كلمةً واحدة، بصوت ليس سوى أن يُطاع: - «احرقه!».

يختفي الدّم من وجه القائد العسكريّ، ويتدّرّد، لحظةً واحدةً لا أكثر.

\*\*\*

يجري رجلٌ مشتعلٌ في قاعات قصر الشمال في نينوى. جسده يقذف جِمنًا على الجداريّات، وصيحائه العالية الحادّة يرجع صداها في الممرّات، ثم تتردّد من الأسقف العالية، فتُلقي بقشعريرة في أجساد الخدم. تنداحُ صيحائه المستميتة خارج البوّابات الكبيرة، وتُسمع على مدى الحقول المزروعة بالقمح والشعير، والكهوف الرملية إذ يفرغ الصيادون فيها رزق يومهم. حتى النوارس الساكنة انزعجت من تلك الأصوات المرعبة،

فحلّقتُ من فورها، تدور فوق المدينة في دوائر حائرة.

قد ينجو السجين لو وصل إلى ضفاف نهر الخوصر، رافد نهر دجلة الذي يتفرّع في طريقه عبر مركز المدينة، أو وصل إلى بوابة المسقى في الجوار، حيث يجتمع السقاة. لكنّه، وهو يتمايل في جحيمه، يصطدم بـ اللاماسو الذي يحرس المكتبة الملكية، فيرتطم بحافره الأمامي الأيمن، فيما تلتهمه النار باحتدامٍ متعاضم.

كانت القصائد والحكايات هي التي تغمره بالفرح، فالقراءة جزءٌ من كينونته، شأنها شأن غريزة التنفّس. لم يكن يستمتع بشيءٍ قدر استمتاعه بتعليم الأمير الشاب، وهما متّكئان على الوسائد الوثيرة يتناقشان في الأدب، ويقرآن ملحمة گلگامش، ويندهشان من مفاتن الدنيا. أترأه أنشأ وحشًا من ذلك الفتى، صاحب الكلام الحلو والابتسامة الرقيقة، أم أنّ الوحش كان ساكنًا في داخل الفتى طوال هذا الوقت؟ سؤالٌ لن يعرف إجابته. أمّا الآن، فقد صار جسده فرنًا يحرق الكلمات في جمر، ويحوّل كلّ أبيات الشعر التي درسها إلى رماد.

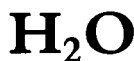
كان آشوربانيبال قائد أغنى إمبراطوريات العالم، وآخر الحكّام العظماء في مملكة آشور، والابن الثالث لأسرحدون الذي فضّله على أخويّه وأورثه العرش، وصاحب المكتبة المذهلة التي ستغيّر مجرى التاريخ. في عصر هذا اليوم كان يحرق معلّمه السابق، ويحرق ذكريات طفولته معه، فيما قطرة المطر ما تزال تحتجب في شعره. لا جرأة لها على الحركة وهي وحيدة،

صغيرة، مرتعبة. لن تنسى أبدًا ما رأته اليوم؛ فقد تغيّرت إلى الأبد. وحتى بعد قرونٍ عديدة، سيبقى أثرٌ من هذه اللحظة مكنونًا في جواهرها.

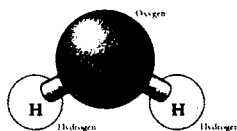
وفيما تعلو دوائر الحرارة في الهواء، ستتبخّر قطرة المطر شيئًا فشيئًا. لكنّها لن تختفي. عاجلاً أم آجلاً، سوف تصعد تلك القطرة الصغيرة الشفيفة من جديدٍ إلى السماوات الزرق. وحين تصل هناك سوف تنتظر وقتها، وقت العودة إلى هذه الأرض المضطربة مرّةً أخرى... وأخرى.

فالماء لا ينسى.

لكنّ النسيان شِمةُ البشر.



الماء . . . تلك المادّة الكيميائيّة الأغرب . اللغزُ الأعظم .  
ذرّتان من الهيدروجين في الطرفين، ترتبط كلّ منهما بذرّة  
أكسجين في المنتصف، فتشكّل جزيئًا منحنيًا، وليس خطّيًا .  
لو أنّه كان خطّيًا، ما كانت هناك حياةٌ على الأرض . . . ولا  
قصصٌ نحكيها .



ثلاث ذرّاتٍ تجتمع كي تشكّل الماء : H-O-H .  
ثلاثة رموزٍ ترتبط عبر حدود الزمان والمكان، وهي التي  
تصنع مجتمعةً هذه الحكاية . . .



-O-

## آرثر

بجوار نهر التيمز، 1840

يَقْدِمُ الشتاء متأخراً في لندن هذا العام، وما إن يَحُلُّ حتى  
يَأْبَى الرحيل. تَهْبِطُ أَوَّلُ هَبَّاتِ الثلج في تشرين الأول / أكتوبر،  
ومعها تهبط الحرارة يوماً بعد يوم. تنمو الأشنة فوق الجدران،  
وتكسو الطحالب الصخور، فيما أوراق السرخس التي تنبثق من  
الفجوات مغطاة كلها بالجليد، تلتمع مثل إبر فضية. تستعدُّ  
اليساريع والضفادع لدورة البرد الآتية، فتسمح لنفسها بالتجمد في  
هدوء، راضيةً بالألا تذوب حتى الربيع القادم. أدعيةُ الناس  
وشتائمهم على حدٍّ سواء، ما إن تُغادر أفواههم حتى تتشكّل في  
رقائق ثلجٍ تتدلى من أغصان الشجر العارية. ترنُّ أحياناً مع

الريح، في صوت رنينٍ خفيفٍ مفكّك. ورغم المناخ القارس، إلّا أنّ نهر التيمز(\*) لا يستقرُّ كما كان قبل عقودٍ قليلة، حين استحال صفحة صلبة من جليد، حتى إنَّهم من دافع اللهو سيَّروا فوقه فيلاً، ولعبوا مباريات الهوكي من ضفّة إلى أخرى. أمّا الآن، فلا يتجمّد سوى الحواف، فيظلُّ الماء يتدفّق وسط امتدادات البلّور الأبيض على الجانبين.

غير أنّ الرائحة التي تصدر من النهر هي نفسها، سواء كان الجوُّ باردًا أم دافئًا، عاصفًا أم هادئًا. رائحةٌ حادّةٌ لاذعةٌ فاسدة. نتانةٌ تتسرّب إلى المسام، وتعلّق في الجلد، تخترق الرئتين. فرغم أنّ نهر التيمز (أو: تاميس، وتمس، وتاماسا، والنهر المظلم) كان في يوم من الأيام معروفًا بمائه العذب وسَمَك السلمون الفاخر، إلّا أنّه في هذه الأيام يدفّق ماءً بنيًا قاتمًا قدرًا. لقد لوّثته مخلفاتُ التصنيع، والزباله المتعفّنة، وكيمائيات المصانع، وجيف الحيوانات، وجثث البشر، ومياه الصرف الصحيّ، فلم يحدث قطّ في حياته الطويلة أن تعرّض النهر هكذا للإهمال، وبات وحيدًا، غير محبوب.

مَسْحَةٌ من غبارٍ وسخامٍ ورمادٍ تحومُ حول أبراج الأجراس، والأبراج المدبّبة وأسطح البنايات في لندن، أشدّ المدن ازدحامًا في العالم. في كلّ أسبوعٍ تأتي موجةٌ أخرى من الوافدين الجدد، يحمل الواحد منهم صرّته وأحلامه، فيما المداخن تضحّ مزيدًا من

---

(\*) رغم شيوع اسم «نهر التايمز» في اللغة العربيّة، إلّا أنّني أثرتُ تصحيحه في هذه الرواية وفقًا للنطق الصحيح للاسم. (المترجم)

الكوابيس في السماء. تنمو العاصمة وتتسع أكثر من حدودها، فتنسكب القمامة والفضلات والحطام من الشقوق، مثل حشوة تنفجر من وسادة قديمة. يطرحون في النهر كل شيء لا يرغبون فيه: الحبوب المستهلكة في المخامر، والعجينة في مصانع الورق، وفضلات المسالخ، وبرادة المدابغ، ونفايات معامل التقطير، وبقايا المصابغ، والفضلات البشرية من المجاري، وما تصرفه المراحيض (ذلك الاختراع الجديد الذي يستمتع به الخواص والأثرياء). كل ذلك يُطرح في النهر، فيقتل الأسماك، ويقتل النبات المائي، ويقتل الماء.

لكنَّ النهرَ وهَّاب، ولا أحد يعرف ذلك أكثر من الطواشر<sup>(\*)</sup>، وهم قمامون لا يكلُّون ولا يملُّون، ينهبون ضفاف النهر. يخوضون أميالاً وأميالاً من الوحل النتن. في بعض الأحيان يمشون في متاهات المجاري المتشابكة في المدينة، يغربلون سواقي النفايات السائلة. وفي أحيانٍ أخرى يفتشون في رواسب النهر، يمشطون ضفافها. هكذا ينظفون عالمًا سائلاً، يبحثون عمّا له قيمة، تحت الأرض أو فوقها.

عادةً ما ينطلقون إلى العمل مع انحسار الماء والريح، فيصبح سطح الماء راکداً أملس، كمرآة ملطخة لم تعد تعكس الضوء. ودائمًا ما يكون هناك شيء ذو قيمة يختبئ في تجاويف المياه العكرة. كسر معدنيّة، أو عملات نحاسيّة، أو آنيّة فضّة، وفي

---

(\*) الطاشر: تعريبٌ من اجتهاد المترجم لكلمة قديمة في اللغة الإنكليزيّة (tosher)، وهي كلمة عاميّة تُشير إلى الشخص الذي كان في العهد الفكتوريّ يخوض المجاري أو يبحث في أبدان السفن عن أي شيء يسقط سهواً. (المترجم)

بعض الأحيان دُبُوسٌ من الكريستال أو قرطٌ من اللؤلؤ. ممتلكاتٌ ثمينةٌ سقطت سهوًا في شوارع لندن أو حدائقها، ثم انجرفت إلى المجاري، وسارت في مجرى طويلٍ نَتِنٍ إلى أمواج التِمَز. بعضٌ من هذه الأشياء يُكمل مسيره نحو أكسفورد وما بعدها، فيما يظلُّ البعض عالقًا في الطين، مدفونًا تحت طبقةٍ لزجةٍ سميقة. ليس في وسع المرء أن يتوقَّع ما يمكن أن يقدمه النهر في كلِّ مرَّة، لكنَّ الأكيد أنَّه لن يعود خالي الوفاض. والطاشر الماهر قد يكسب ما يصل إلى ستَّة شلنات في اليوم.

لكنَّ هذا العمل ليس قدرًا ومقرَفًا فحسب، بل محفوفًا بالمخاطر أيضًا، لا سيَّما داخل أنفاق المجاري. ومن الحكمة دائمًا أن يعمل المرء في مجموعات؛ إذ يسهل أن يتيه في ممرَّات لندن المتشابكة تحت الأرض، فلا يستطيع الخروج منها أبدًا. وقد يُفتح مصرفٌ من المصارف على حين فجأة، وهو يتلمَّس طريقه في الأسفل، فينهمر السيل السريع. وإن لم يكن لديه ما يتشبَّث به، أو أحدٌ يمسك به من ياقته، فقد تجرفه المياه ويغرق، ورثاته مملوءتان بالغائط. من الممكن أيضًا أن يأتي عند غازٍ حبيسٍ ظلَّ يتشكَّل تحت طبقات الحطام، قد يشتعل منفجرًا كالبارود، فيودي به إلى الموت فورًا، أو إلى حياةٍ مثقلةٍ بالإصابات الشديدة. النهرُ سَلَّاب، ولا أحد يفهم ذلك أكثر من الطواشر.

✱

في هذا اليوم الثلجيِّ من أواخر تشرين الثاني / نوفمبر، يمشي فريقٌ من ثمانية أشخاصٍ متناقلين على شاطئٍ تشلسي، على

الضفة الشماليّة من نهر التّمر، بأحذية طويلة تسحق الطين. يحملون عصيّاً طويلة، يغرزونها في الوحل بين الحين والآخر عسى أن يكون فيه شيء مفيد. الفوانيس المربوطة بصدورهم تبتّ دوائر ذهبية أمامهم، وتمنح وجوههم لوناً شاحباً كالأشباح. يربطون أوشحة على أفواههم كي يتّقوا الروائح المقرّفة، لكنّها لا تفيد. يتّشّحون بمعاطف مخملية واسعة ذات جيوب ضخمة، مع قفّازات سميكة يحتمون بها من القذارة والجرذان التي يصل بعضها إلى حجم القطط. لكنّ المرأة الأخيرة في هذه المجموعة (وهي امرأة شابة ذات ابتسامة خجلى وبثور تنتشر على وجنتيّها) لم تستطع أن تدثر بردائها إلّا نصف بطنها المنتفخة. فرغم أنّها حبلى في الشهور الأخيرة، إلّا أنّها مضطّرة إلى العمل. كما أنّ القابلة قد أكّدت لها أنّ موعد الولادة لن يحين إلّا بعد شهر على الأقلّ.

تصل المجموعة إلى منحنى في النهر، حيث تمُدّ سنديانة أغصانها فوق الماء، وكأنّها جائمة هناك. وفيما يغربل الآخرون الوحل، تقف الشابة كي تلتقط أنفاسها. تمسح جبينها، حيث تفصّدت حبّات العرق رغم الريح القارسة.

تمرّ بعينيّها على الشقوق والحزوز بطول لحاء السنديانة. كم غريب أن تلتوي شجرة على نفسها بهذه الطريقة، وكأنّها في حوار حميم مع النهر. في أيّ نائمة تُراهما يثرثران؟ تبتسم المرأة لهذا الخاطر. وفيما هي تتأمّل فكرتها، تحسّ فجأةً بألم يجتاحها. ألم حاد، مباغت. يتسارع قلبها، لكنّها تحاول ألا تفكّر في الألم. حتى الآن لم يكن هذا اليوم كريماً معها؛ فلم تعثر إلّا على خاتم

صغيرٍ لن تعرف قيمته إلا بعد أن تزيل عنه قذارته وتأخذه إلى سمسار الرهن. على أيّ حال، فقد وضعته في إصبعها، خشية أن تفقد كنزها الوحيد.

نوبةً أخرى من الألم، نوبةً طاعنةً تكاد تكتم أنفاسها. تجرُّ المرأة نفسها بعيدًا عن الماء، وتمشي متثاقلةً نحو الشجرة. يرتفع صدرها ويهبط، فتستريح على جذع الشجرة، ممتنةً لشكلها الغريب. وما إن ينحسر التشنُّج الطاعنُ حتى يعود أقوى بعد وهلة. تضغط بيديها على بطنها، غير قادرةٍ على منع نفسها من التأوه عاليًا.

- «يا إلهي!».

فتهرع إليها إحدى الطواشر، وهي امرأةٌ قصيرةٌ بدينةٌ مسنةٌ، ولها كيسان أزرقان شفيفان تحت عينيها.

- «ما الأمر يا أرابيلا؟ هل أنت بخير؟».

- «الجنين. تعتقدين أنه قد حان أوانه؟ أليس الوقت مبكرًا جدًا؟».

تتلقتُ المرأتان حولهما، إحداهما بدعٍ خالص، والأخرى بقلقٍ تخفيه.

ليس الآن بالتأكيد، وليس هنا. لا ينبغي لطفلٍ أن يولد في مكانٍ رطبٍ ونتنٍ كهذا، عند مجرى يفيض بالنفائات والمجاري.

تقول العجوز وهي تخفض صوتها، إذ كانت تستشعر الجواب أصلاً: «هل أبعثُ أحدًا ينادي زوجك يا حبيبتى؟».

تعيش أرابيلا في مسكنٍ فقيرٍ لا يبعد كثيرًا عن هذا المكان،

في بقعة من تشلسي تُسمّى «نهاية العالم»، مع نجّارٍ شديد المهارة حتى إنّ قصر باكنغهام كلّفه ذات مرّة بصنع خزانة لأفراد العائلة الملكية، رغم أنّ يديه ترتعشان في هذه الأيام من أثر الشراب، حتى أصبح نادرًا ما يعمل.

تقول أرابيلاً: «زوجي؟ لم أره منذ أسابيع».

فتقول العجوز وهي تحاول أن تخفي الحزن في صوتها: «حسنًا يا فتاة، سنتصرّف وحدنا. دعينا نأخذك إلى البيت أولاً، كي تكوني مرتاحة».

تهزُّ أرابيلاً رأسها موافقة، لكنّ أنفاسها صارت لهاثًا سريعًا. تحاول أن تنهض، فتترنّح وتفقد توازنها لحظة. يتغصّن وجهها من أثر الصدمة أكثر من الألم، فيما تندفع دفقةً من سائلٍ دافئ بين ساقَيْها. تحدّق في تلك البركة الصغيرة عند قدمَيْها، مذعورة.

- «يا إلهي... الوقت مبكّر جدًا!».

توقّف الطواشر الآخرون عن العمل، وأخذوا ينظرون من حافة النهر. يصيح واحدٌ مع صوت الماء: «أوي، هل كلُّ شيءٍ على ما يرام؟».

فتردّ العجوز بهزّة سريعة من رأسها. «لدينا مشكلة. ساعدنا يا ربّ».

- «عمّ تهذين؟».

- «أقول ليتك تتحرّك وتساعدنا. تعالوا، كلّكم، أسرعوا! نزل ماء الجنين!».

غير أن أولئك الطواشر الذين يهرعون للمساعدة وينشرون معاطفهم على الضفاف الطينية في نهر التيمز لا يعلمون أن امرأة أخرى في لندن تضع مولودها الأول في الوقت نفسه. هناك في حجرة مُريحة في قصر باكنغهام، تعاني الملكة فكتوريا ذات الواحد والعشرين ربيعاً من انقباضات الولادة. ليس سرّاً أن جلالتها تكره الحمل، وهي ممتعة من اضطرارها إلى التخلي عن الرقص وركوب الخيل، ولذلك لم تعد تطبق الصبر حتى تنتهي من هذه الفترة الحرجة من حياتها. تؤد هذه الملكة الشابة (التي يسميها زوجها: زوجتي الصغيرة الطيبة) أن تضع وريثاً ذكراً في هذا اليوم حتى تنتهي من أمر الحمل والولادة إلى الأبد. يجلس الأمير ألبرت إلى جوارها، يمسك بيدها ويتمتم بكلمات تطمئنها، إلى أن ينضم إلى مجلس الوزراء الذي ينتظره في الخارج. في زاوية من الغرفة مهد الرضيع، مصنوع من خشب الماهاغوني الراقي، مبطن بحريز أخضر زمردنيّ، ومصمّم على شكل صدفة بحرية. وهذه اللفتة البحرية مثالية للمولود الأول لـ «ملكة المحيط»، في إشارة إلى مجد إنكلترا وعظمتها، وقد طُرز غطاء المهد برمز إنكلترا: الورد البيضاء.

يصل الطفل الملكي بعد ساعات أليمة، فيبتسم الطبيب في اعتذار، ويقول: «للأسف يا جلالة الملكة، إنها بنت».

ورغم أن الملكة تشاطره استياءه، إلا أنها ترفع يداً منهكة وتقول: «لا بأس. المولود التالي سيكون أميراً». ولحسن الحظ أن لديها صفّاً من الممرضات كي تختار من بينهنّ، وجميعهنّ مؤهلات في أعلى المستويات.



ويصل طفلُ النهر بعد ساعاتٍ أليمة، فتصبح إحدى الطواشر في سعادة: «تبارك الربُّ يا أرايلاً، إنَّه ولد!».

تنهض الأمُّ الشابة من مرفقيها، فترفع رأسها كي تنظر إلى ابنها. تنظر إلى أصابعه الصغيرة، وأصابع قدميه الوردية، ووجنتيه المدوّرتين... ما أجمله! فتجهش بالبكاء. تُرى أيُّ فرصةٍ سيحظى بها هذا الكائن الجميل البريء في عالمٍ مليءٍ بالإنثم والبلاء والعذاب؟

تؤنّبها العجوز: «فلتفرحي يا فتاة. ما الذي يقلقك هكذا، هاه؟ عليك أن تفخري بنفسك؛ فالولد بخيرٍ وعافية».

لكنَّ أرايلاً من فرط بكائها لا تكاد تقوى على الكلام.

فتقول لها العجوز: «اهدئي، اهدئي، ستكونين بخير. والآن أخبريني، ماذا ستسمّينه؟».

ولا جواب.

وعندها يتدخل الطواشر الآخرون، يتبرّعون بالمساعدة.

يقول أحدهم: «سمّيه تِمز. هذا هو الأنسب لظرف ولادته».

- «نعم، وسيصبح الأب تِمز حين يكبر».

- «وإن امتدَّ به العمر، سيصبح ذات يوم جدِّي تِمز».

- «ما رأيك بتومس؟ قريب من تِمز».

فيقول رجلٌ آخر: «لا، سمّيه جاك. طوال عمري وأنا جاك، ولا أرى في الأمر سوءاً».

- «بل يبدو لي شديد السوء!».

فيقول آخر: «ماذا عن ألبرت؟ ما دام مناسبًا لزوج الملكة، فهو بالتأكيد مناسب لهذا الصغير».

هذه المرأة تعترض العجوز قائلة: «أوه، اخرس من فضلك! أيُّ هراء هذا الذي تقوله؟ جبانٌ رعديد... هكذا هي شخصية الأمير ألبرت، هذا إلى جانب رخاوته وفتوره! أنسيتم أنه حتى لم يعرض الزواج على فكتوريا؟ هي التي طلبت منه أن يتزوجها. لا يليق هذا الزوج بملكتنا. بل لا يليق حتى بي أنا!».

فيضحك الجميع ضحكةً شبه مكتومة، إلى أن يخترق صوت أراييلا النحيل ذلك الصخب. «ألقوه في النهر!».

يقهقه أحدهم بصوتٍ عالٍ، مفترضًا أنها مزحةٌ أخرى عن الملوك، أولئك الذين لا يمكن أن تكون حياتهم أصعب من حياتهم. لكنَّ الآخرين يلزمون الصمت. يتجمّع شيءٌ من استياءٍ في الأجواء، وهم يستوعبون معنى الكلام. يتبادل الطواشر نظراتٍ آثمة، وكأنَّهم بمجرد أن سمعوا هذا الكلام أصبحوا جزءًا من شيءٍ ذميمٍ لا يخطر على بال.

وفي ذلك الصمت تتمم العجوز قائلة: «ماذا تقولين يا فتاة؟».

- «اطرحوه في الماء. لا أستطيع أن أرهاه. دعوا نهر التيمز يرعى ابني».

- «اششش! لا تحدّثي بهذه الطريقة الأثيمة».

تغطّي الأمُّ الشابةً وجهها بيديها، وتطلق صيحةً جشّاءً مخنوقة. لا تكاد تصدّق ما توشك على قوله، لكنّها في الوقت

نفسه لا تستطيع أن تمنع الكلمات من اندفاعها. «لا أقوى على الاحتفاظ بهذا الصغير. بالكاد أحصل على ما يكفي من البنسات أشتري بها طعامي. وفي معظم الأوقات أتضور جوعاً. زوجي... لا فائدة منه أبداً. وأصحابه من أسوأ الناس! غاضب طوال الوقت، لا يفיק من سكره ولا يعمل أبداً. غيابُه عن الوعي نعمة. تعتقدون أنَّ من يضرب زوجته لن يؤذي ابنه أيضاً؟ يا لولدي المسكين...».

فترفع العجوز وجه الفتاة وتهزُّ رأسها. «اسمعيني يا فتاة».

- «أنتِ لا تفهمين -».

- «بلى، أفهم كل كلمة، لكنني أوكد لك أن هذا الولد سوف يضيء حياتك، تفهمين؟ أشعر بهذا في أعماق قلبي. أعطيه نشفة طعام وكسرة حُب، وسوف يعطيك أكثر من ذلك بكثير. سوف يخفّف حملك ويرفع رأسك. سترين. سيكون كل شيء على ما يرام».

تبكي أرابيلاً بصوتٍ أعلى. يهتزُّ كتفها مع كل نشيج، وتصطك أسنانها من أثر البرد والقلق.

فتتنهّد العجوز. كانت قد سمعت القابلات يشتكين من حالة غريبة تُسمّى «جنون النفاس». يُقال إنَّها تصيب الأمّهات الجديّدات، فتسلبهنّ عقولهنّ، وتدفع بهنّ إلى إحباط لا قعر له، فلا يستطعن النهوض منه. وتعرف العجوز أنَّ العلاج يستدعي استخدام المسهّلات، والحجامة، وكثير من المستحضرات المخدّرة.

تلفت إلى الآخرين، وتسألهم بهدوء: «هل لدى أي منكم شيء يغيّر مزاجها؟ المسكينة أصابها السواد» (\*).

فيرد عليها رجل وهو يناولها زجاجة بيّنة حالكة: «أعطيتها شيئاً من هذا».

لودانيوم. يُساعد في إراحة الأعصاب وتسكين الألم، كما يُقال إنه يخفّف آلام المحيض. ورغم أنّ طعمه شديد المرارة، إلّا أنّ رائحته حلوة وقويّة، إذ يُصنع من القرفة والزعفران والكحول ومستخلص الأفيون من بذور الخشخاش.

يحثّون أرابيلاً على أخذ رشفة، ثم رشفتين أخريّين كي تكون الجرعة كافية. تستجيب لهم. فيسقط رأسها على صدرها، وترتخي ذراعاها. كانت منهكة وبائسة، فلم يستغرق الأمر طويلاً كي تغيب في نوم عميقٍ بلا أحلام.

لكنّ الطواشر أصبحوا الآن في مأزقٍ لم يتوقّعوه. الأب غائب ولا يُعرف مكانه، والأم في شبه سباتٍ وشبه جنون، فمن الذي سيسمّي الطفل؟ الأمر لا يحتمل التأجيل؛ إذ إنهم قريبون من النهر قرباً خطراً. فمنذ قديم الأزمان كانت تسكن في دوّامات التّمز أشباحٌ وغيلانٌ ومخلوقاتٍ أخرى مخيفة. أرواحٌ شيطانيّةٌ تحوم حول الماء تطارد الأرواح المستضعفة، وقد تنقضّ في أيّ لحظةٍ وتخطف الرضيع. وهبّ أنّ تلك الأرواح قرّرت هذه المرّة أن تتلطف، ما يزال ممكناً جدّاً أن يظهر شبح (وليم كد) فجأةً من

---

(\*) في الأصل: «got the morbs»، وهو تعبيرٌ عامّي قديمٌ لوصف الإصابة بالاكْتئاب أو الميلانخوليا. (المترجم)

العدم. والكلُّ يعرف أنَّ ذلك القرصان سيِّئ الذكر ما يزال مشتعلًا بالغضب، بعد أن لُطِّخ بالقطران، وقُيِّد بالسلاسل، ووُضع على المشنقة، ثم تُرِكَت جثته تتعفن ثلاث سنوات. لقد مرَّ ما يزيد عن قرنٍ منذ هذا الإعدام العلنيّ، لكنّه ما يزال غاضبًا، يطارد هذه الضفاف.

وبالأخذ بعَيْن الاعتبار خطورة هذا الوضع، يُدرك الطواشر أنَّ المهمّة قد وُضعت على أكتافهم. ترفع العجوز الطفل عاليًا، وتنظر في عينيّه الزرقاوين المائلتين إلى الرماديّ. والغريب أنّه يحدّق فيها هو الآخر. لم يبكِ الطفل مرّةً واحدةً طوال هذا الوقت.

– «يا لك من صغيرٍ غريب [سترينج وي مايت]!».

يقول أحدهم: «ما رأيكم أن نسّميه هكذا إذن؟ يا له من اسم! يكون اسمه الأوّل «سترينج»، والاسم الثاني «وي مايت». ها قد حللناها».

– «لا، لن ينفع».

يخطر للعجوز أنَّ هذا الطفل المنحوس، الذي ليس له أبٌ حنونٌ ولا أمٌّ بكامل عقلها، ناهيك عن ولادته قرب المجاري والخراء، يستحقُّ من يقف إلى جانبه. لا بدّ لهم أن يخلعوا عليه اسمًا فخماً، شيئًا حلّوا يعينه على صعوبات الحياة ولا يجرّه إلى مهاويها أكثر من ذلك. تفكّر العجوز، ثم تقول: «أعتقد أنَّ الاسم ينبغي أن يكون فيه شيءٌ من الشجاعة والفخامة. نعم، بالضبط. اسمٌ يليق بنبيلي من النبلاء».

- «حسن، لمَ لا نسمِّيه جلالتك؟».

- «صاحب السمو».

- «صاحب المقام الرفيع».

- «ماذا عن الملك [كينغ]؟».

فتقول العجوز: «الملك اسمٌ جيّد». يُشرق وجهها حين تخطر لها فكرةٌ جديدة. «بل الملك آرثر!»(\*).

- «بلى، الملك آرثر إذن!».

- «حمدًا لله».

- «تبارك الله».

- «مثل الملك آرثر صاحب السيف المغروس في الحجر؟».

- «بل هو أقرب إلى الملك آرثر صاحب المجاري».

- «و... والعشوائيات».

فيقول الرجل الذي أعطاهم اللودانيوم: «قُضي الأمر إذن». ولكي يشرب نخب المناسبة، يرتشف من زجاجة الخمر التي يحملها في معطفه، ثم يمسح فمه ويمررها للآخرين.

- «الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات!».

بهذا الاسم سيُعرف إذن هذا الطفل الذي وُلد في مكانٍ معزولٍ من الواجهة البحرية في تشلسي، تحت أغصانٍ دانيةٍ من

---

(\*) الإحالة هنا إلى أسطورة من الأساطير الشعبىَّة البريطانيَّة، وهو الملك آرثر (King Arthur)، الذي يُحكى أنَّه كان حاكمًا لبريطانيا في القرن الخامس أو السادس الميلادى. (المترجم)

سنديانة. هو طفلُ النهرِ إذن، وسيظلّ هكذا طوال حياته.

\*\*\*

يضعون الوليد عند ثدي أمّه، رغم أنّها ما تزال تغطّ في نوم عميق. وهكذا، تحت أنظار الجميع، يبدأ آرثر في الرضاعة ببطء، وكأنّه يفعل ذلك من باب الكياسة. الطفلُ مستلقٍ على كومةٍ من المعاطف المنشورة على ترابٍ باردٍ موحدٍ، بلا مهدٍ يشبّته، ولا سقفٍ يغطّيه، فيتغصّن وجهه، لكنّه لا يبكي. يظلّ في مكانه من دون حراك، يستمع إلى الأصوات من حوله، ثم يندفع خيظًا من حليبٍ من جانب فمه.

يتساقط الثلج مرّةً أخرى. تتدفّق هبّاتٌ هوجاءٌ من السماء في انحناءاتٍ طويلة، تتوهّج في ذلك الضوء الخافت. وحين تقترب من الأرض، تزرّق، وتلتفّ في دوائر لا تتقاطع ولا تجعلها تدوخ. ترقص نُدْف الثلج في مرج، وكأنّه بعثٌ لأرواح هائمة. ينظر الطفل إليها بعينين واسعتين، ويبتسم، مبهورًا بجمال هذا العالم.

وبعد قليل، تدور نُدفّةٌ من ندْف الثلج في الريح، فتتحرف سريعًا نحو الأرض. ها هو الماء في شكله الصلب. لؤلؤةٌ لا وزن لها، تشكّلت في أعماق صدفةٍ سماويّةٍ شاسعة. أترى يمكن لهذا الشيء الضئيل أن يعبرَ عن كونٍ بأسره؟

كانت تلك الندفة ذات يوم قطرة مطر، في أرضٍ بعيدة. عبرت في قصرٍ مهيبٍ ذي مكتبةٍ بديعة، ورأت حقائق أخّاذة، ونوافير باذخة، وقساواتٍ مريعة. تحمل الندفة في داخلها ذكريات

ما تقدّم لها من حيوات. فهالهُ الملك الأشوريُّ مطبوعةً فيها، مثل  
بصمةٍ لا تُرى. هي ذِي تحطُّ على وجه الرضيع، فتسقط بين شفّتيه  
المفتوحَتَيْن.

في تلك اللحظة يشعر الرضيع بشيءٍ على لسانه، شيءٍ بارد،  
هشّ، فيه شيءٌ من صلابة، وكثيرٌ من الإثارة. يجمع أصابعه،  
ويحشر قبضته في فمه، محاولاً أن يقبض على تلك الأعجوبة،  
لكنّه لا يفلح. وعندها يبكي، لأوّل مرّة. تلك أوّل الخيبات في  
حياته، وحزنه الأوّل، إذ لم يستطع أن يمسك بجمالٍ ممّه شيئاً  
قليلاً، ثم ذاب على حين فجأة.

قطرةٌ حليب، وندفة ثلج. ستندمجان في فمه، وفي أعماق  
تجاويف ذاكرته. وذات يوم، حين يكبر، سوف يسأله شخصٌ لم  
يرَ الثلج في حياته قطُّ عن طعم الثلج، وسيجيبه من دون أن يفكّر  
لحظة: «مثل حليب الأم».

\*\*\*

سوف يتذكّر الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات لحظة  
ميلاده. سيتذكّرها بوضوحٍ عجيبٍ وتفصيلٍ مذهشٍ: صخب  
المجاري وهي تندفع في مكانٍ قريب، ولحاء سنديانةٍ مقوّسة،  
وخشونة المعاطف المتراكمة من تحته، بأطرافها المهترئة التي  
نهشتها الفئران والجردان، وخصلات الشعر الذهبية التي تتساقط  
على كتفي المرأة التي جاءت به إلى هذه الدنيا، ثم أرادت أن  
تُلقي به في نهر التيمز، وفوق ذلك كلّهُ، سيتذكّر إحساسه ببلّورات  
الثلج وهي تذوب على لسانه. كسرٌ من ذاكرةٍ سوف يستطيع أن



يجمعها، مهما مرَّ من سنوات، ومهما كان التذكُّر مؤلِّماً. فهذا  
الطفل الذي يشترك في ميلاده مع أوَّل مولودٍ للملكة فكتوريا  
(والذي سمَّته مجموعةً من الطواشر الطيِّين تيمُّناً ببطلِ أسطوريِّ)  
طفلٍ استثنائيٍّ إلى أبعد الحدود.

لقد وُهب آرثر سمث ذاكرةً غير طبيعيَّة. ذاكرةٌ بصريَّة،  
ولسانيَّة، وحسيَّة. سوف يتذكَّر دائماً، ولن ينسى أبداً، شأنه شأن  
قطرة المطر أو حبة الثلج (الماء في أيِّ شكلٍ كان). ما يراه أو  
يسمعه أو يحسُّ به، حتى ولو مرَّةً واحدة، يبقى للأبد. كثيرون قد  
يقولون إنَّها موهبةٌ مذهشة. وقد يسرع الآخرون في الإضافة بأنَّها  
نعمةٌ من الله. لكنَّها كذلك لعنةٌ رهيبة، وهذا ما سوف يعرفه عمَّا  
قريب.

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

على ضفاف دجلة، في جنوب شرق تركيا، تحت ظلّ السماء الزرقاء الصافية، يجتمع نفرٌ من اليزيديين<sup>(\*)</sup>، أغلبهم من كبار السنّ، في عصر يوم من أواخر الربيع. يقفون في نصف دائرة، أمام صبيّة في رداءٍ أبيض، إذ تُعمّد اليومَ بماءٍ من وادي لالش في العراق.

---

(\*) نعتمدُ هنا تسمية اليزيديّ، بدلاً من التسمية الأخرى التي قد تكون أشيع في الوقت الحالي «الأيزيديّ»، تماشيًا مع رغبة المؤلّفة في إحداث اتّساقٍ مع التسمية التي راجتْ منذ القرن التاسع عشر، وهذا ما ذكرته المؤلّفة في فصل «ملاحظة إلى القارئ» في نهاية الرواية. (المترجم)

اسم الصبيّة نارين، تبلغ التاسعة من عمرها في هذا الشهر، ولها ملامح منحوتة بدقّة. جبينٌ عريض، وأنفٌ مستقيم، وحاجبان مقوّسان على عيّنين خضراوين جدّا، كلون المريميّة. وفيما هي تنصت إلى الشيخ الذي يرثّل الأدعية نيابةً عنها، تلاحظ طائرًا يهوي من الأعلى، فيندفع نحو الشجيرات، لكنّها لا تستطيع أن تحدّد نوعه. تُلقِي بنظرةٍ إلى جدّتها الواقفة بفخرٍ إلى جوارها، فالعجوز تعرف كلّ شيءٍ عن الطيور، ويمكنها أن تقلّد المئات من أصواتها، لكنّ هذا ليس الوقت المناسب لسؤالها. تُعيد نارين تركيزها إلى مراسم التعميد، فتنظر في صمتٍ وإجلال، ولا ترفع عينيّها مرّةً أخرى إلّا عندما يُرثّل الماء المقدّس فوق جبينها.

تسقط القطرة الأولى على حاجبها وتنزلق بلطف، فترتاح على جفونها الغزيرة الناعمة التي تحوّلت أطرافها إلى اللون البرونزيّ من شعاع الشمس. تمسح نارين القطرة، وتبتسم.

يقول الشيخ: «فليتبارك دربك دائماً يا حمَل الإيمان». ثم ترتعش خصلاتٌ من نبات الصقلاب عند أقدامهم، مع النسمة التي هبّت فجأةً من النهر. وحين يحلّ الصمت، تسمع نارين جدّتها تتحدّث، فيرنّ صوتها بصدى حنون.

«حمَل الإيمان، دلي مِن».

دلي مِن، «قلبي». هكذا تعبّر الجدّة عن مشاعرها، فتحوّل جسدها إلى تشريحٍ للحبّ. حين تشتاق إلى نارين، تقول: «تعالِي واجلسي بجواري، يا طرف كبدي»، وحين تريد أن ترفع معنويّاتها، تقول: «افرحي يا نبض عُنقي»، وحين تطبخ لها أكلتها المفضّلة، تقول: «كُلي يا نور عيني، فبطني تفرح حين تمتلئ

بطنك»، وحين تودُّ أن تنصحها بأن هنالك نعمةً في كلِّ محنة، تقول: «تذكّري يا روعي أنّ الله لا يغلق بابًا إلّا ويفتح بابًا غيره. فلا تقنطي أبدًا، يا هواء رثتي». قلبٌ وكبدٌ وبطنٌ ورثتان وعنقٌ وعينان وروح، وغير ذلك، وكأنّ الحبّ بطبيعته السائلة وقوّته النهرية ليس إلّا مزجًا للعلائم؛ إلى الحدّ الذي لا تستطيع معه أن تعرف أين تنتهي كينونتك، وتبدأ كينونة الآخر.

يرنّم الشيخ بالدعاء: «طيّب الله حياتك يا صبيّة، وأعانك عليها حين لا تطيب».

تهبط القطرة الثانية على ياقة نارين. يتشكّل طيفٌ دائريٌّ شاحبٌ على القماش الأبيض، مثل زهرة القمر.

تنظر الصبيّة حولها وهي تحوّل ثقلها من قدم إلى الأخرى، يحدوها شيءٌ من أملٍ في أن تجد العالم وقد تغيّر على نحوٍ ما، بعد أن كادت طقوس الحفل تنتهي. لكنّ كلّ شيءٍ بدا كما كان. الشراشر التي تشبّت بطرف رداءها، والصخور المسنّنة عند الشاطئ، والعشب الذي سفعته الشمس وهو يندفع بين الحصى، والرائحة الطينية التي تتهادى من طمي النهر فتمكث في الأنوف، كلّها كما هي. حتى التعابير على وجوه الكبار الحاضرين، وهم فرحون لها وقلقون في الوقت نفسه. الكبار لا يجيدون إخفاء القلق، رغم أنّهم ويا للغرابة يستطيعون إخفاء السعادة والفضول على أتمّ وجه. أمّا الأطفال فعكس ذلك؛ يسهل عليهم أن يُسكتوا قلقهم ويخفوا حزنهم، لكنّهم يتعبون كثيرًا حين لا يعبرون عن حماسهم. وهذا معنى أن يكبر الإنسان، في أبسط أشكاله؛ أن يكتب كلّ تعابير الفرح الخالص.

تُجيد نارين إخفاء مخاوفها، ولديها كثير. وهي اليوم مستاءة لأنَّ أباهما لم يستطع حضور تعميدها. يعمل أبوها عازف قانون، وهو ذائع الصيت يُطلب في كلِّ مكانٍ لإحياء الأعراس وحفلات الختان في المنطقة، ولذلك يقضي أياً ما وأياً ما على الطريق. وأسفاره لا تقتصر على تركيا وحدها، إذ يسافر إلى العراق ولبنان وسوريا، ويعود من كلِّ رحلة محمَّلاً بالحكايات المضحكة. ثم يغيب مرَّةً أخرى. تتفهَّم نارين أنَّه يحبُّها كثيراً، لكنَّه لا يستطيع المكوث طويلاً في مكانٍ واحد. يقول الناس إنَّ هذا هو حاله منذ أن فقد حبَّ حياته، في الساعة نفسها التي انفتح فيها بابُ الحياة لنارين، وانغلق أمام أمِّها. ومنذ ذلك اليوم ظلَّ أبوها يرفض الزواج مرَّةً أخرى رغم كلِّ المحاولات لإيجاد عروسٍ مناسبةٍ له، وظلَّت الطفلة مع جدَّتْها تربِّيها.

جدَّتْها كلُّ شيءٍ بالنسبة إليها.

يرفع الشيخ يده وهو يوشك على رشِّ القطرة الثالثة والأخيرة: «عسى أن يأتيك هذا الماء المقدَّس بالخير والبركات في حياتك، ويحميك من الأذى. عسى أن -».

هديرٌ يصمُّ الآذان، وكأنَّه يخرج من أحشاء الأرض، فيحجُب الرُّقية الأخيرة. هكذا، يلتفتون جميعاً في الاتجاه نفسه.

بلدوزر. وحشٌ آليٌّ أصفر اللون مغبرٌ ملطَّخٌ بالطين. وبعد أن اشتغل وهدر، صار يدرُجُ في المكان، يتجشَّأ دوائر من دخانٍ أسود في الهواء النقيّ. يصرُّ ويئنُّ، متقدِّماً يقعقع باتِّجاههم، فتهتِّزُ الأرض، فيما نصلُّه المعدنيُّ الثقيل معلَّق، في استعدادٍ للانقضاض.

تنتشر هذه الآلات في كلِّ مكانٍ هذه الأيام. فمنذ أن خصَّصت الحكومة التركيَّة هذه الأرض لبناء سدٍّ، امتلأت السهول الشاسعة من نهر دجلة بجعجعةٍ لا تُحتمل، ما بين دقٍّ وخبطٍ وحفرٍ وسبْرٍ وشقٍّ وتصليد، من دون توقُّف. والمشروع نفسه قد أثار الجدل، إذ يقف ضده النشطاء البيئيُّون والمزارعون المحليُّون على حدٍّ سواء. بل إنَّ الشركات الأجنبية التي سال لعابها في بادئ الأمر سحبت دعمها للمشروع، إثر مخاوف من انتهاك حقوق الإنسان، وتدمير البيئة والتراث الثقافي. غير أنَّ المشروع لم تخفت وتيرته. وكلَّ صباح تدرُّج الجرَّافات والقلَّبات والبلدوزرات على طول ضفَّة النهر، تحمل أكوامًا من البازلت والطين والحجر الجيري، تشكِّل منه أساسًا لما سيصبح ذات يوم أكبر منشأةٍ للطاقة الكهرومائيَّة في البلاد.

حين ينتهي بناء سدِّ إليسو، سينزح أكثر من ثمانين ألف شخص، وتُخلى أكثر من مئتي قريةٍ وأربعين نجعًا. فحين بدأ العمل، أُجبر الفلاحون (وأغلبهم من الكُرْد) على ترك منازلهم، فيما صودرت حقولهم وبساتينهم، فأصبحوا في يأسٍ شديد. وقد أودعت الحكومة مبالغ في حساباتهم، في مقابل الأراضي التي صادرتها، غير أنَّ كثيرًا من الأسر (مثل أسرة نارين) لم تقرب ذلك المال، إذ ترفض تلك الصفقة الجائرة. ينتوي بعضهم أن يقاضي السلطات، لكنَّ الناس في هذه الأرجاء فقراء، والحكومة شديدة القوَّة. كما أنَّ القضايا تستغرق سنواتٍ طوال، ولا تنتهي لصالح المشتكين بالضرورة. في كلِّ الأحوال، يسير بناء السدِّ على قدمٍ وساق.

حصن كيفا [بالتركيَّة: حسن كيف]، مستوطنة ضاربة في القِدَم على نهر دجلة، وكانت تُعرف ذات يوم باسم كاستروم كيفا، أي «حصن الصخرة». سوف تفرق بمجرد أن يرتفع مستوى الماء إلى ستين متراً. وسوف تختفي الجُرف الجيريَّة والكهوف الاصطناعيَّة والمواقع التاريخيَّة غير المستكشفة والأسرار التي لم تُكتشف بعد، كلُّ هذا سوف يختفي تحت بحيرة اصطناعيَّة. هكذا سيُطمس تاريخُ عمره اثنا عشر ألف سنة، بسدِّ سيبقى خمسين سنة لا أكثر، ما يساوي عُمر بغل. لقد فقدت هذه المنطقة بالفعل كثيراً من تراثها، وهي التي شهدت كنائس ومساجد وأديرة ومعابد يهوديَّة وأضرحة. هاجر معظم السكَّان المحليِّين إلى المدن القريبة والبعيدة، فابتلعَتْهم تيارات الحياة المدنيَّة، وانقطعوا عن التقاليد التي كانت تصونهم دوماً. كبار السنّ هم الذين يبقون في العادة، إذ يؤجِّلون رحيلهم إلى آخر لحظةٍ ممكنة. هم أكثر من استصعب أن يفارق ذكرياته.

\* \* \*

يتوقَّف البلدوزر أمام الجمع، لا يبعد عن نارين سوى سنتيمتراتٍ قليلة. يسحب السائق ذو الشارب المتهدِّل ذراع المكبح، ويُخرج رأسه من النافذة.

– «لماذا تتجمَّعون هنا؟ تحرَّكوا! هذه أوامر الحكومة».

فيقول الشيخ: «نحن على وشك أن ننتهي يا أفندي. أمهلنا بضع دقائق من فضلك».

فيسأل الرجل بنظرةٍ ملؤها الريبة: «تنتهون من ماذا؟ ما الذي تفعلونه أصلاً؟».

فيلوي الشيخ شفتيه، إذ لا يريد أن يخبر شخصًا غريبًا بأنهم في مراسم تعميد. يكتفي بالقول: «نحن نعيش هنا».

- «لكنكم لن تبقوا طويلًا. لماذا لم ترحلوا حتى الآن؟ أمرتكم الحكومة بالرحيل إلى المدن. سيمضي المشروع على نحو أسرع من دون وجودكم هنا. أنتم تبطلون عملنا».

فتخطو الجدة خطوةً إلى الأمام وتشبك ذراعَيْها. «يا بني، ألا تستطيع أن تذهب هناك وتحفر؟».

فيردُّ الرجل وقد أزعجه أن تعترض امرأةً طريقه: «لا، لا أستطيع. لقد أعجبني هذا المكان اليوم وسأحفر فيه».

فتلحُ الجدة، وهي تصرُّ على فكِّها في ثبات: «لكنك ستحفر المنطقة بأكملها على أيِّ حال».

- «لن أتحرك من هنا يا امرأة. والأفضل لكم جميعًا أن تغادروا. هيَّا الآن، انصرفوا، وإلا قدِّمتُ بلاغًا بأنكم تعيقون موظفًا حكوميًّا عن أداء عمله. وعندها سترون».

لم ينتظر ردًّا، وأعاد رأسه إلى الداخل. لكنَّه وهو يوشك أن يدير المحرك، همس بصوتٍ خافتٍ جدًا لا يسمعه أحد، لكنَّ نارين التي كانت أقرب الواقفين إليه قرأت شفتيه.

- «الملاعين، عبدة الشيطان القذرون».

وما هي إلا ثانية واحدة حتى امتلأ الجوُّ بهدير البلدوزر، فأحمد صوته ما كان من هدوء.

في لحظة ارتباكٍ تظلُّ المجموعة ثابتةً في موقعها، ينظرون إلى البلدوزر وهو يغرف من الأرض، ويهيل الطمي من ضفاف



دجلة، فيفسد عظام الحيوانات العتيقة والصخور الساكنة التي شهدت آلاف السنين من تاريخ الرافدين. يميل البلدوزر إلى الأمام والخلف، يصطاد درناتٍ من تحت الأرض (كأنما يقتلع أسنانًا هائلة) ويودعها في فمه، ويجتث جذور أشجارٍ صريعةٍ منذ أزمانٍ طويلة.

يقول الشيخ في ذلك الصخب: «لنبتعد قليلًا. لا نريد مشكلات».

يتبعونه في صمت، يسرون متساقلين في صفٍّ واحدٍ عند النهر، باحثين عن بقعةٍ تخفُّ فيها الضوضاء قليلًا.

يشير الشيخ إلى مكانٍ خاليٍ ويقول: «ما رأيكم في هذا المكان؟ يبدو مناسبًا».

يشكلون نصف دائرةٍ مرّةً أخرى، وهم يستشعرون نظرة السائق ملتبهةً عبر النافذة، إذ يتفحص كلَّ حركةٍ من حركاتهم.

فيقول الشيخ وهو عاجزٌ عن إخفاء ارتباكهِ: «الأفضل أن نُسرع». يرفع القنينة بما تبقى فيها من ماءٍ مقدّس، ويواصل من حيث انتهى. «يا طفلي، عسى أن -».

وما إن يتلفّظ الشيخ بهذه الكلمات حتى يتوقّف، ووجهه يزداد شحوبًا. البلدوزر قادمٌ نحوهم، قريبًا جدًّا، يخفض مجرافه ويبدأ في الحفر، فيستحيل على أحدٍ منهم أن يسمع الآخر. مرّةً أخرى، يتعدون.

يقول الشيخ: «للأسف لن يتركنا هذا الرجل في حالنا. إنّه يفعل ذلك متعمّدًا. يريد إخافتنا».

يقول أحدهم: «ما كان ينبغي لنا أن نأتي إلى هنا. من الواضح أنها لم تكن فكرة جيّدة». فهو يرى أنّه يمكن إجراء هذه الطقوس في القرية. لم تكن هناك ضرورة لأن يجروا أنفسهم إلى ضفاف دجلة، إذ لا يستلزم الأمر غمرًا كاملاً في الماء الجاري، كما هو الحال مع المندائيين (أتباع يوحنا المعمدان)، لكنّ جدّة نارين أصرت على أن يكونوا قرب النهر، والجميع يعرف أنّها امرأة عنيدة. يعرفون كلّهم أنّ حفل التعميد (مور كيرين) ينبغي في الوضع المثالي أن يُقام في لالش، المعبد الأقدس في الديانة اليزيدية، وهو معبدٌ يقع في وادٍ هادئٍ تحيط بها تلالٌ متموجةٌ شمال الموصل في العراق. وينبغي لنارين أن تعتمر إكليل زهور، من النرجس والونكة والغاردينية. وعليها أن تشرب من عين زمزم المقدّسة(\*)، ثم تُعمّد في كائنا سبي (العين البيضاء)، وهو المكان الوحيد الذي ظلّ سليماً ونظيفاً حين أرسل الله الطوفان. إذ تشكّل العين دوّامةً مائيّةً على نحو معجز، فلا يختلط ماؤها أبداً بمياه السيول الطينية المتسخة، ويظلّ نقياً إلى الأبد.

غير أنّ الظروف لم تسمح لهم بأخذ الطفلة إلى العراق، إمّا لضيق ذات اليد، وإمّا لأنّ الوقت لم يكن مناسباً. علاوةً على ذلك، فقد بدأت صحّة نارين تتدهور منذ فترة. لذلك عُهد إلى أحد القوالين(\*\*) بقنيّة ماءٍ من وادي لالش المقدّس كي يحضرها إليهم هذا العام. فالتعميد لا بدّ أن يكون في أبكر وقتٍ ممكن،

(\*) وهي غير بئر زمزم المعروفة لدى المسلمين في مكّة المكرمة، تقع في وادي لالش بشمال العراق. (المترجم)

(\*\*) القوال عازفٌ أو منشّدٌ صوفيّ. (المترجم)

لا سيّما للبنات، ولكنّ ليس من الغريب أن يُعمّد الأطفال في سنّ أكبر إن كانوا مرضى أو لا يستطيعون السفر.

يقول الشيخ: «في وسعنا أن نعود لاحقًا. أو نكمل في القرية».

فتقول الجدّة: «أو لعلّها علامة. لم يكن مكتوبًا».

يتغصّن جبين الشيخ، ويقول: «ماذا تقولين؟».

فتهزّ رأسها وتقول: «لعلّه لم يكن مكتوبًا للقطرة الأخيرة أن تسقط. لم يكن الوقت أو المكان مناسبًا».

– «أتودّين تأجيل المراسم يا بسمة؟».

فتجيبه بإيماءة خفيفة. «أجل شيخنا المبجل».

تنتقل رجفة من قلبي بين الجميع.

فيقول أحدهم: «أولا تعلمين أنّ حفيدتك كبرت؟ كان لا بدّ من تعميدها قبل وقتٍ طويل».

ويقول آخر: «وإنّ أجّلت الأمر، حتى ولو لأسبوعين، فقد لا تجدينا هنا في المرّة القادمة. ساء الوضع كثيرًا، ومن يدري من يظلّ هنا بحلول الغد؟».

لقد أثر بناء السدّ على الجميع هنا، من كلّ مذهبٍ ومعتقدٍ وقبيلة. لكنّ الجماعة اليزيدية الضيّلة أضافت إلى حزنها على فقد أرض أجدادها خوفًا من الاضطهاد في الأماكن التي يُفترض أن يذهبوا إليها. الرحيل عن البلاد ليس سهلاً أبدًا، لكنّه يغدو أصعب بكثيرٍ جدًّا حين لا يكون لديك مكانٌ تذهب إليه.

جَعَتْ قَرِيَّتُهُمْ عَلَى مَدَى الْعُقُودِ الْمَاضِيَةِ وَانْكَمَشَتْ، وَتَقَوَّضَتْ  
أَطْرَافُهَا مِثْلَ رِقٍّ مَحْرُوقٍ. رَحَلَ الْكَثِيرُونَ إِلَى أَوْرُوبَا، فَأَصْبَحُوا  
مُهَاجِرِينَ فِي دَوْلٍ يَخْتْفِي فِيهَا رَأْسُ الشَّمْسِ الذَّهَبِيِّ عِدَّةَ أَشْهُرٍ.  
بَعْضُهُمْ يَعُودُ زَائِرًا فِي الصَّيْفِ، يَسَاعِدُ فِي إِصْلَاحِ الْيَنَابِيعِ  
وَالْأَضْرَحَةِ، وَلَكِنْ لَا يَوْجَدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَنْوِي أَنْ يَعُودَ عَوْدًا نَهَائِيًّا.  
لَمْ يَبْقَ فِي الْقَرْيِ وَالنَّجُوعِ الَّتِي عَاشَ فِيهَا أَسْلَافُهُمْ بِأَلْفَافِ ذَاتِ  
يَوْمٍ سِوَى حَفْنَةٍ مِنَ الْيَزِيدِيِّينَ. تَقُولُ الْجَدَّةُ دَائِمًا إِنَّهَا سَتَكُونُ آخِرَ  
مَنْ يَرْحَلُ. فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْجُرَ أَشْجَارَ فَسْتَقِهَا. لَكِنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ  
بِالنَّهْرِ أَكْثَرَ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفَارِقَهُ. كَثِيرًا مَا تَمْشِي إِلَى هَذِهِ  
الضُّفَافِ، تَتَحَسَّرُ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي سَتُغْمَرُ بِالْمِيَاهِ قَرِيبًا، فَيَخْتْفِي  
تَارِيخُ آلَافِ السِّنِينَ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ سَتَكُونُ صَلَاتُهَا الْآخِرَةَ  
لِنَهْرِ دَجْلَةٍ.

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كَانَ هُنَاكَ مَجْتَمَعٌ يَزِيدِيٌّ كَبِيرٌ مُزْدَهَرٌ فِي  
حِصْنٍ كَيْفَا وَمَا حَوْلَهَا، تَرَبَّطَ مَا بَيْنَ أَفْرَادِهِ التَّقَالِيدِ وَالْدِينِ، بِقَدْرِ  
مَا تَرَبَّطَ بَيْنَهُمُ الْحِكَايَاتُ وَالْأَغْنِيَاتُ. وَقَدْ تَنَاقَصَتْ أَعْدَادُهُمْ بِمَرُورِ  
السَّنَوَاتِ، مِنْ أَثَرِ الْحَرَمَانِ وَالْهَجْرَةِ وَتَغْيِيرِ الدِّينِ بِالْقَسْرِ. أَمَّا  
الْيَوْمَ، فَلَمْ يَبْقَ سِوَى اثْنَيْ عَشَرَ شَخْصًا يَزِيدِيًّا فِي قَرِيَّتِهِمْ، وَغَدَا  
سَيَرْحَلُ هَؤُلَاءِ أَيْضًا.

تَقُولُ الْجَدَّةُ بِتَعْبِيرٍ يَمْزِجُ مَا بَيْنَ الشَّدَّةِ وَالْحَنَانِ: «نَارِينَ نَبْضُ  
قَلْبِي، وَنُورُ عَيْنِي. يَعْلَمُ اللَّهُ قَدْرَهَا عِنْدِي. وَلَطَالَمَا أَرَدْتُ أَنْ تُعَمِّدَ  
فِي وَادِي لَالِشِ الْمَقْدَّسِ، لَا هُنَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُحْفَرُ فِيهِ  
الْأَرْضُ، وَيُبْتَلَى نَهْرُ دَجْلَةٍ...»، ثُمَّ تَلَوَّحَ بِيَدِهَا نَحْوَ النَّهْرِ،  
وَتَرَكَ الْجُمْلَةَ هَكَذَا مُعَلَّقَةً فِي الْهَوَاءِ.

يأخذ الشيخ نَفْسًا، ثم يقول: «تريدون أن تأخذوها إلى العراق؟».

- «نعم، شيخنا المبجل. لم نستطع أن نسافر طوال السنوات الماضية. لكنَّ نسيبي تلقَّى دعواتٍ للغناء في ثلاثة أعراسٍ كبيرة في الموصل هذا الصيف. لعلَّه يأخذنا معه. سأكلِّمه، وأعرف رأيه في الأمر. فإنَّ وافق، يمكننا أن نعمِّدها هناك. على أيِّ حال، فأنا ممتنَّة لكم جميعًا على حضوركم اليوم».

تقول الجدَّة هذا وتفتح كيسًا في داخله حلويَّاتٌ ملفوفةٌ في قصديرٍ ملوَّن، توزَّعها على الجميع، شاكرةً إيَّاهم على حضور هذا الطقس المبارك.

- «بارك الله أقدامكم يا جيرانني، وأبعد عن أصابعها الحصى».

فيقول الشيخ وهو يتنَهَّد: «وأنتِ أيضًا، أيتها الروح الحكيمة».

يعانقون نارين، واحدًا تلو الآخر، وعلى الرَّغم من عدم اكتمال التعميد، إلَّا أنَّهم يقدِّمون لها الهدايا: كيس إكليل جبلٍ مجفَّف، وقارورة زيتٍ مقطَّرٍ من فصوص القرنفل، وإناء دهنٍ ورد، وقارورة مربَّى مشمش، وإكليل زهورٍ عطريَّة، وأخيرًا يناولها الشيخ القنينة القادمة من وادي لالش، فتضعها بحرصٍ في جيبيها الأماميِّ إذ تعرف قيمتها الكبيرة.

يقول أحدهم: «من الأفضل لنا أن ننتقل إذن». قريتهم ليست بعيدة، لكنَّ حرارة الظهيرة، التي أصبحت أقوى الآن، قد تبطِّئ من سيرهم.

تقول الجدّة: «سيروا أمامنا. سنلحق بكم»، ولا يستغرب أحدُ كلامها. فكلُّهم يعرفون أنَّ بسمّة تحبُّ البقاء عند دجلة، ولا تفوّت فرصةً لقضاء وقتٍ عند النهر، وكأنَّ قوّة خفيّةً تجذبها نحو تيّار الماء. وكلّما زارت هذا المكان أخذت نارين معها، تعلّمها أسماء النباتات المحليّة، واستخداماتها في الدواء والطبخ. تجمعان معاً صمغ الشجر، إذ تضعانه على الصواني والطاسات الخشبيّة لتلميعها. تبحثان عن جذور، وأوراق، ولحاءٍ يمكن استخدامه صبغاً.

يقول الشيخ: «سنأخذ الهدايا لمنزلك، حتى نخفّف عن أياديكما. أوصيكما بالحدّز، ولا تتأخّران».

- «سنكون بخير يا شيخنا المبجل، لا تقلق. لعلّي أعلم نارين كيف تجمع نبات ذيل القط. هذا موسمه».

تميل امرأةٌ عليها، وقد تحوّل صوتها إلى همس: «بسمّة، عزيزتي، هل أنتِ واثقةٌ من أنّكِ تريدين الذهاب إلى العراق؟ أنتِ امرأةٌ كبيرة، ونارين ليست على ما يرام، المسكينة... والطرق غير آمنةٍ كما سمعت».

فتقول الجدّة بملامح من تعرف ما تقول: «نعم، ولكن متى كانت آمنةٌ يا تُرى؟ لا نذكر أنّها أصبحت آمنةً في حياتنا. ومتى انتهت مشكلات الرافدين؟ لم يكن هناك وقتٌ مناسبٌ للسفر قطّ. ألا تظنّين أنّه ينبغي للطفلة أن تعيش تجربة الوادي المقدّس وهي ما تزال قادرةً على ذلك؟».

وُلدت نارين طفلةً هادئةً سليمة البدن. وبما أنّها لم تكن تعي بعدُ أنّها يتيمة الأمّ، فقد أقبلت على الحياة بفضولٍ وشهيّة اكتشافٍ

لا حدود لهما. نشأت الطفلة على حليب الماعز والزبادي ووصفات الأعشاب، وكانت تلتقط الخرزات المتدلّية فوق مهدها، إذ عُلقَت هناك لطرْد الأرواح الشرّيرة، وتضحك حين يداعبها أبوها بتعابير وجهٍ مضحكة، ولمّا كبرت أصبحت تطارد الدجاج في الفناء، أو تقفز بمرح فوق قنوات الريّ. لكنّ المرض الذي أصابها قبل أن تبدأ المدرسة كان يتطوّر بسرعة، ومنذ العام الماضي صار عالمها السمعيّ يتراجع خلف أزيز ورنين يأتيان على فتراتٍ في أذنيها. من الواضح أنّ سمعها يتلاشى. سيكون الانتقال من الأصوات إلى الصمت بطيئًا، متدرّجًا، لكنّه انتقالٌ لا رجعة فيه.

قال لهم الطبيب الذي زاروه في مستشفى الجامعة بديار بكر إنّ عليهم تجهيز أنفسهم لما سيأتي. فعَمَّا قريب، في غضون ثمانية أشهرٍ تقريبًا، ستصبح نارين صمّاء تمامًا. هو مرضٌ وراثيّ نادر. في بادئ الأمر، ستفقد قدرتها على رصد الأصوات ذات التردّد العالي. وبُعيد ذلك، ستجد مشقّةً في فهم الكلام حين يتحدث عدّة أشخاص في الوقت نفسه. ولن يحدث الأمر هذا دفعةً واحدة، بل مؤلّمًا شيئًا فشيئًا. سيتضاءل سمعُها من هوامشه الخارجيّة، مثل ستارٍ ينغلق على المشهد الأخير في مسرحيّة. وذات يوم ليس ببعيد، ستصحو نارين فتكتشف أنّ جوقة الطيور الصباحيّة قد صمتت، من قرقفٍ طويل الذيل، وقبرةٍ متوجّة، وسنونوّ مخازن، ودُعرةٍ بيضاء. عندها لن تستطيع أن تسمع صرخة رضيع، أو صفير قطارٍ يتراجع في البعيد، ولا ثغاء حَمَلٍ وليد. لن تسمع بعد ذلك سوى الأصوات التي ظلّت في ذاكرتها.

لذلك ترى الجدّة أنّه قبل مجيء ذلك اليوم ينبغي للصبيّة أن

تسمع الطيور، والوشوشات والصلوات في الوادي المقدس في  
لالش، للمرة الأولى والأخيرة. ينبغي لها أن تنظر إلى ذلك  
المكان الوحيد الذي يتحوّل فيه اليأس إلى أمل، وتجد فيه  
الأنفس الوحيدة سلواها.

\*\*\*

بعد أن يغادر الآخرون، تمشي العجوز مع الصبيّة عند النهر،  
ولكلّ واحدةٍ منهما ظلٌّ يتبعها إلى جانبها. تعبران أجماثٍ من  
نبات السعادي الشائك، تتخيّران طريقهما عبر أحراج القصب  
والأسل. وفي السكنات بين إيقاع خطوهما، تسمعان نقيق  
الضفادع وطين الحشرات. تتوقّفان كثيرًا بين الفترة والأخرى،  
لتفحص النبات. فهناك تنوعٌ كبيرٌ من الخضرة في هذه التربة  
الرسوبيّة الغنيّة. تُمسك الجذّة بأصابع نارين، تعلّمها كيف تتعرّف  
على النباتات باللمس وحده، فتدرك نارين أنّ الأوراق أشياء  
معقّدة. منها ما له ملمسٌ جلديّ وعروقٌ غائرة، ومنها ملساء  
شمعيّة، وأخرى يغطّيها زغبٌ ناعم، كمراهقٍ يعبث بشاربٍ خطّ  
قبل وقتٍ قريب.

- «جدّتي؟».

- «هم؟».

- «حين أصبح صمّاء، هل سأنسى صوتك؟».

- «كيف تنسينه يا ابنتي؟ الأذن لا تنسى أبدًا ما يسمعه  
القلب».

- «لم أفهم المعنى».

«يعني أنّ صوتي سيبقى معك دائمًا، حتى بعد رحيلي. لأنني



مطبوعةٌ هنا... وهنا...» وتلمس صدغيها، ثم تُكمل: «هذا ما يحدث حين تحيِّين شخصًا؛ تحملين وجهه بين أجفانك، وهمساته في أذنيك، فيمكنك أن تريه وتسمعه بعد سنواتٍ طويلة، حتى في أحلامك حين تنامين».

تُميل نارين رأسها وتفكر. هي فكرةٌ مُطمئنة، رغم أنَّها محيرةٌ بعض الشيء، لكنَّها بحلول هذا الوقت لم يعد لديها شكٌّ في أنَّ جدَّتها دائمًا ما تقول أشياءً محيرةً على نحوٍ مدهش. هكذا، في لحظةٍ سلام، لا تطول أكثر من نفسٍ واحد، تنسى كلَّ ما كان يقلقها، وتظلُّ معلقةً في دفء حنانِ جدَّتها. ثم تنقضي اللحظة، وتقول الصبيَّة: «سائق البلدوزر... إنسانٌ غير خير».

- «نعم، ليس خيرًا يا قلبي».

- «لقد وصفنا بكلمةٍ قبيحة».

تحدِّق الجدَّة في الصبيَّة، حائرة. تعضُّ نارين شفتها السفلى، كما تفعل دائمًا حين ترتبك أو يساورها القلق.

- «عمَّ تتحدَّثين يا ابنتي؟».

- «لقد قال إنَّنا عبدة الشيطان».

فيعبر طيفٌ على وجه العجوز. «لا تنطقي بهذه الكلمة».

- «ولكنَّ لماذا قالها؟».

- «لعلَّه قصد شيئًا آخر».

فتهزُّ الصبيَّة رأسها. «لا، لا أعتقد. وهذه ليست المرَّة الأولى. حدث هذا في المستشفى أيضًا. حين كان بابا يتحدث إلى الطبيب، طلبوا منِّي أن أنتظر في الممرِّ. فجاء عامل نظافةٍ

يمشي من جانبي، وقال: ما الذي جاء بهؤلاء القذرين الساقطين عبدة الشيطان إلى هنا؟ كان يتحدث عنّا.

صوت طائر سمّانٍ في الشجيرات، يسقسق وحيدًا في تابع. وحين يصمت، تسألها الجدّة: «هل أخبرتِ أباك؟».

تشبك نارين يديها فوق حجرها وتقول: «لا، لم أرغب في أن أحزنه. لماذا يقول الناس هذا عنّا؟».

- «اسمعي يا روعي، هناك من يقول أشياء خاطئة عنّا. يتفوّهون بالأكاذيب الخبيثة والبهتان الأليم. لا يحقّ لهم ذلك طبعًا، لكنّهم يفعلون على أيّ حال. وافترأؤهم هذا ليس لأنّهم يعرفون حقيقتنا، بل على العكس تمامًا؛ فهم لا يعرفوننا على الإطلاق».

- «لكنّ هذا غير مفهوم؛ فكيف لي أن أقول أشياء فظيعة عن أناسٍ لا أعرفهم!».

- «بالطبع لا تفعلين ذلك. لأنّك حكيمة».

لا ترضيها هذه الإجابة. فهي لا تريد أن تكون حكيمة، بل تريد أن تفهم ما يدفع الناس إلى فعل ذلك، وما إذا كان من الممكن أن يتغيّروا.

تشرع الجدّة بخيبة أمل نارين، فتفتح كيسًا آخر في داخله أقراص خبزٍ ملفوفةٌ في قماشٍ كي تبقى ساخنة، وكلُّ قرصٍ محشوّ بجبنٍ مخلوطٍ بأعشاب، مع مسحةٍ من زبدة حليب الخراف. هذا ما تجهّزه الجدّة كلّ صباح في أوّل الفجر، وهي جالسةٌ على مقعدٍ في الفناء. تربّت على العجين فتقسمه إلى قطع دائريّة، ثم تضربها في سطح التّور، وتخبزها إلى أن تنتفخ وتصبح مقرمشة. تعلم

الجدّة أنّ نارين تحبّها جدّا.

- «كلي يا نارين. حين تخفّ المعدة، يثقل القلب».

تقضم الصبيّة خبزتها، فيمتزج طعم الزبدة والأعشاب على لسانها.

وبينما هي تمضغ ببطء، تقول: «لكنّي لا أفهم -».

- «الدنيا مدرسة وما نحن إلّا تلاميذ فيها، وكلّ منّا يدرس شيئاً وهو يمضي. بعض الناس يتعلّمون الحبّ والطيبة، وآخرون يتعلّمون الإساءة والوحشيّة، للأسف. لكنّ أنجب التلاميذ هم أولئك الذين يتعلّمون الكرم والرحمة ممّا يرونه من صعوبات وقسوة. أولئك الذين لا يفرّغون معاناتهم في الآخرين. وما تتعلّمينه هو الذي يرافقك إلى قبرك».

- «لماذا كلّ هذه الكراهية ضدّنا؟».

- «الكراهية سمّ يُقدّم في ثلاثة أكواب. أمّا الأوّل فيكون حين يحتقر المرء شخصاً يرغب فيه، لأنّه يريد أن يمتلكه. فالمسألة كبرياء ليس إلّا! وأمّا الثاني فيكون حين يبغض المرء شخصاً لا يفهمه. والمسألة خوف ليس إلّا! وهناك النوع الثالث، حين يكره المرء من آذاه».

- «ولكنّ لماذا؟».

- «لأنّ الشجرة تتذكّر ما ينساه الفأس».

- «ما معنى ذلك؟».

- «معناه أنّ من يحتمل الندوب هو الشخص الذي وقع عليه الأذى، وليس من أوقعه. فنحن لا شيء لدينا سوى الذاكرة. إن أردت أن تعرفي من أنت، عليك أن تعرفي حكايات أسلافك».

فمنذ قديم الزمان، أخطأ الناس في فهم اليزيديين، وافتروا عليهم، وأساؤوا معاملتهم. تاريخنا ليس إلّا تاريخ ألم واضطهاد. دُبِّحنا اثنتَيْن وسبعين مرّة. تلوّن نهر دجلة بدمنا، وجفّت التربة من نوازلنا، وما شعبوا بعدُ من كرهنا».

تمدّ نارين يدها إلى جيبها، وتخرج قنيّة الماء المقدّس من وادي لالش. ترفع القنيّة تحت الشمس، فتستشعر لمسة الضياء المنعكس على سطحها. ثم تقلبها، وتنتظر سقوط القطرة الأخيرة. الماء في شكله السائل. لا تعلم نارين أنّ تلك القطرة كانت ندفة ثلج ذات يوم، في بلادٍ بعيدة. مرّت تلکم القطرة في المدينة التي كانت آنذاك أكبر المدن وأغناها على الأرض، بمداخنها التي تتجشّأ سُحُبًا من الدخان والكبريت. وشهدت مولد صبيّ، وقوّة نهرٍ آخر. وعلى الرّغم من أنّها قطرةٌ زائلة، فإنّها تحمل في داخلها ذكريات ما تقدّم لها من حيوات. تحطّ القطرة في لطفٍ على يد الصبيّة، وهي تختلج.

تحمل نارين القطرة في راحتها، وكأنّها لؤلؤة ثمينة، فتشعر بموجة حزنٍ تحطّ عليها. يبدو لها أنّ كلّ شيءٍ يسير إلى نهايته. عمّا قريبٍ سيغمر الماء حصن كيفا بسبب السدّ الجديد. ولن يعود بمستطاعها أن تجمع الأعشاب والجذور مع جدّتها. وذات يوم، سيخفي سمعها أيضًا، شأنه شأن الأرض التي كانت دائمًا وطنًا لها.

تصمت الطفلة، وتصمت العجوز. وإلى جوارهما يتدفّق النهر، سريعًا غاضبًا، يقلّب الحصى مثل أحجار نرد.

-O-

آرثر

بجوار نهر التيمز، 1852

الملك آرثر صاحبُ المجاري والعشوائيات طفلٌ عجيب، ولكنْ سينقضي وقتٌ طويلٌ قبل أن يجد اهتمامًا كبيرًا من أحد. فحين بلغ الخامسة من عمره، بات يعرف اسم كلِّ شخصٍ يعيش في شارعهم، وسنّه، ومرضه، بل يمكنه أن يقلّد لهجته وحركاته بإتقانٍ مدهش. وفي الخريف التالي، أدهشَ أمّه حين تحدّث باليديشيّة، بعد أن التقطها من الاستماع إلى أسرةٍ يهوديّةٍ روسيّةٍ انتقلت إلى بنائتهم. وفي سنِّ السابعة، صار يُلقِي نظرةً على أوراق لعبٍ مخلوطةٍ على طاولةٍ مقامرة، فيحفظ ترتيب الأوراق ويكرّرها من دون تردّد. وفي سنِّ الثامنة، استطاع أن يرسم بعينين

مغمضتين تصويرًا دقيقًا للحَيِّ بأكمله، بما فيه الأزقة المعتمة والممرات الضيقة التي سكنها المزيد من المهاجرين. فلمَّا بلغ التاسعة، ألحقته بضع نساء محترمات من «جمعية الفقراء غير المتعلمين» بمدرسة، إذ زُرْنَ العشوائيات بحثًا عن أطفالٍ مساكين.

المدرسةُ مبنى باهتٌ من الطوب الأحمر، به برج ساعةٍ طويل، محاطٌ بسورٍ حديقةٍ شاهق، ومفصولٌ عن بقية أرجاء المدينة ببوابتين من حديدٍ مشغول، تَصِرَّان مع ألطف نسمةٍ تهب. تأسست هذه المدرسة قبل بضع سنوات، لتقديم تعليمٍ مجانيٍّ لأشدَّ الفقراء فقرًا، وقد وُضعت لوحةٌ نحاسيةٌ في مدخلها جاء فيها:

مدرسةُ فقراءٍ للأولاد

ومنزُلٌ للفتيات العاملات

التلاميذ مجموعةٌ مختلطة. أطفالٌ مُعدَمون ومحرومون لا فرصة لديهم في الحصول على تعليمٍ في مكانٍ آخر. وهم من أعمارٍ ومستوياتٍ متنوّعة، لكنَّهم ينحدرون من خلفياتٍ متشابهة. فهم أبناء وبنات فقراء ومساجين ومدمنين ولصوصٍ وقتلةٍ ومطاردين ومتسوّلين ومزوّرين ومحتالين وقوَّادين وقوَّادات وعاهرات، وما إلى ذلك. ومن بينهم أيتامٌ أو شبه أيتام، تخلَّى أهلهم عنهم. بعضهم تشوّه جسده وتقرّض نموّه من سوء التغذية. وآخرون لديهم جروحٌ وقروحٌ متقيحةٌ ستترك ندوبًا دائمة. أقرانهم في المدارس الخاصّة يرتدون زيًّا أنيقًا: للبنات فساتين ومريلات، وللأولاد أحذيةٌ وصدريّاتٌ ومعاطف مفضّلةٌ على مقاسهم. أمّا

التلاميذ هنا فيلبسون الجاهز والرخيص، وأغلبه محض أسمال. كثيرٌ من هؤلاء الأطفال يلتحقون بالمدرسة بضعة أيّام لا أكثر، لكنّ البعض منهم يستمرّون، فهذا في كلّ الأحوال أفضل من البقاء في الشارع. الفصول الدراسية عاريةٌ ومعرّضةٌ لتيّارات الهواء، لكنّها ليست شديدة البرودة، ولا خطرةٌ كالعالم الذي ينتظرهم في الخارج. إلى جانب هذا، فهناك وجبةٌ تُقدّم لهم مرّةً في اليوم. لن يضرّهم أن يدرسوا الكتاب المقدّس في مقابل الحصول على صحن عصيدة. كما أنّهم يدرسون ثلاث مهاراتٍ أخرى: القراءة والكتابة والحساب. في هذا المكان الكئيب إذن يدرس آرثر ستّة أيّامٍ في الأسبوع، مع أربعمئة وخمسةٍ وعشرين طفلًا آخر.

لا يبدو من النظرة الأولى شيءٌ لافتٌ في هذا الصبيّ؛ إذ لا يختلف كثيرًا عن التلاميذ الآخرين، لكنّه أهدأ منهم، وربما أكثر خجلًا. وهو حالمٌ جدًّا، شارد الذهن، ليس من ذلك النوع الذي قد يتحلّق الآخرون حوله. سوف يبلغ في هذا الشهر عامه الثاني عشر، رغم أنّ الجميع يفترض أنّه أصغر من ذلك. نحيل البدن، رشيق، له جبهةٌ عريضة، وأذنان نافرتان، وحاجبان غليظان على عينيّ زرقاوين سماويّتين، تبدوان خضراوين تحت بعض الأضواء. شفتاه متشققتان، تتقشّران مثل صيغ قديم، وشعره بلون كعكة الشوكولاتة، تلك التي سمع إطراء الناس عليها لكنّه لم يذوقها قطّ.

وفي هذا اليوم الكئيب من أواخر تشرين الثاني /نوفمبر، كان آرثر يهرع إلى المدرسة بعد أن فاتته الحصّة الصباحيّة، ينطلق أمام

المحال الصغيرة بلافتاتها المميّزة. ليس في حاجةٍ إلى النظر إليها كي يعرف موقعها، إذ يمكنه وهو مغمض العينين أن يتذكّر كلّ شارع تمشّى فيه. يتذكّر كلّ خبّاز، وجزّار، وجبّان، وزجاج، وطوّاء قبّعات، ونحّات زبدة، وشمّاع شحم<sup>(\*)</sup>، وصانع دمي، وحلوانيّ مشى من أمامه لكنّه لم يستطع أن يشتري شيئاً منه. لكنّه وهو يقطع الطريق الآن، يتنحّى مبتعداً عن عربة «حنطور» قادمة، وعقله مزدحمٌ بأفكارٍ أخرى. يساوره القلق حول أمّه، فأرابعاً ليست على ما يرام، مرّةً أخرى. يقول الناس إنّ علّةً أصابت رأسها، فهي عواطف مفرطة تُجهد أعصابها الضعيفة (وهذه حالةٌ أنثويّةٌ معتادة). لكنّ آرثر يعتقد أنّها سوف تُشفى إذا ما ابتعدت عن الجوع والبرد والفقر المستدام. ستصبح سعيدة. في الليلة الماضية، قضت ساعاتٍ تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً، وهي تتمتم لنفسها بشيءٍ غير مفهوم إذ جافاها النوم، ولذلك لم تستطع الأسرة الأخرى التي تشاركهم الغرفة أن تنام أيضاً. وما يخشاه آرثر هو أن يستمرّ هذا الحال، فيجدون أنفسهم عمّا قريب بلا مأوى، هو ووالدته وشقيقاه التوأمان الصغيران. أمّا أبوه، فيأتي ويذهب كما يشاء، لكنّه في أغلب الأحوال يذهب.

أخذ الصبيّ نفساً، وهو يرفع ياقته ويفرك يديه، لكنّ هذا لا يفيد. الريح تخترق ملابسه المهترئة، وتقرّس عظامه. لا يزعجه

---

(\*) طوّاء القبّعات (hat-binder) هو الشخص الذي يعمل على تهذيب قماش القبّعة فيطويها من المكان المناسب. ونحّات الزبدة (butter-carver) هو الشخص الذي يصنع أشكالاً منحوتةً من الزبدة لتزيين المأدبات أو المعارض. وشمّاع الشحم (tallow-chandler) هو من يصنع الشموع من الشحم. (المترجم)



البرد بقدر ما يزعجه الجوع. فالجوع خلية نحل داخل جوفه أثارها شخصٌ بعصا، فصارت تنزُّ ليل نهار، مستثارة، هائجة. يخطر له أنَّ النحل يحتاج إلى إلهاء، إلى شيء يشغله ويبعد أذاه، فيلجأ إلى الرياضيات، إذ كلما ساوره القلق، عالجه بعمليات الجمع والضرب في عقله. يُلقى نظرةً على سيِّدةٍ تحمل مظلةً تنزّه في الحديقة، أو سيِّداً يعتمر قُبعةً ويجري في الساحة، فيكلّف نفسه بحساب الكشكشات على تنوّرتها، أو عدد الخطوط التي تزيّن معطفه. للأعداد موثوقيّةٌ ثابتة، تُريحه وتُنسيه الوحز في بطنه.

فلما سمع آرثر فرقة السوط، نكّص على نحوٍ غريزيّ. لا بدّ من الحذر الشديد في الشوارع الرئيسة المزدحمة. ففي الشتاء الماضي، في هذا المكان نفسه سحقتُ عربيّةً «حنطور» رجلاً وأردته قتيلاً. تعرّض الحصانان في ثلم في الشارع، فجراً العربيّة في ميلةٍ كاملةٍ وهما ينقضّان على بشرٍ من لحم ودم. وما إنْ يتفكّر الصبيّ في ذلك اليوم حتى تخطر كلمة «حادّث» في عقله، فتترك مذاقاً غريباً في فمه. دائماً ما تأتيه الكلمات بنكهاتٍ مميّزة. فكلمة «حادّث» لها نكهة اللحم، مثل شحم يحترق وسجقٍ بائت، تلك اللفائف الغامضة التي لا يعرف أحداً ما بداخلها<sup>(\*)</sup>. أمّا كلمة «مدرسة» فلها نكهةٌ لاذعةٌ تبقى على اللسان، أشبه بطعم الحذاء القديم إذا لعقته. وأمّا كلمة «أمّ» فلها نكهة الزبدة، دافئةٌ وحلوة، مع شيءٍ من الحموضة يذكرّ بفطيرة التفّاح حين تحمض. ظلّ آرثر سنواتٍ يفترض أنّ هذا يحدث للجميع، أنّ الآخرين أيضاً

(\*) في الأصل (bags of mystery)، وهو وصفٌ عامّيٌّ ساخرٌ كان يُطلق على السجق كنايةً عن غموض المقادير التي يُصنع منها. (المترجم)

يستشعرون هذه الارتباطات، ثم أدرك خطأ افتراضه. ومنذ ذلك الحين حرص على ألا يذكر الأمر لأحد. ولأنه صبيٌّ هادئٌ بطبعه، هناك أشياء كثيرةٌ يحتفظ بها لنفسه.

\*

يصل آرثر إلى بوابة المدرسة وقد تجاوز الوقت الحادية عشرة. يرجو ألا يغضب منه معلّمه السيّد هويكن، فأرثر تلميذٌ نجيب. هو الأفضل في مرحلته الدراسية إن شئنا الصدق. فهو أوّل من ينهي الواجب مهما كانت صعوبة المادّة، في صفٍّ يتراوح عدد طلابه ما بين السبعين إلى الثمانية والثمانين، حسب الموسم. ولفرط سرعته في الاستيعاب، اختاره المعلّم كي يكون معاونه الرئيس. هناك عدّة أولادٍ آخرين عيّنهم لمساعدة آرثر، ويُطلَق عليهم كلّهم اسم «المراقبين». فلكي يستطيع السيّد هويكن تدريس هذا العدد الكبير، كثيرًا ما يستدعيهم إلى السبورة كي يدرسوا كلّ تمرينٍ جديد، ثم يعودوا إلى مقاعدهم ويعلمّوا زملاءهم. وكلُّ واحدٍ من هؤلاء مسؤولٌ عن مجموعةٍ من حوالي عشرة تلاميذ. دائمًا ما يبذل آرثر قصارى جهده في مساعدة التلاميذ الضعفاء، لا لكي يخفّف عن المعلّم فحسب، بل لأنّه صادقٌ في حبه لمساعدة الآخرين. وقد خطر لآرثر غير مرّة أنّ السيّد هويكن مولعٌ به، رغم أنّ الرجل لم يقل هذا قطّ.

وبينما الصبيّ يعبر ساحة المدرسة، يبطن من خطواته. فالجريُّ في حرم المدرسة ممنوعٌ منعًا باتًا، شأنه شأن القفز والتصفير والدندن والغناء والشتم والعبوس والتجهم. يحاذر آرثر من إصدار أيّ إزعاج، فيدخل المبنى ويصعد السلالم، يقبض

على «الدرازين» الذي نخره الدود، فغدا متشققًا باهت اللون في بعض أجزائه. فصلُّه الدراسيُّ يقع في نهاية الممرِّ الطويل شبه المعتم. الباب مغلق، ومن الداخل يتناهى إليه صوتُ ذكوريّ، ثخينٌ أجشّ، وغير مألوف.

يقرع الباب، ينتظر قدرَ نبضة، ثم يدخل. في الداخل رجلٌ عريض المنكبين يقف عند السُّبُورة، يخاطب التلاميذ، ظهره إلى الباب. يشعر آرثر ببطنه كأنَّما تسقط من مكانها. فهذا ليس السيّد هويكن. شخصٌ لم يره من قبل.

يرتكب الصبيُّ خطأً آنذاك؛ فعوضًا عن أن يمشي إلى المعلّم الجديد ويعتذر عن تأخيره، يحاول أن ينسلّ إلى مقعدٍ فارغ، راجيًا ألا يلفت الانتباه إليه.

فيدور الرجل على كعبه، ويقول عابسًا: «انظروا إلى من يتسلّل خفية».

فيقول آرثر وقد احمرَّ خجلًا: «أرجو المعذرة، سيّدي».

– «لماذا تأخّرت؟ نوّرنا».

– «والدتي لم تكن على ما يرام، سيّدي. كان عليّ أن أبقى في البيت وأرعاها».

– «لا حاجة إلى هذه الألاعيب. هل تظنّني أصدّق هذا الكذب البائس؟».

يرمش آرثر ويقول: «لستُ أكذب يا سيّدي».

– «كفى، واصمت. سأتغاضى هذه المرّة. وأحذّرك أن تعيدها مرّةً أخرى».

يعود آرثر بظهره إلى مقعده، في غير تصديق، ورنينٌ حادٌ يملأ أذنيه. يعلم جيّدًا أنّ كلماته التي قالها بصدقٍ واقتناعٍ لا تحيد عن الحقيقة، فلماذا لا يصدّقه المعلّم؟

وعلى مدى الساعة التالية، يرّد التلاميذ المسائل المكتوبة على السبّورة، فينشدون الجمل مرّةً بعد مرّةٍ في صوتٍ واحد، مثل صندوق موسيقى يمحض اللحن القديم نفسه، إلى أن يخفت تمامًا.

في البنس الواحد أربعة أرباع، وفي الشلن الواحد اثنان وعشرون بنسًا، وفي الجنيه الواحد عشرون شلنًا...

ثم يُطلب من التلاميذ أن يكتبوا ما يرّدّدونه بعضًا على لوح رمل. ينتظر آرثر دوره، متمنّيًا لو أنّ لديه قلم ريشة بدلًا من لوح الرمل. كان قد رأى واحدًا في نافذة محلّ في الشارع الرئيس، بريشة ناعمة جدًّا وبرّاقة جدًّا، حتى إنّها ما تزال تشي بالطائر الذي جاءت منه. يروقه هذا الخاطر، فينتهي من التمرين، ويسوّي الرمل، ثم يمرّر اللوح إلى زميله.

يصفّق المعلّم ويقول: «حسنٌ إذن. والآن استمعوا إليّ جيّدًا لأنني لن أعيد. ترك رجلٌ ميرانًا كبيرًا لأبنائه الأربعة. حصل الأكبر على (488) جنيهاً و(5) شلنات أكثر من الابن الأصغر. وحصل الابنان الأوسطان على (300) جنيه و(10) شلنات. أمّا الثالث فحصل على (60) جنيهاً أكثر من الذي يليه، وهو الذي حصل على ربع ما كان للابن الأكبر. احسب مجموع ما أورثه

هذا الأب الطيّب لأبنائه».

يثنّ كثيرٌ من هؤلاء التلاميذ وهم يشرعون في حساب ثروة لم ولن يعرفوا مثلها في حياتهم أبدًا؛ فهم في فقرٍ مدقع، معرّضون للسع الصقيع جرّاء نومهم في مساكن رخيصة.

«يبدو أنّ الأمر صعبٌ عليكم. من الواضح أنّ التعليم الذي تحصّلتُم عليه سابقًا لم يثمر شيئًا كثيرًا، صحيح؟». يخطّ المعلمُ عددًا على السبّورة، ثم يضع حوله دائرةً مزخرفة. «هذه هي الإجابة التي يجب أن تصلوا إليها. ساعدتكم بما يكفي، والآن أكملوا العمل!».

يتملّص الأطفال في مقاعدهم. أولئك الذين يمسكون بالواح الرمل يشخبطون عليها، يتظاهرون بحلّ المسألة، بينما الآخرون ينظرون نظرةً فارغةً إلى السقف، راجين ألا يُنادى عليهم. في أثناء ذلك يجلس آرثر ساكنًا، يحدّق في العدد المكتوب على السبّورة. تتلوّى الأرقام وتهتزُّ أمامه، تخرج أجسامها الصغيرة مثل سمكٍ عالقي في شبكة. تبدو الأرقام كئيبةً في تجاورها. وفجأةً يُدرك الصبيُّ في رعبٍ أنّ المعلمَ أخطأ في الحساب.

يعلم آرثر أنّه لا بدّ أن يُمسك لسانه. لكنّه متعب، محرومٌ من النوم. في أنفاسه رائحة الجوع، وفي يديه رائحة اللودانيوم الذي ظلّت والدته تتناوله منذ مولده. يحاول أن يشغل نفسه بتفحّص كلّ شيءٍ حوله، رغم أنّه لا يوجد كثيرٌ ممّا يمكن استكشافه. ثمّة خارطةٌ للعالم مهترئة الأطراف، معلّقة على مسمارٍ أعوج. إلى جانبها عُلقَ معدّاد، مدّهن الخرزات لكثرة الأصابع

التي لمستها. وهناك قُبعة عقابٍ مَتَسَخَةٌ رَثَّةٌ ومدبَّبةٌ في الزاوية المقابلة، يُجَبَّرُ الأطفال المتأخرون في تحصيلهم على ارتدائها. فهي مجرد رمزٍ يجلب الخزي والسخرية. يتبرَّم آرثر أكثر فأكثر، فينظر إلى النوافذ التي تتقاطر منها أشعة الضوء. وقد شُقَّت النوافذ في مكانٍ عالٍ حتى لا يتسَنَّى لأيِّ عابرٍ أن يرى داخل الصفوف، والأهمُّ من ذلك حتى لا يرى التلاميذ ما يوجد في الخارج.

«حسن، انتهى وقتكم. هل توصَّلتُم جميعًا إلى الإجابة التي كتبتها لكم؟». يومئ المراقبون، في انتظار المديح، ما عدا واحدًا.

يُخَفِّض آرثر رأسه. إن استطاع أن يلزم الصمت كي تمرَّ هذه اللحظة، فسوف يأتي لاحقًا معلِّمٌ آخر ويعلمهم. سيتعلَّمون شيئًا من النجارة. يمكنه أن ينحت طائرًا من غصنٍ رفيع، وكم يعشق الطريقة التي يتَّخذ بها الخشب شكلًا جديدًا بين يديه، رغم أنَّه لا يرغب في أن يتبع خطى والده. كلاً، لن يصبح نجَّارًا. يريد لنفسه طريقًا آخر، لكنَّه لا يعرفه بعد.

كم يتمنَّى لو كان في قسم البنات الآن؛ إذ يبدو له أنَّ البنات يدرسن أشياء أكثر فائدة ممَّا يدرسه الأولاد. كيف نصلح فستانًا رُتِقَ مرَّاتٍ كثيرة، وكيف نعدُّ وجبةً باستخدام القليل من المال، وكيف نمنع تخثُّر الحليب، وكيف نزن السكَّر، ونقيس الطحين، وما البدائل التي نستخدمها حين لا يتوفَّر الطحين والسكَّر؟ ليته يتعلَّم تلك الأشياء، لكنَّه هنا يعضُّ على شفته السفلى كي لا يزلَّ لسانه بحلِّ المسألة الحسابية التي وضعها رجلٌ كئيب.

- «حسنُ أيُّها المراقبون. قفوا. عليكم الآن أن توضّحوا لهؤلاء البلداء كيف تتوصّلون إلى الإجابة التي أعطيتكم إيّاها».

فيتمتّ آرثر بينه وبين نفسه: «غير ممكن».

تلتفت الرؤوس كلّها نحوه، فيشحب وجهه من الرعب بعد أن خرجت الفكرة من لسانه بصوتٍ يسمعه الجميع.

- «من الذي قال ذلك؟».

يخيّم الصمتُ على الفصل، صمتٌ مفاجئٌ لا يُستردّ، مثل حجرٍ يُلقى في بئر. أمّا التلاميذ الجالسون في المقدّمة فيشيرون بأصابعهم إلى آرثر. لا يفوّتون فرصةً للوشاية.

يخطو المعلّم خطوةً إلى الأمام. «ماذا قلت؟».

يقف آرثر وهو يرتعش شيئًا قليلًا. «كنتُ أحسب الأرقام في عقلي فحسب، سيّدي».

- «لكنّ الحساب لم يكن في عقلك، أليس كذلك؟ وإلاّ ما كنّا سمعناه».

- «بلى، سيّدي».

يمكنه أن يجلس الآن، يمكنه أن يمنع عن نفسه الخطر بشيءٍ من الحظّ وإبداء الندم. ما تزال الفرصة قائمة. لكنّ عينيه تنصرفان إلى السبّورة. تلك الأرقام الموضوعة في دائرة، عالقةٌ في خطأ، وتبدو بائسة، تستنجد كي توضع في المكان الصحيح.

- «لكنّ الإجابة المكتوبة على السبّورة خاطئة، سيّدي».

يبدو على وجه المعلّم تعبيرٌ صدمةٍ محض. فليس ثمة غضبٌ

أو انزعاجٌ فيه... ليس بعد. يظلُّ ساكنًا لحظةً طويلة، وعيناه جاحظتان.

- «أتهزأ بي يا ولد؟».

يغْطِي الأولاد الجالسون في الأمام أفواههم، كي يمنعوا أنفسهم من الضحك. أمّا أولئك الجالسون في الخلف فتَنسَلُّ منهم ضحكةٌ خافتة.

فيقول آرثر ونبضات قلبه تتسارع: «كَلَّا، سيّدي. لا يمكن أن أفعل شيئًا كهذا. إنّما صَحَّحْتُ خطأك فحسب».

يموجُ الفصلُ كُلُّه بضحكةٍ مرتبكة.

فيقول المعلّم وعيناه تضيقان عند الكلمة الأخيرة: «أيّها الخسيس الصفيق عديم الحياء! ستأتي معي الآن إلى الناظر. الآن!».

يرتعش آرثر كأنّما مسَّته ريحٌ ثلجيّة. كان قد سمع الحكايات طبعًا، عن الأولاد الذين يُحشرون في سلالٍ معلّقةٍ من السقف، ويُضربون بقوةٍ تمنعهم من المشي عدّة أيّام. لقد حصل منذ التحاقه بالمدرسة على نصيبه من الضرب بالعصا واليد، غالبًا بجريرة الآخرين، لكنّه لم يُضطرَّ إلى الذهاب إلى مكتب الناظر قطّ، ولا أحد يودُّ أن يذهب إلى مكتب الناظر.

- «تحرك!».

يتبع آرثر المعلّم إلى الخارج، وعيناه على حذائه. ما إن يُغلق الباب خلفهما، حتى تنفجر جلبةٌ داخل الفصل. دوامةٌ من السباب والصراخ الحادّ. وعلى العكس تمامًا، هناك في الخارج



في الممرّ، ليس إلّا الصمت. يسير الرجل في الأمام، فيما يجرجر الطفل قدميه خلفه. يتردّد صدى الخطوات في الجدران التي اسودّت من سنوات الدخان والعفن والضجر. يظلّ صوت الضجيج من داخل الفصل يتناهى إليهما حتى عند نهاية الممرّ. لم يغادر آرثر لندن قطّ، لكنّه قرأ قليلاً عن بلادٍ وسواحل بعيدة، فيخطر له الآن أنّ هذا بالتأكيد ما يسمعه المرء حين يضع صدفةً بحريّةً عند أذنه ويسمع هدير المحيط.

\*\*\*

الناظر رجلٌ بدينٌ ذو جفونٍ مرتخيةٍ وشاربٍ أصهب مشمّع يطيب له أن يلفّ طرفيه. يقف آرثر في زاويةٍ بينما يقدم المعلمُ تلخيصه عمّا حدث، لكنّ أحداً لا يطلب من آرثر أن يقول ما عنده.

يقول الناظر: «هذه التصرفات مثيرةٌ جداً للقلق ولا تليق بقيمنا ومبادئنا. اتركه عندي».

يتوقّف المعلمُ قليلاً، إذ لا يريد استبعاده من فُرجةٍ هو الذي تسبّب فيها. لا بدّ أنّه كان يريد أن يشاهد العقاب. «أنا مستعدٌّ للبقاء فترةً أطول إن كان هناك شيءٌ آخر أساعد به».

فيقول الناظر: «لا داعي لذلك. يمكنك العودة إلى تلاميذك».

يغادر المعلمُ دون أن يلقي نظرةً واحدةً على الصبيّ، ثم يغلق الباب بقوة.

ينتاب آرثر خوفٌ أكبر وهو وحيدٌ مع الناظر. يحاول أن

يهدئ أعصابه، فيختلس نظرة في المكان، بحثاً عن أي شيء يمكنه أن يعده أو يحسبه. الفرق بين هذا المكتب وفصله الدراسي كبير جداً. فهذا المكان فاخر، ممتلئ بالأدوات والتحف الثمينة. ثمة مكتب كبير من خشب المهوغني، أرجله منحوتة باليد، وخزانة بها أرفف من زجاج، مملوءة بالأشكال المصغرة المصنوعة من خزف صيني، وعلب سعوط، وصينية فضة عليها أقداح وقناني، ومقاعد عالية الظهر منجدة بالمخمل، ومقعد آخر فُرشت عليه سجادة شرقية، وكرة دَوَّارة تتوهج في ضوء مصباح نحاسي، ولوحات لشخصيات مهمة، ساهمة في أطرها المذهبة. الجدران مغطاة من الأرض إلى السقف بورق جدران لونه أصفر بلون القطيفة، وقرمزي ساطع. في لحظة، يتعرف آرثر على الأنساق المرسومة عليها. كروم وأزهار وأشواك. يبدو له غريباً أن يُحاط الناظر بهذه الرفاهية الواضحة في مدرسة طلابها من أفقر الناس.

يقول الناظر: «اذهب وقِف عند النافذة». يفتح درجاً يستل منه خيزرانة بها مقبض ملفوف بالجلد. «واجه الطاولة واستعد للجلد».

– «سيدي، من فضلك، كنت فقط –».

– «اصمت وافعل ما أقوله لك. الآن!».

ببطء، كأنما في حلم لا يستطيع آرثر الاستيقاظ منه، يجر قدميه نحو النافذة، وينتظر، فيما يتمدد الصمت في كل اتجاه.

ينظر الناظر إلى الصبي المستسلم، فلا يتغير من تعبير وجهه

شيء سوى تراخ في فكّه. تتوقّف يده التي تمسك بالعصا. يرفع يده الثانية عاليًا، تتلقّف أصابعه الهواء، وكأنّها تقطف صوفًا متخيّلًا من أجمة شائكة. ينحني الناظر خلسة، ويمسك ما بين ساقَي الصبيّ. يجفل آرثر من فوره، ويتنحّى قليلًا. وبحركة مفاجئة، يدفع التلميذ نحو الطاولة، وما هي إلّا ثانية واحدة حتى يتلقّى الطفل ضربه الأولى في أعلى الفخذ. الألم مبرّح. - «عُدّ!».

غير أنّ آرثر للمرّة الأولى لا يستطيع أن يعدّ. تخلّت الأرقام عنه.

فيأمره الرجل وهو يخطو للأمام ويرفع العصا، ويضربه ضربة أقوى: «عُدّ!».

يقول آرثر: «اثنان...».

- «ارفع صوتك».

- «ثلاثة... أربعة... خمسة...».

ثمّة كتابٌ على المكتب الذي يتشبّث به آرثر بقوة (حتى ابيضّت مفاصل أصابعه). مجلّدٌ بقماشٍ أخضر مذهّب الأطراف، وعلى غلافه حروفٌ منقوشةٌ بخطّ دقيقٍ مائل، مع فاصل قراءة من شريطةٍ حريريّةٍ حمراء تطلّ من وسط الكتاب. يرى آرثر في ذلك جمالًا باهرًا يتوهّج في وسط ضباب الألم. فرغم التعذيب الذي يطول جسده، إلّا أنّه يركّز نظره في ذلك المكان لا غير.

- «ستّة... سبعة...».

الكتاب من تأليف شخصٍ يُدعى أ. ه. ليارد. يتمكّن الصبيّ من قراءة العنوان: نينوى وآثارها.

- «واصل!».

- «ثمانية... تسعة...».

أسفل العنوان وصفٌ طويل. يقرأ آرثر السطر الأوّل وهو يتلقّى ضربةً أخرى: بحثٌ في عادات الآشوريّين القدماء وفنونهم...

- «لا أسمع».

«عشرة... أحد عشر...». ينحني كتفاه إلى الأمام، وتثقل أنفاسه. «اثنا عشر... ثلاثة عشر...».

يُجبر آرثر نفسه على التركيز في الكتاب، فيلقي نظرةً على السطر التالي: مع سردٍ لزيارةٍ إلى المسيحيّين الكلدانيّين في كردستان... ألفاظٌ غريبة، لكنّ الغرابة مفيدةٌ هنا، إذ يحتاج إلى أن يخرج نفسه من هنا، أن يجد طريقةً لترك جسده في هذه الغرفة بينما يهرب عقله بعيداً، ولذلك يتشبّث بهذا الكتاب مثل غريقٍ يتعلّق بخشبةٍ تطوف من أمامه.

- «واصل العدّ يا سمث».

- «أربعة عشر... خمسة عشر... ستّة عشر...».

يحتاج آرثر إلى جهدٍ من كلّ عضلات جسمه، كي لا ينهار. لكنّه يستطيع أن يقرأ الكلمات الأخيرة في العنوان الفرعيّ: واليزيديّين، أو عبدة الشيطان.

وتستمرّ الخيزرانة.

يتوقّف الناظر عند الضربة الخامسة والثلاثين، وهو يلهث.  
يلقي بالعصا جانبًا، كأنّه لم يعد يحتمل النظر إليها.

«سيعلمك هذا [الدرس] أن تحترم من هم أكبر منك. وضع  
في اعتبارك أنّي تساهلتُ معك. ما كان الآخرون ليعاملوك بهذه  
الطيبة. فالناظر الحازم ربّما يعطيك خمسين أو حتى ستّين ضربة!  
لكنّي متسامحٌ جدًّا مع الذين يخطئون في المرّة الأولى. هذه  
خصلةٌ ضعيفةٌ فيّ، ولا أستطيع إصلاحها. حين تتعافى، تعال  
زرني. ستحتاج إلى إرشادٍ منّي كي تسير على النهج القويم.  
سأتولّى أمرك. والآن، انهض يا ولدا!».

يحاول آرثر أن يفعل ما يؤمر، لكنّ ركبتيه تنهاران، فيترنّح  
جانبًا. كان سينقلب لو أنّه لم يظلّ متشبّثًا بالمكتب. يأخذ أنفاسًا  
سريعة، فيستطيع أن يرفع بنطاله. ساقاه ثقيلتان، كأنّما بُدّلتا  
بكيسيّن من رملٍ مبتلّ.

يقول الناظر: «سأعطيك نصيحةً ثمينة». يدير ظهره إلى الغرفة  
ويحدّق عبر النافذة. لا يبدو غاضبًا الآن. فذلك الغضب الذي  
تملّكه ودفعه إلى ضرب صبيّ في الثانية عشرة قد ولى الآن، وحلّ  
محله شيءٌ أشبه بالضجر. «هل تسمعني؟».

لا يجيب.

«من الأفضل لك أن تنسجم مع هذا المعلّم الجديد. السيّد  
هوپكن ترك المدرسة، ولن يعمل هنا بعد اليوم».

لا يجيب.

– «قبل أن يرحل السيّد هوپكن، طلب التحدّث إليّ على  
انفرادٍ بشأنك».

يسأل آرثر هامسًا: «بشأني أنا؟»، غير مصدِّق أنَّ هناك شخصًا من الكبار قد يبدي اهتمامًا به.

«نعم، هل تريد أن تعرف ما قاله معلِّمك عنك يا سميث؟». يتفحَّص الولدَ بطرف عينه، ثم يقول: «أم أقول الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات؟ أعتقد أنَّ هذا هو الاسم السخيف الذي مُنحت إيَّاه».

يعتصر الطفل شفتيه. لم يتخيَّل قطَّ أنَّ الناظر قد يعلم بمجرَّد وجوده، ناهيك عن أن يعرف ظروف ولادته.

«يرى السيّد هوپكن أنَّك شديد الذكاء، متمكِّن جدًا من الأرقام والأنساق واللغات... يقول إنَّ لديك مقدرةً غير عاديةً، بل تكاد تكون موهبة». ثم يلقي نظرةً متشكِّكةً على الصبي. «هل هذا صحيح؟».

– «لا أعرف يا سيّدي».

– «يبدو أنَّ هذا رأي معلِّمك السابق. يزعم أنَّ لك ذاكرةً استثنائيةً، ويمكنك أن تتذكَّر حتى أصغر التفاصيل بوضوحٍ مُعجز».

يرتعش ذقن آرثر، بينما تسقط دمعَةٌ على خده. لم تكسره القسوة، فقد اعتادها، لكنَّ الإطراء غير المتوقع (حتى وإن كان غير مباشر) أخلَّ بتوازنه.

يُخرج الناظر من جيبه منديلًا ناصع البياض، مزركش الأطراف محبوك الحواف. يقدِّمه للصبي.

– «خذ».

يحدِّق آرثر في هذا الشيء الثمين . يستطيع أن يبيعه مقابل بنسٍ فيشتري طعامًا لأمِّه . فيقول الرجل وكأنَّه قرأ أفكار آرثر: «يمكنك أن تحتفظ به»، لكنَّ الصبيَّ يشيح بوجهه .

«أوه، إذن أنت مستاء . سلوكٌ وضعيع» . يعيد الناظر المندبل إلى جيبه، وينظر في ساعة الجيب . «لا وقت كثيرًا لديّ . لنرَ ما إذا كانت ذاكرتك قويَّة كما يزعم السيّد هوبكن . قل لي، قبل سنتين، ولنقل في العاشر من حزيران / يونيو مثلاً . أيّ يومٍ من الأسبوع كان، وأين كنت أنت؟» .

يغمض آرثر عينيه . في اليوم العاشر من الشهر السادس من السنة قبل الماضية، وقد كان يوم اثنين، كان جالسًا مع أمِّه . وأبوه كان معهم أيضًا . ها هو اليوم يتبدَّى أمامه مميّزًا واضحًا، وكأنَّه يخرج من ستار ضباب . يتذكَّر كيف بدا أبوه رجلًا مختلفًا في ذلك اليوم، بعد أن كلَّفَه تاجرٌ بصنع خزانةٍ ودفع له المقدَّم . لم يكن كعادته غضوبًا، يكيل التهم . وأمُّه أيضًا بدت أسعد، وقد تلوَّن شيءٌ من وجهها الممتقع وهي تقرب زوجها من بطنها المتنفخ كي يستمع إلى ذلك السرِّ الذي ينمو في داخلها . في وقتٍ لاحقٍ من عصر ذلك اليوم، ذهب الثلاثة إلى حديقة الحيوان لرؤية الكائن الذي يتحدَّث عنه الجميع . حيوانٌ غريبٌ يُسمَّى «أوباش»، وهو أوَّل فرس نهرٍ يؤتى به إلى بريطانيا منذ عصور ما قبل التاريخ . هديَّةٌ من باشا عثمانيٍّ مقابل كلابٍ سلوقيَّةٍ إنكليزيَّة . كانوا قد اصطادوه في نهر النيل، ثم حملوه على مركبٍ إلى القاهرة، ووضعوه هناك على باخرةٍ إلى إنكلترا .

آرثر لأنَّه بطبعه تواقٌّ إلى معرفة أشياء جديدة، ظلَّ أسابيع

يتحدّث عن فرس النهر، لذلك لم يرد والداه أن يرفضاً طلبه، رغم أنّ الرحلة كلّفتهم أكثر من طاقتهم. بعد أشهر، سيتهي والده من صنع الخزانة وينحت عليها علامته (مطرقة وسندان، إشارة إلى اسمه «سميث» [الصانع]). وفي اليوم المقرّر لتسليم الخزانة، يموت التاجر فجأة، فلا يتحصّل والده على المبلغ. أمّا في يوم الرحلة فكانوا واثقين تمام الثقة بأنّ المال سيأتي، وهكذا ذهبوا إلى حديقة الحيوان وهم متّشحون بدفء الوعد. كان الوالدان مستمتعَيْن بوقتتهما، غير أنّ آرثر حين غادر الحديقة شعر بحزنٍ شديدٍ على الحيوان الأسير، بأذنيه الصغيرتين، وعينيّه المليئتين بالعاطفة، وجلده اللامع الذي كان يتفصّد عرقاً بلون الدم.

يرمش آرثر الآن بعينه، طارداً تلك الذكرى، ويلوي شفتيّه. لا رغبة لديه في أن يخبر الناظر بأيّ شيءٍ من هذا.

فيقول الرجل متنهّداً: «لا جواب؟ لست متفاجئاً. فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تتذكّر. من الواضح أنّ السيّد هوبكن كان مخطئاً. يمكنك الذهاب الآن. اذهب واطلب العفو من معلّمك الجديد، ولا تعدّ إلى سوء الأدب مرّةً أخرى. ففي المرّة القادمة لن أكون رحيماً هكذا».

يرفع آرثر ذقنه، لكنّه لا يقول شيئاً.

- «سأعطيك نصيحةً أخرى يا سميث. قد تكون ذكياً، لكنّ الغرور خطيئةٌ فظيعة. إن استطعت ألاّ تصبح لصّاً أو قاتلاً أو عاطلاً كأغلب أشكالكم (ويعلم الله أنّنا أُنخمنّا بهم أصلاً في هذه المدينة)، فقد تدرّسُ أنتَ أيضاً في هذه المدرسة ذات يومٍ وتقود



أولادًا مثلك إلى الطريق القويم. مفهوم؟ والآن قل شكرًا وانصرف».

يزدرد آرثر لعابه، ويقول: «شكرًا... سيّدي»، غير أن الكلمات تخلف مذاقًا مريّرًا في فمه، مثل كريات المرارة.

يجرّجر الصبيّ قدميه، يترنّح على ساقين متقلقلتين نحو الباب. يشتدّ الألم، حارقًا مثل قضبان حديد ساخنة تحرق لحمه. وبينما يوشك على الخروج، يسمع الناظر يقول من خلفه: «الأحمق هو بكن، ما الذي دهاه؟ هذه العشوائيات لم تُخرج عبقرياً قط».

يتوقّف آرثر. تتسارع أنفاسه وهو يحدّق في مقبض الباب. «سيّدي، هناك شيءٌ أودُّ أن أقوله لك».

- «قل يا سمث. أسرع!».

فيقول الصبيّ دون أن يلتفت: «لقد عُيّنَت ناظرًا هنا قبل ثلاث سنواتٍ وأربعة أسابيع وأربعة أيّام بالضبط. لا بدّ أن التاريخ كان الخامس والعشرين من تشرين الأوّل / أكتوبر، في يوم خميس. وصلت مع زوجتك، وكانت تلفّ على فستانها وشاحًا من الدانتيل، بلونٍ أزرق مخضرّ يتناسق مع لون القبّعة [التي تحملها]. شعرها مفروقٌ من النصف، مع جدائل في كلّ جانب. وكنت ترتدي ربطة عنقٍ بنقشة البيزلي، وهناك قطرة دم على يافتك، من جرح في خدّك الأيسر. لعلّك حلقت ذقنك على عجل. لاحظتُ زوجتك ولدًا متورّم الكاحل يعرج، فقالت: «أوه، يا للطفل المسكين»، وأرادت أن تتحدّث إليه، لكنّك

نهرتها. «أنصحك ألا تلمسي أيًا منهم. فكلُّهم ممتلؤون بالبراغيث مثل الكلاب السائبة». هذا ما قلته. وسحبت زوجتك من ذراعها، وغادرتما بعدها بقليل، حين دقَّت الساعة الحادية عشرة. كنت متحجّر القلب حينها، مثلما أنت الآن.

يخرج آرثر، ويغلق الباب خلفه. يمشي في الممرّ الفارغ من أمام الفصول التي يسمع منها مئات التلاميذ وهم يردّدون جداول الضرب عن ظهر قلب. ينصت، يتشرّب كلّ صوتٍ وتنهيدة خفيفة. وحين يصل إلى فصله، يتوقّف لحظة، وتمكث عيناه في العتبة التي يعرف أنّه لن يعبرها مرّة أخرى.

\*\*\*

في الخارج، كان الضباب قد تبدّد إلى خيوطٍ رقيقة، وثمة أعمدة من ضوءٍ كهربائيٍّ تخطّط السماء، إذ تطلّ الشمس من خلف السحب في مفاجأةٍ محبّذة. تندّ عن الصبيّ أنّه ألم وهو يحاول أن يمشي إلى جانب المشاة الآخرين، لكنّه لا يستطيع. بطّنه تقرقر.

يُدرك بارتياحٍ شديدٍ أنّه بإهانتته الناظر وترك المدرسة قد تخلّى عن الوجبة الوحيدة التي سيحصل عليها اليوم.

يذرّع آرثر الطريق بما تبقى له من طاقة، ويُلقي النظرات إلى نوافذ المحالّ التي تعرض كنوزًا لا سبيلَ له إليها. يسمع الزبائن في حانةٍ على الزاوية وهم يلعبون لعبة القناني الخشبيّة. سنّانُ سكاكينٍ يغنيّ بينما عجلته تدور وتطلق الشرار في الهواء. سمكريٌّ ينادي: «مَن عنده قدورٌ أو مقالٍ أو غلايات لإصلاحها؟».

الأرصفة مكتظة بالخضارين الجائلين يبيعون الفاكهة والخضار من عرباتهم، وآخرون يبيعون الأطياب من كل شكل ولون: أنقليس مطبوخ بالجلي، وكوارع خروف، وبازلأء خضراء ساخنة، ومحار مطبوخ ومخلل، وبطاطس مطبوخة في الفرن، ولحم مغلي، وفطائر صغيرة، وتفاخ بالتوفي، وعصيدة كلاوي، وغير ذلك. تعلق روائح الطعام بشعره، وتدغدغ منخرينه. يعرج آرثر مبتعداً، وما يزال يبذل جهده كي يسرع. وحين تتحوّل الريح، تنهادى إليه رائحة النتانة التي ترتفع من التيمز. ففي مكان ما خلف هذه الشوارع، يتلوّى النهر مثل أفعى مريضة، أنفاسها فاسدة متعفّنة.

يجفلّ الصبيّ بينه وبين نفسه مع كل خطوة يخطوها، ويعبر ركاماً من قمامة. هناك طفلان، في مثل سنّه، يفتّشان في الفضلات. وطفل ثالث ينكش بيديه العاريتين ركام روث، ويطلق ضحكة. ثمّة شيء يعكس الضوء في هذه القذارة. لقد وجد زراً، يُمسك به بفخر بأصابع ملوثة، وكأنّه ميدالية حرب. يشيح آرثر بوجهه بعيداً، شاعراً بالغثيان. لا يحبّذ البقاء في الشوارع. ولو كان الأمر بيده، لفُضّل البقاء في مكتب الناظر بمفرده، بين تلك الأدوات الجميلة والكتب العجيبة.

لا بدّ أن يصل إلى البيت قبل إشعال المصابيح، لكنّه غير مستعدّ للعودة. لذلك يظلّ يمشي، ويعد نفسه بأنّه لن يبتعد أكثر من نهاية الشارع حيث ينتصب المتحف البريطانيّ بظلاله الفخمة الجليّة تحت الشفق. لم يسبق له أن دخل إلى المتحف قطّ، وطالما كان يتساءل عن الأسرار التي يخبئها.

وبينما هو يقترب من المتحف، يُفاجأ بحشدٍ عند الباب الأمامي. ورغم أنه حذرٌ بطبيعته، فإنَّ الفضول يتغلَّب عليه، فيتقدَّم ببطءٍ ليلقي نظرة. يتدافع الناس كي يلمحوا شيئاً ما في الجانب الآخر من الحواجز الحديدية. ينضمُّ الصبيُّ إليهم، يحاول أن يحشر نفسه بينهم. في البدء لا يستطيع أن يرى الكثير، فلا شيء سوى أكتافٍ تسدُّ رؤيته. ثمَّة رجلٌ في المقدمة يصيح بحماس، ولكن لا يفهم شيءٌ ممَّا يقوله. وفي ذلك الهياج يفقد رجلٌ مسنٌ وعيه، فيضطرون إلى حمله وإبعاده.

— «تنحوا! أفسحوا الطريق!».

يتحرك الناس، يتدافعون ويتزاحمون على كلِّ سنتيمترٍ من مكانٍ فارغ. فجأةً يُرفع آرثر، كأنَّه محمولٌ في الهواء، بلا وزنٍ تقريباً. رأسه يدور، وفخذه المحطمان ينبضان. وحين يتمكن من الوقوف على قدميه مرَّةً أخرى، يجد نفسه عند البوابة الرئيسة، وهناك يرى على بعد أقدام منه، في ساحة المتحف البريطاني، شيئاً لم ير مثله في حياته قط.

وحشٌ حجريٌّ ضخمة. مخلوقٌ اجْتُثَّ من عالمٍ آخر. مذهل، يحبس الأنفاس، ويشير الخوف. له رأسٌ بشريٌّ وجسمٌ ثور، وجناحان طائرٍ عملاق. مثبتٌ في إطارٍ خشبيٍّ ضخم على عربة. وأكثر من عشرين عاملاً يجاهدون في جرِّه على السَّلالِم وإدخاله من باب المتحف.

يشهق آرثر. فحين رأى فرس النهر في حديقة الحيوان مع

والدَّيْه، لم يساوره شكٌ في أنَّ ذلك الحيوان من خلق الله، رغم أنَّه حيوانٌ غريب. أمَّا هذا التمثال، وعلى الرَّغم من أنَّه هامدٌ لا يتحرَّك، فإنَّه ينضح قدرًا كبيرًا من الحيويَّة والغموض، فلا بدَّ أن يكون قد هبط من كونٍ آخر تمامًا.

تدور هذه الأفكار في رأس الصبيِّ حين يلاحظ على بعد ثلاثين قدمًا منه، إلى يسار الساحة، وحشًا آخر بالحجم نفسه ينتظر أن يُحمل هو الآخر. هناك اثنان إذن! عملاقان! ولفرط شعور الصبيِّ بالعجب والبهجة لا يستطيع أن يكبح حماسه، فيلتفت إلى أقرب شخصٍ منه. في لهفةٍ كبيرةٍ يربّت على ذراع رجلٍ له لحيّةٌ بيضاء تصل إلى منتصف صديريّته، ويبدو من منظره أنَّه رجلٌ ثريّ. يربّت آرثر على ذراعه رغم المخاطرة بأن يظنُّوه متسولًا، أو حتى نشالًا.



يصيح آرثر: «سيّدي!».

فيلقي الرجل نظرةً على الطفل، ويرتسم على وجهه العريض مزيجٌ من البغته والشك.

— «من فضلك سيّدي. هلّا أخبرتني ما هذين؟».

تنبسط شفتاه المزمومتان إلى ابتسامةٍ جذلي، ويقول: «هل

أعجباك يا ولد؟ هذان اكتشافان أثريان في غاية الأهمية». ورغم أن آرثر لا يفهم معنى ما قاله، فإنه لا يستسلم. «هل هما... هل هما وحشان؟».

فيضحك الرجل ويقول: «وحشان؟ كلاً أبداً. هذان روحان حارستان. هذا ما كان يعتقد القدماء. هما حارسا القصر، وكلُّ منهما يُدعى لاماسو.

فيرد آرثر وراءه: «لا - ما - سو».

- «بالضبط. وهذان اللذان تراهما كانا يحرسان المكتبة الملكية، تلك التي بناها ملكٌ عظيمٌ يُسمى آشوربانيال». يا له من اسم غريب! يتغصن وجه الصبي حين يخلف الاسم مذاقاً لاذعاً في فمه.

فيواصل الرجل الذي استشاره حماس الطفل: «هذان التمثالان الكبيران كانا مدفونين آلاف السنين».

- «عفوًا سيدي، ولكن لماذا وضعهما القدماء في قبور؟».

يقهقه الرجل مرةً أخرى ويقول: «لا، ليس هكذا. لقد حطّم الأعداء المدينة بأكملها. كان حدثاً مأساوياً. فقد تهاوى كلُّ ما بناه آشوربانيال، ولم يبق شيءٌ سوى الحطام. هكذا اندفنت أدواتٌ ثمينةٌ تحت تلالٍ من الرمل، إلى أن وصلتنا نحن البريطانيون وانتشلناها من النسيان. صحيح أن الفرنسيين كانوا ينقبون أيضاً، ولكن دعك منهم. كان هذا اكتشافنا وحدنا!».

ينصت آرثر، وهو يميل مقترباً.

«كلُّ لاماسو تراه هنا يبلغ طوله حوالى ستّة عشر قدماً، ويزن

أكثر من ثلاثين طناً. من العسير جداً نقلها، فكيف تنقلها من قارّة إلى أخرى؟ وهذا يا بنيّ إنجازٌ مذهل. لقد استطعنا أن نحضرهما إلى هنا سليمين. لا شكّ في أنّ أوستن هنري ليّارد وفريقه أنجزوا مهمّةً مدهشة».

يجفل الصبيّ لسماع ذلك، ويلتمع الكتاب الذي رآه في مكتب الناظر في عقله، فيقول دون تفكير: «أعرف هذا الاسم. إنّهُ مؤلّف كتاب نينوى وآثارها».

فترسم نظرة استغرابٍ على وجه الرجل. «وكيف عرفت هذا؟».

فيقول صادقاً: «رأيتُ غلاف الكتاب، لكنّي لم أحظ بفرصةٍ لقراءته بعد». ثم يضيف قائلاً: «بحثٌ في عادات الآشوريّين القدماء وفنونهم، وسردٌ لزيارةٍ إلى المسيحيّين الكلدانيّين في كردستان، واليزيديّين عبدة الشيطان».

ثم يسكت الصبيّ، لا يدري ما إذا كان من اللائق أن يقول الكلمتين الأخيرتين. لا يعرف شيئاً عن هؤلاء اليزيديّين، وما إذا كانوا يعبدون الشيطان فعلاً، وإن لم يكونوا يعبدونه فلماذا يوصفون بوصفٍ تحقيريٍّ كهذا، لكنّه يخشى الآن أن يكون قد أساء الأدب حين ذكر اسم ملاك الشرّ في حوارٍ مهذب.

يتفحّص الرجل آرثر باهتمام متجدّد. «رأيت الغلاف مرّةً واحدة، وتذكّر العنوان كاملاً؟ يا لك من وليدٍ عجيب».

فيهزّ آرثر كتفيه، إذ لا يعرف كيف يردّ على ذلك. «إذن فهذان التمثالان... هل هما من مكتبة الملك آشوربانيبال؟».

- «بالضبط يا بني».

- «وهذه المكتبة كانت توجد في مكانٍ يُسمَّى نينوى؟».

- «بالضبط يا بني».

نينوى... يدور آرثر تلك المقاطع الصوتية الثلاثة على لسانه، مثل سكرة. يتساءل في نفسه عن مكان هذه العاصمة الغامضة. إنه متأكد من أنه لم يرها على الخارطة المعلقة في جدار الفصل.

- «عفوًا سيدي، هلّا أخبرتني عن مكان نينوى بالضبط بالنسبة إلى نهر التيمز؟».

فيبتسم الرجل من سذاجة الصبي. «بلاد الرافدين بعيدة جدًا. والنهر الذي أضنى هذين التمثالين نهر آخر، يُسمَّى نهر دجلة».

تسّع عينا آرثر، ثم تضيقان. هنالك فكرة ظلت في عقله فترة طويلة، وها هي تلتمع في رأسه بوضوح مفاجئ: أن هذا العالم الهائل الذي لا تصل إليه مخيلة أي عقل بشري مليء بالأمكن المثيرة.

«للأسف لم تعد هناك قيمة كبيرة في تلك المنطقة. قبائل متخلفة بدائية. الأهالي مجرد قرويين بسطاء». يُخرج الرجل ساعة من جيبه وينظر إلى الوقت. «على أي حال، يفرحني أن أرى صغارًا مهتمين بآثار الكتاب المقدس. ما اسمك يا ولد؟».

- «آرثر، سيدي».

- «سعدتُ بلقائك. أنا أعمل في المتحف. تعال زُرنا يومًا ما. بإمكانك أن ترى التمثالين من قرب».



- «أويمكنني ذلك؟».

- «طبعًا. سوف يُعرضان للعامة. لو سألك أحدهم، قل له إنني دعوتك. اسمي الدكتور صمويل بيرش، وأنا القيم على الآثار الشرقية».

- «سأتذكر ذلك سيدي».

«أنا واثقٌ من أنك ستتذكر. حسن، عليّ الذهاب الآن. إلى اللقاء يا بني». يعلم آرثر أنه هو أيضًا ينبغي له الذهاب، لكنه لا يكاد يستطيع أن يبعد عينيه عن التمثالين العتيقين. يودُّ لو يسأل الرجل عن السبب الذي جعل النحاتين القدماء يضعون خمس سيقانٍ للآماسو، أو يتخيلونه مزيجًا من بشرٍ وثورٍ وطائر. لديه أسئلةٌ كثيرةٌ جدًّا عن هذين الكائنين القادمين من نينوى، والناس الذين كانوا في يومٍ من الأيام يَكُونُ لهما احترامًا، وخشية.

وبعد قليل، تكتسي السماء لون الشفق البرتقاليّ، إلى أن يعود الضباب منتقمًا، يلطّخ كلّ الألوان بفرشاته الباهتة. يمرُّ مُشعل المصابيح وهو يصفّر لحنًا، يحمل في يده عصًا طويلةً بها فتيلٌ مشتعل. هكذا تنبض الحياة في مصباح غازٍ تلو الآخر في هذا الشارع، فتضفي وهجًا زاهيًا في الظلام المتجمّع. في صباح الغد، سيعود الرجل نفسه مرّةً أخرى كي يطفئها واحدًا بعد الآخر، مثل بندولٍ لا يتوقّف بين الليل والنهار. بين الضوء والظلّ. بين الخير والشرّ. ولعلّ الأمر نفسه ينطبق على الماضي والحاضر، فهما غير منفصلين تمامًا؛ إذ يتداخل أحدهما مع الآخر.

من مكانٍ غير بعيدٍ يدقُّ جرس كنيسة، دقَّة الساعة. يفكر آرثر في أمِّه، في الهلالَيْن الشاحِبَيْن تحت عينيَّها، والجلد المتشقَّق في يديَّها. لا بدَّ أنَّها ستقلق عليه الآن، خشية أن يكون قد أصابه مكروه، أو سقط تحت عربة، أو تلقَّاه لصٌّ من اللصوص. هذا آخر ما يريده آرثر، أن يزيد همومها. لكنَّه غير قادرٍ على الرحيل. وحيداً، وجائعاً ومتألِّماً في زحام يتضاءل شيئاً فشيئاً، يتمسَّك في الحواجز، ويدخل رأسه بين القضبان كي يلقي نظرةً على الروحَين الحارستَين.

وعندها يحدث شيءٌ غريب. فرغم الجلال البادي على التمثالَيْن الضخَمَيْن القادمَيْن من دجلة، فإنَّ مهابتَهما تقلُّ شيئاً فشيئاً، بل يصبحان عاجزَيْن، ضعيفَيْن تقريباً. فيشعر الصبِيُّ بدققةٍ من إشفاقٍ على الوحشَيْن الحجريَّين المربوطَيْن وهو يراهما يُحملان بحبالٍ سميكةٍ عبر أبواب المتحف البريطاني، حيث سيختفيان في منفاهما الأبديّ. كائنان نهرِيَّان يحاولان أن يتكيَّفا مع اليابسة، وحيدَيْن وتائهَيْن في هذه المدينة الطاحنة، مثلما كان هو نفسه طوال حياته.

## - H

### زَلِيخَة

بجوار نهر التيمز، 2018

امرأة في ريعان الشباب تمشي على ضفاف تشلسي، تنظر إلى التيمز وهو يشطر لندن من غربها إلى شرقها. تحمل في يديها صندوق كرتون، مبللاً قليلاً من الأسفل. في داخل الصندوق كتب، وإبريق شاي خزفي، وأكواب لا يشبه بعضها بعضاً، وبعض شتات من الملابس، ومصباح طاولة من طراز تفني(\*)، بظلمته المقيببة التي تطل من تحت ذراعها. ما انفك الرذاذ منذ ساعات الصباح الأولى يساقط من سحابٍ معلقة فوق المدينة،

---

(\*) مصباح على طراز تفني (Tiffany-style lamp): مصباح طاولة ذو قبة زجاجية مزخرفة ملونة. (المترجم)

تشبه في لونها حوض أسماكٍ مُهْمَلٍ. لا تحمل مظلةً معها، لكنّها لفرط شرودها لا تلاحظ أنّ الماء يبلّلها، كما يبدو. تحطّ قطرات المطر على شعرها الكثيف المائج، بلونه الكستنائي الداكن نحو السواد. شعرها هذا، وعيناها البنيّتان الكبيرتان المقوّستان، هباتٌ من أسلافها الذين ينتمون إلى أرضٍ أخرى، عند نهرٍ مختلف.

تمسك بالصندوق عند صدرها، وتدير ظهرها إلى الشقق والمنازل التي تسكن فيها ثلّةٌ من أثري أثرياء لندن. كانت قد قرأت في كتابٍ أنّ أجزاءً من حيّ أبناء الذوات هذا كانت مساكن وأكواخًا عشوائيّة ذات يوم، غير أنّها حين تنظر إلى الحدائق المشدّبة والمباني الباذخة يصعب عليها حتى أن تدفع نفسها إلى تخيل الأمر. وهذا النهر الذي أطلقوا عليه ذات يوم «حساء الوحوش» لفرط فساده، يقدّم اليوم منظرًا مرغوبًا لا يمانع الكثيرون من أن يدفعوا من أجله زياداتٍ باهظة. لا تعنيها القصور الوثيرة والمجمّعات السكنيّة السامقة من حولها، وإنّما البيوت العائمة التي ترسو عند الضفّة.

هي ذي على رصيف تشيني، تنهادى في مختلف أحجامها وألوانها، ولكلّ منها اسمٌ يميّزه عن الآخر. أربعةٌ وعشرون بيتًا عائماً على هذا الجانب من الضفّة، رغم أنّ المراسي تمتدّ في طول المسافة حتى جسر باترسي، ما يغطّي ثلاثة آلاف وخمسمئة مترٍ من واجهة النهر. مستوطنةٌ مائيّةٌ تمامًا، قريةٌ تطفو على الماء. بعض هذه البيوت صغير، لا يزيد طوله عن سقيفة درّاجات، وبعضه الآخر فسيحٌ جدًّا يحتوي على سلّم لولبيّ، وردهة فوق سطحه. كلّها تتزيّن بأصص أزهارٍ في مقدّماتها، وقد مدّت على

القليل منها أرائك انتظاراً للشمس. مصطفةً تلك البيوت العائمة في انتظام، فتبدو هادئةً في ثباتٍ مدهش، مقارنةً بالمرمر المائي المائج من أمامها، والحركة المروية الصاخبة من خلفها. سيكون هذا بدءاً من الآن عنوانها الجديد، رغم أنها حتى الآن لا تستطيع تصديق الأمر.

اسمها زليخة، أو الدكتوراة زي كلارك كما يسميها زملاؤها وطلابها، ولن نبالغ إن قلنا إنها قضت حصّةً كبيرةً من حياتها تهجئ اسمها للآخرين: لمعلّمة في المدرسة تقرأ قائمة الحضور، أو لعامل مقهى يسألها عن طلبها، أو حين تحجز موعداً على الهاتف. ظلّت منذ الحضانة حتى الجامعة وطوال مشوارها المهنيّ تشعر بأنها مضطّرةً إلى توضيح اسمها وتصحيحه للآخرين في كلّ مرّة. تلفظ كلّ حرفٍ ومقطع، وهي تعرف جيّداً أنهم في نهاية المطاف سيخطئون في نطقه. في الشهر الماضي، سمعت مدير المختبر الجديد يقول بشيءٍ من اللامبالاة وابتسامةٍ فاترة: «لعلّي أناديك باسم زاني، فمن الصعب جدّاً تذكّر اسمك». خطر لزليخة في ذلك الوقت أنها يجب أن تعترض وتنتصر لنفسها، لكنّها تجاهلت الأمر، على أن تحاول إبعاد نفسها عن ذلك الرجل قدر الإمكان، ولكن ليس تماماً، كي لا ينقلب الأمر عليها فتنادى باسمٍ غير اسمها.

يزداد الأمر صعوبةً حين يسألها الناس عن معنى اسمها، وما يزال الناس يسألون. عندها تُضطرّ إلى أن تحكي لهم قصّة زليخة، الشيطانة المخادعة كما تُصوّرُها جميع الديانات الإبراهيميّة. امرأة العزيز الشبقة، الغضوب العاصفة، المزيج من المرأة السليطة

والساحرة والساقطة، إن وُجد شيء كهذا قط. الغاوية التي اشتهدت يوسف الوسيم الطاهر، فحاولت بدعائها ورغباتها الدنيئة أن تغويه إلى فراشها. وبسبب من خطاياها مسخها الله إلى شمطاء قبيحة وأرملة ذاوية، فظلت هكذا إلى أن ندمت على ما جنته يداها. فلمّا تابت وأطاعت كوفت بعودة شبابها وجمالها السابق، وسُمح لها بالزواج من يوسف، فلم تقترب خطيئة بعد ذلك.

لكن زليخة لا تحب هذه الحكاية، ولم تحبها قط. فحين تخطر لها، تمرّ بإصبعها على تجاعيد زليخة، إذ كلّ تجعيدة على وجهها عقاب، يتفرّع مثل رافد نهر قديم. ودائمًا ما تتصوّرُها امرأة سائلة: جازمة، جريئة، نافذة الصبر، ترغب في شيء مختلف، شيء أفضل، إلى أن تُهزم، فلا تعود قادرة على الرغبة في شيء.

أمّا ما يجعل اسمها شديد التعقيد فهو انتشار التنوع في نطقه وكتابته بين الأقاليم والإثنيات والثقافات، ما بين سليكة، وزليخة، وزليكة، وزليخة، وزليخا، وزليخاء، وزولخة، وزوليكة، وغير ذلك. ليس من السهل أن يجد المرء زليختين من منطقتين مختلفتين تكتبان اسميهما بالطريقة نفسها. والحال أن الأمر قد يصبح مزعجًا للغاية، فأحيانًا تريد أن تكون «زي» وكفى.

أمّها هي التي منحتها هذا الاسم ذا المزيج المعقّد من الحروف. هي التي أرادت أن تمنحها اسمًا يوحي بأن جذور أسلافها في مكان آخر، في تربة الرافدين المشمسة، محفورة تحت نخيل نينوى، تشدّهم إلى أرض لم يزوروها منذ عقود لكنّها ما تزال تستحوذ عليهم، رغم أن شجرة عائلتها نشأت وترعرعت

في إنكلترا المطيرة. أمّا أبوها، صاحب الروح اللطيفة الفخورة  
بإرثها الأيرلنديّ، فقد وافق على رغبة زوجته، كالعادة. وهكذا  
سمّيا طفلهما الوحيدة تيمناً بحسناً فاتنة من الكتاب المقدّس،  
بكلّ ما تحمله من سحرٍ وشغفٍ مجنون.

غير أنّ المفارقة لا تغيب عن ذهن زليخة أبداً؛ فكلّما نظرت  
إلى المرأة، وجدت في المرأة التي تنظر إليها شيئاً يناقض زليخة  
الغاوية. فهي أبعد ما يمكن عن سميتها، بستراتها الواسعة،  
وخفافها المسطّحة، وقمصانها الواسعة، وبناطيلها الفضفاضة،  
ووجهها الخالي من الزينة، ونظّارتها المهترئة شيئاً قليلاً، تلك  
التي لا تجد وقتاً أبداً لإصلاحها أو شراء غيرها. أولم يلاحظ  
أبواها هذا التناقض قطّ؟ لكنّها لا تلومهما؛ فما أصعب أن تلوم  
الأموات.

تقترب زليخة على عجلٍ من واجهة الماء، والأرض مبلّلة  
زلقة تحت حذائها. وحين تصل إلى المرسى تدفع البوّابة  
المتداعية، فتدلف إلى ممرٍ خشبيّ ضيّقٍ يمتدّ على طول الرصيف  
البحريّ. يهتّزّ الجسر قليلاً مع كلّ خطوة تخطوها، فتصلصل  
أكواب الخزف في الصندوق، كأنما لديها ما تريد أن تقوله.  
وفيما هي تمرّ من بين البيوت العائمة التي تنشُدُ إلى مراسيها في  
هدوء، تختلس النظرات علّها ترى شيئاً من حياة الناس هناك،  
لكنّها سرعان ما تطأطئ رأسها، إذ ليست مستعدّة بعد للقاء  
جيرانها. ومن حُسن الحظّ أنّه لا يوجد أحدٌ في الخارج.

بيتها العائم يرسو عند حافة النهر، مثبتٌ إلى جانب سديانةٍ  
قديمةٍ يلقي جذعها الأعوج بظلّتها نحو الماء. تعرف زليخة أنّ

الأشجار الملتوية على هذا النحو كثيرًا ما تنكسر أو تنقطع عن جذورها، غير أنَّ هذه الشجرة نجت، رغم التوائها وموقعها القاسي. تتساءل عن عمر هذه الشجرة، والغرائب التي ربَّما شهدت عليها في حياتها الطويلة. ها هي مرَّةً أخرى على عاداتها تطرح أسئلة لا توجد لها إجابات واضحة.

تقتلع نظرتها عن السنديانة الملتوية، وتتفحَّص بيتها العائم الأصغر من جميع البيوت الأخرى، مصبوغًا بطيفٍ مشبَّع من الأزرق، حتى إنَّ نهر التيمز يبدو عنده شاحبًا. وعلى الجانبين من بدن السفينة الخشبيّ كُتب ما يلي بحروفٍ كبيرةٍ بيضٍ مائلة:

هي التي رأت الأعماق

هذا الاسم الغريب هو الذي فتنها في أوَّل زيارةٍ لها للبيت مع السمسار في القاطرة. لا تعرف زليخة معنى الاسم، ولم تحاول البحث عنه. إنَّما راقها الجرس. هو الذي دفعها إلى أن تتخيَّل البيت العائم أنثى عاشت نصيبها من العواصف والأحزان، ونجت منها بدمارٍ كبير، وربَّما بقدرةٍ أكبر على الصمود. لقد هيَّأتها هذه الخواطر لفكرة الانتقال إلى هنا. صحيح أنَّه ليس استدلالًا منطقيًا بأيِّ حالٍ من الأحوال، لكنَّها بعد أن أمضت كلَّ حياتها الراشدة تقريبًا وهي لا تحيد عن المنطق والمعقول، شعرت بأنَّها تستحقُّ مرَّةً واحدةً أن تترك العقل جانبًا.

ولأنَّها لم تسكن في بيتٍ عائم من قبل، فقد فوجئت بالقيمة الباهظة لاستئجار بيتٍ عائم في لندن. لكنَّها وقَّعت في أوائل هذا الأسبوع عقدًا ودفعت مقدِّمًا كبيرًا أربك ميزانيَّتها. تيسَّمت زليخة



في سنٍّ مبكرة، فتعلّمت أن تقتصد في إنفاقها، لكنّها، وهي تسحب الآن من مدّخراتها، تندهش من سهولة إنفاق ما ظلّت تجمعها وقتًا طويلًا.

قال لها السمسار إنّ هناك أكثر من ثلاثة آلاف بيتٍ عائم في نهر التمز في لندن، لكنّه أضاف سريعًا أنّها محظوظة لأنّها وجدت بيتًا شاغرًا؛ فالطلب أكبر بكثيرٍ من العرض. لقد شهدت السنوات القليلة الماضية ارتفاعًا حادًا في عدد الناس الذين يسألون عن استئجار البيوت العائمة أو شرائها. وهناك آلافٌ من أهل لندن صاروا يتّخذون مساكنهم على الحدود بين النهر واليابسة، فيضعون على الأعتاب جذورًا لهم. ومن الآن فصاعدًا، ستصبح واحدةٌ منهم، كما علّق السمسار في مرجح. سيتعيّن عليها أن تتعلّم حركة التيّار، وعادات الرياح، والتغيّرات في أنماط الجوّ. عليها أن تثبّت جميع الأجهزة، بما في ذلك التلفاز، فالمراسي العائمة تتأثّر بتقلّبات التيّار. قد يهتزُّ بيتها شيئًا قليلًا حين تبحر السفن الكبيرة من بعيد، إذ ترجّهُ الأمواج التي تخلفّها تلك السفن. ظلّت زليخة تنصت إليه في هدوء، ولم تكن في مزاج يسمح لها بالقول إنّها لا تملك تلفازًا، ولا تفكّر في شراء تلفاز. أمّا عن المشي فوق أرضٍ غير ثابتة، فهي معتادةٌ على ذلك.

– «لعلّه إذن لم يكن أمرًا سيّئًا أنّنا لم ننجب أطفالًا. يعلم الله كيف كان سينتهي بهم المطاف».

هذا ما قاله له زوجها الأسبوع الماضي. بعدها بسويعاتٍ

حشرت بعضًا من متعلقاتها في صندوقِ كرتونيّ، وتركت مفتاح البيت على طاولة المطبخ وخرجت.

- «أوتعتقد إذن أنني لا أصلح أمّا؟».

- «تريدين الصدق؟ لا تتظاهري بأنّك تشعرين بالإهانة. أنتِ حتى لم ترغبي قطّ في أن تصبحي أمّا!».

- «نعم، ولكن لو أنني، لو أننا... قل لي لماذا تعتقد أنني لن أصلح أن أكون أمّا».

- «هل تريدين منّي أن أقولها حقًا؟».

- «نعم».

- «لأنّ... لأنّ البهجة ليست أفضل خصالك. أنتِ لا تملكين القدرة على السعادة».

كان انفصالًا طويلًا وثقيلًا، ينطبخ طوال أشهر. ولعلّه لم ينته بعد. ربّما ما يزالان منفصلان. حين تغمض عينيها، تسمع شيئًا يشبه انكسار الثلج، أو انكسار العظم. فالأشهر القليلة الماضية كانت إمّا هادئةً هدوءًا لا يُطاق، وإمّا صاحبةً صخبًا محرجًا. الكلام المؤلم الذي إن قيل مرّةً لا يمكن التراجع عنه، وخبط الأبواب، وضرب الخزانات في غضبٍ صامت، وتحطّم كؤوس النبيذ حين يُضرب بها عرض الحائط، فترك شظايا في غاية الصغر، حتى إنّها رغم التنظيف بالمكنسة الكهربائية ما تزال تجد طريقًا كي تجرحك.

كانا زميلَيْن قبل أن يصبحا عشيقَيْن، وقبل وقتٍ طويلٍ من زواجهما، إذ كرّس كلّ منهما حياته للبحث العلميّ. كان البحث شغفًا بالنسبة إليهما، لا مجرد مهنةٍ مشتركة. ولطالما آمنت بأنّه لا

الجنسُ الممتع ولا الحبُّ الملهب ولا شيء آخر يمكن أن يقرب بين اثنين أكثر من هدفٍ يقاتلان من أجله، وهذا ما كان لديهما. كان كلُّ منهما متفانيًا في دراسة الماء والحفاظ عليه. قد لا يبدو هذا أمرًا عظيمًا في نظر الآخرين، ولكنَّ بالنسبة إليهما لم يكن هناك رابطٌ أقوى من ذلك. على أنَّ زليخة لا تعرف كيف فسدت علاقتهما هكذا. كلُّ ما تعرفه هو أنَّها في مرحلةٍ من زواجهما نظرتُ إلى الخلف، فأدركت أنَّهما منذ فترةٍ طويلةٍ لم يعودا في المسار الذي انطلقا فيه، كالترام الذي يخرج عن سَكَّته في الزوايا الحادَّة. ورغم أنَّهما وجدا شقَّتَهما معًا وتقاسما إيجارها والمصاريف الأخرى بالتساوي، فإنَّه حين بات انفصالهما واضحًا لم يكن هناك أيُّ شكٍّ في تحديد من سيبقى في الشقَّة ومن يغادر. ففي الأيام القليلة الماضية كانت تبيت في مكتبها.

\* \* \*

تذرع زليخة المسافة الباقية إلى بيتها الجديد، ووجهها غارق في التأمل. تثبَّت الصندوق الكرتوني على خصرها كي تخرج المفتاح من جيبها. تباطأ المطر إلى رذاذ، وثمَّة حركةٌ خفيفةٌ في الهواء مع ارتفاع التيّار وتصاعد النهر. يخطر ببالها (وليس للمرَّة الأولى) أنَّ خالها سيستاء حين يعرف ما فعلته. لا علاقة للأمر بالمال، فخالها (مالك) يحرصها بسخائه دائمًا، ويعلم الله أنَّه كان خير سندٍ وملجأٍ لها منذ أن توفي والداه. هو قريبها الوحيد في إنكلترا، وبما أنَّها لم تقابل قطُّ أحدًا من أقاربها البعيدين (المتناثرين في الشرق الأوسط وجنوب آسيا وشمال أميركا في شتاتٍ عالميٍّ)، فخالها مالك هو القريب الوحيد لها في هذا

العالم. سيساوره القلق من مسكنها الجديد، وسيقول إنه غير آمن بالنسبة إلى امرأة عزباء، وقد أصبحت عزباء فعلاً. والحقيقة أن خالها لم يكن معجباً قطّ بزوجها، وكان يتمنى لو أنها تزوّجت شخصاً أغنى وأشهر وأكثر إثارةً للاهتمام، لكنّه مع ذلك سيحزن على فسخ زواجها، وإن كان يراها زيجةً سَمِجةً.

يهتّز هاتف زليخة بينما هي تخطو على السطح الأمامي. يتوتّر جسمها كلّهُ. لا تريد أن تتحدّث إلى زوجها. ربّما لاحقاً، ليس الآن. فما الذي يمكن أن يقوله أحدهما للآخر أكثر ممّا قيل؟ ما جدوى الكلام وقد أتت كلمتهما على أساسات زواجهما، فتركته كومةً متداعيةً كما تفعل الموجة بقصرٍ من الرمل؟ ثم يخطر لها أنّ المتّصل قد يكون خالها، فقد حاول أن يتّصل بها مرّةً تلو الأخرى هذا الأسبوع، وسجّل لها رسائل قلقة. لا بأس، يمكنها أن تتّصل به لاحقاً حين تستقرّ في بيتها، لكنّها تشعر بالذنب أصلاً لأنّها لم تردّ على أيّ من محاولاته السابقة.

تضع الصندوق في حرصٍ على الأرض، فتسمع قرع الإبريق على المصباح. وبمنظرةٍ سريعةٍ على الشاشة تعرف أنّه خالها بالفعل.

- «ألو؟».

- «أوه، الحمد والشكر لله وجميع ملائكته، أخيراً وجدتك!».

- «مرحباً يا خالي».

- «مرحباً عزيزتي. بدأنا نقلق عليكِ أنا وخالتك. هاتفتُ

المختبر عدّة مرّات. وكنْتُ على وشك أن أتّصل بالشرطة. ألم تصلك رسائلي؟».

- «آسفة. كنت سأعاود الاتّصال بك، لكنني انشغلت بأمورٍ أخرى».

فيواصل خالها: «حاولتُ الاتّصال برقم البيت أيضًا. كلّمْتُ زوجك، وبدا من صوته أنّه كان نائمًا. في هذه الساعة؟ ينبغي لكما أن تعدّلا أوقات نومكما. العمل إلى وقتٍ متأخّرٍ جدًّا مضرٌّ لكما».

يضيق فكّاها، وتسأله: «وماذا... ماذا أخبرك براين؟». «قال إنك لستِ في البيت. سألتُهُ متى تعودين، فقال إنّهُ لا يعرف. لم يقل شيئًا مفيدًا». ثم يسكت خالها قليلاً وقد انتابت صوته مسحةٌ من شكّ. «مهلاً، بماذا كان يفترض به أن يخبرني؟».

- «لا شيء. يسعدني أنكما دردشتما على الهاتف».

- «لا أدري إن كان بإمكانني أن أسمىها دردشة. الحديث مع هذا الرجل أشبه باقتلاع ضرس».

في الخلفيّة، يمرُّ قاربٌ سياحيٌّ مليءٌ بالسيّاح، ويطلق زُمُوره، فتغطّي زليخة الهاتف بيدها كي تحجب الصوت، لكنّ الأوان قد فات.

- «أين أنتِ بالضبط يا عزيزتي؟».

تعبٌ زليخة قدر ما تستطيع من هواء. «أنا في تشلسي.. عند النهر».

فيقهقه خالها ويقول: «تتمشّين في هذا الجوّ الإنكليزيّ البديع؟».

- «في الحقيقة... أنتقل إلى بيتِ عائم».

- «إلى ماذا؟».

- «هل تذكر السفن الجميلة عند الضفّة؟ لقد استأجرتُ واحدةً منها».

يحلُّ الصمت، ثقیلاً مثل بطّانيّةٍ مخضّلة.

- «كنتُ سأخبرك، لكنّ الأمر حدث بسرعةٍ ولم أجد فرصةً لإخبارك».

- «بيتُ عائم، يا إلهي! كنتُ أظنّ أنّكما تحبّان شقّتكما. ماذا حدث؟ هل بسبب الجيران الذين يسكنون فوقكم -».

تقاطععه زليخة بنبرةٍ ناعمة، وكأنّها تشرح شيئاً معقّداً لطفلٍ صغير: «أوه لا، الأمر ليس كذلك. أنا انتقلتُ فقط. استأجرتُ البيت العائم لي وحدي».

- «كمكتبٍ إضافيٍّ؟».

- «بل كبيتٍ لي».

صوتُ شهيقٍ حادٍّ في الطرف الآخر من الخطّ، ثم تنهيدة.

«هل معنى ذلك أنّك انفصلتِ عن زوجك، بعد ثلاث سنوات؟».

- «ثلاث سنواتٍ ونصف. أنا آسفة».

لا تدري زليخة لمن تعتذر. أتراها تعتذر لخالها لأنّها لم تخبره إلّا الآن، أم لزوجها لأنّها لم تحاول أكثر لإنقاذ زواجهما،

أم لنفسها لأنّها لم تهجره قبل الآن.

يعود خالها للحديث، بصوتٍ لطيف: «اسمعي، حبيبتي.  
دعينا نتحدّث. هلّا تعشّيت معنا؟».

- «حقًا لا أستطيع».

- «أرجوك لا ترفضني. تعالي نأكل شيئًا معًا. ما رأيك في  
الغد عند الساعة، هل يناسبك؟».

فتقول زليخة في استسلام: «طيّب».

تحملُ زليخة حسّ امتنانٍ لخالها يشبه النفس المحبوس طويلاً  
داخل صدرها، فلا تستطيع أن تطلقه مرّةً واحدة، وإنّما في دقائق  
قصيرة بين وقتٍ وآخر.

- «رائع! أراك قريبًا عزيزتي».

تعيد زليخة الهاتف إلى حقيبتها، فينتابها على حين فجأةٍ  
إحساسٌ بأنّ أحدًا يراقبها. ترفع عينيّها، فتجد زوجين مسنّين  
يحدّقان فيها من على سطح البيت المجاور، يرتديان معطفي مطرٍ  
أصفرين متماثلين. يرفعان يديهما معًا، يلوحان لها، فلا تدري  
زليخة ما تفعل سوى أن تلوّح لهما أيضًا.

تصبح بها المرأة: «لا بدّ أنّك جارتنا الجديدة».

- «نعم، مرحبًا».

فيقول الرجل: «يا إلهي! أنتِ شابة. حين علمنا أنّ عالمةً  
سوف تنضمّ إلى سكّان النهر توقّعنا أن تكون أكبر سنًا».

فتقول زوجته: «لا تكن فظًا»، ثم تهزّ أصابعها ذات الخواتم

نحو زليخة وتسألها: «هل سينضمُّ إليك زوجك أو شريكك يا عزيزتي؟».

فيقول الزوج: «مَنْ الفُظُّ الآن؟».

فتجيب زليخة: «كَلَّا، سأكون وحدي». ومن شدَّة رغبتها في تغيير الموضوع، تسرع في السؤال: «هل تسكنان هنا منذ فترة طويلة؟».

يجيبها الرجل وهو يسوِّي كتفَيْه: «منذ اثنتَيْن وعشرين سنة. كثيرون يأتون ويذهبون، كالتيَّار. ونحن راسيان في مكاننا». فتومئ له زليخة وهي تدرك جيِّدًا أنَّها لا تستطيع قول الشيء نفسه عن حياتها.

تقول المرأة: «إن احتجتِ إلى شيء، لا تتردَّدي. نعرف جميع من يسكن هنا تقريبًا. بما في ذلك أصحاب قاربك. ما أغربهم! يديرون محلَّ وشوم».

يرتفع حاجبا زليخة، وتقول: «أصحاب هذا القارب رسَّامو وشوم؟ لم أكن أعلم. أنهيتُ كلَّ الإجراءات مع السمسار».

فيقول الرجل: «ولكن يبدو أنَّه مشروعٌ يدرُّ المال. محلُّهم مقابل المتحف البريطاني كما سمعنا. بصراحة نحن لا نذهب إلى هذه الأماكن المملوءة بالسيَّاح. لم يعد المكان يشبه لندن».

تستشعر زليخة جعجعةً قادمة، فتجثو كي تحمل أغراضها، لكنَّ الصندوق قد تبلَّل تمامًا من أسفله، فينفتح وتسقط كلُّ الأغراض منه.

تقول زليخة بصوتٍ أعلى ممَّا أرادته: «لا بأس. لا بأس». تحدِّق في الفوضى التي صارت عند قدميها. لحسن الحظَّ أنَّ



إبريق الشاي والأكواب لم تتضرر، لكنّ الكتب لم تنعم بمثل هذا الحظّ. فبعض الكتب انفتحت على الأرضيّة الرطبة، وأخرى تبلّلت من أغلفتها. علم الماء. المنظومات البيئيّة المائيّة والمستقبل الحائر. مفاهيم جديدة في جيولوجيا المياه والمجاري المائيّة. الهيدرولوجيا الكيميائيّة والنظائريّة للمياه الجوفيّة. دورة الماء العالميّة والتغيّر المناخي. نهاية الماء: الدمار البيئي وأثاره على الدورة الهيدرولوجيّة. تلاحظ أنّ الزوجين يسترقان النظر في كومة الكتب المبلّلة.

تسألها المرأة وهي تشير إلى الكتب بذقنها: «أوه، إذن هذا مجال عملك؟ هل أنتِ عالمة مياه؟».

فيقول الرجل: «يسمونها عالمة هيدرولوجيّة».

تومئ زليخة. «نعم... صحيح... المَعْدرة، عليّ أن أدخل هذه الأشياء».

تلتقط المصباح، وتجمع ما تستطيع من كتبٍ تحت إبطها. تحت الكتاب الأخير، المائل فوق بركة ماء، ثمّة تمثالٍ صغيرٍ من الخزف الصينيّ. مخلوقٌ قديمٌ من بلاد الرافدين، له رأس بشريّ، وجسم ثور، وجناحا طائر، لكنّ جناحًا واحدًا قد انكسر. لاماسو، روحٌ حارسة، هديّةٌ من خالها في عيد ميلادها حين كانت طفلة. لطالما أحبّت زليخة شكل هذا التمثال. تأخذ القطعتين على عجل، وتومئ باقتضابٍ إلى جاريتها، ثم تمشي مضطربةً إلى بيتها الجديد.

فيصبح الرجل من خلفها: «استخدمي مجفّف الشعر لتجفيف الصفحات».

تَبَسَّ المزلاج من أثر الماء، فلا يستجيب من المحاولة الأولى. لكنَّ زليخة تنجح في فتحه في المرَّة الثانية وتسرع في الدخول، فتغلق الباب خلفها. تُدرك أنَّ عليها الخروج مرَّةً أخرى لإحضار بقيَّة الأغراض، لكنَّها لا تريد أن تفعل ذلك تحت عيونٍ تراقبها.

\*

تدلفُ إلى المساحة الصغيرة التي ستغدو من الآن صالة بيتها وغرفة الطعام والمطبخ. أمَّا غرفة النوم فهي في الطابق السفليّ، بسريرٍ فرديّ، مع حَمَّامٍ صغيرٍ به مساحة استحمام ضئيلة. لا يوجد أثاثٌ في البيت سوى كرسيٍّ خشبيٍّ ومقعدٍ مخمليٍّ تركوازيّ اللون تركته صاحبة البيت. تُسقط زليخة الكتب التي تتأبَّطها، وتضع المصباح أرضًا.

وبحرصٍ شديدٍ تضع اللاماسو على منضدة المطبخ، وجناحه المكسور إلى جانبه. لعلَّها تستطيع أن تُعيده إلى مكانه بالصمغ لاحقًا. لعلَّه لن يكون واضحًا، ذلك الشرخ.

ثمَّة تسريبٌ في صنبور المطبخ، وهذا ما لم تلاحظه حين زارت البيت من قبل. وهناك بقع صدأٍ على المغسلة لم تلاحظها هي الأخرى. وهناك إصيصٌ من إكليل الجبل ذابلٌ في الزاوية، إلى جانبه كوبٌ مكسور المقبض. تغسل الكوب، وتملأه بالماء ثم تشربه في جرعةٍ واحدة، إذ لا تُدرك إلَّا الآن شدَّة عطشها. في الماء طعمٌ تربوٍ وشيءٍ من معدن، مع مذاق الحديد. والحالُ أنَّ هذا الطعم لا علاقة له بالخصائص الداخليَّة للماء بقدر ما هو

ناشئ عن ظروفه البيوفيزيائية. يتصلَّب الماء في الظروف الشديدة،  
شأنه شأن قلب البشر.

※

هكذا فجأةً تحضرها ذكرى قديمة. الكلام الذي قاله لها  
خالها مالك حين تخرَّجت في الجامعة بمرتبة الشرف. أنا فخورٌ  
بك يا حبيبتي. أريدك أن تكوني ناجحةً جدًا. تذكّري أنَّ الفشل  
ليس في وسع أمثالنا.

«أمثالنا». مهاجرون، منفيون، لاجئون، وافدون، أجنب. كلماتٌ كثيرةٌ جدًا، لإحساسٍ مُشتركٍ يسهل تمييزه، رغم أنَّه يظلُّ  
مبهماً إلى حدٍّ كبيرٍ مهما وصفناه.

ذريَّةُ المنبتين من جذورهم إنّما يُولدون في ذاكرة القبيلة.  
يتشكَّل حاضريهم ومستقبلهم دائماً من ماضي أسلافهم، بصرف  
النظر عمّا إذا كانوا يعرفون شيئاً عنه. فإنَّ نجحوا وازدهرت  
أحوالهم، تُنسب إنجازاتهم إلى الجماعة بأكملها. وإنَّ فشلوا،  
فإنّما يُحسب فشلهم على شيءٍ أكبر وأقدم من ذواتهم، أكان  
عائلتهم أم دينهم أم انتماءهم الإثني.

ورغم أنَّ رحلة الحياة قد تكون حافلةً بالانتكاسات، فإنَّ  
ذريَّة العائلات المهجرة لا يمكن أن تسمح لنفسها بالسقوط تحت  
المستوى الذي بدأ منه آباؤها. بيد أنَّ هذا ما تفعله زليخة  
بالضبط. تسقط، وتفشل. لا يمكنها إلّا أن تشعر بهذا، فهي حين  
تخذل نفسها، تخذل أسلافها معها.

تهوي زليخة على الكرسيّ الوحيد. تمرّ يدها على شعرها الذي انتصب في تجعّداتٍ داكنةٍ بعد ابتلاله. تجلس لحظةً في سكون، تنظر إلى التّمز. سفينةٌ تمخر في الأفق، حمراء ساطعة كما في رسوم الأطفال، تبعث آثارها نحو زليخة. وبينما هي تنتظر وصول الأمواج كي تضرب سفينتها، أو بيتها الجديد، تشرع في البكاء.

تسقط دمعةٌ على ظهر يدها. سائلٌ دمعِيٌّ يتألّف من أنساقٍ متشابكةٍ من الملح المبلور لا تراها العين. تلك القطرة، أو الماء الخارج من جسدها، الذي يحتوي أثرًا من حمضها النوويّ، كان ذات يوم ندفة ثلج أو شيئًا من بخار، ربّما في هذا المكان أو على بعد كيلومتراتٍ كثيرة، يظلُّ يتحوّل مرّةً بعد مرّةٍ من الحالة السائلة إلى الصلبة إلى الغازيّة، ويعود من جديد، لكنّه يحتفظ بجوهره الجزيئيّ. يظلُّ هذا الماء مخبوءًا تحت الأرض المملوءة بالأحافير عشرات أو آلاف السنين، يتسلّق إلى السماوات ثم يعود إلى الأرض في ضبابٍ أو رياح موسميّةٍ أو عاصفة ثلج، يُهجّر على الدوام من مكانٍ إلى آخر. الماء مهاجرٌ من الطراز الأوّل، عالقٌ في العبور بين الأمكنة، لا سبيل له إلى الاستقرار أبدًا.

اختفت الدمعة، لكنّها ستجد طريقةً للظهور من جديد، في تجلٍّ آخر. غير أنّ هذا سيستغرق بعض الوقت. فالحقّطيرات الصغيرة تتبخّر بوتيرةٍ أبطأ. ما يزال الماء يفاجئها، حتى بعد سنواتٍ من دراسته، فهو مذهشٌ في قوّته، وشديد الضعف أيضًا؛ فيا له من قوّة تجمع بين الجفاف والموت.

ثمّة انشدادٌ في حلقها يصعب عليها أنفاسها. ينقبض

صدرها، فهناك ضغطٌ داخل قفصها الصدريّ يحاول أن ينطلق. كم حاولت أن تصبح شخصاً آخر، أن تصبح نسخة أسعد وأخلى بالاً، لكنّها لم تفلح. فها هي الكآبة (ذلك الحبل الخفيّ الذي يرتخي من وقتٍ إلى آخر، لكنّه لا يرخي قبضته تماماً) تعودُ لتشدّ حول عنقها من جديد.

لم تكن هذه خطّتها بالضبط، لكنّ الأمر يبدو منطقيّاً كلّما فُكرت فيه، وقد قضت جلّ وقتها في التفكير مؤخّراً. من المنطقيّ أن يريد شخصٌ مثلها الموت عند الماء. ثمّة جانبٌ متعبٌ منها، وهذا الجانب هو الذي لا ينفكّ يوحى لها بأنّها غير مضطّرةٍ إلى هذا الأمر، فلا داعي لأن تبقى هكذا وهي تشعر بأنّها مستنزفة. يمكنها أن تبقى في هذا البيت العائم شهراً، أي يوماً واحداً لكلّ سنةٍ من حياتها. وبعد ذلك تُقدم على ما ينبغي لها فعله، بهدوء، من دون بلبلة. سوف تخدّر عقلها بالحبوب، وتملأ جيوبها بالحجارة، مثل الكاتبة التي تفضّلها أمّها. وبما أنّها سباحةٌ ماهرة، سيتوجّب عليها أن تجد طريقةً كي لا تصعد إلى السطح. لديها ثقةٌ بأنّ تيّار التّمز سوف يساعدها في مسعاها هذا، مثلما ساعد كثيرين غيرها.

لم تقرّر بعد، ولعلّها لا تحتاج إلى اتّخاذ القرار الآن. فلا هي تحتاج إلى اليقين ولا هي تثق به. الشهرُ فترةٌ كافيةٌ كي تستعدّ. سيكون موتاً بسيطاً، غير معقّد. ستُنجز الورقة العلميّة التي ظنّت تعمل سرّاً عليها منذ مدّةٍ طويلة، وهي ورقةٌ مثيرةٌ للجدل عن «ذاكرة الماء» كانت تخاف أن يطلع الآخرون عليها فتجلب عليها نقداً لاذعاً وسخريةً من بقيّة العلماء. أمّا الآن فالأمر لا يهمّ. سوف

تسدّد بعض الديون العالقة، وترتاد مطاعمها المفضّلة، وربّما تشرب أكثر من المعتاد، وتنفق من مدّخراتها أكثر، وتتبّرّع بما يتبقّى للأعمال الخيريّة... يصعب عليها أن تترك خالها وزوجته اللذين ربّياها، وابنتهما (هيلن) التي كانت بمثابة أختها. لكنّها ترجو أن لا يلوموا أنفسهم على ما سوف تفعله.

لا تريد الدكتورة زليخة أن تعيش. تريد أن تستأذن بالانصراف من عالم كثيرًا ما تشعر فيه بأنّها دخيلة، وكأنّها وافدٌ أخرج جاء متأخّرًا، أو ضيفًا طارئًا جاء من الباب الخطأ، في الوقت الخطأ. فهي ليست ولم تكن قطّ حازمةً في أمرها، مثل سميتها القرآنيّة: زليخة. ليست مقاتلة. بل إنّها لا تحبّ حتى أن تتجادل، لا مع زوجها، ولا مع نفسها، ولا مع زملائها أو أصدقائها أو الغرباء، ناهيك عن أن تتجادل مع مفهوم الإيمان الذي نشأت عليه في صغرها، حيث تعلّمت الخشية والمحبة معًا، رغم أنّها لم تجد إجاباتٍ مقنعةٍ لأسئلتها حول فقدان أبويها. هذا المفهوم الذي يربط بين الطاعة والثواب، والعصيان والعقاب. تجد نفسها محبّطةً من هذا المفهوم أحيانًا، بيد أنّها تشكّ في أنّها تؤمن به من الأساس. كلُّ ما تريده الآن هو الانسحاب، والاعتراف الصامت بالهزيمة لشخصٍ مُتعبٍ من محاولة البقاء. فلا مُرّ أقرب إلى العودة منه إلى الرحيل: عودة إلى الماء.

مكتبة

t.me/soramnqraa

- O -

آرثر

بجوار نهر التيمز، 1853

تتّشح لندن بالضباب هذا الصباح. ثمة سكونٌ غريبٌ في شوارعها وحدائقها. صمتٌ مُربكٌ يلتفُّ على نفسه، مثل كيسٍ ينغلق بخيوطه. ورغم أنَّ أجراس كنيسةٍ قريبةٍ قد قُرعت لتوّها للساعة العاشرة، إلّا أنَّ الأجواء تبدو وكأنَّ الغروب قد حلَّ فعلاً. الهواء لا رماديٍّ ولا أبيض، بل بلون المغرة الثقيلة، مع خُضرةٍ في بعض الأماكن. تطفو في الأعلى جزيئاتٌ من السخام والرماد، فيما تنفث نيران الفحم المنزليّة ومداخن المصانع دخاناً مثقلاً بالكبريت، يسدُّ رئات الناس في لندن مع كلِّ شهيق.

يبلغ آرثر الآن ثلاثة عشر عاماً، أبيض البشرة، طويل القامة

بعد طفرةٍ حديثةٍ في نموّه، مع آثار زغبٍ فوق شفته العليا. ينعطف عند زاويةٍ إلى سكةٍ ضيقةٍ من حجرٍ مرصوف. الضباب كثيف، حتى إنّه لا يكاد يرى شيئاً أبعد من بضعة أقدام، لكنّه يثبت نظره على أبيه الذي يغذّ الخطى أمامه.

- «لا تتلکأ يا ولد!».

- «ها أنا أحاول».

- «ليس بالقدر الكافي. تجرّ قدميك مثل رضيعٍ لعين. هيّا تحرّك».

يزيد الصبيّ من سرعته. عاد أبوه إلى البيت بعد غياب شهور، وقد فقد وزنه وما تبقى من حنانٍ قليلٍ كان عنده. شحّ العمل، وحتى المهمّات القليلة التي استطاع أن يحصل عليها حين أفاق من سكره لم يتلقَّ أجرًا عليها. لا ينفكّ يشتكي من قلة المال. وفي هذا الصباح جرّ آرثر من فراشه، وقال إنّ هذا الطفل ظلّ فترةً طويلةً عالّةً على أبويه، وحن الوقت لأنّ يتدرّب على حرفة.

غير أنّ آرثر لم يكن قطّ كسولاً، فمِنذ أن ترك المدرسة ظلّ يعمل في مهنٍ شتى. كان يذهب للبحث في المجاري مع الطواشر الذين منحوه لقبه، ويجمع روث الخيول كي يبيعه للدبّاغين، ويجمع الملابس القديمة كي يتاجر بها مع باعة الخرق، ويساعد بائع عشب الطيور في إطعام طيوره، وفي بعض الأحيان يخوض برّكاً قدرةً مع مجموعةٍ من النساء، يستخدم ساقيه العاريتين لاصطياد العلق. فأُمّه لم تعد تستطيع العمل ساعاتٍ طويلةً كما كانت تفعل سابقاً، وهي تعتني بطفليّن صغيرين. كان الصبيّ قد



أصبح مُعيلاً للأسرة بالفعل، رغم أنَّ والده يحاول أن يُنكر ذلك.

ثمّة شيء فيه يشتاق إلى المدرسة، إلى الروتين اليوميّ، ومتعة حلّ مسألةٍ حسابيّةٍ، ونسيان نفسه في فقرةٍ من كتاب التاريخ، والأمل في تعلُّم شيءٍ جديدٍ ومثير. هذه أكثر الأشياء التي يشتاق إليها. غير أنَّ هنالك أشياء كثيرةً يسعد بأنّه قد تركها، لا سيّما الخوف من دخول مكتب الناظر. على أنَّ هذا لم يعد مهمًّا؛ فقد ولّت أيّام دراسته، وانضمَّ إلى فوج المراهقين العاملين في العاصمة. أطفالٌ كثيرون في ربوع البلاد (ومنهم كثيرون أصغر منه سنًا) يكدحون في أحواض السفن، ومعامل غزل القطن، ومصانع المسامير، ومناجم الفحم. ومنهم من يعمل في الشوارع يصطاد الجرذان، أو يكنس الفضلات البشريّة، أو يتسلّق المداخل التي لا يستطيع الكبار أن يدخلوها. يعرف آرثر المشقّة التي يلاقونها، بأعينهم المطفأة الغائرة. وقد التقى من قبل فتيات يعملن في مصانع أعواد الكبريت، تشوّهت فكوكهنّ من أثر الكبريت الأبيض الذي يستخدمه يومًا بعد يوم. كما سمع حكاياتٍ مرعبةً عن فتيان سكك الحديد الذين مزّقتهُم قطاراتُ الشحن إربًا، أو صنّاع الفساتين الذين يتنشّقون جزيئات الألياف الدقيقة، فلا يدركون ما حلَّ بهم من سَقَمٍ إلّا بعد فوات الأوان. يعرف هذا كلّهُ، لكنّه لا يعرف إلى أين يَقرّده أبوه الآن. وكلّما طرح السؤال، نهّره أبوه. لكنّه يحاول مرّةً أخرى.

- «في أيّ شيء يشتغلون؟».

فيقول أبوه بصوتٍ يكتمه الضباب: «قلْتُ لك يا ولدي. إنّهم طبّاعون. لديهم آلات نشرٍ كبيرة. ينشرون أشياء كثيرة. عملٌ

جاء، مستقرٌ ومحترم».

- «إن كان عملاً مهمًّا جدًّا، فلماذا قد يرغبون في توظيفي أنا؟».

- «لأنهم في حاجةٍ إلى ساع. كلُّ مشروعٍ يحتاج إلى هذه الوظيفة. ما هذه الأسئلة الغبيّة؟».

- «ولأيِّ شيءٍ يحتاجون إلى ساع؟».

فجأةً يلتفت الأب، فيشدُّ الطفلَ من ياقته ويدفعه إلى الجدار.

- «يا ابن الحرام، أظنُّ أنَّ بوسعك البقاء عالَةً عليَّ طوال عمرك؟ تستنزف دمي؟».

يحاول آرثر جاهدًا تخليص نفسه من قبضة الرجل. ورغم انقباض بطنه من شدّة الخوف، فإنّه يقول: «أمِّي هي التي رعّثني. هي التي ربّنتي، لا أنت».

صفعةً على وجهه. يتطوَّح الصبيُّ من قوّة الضربة، ثم ينهض على قدميه في هدوءٍ وهو يحترق في داخله.

يُكمّلان السير دون كلمةٍ أخرى. وفي مكانٍ ما وسط الضباب كلبٌ ينبح، ورضيعةٌ ينشج، وأصواتٌ تتعالى.

بعد قليلٍ يذفان إلى زقاقٍ غير بعيدٍ عن شارع «نيو أكسفورد». الضبابُ أشدُّ هنا، وأثقل. يمدُّ الصبيُّ يده أمامه، فيخطو بحذرٍ في الضباب الممتدّ من كلّ الجهات. بالكاد يستطيع أن يرى أبعد من معصميه، والهواء قارس.

- «ابق قريبًا منِّي يا ولد».

يستشعر آرثر السبب الذي يجعل والده يبدو قلقًا هكذا فجأة، ففي نهاية هذا الشارع يقع حيُّ «سينت جايلز»، وهو واحدٌ من أخطر الأحياء الإجرامية في المدينة، إذ يُعرف بمزوريه، ونشأليه، وعاهراته. وقد شرعت السلطات مؤخرًا في إزالة هذا الحي العشوائي عبر دمج «شارع أكسفورد» بشارع «هولبورن»، غير أن هذا لم يغيّر كثيرًا في حياة ساكنيه.

يغذُّ الوالد والابن الخطي، يتخيّران طريقهما عبر متاهة الطرقات. تنتشر من حولهما نتانة الخضروات الفاسدة، والقمامة العفنة، والبول الآسن. بين وقتٍ وآخر، حين ترتفع الغشاوة، يلمحُ آرثر نظرةً من السكّان. أطفالٌ هزيلون تتهاذى الأسماك التي يلبسونها من فوق أجسادهم، ورجالٌ ذوو حدودٍ غائرةٍ وسيماء كالحة، ونساءٌ مشغولاتٌ بأعمالهنّ فلا يلاحظن وجوده، فيما أخرياتٌ مستعدّاتٌ لعرض أنفسهنّ مقابل مبلغٍ زهيد، حتى لصبيّ في مثل سنّه.

– «إذن أحضرت ابنك كي يجرب للمرة الأولى، هاه؟».

يلتفت آرثر، فيرى طيفًا يختبئ في ممرٍ معتم، يكاد يكون مخفيًا من وراء الطوب الذي اسودّ من السخام. شعناء الشعر، تنتشر على بشرتها حبوب الجدريّ، ووجهها شاحبٌ نحيل. ثمّة جرحٌ قديمٌ يمتدُّ من جانب فمها، فتبدو وكأنّها تتبسّم حتى حين تمتلئ نظراتها يأسًا. يستشعر الصبيُّ حرّجًا، لا من تعليق المرأة، بل من العجز الظاهر في نبرة صوتها. لم يلحظ آرثر في غمرة التهائه ذلك التعبير الحائر على وجه أبيه، إلى أن سمعه يقول: «ولماذا أحضر ابني إلى مومسٍ قبيحةٍ مثلك؟».

تحاول المرأة أن تستخفّ بإهانتها، فتقول: «يا سيّدي، إن أحضرت لي ملابس جميلة، سأبدو جميلة».

- «كلّا أيّتها التعيسة. من يبذّد نصف بنسٍ على عاهرةٍ بائسةٍ مثلك؟ وهل يُصنع كيس حريرٍ من أذن خنزير؟».

يحدّق آرثر في أبيه مندهشًا، لا يصدّق أنّه يقول شيئًا مريعًا كهذا. يشعرُ بحسٍّ عميقٍ بالخزي، يغرزه في حلقة مثل عظم سمك. يريد أن يعتذر للمرأة عن فظاظة أبيه، ولكنّ أيّ كلامٍ يا تُرى يُمكن أن يُقال لها فلا يزيدُها شعورًا بالمهانة والأذى؟  
- «تحركّ يا ولد».

يمشي الصبيُّ خلف أبيه، مطأطئ الرأس، وقد اشتعل وجهه خزيًا وصغارًا. وحتى وهما ينعطفان في زاويةٍ عند نهاية الشارع، ما يزال يسمع العاهرة تتمتم وتكيل الشتائم لهما.

بعد أن يغادرا حيّ «سينت جايلز»، يسيران شرقًا نحو النهر. يتوقّفان أمام مبنى من طابقين، علّقت فوق بابه لافتةٌ نحاسيّة.

برادبري وإيفنز

ناشرون ملوكيون(\*)

للنقش وطباعة الطوابع البريدية والشهادات والصحف والدوريات  
والمطويات والكتب المميّزة

---

(\*) في الأصل: (Publishers Extraordinaire to the Queen): وهو لقبٌ شرفيٌّ كانت تخلعه ملكة بريطانيا على الأفراد المميّزين في بعض الحِرَف. (المترجم)

تَصُرُّ اللافتة من مفاصلها، فتُعيد إلى الذكرى صوت غصن يكاد ينكسر مع الريح. يُصغي آرثر وهو يحدِّق في الكلمات، ولعلَّه كان سيبقى متسمِّراً في مكانه لولا أنَّ أباه بدأ بالصراخ من جديد.

- «أسرع يا ولد! لا وقت لدينا».

\*\*\*

بعد بضع دقائق، يجد آرثر نفسه في غرفةٍ فسيحةٍ علَّقت على جدرانها مطبوعاتٌ مؤطَّرة. ألسنة اللهب تطلق في المدفأة، وثمة مكتبٌ كبيرٌ من المهوغني في كلِّ جانب. وخلف المكتبين يجلس صاحبها الشركة: السيّد إيْفنز (الشريك الثانوي)، والسيّد برادبري (الشريك الأساسي).

عند النافذة، ثمة قفص طيورٍ معلَّق على عمود نحاسٍ مزخرف، وبه ببغاوان ذوا صدرٍ أزرق. كانت هذه الطيور قد شاعت كثيراً، منذ أن قدَّم ببغاوان هديَّةً للملكة فكتوريا. وهكذا سريعاً ما انتشرت هذه الصرعة (إذ تبدو صرعةً بالفعل). ففي كلِّ أسبوعٍ تأتي شحنةٌ جديدةٌ من جنوب أستراليا إلى إنكلترا، ثم تُوزَّع إلى المنازل وأقفاص الطيور في ربوع البلاد. يُفتتن الصبيُّ بهذين الطائرين، فيستغرق الأمر منه لحظةً حتى يركِّز على الحوار الدائر من حوله.

يتحدَّث والده سريعاً، فيقول إنَّ له عميلاً صيدلانيّاً، لفرط سعادته بالخزانة التي صنعها له، وعده بأن يجد عملاً لابنه. وقد اقترح هذا الصيدلانيُّ عليه أن يزور شركة برادبري وإيْفنز التي

يعرفها جيّدًا، إذ إنّه يطبع إعلاناته فيها، وقد وعد بأن يزكّي الصبيّ. ويبدو من التعابير الفارغة على وجهي السيّد برادبري والسيّد إيفنز أنّ الصيدلانيّ لم يفعل ذلك.

يقول السيّد إيفنز بتشكّك لا يرى ضرورةً لإخفائه: «للأسف، يبدو أنّ هناك سوء فهم. فلم نكن في انتظاركما».

«أعتذر يا سيّدي. لا أعرف لماذا لم يف عميلي بوعدته. لقد أكّد لي أنّه سوف يتحدّث إليكما».

فيهزّ السيّد برادبري رأسه، ويقول: «حتى إن تحدّث إلينا، فلن يغيّر هذا من الأمر شيئًا. لسنا في حاجةٍ إلى توظيف أحدٍ في هذه الفترة».

ينظر آرثر إلى وجه أبيه الشاحب. ذلك الرجل الذي يعنّف زوجته، ويكيل الضرب والشتائم لأطفاله، والذي أهان عاهرةً مسكينةً قبل قليل، يبدو الآن ذليلاً تمامًا. حتى صوته تغيّر.

- «أرجوكم أيّها السيّدان... لم لا تعطيان ابني فرصةً للتجربة؟».

يستشعر آرثر أنّ أباه لا يملك أيّ فرصة، مهما حاول أن يتزلف إلى هذين السيّدَيْن الأنيقَيْن، بصدرتَيْهِمَا المطرَزَتَيْن وربطة العنق الحريريّة. ينظران إليه بازدراءٍ واضح، فليس في أعينهما سوى احتقار. يغتمّ الصبيّ لرؤية أبيه ذليلاً، فنحن لا نوّد أبدًا أن يرى الآخرون ضعف أبويّنا. رذائلهما شأنٌ خاصٌّ بنا وحدنا، سرٌّ نفصّل أن نحفظ به لأنفسنا. فإنّ انكشفت تلك الرذائل أمام أعين الآخرين، لا نعود، نحن الأطفال، كما كنّا قبل ذلك.

يقول السيّد إيفنز، وهو يسند ذقنه بأصابعه: «للأسف، يبدو أنكما قطعتما كلّ هذه المسافة دون جدوى. لسنا في حاجةٍ إلى ساع».

فيقول آرثر، وهو يومئٍ ناحية الباب دون أن ينظر إلى أيٍّ أحد: «هيا بنا يا أبي. لنذهب».

لكنّه لا يستسلم. «أيّها السيّدان، أرجو أن تفهماني. لديّ سببٌ وجيهٌ لإلحاحي. ابني عبقرئ».

يُسْقَطُ في يدي آرثر، ويصاب بالذهول، ذلك أنّ أباه لم يقل كلمة إطراءٍ لأطفاله قطّ، بل لم يقلها لأيٍّ أحد.

— «تعال يا ولد. أَرهما عبقرئتك».

يقف آرثر ساكنًا، وقد أشلّه الخزيُّ. يشدّه والده من كتفيه، ويدفعه نحو السيّدَيْن. «أنتما تطبعان الرزنامات أيضًا، أليس كذلك؟ يمكنكما أن تسألا ولدي عن أيّ تاريخٍ مضى. اختارا أيّ تاريخٍ تريدان».

فيقول السيّد برادبري. «لم أفهم ما تقصده بذلك».

— «ابني هذا طفلٌ عجيب. له ذاكرةٌ استثنائية. لا تخطئ أبداً، صدّقني. امنحه فرصةً وسوف يثبت لك ذلك. لن تندم. اختر أيّ تاريخٍ من السنوات السابقة، واسأله عن اليوم الذي يوافق ذلك التاريخ».

يتبادل الناشران النظرات، فينتقل شيءٌ من قلقٍ بينهما. يهرّ السيّد برادبري رأسه، متفكّرًا. «حسنٌ، سنمضي معكما إلى النهاية. أخبرني عن تاريخ اليوم من العام الماضي».

يحدِّق الثلاثة في الصبيّ، فيتورّد خجلًا. لا يودُّ أن يخبرهم عن هذا اليوم من العام الماضي، والذي كان يوم ثلاثاء. فحين وصل إلى البيت، وجد أمّه على الأرض، وقد تجرّعت قارورة كاملة من اللودانيوم، ثم استفرغته كلّ على نفسها. كانت رائحة فظيعة، تستقرُّ في كلّ شيء تلمسه، فظلّت أسبوعًا كاملًا لا تختفي. يلوي آرثر شفّته، ويشيح ببصره.

يلتمع شيء من جزع في عيني أبيه. «هيا يا بنيّ... أيّ يوم كان؟ أخبر هذين السيّدَيْن. لا تخرجني».

لا ينس آرثر بنت شفة، وتزداد نظرته حدّة وبعداً.

— «تعمّد أن تضايقني! كيف تجرّؤ!».

فيقول السيّد إيفنز: «لا ينبغي لنا أن نضغط على الطفل».

— «لا، لا. لا أفهم لماذا يتصرّف هكذا. اسأله عن تاريخ آخر. فرصة أخرى، أتوسّل إليك».

فيقول السيّد برادبري: «حسنٌ. ماذا عن الثاني عشر من تشرين الأوّل / أكتوبر عام 1849؟».

يأخذ آرثر نفسًا ثم يتحدّث بصوتٍ بطيء ثابت: «كان ذلك يوم جمعةٍ يا سيّدي. ظلّ المطر يتساقط طوال العصر. كانوا يحملون جثث خمسة عمّال، في «بمليكو». هناك وقع الحادث. فقد تسمّموا بغازات المجاري. رأيتُ الجثث. كنتُ هناك. جاءت الشرطة، وكان هناك صحافيّون أيضًا».

يغمض الصبيّ عينيه لحظة، يتذكّر وجوه الموتى، مصقولة وكأنّها مصنوعة من البرونز، وأيديهم ملطّخة بالطين ومقبوضة،



رغم أنه لم يعد فيها شيء من قتال.

يتنحى السيد برادبري. «اسمع يا ولد. لعلمك فنحن نطبع الصحف أيضًا هنا. فإن كنت تخلق هذه الحكاية، سيكون من السهل علينا أن نكذب ما قلته. والآن قل لي، هل تتذكر فعلاً حدوث ذلك؟».

يرفع آرثر وجهه ويقول: «أنا لا أكذب يا سيدي».

يقول السيد برادبري: «حسنٌ، سوف نتأكد من ذلك»، ثم يلتفت إلى شريكه الأصغر ويقول: «من فضلك تحقق لنا ممّا قاله هذا الولد».

يحط صمتٌ مُربكٌ بعد أن يغادر السيد إيفنز الغرفة. وفيما هم ينتظرون عودته، ينصتون إلى الأصوات القادمة من الشارع: عربةٌ تمرُّ بسرعةٍ خطيرة. حوافر يتردد صداها على الحجر المرصوف، فتكتم صراخ بائع يبيع كعك الزنجبيل.

في النهاية، يدخل السيد إيفنز مسرعًا، وهو يلوح بصحيفة في يده. يتسم، ويقول: «كما قال الصبي بالضبط!».

فيتمتم السيد برادبري، وقد اشتعل في عينيه اهتمام: «غريب! دعونا نجرب تاريخًا آخر. الثالث عشر من حزيران / يونيو عام 1851».

يُميل آرثر رأسه جانبًا، فيشعُّ وجهه بالذكريات. «كان ذلك في يوم الحفل التنكريّ في قصر باكنغهام. كنتُ أنتظر عند البوابات الملكية، أرجو أن أرى طرفًا من الأزياء. سمعتُ أنهم سيتنكرون في شكل شخصيّاتٍ تاريخيّة، لكنّ الزحام كان شديدًا،

فلم أرَ شيئًا. كان الجوُّ جميلًا، رغم الريح. كان هذا أيضًا في يوم الجمعة».

يسأل السيد إيفنز مبتهجًا: «هل أتأكد؟».

فيقول السيد برادبري: «لا ضرورة لذلك». يتفحص الولد من خلف نظارته، ويقول: «لديك ملكةٌ عجيبةٌ يا فتى. أعترف بأنك أثرت إعجابي».

يلاحظ آرثر أن أباه يسوّي كتفيه، بعد أن عبر شيءٌ أشبه بالارتياح على وجهه، فيقول: «ألم أقل لك يا سيدي؟».

يتجاهل السيد برادبري تعليقه. «حسن، سنجرّب. ولكن لأسبوع واحد فقط. فإن لم يرضنا الأمر مع نهاية الأسبوع، لأي سبب كان، ينصرف كلُّ منّا إلى حال سبيله في هدوء. وعندها، لا أريد أن أرى أيّا منكما مرّةً أخرى. مفهوم؟».

- «بالتأكيد سيدي. أعدك بذلك. ولدي سريع التعلم».

يرتفع حاجبا السيد إيفنز في ابتهاج، ويصفق بيديه، ثم يقول: «حسنٌ أيّها الفتى سُمث. مرحبًا بك في عالم النقّاشين والطّباّعين».

يبتسم آرثر في خجل. «شكرًا لك سيدي».

فيقاطعه أبوه، حريصًا على ألا يتجاهلوه: «ومتى تريدان أن يبدأ العمل؟».

فيردّ السيد برادبري: «يمكنه أن يبدأ فورًا. أمّا أنت، يا عزيزي، فلك أن تنصرف الآن. وأنا واثقٌ من أن الصبيّ يستطيع العودة إلى البيت بنفسه».

- «أوه، في هذه الحالة إذن... أرجو، أيُّها السيّدان المبجّلان، أن تقدّرا أنّي اضطرّرتُ إلى التّضحية بأجرٍ يوميّ، كي أحضر ولدي إلى هنا. وأنا واثقٌ من أنّ مثلكما لن يرضيا بإفلاسي... ولعلكما توافقان على دفع مقدّم من أجر الولد».

فيعنّفه السيّد إيْفنز قائلاً: «تطلبُ مالاً؟ سوف نتظاهر من أجل الصبيّ فقط بأننا لم نسمع هذا الكلام. طاب يومك».

ينظر آرثر إلى أبيه، وقد تغصّن جبينه، وخرج دون أن يلقي نظرةً واحدةً على أحد.

بعد لحظة، يشعر آرثر بكفّ تربّت على كتفه. السيّد برادبري.

- «اسمهما لايس ولازولي».

- «عفوًا سيّدي؟».

- «الطائرَيْن أقصد. لاحظتُ أنّك كنتَ تنظر إليهما. وهذان اسماهما. وإن جمعتَ الاسْمَيْن حصلتَ على حجرٍ كريم».

يرمشُ الفتى بعينه.

- «أوه، لا تعرف الحجر الأزرق البرّاق؟ لايس، من اللغة اللاتينيّة، وتعني «حجر». أمّا لازولي فأصلها عربيّ وفارسيّ، وتعني «الأزرق السماويّ»... حضاراتٌ كثيرةٌ كانت تثمّن هذا الحجر. المصريّون، والإغريق، والرُّوم، والصّينيّون، وأهل بلاد الرافدين تحديدًا».

يُنصت آرثر، مفتونًا.

- «لديك أشياء كثيرة تتعلّمها أيّها الفتى سمث. أرجو أن تكون محبّاً للتعلّم».

فيقول آرثر، وعينه تشعان: «نعم سيّدي، أحبّ التعلّم».

«جميل. في هذه الحالة إذن، تعال وساعدني». يفتح الناشر الباب ويدخل إلى البهو.

يتبع آرثر السيّد برادبري إلى غرفة في القبو، فيرى منظرًا مدهشًا. أمامه أعدادٌ ساحرةٌ من الكتب والمطويات والمجلّات، مكوّمة على الأرض ومرصوفة على الأرفف كيفما اتّفق. في وسط هذه المملكة الورقيّة آلةٌ ضخمةٌ جائمة، سوداء اللون، تعمل بالبخار، وفيها بكراتٌ وأسطواناتٌ وصفائحٌ مؤتمّة.

يبتسم السيّد برادبري ويقول: «تحفةٌ هندسيّة، أليس كذلك؟ ما رأيك؟ هل أعجبتك؟».

- «ما... ما هذه يا سيّدي؟».

- «آلةٌ طابعة. كلّ ما تراه في هذه الغرفة خرج من هذا الاختراع». ثم يشير إلى دُرج خشبيّ فيه عشرات الأقسام، وفي كلّ من هذه الأقسام حروفٌ وأرقامٌ ورموز. «نشكّل هذه باليد على صفيحة معدنيّة. نحصل على الحروف من أفضل المسابك، ونستخدم أجمل الخطوط. إنّ اجتهدتَ في عملك، سنعلّمك كيف تفعل ذلك».

يقترّب آرثر بحذرٍ من الآلة، لكنّه لا يجرؤ على لمسها. في الطرف الآخر من الآلة صفحةٌ طُبعت حديثًا. يلتقطها السيّد

برادبري ويقرأ سطرًا منها: «دع العالم الكبير يدور إلى الأبد، على تجاوب التغيير الصاخبة». ينظر إلى الصبي، ويسأله: «هل تعرف هذه الكلمات؟».

يهزُّ آرثر رأسه نافيًا.

- «هذا شعرٌ يا فتى. [اللورد ألفرد] تَنسِن. هل تعرف الشعر؟».

- لستُ متأكّدًا من ذلك يا سيّدي. كنّا في المدرسة ننشد الترانيم، ونحفظ المعادلات الرياضيّة وندرس الكتاب المقدّس. لم يقل لنا أحدٌ شيئًا عن الشعر».

«مؤسف». يلتقط السيّد برادبري صفحةً أخرى ويقرأ منها:

آه يا حبيتي، املئي الكأس الذي  
يغسل اليوم من ندم الماضي وخوف القادم.  
والغد؟ غدًا قد أكون أنا  
بسبعة آلاف سنةٍ من الأمس.

تَسع عينا آرثر، ويقول: «هل هذا شعرٌ أيضًا؟».

- «بالطبع. لكنّه لم يشتهر بعد. من أشعار عُمر الخيّام. صديقي إدورد فتزجرالد، وهو كاتبٌ وشاعرٌ أيضًا، يترجمه من الفارسيّة. لكنّ الأمر يستغرق وقتًا طويلًا. إن سارت الأمور على ما يرام، فسوف ننشره قريبًا».

تَنسِن... الخيّام... فتزجرالد... يتفكّر الصبيُّ في كلّ ذلك. هناك أشياء كثيرةٌ لا يعرفها. الأمر مرعب، ولكن من الشائق جدًّا إدراكُ أنّ العالم الذي عاش فيه حتى الآن واحدٌ من عوالم كثيرةٍ محتملة.

يَتَبَسَّمُ لَهُ السَّيِّدُ بَرَادِبَرِي، وَهُوَ يَتَفَرَّسُ فِيهِ. «لَا تَقْلُقْ، لَدَيْكَ وَقْتُ كَثِيرٍ لِلتَّعَلُّمِ. تَذَكَّرْ يَا آرْتُرُ أَنَّ الْحَيَاةَ مَلِيئَةٌ بِالْمَفَاجَأَتِ. وَمَنْ يَدْرِي، فَقَدْ تَغْوِيكَ مُتَعَةُ الشَّعْرِ أَنْتِ أَيْضًا. وَذَاتَ يَوْمٍ، رُبَّمَا تَغْدُو ذَوَّاقَةً لِلشَّعْرِ وَعَاشِقًا لِلْكَلِمَةِ».

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ تَحْدِيدًا، تَحْطُّ أَنْظَارُ آرْتُرِ (الَّتِي كَانَتْ تَبْحَثُ فِي الْغُرْفَةِ فِي فَضُولٍ) عَلَى غِلَافِ كِتَابٍ. يَتَعَرَّفُ عَلَى الْكَلِمَاتِ الَّتِي طَارَدَتْهُ مِنْذُ أَنْ رَأَاهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ: نِينَوِي وَأَثَارَهَا. الْعَنْوَانُ نَفْسُهُ الَّذِي رَأَاهُ فِي مَكْتَبِ النَّازِرِ، هَا هُوَ يَظْهَرُ فِي حَيَاتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، مِثْلَ نَهْرٍ مُتَعَرِّجٍ يَمِيلُ إِلَى جَانِبِهِ وَيَعَاوِدُ الظُّهُورَ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ جَفَّ.

– «سَيِّدِي. هَلْ تَطْبَعُونَ هَذَا الْكِتَابَ أَيْضًا؟».

يَلْتَفِتُ الرَّجُلُ، لِيَرَى مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ الصَّبِيِّ. «آه، نَعَمْ. لَقَدْ لَقِيَ الْكِتَابَ إِقْبَالًا كَبِيرًا، وَبِيعَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفَ نَسْخَةٍ! وَقَدْ طُلبَ إِلَيْنَا أَنْ نَطْبَعَ الطَّبْعَةَ الثَّانِيَةَ، عَلَى أَنْ تَكُونَ أَصْغَرَ حَجْمًا وَأَرْخَصَ ثَمَنًا، لِتَحَقِّقَ انْتِشَارًا أَكْبَرَ. لَعَلِّي أَجَازِفُ بِالْقَوْلِ إِنَّنَا سَنَوَاجِهُ صَعُوبَةً فِي مَجَارَاةِ الطَّلَبِ عَلَى الْكِتَابِ. النَّاسُ تَوَاقُونَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَزِيدِ عَنْ آثَارِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. بَلْ إِنَّهُمْ حَرِيصُونَ أَيْضًا، عَلَى مَعْرِفَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِعَبْدَةِ الشَّيْطَانِ».

– «وَلَكِنْ مَنْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ يَا سَيِّدِي؟ أَنَا أَيْضًا، كُنْتُ أَتَسَاءَلُ عَنْ ذَلِكَ».

فِيغْمِزُ السَّيِّدُ بَرَادِبَرِي لَهُ وَكَأَنَّهُمَا صَدِيقَانِ قَدِيمَانِ. «عَلَيْكَ أَنْ تَقْرَأَ الْكِتَابَ، كَيْ تَعْرِفَ أَيُّهَا الْفَتَى».

- «أوه، شكرًا جزيلاً. هذا من دواعي سروري. هل لي أن أستعير نسخة حين يُطبع الكتاب، إذا رضيت أنت والسيد إيفنز عن عملي؟».

ينظر الرجل إلى الطفل، ورغم أنه لا يتوقع جدية الأمر، إلا أنه يقول: «هل أنت مهتمٌ فعلاً برواية باحثٍ عن رحلته إلى بلاد الرافدين واكتشاف مدينة آشورية قديمة؟ عجبٌ حقًا. هلّا شرحت لي سبب حماسك؟».

- «الأمر وما فيه... أن اسم نينوى يبدو بالنسبة إليّ حُلماً عن مكان، لا يشبه شيئاً ممّا عرفته أو رأيته من قبل. من هناك أتت الثيران المجنّحة، اللاماسوات. رأيتها عند المتحف البريطاني، ومنذ ذلك الحين أسرتني».

يُنصت السيد برادبري، بملامح ثابتة لا تتغيّر.

فيتابع آرثر بثقة: «وقد ظللتُ أتساءل عن أولئك الناس المذكورين في العنوان، لا سيّما اليزيديين. هل يعبدون الشيطان حقًا، أو أنهم فهموا خطأ، واتّهموا بشيءٍ لم يفعلوه؟ فأنا يا سيّدي، أنا... أعتقد أنني...». يتلعثم الصبي قليلاً، لكنّه يتمكّن من إنهاء فكرته: «أعرف شعور من يُساء فهمه ويُظلم».

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2024

- «جدّتي، أولئك الذين يقولون أشياء فظيعةً عنّا -».

- «ما بالهم يا قلبي؟».

- «ليتهم قابلوكم، فلو أنّهم عرفوك، لأحبّوك. كيف لأحدٍ ألاّ يحبّك؟».

- «يا نارين، يا بهجة حياتي».

يعيْثُ نسيم دجلة بشعر الفتاة وأطراف حجاب العجوز،  
المعقود بغير إحكام حول رقبتها. لقد ظلّتا تسيران على الدرب  
الضيّق صعودًا، تجمّعان الحمّيض والثوم البرّيّ وحشيشة السعال



واللاميون الأبقع. وحين ترتفع الحرارة قليلاً، تتوقّفان لالتقاط الأنفاس. تجلسان في ظلّ بروزٍ صخريّ، فتطالعان البلدوزرات الصفر والشاحنات القلّابة وهي تهدر في الأسفل.

- «هلاً حكيت لي حكايةً يا جدّتي؟».

- «أيّ حكايةٍ تريدين يا روعي؟».

- «حكاية خلق الله لهذا العالم».

- «مرّةً أخرى؟ حكيتها لك مرّاتٍ عديدة».

تخشى نارين ما سوف يحدث بعد أن تُصاب بالصمم؛ فلن تفقد موسيقى أبيها فحسب، بل حكايات طفولتها أيضاً. جدّتها أميّة، لا تقرأ ولا تكتب. في وسعها أن تخربش اسمها على ورقة، لكنّها لا تستطيع أن تكتب الكلام الذي تحمله في داخلها. ولذلك تريد نارين أن تسمع كلّ حكايةٍ تعرفها العجوز قبل أن تفقد سمعها، كي يمكنها أن تسمع تلك الحكايات حين يصمت كلّ شيءٍ حولها. لهذا السبب تتوسّل الآن: «مرّةً أخرى.. أرجوك».

- «حسنٌ إذن. في تلك الأيام، تلك الأيام البعيدة...».

عادةً ما تبدأ قصص الجدّة بالطريقة نفسها، بالكلمات التي ظلّت تُقال آلاف السنين، وكأنّها تعويذة.

فلا تملك نارين إلّا أن تنضمّ إليها: «في تلك السنين البعيدة، في سالف الأزمان...».

تقول الجدّة بهدوء: «أجل، في سالف الأزمان. قبل أن تُخلق الأرض، لم يكن ثمة شيءٌ سوى الربّ خودي ولا شيءٌ غيره. في ذلك الوقت كان كلّ شيءٍ هادئاً، ساكناً. لا شيءٌ سوى

السكون التام، فالأصوات لم تُخلق بعد. ولا حتى الهمس. وذات صباح، قرّر الربُّ أن يصوغ لؤلؤةً من جوهره الثمين فيملؤها بضوءٍ إلهيٍّ. كانت لؤلؤةً لفرطِ بريقها يُعجب الربُّ بصورته على سطحها».

تخبّط نارين على ركبتيها في تشوّقٍ لما سيأتي بعد ذلك.

- «وعهد الربُّ بهذه اللؤلؤة إلى طائرٍ سحريٍّ يُسمّى أنفار، فحفظه في عشّه إلى أن أصبح بيضة. ظلّت الجوهرة هناك، مخفيةً، محميةً، مُصانة. واستمرّ الحال هكذا أربعين يومًا، أو ربّما أربعين ألف سنة. لا فرق، فالزمن هو الآخر كان داخل تلك اللؤلؤة، لم يُولد بعد. لم يكن الزمن مقسّمًا إلى سنواتٍ أو شهورٍ أو أسابيع أو ساعات. كان الزمن كلًّا واحدًا، وكانت اللؤلؤة جزءًا من الكلّ، مثل كلّ شيءٍ آخر».

تحبس نارين أنفاسها، فهذا هو القسم المفضّل عندها من الحكاية، حين يبدأ الربُّ بتصرّفاتهِ العجيبة.

- «وعندها، لسببٍ لن نعرفه أبدًا، وطأ الربُّ على اللؤلؤة بكلِّ قوّته، فهشّمها إلى أشلاء صغيرة. وهكذا أنشأ خودي الجبال، والغابات، والأودية. من الكسر المتناثرة نَحَتَ الشمس والقمر. وعلّقَ النجوم في الأعالي زينة، ثم استخرج الماء من لبّ اللؤلؤة وملاً به العيون والينابيع والمحيطات. وخلق سبع ملائكةٍ من ضوئه الإلهيٍّ: سُور. ولهذا نسَمّي هؤلاء الملائكة «الأضواء السبعة»: هفت سُور. فقد خلقها وكأنّه يُشعل سبع شموعٍ من واحدة. في اليوم الأوّل، يوم الأحد، خلق الملاك عزرائيل، وفي

يوم الاثنين خلق دردايل، وفي يوم الثلاثاء خلق إسرافيل، وفي يوم الأربعاء خلق ميكائيل، وفي يوم الخميس خلق جبرائيل، وفي يوم الجمعة خلق شمنائيل، وفي يوم السبت خلق نورائيل. واختار الربُّ ملك طاووس قائدًا لهؤلاء الملائكة الكبار. فهو الملاك الطاووس. ثم خلق السماوات السبع و -.

- «مهلاً، بأيّ لغةٍ كانت تتحدّث الملائكة؟».

- «بلغة الصمت».

- «ما معنى ذلك؟».

«معناه أنّها لم تكن في حاجةٍ إلى الكلمات كي يفهم بعضها بعضاً. كانت تتواصل بالضوء المتوهّج». وهنا تبتسم الجدّة في اشتياق، وكأنّها تتمنّى أن تكون معهم في هذه اللحظة. «بعد ذلك، خلق الربُّ البشر، آدم وحوّاء. المسيحيّون واليهود والمسلمون وكلُّ البشر في هذه الدنيا من ذريّة آدم وحوّاء، إلّا نحن اليزيديّون يا حبيبتى، فقد جئنا من آدم وحده. لم يكن لحوّاء دورٌ في هذا».

- «وكيف يمكن ذلك؟».

- «اختصم آدم وحوّاء ذات يوم، فكلُّ منهما كان يرى أنّه أهمُّ من الآخر. ولكي يعرفا جواب ذلك، وضع كلُّ منهما بذوره في جرّة، وانتظرا شهراً كاملاً. حين فتحت حوّاء جرّتها، لم تجد شيئاً، لكنّ آدم حين فتح جرّته وجد ولدًا وبنّتًا. وهذان أبوانا. نحن البشر الوحيدون الذين انحدروا من آدم وحده».

- «وهل استاءت حوّاء من ذلك؟».

- «لا . فبعد ذلك ولدت حواء أطفالاً كثيرين . كانت مشغولة جداً» .

تمرّر الجدّة راحتها على حاجبيها، فتلمس الوشم المرسوم على جبينها . حبرُ الوشم مصنوعٌ من السخام والرماد وحليب الأم . كان رسم الأشكال على الوجه (الدق) شائعاً بين نساء هذه المنطقة، لكنّ هذه العادة بدأت تختفي . فبعض النساء يرسمن نجمةً أو قمرًا أو شمسًا على الذقن، في حين ترسم أخريات ماساتٍ جلبًا للقوّة وطرذاً للعين . وهناك غيرهنّ يرسمن خليةً نحلي كي يكون كلامهنّ حلواً دائماً . أمّا وشم الجدّة الذي ورثته عن جدّتها، فهو عبارة عن ثلاثة أوتادٍ عموديّة .

تودّ نارين أن ترسم هذا الوشم في وجهها ذات يوم، ومن الإجحاف أنّهم لا يسمحون لها بذلك، رغم أنّ جدّتها وُشِمت حين كانت طفلةً صغيرة . لكنّ الزمن تغيّر، وقد نصحوها بالألا تتعجل، فالوشم أشبه بالوعد، كما يقولون، أو القَسَم الذي يُنقش على جسدك، فلا بدّ أن تكون قادراً على الوفاء به قبل أن تلتزم .

تتنهّد نارين، تتفكّر وهي تميل رأسها . «لكنّي لا أفهم لماذا حطّم الربُّ تلك اللؤلؤة الجميلة» .

- «أعتقد أنّ خودي فعل ذلك من أجلنا، وإلّا ما وُجد البشر . ولا واحداً منّا . فلن تكون هناك أشعة شمس تحيينا كلّ صباح، ولا بيضٌ نلونه بألوانٍ زاهية في الأربعاء الأحمر، ولا حمامٌ يهدل عند النوافذ، ولا عشاقٌ يشبكون الأيدي خفية . . .» .

فتفقه نارين .

- «تخيّلِي . لن تكون هناك حكايات . لقد حطّم الربُّ لؤلؤته الحبيبة من أجلنا . وربّما أيضًا . . . لأنّه أراد أحدًا يكون معه» .  
- «تقصدين أنّ الربّ وحيد؟» .

- «لم يعد وحيدًا يا قلبي ، بعد أن جئنا كلُّنا على هذه الأرض . وكلّما نطقنا باسمه المقدّس ، سمعنا . علينا أن نصلي كلّ يوم له ، لربّنا الرحمن الرحيم المحبّ . سبحانه الحاكم على الملوك والشحّاذين ، ومالك القمر والشمس والنار والماء . فليست الصلاة أن نطلب من ربّنا ، بل أن نناجيه . حين تقلُّ وحدة الربّ ، تقلُّ وحدتنا» .

تأمل نارين ، وهي تزمُ شفّيتها . ورغم أنّها لا تؤدّ الاعتراض على أمر الربّ ، فإنّها لا تملك إلّا أن تتساءل عمّا كان سيحدث لو أنّه لم يفعل ما فعله . لو أنّ خودي لم يحطّم تلك اللؤلؤة الجميلة ، لظلّ الكون مثلما كان ، كاملاً ، مكتملاً . وعندها لن يكون هناك ألم ، أو حزن ، أو خوف .

تنحدر الجدّة من سلالةٍ طويلةٍ من المعالجين . فقد خفّفت أجيالاً من النساء (وعِدّة من رجال) من جانب أمّها من معاناة المرضى والمحتضرين . كثيرًا ما تقول إنّ العلاج أشبه بتطير الطيّارات الورقيّة . فالطائرة الورقيّة قد تسعى إلى التحليق بحريّة في السماء ، في كلّ الاتجاهات في الوقت نفسه ، لكنّ أضلعها لا بدّ أن تبقى مربوطةً بمكانٍ ثابت . ولذلك ليس في وسع المرء إلّا

أن يتقن مجالاً واحداً أو مجالين على الأكثر. بعض المعالجين لا يُسعفون إلا ضحايا العقارب والأفاعي، وهم يتزايدون هذه الأيام مع ازدياد العمل على السدّ وانخفاض منسوب المياه. في أوقات الجفاف والمجاعة تلجأ الحيوانات السامة إلى تصرفات غريبة، وتبدأ في الهجوم على البشر بأعداد كبيرة. تقول الجدة إنَّ شحّ الماء يشوِّش أدمغتها ويقودها إلى الافتراس، ولا تُلام على ذلك.

ثمة معالجون آخرون، مثل ذرّية سورا-سوران، يداوون آلام المفاصل ويعالجون كسر الأوراك. أمّا تخصّص الجدة فهو من نوع مختلف تماماً؛ إذ إنّها تعالج المصابين بالقلق، والاكتئاب، وأمراض العقل. تعتمد الجدة على قوّة النباتات، فتعدُّ أشربة يسعى الناس إليها من كلّ مكانٍ في المنطقة. لكنّ العنصر الرئيس بالنسبة إليها كان وما يزال الماء. تقول إنّهُ يغسل المرض ويصفّي العقل ويهدّئ القلب. الماء أفضل دواءٍ للكآبة.

كلّما حلّت فترةٌ طويلةٌ من جفاف، أو عاث الجراد بالمحاصيل، يجتمع أهل القرية في صلاةٍ جماعيّة يستسقون بها. يمشون في مسير صامتٍ إلى مكانٍ عال، حيث يصطفّون هناك وينادون المُنز. تُثمر صلاتهم أحياناً، ولكنّ حين لا يأتي المطر، يذهبون إلى بسمة. هي التي تستطيع أن تحدّد مواضع الأنهار المفقودة، والمجري الخفيّة، والينابيع المنسيّة. موارد مائيّة مدسوسة في أماكن غريبة، حتى تحت الجبال الجرداء.

في بعض الأحيان تستخدم عصياً نحاسيّة على شكل L، ينجذب بعضها إلى بعض حين تقترب من الماء. وفي أحيانٍ أخرى، تُمسك عُصينا وتُمشي هنا وهناك إلى أن تحسّ بجذبة.

وفي بعض المرات تستخدم بندولاً، في انتظار أن يتحرك. في نهاية المطاف، كما تقول الجدّة، هذه الأدوات ليست سوى وسيط، سواء كان عصاً أم غصناً أم بندولاً. الجسد البشري هو الذي يستجيب لموارد الطبيعة. فالماء في داخلنا يتواصل مع الماء في الخارج. ويمكن للقافر الماهر أن يحدّد عمق ينبوع، ويعرف إذا كان نظيفاً أم ملوثاً.

الجدّة قافرة(\*)، كاشفة ينابيع.

\*\*\*

ينقضّ طائرٌ نحوهما، ثم يحطّ على صخرة قريبة. طائرٌ صغير الحجم، بُني اللون مائلٌ إلى الزيتونيّ، من نوع الهازج، وهو من الطيور الجاثمة المهاجرة ذات التغريد البديع. تنتظران لحظة، رجاء أن يغرد، لكنّه حين يظلّ صامتاً، تسأل نارين بهدوء: «ما الذي سيحدث لأشجار فستقك بعد أن يُبنى السدّ؟».

- «ستغرق، للأسف».

- «لم أكن أعرف أنّ الأشجار تغرق أيضاً».

- «شأنها شأن البشر، تغرق إن حُرمت من الهواء. لن نستطيع أن ننقذ بستاننا، لكنني سأخذ فسيلةً منها قبل أن نرحل. سأحرص على أن تذهب معنا شجرة واحدة على الأقلّ أينما ذهبنا. ما رأيك؟».

فتقول نارين وقد أسعدتها فكرة الشجرة المسافرة: «نعم،

---

(\*) القافر أو الققاء هو الذي يتبّع أثر الماء. (المترجم)

أرجوك. ولكنْ ماذا عن الطيور؟ ستكون بخير، أليس كذلك؟» .  
- «ستكون في حالٍ أفضل من الأشجار، لكنّها لن تجد مكانًا  
تبنى فيه أعشاشها. ولذلك ستُضطرُّ إلى الرحيل» .  
- «ماذا عن البطِّ الرخاميّ» .

- «سيرحل إلى مكانٍ آخر يضع فيه بيضه. كذلك طيور  
النقشار، والقطقاط أحمر اللغد، والمُسهر، والعوسق، والنسر  
الذي يحلّق في الأعالي، كلّها لن تعود إلى حصن كيفا» .  
- «ليت عندنا سفينةٌ ضخمة، نحمل فيها معنا كلّ الحيوانات  
والنباتات ونبحر بعيدًا» .

- «مثل بابا نوح. لقد صنع سفينةً ودعا إليها أسرته  
وأصدقاءه، وأحضر من كلّ حيوانٍ زوجين، ولم ينسَ أن يأخذ  
معه الفستق كي يزرعه ذات يوم. فلمّا جاء الطوفان، جرف  
السفينة، وظلّوا يصارعون الموج فترةً طويلة، إلى أن احتكّت  
السفينةُ باليابسة. وهكذا توقّفوا بهزّةٍ عنيفةٍ عند قمّة جبل. جبل  
سنجار» .

- «وأين يقع جبل سنجار؟» .  
- «في العراق. حين نذهب إلى نينوى مع أبيك، قبل تعميدك  
في وادي لالش المقدّس، سأخبرك أكثر عن هذا الجبل» .  
يُشرق وجه نارين .

- «اسمعي، لم تنتهِ الحكاية. حين اصطدمت السفينة بقمّة  
الجبل، انفتح ثقبٌ في بدنها، فانطلق ماء الطوفان إلى داخل  
السفينة. كانوا كلّهم على وشك الموت: الناس والحيوانات



والنباتات. وعندها ظهرت أفعى سوداء فجأة! صارت تلتفت وتلتفت مثل حبلٍ سميك، فسدت الثقب. لقد أنقذت هذه الأفعى الجميع، ولهذا السبب يحترم اليزيديون الأفاعي ويرسمونها على مداخل معابدهم. وفي قرينتنا أيضًا، نُحيي ذكرى شاهماران العظيمة (الملكة الأفعى). لها رأس امرأة، وجسد أفعى».

- «كيف يمكن لشيء أن يكون بشراً وحيواناً في الوقت نفسه؟».

- «يحدث هذا، فالاختلاف ليس كبيراً بيننا. في بلاد الرافدين كلها كانت هناك مخلوقات هجينة ذات يوم. بل إنَّ جدتي ليلي رأت واحداً منها في شبابه. كان ضخماً له رأس رجل، وجسد ثور، وجناح طائر كبير، وخمس سيقان. وكانت تعرف اسمه أيضًا: لاماسو.

- «لاماسو. يا له من اسم غريب! هل خافت ليلي منه؟».

- «أبدًا يا قلبي. كانت تعرف أنها مخلوقات وديعة».

تنهَّد نارين ببالي مشغول. تبدو جدتها الأكبر ليلي امرأة مدهشة، ويا للأسف أنها لن تلتقيها أبدًا. كم ستكون الدنيا مثيرة لو كان باستطاع المرء أن يلتقي أسلافه، ساعة واحدة على الأقل في حياته.

إلى اليمين على المنحدر مقبرة تحطمت كثير من حجارتها وتهاوت. ورغم أنها كانت في الأصل مقسمة وفقًا لديانات أصحابها، فإنَّ حواجزها الداخلية قد تآكلت بمرور الزمن،

فامتزجت قبور الكرد والأتراك والأرمن والعرب واليزيديين  
والآراميين والزرادشتيين وغيرهم.

وإذ تنعطفان الآن في ذلك الاتجاه، تسأل الطفلة جدتها:  
«جدتي، حين ينتهون من بناء السد سيغطي الماء كل شيء،  
وتغرق القبور. حتى بابا نوح لم يكن في وسعه أن ينقذ المقابر  
من الطوفان».

سقطت كتفا الجدّة شيئًا قليلًا، إذ لم تتوقع ما قالته الصبيّة.  
«تقول الحكومة إنهم سوف ينقلون جميع القبور».

- «وهل تصدّقينهم؟».

- «لا».

تسأل نارين، لكنّها تترك السؤال معلقًا: «ماذا عن  
أمي...».

فتشدّها الجدّة إليها وتقبّل أعلى رأسها. «أعدك يا مقلّة عيني  
أننا سنفعل كلّ ما في وسعنا للتأكد من نقل قبور أهلنا جميعًا إلى  
مكانٍ جافٍّ وآمن».

تقول الجدّة إنّ كلّ يزيديٍّ سوف يعود إلى الأرض سبع مرّاتٍ  
على الأقلّ، كالبخار الذي يصعد إلى السماء، ثم يعود مطرًا أو  
بردًا أو ثلجًا. صحيحٌ أنّ الجسد فان، لكنّ الروح رحالةٌ دائمة،  
شأنها شأن قطرة الماء.

- «لا تنسي أنّ الموت بالنسبة إلينا أقرب إلى الفاصل الزمنيّ  
منه إلى النهاية».

تُنصت نارين وهي تحدّق في يديّ العجوز من ظهرهما،

وكأنَّها تحاول أن تستودعهما ذاكرتها. يدان شائختان تتقاطع فيهما العروق النافرة. يطيبُ لها أن تلمس تلك العروق الزُّرق والخُضر، إذْ تجري تحت بشرة جدَّتْها مثل ينابيع جوفيَّة. وبينما هي تمرُّ عليها بإصبعها، تسأل: «ماذا عن الإنكليزي؟».

فتقول الجدَّة وقد تغيَّرت نبرتها فجأة: «ماذا عنه؟».

قليلاً ما تتحدَّثان عن ذلك الأجنبي المدفون في هذه الأرض.

- «إنَّه من ديانةٍ أخرى. ما الذي سيحدث لقبره حين يُبنى السدُّ وتغرق هذه المنطقة؟».

فتقول الجدَّة بنبرةٍ لا تعبير فيها: «سيختفي تحت الماء. فما عرفتُ هذا القبر إلَّا مُهملاً. لم يأتِ صديقٌ أو قريبٌ لزيارته. لعلَّهم لا يعرفون حتى إنَّه موجودٌ هنا. أقصد أهله».

تستغرب نارين من القسوة في صوتها، فتسألها: «هل التقيته قط؟».

- «لا. لقد مات قبل ولادتي بوقتٍ طويل. جدَّتِي ليلي كانت تعرفه».

- «وما الذي كان يفعله هنا؟ لم تخبريني قط».

- «لا يوجد شيءٌ أخبرك به. بعض الناس لا يستقرون أبداً، كالأنهار».

- «ولكن لا بدَّ من سببٍ دفعه إلى المجيء».

- «يقولون إنَّه كان يبحث عن قصيدة».

- «قصيدة؟» .

تشيخ الجدّة بوجهها وتقول: «لقد سافر الإنكليزيّ مسافةً طويلةً من بلده كي يعثر على أبياتٍ مفقودةٍ من قصيدةٍ قديمة، ويأخذ شيئاً ليس من حقّه أن يأخذه. لكنّهم يقولون إنّهُ ترك شيئاً هنا، ترك قلبه. ولذلك عاد ومات هنا. لقد قضى نحبّه عطشاً على ضفاف دجلة. هذا كلّ ما تحتاجين إلى معرفته» .

- «ولكن لماذا مات عطشاً وهو -» .

- «كفانا ثرثرةً لهذا اليوم» .

تنهض العجوز على قدميّها، بسرعةٍ أكبر من سنّها. تصرُّ ركبّتها. «الوقت تأخّر. هيّا لنعد. لا نريد أن يقلق الآخرين علينا» .

تنهض نارين ببطء. ليس من عادة الجدّة أن تقطع حديثها هكذا في منتصف الحوار.

تسيران في صمت، ويسير ظلّاهما إلى جانبهما. تنبعث من العشب الذي تحت أقدامهما رائحةٌ عتيقة. ثمّة بلدوزر آخر ينفث دخاناً داكناً في الهواء. وشجرة فستقٍ تنتهدّ قبل قدوم الفيضان. والأرض من حول كاستروم كيفاً لوحةً رسم من ندوب.

ومع وصولهما إلى القرية اليزيديّة القديمة، بسكّانها الذين يقلّون شيئاً فشيئاً، كانت نارين قد نسيت تقريباً حكاية الإنكليزيّ المدفون عند دجلة.

-O-

آرثر

بجوار نهر التيمز، 1853 - 1854

لئن كانت رحلة الحياة، كما يقول الشعراء، أشبه بمسيرة  
الأنهار إلى البحر، حينًا تلتوي من دون هدف، وحينًا تمضي ثابتة  
هادفة، فإنَّ التواءها ذاك، هو المكان الذي تتخذ فيه الحكاية  
منعطفًا مفاجئًا، فتحيّد عن مسارها المتوقع إلى اتّجاهٍ جديدٍ غير  
متوقّع. وحين يصبح آرثر متدرّبًا في دار نشرٍ وطباعةٍ كبرى في  
إنكلترا، يكون ذلك هو المنعطف الذي يغيّر أقداره إلى الأبد.

في أوّل الأمر يكلفونه بأعمالٍ عشوائيةٍ لا أهميّة لها، كأن  
يمسح الأرضيّات، أو ينفذ الغبار عن الأرفف، أو يزيل شباك  
العناكب، أو يسدّ فتحات الفئران، أو ينظف الأوساخ التي علقت

بحواف النوافذ. الهواء في الخارج شديد القذارة، فما إن ينتهي من تنظيف زجاج النوافذ حتى يتغطى مرةً أخرى بطبقة سخام. يراقب سيّده كلّ حركةٍ من حركاته، ويلاحظان كيف يستجيب إلى كلّ طلبٍ أو مهمّةٍ صعبة. غير أنّهما شيئًا فشيئًا، يسمحان له بالاقتراب من الآلات. يكتشف آرثر أنّ الطباعة مهنةٌ خطيرة. فليس من السهل تشغيل تلك الطباعة البخاريّة الدوّارة ذات الأسطوانات العشر. صحيحٌ أنّها متينة، متقنة الصنع، لكنّها في الوقت نفسه ثقيلةٌ خرقاء. فإنّ لم تتحلّ بالحرص معها، ربّما تفقد طرفًا من أطرافك.

خطيرة، نعم، لكنّها مذهلة! فالصبيّ مفتونٌ بها، وهو يلاحظ كيف أنّ آلةً واحدةً تنقل الحروف والصور إلى أوراقٍ فارغة، بل تنتج آلاف النسخ المتطابقة. تُصدر هذه الشركة شتى أنواع الكتب والمنشورات والدوريّات، بما فيها مجلّةٌ تنتش، التي تباع أكثر من أربعين ألف نسخةٍ في الأسبوع، بفضل سخريّتها من أصحاب الحظوة والنفوذ. يمتلئ المكان بصخبٍ ثابتٍ يتردّد طوال اليوم، وكأنّ عشرات الأحجار الخشنة، يطحن بعضها بعضًا.

لا شيء هنا يشبه المدرسة. لا خيزرانة، ولا ضربًا مبرحًا، ولا قُبعةً للأغبياء، ولا سِلالَ عقابٍ يُعلّق فيها التلاميذ من السقف. ورغم أنّ بعض العمّال يضايقون الصبيّ من دون سببٍ (ذات مرّة عقدوا أربطة حذاءيّهِ، وهو ينظر في الأوراق إذ تخرج من الآلة، فتعثّر وسقط)، فإنّه لا يوجد شخصٌ، يضاهي قسوة الناظر. الوظيفة شاقّةٌ وجدول الأعمال مرهق، لكنّ آرثر لا يبالي، فيعمل دون كلل، في تصميمٍ على ألاّ يخذل رئيسيّهِ. ورغم أنّ

جلجلة الآلات صاحبة لا تتوقف، بل تكفي لخضّ دماغه، إلا أنه لا ينزعج منها. ولا ينزعج أيضًا من رائحة الحبر النافذة، تلك التي يظلّ يشمّها في شعره حين يستلقي في فراشه ليلاً. ربّما تكون أصابعه قد تلطّخت إلى الأبد، وامتلاّت أذناه بنقر المحرّكات، لكنّه ممتلئ بحسّ غريب من الإصرار. فلاوّل مرّة في حياته يشعر بأنّه جزء من شيء مهمّ.

فتح برادبري وإيفنز مؤخّرا عدّة فروع أخرى في لندن، كي يتخصّصوا في مجالاتٍ مختلفة. وقد طُلب إلى آرثر أن يقضي بعض الوقت في كلّ فرعٍ منها قبل أن يحدّدوا المكان الذي سيفيد فيه أكثر من غيره.

أمّا المهمّة الأولى التي أسندت إليه، فهي المساعدة في صنع الطوابع البريدية. يُفتتن الصبيّ بطباعة الحروف، بصورتها الصلبة المصهورة، لكنّ ما يسحره حقّا، هو كيف يمكن لهذه القطعة الورقيّة الصغيرة أن تحمل في داخلها ذلك القدر من الفنّ والقيمة والمعنى. بعد ذلك يتعلّم تقنيّة النقش النافر والغائر. ظلّت التصاميم النافرة أو الغائرة على الأسطح فترةً طويلةً حكرًا على ذوي الحظوة، لكنّها باتت الآن في مقدور الكثيرين. وفي هذه الأيام تحرص كلّ شركة، تحترم نفسها في لندن على أن تكون لديها أدواتها القرطاسيّة التي تحمل اسمها، ولذلك يزداد الطلب يوميًا بعد يوم.

كان آرثر يستمتع أيضًا بالطباعة على الحجر. صحيح أنّ ألواح الحجر الجيريّ ثقيلة، وأنّ الماء الحمضيّ يحرق جلده، والحبر دبقٌ دهنيّ، يترك آثارًا قذرةً على ملابسه، إلا أنّ النتيجة

مدهشة. يبتهج آرثر حين يرى صورةً مرسومة، تُبعث فيها الحياة، فهي انعكاسٌ للأصل لكنّها في الوقت نفسه متفرّدة، مثل تكملةٍ واضحةٍ لحلمٍ آفل. وبفضل الطرق الجديدة في الإنتاج بالجملة، صار بإمكان الناس، في شتّى أرجاء البلاد، أن يزيّنوا بيوتهم بمطبوعاتٍ باللونين الأبيض والأسود، مصنوعةٍ من منحوتات لأعمالٍ فنيّةٍ شهيرة، فيما يمكن طباعة الكتب والصحف بطريقةٍ أسرع، وعلى نطاقٍ أكبر بكثير.

يقول السيّد برادبري: «الكلمات كالطيور. فحين تنشر كتابًا، كأنّك تُطلق طيرًا حبيسًا، يمكنه أن يذهب حيث يشاء. يمكنه أن يطير فوق أعلى الأسوار، ويعبر المسافات الشاسعة، فيستقرّ في قصرٍ من قصور النبلاء، أو في مزرعةٍ أو كوخ عمّال. فلا يمكنك أن تعرف أبدًا من ستصل إليه تلك الكلمات، وقلب من سيقُرّ لتغريده الجميل».

يعلم آرثر أيضًا، كيف ينقش على الفولاذ، عبر حفر التصاميم في صفائح معدنيّة. ويكتشف كذلك الرسومات الزيتيّة للفنان الفرنسيّ يوجين ديلاكروا، ويتمعّن في مطبوعات فاوست التي كتبها الكاتب الألمانيّ غوته قبل بضعة عقود. وكم يحبّ نقوش الرّسام الإسبانيّ فرانسيسكو غويا، إذ تترك انطباعًا عميقًا في داخله. كما يتعرّف أيضًا، على براعة النّحات الفرنسيّ ورّسام الكاريكاتير أونوريه دوميه، الذي كان يستخدم مهارته الفائقة في السخرية من أصحاب السلطة، بمن فيهم الملك نفسه، ممّا جرّ عليه تهمةً إغابة الملك، فحُكم عليه بالسجن. يتأمّل آرثر كذلك في الرسومات الوضّاءة التي رسمها وليم بليك، متسمّرًا من فرط



قوة خيالها وكثافتها الفاتنة. أكثر ما يشدُّ مشاهد الكتاب المقدس والأساطير اليونانية، سواء كانت منحوتة على قوالب الخشب، أم نقوشًا، أم رقوشًا، أم محفورات مائية، أم مطبوعات بسيطة. ومع مرور الوقت، ازداد يقينه بأنَّ الناس ينقسمون إلى ثلاث فئات: أولئك الذين بالكاد يرون الجمال، حتى وإن كان أمام أعينهم، وأولئك الذين لا يتعرفون عليه إلا حين يوضح لهم، وأولئك الذين يملكون أرواحًا نفيسة تجد الجمال أينما ذهبت، حتى في أقلِّ الأماكن المتوقَّعة.

في اليوم الذي يستلم فيه الملك آرثر، صاحب المجاري والعشوائيات، أوَّل أجرٍ له، يغادر المكتب بحسٍّ هاديٍّ من الإنجاز. وبما أنَّه يوم السبت، تظلُّ معظم المحالَّ مفتوحةً إلى وقتٍ متأخِّر: الحانات الفاخرة، وصالونات المحار، والتبَّاغين، والحلوانيين، وبائعي الكرشة، وغيرهم. وبما أنَّ هذا اليوم، هو الموعد الذي يستلم فيه العاملون والعاملات أجورهم، تنتقل الأموال بين الأيادي في هذا المساء أكثر ممَّا يحدث في بقية الأسبوع بأكمله.

يغدُّ الخطي، وينظر من أطراف عينيَّه إلى الوراء بين الحين والآخر، كي يرى ما إذا كان هناك أحدٌ يتعقَّبه. هذه المدينة التي يظللُّها الضباب، مثل دخانٍ ينبعث من آلاف النيران، تخبئ بين ثناياها النشَّالين. ليس أمرًا جديدًا، لكنَّ الجديد، هو أنَّ آرثر لديه الآن ما يُسرق. كم غريبٌ أن يجعلك المالُ تشعر بقلَّة الأمان!

ينعطف في زاوية، فيرى كناسًا يجمع الرماد والجمر المنطفئ. يعرف أنَّ الرماد يُباع لصنَّاع الطوب، فيما ينفع الجمر المنطفئ وقودًا. الشوارع مليئةٌ بالنفايات التي يمكن جمعها، وبيعها مقابل بضعة بنسات، بما في ذلك القلط الميَّنة التي سرعان ما يتخطفها صنَّاع الفرو. والقطط البيض تحديدًا هي المطلوبة، إذ تُباع الواحدة منها بستَّة بنسات. لكنَّ آرثر لم يستطع أن يقنع نفسه بالأتجار بالقطط الميَّنة.

يلاحظ عربة أجرة، يقودها سائقٌ يرتدي بذلةً مميَّزة، تتوقَّف عند حدَّاء. يمرُّ من جانب العربة، فيلقي نظرةً في بابها المفتوح. في الداخل امرأةٌ شابةٌ، لا تكبره كثيرًا، تجلس وقد فرشتُ ثُورتها حولها، وإلى جانبها مروحةٌ حريريَّةٌ على المقعد المخملي، في انتظار أن تأتي البائعات بنماذج من الأحذية ذات الطراز الرفيع. تلتقي أعينهما وهلة. في تلك اللحظة يرى آرثر نفسه بعينيَّها، فيتأملُ قبعته البالية، ومعطفه المهترئ، متهدِّلاً وملطَّخًا بالطين. يستشعر آرثر الفرق بينهما بوضوح، إذ تنظر السيِّدة الثريَّة نظرةً تخترقه وتتجاوزه، وكأنَّه لا يُرى.

لو أنَّ الفقَرَ مكان، أو منظرٌ طبيعيٌّ شرسٌ قُذفت فيه أو تعثَّرت به على سبيل الخطأ، لكان غابةً ملعونة، غابةً وحشيَّةً مبلَّلةً كئيبة، معلَّقةٌ في الزمان. أغصانها تتخطفُك، وجذوعها تسدُّ طريقك، ونباتاتها الشائكة تسحبك إلى الداخل، ولا تسمح لك بالخروج. وحتى إن استطعت أن تكسر عقبةً واحدة، ستظهر عقبةٌ أخرى مكانها فورًا. تتجرَّح يداك وأنت تحاول أن تشقَّ طريقًا مختلفًا، ولكنَّ ما إن تدير ظهرَكَ، حتى تلتف الأشجار من حولك

مرّة أخرى. الفقرُ يمتصُّ إرادتك شيئًا فشيئًا. لكنَّ آرثر يشعر بشيءٍ من الأمل الآن، وهو يحمل النقود التي تصلصل في جيبه. ذات يوم، سيخرج من هذه المدينة، ويسافر بعيدًا، إلى أطراف الأرض إن لزم الأمر، حيث يمتزج الماء باليابسة بسهولة، ولن يعرف الناس أبدًا الفقر المدقع الذي جاء منه.

يشتري فطيرتي لحم من تلك التي تُسمّى «توابيت» من بائع قريب، واحدة له ولأمّه، والأخرى لأخويه التوأمين. يمسك باللفافة عند صدره، فتدغدغ الرائحة أنفه مثل ريشة.

وفي نافذة محلّ لبيع أدوات الخياطة في شارع «برود»، يرى قفّازين جلدّيين أبيضين، عليهما خطّ أزرق من الساتان، ومحفوفان بالدانتيل. يحدّق فيهما لحظة طويلة، معجبًا بالشكل البديع والجلد المتقن.

لقد سمع آرثر أنّ هناك لغةً للقفّازات في شوارع لندن؛ فحين تبسطهما بلطفٍ يعني «ليتني معك»، وحين تسقطهما يعني «أحبك». أمّا إن قلبتهما، فكأنّك تقول: «أكرهك، ابتعد عني». ورغم اهتمامه بتفاصيل هذه اللغة، إلّا أنّ ما يريده فعلاً، هو أن يلمس ذلك الجلد الناعم، ويحسّ بلمسه الرقيق بين أصابعه. تُرى كيف بأمّه لو أهداها هذين القفّازين؟ يكاد يرى ابتسامتها، تشرق على وجهها: مرتابة، صافية. لكنّه يعدّ نفسه بأن يشتريهما لها ذات يوم.

\*\*\*

وحين يصل آرثر إلى البيت، يجد أنّ أباه هو الذي يفتح

الباب . «هل استلمت الأجر اليوم يا ولد؟» .

فيومئ آثر شيتًا يسيرًا، قلقًا ممًا سيأتي بعد ذلك .

- «ناولني إياه إذن» .

- «لقد اشتريت فطيرتي لحم في طريقي إلى البيت» .

- «نعم؟ وما الذي يجعلك تقدم على حماقة كهذه؟» .

فيشيح آثر ببصره . «هدية للصغيرين» .

- «أيها الأبله اللعين! من أعطاك الحق لفعل ذلك؟» .

يجفل الصبي، لكنَّ صوته يبقى ثابتًا . «إنها نقودي» .

- «تقول نقودك؟ كلام فارغ! أنا الذي وجدت لك هذه

الوظيفة . كن شكورًا أيها الأحمق!» .

يجفل آثر من الحقد الواضح في صوت أبيه . كيف يمكن لرجل أن يحمل في قلبه كل هذا البغض لولده، من لحمه ودمه؟ يتساءل (وليس للمرة الأولى) عمًا يراه أبوه، حين ينظر إليه . هل يكرهه لأنَّه مختلف جدًا عنه؟ أم العكس، لأنَّه لا يحتمل أن يرى نفسه في ولده؟

- «تكلم يا ولد! أجبني» .

تحمّر وجنتا آرثر، فهو لا يحبّ المواجهة . يتمنى لو يستطيع أن يعيش دون أن يؤذي أحدًا، أو يؤذيه أحد . يشيح بوجهه، لكنَّ كبرياءه تمنعه من تقبل الهزيمة .

- «أنا أشقى وأتعب . أكّد كل يوم، بينما أنت تشرب في وكر

تعيس حتى الثمالة . أنا لا أدين لك بشيء أبدًا . أبدًا» .

مثل سَهمٍ ينطلق من قوسه، تأتيه اللكمة في بطنه، فيسقط،  
لكنَّ أباه يشدُّه من شعره ويجبره على النهوض، فيلكمه مرَّةً  
أخرى، ولكنَّ على وجهه.

في ذلك المساء، يستلقي آرثر على فراشٍ وضعته له أمُّه في  
زاويةٍ من الغرفة. لا يتحدث إلى أحد، ورأسه ينبض من الألم.  
ولكي يشتت عقله عن الإحساس بآلامه، يحاول أن يفكر في  
الكتب الموجودة في الشركة. يردّد العناوين، وأسماء المؤلفين،  
وتواريخ النشر، بالترتيب الدقيق الذي تظهر عليه في الأرفف.  
ورغم أنَّ النوم يجافيه، فإنَّ ترتيب الأشياء يريحه، كالعادة. يلتوي  
آرثر على نفسه، فيأخذ قسطًا من الراحة قبل الفجر، إذ يجد فجوةً  
من السلوى بين ظلمة الليل ووعْدِ اليوم الجديد.

في صباح يوم الاثنين، يصل أولاً قبل الجميع إلى مقرِّ  
المطبعة. يجلس على فخذَيْه عند حافة الرصيف، في انتظار أن  
يأتي شخصٌ ليفتح المبنى. من حوله ومن فوقه تستيقظ لندن،  
فتظهر خادמות المنازل، ويظهر الكُنَّاسون، وبائعو السمك  
المقدّد، وقاتلو الكلاب، وجزّارو لحم الخيول، وبائعو الخضر  
الجائلون، وصنّاع التوابيت، وصيّادو الجرذان، وبائعو الأغاني  
الطويلة<sup>(\*)</sup>، وغيرهم. يرتفع الضجيج، وتتضاعف الحركات، إذ  
تندفّق المدينة مثل ينبوعٍ لا ينضب. يمرُّ الناس من جانبه دون

---

(\*) كانت هذه وظيفة قائمة في إنكلترا، إذ تُباع أغنيات طويلة مطبوعة على صفحات  
طويلة معلقة على عمود. (المترجم)

نظرة، رغم أنَّهم يرونه يبكي. فهو مجرد صبيّ تعيسٍ مُعَدَم، واحدٍ من كثيرين في هذه العاصمة الكبيرة.

\*\*\*

لا أحد في العمل يعيره اهتمامًا، سوى السيّد برادبري. «ما الذي حدث لوجهك يا بنيّ؟».

فيحوّل آرثر نظره بعيدًا، ويقول: «تعرّضتُ لحادث، سيّدي». فيلتوي حاجبا السيّد برادبري. «قُلْ للحادث إذا اقترب منك مرّةً أخرى، فلن ندفع لك أجرًا. إذا رأينا مجرد خدشٍ واحدٍ عليك، فسوف ينقطع المال فورًا. والسيّد حادث لن يروقه ذلك طبعًا، أليس كذلك؟».

يحدّق آرثر في ربّ عمله، فاغر الفم. هل من الواضح جدًّا أنّ أباه، هو الذي فعل به ذلك؟ يقول، وهو يزدرد دهشته: «لا يمكنني أن أقول له ذلك، سيّدي».

- «بالطبع لا يمكنك ذلك. أعتذر، لم أقصد أن أضايقك أكثر. ربّما من الأفضل أن أتحدّث إلى والدك».

- «أقدّر لك اهتمامك سيّدي، لكنّي أفضل ألاّ تتحدّث إليه».

- «ولماذا يا بنيّ؟».

- «لأنّني أحبّ العمل هنا. لا أريد أيّ مشكلات».

تظلّ تعابير الرجل جادّة، لكنّ عينيّه ترقّان. وأيًا ما كان رأيه في هذا الوضع، إلّا أنّه يقرّر ألاّ يتحدّث في الأمر ثانية.

\*\*\*

لا يترك الملك آرثر، صاحب المجاري والعشوائيات، شيئاً يطبعونه إلاّ قرأه. فكلّما سُمح له باستراحة، يجلس على مقعدٍ في زاويةٍ وحده، يقضم خبزةً مدهونةً بالشحم، وهو يتأمل في مطبوعةٍ من المطبوعات. هكذا عَلِم من مقالٍ في صحيفةٍ عن فرس النهر الثاني الذي أرسله الباشا العثمانيُّ إلى إنكلترا، وهو الباشا نفسه الذي أرسل الفرس الأوّل «أوباش» مقابل كلابٍ سلوقيّةٍ إنكليزيّة. لكنّ الفرس هذه المرّة أنثى، واسمها أديلا. مرّت بالرحلة المرهقة نفسها على متن باخرةٍ من نهر النيل إلى لندن. وقد التقى الحيوانان، لكنّهما لم ينسجما بعد. يأمل الجميع أن يتألّفا عمّا قريب، ويأتيا بمولودٍ صغير.

يتشرّب آرثر كلّ نصٍّ باهتمام لا يتزعزع، من المجلّة المنزليّة للمرأة الإنكليزيّة إلى مجلّة الفتيان، وحتى المجلّات الأسبوعيّة للرجال والمطويّات الاشتراكيّة. يشعر بالجوع إلى المعرفة، برغبةٍ تكاد تكون موجعة، فالمعرفة هي الكنز الوحيد في هذه الدنيا الذي ليس له سعر، رغم أنّها ليست مجانيّة.

ودائمًا ما يلاحظ السيّد برادبري رغبة الصبيّ في توسعة مداركه في كلّ ناحية، ومجسّات فضوله ذات المدى الواسع.

- «هل تؤدّ أن تأخذ معك كتابًا بين الحين والآخر، أيّها الفتى سمث؟».

- «هل يمكنني ذلك، سيّدي؟».

- «الحقيقة أنّنا في العادة لا نسمح لعمّالنا بذلك، لكنّنا قد نمنحك استثناء، شريطة أن تُعيد الكتاب سليمًا في اليوم التالي. ما رأيك؟».

- «شكرًا لك، سيّدي».

لكنّ آرثر لا يستطيع أن يخبر ربّ عمله بأنّ القراءة في البيت شبه مستحيلة، لا بسبب المهامّ الموكلة إليه كلّ مساءٍ فحسب، بل أيضًا لأنّ ليس في مقدور أسرته أن تحتمل كلفة شمعةٍ أو مصباح غاز. لذلك يحاول أن يجد حلًّا.

في الليالي التي يسطع فيها القمر والنجوم، يجلس آرثر عند النافذة متربّعًا، يلفّ بطّانيةً حول كتفيه الرفيعتين، وهو مستغرقٌ في عوالم بعيدةٍ لا تنتهي. حين يقرأ الكلمات يستطعمها، تلذّع النكهات لسانه، ما بين النكهة الزبدية، والحادة، والحارّة، والعشبية، وغير ذلك. القراءة وليمةٌ لا يشبع منها أبدًا، إذ يلتهم كلّ صفحةٍ بتلذذ، ولكن حين تلتحف السماء بالضباب، فلا يوجد ضوءٌ كاف (كما يحدث في أغلب الأحيان)، فلا يملك إلّا أن يتخيّل بقية الكتاب في عقله.

مرّةً أخرى، يفهم السيّد برادبري أكثر ممّا يفصح عنه. فذات صباح، يناول الصبيّ شمعتين من الشحم، ليأخذهما معه إلى البيت. يُبْهت آرثر، فلا أحد أهداه شيئًا من قبل.

وهكذا يبدأ في القراءة بهمةٍ، لا كلّ ما يطبعونه فحسب، بل كذلك المجلّدات المصفوفة في مكتبة السيّد برادبري الخاصّة. يلتهم روايات تشارلز ديكنز، ووليم ثاكري، وجين أوستن، وشارلوت برونتي، وحكايات هانز كرستيان أندرسن، وكتب الطبخ التي تتغنّى بأحلى المقادير والوصفات العجيبة، والأطروحات



الفلسفة التي كتبها جون لوك، وديفيد هيوم، وجون ستوربت مل، وجرمي بنتم، ومفكر هولندي عبقري يُسمّى باروخ سبينوزا، والنصوص الجيولوجية التي دوّنها تشارلز دارون في كتابه رحلة البيغل، وكتاب البيان الشيوعي لكارل ماركس وفردريك إنغلز، وأشعار اللورد بايرن، وإلزيث بارت براوننغ، وصمويل تيلر كولرج وألفريد دي موسيه وفردريك فون شلر، وعمر الخيام، صاحب الثقافة الواسعة الذي أتقن الرياضيات والشعر. يكتشف آرثر أيضاً كاتباً فرنسياً منفيّاً اسمه فكتور هوغو، وروائياً روسياً جديداً اسمه تولستوي، وحوتاً أبيض ضخماً يُسمّى موبي دك، ويفتتن أيضاً بمذگرات فردريك دوغلّس، العبد الأميركيّ الهارب الذي نادى بإبطال الرق.

لا توجد حدودٌ لحبّ استطلاعها، إذ يقرأ حتى الكتب المكتوبة للجنس اللطيف. يقرأ الإتيكيت الكامل للسيدات، حول تعليم النساء كيفية التصرف اللائق، وكتاب خطأ الأم، حول ما لا ينبغي للأمّهات في تربية الأطفال، وكتاب رسائل امرأة ساقطة، حول علل الدعارة ورذائلها، وكتاب البيت والسعادة، حول تعليم ربّات البيوت إتقان الأعمال المنزلية، وكتاب مرشد الأبوين في التربية الأخلاقية فيما يتعلّق بالجنس، الذي يقدّم بالضبط ما يشير إليه عنوانه.

كلّ مساءً، حين يُلقِي وهجُ الشمعة أشكالا متألّئة على الجدران، ويتنهد أخواه التوأمان في نومهما، أو تتحدّث أمّه تحت تأثير اللودانيوم إلى أطياف لا يراها غيرها، أو يقضي أبوه وطره منها تحت لحافٍ خفيف، يديرُ الصبيُّ ظهره لأسرته، ويقرأ.

وكلّما يرفع عينيه، يبدو له الوجه الذي ينظر إليه من زجاج النافذة مألوفًا ومتغيّرًا جدًّا في الوقت نفسه.

يقول السيّد برادبري: «منذ فترة وأنا أراقبك. أنت مثابرٌ ومتمكّن، وسريع التعلّم، لكنّ أكثر ما أحبه فيك، هو اهتمامك بأصغر التفاصيل، ومراعاتك للآخرين. تحدّثتُ مع السيّد إيثنز، وكلانا يريد منك أن تعمل معنا بصفةٍ دائمة».

يحدّق آرثر في الرجل ذاهلاً، ثم يبتسم ابتسامة، هي الأولى منذ فترة.

- «قل لي دون خجل، أيُّ قسمٍ من الشركة يناسبك أكثر؟».

- «سأكون سعيدًا في النقش النافر، أو صنع الطوابع سيّدي. لكنّي سأكون في غاية الامتنان، لو وضعتني في نشر الكتب».

- «لماذا؟».

- «لأنّ في بقية الأشياء كلّها، سواء كانت طوابع أم ورقًا لامعًا جميلًا، يمكنك استخدامها مرّةً واحدةً أو مرّتين فقط، أمّا الكتب، فهي لا تنتهي بالنسبة إليّ، حتى حين ننتهي من قراءتها».

- «جوابٌ ذكيّ، وفي وقته تمامًا. هل تعرف السبب؟».

لا يُجر آرثر جوابًا.

- «العالم يتغيّر بوتيرةٍ أسرع، ممّا تستوعبه عقولنا. يبدو أنّه يزداد سرعةً كالمحرّك البخاريّ. أترى كلّ هؤلاء المهندمين بأحذيتهم اللامعة ومظاهرهـم المتصنّعة، حين تنظر إليهم، يُخيّل إليك أنّهم بالتأكيد يعرفون كلّ شيء، فهم متعلّمون ومثقفون، لكنّي سأخبرك سرًّا: حين تسودُ الحيرة، يشعر الجميع بشيءٍ من

الضياع. فلا يوجد أحدٌ واثقٌ من نفسه، كما يحاول أن يدّعي. لذلك لا بدّ لنا من القراءة يا بنيّ. الكتب تمنحنا ضوءًا وسط الضباب، شأنها شأن المصابيح الورقيّة. ولهذا السبب يُعدّ هذا الوقت، هو الأنسب للعمل في مجال النشر!».

\* \* \*

بعد أسبوع، يغادر آرثر الشركة وهو يتأبّط لفافة، تحوي كتابًا أصدرته الدار في ذلك اليوم تحديدًا: نينوى وآثارها.

ويا له من كتاب! يحكي فيه الرّحالة والدبلوماسيّ وجامع المقتنيات والخبير بالآثار ومكتشف نينوى أوستن هنري ليّارد عن رحلاته الكثيرة المليئة بالمغامرة في بلاد الرافدين، حيث يلتقي العرب والكلدانيّين والكُرد والأتراك والفُرس واليهود والفلسطينيّين والأرمن والغجر (الروما) والمندائيّين وغيرهم. يكتب بالتفصيل عن شعب مضطهد، يُسمّى اليزيديّين، كثيرًا ما يوصفون ظلماً بأنّهم «عبدة الشيطان». ورغم أنّ ليّارد كان قلقًا منهم في بادئ الأمر، فإنّ إعجابه بهم ازداد أكثر فأكثر في فترة إقامته هناك.

يُفتتن آرثر. فلم يسمع من قبل عن شخص غادر إنكلترا، ليسافر إلى بلادٍ قصيّة كهذه. يثير اهتمامه أنّ في تلك المنطقة الشاسعة المسماة بلاد الرافدين أناسًا، يختلفون جدًّا في عاداتهم وسلوكهم، لكنّهم متّحدون في أسرار تلك الأرض. هناك في أعماقها مدينةٌ أثريةٌ (عاصمةٌ أسطوريّةٌ كان يحسدها الجميع، لكنّها الآن محض ترابٍ وعظام) وبها مكتبةٌ ملكيّةٌ تحرسها اللاماسوات.

وقد بلغ افتتانه بنينوى (من واقع قراءاته) أن يرسم أشكالًا

خياليّة لها، مخالب أسودٍ وحوافر ثيران. يرسم قصورًا لم تر عينٌ مثلها في الفخامة، وحدائق ذات ينابيع معطّرة، وفوق ذلك كلّه دجلة. النهر في خياله ليس فاسدًا ملوّنًا مثل التّيمز، بل فردوسًا صافيةً برّاقةً زرقاء، يسيل ماؤها في القنوات وفوق القناطر.

يظلُّ السيّد برادبري طول الوقت يشجّعه على القراءة، والخيال. يأخذُ الفتى تحت جناحه، فيصبح معلّمه، وهو معلّم جيّد، رغم نزعتة السوداء التي تشتعل فجأةً من وقتٍ إلى آخر. غير أنّ دعمه للفتى حقيقيّ ومستمرّ، إذ يُخبر الجميع بأنّ هذا الصّبيّ العجيب القادم من العشوائيّات، لم يحصل قطّ على فرصة تعليم حقيقيّ، لكنّه يمتلك من دون شكّ عقلًا فائقًا، وسوف يصبح ذات يوم واحدًا من أعظم النّاشرين في إنكلترا.

هي أسعدُ أيّام الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيّات، رغم أنّه لن يدرك ذلك إلّا بعد أن تغيب.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التيمز، 2018

قُبيل الفجر، تفتح زليخة باب بيتها العائم، وتخطو إلى ظهر السفينة. تنظر ساهيةً إلى البيت المجاور، علَّها ترى جاريها الجديدَيْن يترصَّدانها. لكنَّ الجميع كان نائمًا في هذه الساعة، بما في ذلك النهر نفسه. يلتفُّ التيمز في طيَّاتٍ مظلمةٍ صقيلة، يحلم بحيواته السابقة.

تجتاز ممرَّ السفينة في هدوء، وقد لَفَّت نفسها بالصوف، وارتدت حذاءً رياضيًّا، وربطت شعرها في ذيل حصان. الجري حاجة، شأنه شأن التنفُّس، وقد حافظت عليها منذ أن كبُرَت. كان زوجها يمازحها، في لحظات صفوهما، بأنَّها لم تكن تجري، بقدر ما كانت تهرب.

ما الذي تحاولين الهرب منه، يا حبيبتى؟

وبينما هي تنطلق في سرعة ثابتة، يقاوم منخاراها الهواء البارد، وتشتكي أوتار ركبتيها. دائماً ما تكون الدقائق القليلة الأولى هي الأصعب، وكأنَّ أطرافها تحتاج إلى إقناع، لكي تجري. لكنَّ جسد الإنسان يجيد التكيف، فهو أقرب إلى السيوالة منه إلى الصلابة، وسرعان ما تجد نفسها تجري سريعاً على ضفاف تشلسي.

تخطو من فوق أوراقٍ جافة، وأعقاب سجائر، وفضلات كلاب، وزجاج مكسور. تنساب المدينة على الجانبين، طوبةً بعد طوبة، وجصاً بعد جصّ، وإسمتاً بعد إسمت، وما تزال جميلة. تتهاذى حافلة من طابقين، وفي داخلها وجوه منكمشة عند النوافذ. في هذه الساعة تتقاطع الحيات المختلفة، وتتداخل الحكايات البعيدة عن بعضها بعضاً، ما بين الناهضين باكراً، والخارجين لتوهم من الملاهي الليلية، تتقاطع الطرق بين أشخاصٍ لا يتشابهون.

ليست زليخة وحدها التي تجري في هذه الساعة. ثمة رجلٌ طويلٌ ضخّم الجثة، يقترب منها بسرعة في الاتجاه المعاكس. يمرُّ قريباً منها إلى حدٍّ مزعج، وهو يلتهم الهواء بصوت عال، بقميصه الذي تلتّخ من العرق. لكنّه لا ينظر إليها، ولا يخطر له أنّه قد يخيفها بقربه هذا، إذ لا يستشعر قطُّ سبباً يدعوهُ هو إلى مثل هذا الخوف.

على بعد أمتارٍ قليلةٍ تلاحظ زليخة رجلاً مسنّاً يحمل دلوّاً ومجرفة، بحثاً عن سلطعوناتٍ صغيرة. فهي تعرف أنّ هناك الكثير

منها على شاطئ تشلسي، بعد أن تزايدت أعدادها في العقود الأخيرة. تحفر هذه السلطعونات أنفاقها في الطين، فتسدُّ ممرات الماء، وتهدّد الكائنات الأخرى، وتتسبّب في تآكل الضفاف، ممّا يزيد من خطر الفيضان في لندن. لقد درّست هي وزملاؤها عشرات الشواطئ والسلطعونات الصغيرة التي تعيش في التّمر. وفي كلّ كائنٍ من هذه القشريّات التي فحصوها وجدوا قطعاً بلاستيكيّةً مضرةً، كما وجدوا أنّ بطونها وأمعاءها انسدّت بالملوثات. وقد وجدت زليخة عدّة مرّاتٍ آثار فوطٍ صحيّةٍ في قنواتها الهضميّة. حين تبتلع السلطعونات الملوثات، لا تستطيع أن تتخلّص منها بسهولة، فتمرّرها إلى الكائنات الأخرى في السلسلة الغذائيّة. لا أحد يعرف عدد الذين يموتون كلّ عام نتيجةً للتسمّم من غذائهم. على أنّ السلطعونات، ليست الكائنات البحريّة الوحيدة التي تعاني. فكما أنّ الدلافين، في أجزاءٍ أخرى من العالم، تحتفظ ببقايا الكيماويّات الممنوعة منذ زمن، يتلقّى الأنقليس في نهر التمز مقادير كبيرةً من القهوة والكوكايين.

التمز زومبي. هو النهر الذي عاد من الموت. فبعد أن أعلن الناس أنّه لم يعد قادراً على أن يمدّ الكائنات بأسباب الحياة، وأصبح جثةً مائيّة، تنفسّخ في فراشها، ها هو اليوم يحتوي أكثر من مئة وخمسة وعشرين نوعاً من الأسماك، وأربعمئة نوع على الأقلّ من اللافقاريّات، إلى جانب حصان البحر والفقمة، بل حتى سمك القرش. التمز، في هذه الأيام، واحدٌ من أنظف الينابيع الطبعيّة، وأجملها في العالم، رغم أنّه ما يزال يبتلع نفايات مدينة، بها ملايين السكّان.

اشترك فريق زليخة، في السنوات العشر الماضية، مع مؤسساتٍ من عدّة دول، تدرس منطقةً شاسعة، تمتدّ من القطب الشمالي إلى البحر الأبيض المتوسط وجنوب الصحراء الكبرى، فكانوا يراقبون طريقة استجابة الماء للضغوط الفيزيائية، والزيادات في درجة الحرارة، وعوامل الإجهاد الأخرى، وكلّها ذات آثارٍ وخيمةٍ على السلاسل الغذائية ومستوياتها. درسوا في تجارب مشتركة البيئات الحيويّة في كلٍّ من الماء الحلو والمالح، مثل الينابيع الآيسلنديّة التي تسخن بالحرارة الأرضيّة، والمياه الجوفيّة المستخرجة من العيون والحُفر في إيطاليا، والقنوات والسدود في هولندا، وتملّح الأراضي الزراعيّة في بنغلادش، وبحيرات الجليد الذائب في سيبيريا، وغيرها. ثمة ترابطٌ عميقٌ في جميع هذه الحالات، رغم أنّها تبدو غير مترابطة. أمّا الباحثون، فكانوا من مجالاتٍ تخصّصيّة مختلفة، لكنّهم يشتركون في مبدأٍ واحد، وهو أنّ الأزمة المناخيّة، في جوهرها، أزمة مياه.

تستغرب زليخة من قلّة اهتمام البشر بالماء، وشخّ الأبحاث التي خصّصوها له، رغم أنّه أقدم وأشيع مادّة عرفوها، وأكثرها شيوعًا. أقدم من الأرض، وأقدم من الشمس، بل إنّ أقدم من المنظومة الشمسيّة نفسها بملايين السنين. وبسبب التقدّم التقنيّ، يفترض الناس أنّ العلم يفهم الماء جيّدًا، لكنّ الحقيقة هي أنّ هناك عددًا صغيرًا من العلماء، يتخصّصون في هذا المجال، وما تزال هناك أشياء كثيرةٌ تنتظر أن نكتشفها. والماء ما يزال اللغز الأكبر. فلمّا درستُ زليخة استجابة الماء إلى المخاطر المتزايدة (مثل زيادة التعداد السكّاني، والتلوّث الكيميائيّ، وتغيّر المواطن الحيويّة،



والتحمُّض، وفقدان التنوُّع الحيوي) وصلت إلى استنتاج، مفاده أنَّ كلَّ قطرةٍ من المطر تأتي من الدورة المائية، تُعدُّ ناجيةً صغيرة. ولو أنَّ في زليخة شيءٌ من الروحانيَّات، لقلت إنَّ الماء مقدَّس.

تنطلق زليخة في الطريق المتعرِّج عند التِّمز، وهي تتنفسُ بعمق، ويضربها النسيم على ظهرها. تتحرَّك دون مجهودٍ يُذكر، فالأرض ثابتةٌ تحت قدميها. لا تحبُّ الاستماع إلى الموسيقى أثناء الجري، وتكتفي بإيقاع النبض في قلبها، وأصوات المدينة التي تتغيَّر مع المواسم، إذ تخفت في الشتاء، وتفيض في هذه الأوقات. تحسُّ بتعبٍ في عضلات ساقَيْها، لكنَّها تظلُّ تجري.

يطعنها ألمٌ حادٌّ في أسفل بطنها، ثم يرحمها قليلاً، ويعود في موجات. تتألَّم في زائدتها الدوديَّة لكنَّها لا تتباطأ، بل تُسرِّع في الجري، وتصمِّم على أن تحتلَّ الألم قدر استطاعتها. تمتدُّ الضفاف أمامها، وتحسُّ بالعرق يبلِّل قميصها، وهي تدفع نفسها بقوة، وتلهث. يتخدَّر عقلُها فيصَل إلى خواءٍ يسمح لها باحتمال كلِّ خوفٍ وحزن، دون أن تتألَّم. وفي هذه العتبة التي يخفي فيها الحدُّ بين الحاضر والماضي، تتخلَّص الذكريات من قوَّة الجاذبيَّة، فتطفو مثل ريشاتٍ في الهواء من فوقها. تتذكَّر أشياء، كانت تريد أن تصدِّق بأنَّها قد نسيتها. وما تلبث الريشات أن تخنقها، فتغطِّي فمها، وتسدُّ منخاريها. تزدردُّ الهواء، ويجيشُ صدرُها، وتُدرك أنَّها إنَّ لم تركض بسرعةٍ كافية، فسوف تغرق في ماضيها.

تُغمض زليخة عَيْنَيْهَا، فترى نفسها في الظلام خلف أجفانها، وقد عادت إلى سنِّ السابعة. هو عصر يوم صيفيٍّ في تركيا، والضوء الأخير من النهار يمسح قمم الأشجار. تنزُّ السيكاكات في الأجمات، فيختلط هذا الصوتُ المنوَّم مع خبط أحذية المتسيرين.

الجوُّ حارٌّ، شديد الحرارة. وعلى جانبي تلك الطريق الترابية تشكَّلات صخرية ذات ألوانٍ وخطوطٍ مدهشة، أشكالها غريبة جدًا، وكأنَّ أيادي خفيةٍ نحنتها. ثمة شخصٌ يمشي في الأمام، يحمل حقيبة ظهرٍ كبيرة. أبوها. يلتفتُ خلفه بين الحين والآخر، وكلَّما ابتسم، ظهرت غمَّازةٌ في وجنته. من خلفه أمُّها، وقد لَفَّت عصابةً برتقاليةً حول رأسها. يمشي الاثنان في تنابُع، ويمتزج ظَلاهما، مثل جزئيات الماء التي يتشبَّث بعضها بالآخر. من أمامهما سُحبٌ من ذبابٍ تعلو وتهبط على طول الطريق، وكأنَّها تحوم حول جثة.

تتوقَّف زليخة، وهي تلهث. ما إن تفتح عَيْنَيْهَا حتى تعجل، مصدومةٌ من أنَّها على بعد سنتيمتراتٍ قليلةٍ من نهاية الضفَّة. ما هي إلَّا بضع ثوانٍ وتصطدم بالجدار.

بعد ذلك، تجري ببطء، وحرص. لن تسمح لعقلها بالذهاب إلى ذلك المكان مرَّةً أخرى. لا بدَّ أن تتمالك نفسها قبل العشاء في بيت خالها، إذ لم تستطع أن تخلق سببًا للاعتذار.

تتمتم لنفسها، وهي لا تدرك أنَّها تحدَّثت نفسها بصوتٍ عالٍ: «كوني عاديةً. عاديةً فقط».

في السابعة مساءً، تصل زليخة إلى بيت خالها مالك في شارع «ذا بولتونز» (وهو مكانٌ راقٍ من «ساوث كينسغتن» وواحدٌ من أغنى المناطق في لندن). من بين سگان هذه المنطقة الراقية عائلاتٌ بريطانيّةٌ عريقة الثراء، ومجموعةٌ من أغنى المهاجرين من الشرق الأوسط وآسيا وروسيا. يدفع بعضهم ضريبةً إضافيةً كلّ عام، للاحتفاظ بسرّيّة ملكيّتهم لهذه البيوت الخالية في كثيرٍ من الأحيان.

يتألّف بيت الخال مالك من خمسة طوابق ذات واجهةٍ من الجصّ الأبيض، ويطلُّ على حديقةٍ بيضويّةٍ عامّةٍ في وسطها كنيسةٌ أنجليكانيّة. خلف سورٍ مزيّّنٍ بالدرازين العاجيّ حديقةٌ ذات حاجرٍ مشدّب، وشجيراتٍ مزهرة، وشجرة كرزٍ يابانيٍّ متدلّية الأغصان. ثمة درجاةٌ من الحجر الإسمنتيّ تفضي إلى رواقٍ فاخر، على جانبيّه أعمدةٌ توسكانيّةٌ تدعم شرفةً في الطابق الأوّل. يُعدُّ بيت الخال مالك رمزًا للثراء، إذ يحتوي عشر غرف نوم، وتسع دورات مياه، وصالةً رياضيّة، وغرفة بخار، وسينما، وحمّام سباحةٍ داخليٍّ، وحديقة. تعرف زليخة كلّ سنتيمترٍ مربّعٍ من هذا البيت، فقد عاشت فيه بعد وفاة أبويها.

تضغط الرمز السريّ في البوّابة وتنتظر أن تُفتح. يمتلأ الهواء بشذا المستحيّة ورائحة العشب المجزوز، وهي تدخل إلى الحديقة المشدّبة. هناك في إحدى الزوايا، يتهدى خريّرٌ من نافورة أندلسيّة، طُلبت خصيصًا من حرفيّ في إسبانيا، يُعدّ واحدًا من أواخر الذين يعملون في هذه المهنة الزائلة. تحت هذه الأضواء الغامرة، يبدو المكان بديعًا لامعًا، وكأنّه مصمّمٌ للتصوير من أجل

ثمة إحساس بالقلق، يزحف إلى بطنها. ففي تلك السنوات التي قضتها زليخة هنا، كانت دائماً ما تشعر بأنها غير منسجمة مع ما يحيط بها، فكان هناك ضيق ممزوج بالذنب، يتبعها أينما ذهبت، وكأن قدميها تتركان آثاراً ملطخة بالطين على سجّاد ثمين. هو ارتباك قديم، ظنّت أنّها تجاوزته منذ زمن، لكنّه يعود إليها بسرعة مفاجئة. تتسارع نبضاتها، وتفكر لحظة في أن تستدير، وتغادر المكان. آخر مرّة شعرت فيها بهذا التوتر قبل الحديث مع خالها مالك، كانت في سنّ الثامنة عشرة، وهي على وشك الانتقال إلى سكن الطالبات في شرق لندن. كان الأمر قد استغرق منها شهراً لاتخاذ القرار، وفترة أطول من ذلك لإبلاغ خالها بأنّها لن تدرس الاقتصاد والتمويل العالمي، كما كان يرجو، بل العلوم البيئية.

- «العلوم؟ حقاً يا عزيزتي؟ صحيح أنّه خيارٌ بديع، ولكن هل له مستقبل؟».

لم تكن زليخة، في شبابها، تعرف إذا كان هناك مستقبل للعلوم، لا سيّما إن كان المقصود به المال. لم تكن تعرف سوى حبّها لضخامة هذا التخصص، وفرصه اللانهائية، والاكتشافات التي ما زالت تنتظر. وهكذا بدأت بتخصّص حفظ الأحياء، ثم انتقلت إلى إدارة الموارد المائية والجيولوجيا المائية. وعلى الرّغم من السنوات التي مضت، فإنّها تشعر بحيرة خالها من هذه المهنة التي اختارتها، رغم أنّه بذل أقصى جهده لإخفاء خيبة أمله.

الزمن عبارة عن دوائر في داخلها دوائر. فلا يموت الزمن ولا يضمحلّ، وإنما يدور في دُويراتٍ فوقية. والخلافات العائلية تعيش زمنًا طويلًا بعد موت أصحابها، مثل العجلة التي تظلّ تدور حتى بعد إطفاء محرّكها. يتتاب زليخة شعورٌ عميقٌ بأنّ خالها يقلق من أمرٍ ما، لكنّه لا يصرّح به أبدًا، وهو أن ينتهي بزليخة المطاف، فتصبح مثل أمّها تمامًا: معلّمةٌ في بلدةٍ صغيرةٍ تتزوَّج معلّمًا في بلدةٍ صغيرةٍ في ضواحي مانشستر، لا تبالي بقيود الثراء والمكانة الاجتماعيّة، ناقمةٌ جدًّا على العالم، وما به من تفاوت، لكنّها، في الوقت نفسه، راضيةٌ بمكانها البسيط في هذا الكون.

كثيرًا ما يقول خالها إنّ للآخرين أن يختاروا حياةً بسيطةً متواضعة، أمّا الذين يأتون من مناطق مأزومةٍ أو خلفياتٍ صعبة، فلا يملكون هذا الترف. فكلُّ نازح يفهم جيّدًا أنّ غياب اليقين، ليس أمرًا عَرَضِيًّا في وجود الإنسان، بل هو جوهره. وبما أنّه لا يمكن أن يعرف جازمًا ما سيأتي به المستقبل، فإنّه لا يستطيع الوثوق بالسيدة فورتونا (رَبَّةَ الحَظِّ والقَدَرِ)، حتى وإنّ أحسنت إليه. لا بدّ له أن يكون جاهزًا دومًا لمحنة، أو طامة، أو شتاتٍ مفاجئ. فحياةُ الأجنبيّ مربوطةٌ بالبقاء، ولا يمكن له أن يبقى، إنّ ظلّ قنوعًا. فلا يمكن للمرء أن يمضي قدمًا وهو يتراجع. المهاجرون لا يموتون من إنهاكٍ وجوديٍّ أو ضجرٍ عَدَمِيٍّ، بل يموتون من الإفراط في العمل.

تصل زليخة إلى باب البيت، وتقرع الجرس. يفتح الباب فورًا، ويظهر من خلفه خادم العائلة القديم.

- «زليخة! سعيدٌ جدًا برويتك! لقد نستينا».

- «وأنا أسعد يا كريم. هل الوقت مناسب؟».

- «لِكِ أَنْتِ لا يوجد أبدًا وقتٌ غير مناسب». يقولها، وهو يتناول معطفها وحقيبتها، ويُدرك سريعًا أنهما ليسا من الماركات المعروفة.

«هل هما في البيت، خالي وخالتي؟». هكذا تسأله زليخة، وتُدرك فورًا سخافة سؤالها. إلى أين يذهبان وقد دعواها إلى العشاء؟

لكنَّ كريمًا يجيبها على أيِّ حال: «سيّدي مالك في مكتبه فوق، وسيّدتي تجهّز نفسها للعشاء. ستنزّل بعد قليل».

- «سأذهب لرؤية خالي إذن».

تخطو زليخة على الرخام الأبيض والأسود في الردهة، وحذاؤها يصرُّ على الأرضيّة اللامعة، وكأنَّه يعبر عن احتجاج. ثمّة طنين في أذنيها، نبضاتٌ خفيفةٌ على تردّدٍ لا يسمعه سواها. هي ذي تقبض على الدرازين بقوة، وتصعد السلالم الملتوية. هناك لوحةٌ مرسومةٌ على زجاج صينيٍّ عاكس، موضوعةٌ في مقابل المدخل، وبها نساءٌ يرتدين أثوابًا حريريّةً يسحبن الماء من بئر، ومحاربون مدرّعون يمتشقون سيوفهم. وثمّة لوحاتٌ وجوهٌ تنظر إليها من أطرافها المتقنة على الجدران المكسّوة بالخشب. منهم من يقف مع حصان، أو كلب، وواحدٌ لديه صقرٌ معصوب العينين على كتفه. وهؤلاء ليسوا أسلافهم، فلا أحد من هؤلاء له أيُّ صلة قرابةٍ بعائلة الخال مالك. الأمرُ وما فيه أنَّ خالها اشتراها

لإعجابه بمنظرها، وربّما لاعتقاده بأنّها تضيف عليه نوعًا من الرقي والاحترام. كما أنّه معجبٌ أيضًا بلوحات الطيور، لا سيّما لوحات الفنّان الهولنديّ ملخبور دونديكوتر. علاوةً على أنّه حريصٌ على شراء المطبوعات اليابانيّة على الخشب وأعمال النّسوكي (تلك التماثيل اليابانيّة الصغيرة المصنوعة من العاج أو الخشب)، إذ يهوى دقّة نحتها وذكاءه. يقتني خالها المنتجات الفنّيّة، والتحف الأثريّة من جميع أنحاء العالم، ويحبُّ أن يقول: «تحت هذا السقف، يجتمع الشرق بالغرب، ولا يودّان الافتراق مرّةً أخرى أبدًا».

في الأعلى، تقف زليخة أمام الباب الأوّل على اليسار. غرفة نومها حين كانت طفلة. أمّا الغرفة التي أمامها فهي غرفة هِلن، الابنة الوحيدة لخالها وزوجته. لقد نشأت البنّتان معًا في هذا البيت، ولا يفصل بينهما في السنّ سوى عشرة أشهر. كانتا مقرّبتين جدًّا في تلك الفترة، تتبادلان الأسرار، والملابس، وتتستّر إحداهما على الأخرى. كان من عادتهما أن تتركا بابيّهما مفتوحين في الليل، كي تتبادلا الأحاديث قبل النوم. وحين يعتقد الناس أنّهما أختان، لا تصحّحان لهم، فهكذا كانتا تعدّان نفسيهما: أختين، لا ابنتي خوؤلة، ولا صديقتين.

بعد أن تركت زليخة البيت للذهاب إلى الجامعة، تغيّر شيء ما. لم يكن فراقًا مفاجئًا، بل اغترابًا تدريجيًا، بطيئًا هادئًا، يكاد لا يُلاحظ. ظلّتا تتحدّثان على الهاتف من وقتٍ إلى آخر، وتلتقيان كثيرًا لتناول القهوة، لكنّ العلاقة بينهما لم تعد كما كانت. وحين تزوّجت هِلن وأنجبت ثلاثة أطفالٍ واحدًا تلو الآخر، أصبحت

الفروق بين حياتيهما كبيرة، لا يمكن تجاهلها. ظلّ الودّ القديم حاضراً، ولكن لم يعد هناك وقتٌ كافٍ تقضيانه معاً. ما تزال زليخة تشعر بفقد الأخت هذا وكأنّه طرفٌ مفقودٌ من أطرافها.

تفتح زليخة الباب، وتنسلُّ إلى غرفتها القديمة. كلُّ شيءٍ فيها مألوفٌ وغريبٌ في الوقت نفسه: السرير المؤطّر بلوحه الخوخي المائل إلى الورديّ، وخزانة الكتب التي كانت تضع فيها شهاداتها المدرسيّة وأعواد البخور، والسجّادة الفارسيّة التي كانت تجلس عليها وتطالع المجلّات العلميّة. كلُّ شيءٍ على حاله تقريباً، لكنّ فوضاها رحلت معها. حين يكون مزاجها رائقاً، يؤثّر فيها هذا الحفاظ على طفولتها، وكأنّ الزمن لم يتحرّك، ويمكنها أن تُكمل من حيث توقّفت. وحين تسوء أحوالها، تتساءل ما إذا كان خالها وزوجته يحافظان على الغرفة هكذا من أجل عودتها المحتومة، بعد أن تكسرهما الدنيا.

تجلس على طرف السرير. الغريب أنّ الغرفة لا رائحة لها، رغم أنّها معقّمة جدّاً، كما يحدث بعد وقوع حادث. ثمّة دمية «باربي» تتدلّى من الرفّ، ترفع يدها في تحيّة بلاستيكيّة. للفتاة تاجٌ لامع، ورداءٌ فضّيّ، وجدائل شعرٍ ذهبيّ أشقر ناعم لا يشبه أبداً شعرها المتموّج البنيّ الجامح. كان لزليخة في طفولتها كثيرٌ من هذه الدمى، رغم أنّها لم تكن تأبه بها. هِلن هي التي كانت مغرمةً بها، وبما أنّ الخال وزوجته كانا حريصين أشدّ الحرص على العدل بين الطفلتين، فقد كانا دائماً ما يحضران الهدية نفسها لها ولهلن. ومع ذلك، كانت دُمي هِلن دائماً مسرّحة الشعر، أنيقة الملبس، معروضةً في مكانٍ مميّز، بينما دُمي زليخة شبه مخبوءة



تحت السرير، أو منسيّةً في صندوق أحذية، حانقةً على سوء معاملتها.

وفيما هي تنهض على قدميّها، تحطّ عيناها على الرفّ الذي تسترخي فيه دمية سفينة نوح. حيواناتٌ في أزواج تنتظر بصبرٍ على المرسى، فيما يحدّق نوح فيها من على السفينة، متجهّماً وكأنّ مياه الطوفان قد ارتفعت فعلاً.

مكتب الخال مالك في نهاية الممرّ، وبابه مفتوحٌ قليلاً. تطرق زليخة الباب، وتنتظر. وحين تهتمّ بالطرق ثانية، تسمع صوت شخيرٍ خفيفٍ من الداخل.

تدخل بصمت، تمشي على رؤوس أصابعها. في طفولتها، كانت هذه الغرفة مكانها المفضّل في هذا البيت. خزانةٌ حقيقيةٌ من الغرائب. دائماً ما تنبعث رائحة الأشياء الفاتنة من الكتب المجلّدة، والشموع الطافية في طاساتٍ من الكرستال، وصواني حلوى الشوكولاتة والمرزبان<sup>(\*)</sup>، والغلايين الأثريّة النادرة، وحوامل الشموع الخزفيّة، وغير ذلك. تنظر زليخة حولها، ترى العدسات المكبرة القديمة، ومطفئات الشموع، والخراطم المؤطّرة على الجدران، والكرات الأرضيّة الدوّارة، والورود المصفوفة بعناية في مزهريّات خزف. تمرُّ بأصابعها على السطح الأملس لثقاله ورقٍ زجاجيّة في داخلها أحفورة أنقليس. بقايا متحجّرة من آلاف السنين.

---

(\*) حلوى المرزبان (marzipan sweets): حلوى من عجّين اللوز والسكر.  
(المترجم)

غفا خالها على كرسيه، ورأسه مائلٌ إلى الخلف، فيما سقطت نظارة القراءة إلى منتصف أنفه. ثمّة أزيزٌ يخرج من فمه من حينٍ إلى آخر، وشفاته ترتعشان مع كلِّ نفسٍ خفيف. على حجره كتابٌ مفتوح، ينزلق شيئًا فشيئًا من قبضته، فتمدُّ زليخة يدها لإنقاذه، بحرصٍ شديدٍ كي لا تزعج خالها. تقلب الكتاب كي ترى عنوانه: نينوى وأثارها.

توجد صورةٌ على الغلاف. لamasو ضخْمٌ يرفعه بالحبال عمّالٌ عربٌ من خندق، فيما يقف رجلٌ أوروبّيٌّ على منصّةٍ حجريةٍ فوقهم، يوجّههم. لا تروقها الصورة؛ فلا تحبُّ أن ترى الغربيّ فوق الأهالي، ولا تحبُّ إيقاظ الكائن الحجريّ من غفوته. لكنّ الكتاب يثير فضولها، فتفتحه. هي طبعةٌ قديمة، الطبعة الثانية المنشورة في عام 1854 في لندن، عن دارٍ تُسمّى برادبري وإيفترز. تتصفح الكتاب بسرعة، إلى أن تقع عيناها على سطرٍ يقول: ومن أسفٍ أن نقل التماثيل المكتشفة في نينوى إلى إنكلترا لم يجر بالخطوات السليمة... هناك مجموعةٌ من أئمن العينات مفقودة... وما إن تتلف حتى لا يعود بالإمكان استعادتها أبدًا. ولا يجوز لنا أن ننسى أنّها تكاد تكون البقايا الوحيدة من مدينةٍ عظيمة، وأمةٍ عظيمة.

- «أوه، مرحبًا عزيزتي، لم أسمعكِ حين دخلت».

تجفلُ زليخة، وتُغلق الكتاب بقوة. «أسفة يا خالي. هل أيقظتك؟».

«أبدًا، لم أكن نائمًا. كنتُ أغمض عينيّ قليلًا. متى وصلت؟ لم أسمع الجرس». يُعدّل الخال نظارته للأعلى، وابتسم، ثم

يقول: «هل ستنتقلين فعلاً إلى بيتِ عائِم يا عزيزتي؟ أرجوكِ قولي إنَّها كانت لحظة جنونٍ وقد نسيَتها».

ترك زليخة الكتاب على طاولةٍ صغيرة، وحين ترفع عينيَّها، ترى نظرةً متسائلةً في عينيَّ خالها. فتقول بهدوء: «إنَّه قاربُ جميل».

- «ما زلتِ صغيرةً جدًّا على أزمة منتصف العمر. تدرकिन هذا، أليس كذلك؟».

- «أكاد أبلغ الحادية والثلاثين».

- «في الحادية والثلاثين تكونين بالكاد امرأةً راشدة! ما يزال هذا العمر يعني ركبتين مقشَّرتين ومرفقين مخدوشين وأنفًا ممتلئًا بالمخاط. ناهيك عن أنَّك ستكونين في عينيَّ دائماً الطفلة الصغيرة بشعرها الأشعث، حتى وأنتِ في الستين».

تأخذ زليخة نفَسًا، وتشعر بصدرها يتداعى. حين مات والداها كانت في سنِّ السابعة. تذكر ذلك الصيف حين أخذها خالها (الذي سيصبح وليَّ أمرها الوحيد) إلى منزله، وظلَّت تحكُّ ساقَيْها بحثًا عن لسعات بعوضٍ لا تُرى، وتمصُّ دمهـا. وتذكر أنَّها ذات صباح أمام مرآة الحمام قَطَّعت جدائلها على نحوٍ غير متساو، فظَهَرَتْ فروة رأسها في بعض الأماكن إلى أن نما شعرها مرَّةً أخرى بعد أشهر. كانوا يحبُّونها ويدعمونها ويمنحونها كلَّ فرصة في هذا البيت. لو أنَّ بإمكانها أن تشعر بانتماءٍ إلى أيِّ مكان، فسوف يكون هذا المكان. لكنَّها تركت هذا الملتجأ بمجرَّد أن بلغت الثامنة عشرة، ولم تستطع أن تستقرَّ في أيِّ مكانٍ آخر فترةً طويلة.

تقول زليخة، وصوتها يبدو لها بعيداً: «لا تقلق عليّ أرجوك».

فيتنهد خالها. «وكيف حجمه هذا البيت العائم؟».

- «يكفيني».

فيرفع الخال يديه للأعلى ويقول: «حيرتني. أتراها شكلاً من أشكال الثورة المتأخرة؟ ربيعك العربي؟ تذكرني أنك لم تعودتي شابة صغيرة».

فتقول زليخة، وهي تبتسم، في محاولة عقيمة لتلطيف الأجواء: «قبل دقيقة فقط كنت تقول لي إنني لست كبيرة».

- «بالضبط. أنت في تلك المرحلة التي يصبح فيها المرء كبيراً على التمرّد، وصغيراً على الاعتراف بالهزيمة».

تسري قشعريرة في بدنهما، وكأنّ أحداً كشف أمرها. للكلمات وخز، كالإبر. ثمّة شيء في حلقها يخنقها، لا تستطيع أن تتخلّص منه.

لكنّ خالها يواصل في اندفاعه من دون أن يشعر. «اسمعي، لعلّ هذا آخر ما تريدين سماعه، ولكنّ في كلّ زواج جانبان من الحكاية: روايته، وروايتها. ولا تتطابق الروايتان أبداً. فما وضفتي إذن للبركة في الزواج؟ العمى الاختياريّ. أغمضي عينيك، ضعي قناع نوم على وجهك. والصمم الاختياريّ. ضعي سدّادتين في أذنيك. هلّ قالت ذلك؟ لم أسمعها. فعَلت ذلك؟ لم أرها. هذه راحة البال. إلّا طبعاً لو أنّه فعل شيئاً خطيراً، ولم تخبريني به».

يستغرق الأمر من زليخة بضع ثوان، كي تُدرك ما يرمي إليه خالها. «تقصد أنه ضربني؟ لا، لم يحدث شيء كهذا!».

- «الحمد لله... هممم، لا أقصد أن أتطفّل، ولكن هل في الموضوع امرأة أخرى؟».

- «أوه، لا! أقصد على حدّ علمي على الأقلّ».

- «جميل. فإنّ لم تكن هذه ولا تلك، ما الذي يمنعكما من إيجاد حلّ؟ لا أحبّ أن يفشل زواجك».

تودّ أن تقول له إنّها لا ترى تحطّم زواجها فشلاً بالضرورة. لقد جرّبت أن تُحبّ، وتُحبّ. فما الذي يريده المرء أكثر؟ من السذاجة الافتراض بأنّ الحبّ يمكن أن يستمرّ إلى الأبد. فمصير الحبّ أن يذبل، عاجلاً أم آجلاً. تودّ أن تشرح رأيها هذا الذي يبدو في عقلها حكيماً، أو منطقياً على الأقلّ، لكنّها تعاني في صوغه في كلمات، ثم يخرج من فمها كلامٌ له معنى مختلفٌ تماماً.

- «أنا لا أفهم لماذا لا يحقّ لنا أن نفشل مثل الآخرين».

- «لأنّه ليس بمقدورنا. نحن نحفظ بندوبنا لأنفسنا، ولا نظهرها لأيّ أحد، ولا حتى لأعزّ الناس لدينا وأقربهم إلينا».

لكنّ زليخة تصرّ على موقفها، وهو أمرٌ نادراً ما تفعله:

«ولماذا؟».

فيرمقها خالها بنظرةٍ من نظراته الطويلة المتفحّصة. «لماذا نزعجهم بأشياء لا يستطيعون استيعابها؟».

فتسري في زليخة طعنةٌ من حزن. لم يخطر ببالها قطّ مدى

الوحدة التي ربّما شعر بها خالها في زواجه من وقتٍ إلى آخر. تعلمُ أنّه يعشق ابنته، ولا تشكُّ أبدًا في أنّه مخلصٌ لزوجته، رغم تدمّره. غير أنّ هنالك شيئًا جوهريًا يفصل بينه وبينهما. فخالها من مكانٍ آخر. وُلد في ثقافةٍ مختلفة، وتربّى على عين نهرٍ آخر. ربّما أصبح بريطانيًا، وحقّق نجاحًا باهرًا في حياته، بيد أنّ ثمة شيئًا فيه لا يدركه حتى أقرب الناس إليه.

هو الابن الوحيد لعائلةٍ مشرقيةٍ عريقةٍ في الشرق الأوسط، وقد جاء إلى إنكلترا في صباه، فلم يغرس له جذورًا في أيّ مكانٍ آخر أقوى من جذوره هنا. فاتّخذ من الإنكليز أصدقاء، وشركاء في العمل، وزوجة. يتحدّث الإنكليزيةً نهارًا، ويحلم بالإنكليزيةً ليلاً. يشجّع فريق كرة قدم إنكليزيًا بشغفٍ يصل إلى حدّ الهوس. يكسب أموالًا إنكليزيةً، ويتبرّع إلى الجمعيات الخيرية الإنكليزية، وهو عضوٌ في عدّة نوادٍ إنكليزية، وتلقّى تكريمًا من الملكة. بل إنّه كان يقضي عطلاتٍ في السواحل الإنكليزية، لكنّه ظلّ، وسيبقى دائمًا، أجنبيًا. ما تزال هويّة الآخر حاضرةً فيه تحت الصورة الملمّعة، مثل شظيّةٍ لا يمكن انتزاعها من جسده.

تقول زليخة: «ينبغي أن تكفّ عن القلق عليّ. لقد فعلت الكثير من أجلي، وأشعر بامتنانٍ دائمٍ لك».

فيرمقها خالها من فوق نظّارته، لكنّ ابتسامته التي ترسم على وجهه لا تصل إلى عينيه. «لماذا تتحدّثين هكذا يا عزيزتي؟ أرجو ألا تكوني قد خطّطت للرحيل بذلك القارب. أخبريني، هل البيت مؤثّق على الأقل؟».

- «به بعض الأشياء».

- «عليك أن تشتري أثاثًا. وجهاز إنذارٍ ضدَّ السرقة».

- «المكان آمن».

- «وهل بقي مكانٌ آمنٌ في لندن؟».

يشير الخال نحو الخزانة، ويقول: «هلاً فتحتِ الدرج الأول؟».

تفتحه زليخة، فتجد فتّاحة ورقٍ فضيَّةً أنيقةً ومظروفًا موقَّعًا بحروف خالها. لا تحتاج إلى فتح المظروف كي تعرف أنَّ بداخله شيكًا.

- «خذيهِ يا حبيبتِي».

- «صدَّقني لستُ في حاجةٍ إليه. شكرًا لك».

لا تَظهر خيبة الأمل على ملامح خالها، ويظلُّ صوته مبتهَجًا، وهو يحاول مرَّةً أخرى. «اعتبريه هديَّة البيت... البيت العائم الجديد».

تُغلق زليخة الدرج بلطف، دون أن تلمس المظروف. لكنَّ نظرتها تحطُّ على الكتاب الذي وضعته على الطاولة.

- «ما هذا الكتاب الذي تقرأه؟».

- «أوه، هذا... لقد فرغتُ منه. كنتُ أبحث قليلاً من أجل

مزاٍ قريب. ربَّما أزايد فيه. ظهر شيءٌ استثنائيٌّ من نينوى».

- «لا أذكر أنَّك اشتريت شيئًا من العراق من قبل».

«هذا شيءٌ مميِّز. لوحٌ من مكتبة آشوربانيبال، عمره آلاف السنين». يرفع خالها رأسه، وينظر إلى الخارج عبر النافذة. «لوحٌ

أزرق. من اللازورد. عابرٌ عظيمٌ من الزمن السحيق».

تنتظر زليخة مزيدًا من الشرح، لكنّه يسكت، فتقول: «لقد انكسر اللّاماسو الصغير الذي أعطيتني إيّاه».

- «كسرتِ روحًا حارسة؟ يا للأسف. لا بدّ أن نحضر لك واحدًا جديدًا».

- «أظنّني أستطيع لصق الجزء المكسور».

فيقول الخال: «آه، نعم. يفعلون هذا، أليس كذلك؟ يسمّونه فنّ كنتسوعي اليابانيّ. يعرضون الأشياء بعيوبها وكسورها للناظرين. فنّ نبيل، لكنّني لستُ من هواة».

تعرفُ زليخة أنّ خالها كان دائمًا هكذا. بل إنّ ذات مرّة وصف نفسه بأنّه «نجّاد العيوب»، يغطّي البقع، ويحشو السطوح المتقشّرة، وينعمّ الحواف، ويخفي الشقوق والحفر. وكأنّ كلّ خطأ يمكن تصحيحه، وكلّ فقدان يمكن تعويضه، أمّا ما يظلّ قاسيًا أو خشنًا أو متشقّقًا، فلا ينبغي أن يراه الآخرون.

يلتقط الخال كتاب نينوى وآثارها، وبدلًا من إعادته إلى مكانه في الرف، يضعه في الدرج العلويّ، بجانب المظروف.

- «والآن، أرجو أن تكوني جائعة. لقد أعدت خالتك موسلين السلمون المسلوق على شرفك. أم أنّه ميسالين؟ هي وصفةٌ من [سفينة] التايتانيك. يبدو أنّها صرعة، يعيدون إنتاج أشهر الوجبات الأخيرة. ولو ظلّت خالتك هكذا، ستكون إحدى هذه الوجبات وجبتي الأخيرة».



فتقول زليخة بابتسامةٍ متفكّرة: «لكنّك تكره السمك».

- «بالضبط! أشكرك على ملاحظتك، وأنّ الوحيدة التي لاحظت ذلك. آخر مرة استمتعتُ فيها بأكل شيءٍ ذي خياشيم وزعانف كان في صباي. كان والدي يأخذني إلى مطاعم عند نهر دجلة. أوه، المسكوف، سمك الشبوط المشويّ. الحقيقة أنّه كان شيئًا فائقًا. ولكن منذ ذلك الحين كرهتُ كائنات الماء التي لا أطراف لها، لكنّ خالتك لا تريد أن تقبل بهذا. تعتقد أنّها حين تطبخه بالبخار، وتخلّله وتنقعه في صلصة ذات اسمٍ فرنسيّ لا أستطيع حتى أن أنطقه، فلن أعرف ما الذي آكله».

تلزم زليخة الصمت. فما تعرفه عن ماضي خالها، إنّما التقطته من تعليقاتٍ مواربةٍ وحواراتٍ اختلستها، فجمعتُ فتاتًا من المعلومات التي سقطت سهوًا عبر السنين. وفي لحظاتٍ كهذه، تُدرك كم كان قليلًا ذاك الذي استطاعت أن تعرفه.

يتحوّل ضوء الغرفة، بينما يمشي خالها أمام مصباح طاولةٍ نحاسيّ، وهو مصباحٌ من العصر الفيكتوريّ رُمّم حديثًا، أحمر اللون وبه زجاجٌ مزخرفٌ على شكل زنبقةٍ مقلوبة. وحين يستدير خالها، تبرز ملامح وجهه أكثر.

- «على أيّ حال، إن لم يُعجبك الطعام، تحمّلي. هذا ما أفعله دائمًا. فقد تعلّمتُ ألا أضايق خالتك».

وعندها، يفتح الخال مالك الباب، ويصحب زليخة إلى الممرّ، نزولًا من السلالم.

## -O-

آرثر

بجوار نهر التيمز، 1854

في العام الذي أتم فيه آرثر سنّ الرابعة عشرة، أتيح له أن يزور «المعرض الكبير للأعمال الصناعيّة لجميع الأمم»، عملاق الحديد والزجاج، المعروف بين الناس باسم «القصر الكرساليّ». افتتحت الملكة فكتوريا هذا المعرض في عام 1851 في حديقة الهايد پارك، بصحبة الأمير ألبرت ولفيف من أعضاء الأسرة المالكة والدبلوماسيّين والسياسيّين. زار المعرض منذ ذلك الحين ما يربو على الستّة ملايين شخص، ورغم أنّ الصبيّ كان يستميّت لزيارة هذه الأعجوبة التي يتغنّى بها الجميع، إلّا أنّه لم يكن يستطيع أن يدفع ثمن تذكرة الدخول إلّا الآن.

وقد فُكِّك المعرض مؤخَّرًا، وأعيد تشييده في «سِدْنَم هِل»، في مكانٍ يطلُّ على لندن من الجنوب، كما حُقِّض أجر الدخول من جنيهِ إسترلينيٍّ إلى خمسة شلنات، ثم إلى شلنٍ واحد. وما إن أشبع الأثرياء فضولهم واستمتعوا بالعرض، وأخذت الطبقة الوسطى فرصتها أيضًا، حتى حان الوقت أخيرًا للفقراء. وهكذا جاء اليوم دور آرثر، بعد انتظارٍ طويل.

ينطلقُ الصبيُّ في رحلته جنوبًا في يوم دافئٍ من أوائل الصيف. تتوهَّج السماء اللازوردية، وتعكس الشمس ظلًا مبرقشًا فوق الأرصفة. يقبض آرثر على شِلمه، خشية أن ينتزعه أحد النشَّالين. وحين يقترب من وجهته، تمرُّ قافلةٌ من العربات في سربٍ لا يتوقَّف، إذ تتعالى جلجلةُ العجلات والحوافر من دون انقطاع. يرى الناس من حوله تجري في الاتجاه نفسه، فلا يطلُّ منهم إلَّا بقايا ثرثرة.

آرثر لا يحبُّ الزحام، ولذلك تتعرَّقُ الآن راحتاه وتثقل أنفاسه. ولكي يَهْدِي قلبه المتسارع، يستذكرُ جدول ضرب العدد (12) في عقله. كانوا قد علِّموه في المدرسة أن يكتب حاصل الضرب على لوح من اليمين إلى اليسار في رقمين اثنين في المرة الواحدة، لكنَّه يتَّبِع طريقته الخاصَّة، إذ يحسب من اليسار إلى اليمين، ولذلك يصل بسهولةٍ إلى النتائج الأكبر. فحين يُجري عملية الضرب بسرعةٍ كافية، تدور الأرقام أمام عينيه، وتبعث ومضاتٍ من الضوء مثل الشرارات التي تنبعث من حجر الشحذ.

وأخيرًا، تقع عيناه على القصر الكرستالي بين الأشجار المستوية. مبنى ضخمٌ مهيب، كتلةٌ سامقةٌ من ألواح الزجاج

والحديد الصلب والطموح العظيم. على جانبيّه نافورات ترتفع إلى متّتي قدم. ينظر الصبيّ للأعلى، يخزّر عينيه، مذهولاً. لم يخطر في باله قطّ أنّ هذا الشيء ممكن؛ فكيف للماء أن يتدفّق عكس الجاذبيّة! الماء وفير، يتّخذ كلّ شكلٍ ولون، يندفع بسهولةٍ وكأنّه يخرج من الأرض مثل نباتٍ طويلة.

وقبل أن يستجمع أفكاره، يدفعه الناس نحو المدخل الرئيس مع مئات الآخرين. يستغرق الأمر منه بعض الوقت كي يشقّ طريقه متعرّجاً في الطابور، ويدفع ثمن التذكرة، ثم يمرّ من الأبواب الدوّارة. ومع كلّ خطوةٍ يخطوها، يسمع جعجعةً تهتزّ، وتظلّ تتعاضم، مثل رفرقة آلاف الأجنحة التي تقترب شيئاً فشيئاً. ينمو إحساسه بالدهشة وهو يمرّ بعينه على هذا المكان الفسيح. المعرض ممتلئٌ حتى آخره، إذ اكتسح الزوّار كلّ ممرٍّ ورواق. هكذا ينظر آرثر في هذه الجمهرة الكبيرة من الرجال والنساء والأطفال. أترى كلّ هؤلاء الناس يعيشون في المدينة نفسها التي يعيش فيها، وينظرون إلى السماء نفسها كلّ صباح؟

المبنى رائعٌ من الداخل. هناك مئة ألف معروضةٍ على طابقيّن هائلين، منشورةٌ تحت هذه الظلّة العالية البرّاقة. وفرةٌ من منتجاتٍ وجرّفٍ وآلاتٍ من بريطانيا وجميع أنحاء العالم، فهي مزيجٌ من الأبّهة الملكيّة، والفخر الوطني، والجشع الاستعماريّ، والإنجاز العلميّ، والتطوّر التقنيّ، والاكتشافات الحضاريّة. ولمّا كان المعرض ينتقي معروضاته من أنواع شتّى، فقد أصبح جاذباً للأشخاص الذين لا توجد بينهم مشتركاتٌ كثيرة. فهنا شيءٌ لكلّ

أحد، من المؤمن الملتزم إلى الملحد، ومن الرجعي إلى الليبرالي، ومن صاحب الفكر النفعي إلى صاحب الفكر الحرّ.

يصيح أحد الباعة: «أيّها السيّدات والسادة، تعالوا خذوا خريطة المعرض! كي لا تضلّوا طريقكم أبداً».

فيسأله آرثر وهو يُحكم قبضته التي كان بها الشلن قبل قليل: «هل هي مجّانيّة؟».

فيردّد الرجل الكلمة وكأنّها جديدة عليه: «مجّانيّة؟ هل أنت أبله؟ كلّ ما يستحقّ الاقتناء له سعرٌ يا ولد».

فيبتعد آرثر، وقد تورّد وجهه من الحرج. عليه أن يتّبع غريزته إذن، من دون خريطة. يرى أمامه نافورة من الكريستال، وكأنّها تنبعث من حلم. تلتمع النافورة على نحوٍ فاتنٍ أمام أشجار دردارٍ طويلة، أمّا ماؤها المترقق فهو مُعطرٌ بالكولونيا، يبعث رائحةً قويّة.

ينطلق الصبيّ بين الممرّات، وقد سرى في أطرافه شيءٌ من قوّة طارئة. إلى يساره ويمينه أجنحةٌ تمثّل دولاً لم يعرفها إلّا في الكتب: الصين، والهند، وإسبانيا، وفرنسا، والبرتغال، والاتّحاد الجمركيّ الألمانيّ، وروسيا، والسويد، وكندا، والولايات المتّحدة الأميركيّة، والإمبراطوريّة العثمانيّة، وغيرها. وفي كلّ جناح معروضاتٌ كثيرة، من بهارات، ومعادن، وأنسجة، ومجوهرات، ومسدّسات، وزرابيّ، ومنتجات زراعيّة، وأدوات جراحيّة، وذمّى حيوانيّة محشوّّة لها أعينٌ تلمع مثل الكرات الزجاجيّة. وهناك كليدوسكوب [مِشكال] لَماعٍ تختلف ألوانه وأشكاله. وثمّة بيانّة مطويّة بها مفاتيح قابلةٌ للطّي، وآلة تصنع

سجائر جديدة، ومطرقة بخارية تكسر البيض بلطف. وهناك أسنان صناعية مصنوعة من أنياب فرس النهر.

الجناح الأميركي متشحّ بالنجوم والشرائط، يعرض لوحات للرؤساء، وأدوات زراعية، ومحلات قطن من كونكتيكت، وصابوناً من فلدفيا، وقماش أسرع من نيويورك، ومجموعة من الأسلحة النارية. أمّا المعروضة المحورية فهي تمثال استثنائي الجمال والرشاقة يُسمّى العبدّة اليونانية. تقف العبدّة الشابة التي باعها العثمانيون عارية مقيّدة إلى قاعدة دوّارة، تحت ظلّة من المخمل الأحمر. يقترب آرثر، فيرى الناس مجتمعين حول التمثال، ينظر معظمهم إليه بإعجاب واضح، فيما آخرون (من المطالبين بإلغاء الرق) يحملون لافتات ويحتجون. هناك رجل يلوح بمجلة تنتش، مشيراً إلى مقالٍ ناريٍّ نُشر مؤخراً يتساءل عن سبب اختيار امرأة بيضاء من دولة أخرى لتصوير فضاء الرق، وليس امرأة سوداء من فرجينيا.

في الجناح التونسي يرى آرثر جلود فهوٍ وأسود، ثم يلمس في الجناح الفارسيّ سجاجيد يبدو له من فرط نعومتها أنّ الملائكة هي التي نسجتها. وفي الجناح الهنديّ أعجب جداً بالحُصُر الأنيقة، والحرير، والبلاط. وثمة عيّنات من ريش النعام، وعاج الفيل، وقرن الثور، وترس السلحفاة، وغير ذلك. بعدها ينضمّ إلى حشد يتأمّلون في إعجابٍ شديدٍ جوهرة كوه نور، ثم جوهرة داريا نور بلونها الورديّ الشاحب<sup>(\*)</sup>. يحملق آرثر أيضاً في مزهريّة

---

(\*) تُعدّ جوهرة كوه نور واحدةً من أشهر جواهر العالم وأكبرها، وهي جزء من مجوهرات التاج الملكي في بريطانيا، ويُقال إنّها كانت من بين الجواهر التي =

ضخمة من السويد، وبذلة مدرّعة من القوزاق، وجرّة مصنوعة من حجر الملكيت من روسيا، وجرّة خزفية من البرتغال، وأدوات بصرية من فرنسا، وآلات محكمة الصنع من الاتحاد الجمركي. وينظر كذلك في ذهول إلى كرسي منحوت من العاج، قُدّم هدية للملكة فكتوريا، وآلة خياطة من ماركة سنغر تخطط بدلاً من الإنسان، وسرير يُعدّل وضعيّة النائم جلوسًا عندما يحين وقت النهوض، ومكبس هيدروليكيّ يمكّن المرء من نقل آلاف الأرتال من الحديد. وتحمرّ وجنتا آرثر خجلًا وهو ينظر إلى تماثيل الرخام التي تتدلّى أعضاؤها الجنسيّة أمامه.

في كلّ قاعة من قاعات المعرض، تتلقّاه آخرُ الاختراعات وأحدث التقانات، من قاطرات، وتلغرافات، وكاميرات، ومضخّات، ودمى آليّة، ورافعات هيدروليكيّة، وآلات بستنة. ثمّة مناظر تأتيك بدرب التّبانة إلى حجرك، ومجاهر تكشف الجسيمات التي لا تراها العين. يتفحص آرثر نفسه في المرايا المذهّبة المصفوفة في الجناح، فيرى مراهقًا نحيلًا يكاد ينفطر من الخجل.

لا يعرف آرثر أيُّهما يفتنه أكثر: وجود الكثير من هذه العجائب تحت سقفٍ واحد، أم حضوره هو بينها. فبالنسبة إلى صبيّ لم يكن يعرف شيئًا سوى العوز الشديد منذ مولده، تُعدّ هذه التجربة مبعث فرح وقلقٍ بالقدر نفسه. ثمّة شيءٌ يتفجّر في صدره، رغبةٌ جديدة. العالمُ ضخّم، والحياة التي ذاقها ليست سوى بقعةٍ

---

سلبها نادر شاه من الهند عام 1739، ثم أُعيدت لاحقًا إلى الهند واستولى عليها البريطانيون بعد ذلك. أمّا جوهرة داريا نور فهي من ممتلكات التاج الإيراني، وقد سلبها نادر شاه أيضًا من الهند. (المترجم، عن الموسوعة البريطانية).

في طيفٍ من الفرص والأقدار المتاحة للبشر. ففيما وراء سواحل التيمز عواصم أخرى قديمة وحديثة، وكلُّ واحدةٍ منها لها عواصفها وتياراتها التي تتلوى وتتدفق. وهكذا تملّكته رغبةٌ ملحةٌ (ليست الأولى) في السفر بعيدًا، قوّةٌ دافعةٌ مخيفةٌ بالنسبة إلى شخصٍ منطوٍ مثله. كم يتلهّف إلى رؤية المملكات والأقاليم البعيدة، بألستها الأجنبية، وعاداتها المختلفة، لا أن يقرأ عنها في الكتب وحسب.

في القسم التالي، يرى غرف الشاي التي يتناول فيها الزوّار شيئًا من المشروبات والكعك، لكنّ الصبيّ يناهض نفسه عنها، إذ ليس في مقدوره أن يدفع لهذه الرفاهيّات. ولا يستطيع حتى أن يدفع لاستخدام الحمامات العموميّة الجديدة، رغم رغبته الشديدة في أن يرى واحدًا منها، فالدخول إليها يكلف بنسًا واحدًا. وفي قاعةٍ تتفجّر بالأضواء، يجد مصابيح كروية، وشمعدانًا مذهّبًا، وثرثرا تتدلّى منها دلاياتٌ من الكرستال. ثم يحدّق طويلًا في مصباح نحاسيّ به ظلّةٌ من الزجاج الأحمر المزخرف، تميل برشاقةٍ إلى الأسفل مثل بتلات زنبقةٍ مقلوبة. والهالة التي تنبعث من المصباح ناعمةٌ جدًّا، حتى إنّ دخول حدودها يبدو كأنسلالٍ في حمّامٍ دافئ.

يفغر آرثر فاه وهو ينظر إلى ثريًا مزينةً بزنايق بيضٍ وأوراقٍ خضر، بها متسلّقاتٌ لفرط هشاشتها يمكن للنسمة الهادئة أن تكسرهما. ما أسعد من يملك كلّ هذا الجمال في بيته، فيحوّل الليل إلى نهار. لو كان لديه واحدٌ من تلك المصابيح أو الثريّات، لقرأ من الغروب حتى الفجر دون أن يغمض له جفن.



وقبيل انتهاء العصر، ومع اشتداد رغبة آرثر في التبوّل وعجزه عن احتمال الزحام أكثر من ذلك، يشقُّ طريقه إلى غرفة انتظارٍ أخيرة، ويبحث في لهفةٍ عن أقرب مخرج. وهناك يصل إلى ركنٍ محاطٍ بكتلٍ حجريّةٍ منحوتة. يتوقّف مذهولاً، إذ يرى أمامه اللاماسوين وهما يطلّان من عليّ على كلّ شيءٍ وكلّ أحد، بأعينٍ نافذةٍ كالسهام الملتهبة. لا بدّ أنّهما معاران من المتحف البريطانيّ. ثمّة حشدٌ متجمّع حولهما، يتمتمون في نبراتٍ خافتة، وكأنّهم خائفون من إيقاظ العملاقين القادمين من بلاد الرافدين.

وهناك قوسٌ حجريٌّ بين التمثالين وُضعت عليه لافتةٌ جاء فيها:

بلاط نينوى

تعال وتأمل في المدينة المذكورة في الكتاب المقدّس، مدينة الخطيئة والجشع والهلاك!

تستحيل عينا آرثر إلى بركتين زرقاوين مغبّشتين من الحزن، فهو لا يرى الخطيئة والجشع والهلاك حين ينظر إلى ذينك الكائنين المهجّنين. إنّهما آسران، مكتئبان، وعتيقان إلى أبعد الحدود، لكنّهما في الوقت نفسه هادئان مسالمان، وكأنّهما لم يعد هناك شيءٌ يثير الغرابة فيهما. يتجاهل الصبيّ تلك النبرة التي تعيب على التمثالين ويتوجّه إلى واحدٍ منهما. يتأمّل الصنعة البديعة التي تمتدُّ إلى الجناحين المريّشين، واللحية المجعّدة الطويلة، والقدمين المتشقّقتين، والساقين المنحوتتين بمهارةٍ شديدةٍ لإبراز العضلات والعروق. يلاحظ أنّ الحافر الأماميّ الأيمن به

علامةً بنية اللون، وكأنه تعرّض لحرق. يلمس البقعة بلطف، متسائلاً عن مصدرها. أي نارٍ يا ترى تلك التي استطاعت أن تشوّه الرخام هكذا؟ أترأه نجا من حريقٍ في قصر آشوربانيبال؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف ظلّت بقية أجزاء التمثال سليمة؟ ينظر آرثر يمنة ويسرة، خشية أن يكون هناك أحدٌ منتبّهٌ إليه، ثم يهمس قائلاً: «ما الذي جرى لك؟ هل آذاك أحد؟».

ينتظر الصبيّ. وينتظرُ التمثال.

- «ذات يوم سأزور المكان الذي جئت منه. يقولون إنك كنت تحرس مكتبةً ملكيّةً لم يكن لها مثيلٌ في حجمها. ما أروع ذلك! هل التقيت الملك آشوربانيبال؟ هل كان لطيفاً؟».

ينتظر الصبيّ. وينتظرُ التمثال.

فيقول آرثر وهو يتنهّد: «عليّ أن أذهب الآن. أعلم أنك روحٌ حارسة. أتوسّل إليك أن تحمي أمي وأخوي الصغيرين حين أسافر إلى نينوى».

وحين يبتعد آرثر قيد أنملةٍ عن اللاماسو العملاق، يرفع رأسه لينظر إليه مرّةً أخرى.

يقفُ شعر قفاه. شعورٌ شديد الغرابة، لكنّه لا يملك أن يكتبه. ففي تلك اللحظة، كان يمكنه أن يقسم بأنّ العملاق كان ينظر إليه.

\*\*\*

في اليوم التالي، بعد أن عاد الجميع إلى بيوتهم، لم يبقَ في الشركة إلا آرثر والسيد برادبري. كان الرجل صامتاً طوال فترة العصر، وهناك هالاتٌ تحت عينيه.

- «أيُّها الشابُّ سميث. تعال وانظر إلى هذا».

هي صورةٌ مطبوعةٌ لنهر التيمز، أُعيد إنتاجها من لوحةٍ مائيّةٍ رُسمت قبل قرن. لكنَّ النهر في هذه الصورة لا يبدو كما هو الآن، بل يبدو لازورديّ اللون، نظيفًا، مبتهجًا. وفي خلفيّة الصورة سفنٌ راسيةٌ في حوض السفن، ممّا يضيفي حسًا من الهدوء.

- «هل أعجبتك؟».

- «جميلة. لا أكاد أصدّق أنّ النهر هو نفسه».

فيقول السيّد برادبري وهو يتنهّد: «تخيّل. كثيرًا ما ندمّر الطبيعة نحن البشر، ونسمّي ذلك تقدّمًا».

ثمّة حزنٌ في صوته يُحيّر الصبيّ، لكنَّ الرجل لا يودُّ أن يتحدث عن الكآبة التي حلّت عليه. يقول: «لقد تعلّمت الكثير جدًّا في وقتٍ قصيرٍ للغاية. وكأنّها كانت البارحة حين جئت مع والدك وأدهشتنا بقدرات ذاكرتك. أنت تلميذٌ رائع: صادقٌ ومكافحٌ ومحلٌّ ثقة. سوف تحقّق أشياء مذهلة في حياتك».

لكنَّ آرثر لا يعرف كيف يرُدُّ على هذا المديح، فيتورّد خجلًا. «شكرًا لك سيّدي».

فيقول السيّد برادبري وقد امتلأت نظرتُه حنانًا: «قل لي، هل أعجبك المعرض الكبير؟».

فيُشرق وجه آرثر. «أوه، كان مذهلًا! لا أكفُّ عن التفكير فيه. ورأيت لاماسو هناك في قسم نينوى. بل إنني لمستُ حافره!».

فيقول الرجل ساهمًا: «نينوى. آه نعم. كنتُ قد نسيت شغفك بالحضارات القديمة. عليك أن تزور المتحف البريطاني أيضًا لرؤية الألواح».

لا يعرف آرثر ألواحًا غير التي يكتب عليها التلاميذ بالطبشور في المدرسة. لكنه يُدرك أنَّ السيّد برادبري يقصد شيئًا مختلفًا جدًّا، ولئن كان لهذا الشيء أيُّ علاقةٍ بنينوى، فسوف يكون سعيدًا جدًّا باكتشافه. غير أنَّ هناك عقبةً لا يستطيع الكشف عنها؛ إذ ينبغي له أن يدّخر المال أولًا كي يشتري معطفًا لائقًا، خشية ألا يسمحوا له بدخول المتحف الجليل بملابسه البالية.

فيسأله السيّد برادبري وكأنه استشعر ما يدور في عقله: «هل تستطيع أن تدّخر شيئًا من أجرك؟».

فيطأطئ آرثر رأسه. لا فائدة من القول إنَّ والده يستولي على كلِّ ما يجنيه. وفي الحالات النادرة التي يستطيع فيها أن يدّخر شلنًا أو اثنين من أجل أمّه، يشعر بأنّه محظوظ، رغم أنّه لا يستبقي شيئًا لنفسه.

فيقول السيّد برادبري: «نعم الولد أنت»، ثم يُخرج عملتي نصف كرون من جيبه ويضعهما على الطاولة. «من فضلك يا بني، اشتر لنفسك شيئًا. هديّة لنفسك، منّي».

- «أوه، سيّدي، هذا من بالغ كرمك، لكنني لا أستطيع أن أقبلهما».

- «أنا مصرٌّ على ذلك. اشترِ لنفسك شيئًا. هل تعرف متى عيد ميلادك؟».

لقد سمع آرثر عن عادةٍ غريبةٍ تنتشر هذه الأيام في بعض العائلات، إذ يحتفلون بيوم ميلاد الأطفال فيأكلون الكعك ويشربون العصائر، رغم أنه لا يفهم السبب ولا يعرف أحدًا يمارس هذه العادة.

– «لقد وُلدتُ في الشتاء يا سيّدي. كان الثلج يتساقط. أتذكّر ندف الثلج وهي تتراقص في الهواء، ثم وقعتُ واحدةً منها على لساني».

يأخذ الرجل نفسًا ويهزُّ رأسه، فلم يعد يستغرب هذه القدرات الغريبة عند آرثر.

– «الشتاء هاه؟ مع ذلك، لنفترض أنه يوم ميلادك، ما رأيك؟ والآن هيّا انطلق وابحث لنفسك عن هديّة».

وما يلبث أن يغادر الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات، لكنّه لا يسارع لرؤية المحالّ كي يعرف إذا كانت ما تزال مفتوحةً حتى الآن، بل يقرّر الاحتفاظ بالمال إلى أن يختار الهدية المثلى. ورغم حماسه، إلّا أنّ هنالك شعورًا مزعجًا في قلبه، يكاد يدفعه إلى التوقّف والعودة إلى الشركة، لكنّه يواصل السير. ولسوف يظلّ آرثر طوال حياته نادمًا على هذا القرار. سوف يندم على أنه لم يبقَ هناك كي يساعد الرجل الوحيد الذي كان يهتمُّ به، بدلًا من الخروج وحده في تلك الليلة الكئيبة.

في الصباح التالي، يلتقط آرثر المفتاح الحديديّ من تحت الحجر عند المدخل، ويفتح الباب. فقد اعتاد الوصول قبل الجميع، وأصبح محلّ ثقةٍ تشفع له أن يفتح الباب ويدخل قبلهم.

وما إن دخل حتى اجتاحتَهُ رائحةٌ عفنةٌ حادّةٌ، وكأنَّ غاز النهر قد رشح من الجدران بين ليلةٍ وضحاها. الرسومات والنقوشات مبعثرةٌ في كلِّ مكانٍ على الأرض. كرسيٌّ مقلوب، وإلى جانبه شمعدانٌ به شموعٌ قد ذابت حتى آخرها في بركةٍ من الشمع. يخطر لآرثر أنَّ لصوصًا اقتحموا المكان، لكنَّه حين يمرُّ ناظره في المكان لا يجد شيئاً قد سُرق. وبسرعة، يرتّب المكان ويصفّ الكتب والمجلّات في أكوام، ويرتّب المطبوعات الخشبيّة، ويجمع الدمغات المثورة هنا وهناك.

وعندها يلاحظ القفص الفارغ.

فينادي وهو ينظر حوله: «لايس! لا زولي! أين أنتما؟».

يسمع رفرةً مكتومةً من المكتب الخلفيّ، حيث يجتمع الناشران مع العملاء. وما إن يدخل الغرفة حتى يطير الطائران عبر الباب المفتوح.

- «هوي، ماذا دهاكما؟»

على طاولةٍ عند النافذة إبريق نبيذٍ وبقايا جبن. يقول آرثر في نفسه لا بدّ أنَّ السيّد برادبري ظلّ هنا إلى وقتٍ متأخّر.

يفتح مصراع النافذة، فيلاحظ في ذلك الضوء المتغيّر طيفاً عند أرفف الكتب. ولولا أنّه يعرف شكل هذا الطيف لأطلق صرخة. لا بدّ أنَّ السيّد برادبري غفا فوق الكرسيّ، إذ يميل جسده على الكرسيّ بزاويةٍ غريبة.

- «سيّدي...».

يتقدّم آرثر خطوةً... وعندها يستوعب. يُدرك ما يصعب

قوله، لا من صمت الرجل، بل من امتقاع وجهه. فقد استحالت بشرته إلى اللون الرمادي، لون التّمز في يوم عاصف. خيَّط من زبد يرشح من طرف فمه، وقد تقطّر شيء منه على ياقته وجفّ. إلى جانب الرجل علبة فارغة من حمض البروسيك.

يرتجف الصبيّ. ليست المرأة الأولى التي يشهد فيها الموت. ففي حياته القصيرة رأى ما يزيد عن نصيبه من المِيتات، لكنّ هذا الرجل لم يقتله قاتلٌ عديم الشفقة أو مرضٌ عسير، بل اختار هو أن يقضي على نفسه. الرجلُ الوحيد الذي أحسن إلى آرثر لم يُحسن إلى نفسه.

وحين يهدأ ارتجاف آرثر، يُحضر طاسة غسيل، فيمسح ذقن السيّد برادبري وينظّف ياقته، ثم يخفي النبيذ ويزيل بقايا الجبن من حجره. يريد للرجل أن يبدو نظيفاً مبجّلاً، أنيقاً في موته كالنقوش التي خلّدها. يُطعم الطائرَيْن ويعيدهما إلى القفص، وحين لا يعود هناك شيء آخر يفعله، يجلس إلى جانب الرجل الميّت وينتظر وصول الآخرين.

\*\*\*

لا شيء يتغيّر، وكلُّ الأشياء تتغيّر. فلا يتوقّف آرثر عن الذهاب إلى عمله، ولا يهمل فيه، لكنّه لا يفرح بتعلّم تقنيّات جديدة في الطباعة. ما يزال يُطعم الطائرَيْن ويحرص على نظافة القفص، لكنّه كفّ عن التحدّث إليهما. يتوقع آرثر على نفسه، فلطالما كان فتى متأمّلاً بطبعه. أمّا ملامحه المتفكّرة فتثبت في شكل خطوطٍ من قلقٍ تجعله يبدو أكبر من سنّه. والحقُّ أنّ غياب

المعنى في ما حدث هو الذي يأكل روحه . فالسيد برادبري لم يكن ينقصه شيء: زوجة محبة، وأطفال جميلون، وبيت رائع، وعربة يملكها، ومهنة تدر عليه راتبًا جيدًا، ومكانة محترمة في المجتمع . ما الذي يجعل شخصًا ناجحًا وثريرًا ومتحققًا يودُّ أن ينتحر؟ يفهم آرثر الفقر، ويفهم الجريمة والإجرام، ولكن لا شيء يحيره أكثر من مرض العقل، هذا الذي يطارد أمه أيضًا .

يتأثر السيد إيفنز بحزن آرثر، فيحرص عليه، وحتى العمال الآخرون الذين كانوا يتندرون عليه أصبحوا الآن حذرين في تعاملهم معه . لكنَّ آرثر لا يكاد يلاحظ ذلك، فلا يتحدث إلى أحدٍ إلا للضرورة القصوى، وينهي المطلوب منه في صمتٍ مطبق . ما يزال كما كان، آرثر التلميذ النجيب .

مكتبة

t.me/soramnqraa



## H-

نارين

بجوار نهر دجلة ، 2024

«جدّتي مُداوية، تعالج الناس الذين يستولي عليهم الحزن». حضر أبناء عمومة نارين في زيارةٍ إلى تركيا من ألمانيا، إذ كان فرعٌ من العائلة قد رحل إلى هانوفر في بدايات الألفيّة الجديدة، وكانوا دائماً ما يعودون للزيارة في هذا الوقت من السنة. ونارين سعيدةٌ برؤية الطفلين اللذين يكبرانها سنّاً ويتحدّثان الألمانية بطلاقة. تودُّ أن تشير قليلاً إعجابهما.

يسألها الصبيُّ وهو يشبك ذراعيه: «وكيف تداويهم؟».

- «لا أعرف كيف تداويهم بالضبط، لكنّها تستخدم الماء في علاج المرضى. فهي قافرة».

فتسألها الصبيّة: «ماذا تعني كلمة قافرة؟».

فتقول نارين بفخر: «هي موهبةٌ خاصّة، تسري في عائلتنا. تستطيع جدّتي أن تعثر على عيون الماء تحت الأرض، حتى لو كانت مخفية. لقد رأيْتُها وهي تفعل ذلك، إذ ترتعش أصابعها وتلتوي حين تقترب من النبع. وفي بعض الأحيان تستخدم العصي. ولكن لا بدّ لها أوّلًا أن تكشطها عند الفجر كي تلتقط أشعة الشمس الأولى. تعلّمت ذلك من جدّتها ليلي، وذات يوم ستعلّمني أنا أيضًا، وحين أكبر سأورث هذا السرّ إلى أحفادي!». فيقول الصبيّ: «لكنّنا لم نرها قطّ وهي تقفر».

– «لأنّها شاخت ولم تعد تقفر كثيرًا، وأنتما مسافران أصلاً».

ورغم الشجار الذي يحدث بينهم أحيانًا، فإنّ نارين مبتهجةٌ بوجود ابني عمّها. فهي وحيدة أبويها، وكثيرًا ما تفكّر في حياتها لو كان لها أشقاء، ففي هذه اللحظات تقترب أكثر من معرفة الجواب. حين يتحدّث ابنا عمّها بالكرديّة، يطعمانها بكلماتٍ من التركيّة، وحين يتحدّثان بالتركيّة ينتقلان سريعًا إلى الألمانيّة التي يجيدانها أكثر. تعرف نارين أنّ عمّها وزوجته ليسا من الأثرياء، وأنّهما يكدحان من أجل لقمة العيش، لكنّهما دائمًا ما يحضران معهما الهدايا الرائعة: حقائب ظهر ذات ألواح لامعة في مقدّمتهما، وأقلام رصاصٍ برائحة الفراولة، وألواح شوكولاتة وبسكويت بنديّ ذا طعم خياليّ. توذّ لو تأكل هذه الأشياء دفعةً واحدة لفرط لذّتها، لكنّ جدّتها تقدّمها لها بالتقسيم بين فترةٍ وأخرى.

وجبة الفطور عبارة عن وليمة هذا اليوم، احتفالاً بالضيوف: الفلفل الأخضر المقلّي مع صلصة الزبادي، ومربّى الكرز الحامض، ومربّى الفلفل الحلو، وجبن الحلوّ اللامع، والتين المجفّف، والباذنجان المحشوّ بالبرغل، والبيض المخلوط بالفلفل الأحمر، والجبن الممزوج بثوم الجبل، والدفعة الأولى من عسل من الخليّة مباشرة، تعلوه طبقة من الكريمة. وفي زاوية يهسهس سماورٌ على فحم يتوهّج كالياقوت. تحبّ الجدّة الشاي الثقيل المستورد من روسيا، إذ تشربه مع قطعة سكرٍ تضعها بين أسنانها. تقول إنّ من يشرب الشاي بهذه الطريقة يصبح حلو الكلام.

بعد الإفطار، تأخذان الضيوف إلى المقبرة في أطراف القرية. من المهمّ إكرام الأسلاف كما ينبغي لهم، فلا يكفي أن يسير المرء إلى قبورهم، بل عليه أولاً أن يغتسل، ويلمّع حذائه، ويمسّط شعره. لا يهمّ إذا كانت الملابس قديمة أو جديدة، رخيصة أو غالية، فالأموات لا يابهون بهذه التفاهات. لكنّ المهمّ هو أن يكون المرء نظيفاً، في باطنه وظاهره.

تتقدّمهم الجدّة في الدخول إلى المقبرة، بشواهدا البالية، وأعشابها الكثيفة، وتلالها المعشوشبة. يشكّل النساء والأطفال دائرة، في حين يبقى الرجال على مقربة، يراقبون في صمت. تعرف نارين جيّداً أنّ الأنثى الكبيرة هي التي تقود مثل هذه الطقوس، فالحداد شأنُ النسوة، مثله مثل إحياء الذكرى.

\*\*\*

بعد ذلك، يسير الكبار وهم يتبادلون الحديث، فيما يتلکأ الصغار خلفهم.

ترمقُ ابنة العمّ نارين بنظرةً جانبيةً. «سمعتُ أنّ والدك سيأخذك إلى العراق. هل ستزورون وادي لالش المقدّس؟».

فتُجيبها نارين بوجهٍ يُشرق: «نعم. ستكون رحلةً رائعة. وجدّتي ستذهب معنا بالطبع. سنسافر كلّنا معاً».

فيشاركهما الصبيُّ في الحوار: «هل صحيحٌ ما يقولونه عنك؟».

فتسأله نارين رغم أنّها تستطيع تخمين الجواب: «وما الذي يقولونه؟».

– «إنّك ستصبحين صمّاء قريباً».

فتُطلق نارين نفساً عميقاً لم تكن تعرف أنّها تحبسه. «لن يحدث هذا فوراً. ما تزال لديّ عدّة شهور، أعتقد، أو ربّما سنة».

فيقول الصبيّ: «أمرٌ فظيع. لا أودّ أبداً أن أكون مكانك».

فتصحح الصبيّة بأخيها: «اخرس! لا تكن فظّاً هكذا».

– «ما بالك؟ أولاً تعرفين ما سوف يحدث لها؟».

– «قلّت اخرس!».

– تتركهما نارين في شجارهما، وتنحرف ناحية أطراف المقبرة، فتتوجّه هناك إلى السنديانة التي دُفن تحتها الرجل الإنكليزيّ. بليّ شاهدُ القبر بعد كلّ تلك السنوات من الشمس والريح، وتغطّى بقطع من الطحالب فأصبح يلمع مثل مخملٍ أخضر في تلك الخلفية الباهتة. ما يلبث ابنا عمّها أن يلحقا بها.

تسألها الصبيّة: «من هذا؟».

فتردُّ نارين: «الإنكليزيّ. ألم تسمعي به قطّ؟».

فتهزُّ ابنة عمّها رأسها.

- «تقول جدّتي إنّهُ كان يبحث عن قصيدة. جاء من إنكلترا، ومات هنا عطشاً».

يقهقه الصبيّ. «مات عطشاً عند نهر دجلة؟ يا لها من نهاية!».

- «لا أعرف كيف حدث ذلك. هل يمكنك قراءة المکتوب على الشاهد؟».

فيهزُّ الصبيّ كتفيه. «ليس مكتوباً بالألمانيّة».

تقترب أخته أكثر. «مكتوبٌ بالإنكليزيّة. دعني أحاول، فقد تعلّمتُ القليل في المدرسة». تضربُ بإصبعها الهواء وهي تقرأ بصوت عالٍ: «الملك... آرثر... صاحب...»، ثم تضمُّ يدها وتقول: «أوه، رائع! هذا الرجل كان ملكاً».

يقف الثلاثة ساكنين لحظة، وهم يتفرّسون في النقش الباهت. فتسألها نارين: «هل تستطيعين ترجمة البقيّة؟».

«لا أدري. ما معنى «sewage» [المجاري]؟». تخزُر الفتاة بعينيها وكأنّ وضوح الرؤية سيساعدها. «الملك آرثر صاحب كذا وكذا... ثم محلّ الميلاد وتاريخه، ثم محلّ الوفاة وتاريخها».

فتسألها نارين: «فقط؟».

فتجيب الصبيّة بثقة: «فقط».

فيقول الصبيّ: «لكنّ هذا غير منطقيّ. أوّلاً ينبغي للملك الإنكليزيّ أن يكون له قبرٌ ملكيّ، بالرخام والذهب؟».

فتقول أخته: «ربّما أطاحوا به. مثل الملك الفرنسيّ في الثورة». ثم تنهض وتُسقط يديها، في تقليدٍ لمشهد الإعدام.

فيسأل الصبيّ: «ولكن ما الذي كان يفعله هنا أصلاً؟».

فتقول أخته: «ربّما كان مستعمرًا. شأنه شأن الآخرين».

تلوي نارين شفتيّها، إذ لا تعرف معنى كلمة «مستعمر»، لكنّها لا تريد الاعتراف بجهلها.

فيقول الصبيّ: «هيّا، لقد ضجرت. لنذهب!».

وعندها ينطلق الأخوان ناحية الكبار، وتبقى نارين وحيدةً، فتلمس شاهد القبر، وتمرّر أصابعها على الحروف:

الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات

وُلد بجوار نهر التيمز عام 1840

تُوفّي بجوار نهر دجلة عام 1876

تقول: «مرحبًا آرثر. يؤسفني أنّك ستغرق بعد أن ينتهوا من بناء السدّ. ستغرق بيوتنا أيضًا وكرومنا وتيناتنا، بل حتى فستقات جدّتي. سوف تختفي حصن كيفا. محزونٌ جدًّا، ولكن ليس في يدنا شيء. تريد الحكومة أن نرحل كلّنا، ولن ترى جماعتنا هنا مرّةً أخرى».

– «نارين!».

لا تسمع الفتاة نداءهم، إلى أن تظهر لها جدّتها على مرمى بصرها.

- «أنا قادمةٌ يا جدَّتِي».

ترمق نارين القبر، وتخفّض صوتها. «ولكنّ لديّ أخبارٌ سعيدةٌ أيضًا. سنسافر إلى العراق، وسيعمّدونني في وادي لالش المقدّس. سأزورك مرّةً أخرى حين نعود إلى حصن كيفا. أعدك بذلك». تشتدّ الريح فتفكّ جديلتها، فتُبعد نارين الشعر عن وجهها. «ولكن سيَتعيّن علينا أن ننقل إلى مدينةٍ كبيرة. الأمر مخيف. هل كنت خائفًا أيضًا حين تركت بلدك؟».

- «نارين، أسرعِي!».

فتومئ الصبيّة لجدّتها.

- «وداعًا يا آرثر. سأعود وأراك مرّةً أخرى قريبًا».

لكنّها وهي تهتمّ بالانصراف، يلفت نظرها شيءٌ ما، شيءٌ غريزيٌّ لا تستطيع أن تحدّده يدفعها إلى أن تنظر إلى قبور عائلتها في الجانب المقابل، حيث ترقد أمّها وكثيرٌ من أقربائها. ولأوّل مرّةٍ تلاحظ شيئًا فاتها في كلّ زيارتها السابقة إلى المقبرة.

فقبر جدّتها الكبرى ليلى موضوعٌ على نحوٍ قطريّ (شرقًا باتجاه الشروق كما جرت العادة)، بحيث يطلُّ على قبر الإنكليزيّ. لكنّ الجدّة في آخرتها تراقبه بعناية. كما أنّ هناك سديانةً عند قبرها أيضًا.

\*\*\*

لاحقًا يتناولون العشاء في الحديقة، إذ يتحلّق الأقرباء والجيران حول صوانيٍ نحاسيّةٍ بها ما لذّ وطاب. فهذا ليس عشاءً عاديًّا، بل وليمةٌ لذكرى الأموات، يعدّونها للأحياء بقدر ما

يعدّونها للأموات. فهناك ثلاثة أطرافٍ لهذا العشاء: المضيفون، والضيوف، والأموات. الطعام لغةٌ تجمع فيما بينهم بصرف النظر عن حدود الزمان والمكان.

ورق العنب، والكبة المقلية، وكباب دجاج مشويّ، ولحمٌ مشويٌّ بالبهارات، وصحنٌ كبيرٌ من رزّ تهديگ (\*) . فهم لا يأكلون من أجل أنفسهم فقط، بل من أجل الـ مريان، أي أولئك الذين رحلوا عن هذه الحياة. تتفكّر نارين في أرواح أسلافها، فيما تقضم خبز الموتى نانه مريان. يظلُّ عقلها يدور حول شخصٍ واحدٍ محدّد: ليلي. هل صحيحٌ أنّها كانت مداويةً تفوق الجميع، وعِرافةً تقرأ عقول الناس وتحدّث لغة الطيور؟

تأكل نارين بنهم، فهي تحبُّ وجبة الـ تهديگ، بقشرتها المقرمشة تحت الرزّ المطبوخ. في صخب تلك الأحاديث، تفوتها بعض الأصوات، إلّا ضحكة جدّتها التي تغسلها كالماء العذب.

في ذلك المساء، تخلد نارين إلى فراشها باكراً، وتنام نومًا متقطّعا. تستيقظ وهي تحسُّ باضطراب في معدتها، وكأنّها تسقط من مكانٍ عال. ترونُ أذنها اليمنى مرّةً أخرى، في رعبٍ وقلق، لكنّها لا تخبر أحداً، خشية أن يلغوا الرحلة إلى العراق.

تنهض عن سريرها ببطءٍ كي تحضر كأسًا من الماء. ليست في حاجةٍ إلى إشعال الضوء. يكفي أن تمدّ ذراعَيْها أمامها،

---

(\*) وجبةٌ من الرزّ الذي تعلوه طبقةٌ مقرمشةٌ أو شبه محروقة. والكلمة فارسيّة وتعني «قاع القدر». (المترجم)



فتتلمّس طريقها في الظلام. تقودها يداها، وكأنّ لديهما ذاكرةً خاصّة. وما إن تفتح الباب حتى يتدفّق الضوء إلى الداخل، ويرتفع مزيجٌ من الأصوات من الغرفة المجاورة، لكنّها لا تستطيع أن تفهم ما يقولونه. تقترب من الغرفة أكثر، فتدرك أنّ الكبار قد ظلّوا سهارى، يشربون الشاي، ويدخّنون، ويتحدّثون.

يقول العمّ إلياس: «افهمني. صدّقني يا أخي، هناك مصيبةٌ في هذه المنطقة. الجهاديّون يزدادون قوّة، ولا أحد يعرف ما يخطّطون لفعله».

- «نعم، لكنّهم في سوريا.. لن يؤثّر الأمر علينا بأيّ شكل».

ترفع نارين رأسها، وقد أسرها الرنينُ في صوت أبيها. تخطو خطوةً إلى الأمام، في اشتياقٍ إلى أن تعانقه، لكنّها تسمع ما يقوله عمّها فتقف في مكانها.

- «رأيتُ أن تلحق بنا بسرعةٍ في ألمانيا. لم يعد المكان آمنًا هنا، والأمور تزداد سوءًا. سوف يغمر الماء حصن كيفا، وتختفي جميع ذكرياتنا. وهناك خلف الحدود جيشٌ من المتعصّبين والمتطرّفين. جيشٌ كامل! هؤلاء خطر».

فتصدّق زوجته منى على كلامه: «معه حقّ. الأمر مخيف. ونحن لا نعرف حتى من الذي يزوّد داعش بالسلاح. الأمر لا يبنّى بخير أبدًا».

- «هدّئا من روعكما، وإلاّ أهلككما القلق».

تقترب نارين أكثر. لا تسمع الأصوات الحادّة، لكنّ والدها

لحسن الحظ يتحدث بنبرة خفيفة، موزونة. ثمّة قوّة لطيفة في كلماته وهي يمضي في الدفع بحجّته. «تريدان منّا أن نترك كلّ شيءٍ ونلحق بكم في هانوفر. حتى لو وافقنا، فهل سترحب ألمانيا بنا؟ كيف سنحصل على التأشيرة؟ ولنفرض أنّنا اجتزنا هذه العقبة، فكيف سأجد عملاً هناك؟».

– «كثيرون ينجحون».

– «وكثيرون لا ينجحون. حتى النجاح يأتي على حساب أشياء أخرى. كلّنا نعرف كم ضحّيتم».

فيقول العمّ إلياس: «الحياة في ألمانيا ليست سهلة. وحين انتقلنا إلى هانوفر، لم يكن الألمان قد سمعوا بالديانة اليزيدية. كنّا جميعاً أتراكًا في نظرهم. ثم بدؤوا يعرفون أكثر عن المنطقة، لكنّهم صاروا يسمّوننا أكرادًا. حاولنا أن نشرح لهم، واستغرق الأمر منّي سنواتٍ حتى استطعتُ أن أقول بصراحةٍ ومن دون خوف: «أنا أيزيديّ، وأفضّل أن تسمّوني أيزيديًا بدلًا من يزيديّ، منعًا لسوء الفهم». فهم يظنّون أنّنا أحفاد يزيد [بن معاوية] طاغية كربلاء، الذي قتل حفيد النبيّ محمّد، فيكرهوننا. ونحن لا علاقة لنا بذلك. اسمنا لا يعني سوى «أحفاد الربّ». وجذورنا تعود إلى بلاد الرافدين القديمة».

يسكت العمّ إلياس قليلًا، وصوته أسر. «العمل في المصنع شاقٌّ أيضًا. في بعض الأحيان لا أكاد أقوى على الحركة، لفرط الألم في ظهري. في كلّ أسبوعٍ يصيح بي شخصٌ في الطريق: عُد إلى وطنك! لكنّ ألمانيا هي وطني الآن، وهي الوطن الوحيد

الذي عرفه طفلاي! على الأقل هناك لا يساورني القلق من أن تطرق الشرطة بابي في منتصف الليل، فلا أخشى اعتقالاً أو تعذيباً».

- «فهمتك يا أخي، لكن بلاد الرافدين هي وطننا. وطن أسلافنا. هل تريد أن يشد الجميع الرحال ويهاجر؟ انظر حولك، كم بقي من اليزيديين في المنطقة؟ الأمر يفطر القلب. كنا ذات يوم مئات الألوف، واليوم لا توجد سوى حفنة منا هنا. لم يبق إلا اثنا عشر يزيدياً في القرية، ومعظمهم لن يطول بهم المقام في هذه الدنيا. وحين يرحل هؤلاء، من سيذكرنا؟ وماذا سيبقى منا؟».

- «وما الذي نملكه حين يغيب الأمل في أن تنصلح الأمور؟ أرجوك، كن عملياً».

- «بل هناك أمل. الشرق الأوسط يتغير، ولديّ إيمانٌ بالجيل الجديد. هؤلاء الشباب لا يقبلون بالحال القديم. يريدون الحرية والكرامة والديموقراطية، ويطالبون بالحصول على الفرص نفسها التي يحصل عليها الشباب في الغرب. أمّا المتعصبون، فهم أراذل ولا شك في هذا، لكنهم لن يبقوا هنا طويلاً. لا يمكنهم أن يخيفونا كلنا. فلماذا نحن الذين نرحل ويبقى معذبونا؟».

- «يا خالد، كفى سذاجة، وافهم. هؤلاء لن يدعونا نعيش في سلام أبداً. لا مستقبل لنا في هذه المنطقة».

- «قد أكون ساذجاً، لكنني موسيقيّ يا أخي. كنتُ طفلاً صغيراً حين اكتشفتُ آلة القانون في البيت. قالوا «ممنوعٌ على

الأطفال لمسه، فعمره أكثر من مئة سنة». وكنتُ أبكي وأبكي إلى أن يسمحوا لي بإمساكه. ولم أنعم بالنوم إلَّا بعد أن تعلَّمتُ العزف عليه. والآن يدعونني في كلِّ مكان؛ لأنَّ الناس تحتاج إلى الأغاني حاجتها إلى الخبز والماء. الناس تحتاج إلى الشعر والجمال والحبِّ! وما دامت هناك شمسٌ تشرق وأنهارٌ تنساب، فسوف تكون هناك دائمًا أعراسٌ واحتفالاتٌ وموسيقى. حتى هؤلاء المتعصِّبون لن يستطيعوا تغيير ذلك».

يحلُّ الصمتُ في الغرفة، يتلوَّى حول الموقد مثل قطَّةٍ بليدةٍ لا تريد أن تتحرَّك. وتقرب نارين في حذر.

فتسأل زوجةُ الأخ: «سمعنا أنَّك تنوي أخذ نارين إلى العراق».

- «نعم، لقد دُعيت للغناء في بضعة أعراسٍ في الموصل وبغداد. وسوف ألتقي بعض الأصدقاء أيضًا. ستأتي نارين وحماتي معي كذلك، وتبقيان في القرية القديمة بنيوى. فأصول المرحومة زوجتي من هناك كما تعرفان».

- «عسى أن تكون روحها في مقامٍ أعلى».

- «وبعد ذلك سنسافر معًا إلى وادي لالش المقدَّس. كان ينبغي للطفلة أن تُعمَّد منذ فترةٍ طويلة، لكنَّ الظروف لم تسمح. أذنها اليسرى فقدت السمع تقريبًا، ونريد أن نسافر قبل أن تفقد السمع تمامًا. يقول الطبيب إنَّ الأذن اليمنى يمكن أن تبقى سنةً أخرى -».

- «ألا يمكنها أن تستخدم سماعة للأذن؟».

- لا، يبدو أنها لا تفيد في كل الحالات. قيل لي إن هناك أدوات أخرى، وما زلتُ أسأل عنها، لكنها غالية الثمن، و-  
فيسكت وهو يلاحظ أن نارين واقفة عند الباب.

تصيح الفتاة وهي تهرع إليه: «بابا، متى وصلت؟ لماذا لم توقظني؟».

فيأخذها خالدٌ بين ذراعيه ويقبلُ أعلى رأسها. «كنتِ نائمةً يا حبيبتى، ولم أشأ أن أقلق نومك».

- «بابا، ما معنى كلمة متعصّب؟».

فيزيل خالدٌ خصلة شعرٍ من جبينها ويقول: «هل كنتِ تستمعين لحديثنا؟».

- «آسفة. لو وصل أولئك المتعصّبون إلى هنا، فسوف يغرقون. الماء سيحميننا».

- «لا تشغلي نفسك بهذه الأمور، ولا تملئي عقلك بأفكار مخيفة. هل تعديني بذلك؟ والآن عودي إلى النوم».

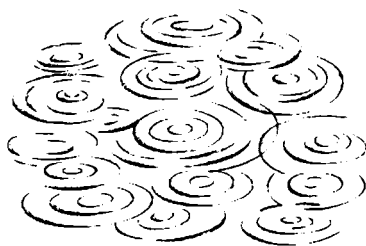
تومئ نارين على مضض. تمشي إلى المطبخ فتملأ كأسًا بالماء وتعود إلى غرفتها، وهي تشعر بأن الكبار يتسمعون خطواتها، وينتظرون.

تستلقي نارين على سريرها وقد جافاها النوم، فتلاحظ شيئًا فاتها فيما حدث: فجذتها لم تقل كلمةً واحدةً في ذلك الحوار. الغريبُ أن جذتها لسنّة لا يضاهيها أحدٌ في ذلك، ودائمًا ما تشر الحكمة في كلامها، ولذلك ينصت إليها الجميع حين تتحدّث. صمتُ جذتها هو أكثر ما يثير قلقها في أحداث هذا اليوم.



# الجزء الثاني

أسرارُ الماء







-O-

آرثر

بجوار نهر التمز، 1854

هذا هو اليوم الأخير من شهر آب / أغسطس، بظهيرته  
القائظة. لندن أشبه بمرجلٍ يفيض بالدهن، تنبعث منه أبخرةٌ  
ونتانة. ثمة روائح كريهة تتصاعد من كلِّ ركنٍ في المدينة، من  
المدايح ومصانع الجلود وحظائر الخنازير والأفران والمصانع  
والمسالخ والمجاري، وغير ذلك. أمراضٌ شتى تحملها تلك  
الأبخرة السامة معها. في أوائل الصيف، أصدر المجلس العام  
للصحة تحذيرًا يدعو فيه الناس إلى حرق كلِّ ما يصدر رائحةً قويّةً  
كريهة، أو التخلص منه، وهذا يعني حتمًا إلقاءه في نهر التمز.  
أُنقل النهرُ بالحطام والقاذورات، فصار بالكاد يجري، إذ لا يتدفَّق

أو يتموِّج صافياً أزرق، بل ينساب ببطء، رمادياً كحيوانٍ زاحفٍ  
من ذوات الدم البارد.

يبدل آرثر قصارى جهده لحماية نفسه وأسرته من خطر  
الأبخرة المُعدية. يغدُّ الخطى في طريقه إلى العمل والعودة منه،  
رجاء أن يقلل من قدر الهواء العفن الذي ينفذ إلى رئتيه. ورغم  
الحرارة التي لا تُطاق، يُغَطِّي أنفه وفمه بقطعة قماشٍ مبلَّلة، لكنَّه  
ما إن يصل إلى البيت حتى يطلب من والدته إبقاء النوافذ مفتوحةً  
للسماح لنسمةٍ خفيفةٍ بالتنقُّل في أرجاء القبو، فالغرفة الخائقة  
الراكدة في حقيقة الأمر خطرٌ أكبر. التهوية في الشقَّة التي يسكنون  
فيها رفقة أسرةٍ أخرى تهويةٌ بائسة، بل إنَّ تهوية المطبعة نفسها  
أفضل منها. يشعر آرثر بارتباكٍ من العمل في الأماكن المغلقة  
الخائقة، ويقلق من التقاط الأمراض المنقولة بالهواء، في الداخل  
أو في الخارج.

في عصر يوم الخميس، وقد بلغت الحرارة مستوى لا  
يُحتمل، توقَّف العمل باكراً في المطبعة. يخرج آرثر بحذرٍ من  
المكتب، حذراً من أن يطأ روث الخيول. لقد قرأ في مجلةٍ ما أنَّ  
هناك ثلاثمئة ألف حصانٍ في العاصمة. يحسب سريعاً في عقله  
أنَّ الحصان الواحد إذا تبرَّز ما بين أربع مرَّات إلى ثلاث عشرة  
مرَّة في اليوم، فهذا يساوي اثني عشر ألف طنٍّ من الروث يومياً.  
تتراكم في كلِّ يوم كومةٌ هائلةٌ من الروث في المدينة، وغالباً ما  
يكون فتيانٌ مثله همَّ الذين يكنسونها.

كان يرى الخيول مرارًا وهي تنزلق وتتعثّر فوق الطين الذي يغطّي الشوارع، تنزلق وكأنّها فوق جليد. وكلّما انقلبت عربة، يتجمّع حشدٌ من الناس في المكان. يبذل السائق قصارى جهده لإبعاد اللصوص، لكنّه غالبًا ما يعجز عن منعهم. ففي طرفة عين، ربّما تُجرّد العربة من كلّ شيء، فيُنزع تنجيدها وتُخلع المعادن منها. وليست الحيوانات وحدها التي تسقط في الوحل؛ إذ كثيرًا ما يفقد البشر توازنهم أيضًا، فتلتوي الكواحل وتنكسر الأوراك. يُدرك آرثر أنّ عليه أن يكون شديد الحذر، فلو حدث له شيء، لن تجد أسرته ما تأكله.

يتحسّس النقود في جيبه، تلك التي أعطاه إيّاها الراحل السيّد برادبري. اعتاد آرثر أن يشتري هدايا لأسرته كلّما استطاع، لإخوته فطائر الأنقليس والمحار المخلّل، ولوالدته زرّ عاجيٍّ أو دبّوس شعرٍ أو شريطٍ من المخمل، وما إلى ذلك. كم تُبهجها هذه المفاجآت! لكنّه اليوم سيشتري لها هديّةً حقيقيّة. قد تكون الحرارة خانقة، لكنّ يدي والدته باردتان دائمًا. سيشتري لها القفّازين اللذين رآهما معروضين في شارع برود.

لو كان شخصًا آخر لنسي القفّازين، رغم جمالهما، لكنّه لا ينسى شيئًا.

شارع برود محفوفٌ بمتاجر برّاقة، والزبائن يتهادون دخولًا وخروجًا، وعلى شفاههم همهماتٌ تنبئ عن حياة رغد. يمرّ آرثر بالمنزل الذي وُلد فيه الشاعر والطّبّاع وليم بليك، ومتجر الجوارب الذي تملكه عائلته، حيث عمل فيه في صباه في توصيل الطلبات. لقد رأى بليك أشجارًا ذات جذورٍ متعرّجةٍ في السماء،

وتحدّث إلى ملائكة وأرواح تطفو في ذهنه، وسمع نداء القبرة من أركاديا، غير أنّ كثيرين كانوا يرونه متطرّفًا، إن لم نقل مهووسًا غريب الأطوار. مات بليك مغمورًا، لكنّ آرثر التهم أعماله كلّها وتأمّل نقوشه، وتمنّى أن يكون معاصرًا له كي يلتقيه.

يدخل آرثر إلى متجر الخردوات في زاوية الشارع، محمّلًا بهذه الأفكار. يقضي هناك وقتًا طويلًا يتأمّل فيض الشرائط الحريريّة، وأزرار المخمل، والأوشحة المنسدلة، وأقمشة الشنيل، وبكرات الساتان، وأنسجة المواريه والتّفطة من كلّ الألوان، ثم يغادر المحلّ وهو يتأبّط رزمة. لا يكاد يصدّق كم يكلف القفّازان، إذ لم يتبقّ لديه مالٌ يشتري به شيئًا لأخويه. ثم تخطر له فكرةٌ أخرى وهو يعبر الطريق. سيجلب لهما ماءً باردًا عذبًا. ولحسن الحظّ أنّ قِربته معه، وبذلك لن تُضطرّ والدته إلى الوقوف في الطابور اليوم أمام العين الوحيدة في حيّ العشوائيّات، والتي تكاد لا تنضح شيئًا من شدّة انسدادها.

ثمّة مضخّة حديديةٌ عند الزاوية. لا يمكن الوثوق بكلّ مصادر المياه في لندن، فبعضها لشدّة قذارته لا يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه، ولا حتى الكلاب الضالّة. لكنّ هذه واحدةٌ من أفضل المضخّات في الجانب الشرقيّ، يثق الناس بها دائمًا ويحبّونها. هكذا، ينضمّ آرثر بصبرٍ إلى المنتظرين في الطابور، يملأ قِربته، بذهنٍ مطمئنٍ كصفاء هذا النهار وإشراقه.

وحين يصل إلى البيت يضع الماء على الطاولة. لا تتورّع الأسرة التي يسكنون معها عن مدّ يدها إلى أغراض الآخرين، فتغضب والدته، لكنّ آرثر لا يمانع. في حقيبته كتابٌ يتطلّع إلى

قراءته: الأعمال الشعرية لجون كيتس. كان حاضراً حين خرج الكتاب من المطبعة.

تخيّلنا للموتى العظماء

كلّ الحكايا الجميلة التي سمعناها أو قرأناها.

نبيّ لا ينضب من شراب الخلود

يتدقّق علينا من حافة السماء.

تنساب الكلمات على لسانه كعسلٍ دافئ، لكنّه منهكٌ من مشقّة النهار، فتبدأ جفونه تتأقل. ربّما ينبغي له أن يغفو قليلاً. لا ضير في قيلولةٍ قصيرة.

\*

بعد بضع دقائق، يتسلّل التوأمان إلى الغرفة، يراقبان أخاهما الأكبر وهو يشخر على الفراش. يكركر الطفلان من هذا الهدير الخافت المنتظم. يتسلّلان إليه، يداعبان شعره ليتأكّدا إن كان سيسيقظ، لكنّه لا يفعل.

عندها، يلحظ الصبيان الصغيران الرزمة. يمزقان ورقها الجميل، ويفرحان باكتشاف القفّازين النسائيين! يرتدي كلّ منهما قفّازاً، مع ابتسامةٍ عريضة.

لا يلبثان أن يكتشفا القارورة على الطاولة، فيتجرّع أحدهما كوباً على الفور، في حين ينتظر الآخر دوره. وفي الخارج، يصيح مخموراً في الشارع بألفاظٍ بذيئة، يبدو غاضباً من إهانةٍ وُجّهت إليه، حقيقةً أو متخيّلة. ألفاظه فاحشةٌ إلى الحدّ الذي يجعل الطفل الآخر (الذي أخذ للتوّ رشفته الأولى) ينفجر

ضاحكًا، فيصق الماء في كلِّ مكان، ويبلل ملابسه.

يتململ آرثر في نومه، منزعًا من الضجيج، فيركض الصبيَّان إلى الخارج، ضاحكين.

\*\*\*

في فجر اليوم التالي، يستيقظ أحد التوأمن بالآلام في معدته. يبدأ بالتقيؤ، يليه إسهال لا يرحم، ولا يخفّ مع مرور الساعات. يتركون النافذة الوحيدة في الغرفة مفتوحةً على مصراعَيْها، خشية أن تكون جزيئات المرض المنقولة بالهواء قد اجتاحت قبوهم. لكنَّهم لا يعرفون لماذا أُصيب شخصٌ واحدٌ فقط في الأسرة. وحين يطلع النهار، يخيم صمتٌ مخيفٌ على كلِّ شيء. لا صوت يُسمع إلا أنفاس الصبيِّ المريض، بطيئةً متحشجة، كخفقة جناح لفراشةٍ ليليةٍ ترفرف عبثًا على غطاء المصباح.

يتغيَّب آرثر عن العمل في ذلك اليوم، فلا يعيد الكتاب الذي استعاره. رائحة الموت نفّاذة، تنسلُّ من أنفه وتخلّف مذاقًا لاذعًا في سقف حلقه. وكلِّما فتح فمه ليقول شيئًا، تكتسي الكلمات ذاك المذاق نفسه. يساعد والدته في التنظيف والغسيل بلا كلل، ومع اقتراب الظهيرة يُقنع طبيبًا بزيارة منزلهم مقابل أجرٍ زهيد، رغم أنَّه ما إن يصل إلى هناك حتى يدرك أنَّه لم يعد بالإمكان فعل شيء.

في أثناء ذلك، ينظر التوأم الآخر من زاوية الغرفة، صامتًا كحجرٍ ساقط، وفي نظراته مزيجٌ من الحزن والحيرة. كان التوأمين متشابهين تمامًا منذ ولادتهما، ولم يكن في وسع أحدهما أن يميّز

بينهما، لا الجيران ولا الباعة، ولا حتى والدتهما في بعض الأحيان. والآن، ها هو السليم منهما صامت، وعقله عالقٌ في شكٍّ قاهرٍ سيظلّ يصارعه في أشدّ أوقاته وحدة، حتى بعد أن يغدو رجلًا راشدًا. لا يملك إلا أن يتساءل إن كان هو المقصود بالمرض والمعاناة بدلًا من شقيقه، وإن كان الموت نفسه قد أخطأ بينهما أيضًا.

قيل المساء، يحملون الصبي المريض إلى الشارع، ويضعونه على سريرٍ مُرتجلٍ فوق الرصيف. يرجون بذلك ألا يُضطرّ إلى استنشاق الأبخرة السامة التي تغزو مسكنهم. لكنّ ذلك لا يجدي نفعًا، إذ يفقد الطفل قواه، ويفقد ماءه. هكذا، ينكمش وجهه في جفافٍ مروّع إلى قناعٍ مخيف. عيناان غائرتان، وأسنانٌ بارزة، ووجنتان مجوّفتان، فيما بشرته زرقاء مخيفة، كلون الكدمات.

الكوليرا، ذلك الرعب الأزرق.

على بعد بضعة شوارع من المكان الذي يسكن فيه آرثر وأسرته، ينحني طبيبٌ يدعى جون سنو على مكتبه، يدوّن ملاحظاتٍ على ضوء شمعة. يضع على الخريطة المفتوحة أمامه إشاراتٍ على الأحياء التي يتفشّى فيها الوباء. يضع الدوائر على مواقع الضحايا واحدًا تلو الآخر، فيلاحظ نمطًا واضحًا يتشكّل أمامه. كلُّهم شربوا من المضخّة نفسها، في شارع برود. أمّا الذين يسكنون قرب تلك المنطقة ولم يستخدموا ذلك المصدر، فلم يصابوا. لو استطاع أن يتحقّق من ملاحظاته هذه، سيكون

لديه دليلٌ على أنَّ الكوليرا لا علاقة لها بجودة الهواء .  
الأمر كله في الماء .

كتب الطبيب بالفعل إلى سُلطات المدينة ، ونصحهم بوجوب إغلاق المضخة في أسرع وقتٍ ممكن ، إمَّا بكسر مقبضها وإمَّا بإزالتها تمامًا . لديه يقينٌ بأنَّ البئر ملوثة ، ربَّما بسبب تسرُّبٍ جوفيٍّ من المجاري . لكنَّ المجلس العام للصحة استقبل رسائله بسخريَّةٍ وازدراء ، فظَلَّت المضخة في مكانها .

غير أنَّ الطبيب المتمرِّد يرفض الاستسلام ، فيفكِّر في طرقٍ لتعطيل المضخة ، لكنَّه لا يستطيع أن يُقدم على إتلاف ممتلكاتٍ عامَّة . ثم إنَّ هناك مرضى ينتظرونه ، وليس في وسعه أن يقضي أيَّامًا كاملةً يحرس هذا المكان ، في محاولةٍ لإقناع الناس بعدم استخدام المضخة . لذلك ، يعلِّق لافتةً تحذِّر المارة من هذا الخطر ، ويرحل .

كانت تلك اللافتة قد اختفت حين دخل آرثر شارع برود . لعلَّ الريح حملتها بعيدًا ، أو ربَّما سرقها صعلوكٌ أمِّيٌّ ظنَّها تساوي شيئًا قيمًا . لا يهمّ ، فالأوان قد فات لمن شربوا ذلك الماء . ففي القطرة من ذلك الماء بكتيريا مقوَّسةٌ عصويَّة الشكل لا تُرى بالعين ، لها ذيلٌ طويلٌ يساعدها على الحركة برشاقةٍ استثنائيةٍ .

يموت الناس بسرعةٍ شديدة ، حتى إنَّ فرق التخلُّص من الجثث باتت تنطلق في دورياتٍ في الشوارع بحثًا عن جثثٍ تجمعها . تُكدِّس تلك الأجساد المروَّعة في تشوَّهها ، وتُنقل بعيدًا ، رغم أنَّ بعضها قد يكون ما يزال يتنفس . وكلُّ الضحايا



تقريبًا يسكنون في حدود مئتين وثلاثين مترًا من تقاطع الطرق بين شارع برود وشارع كيمبرج. أمّا القلّة الذين يسكنون خارج هذه الحدود، فهم يسكنون في أماكن حُمل إليها الماء من تلك المضخة نفسها.

\*

ما إن ينتهي شهر آب ويحلّ أيلول حتى يتفشّى المرض، وتظهر مئات الحالات الجديدة في شتّى أنحاء لندن. ينشر المسؤولون في المدينة أطنانًا من الجير قرب مصبّات المجاري لتقليل الغازات السامة المنبعثة في الهواء، إذ يعتقدون أنّ سبب الوباء، هي تلك الأبخرة والروائح الكريهة. حتى الملكة فكتوريا تشكو من «الرائحة الشريرة». وفي البرلمان يجول النواب والموظفون وهم يغطّون أنوفهم بالمناديل، يستهجنون نهر التمز العظيم بعد أن تحوّل إلى بركة جحيم نتنة. يُصبّ المزيد والمزيد من الجير وحمض الكربوليك في أعماقه اللزجة. بل حتى المقابر لم تسلم من الشكوك، وسوف يُنقل بعضها إلى أماكن أخرى خشية أن تسبّب انبعاثات الجثث عللاً من كلّ شكلٍ ونوع. غير أنّه لن يكون لهذه الإجراءات أدنى تأثيرٍ على إبطاء الوباء. وبمرور الوقت، وظهور مزيدٍ من الأدلّة، سيُضطرّ المجلس العام للصحة إلى الإقرار بأنّ الطبيب المعارض، وقلّة آخرين توصّلوا إلى النتيجة نفسها، كانوا على حقّ. فالكوليرا لا تنتقل عبر الهواء، بل عبر الماء. لقد حاولوا أن يتخلّصوا من رائحة المجاري بإلقائها في نهر التمز، وهو المصدر الرئيس الذي تشرب منه آلاف الأسر، فما كان منهم إلّا أن فاقموا الجائحة.

تَحَارُّ السلطات في كَيْفِيَّةَ التَّصَرُّفِ مع هذا الكشف الجديد،  
أَمَّا آرثر الذي يتابع الأخبار برعْبٍ ويقرأ كلَّ تقريرٍ علميٍّ منشورٍ،  
فيجتأحه إدراكٌ خاصٌّ. إذ بات يشكُّ الآن، برعْبٍ جائحٍ، في أنَّ  
القربة التي أحضرها إلى المنزل كانت تحمل البكتيريا القاتلة.  
يحتاج وقتًا كي يثبت الأمر، لكنَّه حين يعرف الحقيقة لا يستطيع  
أن يغيِّرها أو ينساها. لقد كان الماء سبب الوفاة في أسرته، وهو  
الذي أحضر الماء. لقد قتل أخاه بيده.

\*\*\*

ما يسمُّونه نهرًا هو في واقع الأمر أنهارٌ متعدِّدةٌ تسير في  
مجرى واحد. ففي أعماق هذا الكيان المائي نفسه تياراتٌ عديدة،  
كطبقات الجلد التي تظلُّ مخفيةً عن العين، لكنَّها تحمل الجرح  
نفسه.

في الفترة ما بين عام 1853 والأشهر الأخيرة من العام  
التالي، قضى أكثر من عشرة آلافٍ وسبعمئةٍ وأربعين لندنيًا نحبهم  
من أثر الرعب الأزرق. الموتُ يجوب الأزقة، وتقترب أنفاسُه  
الترابِيَّةُ إذ ينسلُّ عبر شقوق الجدران ومن تحت الأبواب،  
كالضباب الخفيض. ولكي تنجو المدينة وتتعافى، ينبغي لها أن  
تصلح نفسها، ولا بدَّ لهذا التغيير أن يبدأ من التمز. الآن وقد  
أدرك الناس عواقب تلويث الماء الذي يشربون منه، بات من  
اللازم إنشاء نظام صرفٍ صحيٍّ مناسب. ظلَّ سَكَّانُ لندن فترةً  
طويلةً جدًّا يردِّدون بأنَّ النهر قاتلٌ صامت، لكنَّ آرثر يُدرك أنَّ  
الأمر عكس ذلك. فالبشر هم الذين يقتلون الماء.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

تدلف زليخة إلى غرفة الطعام خلف خالها مالك، فتجد حالتها جالسة إلى أحد طرفي الطاولة الصقيلة، وإلى جانبها حفيدتها الوسطى. حولهما قطعٌ مبعثرةٌ من ورقٍ مقوى، إذ تنهمكان في بناء بيت دمي فكتوريٍّ بأثاثٍ قابلٍ للطّي وأبوابٍ يمكن رفعها.

تقول زوجة خالها وهي تعرض خدّها لقبلةٍ في الهواء: «عزيزتي! لماذا تقفين هناك؟ لقد أخذتُ هِلن الصبيّين للعب التنس وتركت لي ليلي فترة العصر. ألسْتُ محظوظة؟ هي على وشك الذهاب للاستحمام الآن».

تقبّل زليخة الطفلة. «مرحبًا حبيبتني».

- «مرحبًا خالتي».

- «ما هذا الشيء المدهش الذي تصنعه؟».

تبتسم الفتاة. ثمّة صبغة صفراء على بشرتها، تبرز تحت غرّتها الممشوطة بعناية. «نبي منزلًا لدميتي. فيه غرفة سرّية!». لكنّ الوقت لا يسمح بسماع المزيد، إذ تأتي المربّية آنذاك، فتجمع القطع وتأخذ الفتاة إلى الطابق العلويّ.

فتقول زوجة الخال لزليخة وهي تربّت على المقعد الفارغ إلى جانبها: «تعالى واجلسى بقربي».

فيقول خالها: «من الأفضل أن تجلس معي. لدينا أمورٌ نناقشها».

ترمقُ الزوجة زوجها وتقول: «وعدتني بأن تبقى هادئًا».

- «أنا هادئٌ تمامًا. إن قرّرت أن تُنهي زواجها دون سببٍ وجيه، فهذا خيارها. نعيش الآن في عصرٍ حديث».

تسحب زليخة مقعدًا بهدوءٍ في وسط الطاولة، على مسافةٍ متساويةٍ بينهما. تنظر حولها. ثمّة تجديدٌ آخر حدث في المكان. غرفة الطعام هي أكثر مكانٍ جرى تجديده في المنزل. فكلُّ بضعة أشهرٍ تخضع لتغييرٍ جديد، إذ يُعاد تزيينها بألوانٍ مختلفة. ثمّة ثريّا فوق رؤوسهم، مزينةٌ بزنايق بيضٍ وأوراقٍ خضريّ شفّافةٍ من الزجاج الملوّن.

- «لم أرَ هذه من قبل. هل هي جديدة؟ ما أجملها!».

فيردّ خالها: «جديدةٌ وقديمةٌ جدًّا. كانت متعروضةً في المعرض الكبير، ورأيتها الملكة فكتوريا نفسها، وملايينٍ غيرها بالطبع».

والثرياً ليست القطعة الأثرية الوحيدة في الغرفة. فمقابل المدخل، هناك خزانة مشروباتٍ من طراز الآرت ديكو تحوي أكواباً كرساليّة، ووسّكي معتّق، وقوارير نبيذٍ معتّق. في إحدى الزوايا خزانةٌ مرصّعة، عليها علامة النّجار منقوشةٌ على الإطار: مطرقةٌ وسندان. اختار الخال مالك كلّ قطعةٍ بعناية، فهو مغرّم بجمع التحف، ومغرّم بالطعام، وهنا في هذه الغرفة يجتمع شغفه في أكمل صورة.

تقول زوجة الخال وهي تلتفت إلى زليخة: «لقد افتقدناكِ يا عزيزتي. لماذا لا تزورينا؟».

- «المعذرة. كانت الأمور مضطربةً جدّاً في الفترة الماضية».

يتبادل الخال نظراتٍ مع زوجته، دون تعليق. وفي تلك اللحظة تدخل الخادمة وهي تحمل سلّة خبز. ينتظرون في صمتٍ وهي تضع خبزةً على كلّ طبقٍ جانبيّ.

تقول الزوجة وهي تضع منديلاً على حجرها: «حسن. ربّما أحتاج إلى خبرتك. أعمل على إنشاء حديقة زِن. هي وسيلةٌ رائعةٌ لتخفيف التوتر».

فينخر الخال وهو يقول: «أو لنقله إليّ».

فكبت زليخة ابتسامتها. «ليتني أستطيع مساعدتك، لكنني لا أفقه شيئاً في حدائق الزن».

- «لا تقلقي، لديّ مصمّم. لكنني أريد مساعدتك فيما يتعلّق بالماء».

- «الماء؟».

- «نعم، سيكون هناك جدولٌ يجري عبر الحديقة، وجسرٌ حجريٌّ ريفيٌّ... أو ربّما خشبيٌّ، وشلالاتٌ صغيرة، طبيعيّةٌ تمامًا تسرُّ النفس. الأمر أشبه بمنتجعٍ صحيٍّ في حديقتنا».

فيقول الخال: «منتجعٌ مكلف. الأمر كلّه سيكلف مبلغًا طائلًا».

فترفع زوجته حاجبها وتقول: «تقول ذلك الآن، لكنّه حين يكتمل ستقضي فيه ليلك ونهارك. سيُعجبك جدًّا. ولا تجعلني أتحدّث عن الكلفة. هواياتك أغلى من هواياتي. لا أعرف حتى أين سنجد مكانًا لتلك القطعة الأثريّة التي ستحضرها».

- «أها، ها نحن نعود إلى الموضوع نفسه. كم مرّة أخبرتك؟ إنّه لوحٌ من بلاد الرافدين. لا يزيد حجمه عن راحة اليد».

فتتمت الزوجة: «صحيح، دائمًا ما أنسى. لكنّ سعره مرتفع جدًّا».

يلزمون الصمت وهم ينتظرون من الخادمة أن تقدّم الطبق الأوّل، حساء الهليون بالكريمة، مزيجًا بيضيّةً مسلوقيّةً وقطع خبزٍ محمّصٍ بالجبن البرّيّ.

تكسر زليخة البيضة بالملقعة وعيناها مثبتتان على صحنها، تراقب السائل الكهربائي وهو ينزّ. لطالما حيّرتها علاقة خالها بالمال. فهو لا يتردّد في إنفاق ألف جنيهٍ على قنيّة نبيذ، لكنّه يستخسر ما يراه إدمانًا من زوجته على المستحضرات المانعة للشيوخوخة. قد يعرض مبالغ هائلة من أجل قنيّة وسكي نادر، ويسعد بإهداء أسرته عطلاتٍ فاخرة، ويدفع الفاتورة بسرورٍ

لأصدقائه ذات سهرة، لكنّه يجادل في نفقات المطبخ الشهرية. كريمٌ على نحوٍ لا يصدّق في هداياه لأحبّائه، لكنّ زليخة لا تظنُّ أنّه يتحلّى بهذا الكرم حين يطالبه عمّاله برفع الأجور.

تسأله زليخة: «هل هو اللوح الذي أخبرتني عنه؟».

- «نعم، هو. جزءٌ من ملحمة گلگامش. إنّها أقدم قصيدةٍ في العالم، وهذا في حدّ ذاته مذهل. غير أنّ هذا اللوح مميّزٌ أكثر. فهو لوحٌ أزرق من مكتبة آشوربانيال».

فتقول زوجته: «كنتُ أظنُّ أنّ هذه الأشياء تُحفظ في المتاحف».

- «كثيرٌ منها في المتاحف، نعم، لكنّ بعضها ينتهي به الأمر إلى الممتلكات الخاصة». يدهنُ الخال خبزته بالزبدة ويضع قطعةً في فمه. «تحرّيتُ عن الأمر جيّدًا، بالطبع. فلا يمكن الوثوق بأحدٍ في هذه الأيام. القطع المنهوبة من العراق وسوريا منتشرةٌ في كلّ أرجاء لندن ونيويورك وباريس وطوكيو، وغيرها. ثمة آثارٌ من حطام تدمر معروضةٌ في متاجر التحف في أوروبا. ولكن لا تقلقا، فهذا اللوح جاءني من تاجرٍ موثوق به».

فتسأله زوجته: «ولم يبيعهونه إن كان مميّزًا إلى هذه الدرجة؟».

- «يحدث هذا. فالسكّان المحليّون فقراء، جهلة. يمتلكون أشياء لا يدركون قيمتها تمامًا. وحين يموت كبار السنّ، يحاول الشباب أن يجمعوا الأموال بأيّ طريقةٍ كانت. من يلومهم؟».

تنظر زليخة في صحنها. المال موضوعٌ خلافٍ لا ينتهي بين

هذين الزوجين. كلاهما يملك المال، بيد أن أحدهما وُلد ثريًا،  
في حين شق الآخر طريقًا طويلًا وشاقًا نحو الثراء.

زوجة الخال، ابنة عائلة إنكليزية جمعت ثروتها من صناعة  
النسيج منذ القرن التاسع عشر، تستهجن أن يتشدد الناس عن  
أموالهم واستثماراتهم وأرباحهم. أمّا خالها فدائمًا ما يضيقُ ذرعًا  
بمن يُولدون محظوظين، أولئك الذين لا يعرفون معنى الكدح من  
أجل دفع الفواتير. ولذلك حين يأتي الأمر على هذه المسائل،  
يحتقر كلُّ منهما الآخر بطريقته الخاصّة، على نحوٍ لا يخفى  
تمامًا.

\*\*\*

تقول زوجة الخال بعد أن جاء السّمك: «ما بالك صامتةً يا  
عزيزتي. أخبرينا عن حياتك».

- «نعم، حدّثنا عمّا يجري في حياتك».

تأخذ زليخة نفسًا. تعرف أنّهما يريدان منها الحديث عن  
زواجها، لكنّ الحديث عن العمل أسهل من الحديث عن حياتها  
الخاصّة. «ربّما تتذكّران أنّي أعمل في مشروع.. نتعاون مع  
علماء من مختلف مناطق العالم للمساعدة في إحياء الأنهار  
المفقودة».

فيتمتّم الخال في صوتٍ خافت: «تجنّب السؤال».

تقول زوجة الخال وقد عبست من تعليق زوجها ثم التفتت  
إلى زليخة: «إن أردتِ الحديث عن الأنهار المفقودة، فلنتحدّث  
عن الأنهار المفقودة. ولكن، كيف يُفقد النهر؟».



- «حسن، لقد شيدَ البشر عبر العصور مدناً على ضفاف الأنهار، لكنَّ المدن توسَّعت على حساب تلك الأنهار وروافدها، فأصبحت عبارةً عن مجارٍ سفليَّةٍ مهملةٍ ومخبوءةٍ تحت الأرض. في الوقت الحالي، نعمل مع فريقٍ فرنسيٍّ لإحياء المجرى المائي التاريخي لباريس».

فتقول زوجة الخال بابتسامةٍ حالمة: «نهر السين! أليس أكثر الأماكن رومانسيَّة؟ لقد قضينا صيفاً في باريس حين تزوجنا. ولنا ذكرياتٌ جميلةٌ هناك، أنا وخالك».

- «في الواقع كنتُ أقصد نهراً آخر. نهر البييفر».

- «نهر ماذا؟».

- «البييفر. نهرٌ مدفونٌ تحت العاصمة الفرنسيَّة، منذ وقتٍ طويل. كان مجرى مائياً مهماً إلى القرن التاسع عشر، ثم اشتدَّ تلوثه، فغطَّوه ونسوه تماماً. يُعجب السيَّاح الذين يزورون باريس بنهر السين، لكنَّهم لا يدركون أنَّ هناك نهراً آخر يجري تحت أقدامهم».

يقول الخال: «لدينا عددٌ من هذه الأنهار في لندن».

فتقول زليخة: «نعم، صحيح. وفي نيويورك وفيينا وساو باولو وسيدني وبكين وموسكو وتورونتو، وغيرها. ثمة أنهارٌ مفقودةٌ في كلِّ مكانٍ تقريباً على كوكبنا. قليلٌ من الأجانب يدركون أنَّ طوكيو كانت مدينة ماء. ما تزال مدينةٌ مذهلةٌ بالطبع، لكنَّ هناك أكثر من مئة جدولٍ وقناةٍ رُدمت واستُخدمت أساساً للطرق، أو أخفيت تحت الأرصفة. خذي أثينا مثلاً. كنتما هناك

في الصيف الماضي. تلك المدينة، على روعتها، لا يوجد فيها مجرى مائي واحد يمرّ فيها. لكنّ أثينا كانت في الماضي تزخر بثلاثة أنهار، وليس نهرًا واحدًا أو اثنين».

فتقول زوجة الخال: «أوه، لم أكن أعرف هذا. وماذا حدث لها؟».

- «رُدِمت».

- «رُدِمت؟».

- «نعم. تحت طبقات الخرسانة. تمامًا كما حدث في أماكن أخرى من العالم. الطرق مُربحة أكثر من الأنهار. يمكن بيع المزيد من السيارات. وسوق العقارات يفضّلها أيضًا. لكن لا تنسي أنّ الأنهار كانت مقدّسة في اليونان القديمة. لم يكن البشر يعاملون الماء دائمًا بهذه الطريقة».

فيقول الخال مالك: «حسن، لا تتحمّسي. لا داعي لتحويل هذا الحديث إلى خطابٍ ضدّ الرأسماليّة. إنّ كانت هذه الأنهار ميّنة، فلا بدّ من وجود سببٍ لذلك. لقد قلتِ بنفسك إنّها كانت شديدة القذارة. أعتقد أنّ هذا يهدّد الصّحة العامّة. لا بدّ أنّها كانت تنشر أمراضًا كثيرة. صحيحٌ أنّ إخفاءها لم يكن أكثر الحلول حكمة، لكنني أعتقد أنّه كان الحلّ الأفضل آنذاك. لم تكن لدى الفكتوريّين خيارات كثيرة. فلا ينبغي أن نقسو في الحكم عليهم».

فتقول زليخة: «لستُ أحكم على الفكتوريّين». لا تحبّ أن تجادل خالها، لكنّها لا تستطيع أيضًا أن تصمت عن قضيّة عزيزة

على قلبها. «إنما انتقدنا نحن. فها نحن هنا، بعد أكثر من قرن، في حاجةٍ إلى نهج جديد. لقد بُنيت تلك المجاري السفليّة في وقتٍ كانت فيه المدن أصغر. أمّا الآن، ومع تغيُّر المناخ، فقد أصبحت معرّضةً لخطرٍ شديد».

يشبك الخال مالك أصابعه تحت ذقنه ويقول: «وماذا بيدك يا عزيزتي؟ هل تهدمين الممتلكات الخاصّة لإنقاذ أنهارك المفقودة؟ أوليست أجزاءً من قصر بكنغهام مبنيةً فوق واحدٍ من تلك الروافد؟ أرجو ألا تكوني تسعين إلى هدم جدران الملكة».

- «كلُّ ما أقصده هو أننا إذا لم نجد نهجاً جديداً، سنواجه فيضاناتٍ أسوأ كلّ عام. الأمر ليس مستحيلاً، وقد فعلوا ذلك في سيئول. يسمونها تقنية «ضوء النهار»<sup>(\*)</sup>، أي إعادة النهر المفقود إلى الهواء الطلق».

تقول زوجة الخال: «ضوء النهار. يا له من اسم جميل!». فيقول زوجها: «الاسم الجميل لا معنى له إن لم تدعمه الأرقام. لا أعرف ما الذي فعلوه في سيئول، لكنني أعرف أنّ هنالك حدوداً لما يمكن فعله في لندن. الأصل أن تُترك الأشباح وشأنها. لماذا نحاول بعثها من الموت؟».

تخفض زليخة عينيها وتبعد صحنها. «لأنّها ما تزال هناك. الأشياء لا تختفي لمجرّد أنّنا نتمنّى اختفاءها. حتى وإن غطّيناها

---

(\*) ضوء النهار (daylighting): ربّما تصعب ترجمة هذا المصطلح، إذ قد يؤدّي هنا أكثر من وظيفة، وذلك لتعدّد معانيه. فهو في العمارة يعني استخدام الضوء الطبيعيّ للإنارة، ويعني كذلك فتح الشيء على الهواء الطلق، ويعني في الهندسة المدنيّة مدّ أنبوبٍ للتصريف الطبيعيّ. (المترجم)

بالخرسانة وبنينا فوقها وتظاهرنّا بأنّها غير موجودة على الإطلاق، ستظلّ تلك الأشباح التي اعتقدنا أنّنا دفنّاها عميقًا جزءًا منّا، وإن لم نواجهها، ستظلّ تطاردنا».

فلَمّا رفعت رأسها، وجدتُ خالها وزوجة خالها يحدّقان بها، وقد تغيّرت تعابيرهما.

فربّيت زوجة خالها على يدها، وقالت: «لا تنزعجني يا عزيزتي. فلندع الحديث عن هذه المواضيع الثقيلة. هل أعجبكِ السمك؟».

كان طبقُ الحُلُو عبارةً عن حلوى الشوكولاتة الداكنة مع التوت البرّي المسكّر. امتنعت زوجة الخال عن أكل حصّتها، ونظرت إلى ساعتها. «عليّ أن أذهب الآن. السائق ينتظرنا كي نوصل ليلي إلى المنزل. ربّما أبيت هناك. زوج هِلِن في سنغافورة مرّةً أخرى، في رحلة عمل».

فتقول زليخة: «أوه، أرجوكِ أبلغهم تحيَّاتي ومحبَّتي. لم ألتقِ هِلِن منذ مدّة».

فتسكت زوجة الخال وعيناها على زوجها لحظةً طويلةً جدًّا، ثم تقول: «لو كنتُ مكانك، لزرّتها».

ورغم أنّ التعليق كان عفويًّا، فإنّه أثار صمّتًا ظلّ حتى بعد رحيل الزوجة.

تقول زليخة: «عليّ الذهاب أنا أيضًا. شكرًا على الضيافة. كلُّ شيءٍ كان لذيذًا».

- «ولم العجلة يا عزيزتي؟ لم تُتح لنا فرصةً للحديث كما ينبغي».

ينهض متَّكئًا على عصاه، فيشير إلى الخادم الذي جاء عند مرفقه. «ستتناول قهوتنا في المكتبة يا كريم».

هناك في الطابق العلويّ، أشعلت النار رغم أنّ الجوّ لم يكن باردًا. ثمة ساعةٌ على رفّ المدفأة تدقّ في هدوء. يبدو المكان هادئًا، وشذا الزهور يمتزج برائحة الكتب والمخطوطات القديمة. تسأله زليخة، بعد أن جيء بالقهوة: «هل هِلن على ما يرام؟».

- «على غير طبيعتها مؤخرًا. ليلي ليست على ما يرام».

- «لِلي؟ بدت لي سعيدة». لكنّها حتى وهي تقول ذلك يستحضر عقلها شحوبًا غريبًا أنّه على الطفلة. «ما بها؟».

- «لا نعرف حتى الآن. ما يزالون يجرون الفحوصات».

تتسع عينا زليخة، ويختفي شعورها بالربة فورًا ليحلّ محلّه شعورٌ بالذنب. فقد انشغلت كثيرًا بمشكلاتها الخاصّة مؤخرًا حتى إنّها لم تتواصل مع ابنة خالها. «دائمًا ما أفكّر في ترتيب لقاءٍ مع هِلن».

- «ليتك تفعلين ذلك يا عزيزتي. إنّها أختك. ولا داعي لأن تهاتفها أولًا. اذهبي وحسب. فإنّ لم تجديها في المنزل، يمكنك زيارتها في المعرض. ستكون هناك في ساعات العمل. تعلمين معزّتك عندها».

- «ولها معزّةٌ عندي أيضًا».

يقلّب الخال قهوته، فتصدر الملعقة رنينًا في الفنجان الخزفي. «هل أنتِ واثقةٌ من أنّك ستكونين بخيرٍ في ذلك الزورق؟».

- «تقصد البيت العائم؟ سأكون بخير. أرجوك لا تقلق عليّ».

فيهزّ خالها رأسه. «الحقيقة أنّني صُدمتُ حين أخبرتني. كنتُ أظنّ أنّك تودّين الابتعاد عن المساكن القريبة من الماء».

تسوّي زليخة كتفّيها، بينما تشعر بحلقها يضيق.

نادرًا ما يتحدثون عمدًا وقع لوالديها.

فيقول خالها: «يأتيان في بالي كثيرًا مؤخرًا. لا بدّ أنّ للعمر علاقةٌ بالأمر».

تنظر زليخة في تعبير وجهه وهو يزداد قتامة، فيما تلتمع عيناه بالطريقة التي اعتادت تمييزها. لكنّها لا تخبره بأنّها هي أيضًا تفكّر فيهما كثيرًا هذه الأيام.

فيُكمل كلامه: «بالتأكيد له علاقة بالعمر. كنتُ أفكّر في أمّي أيضًا».

فقد كان الخال في الثامنة من عمره حين بُعث للدراسة في مدرسةٍ داخليةٍ بإنكلترا، فكان أوّل شخصٍ من عائلته يتلقّى تعليمًا في الخارج. لم يكن يدرك في سنّه ذاك مقدار ما ضحّت به أسرته لمنحه فرصةً كان يراها عقابًا. وبعد ثلاث صيفيّات، حين سُمح له أخيرًا بزيارة أهله، قالوا له إنّ أمّه تركت أباه من أجل رجلٍ آخر، فجلبت العار على العائلة بأكملها. سأل بإلحاح عن مكانها، فلم يجد غير صمّتٍ بارد. وفي نهاية العطلة، عاد إلى

المدرسة الداخلية ليبدأ التحضير لامتحانات القبول في كلية ونشستر، ولم يسأل عن أمه مرةً أخرى.

تفوّق في بلده الجديد، فُعُرف في المدرسة بمهاراته في المناظرة، وفِطنته الشديدة، وحسّه الساخر. افتتح بعد الجامعة مطعمًا للوجبات السريعة، تحوّل إلى سلسلة مطاعم حقّقت أرباحًا ضخمة، لا لمجرّد ذكائه وابتكاره، بل لأنّه كان زمنًا يُشترى فيه الترقّي والنفوذ السياسيّ دون أسئلةٍ كثيرة. تبرّع بمبالغ كبيرة للأحزاب والحملات السياسيّة، وصادق السياسيّين والمشاهير، وظلّ اسمه يظهر بانتظام في الصحف. كان يقدّم المشورة للحكومة، ويكتب مقالات الرأى في الصفحات الماليّة. وقد حقّق حلمه مؤخرًا حين عُيّن في مجلس اللوردات.

يطيب لخالها أن يطلق على نفسه وصف «الرجل الذي صنع نفسه بنفسه». قد يكون هذا صحيحًا، لكنّ زليخة ترى أنّ صنع نفسٍ جديدةٍ قد ينطوي على تفكيك نفسٍ قديمة. فيبدو لها أنّ خالها ترك جزءًا من نفسه في العراق، وهو الجزء الذي كان حنونًا، واثقًا في الآخرين، متفائلًا. ففي ظنّها أنّه لم يغفر لوالدته حتى بعد مرور تلك السنين.

كانت أمّ زليخة (وهي الأخت الكبرى التي تكبر خالها بأربع سنوات) امرأةً طيّبة، حنونًا ذات ابتسامةٍ قريبةٍ وعينيّ دافئتين. جاءت إلى إنكلترا متأخرةً جدًّا، فكانت تحمل معها دائمًا ظلّ أرضٍ أخرى. لم يكن لديها اهتمامٌ بالألقاب أو المكاسب. الطبيعةُ هي الشيء الذي تحبّه.

كان لوالديها تقديرٌ عميقٌ للهواء الطلق. فمعظم ذكريات طفولتها تعود إلى مناظر طبيعية شاسعة. تذكر والدها ووالدتها، والتخيم في أماكن بعيدة مقفرة، والتنزه في الغابات، والنظر إلى قوس قزح يمتد فوق سلسلة من الشلالات. تذكر قرقرة أوراق الصنوبر تحت أقدامهم، والازهار المنثور فوق الصخور، وثمار السنديان السود التي يجمعونها بعد الصقيع، والقارورة الفضيّة التي يعلّقها والدها في حزامه فيسمح لها بالشرب منها حين تعطش. لم يكن هناك ماءٌ ألدّ من هذا. غير أنّ الماء هو الذي قتلها في نهاية المطاف، وترك زليخة وحيدة.

- «قبل أن تذهبي يا عزيزتي. هلاً وضعتِ نظارة القراءة في ذلك الدرج؟».

يريدها أن تُعيد النظر في قرارها. طريقته غير الخفيفة لتذكيرها بالظرف. لكنّها حين تفتح الدرج، ترى ذلك الكتاب مجدّداً. ينوى وأثارها.

وهذه المرّة تقرأ العنوان الفرعيّ: بحثٌ في عادات الآشوريّين القدماء وفنونهم، وسردٌ لزيارة إلى المسيحيّين الكلدانيّين في كردستان، واليزيديّين عبدة الشيطان.

تُثير فضولها تلك الكلمات الأخيرة، فقد سمعت في الأخبار عن محنة اليزيديّين حين هاجمتهم داعش وطردتهم من منازلهم، لكنّها لا تعرف أكثر من ذلك.

فتسأل زليخة مدفوعةً بنزوة: «هل يمكنني أن أستعير هذا؟».



- «الظرف؟».

- «الكتاب. سأعيده حين أفرغ منه».

فيتنهد خالها. «خذي يا عزيزتي».

- «تصبح على خير يا خالي».

ينتظرها كريمٌ في الطابق السفلي، حاملاً معطفها. يفتح لها الباب، فيقفان جنباً إلى جنب، يستشقان الهواء البارد.

تسارع زليخة بالقول: «شكراً على كل شيء». فجأةً صارت تودّ أن تترك هذا المنزل وسطوته عليها. «أظنني أفرطت في الأكل. عليّ أن أمشي قليلاً».

- «لكنّ خالك طلب لك سيّارة أجرة».

وما إن قال هذا حتى سمعا صوت سيّارة تتوقّف عند الرصيف، خارج البوّابة.

فتزفر زليخة. «يبدو أنّي لن أمشي إذن».

هكذا تمشي نحو البوّابة في هدوء، وكأنّها لا تريد أن تعكّر صفو الحديقة المرتبة ونباتاتها الجميلة. تمرّ بالنافورة الأندلسيّة، وتعرف أنّ خالها سيراقبها من النافذة، كظلّ ضبابيّ على خلفيّة الستائر الثقيلة من الحرير المزركش. تلتفت نصف التفاتةٍ لتنظر إلى الأعلى، وهي على وشك التلويح بالوداع، لكنّ الغريب أنّها لا ترى سوى ظلّ من المصباح الفكتوريّ.

-O-

آرثر

بجوار نهر التمز، 1856

قبل أن يبلغ آرثر السادسة عشرة بعام، تأخّرت أسرته عن دفع الإيجار، فاضطّر إلى العمل في نوباتٍ إضافية. كان يستيقظ قبل هديل الحمام، يتسرّب النوم من عينيه. كان شديد الحرص على نظافته الشخصية، فيعتني أشدّ العناية بالاغتسال، إذ يمسح جسمه بقطعة قماشٍ مبلّلةٍ بالخلّ المخفّف، أو يغتسل بماءٍ شديد البرودة يخزُ جسمه كالإبر. ويستخدم في حرصٍ أيضًا زجاجة مطهّرٍ وقطعة صابونٍ كربوليّ توزّعها إحدى الجمعيات الخيريّة. لكنّ الصابون رديءٌ للغاية حتى إنّه يكاد لا يُرغي، مهما فرك به. غير أنّه يلتزم دائمًا بطقوسه اليوميّة.

حين يخرج من المبنى في بعض الصباحات، يرى شعاع القمر الفضيّ منعكسًا على الشارع المرصوف بالحصى. وفي مثل هذه الساعة المبكرة، يكون لهواء لندن مذاقٌ غريب، كالتحاس على لسانه. يمشي بحذر، يلتفت حول المتسولين والمشردين ومدمني الأفيون النائمين على الرصيف، أولئك الذين لا يستطيعون حتى أن يدفعوا ثمن أسرة البنسين، أو التوابيت كما تُسمّى، وهي أرخص المساكن المتوفرة للمشردين(\*) . تعثر ذات مرّة برجلٍ تجمّد حتى الموت، فكانت لحيته مغطاةً بالجليد، ووجهه قد لَانَ في حلمٍ أخيرٍ سعيد، غير أن ملابسه قد نُزعت، فانكشف جسدٌ هزيلٌ مثل شجرة ذابلة.

الجوعُ أمرٌ ثابتٌ في حياته. قد يخفّ أحيانًا، لكنّ غيابه لا يطول. في معظم الأيام يكون فطوره عبارةً عن خبزة، يضيف إليها إن أمكن مسحةً من الزبدة. قد يشتري بيرةً أو قهوةً من كشكٍ وضّاءٍ به موقد فحم. البيرة مخفّفةٌ بالماء والقهوة لا طعم لها، لكنّها دافئةٌ على الأقلّ. ما يزال يشتري بعض الأطايب لوالدته وأخيه الصغير كلّما استطاع. ثعابين بحرٍ مدخّنة، أو قواقع مخلّلة، أو فطيرة كلاوي. فهذه أيضًا تشكّل جزءًا من طقوسه الأثيرة.

وحين يعود إلى المنزل، في وقتٍ متأخّرٍ من الليل، يكون منهكًا جدًّا، يجاهد كي يُبقي عينيه مفتوحتين، ناهيك عن أن يقرأ

---

(\*) سرير البنسين أو التابوت (Two-penny bunk, or coffin): أسرة كان يمكن للمشردين أن يناموا فيها بدلًا من النوم على الرصيف. وسمّيت بالتوابيت لأنّها خشبيّةٌ وضيقةٌ تشبه التابوت. (المترجم)

شيئًا. لم يعد يحلم بنينوى هذه الأيام. عذابات حياته العشوائية قد سلبت أمله في المستقبل، والندم الذي يشعر به حيال موت أخيه لا يضعف أبدًا. كما أنه يفقد مُرشده وبطله السيّد برادبري. لا يدري ما إذا كان سينجو من شتاءٍ آخر. ما تزال هناك لحظات عابرة ترسم الابتسامة على وجهه، كصياح نورسٍ فوق أسطح المنازل، ومنظر الزهور الربيعية في سلة بائع الأزهار، أو رائحة الكستناء المشوي على موقد. تلك الأشياء الصغيرة وحدها التي تبعث فيه دافعًا كي يتمسك بخيط رفيع من الوجود.

يقف آرثر ذات صباح عند منضدة قراءة في المكتب، يراجع كتابًا تفكر الشركة في إعادة طبعه بالإنكليزية: أعمال فرانسوا رابليه. رسومات الكتاب من أعمال الفنان الفرنسي غوستاف دوريه. رسوماته تنضح بحماسة جامحة. يتأملها الفتى بإعجاب، إذ لديه قناعة راسخة بأن جميع الكتب، سواء أكانت واقعية أم خيالية، ينبغي أن تحتوي على صور. فالصور أشبه بالفوانيس التي تضيء درب المسافرين الليلي، وهي تأخذ بيد القارئ في عوالم السرد. لكنه لم يعد يرسم. يعرف أنه لا يملك مهارة الرسام الفرنسي. يمكنه أن يرى الغانيات يتأبطن أذرع السادة الأثرياء وهم يخرجون من الأوبريتات في شارع «دروري لين»، أو المتاجر الحقيبة في شارع «هوليول» التي تباع الكتب الإباحية، أو المسافرين في محطة قطار ووترلو، أو المشاة المتجمعين في شارع «فليت» المعروف باسم «شارع الحبر»، إذ أصبح القلب النابض لصناعة الصحف. يمكنه أن يرى كل هؤلاء ويستحضر

صورهم على الورق بقوة وبراعة، لكنّه لا يستطيع أن يقرأ قصّة ويأتي برسومات تتجاوز خيال الكاتب.

كان الفتى مستغرقاً في أفكاره، فجفّل حين فُتح الباب فجأةً واندفع زائرٌ إلى الداخل. كان متوسط الطول والبنية، ذا لحية مدبّبة شديدة الترتيب. تتوهّج عيناه الداكنتان، ساطعتان متيقّظتان في وجهه المهزول.

– «السيد إيفنز، أين هو؟ أودّ الحديث معه على نحو عاجل».

فيقول آرثر: «لم يصل بعد».

– «يا للجحيم! الأمر لا يقبل الانتظار».

– «أنا واثق من أنّه سيصل قريباً يا سيّدي».

يتمتم الرجل وهو ينظر في ساعته ثم يعيدها إلى جيب صديريّته: «الأمرُ عاجل». ثمّة شيءٌ مألوفٌ في هذا الرجل، رغم يقين آرثر بأنّه لم يره من قبل.

يغرس الزائر نفسه في أقرب كرسيّ، وهو ما يزال يلهث. لكنّ آرثر لا يدري ما إذا كان الزائر يتحدّث إليه أم إلى نفسه.

– «بعد تفكيرٍ طويل، قرّرتُ أنّ هذه الدار هي المناسبة لي. ينبغي أن تُطبع رواياتي هنا!».

فتضيقُ عيناً آرثر وهو يدرك من يكون هذا الرجل.

– «ولكن أولاً يجب أن أتخلّص من ذلك الناشر النذل الذي

ارتبطتُ به طوال تلك السنوات، للأسف. يظنون أنني لا أستطيع تركهم. سيرون. لقد حسمتُ أمري. من الآن فصاعدًا سأنشر عند برادبري وإيثنز».

فيشيخ آرثر ببصره وهو يقول: «السيد برادبري رحل يا سيدي».

فيسكت الرجل، وهو يوجّه نظره الحادة إلى الفتى. ثمّة شيءٌ رآه فيه، فلانت تعابيره، ولان صوته أيضًا حين تحدّث. «نعم، أعرف. خسارةٌ فادحة. لا بدّ أنك تلميذه. سمعتُ أنّه كان يدرّب فتى من الأحياء العشوائية».

– «نعم، أنا يا سيدي».

– «وسمعتُ أيضًا أنك شديد الذكاء. عبقرٍ كما يقولون».

– «لا أدري يا سيدي».

صمتٌ قصير، ثم يسأله الرجل ببطء: «هل تعرف من أنا؟».

– «نعم سيدي. أنت الكاتب. السيد تشارلز دكنز».

فيومئ الرجل موافقًا. يتفحص الطاولة بعينيّه الجائلتين المتوهجتين بالفضول. «واضحٌ أنك تحبّ الرسم. هل تريد أن تصبح فنّانًا؟».

– «أحبّ الفنّ جدًّا، لكنني لا أعتقد أنّه حِرفتي».

– «فما موهبتك إذن؟».

يفكر آرثر. «كان السيد برادبري دائمًا ما يقول إنني أرى ما يراه الآخرون. لا أدري ما إذا كانت هذه موهبة».

فيبتسم الكاتب ويقول: «أظنّها موهبةً عظيمة. ربّما تحتاج إلى وقتٍ كي تكتشف كيف تستخدمها. الشمس ضعيفةٌ في بداية الشروق، ثم تستجمع قواها وشجاعتها بمرور النهار».

ويبدو أنّه يوشك على قول المزيد، لكنّ صوت السيّد إيغنز يتناهى إليهما، قبل أن يظهر الرجل بنفسه بعد ثوانٍ قليلة.

- «دكنز، صديقي العزيز. يا لها من مفاجأة!».

فنهض الكاتب بسرعةٍ ومدّ يديّه، وكأنّه هو صاحب المكان. يقول السيّد إيغنز: «لو كنْتُ أعرف أنّك هنا، لدخلْتُ فوراً. تُرى ما الذي حدث لنستحقّ شرف زيارتك؟».

يسير الرجلان نحو المكتب، وأصواتهما تزداد حدّة. يسمع آرثر كلّ كلمة، لا سيّما بعد أن فتحا خزانة المشروبات واستمتعا بشيءٍ من البراندي المعتق.

يشتكي دكنز من ناشره، فيقول إنّهم ظلّوا يستغلّونه وقتاً طويلاً جدّاً. كلّهم مجموعةٌ من الأوغاد الجشعين. مستغلّون مبتذلون يتخفّون تحت قشرةٍ لامعةٍ من المعرفة. فقد ظلّ يكدح وحده مثل خادمةٍ مسؤولةٍ عن كلّ شيءٍ في قصرٍ بأكمله. هو الذي تفتّق ذهنه عن تلك القصص، وهو الذي كدح على ضوء الغاز ساعاتٍ طويلةً حتى تحدّبت كتفاه وتلفت عيناه، لكنّهم هم الذين يجنون الفوائد. لقد تعلّم درساً مؤلماً مفاده أنّ بيع الحقوق لدار نشرٍ لا يحقّق المصلحة العليا للكاتب. فالكتاب ليسوا أكثر من عمّال مصنع. لكنّه سئم من ذلك كلّّه. لن يحتمل الظلم بعد الآن. وكالبَحّار الفاضل، سوف يثبّت مبادئه على صواري

الأدب، ويكون مستعدًا للغرق معها بدلًا من أن يهجر السفينة.  
- «لهذا السبب أقدم لك عرضًا».

يقترح دكنز على إيبنز أن يدخل في شراكة معه. سيحتفظ بحقوق النشر، لكنه سيمنح الدار حقوق طباعة أعماله ونشرها مقابل ربع العائدات. وسيحصل الكاتب على الباقي، بالإضافة إلى مقدّم ماليّ كبير.

فيقول السيّد إيفنز وهو يمسح جبينه: «أنت شديد في التفاوض يا صديقي العزيز. ولكن كيف لي أن أردّ مَنْ كتب أولُفر توست؟ اتّفقنا».

يسمع آرثر صوت المزيد من البراندي ثم قرع الكأسين، والتوترُ الخفيّ في الضحكات حين يتحوّل إلى انسجامٍ حميم.

نشرت الدار أربعة كتبٍ لتشارلز دكنز: دومبي وابنه، وديفد كورفيلد، والبيت الكثيب، ودورّ الصغيرة. قرأها آرثر كلّها، وحين أعادت الدار طباعة رواياته السابقة، قرأها مرّةً أخرى أيضًا.

تنجح تلك الشراكة إلى درجة أنهم يقرّرون إطلاق صحيفةٍ وطنيّةٍ بعنوان ذا ديلي نيوز. ويستطيع تشارلز دكنز المفعم بالأفكار الجديدة إقناع دار النشر بتأييد الإصلاحات الاجتماعيّة. فمن واجبهم أن يساعدوا الفقراء والبائسين الذين تتزايد أعدادهم مع هجرة الأسر اليائسة من الريف إلى المدينة بحثًا عن لقمة العيش. ينبغي للندن أن تكون «مثالًا على الإنسانيّة والعدالة للإمبراطوريّة



بأكملها»، لا مثلاً على القسوة والحيّف. دكنز مدفوعٌ بالعاطفة، والجميع مدفوعٌ بدكنز. في ثماني صفحاتٍ طويلة، تُباع بخمسة بنسات، أعلنوا منذ العدد الأوّل للأصدقاء والأعداء أنّ «المبادئ التي تدعو إليها ذا ديلي نيوز ستكون مبادئ التقدّم والتطوير، والتعليم، والحرية المدنية والدينية، والمساواة في التشريع».

يخسرون مالاً كثيراً.

ويعود دكنز لكتابة الروايات.

يغيب دكنز عدّة أشهر، ثم يظهر مرّةً أخرى ذات يوم خريفيّ. الوقتُ في أوّل الصباح، والسماء ما تزال سوداء كالحرير. فحين يقرب الفتى من الشركة، يتراءى له طيفٌ عند الباب. فلمّا سمع الطيفُ وقع أقدامه، تحرّك نحو الضوء تحت مصباح الشارع. يبدو دكنز محروماً من النوم كامداً، بلحية خفيفةٍ مُهملة، وحلقتين داكنتين تحت عينيه.

كان آرثر قد سمع الشائعات المنتشرة، شأنه شأن كثيرين في هذه المدينة. إذ يُقال إنّ دكنز قد وقع في حبّ امرأةٍ تصغره سنّاً، واشترى لها سواراً. وما كان هذا الأمر ليُعرف لولا أنّ الهدية سلّمت إلى منزله بالخطأ، فوصلت إلى زوجته.

— «مرحباً سيّدي».

فيقول دكنز بابتسامةٍ لا تبلغ عينيه: «الفتى آرثر. تُسعدني رؤيتك جدّاً».

— «لم أكن أعرف أنّك تستيقظ باكراً هكذا».

- «ليس دائماً يا فتى. في هذه الأيام فقط، إذ لديّ بعض المشكلات المنزليّة».

وما إن يدخل المكتب، حتى يهوي دكنز على كرسيّ بذراعين، يقبض عليهما بيديه، وقد ابيضّت مفاصل أصابعه. يتمتم بصوت خفيض: «الحقيقة أنّي لم أستطع النوم». يلاحظ آرثر كيف أنّ البياض ازداد في شعره، والتجاعيد تعمّقت حول عينيه.

يشعر دكنز بالفتى يتفحّصه، فيسوّي كتفيه ويقول: «انظر، لقد أحضرتُ معي حلوى. شيئاً يبهج حتى أشدّ الناس بؤساً». يقول هذا وهو يُخرج من جيبه علبةً أنيقة، يفتحها. بالداخل مكعّبات ورديةٌ هلاميّةٌ مغطّاةٌ بالسكّر، مرتّبةٌ في صفوفٍ مثاليّة. تتّسع عينا آرثر ويقول: «ما هذا يا سيّدي؟».

فيردّ دكنز بخفّةٍ تناقض تعابير وجهه: «قطع من راحة الحلقوم. من الأراضي العثمانيّة، يعشقها الأغنياء والفقراء على حدّ سواء. خُذ، جرّب واحدة».

يميل آرثر إلى الأمام ويلتقط واحدة. لها مذاقٌ غريب، مطّاطيّ، ناعمٌ وعطر. - «حسنٌ، ما رأيك؟».

- «إنّها غريبة... لذيذةٌ جدّاً. هل يأكلونها كلّ يوم؟».

- «أعتقد ذلك. سمعتُ أنّ السلطان كان يوزّعها على حريمه».

- «وما الحريم؟».

فيقول دكنز بصوتٍ يزداد حدّة: «أوه، إنّه أفضع شيء.

مؤسَّسةٌ بغِيضَةٌ مُهَيَّنةٌ لا تستحقّ الحديث عنها، رغم أنَّه من الواضح أنَّ الراحلة الآنسة برونتي استمتعت بالتأمل فيها. يا له من مشهدٍ رذيلٍ ذاك الذي كتبته للمسكينة جين إير! أتذكرُ ما قاله روتشستر؟ حين قال إنَّه لن يستغني عن تلك الفتاة الإنكليزيَّة ولو أعطوه نساء جزيرة «غراند تُرك» كلَّهنَّ، على ما فيهنَّ من عيون غزلان وأشكال حورٍ عين، وما إلى ذلك! قد تتساءل عن قصد الكاتبة حين تجعل جين إير المسكينة الكثيبة تتخيَّل نفسها في «بيت متعة» لروتشستر، يغطِّيها شيءٌ من الحرير والزهور، تنتظر ليلةً من اللذة... أيُّ خيالٍ هذا الذي يوضع في عقل سيِّدة إنكليزيَّة محافظة!». يسكت دكنز قليلاً، ثم يقول: «لكنِّي أعترف أنَّها فكرةٌ إيروتيكيَّةٌ جدًّا». مكتبة سُرَّ من قرأ

كان آرثر قد قرأ جين إير، ورغم أنَّه لم يتوقَّف عند هذا المقطع تحديداً، إلَّا أنَّه يفهم الآن ما يكفي لكي يتورَّد خجلاً. يواصل دكنز غافلاً عن ارتباك الفتى: «لا ينبغي أن ننسى أنَّ جذور أسرة برونتي من قلب كورنول، رغم أنَّهم نشؤوا في يوركشاير. ولا بدَّ من أنَّ حياتهم قرب البحر جعلت أجيالاً من عائلتهم تنشأ على حكايات القراصنة العثمانيين الذين يغزون المنازل ويخطفون النساء الإنكليزيَّات ليأخذوهنَّ إلى الحريم. وهذا في ظنِّي يُشعل الخيال الأدبيَّ. على أيِّ حال، دعنا من هذا الأمر الحساس، وإنَّ كان مثيراً للاهتمام».

يلتقط دكنز قطعةً أخرى من الحلوى ويمسكها بين أصابعه. «ينبغي أن تعلم أنَّ هناك ثقافاتٍ كثيرةً حول العالم أدنى من ثقافتنا، لا سيَّما العرق الشرقيّ. سوف يستغرق الأمر منهم وقتاً

طويلاً حتى يصلوا إلى مستوى حضارتنا، إن استطاعوا».

يقوّس آرثر كتفَيْه، بإدراكٍ صارخٍ يينزغ في عقله. فهذا الكاتب مهما كان مناصراً للفقراء والمنبوذين، ومهما كان بطلاً متحمّساً للمظلومين والمضطهدين، إلّا أنّه ينظر نظرةً سلبيةً للمجتمعات الأخرى.

يشعر دكنز بأنّ الفتى لا يوافقُه الرأي، فيعيد النظر إليه قائلاً: «يبدو أنّ لديك رأياً مختلفاً. هل تفكّر في السفر يوماً؟ هل تُغريك الرحلةُ إلى بلادٍ بعيدة؟».

فيومئٍ آرثر بحماسٍ شديد.

- «إلى أين؟».

لكنّ آرثر لا يجيب، بل يفتح درجاً ويُخرج منه قصاصة الصحيفة التي يحتفظ بها تحت كومةٍ من النقوش.

يُمسك دكنز بالورقة تحت الضوء ويقرأها بصوتٍ عالٍ. «حشدٌ كبيرٌ في المتحف البريطانيّ عصر هذا اليوم يحتفي بوصول تماثيل ضخمةٍ وقطع أثريةٍ أخرى من نينوى». فيسكت قليلاً وينظر إلى الفتى رافعاً عينيه عن الورقة. «هل هذا هو المكان الذي تريد الذهاب إليه؟ نينوى؟ رغبةٌ فريدةٌ من نوعها. هل دخلتَ المتحف البريطانيّ من قبل؟».

- «لا يا سيّدي. ذهبتُ عدّة مرّاتٍ إلى أسفل الدرج، لكنّي لم أجرؤ على الدخول».

- «ولماذا يا تُرى؟».

- «لا أملك ملابس مناسبة».

فيلينُ وجه دكنز. «يا بنيّ، لا ينبغي لهذا أن يكون عائقاً لك».

فيقول آرثر بحزم: «بل هو عائق. ومع خالص احترامي يا سيدي، إلا أنك قد لا تكون في موقعٍ يسمح لك بمعرفة ذلك».

يكتشف الكاتب في هذه الكلمات عتبا خفيا. قد يكون عمل مرّة في مصنع طلاء، فأصبح مناصرا متحمسا للطبقة العاملة، وناقدا صريحا للقانون المعدل لقانون الفقراء، ومصورا في رواياته محنة المعدمين، موضحا أنّ اللوم لا ينبغي أن يُلقى على من يتحملون أعباء الفقر، لكنّه في هذه الغرفة يُعدّ واحدا من المحظوظين، مقارنة بهذا الفتى.

فكر دكنز لحظة، ثم قال: «هل صحيح ما يقولونه عنك.. إنك لا تنسى شيئا أبدا؟».

- «يبدو أنني أقضي وقتا طويلا في ذاكرتي. أمرٌ عديم الفائدة».

يحكّ دكنز لحيته ويقول: «لا أحد عديم الفائدة في هذا العالم إن كان يخفّف أعباء الآخرين».

- «لا أدري إذا كنت قد خفّفت أعباء أحد. لن يكون أبي بالتأكيد».

- «ما من أبٍ إلا ويحبّ أبناءه بطريقةٍ ما. لعلّ والدك لا يعرف بالضبط كيف يُبدي تقديره لك».

يعضّ آرثر شفته. لا يودّ أن يجادل الروائي المشهور، لكنّ الحبّ الذي لا يظهر إلا في برودة عميقة وجارحة، هل يمكن اعتباره حبا أصلا؟

في هذا الأسبوع نفسه، يصل طردٌ إلى المكتب، موجَّهًا إلى آرثر صاحب المجاري والعشوائيات. يجد في داخله سترةً من التويد، وصدريةً وبنطالًا، مفصَّلةً على مقاسه تمامًا، مع حذاءٍ جلديٍّ بُنِيَ على مقاس قدمه. لم يخطئ دِكنز في دقَّة ملاحظته. مع الطرد رسالةٌ جاء فيها:

عزيزي آرثر،

استمتعتُ كثيرًا بحديثنا، وفكَّرت في كلامك مليًا. أنت شابٌ ذو موهبةٍ كبيرةٍ وذكاءٍ يستحقُّ الشناء. أعتقد أنَّه ينبغي لك الذهاب إلى نينوى ورؤية نهر دجلة بنفسك. فقد كسرتُ لندن قلبك، لأسبابٍ لا يد لك فيها. لعلَّك حين تصل إلى الشرق تجدُ في نفسك القدرة على أن تغفر لمدينتك ونهرها المهيب: التِمز. فالمرء متى ما ترك المكان، استطاع أن يسامحه.

صديقك المحبِّ دائمًا

تشارلز دِكنز

بعد ذلك اختفى الكاتب مرَّةً أخرى، واندفع بكلِّه في قصَّة الحبِّ والفضيحة الزوجية التي سوف تستنزف طاقته وسُمعتة في الأشهر التالية. سيكاتبه آرثر، ولكن لن تُتاح له الفرصة كي يشكره شخصيًّا. ولن يستطيع أن يخبره أنَّه نجح أخيرًا في زيارة المتحف البريطانيِّ والمخلوقات المجنَّحة القادمة من نينوى، فهناك سيجد مفاجأةً تنتظره، وتغيِّر حياته إلى الأبد.

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة ، 2014

- «جدّتي، ماذا حدث لتلك العمالقة المجنّحة التي قلت إنّ ليلي رأتها في شبابها؟» .
- «اللاماسوات؟ اختفت» .
- «أين ذهبت؟» .
- «من يدري! إلى أوروبا أو أميركا... يحتفظون بها الآن في بيوتٍ كبيرةٍ تُسمّى متاحف. لم تعد في تربتها الأصلية، رغم أنّ واحدًا منها أو اثنين ربّما ما يزالان موجودين، فانتبهي جيّدًا. لكنّ كلّ اللاماسوات الأخرى أخذت بعيدًا، رُبطت على الأطواف والقوارب ونُقلت إلى البلاد الغنيّة. هذا ما سمعته من جدّتي، وها

أَنْتِ الْآنَ تَسْمَعِينِهِ مَنِّي».

تطرفُ الصبيّة غير مصدّقة. في بعض الأحيان يصعب عليها أن تستوعب قصص الجدّة. فرغم أنّها تعشق جدّتها العجوز، وتحبّ الاستماع إليها، فإنّ فكرة المخلوقات الهجينة الضخمة التي تبحر من بلاد ما بين النهرين إلى أميركا لا تُقنعها.

- «أعلم أنّك لا تصدّقيني يا نارين، لكنّ الحكاية نايّ تتنفس الحقيقة من خلاله. وهذه حكايات عائلتك».

- «مفهومٌ يا جدّتي».

- «تذكّري يا طفلي ألاّ تنظري شزراً إلى أيّ أحدٍ أبداً. عليك أن تعاملي كلّ شخصٍ وكلّ شيءٍ باحترام. نحن نؤمن بأنّ الأرض مقدّسة، فلا تطئها بإهمال. قومنا لا يتزوّجون أبداً في نيسان / إبريل، فالأرض تكون حُبلى في ذلك الوقت. لا ينبغي لك الرقص والقفز والدوس عليها. عاملها برفق. ولا تلوثي التربة أو الهواء أو النهر، أبداً. لهذا السبب لا أبصق أبداً على الأرض، ولا ينبغي لك ذلك أيضاً».

- «وماذا لو اضطررتُ إلى السعال؟».

- «حسن، اسعلي في منديلٍ وتخلّصي منه. الأرض ليست مستودعاً لنفاياتنا».

تقول الجدّة إنّ يزيديةً مسنةً كانت جارةً عزيزةً لها هاجرت مع أطفالها إلى ألمانيا، حيث استقرّت عائلتها هناك في التسعينيات. فاندشت المرأة وحزنت حين علمت أنّ أهل تلك البلاد يملؤون حوض استحمامٍ بالماء، ثم يجلسون فيه ويغسلون أنفسهم



بالصابون. لم تستطع أن تصدّق كيف يوجد شخصٌ عديم الإحساس إلى درجة أن يغطس في ماءٍ نظيفٍ دون أن يغسل نفسه أولاً.

تقول الجدّة أيضًا إنّه ينبغي إجلال الشمس والقمر، وهما جرمان شقيقان. تصعدُ كلّ صباح عند الفجر إلى السطح تحيّي أوّل النور، وحين تصلّي تستقبل الشمس. وبعد أن يحلّ الظلام تصلّي لكوكب الليل. تقول: ينبغي أن نسير على الأرض في دهشةٍ دائمة، فهي مليئةٌ بالمعجزات التي لم تظهر بعد. أمّا الأشجار فلا ينبغي النظر إليها على ما هي عليه فوق الأرض، بل على ما يظلّ خفيًا من تحتها أيضًا. لا بدّ من تقدير الطيور والصخور وكُتل الأعشاب وأجمات الورّال، بل حتى أصغر الحشرات. لكنّ العجوز قافرة، فلا يوجد شيءٌ تقدّره أكثر من نهر دجلة.

تنظر نارين إلى الجدّة وهي تكنس الموقد أثناء حديثها، فتجمع بأصابعها النخيلة الرماد المتجمّع في القاع على صينية. الرماد ثمين، مادةٌ أساسيّةٌ لعددٍ من العلاجات. في بعض الأحيان تغمس الجدّة فصّ ثوم في الرماد وترسم رموزًا على جبهة مريض يتألّم. ولا يجوز لأحدٍ أن يلمس المريض إلى أن تزول العلامة تمامًا. وفي أحيانٍ أخرى، تأخذ الجدّة عملةً معدنيّةً فتثنيها إلى شكل هلال، ثم تضعها في وعاء ماءٍ صافٍ تضعه تحت سرير المريض.

للأرقام أهميّة، ورقم الجذّة المفضّل سبعة. فأيا ما كان الذي تشعرين به، حميدًا أم خبيثًا، ينبغي أن تنتظري سبعة أيّام. فإن وقعت في الحبّ، بخفّة في حركاتك كحبة لقاح على جناح فراشة، ينبغي أن تنتظري سبعة أيّام، وإن ظلّ ما تشعرين به بعد ذلك، حينها يمكنك الوثوق بقلبك. لا تتخذي قرارًا مهمًّا إلّا بعد أن تنقضي سبعة أيّام من التفكير.

إن غضبت من شخص ما، أو أوشكت على قطع علاقتك به، فعليك أن تؤجّلي ردّ فعلك سبعة أعمار. تلك هي الطريقة الوحيدة لئلا تنقادي وراء الغضب أو الانتقام. الصفقة لا بدّ من أن تنضج سبعة أيّام قبل إتمامها، والبيت ينبغي مباركته في سبع زوايا قبل الانتقال إليه. لا يجوز خبز الرغيف ما لم ترتح الخميرة سبع دورات. والمولود لا بدّ من حمايته من الأرواح الشريرة سبعة مشارق. فهناك سبعة أيّام في الأسبوع، وسبعة حكماء يمشون على الأرض، وسبع مناطق في جسم الإنسان، وسبعة نيام في كهف هارين من اضطهادهم، وسبع موبقات لها سبعة أبواب في جهنّم.

ومن الأيّام السبعة، الأربعاء أنسب الأيّام. في ذلك اليوم تحضر الجذّة بلسمها، ومراهمها وصبغاتها، فقد نزل ملك طاووس في هذا اليوم المقدّس كما يعرف الجميع، ولذلك فهو الوقت الأنسب لفعل الخير. إن كانت لديك أمنيّة خفيّة، أو سرّ حميم، فلك أن تهتمي به لجدول جار، ويُفضّل أن يكون في يوم الأربعاء. سيتولّى التيّار أمره. كذلك، إن استيقظت من كابوس في منتصف الليل، فافتحي الصنبور وقصّي ما رأيته على الماء.

سُيْهَدُّ قَلْبُكَ الْخَافِقَ وَيَغْسَلُ خَوْفَكَ.

تَقُولُ الْجَدَّةُ إِنَّ الْمَرْءَ يَبْنِغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَطَّفَ مَعَ كُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ، مَهْمَا بَدَأَ صَغِيرًا أَوْ تَافَهًا، فَلَسْتَ تَدْرِينَ فِي أَيِّ شَكْلِ أَوْ صُورَةٍ سَوْفَ تُوَلِّدِينَ أَنْتِ أَوْ أَحَدٌ مِنْ أَحْبَابِكَ مَرَّةً أُخْرَى. «كُنْتُ بِالْأَمْسِ نَهْرًا. وَغَدًا، قَدْ أَعُودُ قَطْرَةً مَطَرًا».

\*

لِلْأَنْهَارِ شَخْصِيَّاتٌ. بَعْضُهَا يَهْدَأُ بِمُرُورِ الزَّمَنِ، إِذْ يَلْتَوِي فِي تَأْمُلٍ عِبْرَ السَّهُولِ وَالْمَرْجِ الْخَصْبَةِ. وَبَعْضُهَا يَغْدُو مُرًّا، يَتَدَقَّقُ فِي غَضَبٍ، يَتَدَحْرَجُ عِبْرَ الْأَوْدِيَةِ الْمُنْحَدِرَةِ، فِيمَا تَظَلَّ أَنْهَارٌ أُخْرَى مُضْطَرِبَةً وَمَشْوُشَةً إِلَى النِّهَايَةِ. لَا يَوْجَدُ نَهْرَانِ مُتَشَابِهَانِ. فَنَهْرُ دَجْلَةٍ مَثَلًا، كَانَ وَمَا يَزَالُ «النَّهْرُ الْمَجْنُونُ»، وَ«النَّهْرُ السَّرِيعُ». لَا يَشْبَهُ تَوَامُهُ نَهْرَ الْفَرَاتِ الَّذِي يَجْرِي بِطَبِيعَةِ الْطُفِّ، وَوَتِيرَةٍ أَبْطَأَ، فَيَأْخُذُ وَقْتَهُ، يَتَشَرَّبُ مُحِيطَهُ وَهُوَ يَمُرُّ بِهِ. يَخْتَلِفُ هَذَانِ التِّيَّارَانِ اخْتِلَافًا شَدِيدًا، رَغْمَ أَنَّ كُلِيهِمَا يَنْبَعُ مِنْ رَحْمِ جِبَالِ طُورُوسٍ فِي تَرْكِيَا، وَيَجْرِيَانِ فِي تَوَازٍ طَوِيلٍ إِلَى أَنْ يَفْنِيَا مَعًا فِي الْخَلِيجِ الْفَارْسِيِّ [الْعَرَبِيِّ]. يَخْتَلِفَانِ كَاخْتِلَافِ الشَّقِيقَيْنِ مِنْ أَبٍ وَاحِدٍ وَأُمٍّ وَاحِدَةٍ.

— «لَعَلْمَكَ، فَدَجْلَةُ وَالْفَرَاتُ يَتَحَدَّثَانِ إِلَى بَعْضِهِمَا بَعْضًا. تَسْتَطِيعِينَ سَمَاعَ ذَلِكَ حِينَ تَهَبُّ الرِّيحُ فِي هَذَا الْاِتِّجَاهِ».

فَتَسْأَلُ نَارِينَ سَاخِرَةً: «حَقًّا، هَلْ تَسْمَعِينِهِمَا الْآنَ؟».

فَتَقُولُ الْعَجُوزُ وَهِيَ تَمُدُّ عُنُقَهَا: «نَعَمْ. أَنْصَتِي، هَا هُمَا فِي قَيْلٍ وَقَالَ، يَثْرَثِرَانِ كَثِيرًا. يَشْكُو الْفَرَاتُ وَيَقُولُ: «مَا بِالْكَ قَلَقٌ

هكذا يا عزيزي دجلة؟ ها أنت تُتعب الجميع، وتتعب نفسك.  
فعلامَ غضبك هذا الذي لا ينتهي؟».

تقترب نارين وتسألها: «وماذا يقول دجلة؟».

- «يقول دجلة: «ولماذا تسأل يا فُراتي؟ لن تفهمني أبدًا،  
وإن شِرحْتُ لك. لقد وُهِبَتْ هدوء الروح، لكنِّي لستُ مثلك. كم  
هي صعبةُ حياتي! من الصعب أن تُضطرَّ إلى القتال طوال  
الوقت».

- «وكيف يرُدُّ الفرات؟».

تقول الجدَّة، وهي تُطرق رأسها في تركيز: «دعيني  
أسمع...».

تظلُّ فترةً تستمع وهي تومئ برأسها. «اممم.. هممم».

- «أخبريني!».

- «آه، يقول الفرات: «لكنَّك مخطئ. ليتك تعرف كم هو  
صعبُ أن تبقى هادئًا متماسكًا. الأمر، لو تعرف، يستلزم قتالًا  
شديدًا في باطنك حتى تكون مسالمًا في ظاهرك».

- «وما معنى ذلك؟».

- «يعني أنَّ الهدوء لا يأتي بسهولة».

فتصمُّ الطفلة لحظة، وتطبق شفَتَيْها. «وأيُّ نهرٍ منهما أكثر  
حكمةً برأيك، يا جدَّتِي؟».

- «اممم، إذا وعدتني ألا تقولي شيئًا لدجلتنا...».

فتقول نارين من فورها: «أعدك».

- «حسن، سأخبرك إذن. في الواقع إنني أوافق رأي الفرات. أن تكوني روحًا خفيفةً أفضل من أن يستنزفك الغضب والاستياء والانتقام. في وسع أي شخص أن يشن الحروب، لكن الحفاظ على السلام مسألة صعبة. ولهذا أحترم الفرات أكثر، ولكن دعينا نكتم هذا عن دجلتنا الغاضب. لا داعي لأن نُثير غضبه أكثر».

تُلقي الطفلة نظرةً سريعةً ساهمةً على دجلة الذي يعتمل، تتكسر أمواجه على الصخور الكبيرة، فيما تطبع المويجات والشلالات على قاع النهر. أمّا الجدّة، فحين تعود إلى الكلام، يأتي صوتها في همسٍ خافتٍ يكاد يفوت الفتاة.

- «في أرضنا هذه، بأحجارها القديمة وحكاياتها التي تُروى ولا تُكتب إلا نادرًا، الأنهار هي التي تحكم أيام حياتنا، سواء كانت هادئة أم مضطربة. جاء ملوك، وذهب ملوكٌ كثيرون، ويعلم الله أن معظمهم كانوا قساة، ولكن لا تنسي أبدًا يا حبيبتي أن الحاكم الحقيقي الوحيد في بلاد ما بين النهرين هو الماء».

الغرفة التي تنام فيها العجوز والفتاة غرفةٌ بسيطة. ففي الليل تفرشان مرتبتين على الأرض، إلا إذا كان الجو شديد الحرارة، فعندها تصعدان إلى السطح. وثمة أريكتان خفيضتان متقابلتان، تتكدّس فوقهما وسائد محشوةٌ بشعر الماعز، ما بين برتقاليةٍ وقرمزيةٍ وأرجوانيةٍ. وهناك نبتة لبلاّب في أصيصٍ تتسلّق عند النافذة، فتصل إلى السقف وترحف على الإفريز.

تجلس نارين كلّ مساءً على الأرض لكي تمسّط الجدّة شعرها وتصفّره. تدهن زيت اللوز على شعرها الكستنائي الداكن، وهي تروي لها الحكايات الساحرة. تقول إنّها لا ينبغي للمرء أبداً أن يدّعي بأنّه يعرف حكاية ما، وإنّما هو يحملها فقط. فهناك تحديداً ينبغي أن تُحفظ الحبيروكات [الحكايات]، في دفء الصدر وقريباً من القلب النابض.

- «جدّتي... هل يوجد علاجٌ لكلّ مرضٍ في الدنيا؟».

- «نعم يا حبيبتي».

- «وكيف عرفت؟».

- «لأنّني أثقُ بالله. لا يبتلينا الله بوجع المعدة إلّا ويُنبتُ نعناعاً في مكانٍ قريب».

- «فلماذا إذن لا تستطيعين شفائي؟».

تتعمّق التجاعيد على جبهة العجوز. «إنّ كنتُ لا أعرف العلاج، فهذا لا يعني أنّه غير موجود».

- «لكنّك تعرفين كلّ شيء».

- «إنّما أنا نصفُ الآخرين حكمة، وضعفُهم حماقة».

فتصرخ نارين وقد راعها أن يصف أحدٌ جدّتها بهذا الوصف، حتى وإن كانت العجوز نفسها: «غيرُ صحيح!».

- «الحكمة جبلٌ يغطّيه الثلج. ولم ألتقِ حتى الآن شخصاً بلغ قمّته».

- «وما معنى ذلك؟».

- «يعني أنك مهما عرفت، يبقى ما تجهلينه أكثر بكثير. ولذلك ينبغي لك دومًا أن تبذلي الجهد لتواصلي التعلُّم. ألم أخبرك بقصّة الملاك جبريل؟».

فتهزّ نارين رأسها، بشعره المصفور المزيّت. «يمكنك أن تخبريني الآن».

- «حسن. في تلك الأيام، تلك الأيام البعيدة، في سالف الأزمان... كان هناك شيخٌ معروف، استيقظ ذات صباح وقال للناس إنه تعلّم كلّ شيءٍ يستحقّ المعرفة، ولم يبق لديه شيءٌ آخر يتعلّمه. وفي عصر ذلك اليوم نفسه، ظهر له الملاك جبريل في هيئة درويش».

- «وما الدرويش؟».

- «باحثٌ متواضعٌ عن الحقيقة. مشى الدرويش والشيخ إلى ضفاف دجلة، فلمّا وصلا إلى النهر شاهدا سنونوا يهوي إلى النهر فيغترف شيئًا من الماء ويطير بعيدًا. فقال الدرويش لصاحبه: «قل لي، هل نقصّ النهرُ حين شرب الطائرُ منه؟ المعرفة امتدادٌ شاسعٌ من الماء، وما أخذته أنتَ منها لا يزيد عمّا يملأ منقار السنونو». استوعب الشيخُ خطأه، وأدرك أنّ المرء مهما عرف، فهناك أشياء كثيرةٌ جدًّا يجهلها».

كثيرًا ما يحضرُ الماء في قصص الجدّة، متدفّقًا، باحثًا. تقول إنّ هناك خطأ خفيًا يربط بين المقدور لهم أن يلتقوا، تمامًا مثلما تلتقي قطرتا مطرٍ على زجاج نافذة، فتنسجان مسارهما في تأنٍّ وثبات.

-O-

مكتبة

t.me/soramnqraa

آرثر

بجوار نهر التمز، 1857

حين عبر الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات للمرّة الأولى من الرواق الكبير في المتحف البريطاني، شعر بصغارٍ شديدٍ ووحشةٍ يستنزفان كلّ عضلةٍ من عضلات جسمه كي يمنع نفسه من الاستدارة والعودة من حيث أتى. فالمبنى كان أعظم وأكبر هيبةٍ من قرب، إذ يرتفع فوق أسطح المنازل المحيطة كأنّه معبدٌ غير دينيّ، بدرجاته الضخمة، وأرضياته الخرسانيّة، وأجنحته الأربعة الواسعة، وأعمدته الأيونيّة. وحين يصل الزائر، يستقبله نقشٌ في مدخل المتحف يصوّر تطوّر البشريّة، في رحلةٍ خطيّةٍ كما يبدو، من الحالة البدائيّة إلى الحضارة المتألّقة.



يخطو الفتى إلى الداخل، في تأنُّ وعزم، رغم تسارع نبضاته. فقد خرج هذا الصباح من منزله كعثةٍ تخرج من شرنقتها، لكنَّه الآن يتحسَّس من هيئته وهو يحاول أن يرفع ذقنه. يفكر في جميع الإجابات التي حضَّرها في حال سأله أحدٌ عن مقصده. لا يدري إن كان القيِّم على الآثار الشرقيَّة ما يزال يعمل هنا، وإن كان يتذكَّر الحديث الذي دار بينهما قبل سنوات، وإن كان سيتلطف بإطلاعه على المكان. غير أنَّه لا يجرؤ على السؤال عنه، ويرجو أن يظهر من تلقاء نفسه من خلف عمودٍ من الأعمدة الشامخة.

ولحسن الحظِّ، يلمح آرثر في تلك اللحظة مجموعةً من التلاميذ، في مثل سنِّه تقريبًا، رغم أنَّهم من شريحة اجتماعيَّة مختلفة تمامًا كما يبدو. يمشي على خطى المجموعة، ولا يبدو أنَّهم يعترضون على وجوده، إذ يستغرقون في صمتٍ عابس، يقودهم معلِّمٌ لا يكاد ينظر خلفه ليتفقَّد هؤلاء الذين يتبعونه. يظلُّ آرثر فترةً يمشي على خطاهم، وهم يمرُّون في أفواج عبر الأقسام الأشهر في المتحف: اليونان القديمة، وروما القديمة، ومصر القديمة.

ثم بدأ آرثر يشعر بالجرأة، فانفصل عن الآخرين وأخذ يستكشف المبنى بمفرده، إلى أن وجد موظَّفًا في الغرفة التالية.

- «سيِّد، إنني أبحث عن لاما سوات نينوى. أما زالت هنا؟».

- «وأين ستكون إذن يا فتى؟ هل تراءى لك أن تطير تلك المخلوقات المجنَّحة؟».

يتلعم آرثر، فهو لا ينتمي إلى هذه المؤسسات الكبيرة، ويخشى أن يستشعر الناس ذلك. يخطر له في تلك اللحظة أنَّ للفقر رائحةً خاصَّة، تنبعث من مسامه، فيسهل اكتشافها. يا لها من فكرة مروعة، مُتعبة. يأخذ نفسًا حادًا، ثم يستدير ويسرع في الاتجاه الذي يظنُّه المخرج. يناديه الرجل من خلفه، ربَّما في تعاطف، لكنَّ الفتى لا ينتظر.

الانقسامات التي تشكِّل طبقةً ما هي في حقيقتها حدودٌ على خريطة. فحين تُولد بين الثراء والامتيازات، ترثُ مخطَّطًا يحدِّد المسارات الأمامية، يشير إلى الطرق المختصرة والجانبية كي تصل إلى وجهتك، فيخبرك عن الأودية الخصبة التي يمكنك أن ترتاح فيها، والتضاريس الصعبة التي ينبغي لك أن تتجنَّبها. فإنَّ أتيت إلى هذا العالم من دون تلك الخريطة، تُصبح محرومًا من التوجيه المناسب. هكذا تضلُّ طريقك بسهولة، فتحاول العبور ممَّا تظنُّ أنَّها بساتين وحدائق، ثم تكتشف أنَّها محض مستنقعات وأراضٍ سَبَّخَة.

يغذُّ الفتى خطواته، متلهِّفًا إلى الخروج، لكنَّ الغرفة التي يدخلها لا تقود إلى المخرج، بل تتَّصل بمرٍّ طويل. يندفع عبر مرٍّ تلو الآخر، يجرُّه كلُّ منها إلى أعماق المتحف، وكلُّ قاعةٍ تنفتح على أخرى أكثر إدهاشًا من أختها. يخشى أن يدخل أماكن لا يجوز له دخولها، لكنَّه لا يملك فكرةً أفضل، فيواصل سيره إلى أن يجد نفسه في غرفةٍ مكدَّسةٍ بصناديق خشبيةٍ وعلبٍ على جوانبها الأربعة.

ثمَّة هدوءٌ غريبٌ هنا، ليس غيابًا للضوضاء بقدر ما هو

سكونٌ يمتصُّ كلَّ شيءٍ من حوله. آلافٌ من الألواح الطينية، في خزائن زجاجيةٍ مرتَّبةٍ على رفوف. مكسورةٌ تلك الألواح، مشروخة. بعضها ما يزال يحمل آثار الأرض التي استُخرجت منها. يقترب آرثر، فيلاحظ أنَّ عليها نقوشًا إسفينيةً الشكل على سطحها. يُميل رأسه هنا وهناك، يتفحص العلامات الغامضة التي لا تشبه شيئاً رآه من قبل.

- «هل تبحث عن شيءٍ ما؟».

أفاق آرثر من شروده واستدار، فوجد موظفًا آخر يراقبه بفضول، ولكن من دون قسوة.

- «أعتذر جدًّا يا سيدي. كنتُ -».

- «أنت مع المدرسة، أليس كذلك؟ هل ضللتَ طريقك؟».

فيسكت آرثر، ثم يقول: «هممم، للأسف نعم».

- «أدركتُ ذلك. زملاؤك في الطابق العلوي، عند الآثار الرومانية يا فتى. أنت في قسم نينوى».

فيقول آرثر: «سألحق بهم»، لكنَّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من سؤال الموظف: «إذن، هل جاءت كلُّ هذه الألواح الطينية مع اللاماسوات؟».

- «لدينا آلاف الألواح هنا، وليست كلُّها من عملية تنقيب واحدة. ولكن نعم، كلُّها جاءت من منطقة اللاماسوات نفسها، إن كان هذا سؤالك».

فيومئٍ آرثر في تفكير. ثمَّة شبكة عنكبوتٍ تتدلَّى من إحدى الخزائن، فينظر إليها وهي تلتقط الضوء، منبهراً بهندستها. «تلك

العلامات التي على الألواح، هل هي كتابة قديمة؟». فيهزّ الرجل كتفيه. «بالنسبة لنا تبدو آثار طيورٍ قديمةٍ أو خربشات دجاج. فلا يستطيع قراءتها إلّا نُدرة». يتمتم آرثر قائلاً: «لكنّ بها أنماطًا واضحة...». - «أوتظنّ ذلك؟ ربّما، لكنّ ألواحًا كثيرةً منها محطّمةٌ كما ترى. فمن المستحيل فكّ شفرة هذا الخليط العجيب». يقطع حديثهما خطوٌ قادمٌ من الجانب الآخر. تلاميذ المدرسة عائدون من جولتهم، وقد تبدّى الضجر على محيّاهم. فيسأله الرجل: «ألن تنضمّ إلى أصدقائك؟». - «آه، نعم، شكرًا لك سيّدي».

يسرع الفتى لمغادرة الغرفة، وهو يلقي نظرةً أخيرةً على كنوز نينوى. ثمّة حماسٌ غريبٌ يخالجه، لكنّه لا يستطيع أن يشرحه للرجل، ولا حتى لنفسه. فالعلامات على تلك الألواح ليست آثار طيورٍ أو خربشات دجاج. ليست خربشاتٍ عشوائيةٍ أو زخارف. إنّه واثقٌ من أنّ ما رآه عبارةٌ عن نظام كتابة.

يعود آرثر إلى المتحف البريطاني في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، بعد أن أجرى حسابًا سريعًا في عقله. لديه خمسون دقيقةً لاستراحة الغداء، تبدأ وتنتهي في الوقت نفسه كلّ عصر. المسافة من المطبعة إلى كنوز نينوى ألفٌ ومئتان وثلاث خطوات، بما في ذلك درجات المتحف، وكلّها تستغرق ثماني عشرة دقيقةً ذهابًا، وثمانية عشرة دقيقةً للعودة. تبقى له أربع عشرة دقيقة.

ليس وقتًا طويلًا، لكنّه أفضل من لا شيء. بهذه الطريقة يمكنه أن يدرس العلامات المكتوبة على الألواح أربع عشرة دقيقة كل يوم، ثم يعود إلى العمل في الوقت المحدّد، شريطة أن يمشي سريعًا ويتناول غدائه أثناء المشي.

هكذا بدأ الأمر. والتزم آرثر بهذا الروتين الجديد، حتى في أيّام المطر والثلج والبرّد. زادت ألفته مع المكان الآن وقلّ توثره، فصار يندفع عبر قاعات المتحف، بإثارة تلقائية تنمو في أعماقه. يمرّ من المعارض التي تُعرض فيها القطع الأثرية القديمة على قواعد رخام، في خزائن زجاجية أو خزائن أرفف، لكنّه يلتزم بجدوله الصارم، فيلقي عليها نظرة عابرة، كتحية صامتة. بعدها، يُسرّع للقاء ألواح الرافدين، كعاشقٍ تأخّر عن موعد حبيبته.

ولمّا كان لديه طقمٌ واحدٌ فقط من الملابس الأنيقة، فليس له من خيارٍ إلّا أن يرتدي البذلة نفسها في كلّ يوم، لكنّه يحرص على تنظيفها بالفرشاة وتهويتها. فهو مقتنعٌ بضرورة أن يكون ملبسه نظيفًا تمامًا، وحذاؤه ملّمّع كأحذية الجنود. هوّسه بالنظافة هذا يصعبُ الحياة عليه وعلى والدته؛ إذ يطلب منها مرّةً في الأسبوع أن تساعدّه في تجهيز الحَمّام. هكذا يجتمعان الفحم والأخشاب المهملة في الشارع، ثم يشعلان موقدًا ويسخّنان الماء. كان في العادة يُضطرّ إلى انتظار أن يغتسل والدّه أولًا، ثم والدته، وبعدها يأتي دوره، ثم قد يستخدم أخوه الماء نفسه. أمّا الآن، فنادرًا ما يعود والدّه إلى المنزل، فيما تدعه والدته يغتسل قبل أيّ شخصٍ آخر. في بعض الأحيان، يذهب آرثر إلى الحَمّام العموميّ كي لا

يُتعب والدته، لكنّه يندم على قراره هذا لفرط القذارة التي يراها هناك.

فبالنسبة إلى شخصٍ يولي أهميةً كبيرةً لنظافته الشخصية، تُعدّ لندن مكانًا مليئًا بالفخاخ. نعم، هناك من يجمع فضلات الكلاب لبيعها للدبّاغين، وهناك عمّال نظافةٍ يكشطون الرمد والفحم ثم يبيعونه سمادًا، وهناك كنّاسو الطريق الذين يكنسون الأرض من أمام المارة، لكنّهم مهما عملوا واجتهدوا، تظلّ أكوام الطين والروث تتراكم هنا وهناك، ممّا يصعب الإسراع في التنقّل من مكانٍ إلى آخر سيرًا على الأقدام. ذات مرّة، وبينما كان آرثر يقترب من شارع غريت رسل، رأى عربةً تندفع نحوه وعجلاتها تثير قذارات الأرض. ورغم أنّه تراجع عنها، لم يستطع أن يمنع تلطيخ ملابسه. وذات يومٍ آخر، انشغل آرثر بمجموعةٍ من الموسيقيّين الذين كانوا يعزفون على الأورغن اليدوي وآلة الهردي غردي<sup>(\*)</sup>، فانزلق على قشر خضار، وسقط على كومة نفايات. في كلتا المرّتين أضع وقتًا ثمينًا في تنظيف نفسه من ماءٍ يقطر من مضخةٍ قريبة، لكنّه مع ذلك لم يتخلّف عن ذهابه إلى المتحف.

كما تشكّل قواعد اللياقة عوائق أخرى لآرثر. فمثلما ينبغي للسيدة أن ترفع ثوبها قليلًا حين تعبر الشارع، دون أن تُظهر شيئًا فوق كاحلها، ينبغي للسيد أن يفسح لها الطريق، وينبغي للصغار أيضًا أن يفسحوا الطريق للمسنّين. وهذه القواعد تقلّل من سرعته بالتأكيد.

---

(\*) آلة الهردي غردي (Hurdy-Gurdy): آلة وتريةٌ صغيرةٌ محمولةٌ تشبه الكمان.  
(المترجم)

في ذلك الوقت، كان موظفو المتحف البريطاني حائرين من هذا الفتى المدهوش الذي يأتي كل يوم لاهثاً، بشعرٍ أشعث من أثر الريح. يراقبونه وهو يومئ إيماءة خجولاً للموظف عند المدخل قبل أن يهرع إلى معرض الآثار الآشورية، فيتوقف أمام الألواح، جامداً كالتمثال، وقد قرب وجهه من الخزائن الزجاجية لدرجة انعكاس أنفاسه على سطح الزجاج. وبعد أربع عشرة دقيقة تماماً، يندفع خارجاً بعجلةٍ غير لائقة. يتساءلون في أنفسهم عما إذا كان الفتى المسكين خفيف العقل، وإن كان كذلك كيف يمكنهم أن يمنعه بلطفٍ عن هذا السلوك الغريب المزعج. يسأل بعضهم إن كان ينبغي لهم إبلاغ الشرطة لإنهاء الأمر، لكنهم في نهاية المطاف يقررون إخبار رؤسائهم، فتُحال المسألة إلى القيم على الآثار الشرقية.

وفي عصر يوم الخميس، في الساعة المعتادة، يندفع الفتى إلى معرض الآثار الآشورية، فيجد الدكتور صمويل بيرتش في انتظاره، بعينين متوهجتين داكنتين تحت بياض شعره.

— «مساء الخير يا فتى».

يُشرق وجه آرثر، رغم إدراكه بأن هذا العالم لم يعرفه. يردُّ التحية بإيماءة مترددة، حائراً بين تذكيره بالحوار الذي دار بينهما قبل سنوات، وبين الإسراع في إنهاء هذا الموقف الذي قد لا يكون محموداً. لم تبق لديه سوى ثلاث عشرة دقيقة، ورغم أنه يؤدّ التحدث إلى عالم الآثار المعروف، فإنَّ في الحديث تشتيتٌ وضياح وقتٍ لا يملكه.

- «حدّثني الموظفون عنك. يقولون إنَّك تبدو منبهراً بالكتابة المسماريّة. أقصد العلامات على الألواح الطينيّة من بلاد ما بين النهرين».

- «إنّها ساحرةٌ يا سيّدي».

يضيق الرجل عينه وكأنّه يحاول أن يقيس صدق الفتى، فيتغصّن جبينه. «يفتنني اهتمامك هذا يا فتى، فهو أمرٌ غير عاديٍّ على الإطلاق، لا سيّما لشخص في مثل سنّك، رغم أنّك تثير القلق بين زملائي. هلّا تطلّفت بإطلاعي على مغزاك من هذا؟».

فيسأله آرثر دون أن يحوّل عينه عن الألواح: «ولماذا؟».

- «عفوًا؟».

- «لماذا أثير قلقهم؟».

- «آه.. لنقل إنّ الناس مجبولون على الخوف من المختلفين، أو من يبدون كذلك، وهذا الوصف ينطبق عليك تمامًا يا فتى».

يُبعد آرثر عينه ببطءٍ عن الخزائن الزجاجيّة، ويلقي نظرةً متفحّصةً على الرجل. «أنت الذي دعوتني للمجيء إلى هنا لرؤية الحيوانات الحجرية المجلوبة من نينوى».

- «أنا؟».

- «نعم يا سيّدي، قبل أربع سنواتٍ وأربع عشرة أسبوعًا، ويوم واحد. في عصر ذلك اليوم الذي حُمل فيه لاماسوان اثنان على أدراج المتحف. في تلك الأثناء تحدّثنا. في الثاني عشر من تشرين الثاني / نوفمبر. كان يوم الجمعة».



يصمت الرجل برهةً كأنَّها دهر. «لقد غاب الأمر عن ذهني، لكنِّي الآن تذكَّرت ذلك الصبِّي الغريب». ينظر إلى الفتى، يتأمَّل الشعيرات الخفيفة على شاربه، والشعر الناعم على وجنتيه. «لقد طالت قامتك كثيرًا».

فينقل آرثر وزنه من قدم إلى أخرى، ويقول: «المعذرة، لا أقصد أن أكون وقحًا، ولكن لَدَيَّ تسع دقائق فقط لا أكثر».

ثم حوَّل انتباهه مرَّةً أخرى إلى الألواح، دون أن ينتظر ردًّا من الرجل. هي الأشكال الإسفينيَّة نفسها على جميع الألواح. بعضها أفقيّ، وبعضها عموديّ، وأخرى مائلة. وقد اقتنع آرثر تمامًا بأنَّ هذه طريقةٌ تختلف كلَّ الاختلاف عن الأبجديَّة، فهي لا تحتوي على حروفٍ تمثِّل أصواتًا مفردةً أو صوامت، بل بها رموزٌ مكوَّنةٌ من عدَّة علاماتٍ تقسِّم النصَّ إلى مقاطع. ولكن بما أنَّه لا توجد فجواتٌ واضحةٌ بين الكلمات، فمن الصعب تحديد أين تنتهي الكلمة وأين تبدأ الأخرى. لكنَّ بعض العلامات تبدو وكأنَّها كلماتٌ كاملة، ممَّا يساعد على اكتشاف معناها. هكذا انحنى فوق الخزانة الزجاجيَّة، يتأمَّل القطع الأثريَّة، وجميع حواسِّه تترقَّب بارتعاش.

يراقبه القيمُّ على الآثار الشرقيَّة مأخوذًا، فقد نسي الفتى وجوده تمامًا من شدَّة تركيزه. تتحرَّك شفتاه الآن، وكذلك إصبعه، يتتبَّع الأسطر على الألواح من وراء الحاجز الزجاجيِّ. فالفتى لا يحدِّق في الألواح، بل يقرؤها! هذا الفتى الطويل النحيل ذو

الملابس الفضفاضة (الخفيفة بالنسبة إلى هذا الطقس) يفكّ شفرة لم يقدر عليها سوى حفنة من كبار العلماء. يتوقّف الزمن، ويبدو وكأنّ لا شيء يتحرّك أو يتنفس. أو ربّما يتحرّك الجميع، من بشرٍ وقطعٍ أثرية، في تناغم تامّ. كلّ شيء يتحرّك في تزامنٍ نادر.

يسوّي آرثر كتفيه ويتنهّد إذ يعود من غيبوبته. لقد انتهى واجبه لهذا اليوم، وها هو يسير نحو الباب.

– «هل ستغادر؟».

فيقول آرثر وقد ذُعر حين أدرك أنّ الرجل ما يزال واقفاً هناك: «أوه، أنا آسفٌ جدّاً. عليّ أن أعود إلى عملي».

«مهلاً، من فضلك. كنت... هل فعلاً كنت...». يتوقّف الرجل، ثم يحاول ثانية: «هل يمكنك قراءة الألواح يا فتى؟».

فيردّ آرثر بصدق: «بضع كلماتٍ فقط هنا وهناك يا سيّدي».

– «هلاً تلطّفت وأريتني كيف تقرأها؟».

ينظر الفتى إلى ساعته. سيتوجّب عليه أن يركض كي يصل إلى المكتب في الوقت المحدّد، لكنّه لا يودّ أن يكون وقحاً. كما أنّ هناك شيئاً في داخله يودّ أن يُشرك الآخرين في اكتشافه، فيومي للرجل موافقاً.

يستهلّ آرثر كلامه بذكر الخبراء الذين درس أعمالهم في وقت فراغه. فهناك القسّ الإيرلندي إدورد هنكس، والعالم الفرنسيّ الألمانيّ اليهوديّ معلّم النحو جورج فردرك غروتفند، لكنّه أفاد كثيراً من أبحاث السير هنري رولنسن. يقول آرثر إنّّه جمع الأدلّة من أبحاثهم، فتوصّل إلى استنتاجٍ خاصّ مفاده أنّ الكتابة

المسماريّة ليست أبجديّةً تمامًا، بل مجموعةٌ من المقاطع.

يأخذ آرثر نفسًا، ثم يواصل: «لقد أدركتُ أنّ كلّ مجموعةٍ من تلك العلامات رمز، وكلّ رمزٍ يمثل صوتًا معيّنًا، أو بالأحرى صوتًا مقطعيًا. قد يكون الأمر صوتيًا بحثًا، وقد يعني شيئًا ما. هكذا تعلّمتُ مثلاً كيف يُكتب «الملك آشوربانيبال». من هنا جاء اهتمامي بهذا اللوح، إذُ أعتقد أنّه كان رسالة».

ينحنيان معًا نحو الخزانة الزجاجيّة، يحدّقان فيما بداخلها. «رسالةٌ كتبها الملك نفسه؟».

- «لا يا سيّدي. بل هي رسالةٌ من شخصٍ مقرّبٍ منه. انظر إلى تلك العلامات. تخميني هو أنّها تُلفظ «أب»، وما بعدها «لوغال»، فتُقرأ معًا «مستشار الملك». وهذا ما يدفعني إلى استنتاج أنّ من كتب هذه الرسالة كبيرُ المستشارين في قصر نينوى».

يرتفع حاجبا الرجل في دهشة، وهو يتلعثم بحثًا عن الكلمات. «و، اممم، إلى من قد تكون أرسلت؟».

- «هذا هو السؤال الذي يحيرني. يبدو أنّها كانت موجّهةً إلى أخ آشوربانيبال، لكنني لم أستطع التوصل إلى أكثر من ذلك. هل كان بينهما خلاف؟ هل كانا عدوّين ربّما؟ هل كان كبير المستشارين غاضبًا من آشوربانيبال؟ احتاجُ إلى قضاء وقتٍ أطول مع اللوح حتى أتأكّد».

يستشعر الفتى من صمتِ الرجل أنّه لا يصدّق ما يسمعه،

فيخفض بصره وقد تحوّل مزاجه من الاعتزاز إلى الخوف. بريق من عرقٍ يبلل جبينه وهو يسير نحو المخرج.

- «عليّ العودة إلى العمل. نهارك سعيدٌ يا سيّدي».

«مهلاً، انتظر من فضلك». يتخفّف القيم على الآثار الشرقيّة من الرسميّة ويسرع خلف الفتى. «مذهل، هذا الذي فعلته». يتنفس آرثر بحدّة.

- «كنّا نبحث عن شخصٍ يساعدنا في ترتيب الألواح. لا بدّ أنّك لاحظت أنّها مرتّبة على نحوٍ عشوائيٍّ، إن جاز القول إنّها مرتّبة. بعضها ما يزال مغطّى بالتراب. تحتاج الألواح إلى فرزٍ وترتيب، رغم أنّنا لم نتوصّل إلى نظام محدّد بعد. بما أنّك مهتمّ بهذا الأمر ولديك موهبةٌ غير عاديّة، هل تودّ أن تساعدنا؟ يمكننا أن نقدّم لك مكافأةً مقابل مجهودك».

تلين الخطوط التي تشكّلت على جبين آرثر شيئاً فشيئاً. ينظر إلى الرجل بفمٍ فاغر، محاولاً تحديد ما إذا كان يمزح معه. فلمّا تبين صدق الرجل، ارتسمت على وجهه ابتسامة.

- «نعم سيّدي. يسعدني ذلك جدّاً».

قَبْل آرثر هذا العرض دون أن يفكّر فيه مليّاً، وما إن غادر المتحف حتى أدرك التبعات المترتبة على ما وافق عليه. كيف سيستطيع الجمع بين وظيفتين في الوقت نفسه؟ ليس مستعدّاً على الإطلاق للتخلّي عن عمله في دار برادبري وإيفنز، ذلك المكان الذي يوسّع مداركه ويوفّر له أجراً منتظماً. لكنّه في الوقت نفسه

لا يستطيع أن يرفض عرض المتحف البريطاني، وفرصة أن يمسك ألواح نينوى بيديه. لا يوجد حلٌ سوى أن يتخلّى عن الاستراحتين القصيرتين (في الصباح وفي العصر)، ويطلب بإضافة هذا الوقت إلى استراحة الغداء. في هذه الحالة، سيتوجّب عليه التخلّي عن الطعام تمامًا، والجري من المكتب إلى المتحف. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن يؤدّي وظيفته. سيركض بأقصى سرعةٍ تتحمّلها ساقاه. هكذا راح يختبر الأمر، ويتأكّد من المدّة التي يستغرقها الجري بين المكانين. ثماني دقائق وعشرون ثانية للوصول إلى بوابة المتحف، وثمانية دقائق وأربع وعشرون ثانية للعودة، شريطة أن يتجنّب أيّ حوادث في الطريق.

في ذلك الربيع، أصيب المشاة والباعة الجائلون في «كوفنت غاردن» بالدهشة من هذا الشاب الذي يمرّ مسرعًا من جانبهم، ينطلق عبر الطرقات المزدحمة والأزقة القذرة، ويقفز فوق أكوام القمامة، يتجاوز الباعة الجائلين فوق الأرصفة، والرجال بقبعاتهم العالية وبناطيلهم الضيقة، والنساء بتنانيرهنّ المنتفخة وصداراتهنّ الضيقة والقبعات الأنيقة، فيعتذر بشدّة لمن يصطدم بهم دون قصدٍ وهو يندفع مسرعًا.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

تنظر زليخة من النافذة، في سيّارة الأجرة السوداء التي طلبها خالها مالك، تراقب المشاة ورغّاب الدراجات، والمطاعم التي تمرّ سريعاً في تيّارٍ من الأضواء المشوّشة. لم تكن لندن بالنسبة إليها عاصمةً للعمارة المتينة والنصب التاريخية والحدائق العامة الوارفة، بل مدينةً نَحَتْها الماء، وصقلها المدُّ والجريان، مستودعاً لا ينتهي من الذكريات النهرية، مُحي بعضُها، والبعض الآخر مكبوت، وثمة ذكرياتٌ أخرى ما تزال تتدفّق بقوة، مثل أنهارها العديدة وروافدها.

لا يخلو مكانٌ من تلك الأنهار الخفية.

فهناك نهر فليت مثلاً، أكبر أنهار لندن الجوفية وأهمها، والذي يُسمّى «النهر الأجوف». كان ذات مرّة حوضاً واسعاً وشریاناً مهمّاً يجلب البضائع والأعمال إلى العاصمة، وعانى مراراً من معاملة البشر، فاختنق وتلوّث بالجثث الملقاة فيه والأحشاء المتعفّنة من أسواق اللحوم والمدابغ المصطفّة على ضفافه. وعلى حين غرّة، بات للناس نهراً قذراً كريه الرائحة، ومقرّزاً لم تعد منه فائدة. ولإخفائه عن الأنظار، ارتأى الناس أن يغطّوا قبحه تحت أكوام من الطوب، وظلّ مدفوناً لما يقرب من مئة وخمسين عاماً، إلّى أن أعيد اكتشافه وفتحته، ودفنه مرّة أخرى. كان نهراً أسطورياً، فأصبح قناةً مفتوحةً للمجاري، ثم قناة لا غاية لها، ثم قناة للمجاري من جديد، إلى أن نسيه الجميع تقريباً. لكنّه ما يزال حيّاً، شبحاً مائيّاً يرفض الموت.

ثم هناك نهر إفرا في جنوب لندن، ذلك النهر المخبوء المُقنطر، الذي بات في أيّامنا هذه قناةً لتصريف المياه والنفايات، يسري في صمت، لا تحت المنازل والمكاتب وحدها، بل تحت المقابر أيضاً، ينبش توابيت المدفونين ويجرفها معه. وهناك أيضاً نهر تايرن، ذاك الذي كان في الماضي السحيق مصدراً لسّمك السلمون اللذيذ، وإن كان نادراً ما يُذكر اليوم، إذ يتدفّق غير مرئيٍّ ولا مسموع تحت معالم المدينة. أمّا نهر والبروك، الذي كان ذات يوم نهراً أزرق كالياقوت يجري عبر حصن لندينيوم الروماني إلى نهر التمز، متلاًلّاً كجناح يعسوب، يزوّد السكّان بالماء العذب، فلم يعد سوى رافدٍ لمجرى كريه الرائحة.

ثم هناك نهر وستبورن الساحر العجيب: «النهر المَلَكِيّ».

فحين عجز مهندسو العصر الفكتوريّ عن إيجاد طريقة لبناء محطة مترو فوق النهر، جعلوا النهر يجري عبر المحطة نفسها. وها هو اليوم يتدفّق عبر أنبوبٍ فوق أرصفة محطة سلون سكوير، بعيداً عن أنظار آلاف المسافرين، مخبوءاً أمام أعينهم، بعد أن دُفِن في طين لندن كي يُفسح المجال لشرفات تشلسي وبلغريفيا المُترفة من فوقه. صمد هذا النهر في وجه العواصف، بل في وجه قبلة إبان الحرب العالميّة الثانية. كلّ هذي الأنهار هناك، تتقلّب تحت الأرصفة الإسمنتيّة والشوارع المُعبّدة بالقارّ، تهدر وتندفع تحت طبقاتٍ من الخرسانة والطوب، مدفونةً تحت رواسب التاريخ ووطأة النسيان.

تتّكئ زليخة إلى الخلف، وتغمض عينيّها لحظة، وكأنّها ترجو أن تسمع صوت الماء وسط ضجيج المرور. ثم تنحني إلى الأمام في نزوة مفاجئة وتقول للسائق: «من فضلك!». لكنّ الرجل منهمكٌ في الحديث على الهاتف، فلم يُجب في الحال.

فتقول زليخة بصوتٍ أعلى: «المعذرة. لقد غيّرتُ رأيي. هل لك أن تأخذني إلى مكانٍ آخر؟». انتبه إليها الآن بكلّ حواسّه، فنظر إليها عبر مرآة السيّارة. «كان العنوان المحدّد هو البيوت العائمة عند الشاطئ. لن تذهبي إلى تشيني ووك إذن؟».

«نعم، كنتُ سأذهب، لكنّي غيّرتُ رأيي». تعطيه اسم حيّ في جنوب شرق لندن، في شارعٍ من المستودعات المحوّلة إلى شقق.



فيومئ برأسه، لكنّها تلاحظ من المرأة شيئاً من الريبة في عينيّه .

فلَمّا وصلت زليخة إلى مبني من طابقيّن من الطوب المُغبرّ بلون المُغرة في بيرموندزي، كان ضوء الشفق قد نضب في العتمة. على الباب لافتة معدنيّة كُتب عليها مركز علوم البيئه والهيدرولوجيا. معهدٌ مستقلٌ غير ربحي للبحث في الكيمياء الحيويّة الجيولوجيّة، ودراسات المياه، والتنوّع الحيويّ. يتناقض المبنى تمامًا مع الأناقة الباذخة في بيت الخال، بسطحه المستوي، وطابعه العمليّ الباهت، وخلوّه من الزخارف.

تفتح الباب، تخطو إلى الممرّ فتتناهى إليها تلك الرائحة المألوفة، رائحة الأرضيّة المعقّمة. المساحة كلّها مقسّمة بحكمةٍ إلى غرفٍ صغيرةٍ ومقصوراتٍ متواضعة، باستثناء مناطقٍ مشتركةٍ أكبر لاجتماعات الفريق. ثمّة أغراضٌ قليلةٌ متناثرةٌ هنا وهناك: ملاحظاتٌ لاصقة، واقتباساتٌ مُلهمة، وبطاقاتٌ بريديّةٌ مُثبتةٌ على لوحاتٍ من الفلين؛ أكوابٌ عليها عباراتٌ مضحكة، ونباتاتٌ ريّانةٌ في أوعيةٍ خزفيّةٍ... هي البساطة المعروفة في أغراض المكاتب. حتى وإن كان في الأمر إلغاءٌ مقصودٌ للفرديّة، فإنّ زليخة لا تجد في ذلك ما يدعو إلى النفور. فالمكان مصمّمٌ لتحقيق مسعى جماعيّ، لا لإرضاء النفس.

تمشي بتؤدة، يتردّد صدى خطواتها في المبنى الخالي. على الباب الأخير من اليمين لوحةٌ تحمل اسمها: د. زليخة كلارك.

تُحدِّق في اللوحة لحظة. كانت قد غيَّرت اسم العائلة حين تزوّجت، والأرجح أنّها ستغيّره مرّة أخرى. إذ يُنتظر من النساء أن يصبحن كالأنهار؛ يتكيّفن مرّة بعد مرّة، ويغيّرن أشكالهنّ.

لعلّه من الأسهل أن نبرّر لأنفسنا وللآخرين انتهاء علاقة ما، حين يكون هناك سببٌ محدّد، ملموس، مهما كان مؤلماً. غير أنّ الصعب هو أن ندرك التبخّر التدريجيّ للحبّ، حين يغدو فقدًا بطيئًا وخفيًّا لا يكاد يُكتشف، إلى أن يزول تمامًا. ها هي الآن تشعر وكأنّها في قطارٍ ليليّ، تستيقظ وترفع الستائر، لتجد مناظر غريبة كانت هناك طول الوقت. بيد أنّها لا تستطيع أن تُسدل الستار مرّة أخرى.

تكاد تبلغ الحادية والثلاثين من عمرها. لا أطفال لديها، ولا والدين. في مثل هذا الوقت من العام الماضي، كانت متيقّنة من أنّ زوجها هو عائلتها. كان زملاؤهما من باب المجاملة يقولون دائمًا إنّهما متناسبان تمامًا، لكنّ العبارة نفسها تُعدّ طريقةً مهذّبةً للقول إنّ أحدهما لم يكن ليجد أفضل من الآخر. وليس في ذلك أيُّ بعدٍ عن الواقع؛ إذ يبدو أن للناظر زوجين متناغمين، وقد كانا كذلك حقًّا في بعض الأحيان، لو أنّها كانت تملك القدرة على السعادة. لكنّها تعرف أيضًا أنّ نسيج زواجهما قد بليّ في مواضع كثيرة، ولم يكن يحتاج إلى أكثر من سحبةٍ حادّةٍ واحدةٍ كي يتمزّق.

تدخل زليخة مكتبها. مكتبٌ صغيرٌ وبسيطٌ لكنّه نظيف. على الحائط المقابل ملصق، صورةٌ بالأبيض والأسود لقطرة ماءٍ واحدة. للوهلة الأولى، تبدو وكأنّها قطرةٌ تسقط من ارتفاعٍ شاهقٍ

في بحيرة أو مصبّ نهر، لكنّها يمكن أيضًا أن تكون قد انبثقت من أعماق محيط، تصاعد نحو السماء.

الجدران عارية، إلّا من تلك الصورة. أوراق بحوثها مرتّبة في ملفّاتٍ على المكتب، إلى جانب وعاءٍ من أقلام الرصاص، كلّها مبرّئة بعناية. شجرةٌ من نوع تين الكمان تتدلّى بفتورٍ قرب النافذة، وقد ظلّت على شكلها الأصليّ المتقرّم رغم أنّ زليخة بذلت قصارى جهدها في الاعتناء بها. على الجانب الأيسر أريكةٌ بلون الأردواز، مُترعةٌ هي الأخرى بالأوراق والملفّات. لحسن الحظّ أنّ خالها لم يزر مكان عملها قطّ؛ فسوف يُحبط من كآبته. لكنّها تحبّ وظيفتها، وتعتزّ بهذه المساحة التي تستطيع أن تعتبرها مُلكها.

تُزيح الفوضى عن الأريكة. وهناك تحت دفتر المسودات، ترى ملاحظةً مثبتةً بمشبك ورق، وكأنّها خاطرٌ متأخّر.

### كيف تدفن نهرًا

- 1 - ابن قناتين خرسانيّتين على جانبيّ النهر.
- 2 - أضف سقفاً لهما.
- 3 - طوّق النهر تمامًا من جوانبه الثلاثة، حتى يصبح تابوتًا طويلًا متعرّجًا.
- 4 - غطّ السقف بالتراب، حتى لا يبقى أيّ أثر.
- 5 - ابن مدينتك فوقه.
- 6 - انسَ أنّه كان هناك يومًا.

لا تذكر زليخة متى كتبت ذلك. لا بدّ أنّها خربشت تلك

السطور في لحظة شرود. تكوّر الورقة وترميها على قاب قوسين أو أدنى من سلّة المهملات.

ثمّة صورٌ في براويز فضيّة على رفّ خلف مكتبها، وسط مجموعاتٍ من الكتب المكدّسة في كلّ اتّجاه. الصورة الأولى لها مع زوجها، في شهر العسل في مراكش، جالسين تحت شجرة تتدلّى رماناتها الناضجة القرمزيّة فوق رأسيهما، بعد نزهة في أسواق المدينة العتيقة. يبدوان سعيدين بلا اكتراث، مُنهكين وقد سفّعتهما الشمس. الصورة التالية لها وهي أنحف وأصغر سنًا، في حفل تخرّجها في الجامعة. تنحني فوق مائدة فاخرة بفخرٍ واضح في ملامحها، في صحبة خالها مالك وزوجته وهلين، يرفعون الكؤوس في نخب نجاحها. إلى جانب ذلك صورةٌ والديها. يُبدي والدها ابتسامته الساحرة المعهودة، وعيناه متجعدتان عند الزوايا. وإلى جانبه والديها تبتسم للكاميرا، شعرها منسدلٌ على كتفها في ضفيرةٍ طويلةٍ داكنة. ترتدي فستانًا أخضر مشدودًا عند الخصر، ويوحى انحناءٌ بسيطٌ في بطنها بالأشهر الأولى من الحمل. يخطر لزيخة أنّ هذا هو الشكل الذي ستبدو عليه والدتها لو أنّها ظهرت يومًا في أحلامها.

أمّا البرواز الرابع، الأصغر حجمًا، فهو مخبوءٌ في مؤخرة الرف. صورةٌ لزيخة في مؤتمرٍ في دبلن مع رجلٍ طويلٍ نحيفٍ في الخمسينيّات من عمره. إنّه معلّمها، وزميلها، وصديقها. كان البروفيسور بيرنبرغ عالمًا بارزًا في الهيدرولوجيا والكيمياء الحيويّة وعلم المناخ، محترمًا للغاية في مجاله. لم يكن معروفًا بذكائه اللامع وإسهاماته العلميّة فحسب، بل بلطفه وكرمه تجاه الموظّفين

والطلّاب أيضًا. تعاونا في مشاريع متنوّعة سنواتٍ طويلة، إلى أن غادر المعمل وحيدًا مذموماً.

ففي أواخر حياة البروفيسور، استحوذت عليه فرضيّة أطلق عليها في ملاحظاته اسم «الذاكرة المائيّة». كان يقول إنّ الماء (هذا المُذيب الكونيّ) يحتفظ في ظروفٍ معيّنة بأدلة، أو «ذاكرة»، لجزيئات المُذاب التي انحلت فيه، مهما تكرّر تخفيفه أو تنقيته. حتى وإن مرّت سنوات، أو قرون، ولم يتبقّ جزيءٌ أصليّ واحد، تحتفظ كلّ قطيرة ماءٍ ببنيةٍ فريدةٍ متميّزةٍ عن الأخرى، موسومةٍ إلى الأبد بما احتوته ذات يوم. بعبارةٍ أخرى، الماء يتذكّر.

استولت تلك الفرضيّة عليه، فترك كلّ أبحاثه الأخرى، ووسّع فريق العمل حتى وظّف علماء أحياء وكيميائيّين ومتخصّصين في علم المناعة، كي يعملوا جنباً إلى جنب مع علماء الهيدرولوجيا. كان مقتنعاً بأنّهم لو استطاعوا إثبات أنّ الماء يمتلك ضرباً من الذاكرة، فسيكون لهذا تداعياتٌ ثوريّة، لا في علم المياه وعلم الأحياء فحسب، بل في الطبّ أيضًا والمعالجة المثليّة والآراء التقليديّة المتعلّقة بالشفاء. فلمّا رضي عن النتائج التي توصّل إليها، أرسل استنتاجاته إلى مجلّاتٍ علميّةٍ محكمة، ووافقت إحداها على نشر بحثه.

ولم يكد يُنشر البحث حتى جاء ردّ الفعل العنيف، متبوعاً بتيّارٍ من التشكيك. قيل إنّ حججه ضعيفة، ولا يوجد ما يكفي من الأدلة لدعم استنتاجاته. وما زاد الطين بلّةً أنّ الباحثين المستقلّين حين أعادوا تجاربه في ظروفٍ معمليّةٍ مماثلة، لم يستطيعوا تأكيد نتائجه. فتحوّل التشكيك إلى إنكار، وتحوّل

الإنكار إلى رفض، والرفض إلى سخرية. لم يتراجع بيرنبرغ، وأصرَّ على صحَّة منهجه. وكلَّمَا تمسَّك بموقفه، زاد انتقاده بعنف. تَلَطَّخت سمعته، وتعرَّض لسقوط سريع. كفَّ الأصدقاء القدامى عن الاتِّصال به، وانفضَّ الباحثون الشباب عنه. هكذا بات منبوذاً، وخسر معمله وتمويله. غير أنَّه واصل بعناد، وانتقل إلى قبو منزله، فلمَّا نفذت آخر منحةٍ لديه، غطَّى كلَّ تكاليف بحثه من جيبه الخاصِّ. كان يعمل في قبوه بوسائل محدودةٍ وموظَّفين قلائل، إلى أن وُجد على الأرض صباحاً قبل عامين، وقد فارق الحياة إثر نوبةٍ قلبيةٍ.

ومنذ ذلك الحين، أصبح نهراً خفياً في حياة زليخة، قابلاً في الزوايا المظلمة من ماضيها. نادراً ما تذكر اسمه، رغم أنَّها تفكَّر فيه كثيراً. فقد كانت الذاكرة المائيَّة موضوعاً خلافياً بالنسبة إليها، على المستوى المهنيِّ والشخصيِّ. كان زوجها يرى أنَّ البروفيسور الراحل قد ضلَّته تحيُّزاته اللاواعية (رغم حسن نواياه)، فرأى في النتائج ما تمنَّى أن يراه. أمَّا زليخة فكانت مقتنعةً بأنَّ هناك حاجةً لمزيدٍ من الدراسات لفهم الماء وشذوذاته العديدة، وحتى ذلك الحين سيكون من السخف القول إنَّ بيرنبرغ كان واهماً، مثلما من السخف الإيحاء بأنَّه انتصر في معركته.

ظلَّت زليخة فترةً بعد وفاة البروفيسور تُكمل تجاربه، دون أن تخبر أحداً. كانت النتائج غالباً مربكة، لا هي مستقرَّة ولا واضحة. كانت تشعر أحياناً أنَّها توشك على إثبات الفرضيَّة، وفي أحيانٍ أخرى تشكُّ في الفرضيَّة من أساسها بسبب ضعف البيانات. وبسبب هذا التباين الواسع، كان من المستحيل أن تقدِّم

شيئًا قاطعًا للمجَلَّات المحترمة. ورغم خيبة أملها، واصلت الاختبار وتسجيل النتائج بإصرار، إلى أن اكتشف زوجها الأمر.

- «هل جُننت؟ لم تضيِّعين وقتك في فرضية فاشلة؟».

- «أريد أن أرى إلى أين يأخذني البحث».

- «أوليس الأمر واضحًا؟ لن يأخذك إلى أيِّ مكان. هذا

هراءٌ شاعريّ، وليس علمًا».

- «لعلَّ العلم والشعر عالمان غير متباعدين».

يا لذلك التوهُّج في عينيه، وانحسار صبره فجأة. «لا أعرف ما تحاولين فعله، ولكن من فضلك توقّفي. لمصلحتك. إلّا إذا كنتِ تريدين المخاطرة بوظيفتك. لم أفهم قطّ لماذا أخذتِ ذلك الرجل على محمل الجدّ. عذرًا، لكنّه كان مثيرًا للشفقة. من الواضح أنّه كان يفقد عقله».

وحينها أخبرت زليخة زوجها. أخذت تشرح له ببطء كم كان يعني لها ذلك العالم الراحل، وكيف أنّها لم تكن مستعدةً للتخلّي عن نظرية الذاكرة المائيّة. قالت له إنّها تشتاق إلى العمل مع بيرنبرغ، ثم باحت بشيء ظنّت أنّها لن تنطق به أبدًا. كان بيرنبرغ في بادئ الأمر معلّمها، وزميلًا مقربًا وصديقًا حميمًا، لكنّها في مرحلة بين تلك المراحل وقعت في حبّه، فترةً عابرة.

- «في حبّه؟».

- «نعم، لكنّ هذا كان قبل أن ألتقيك. قبل أن نتزوَّج. كنتُ

أعرفه منذ زمنٍ طويل».

قليلةٌ هي الأشياء التي تقسّي قلب البشر بسرعةٍ تجاري سرعة الغيرة. إذ سرعان ما تستقرّ ببرودٍ وسلطةٍ في تلك البقعة الدافئة

التي رحل عنها الهوى، فتجمّدها بلمسةٍ مريّة.

- «ظللتِ إذن تعملين مع حبيبك السابق طول تلك السنوات، ولم تفكرى حتى في إخباري؟».

- «لم يكن حبيبي قط!».

- «فماذا كان إذن؟».

- «لا شيء. كان فقط شخصًا».

- «خاصًا؟».

- «لا، ليس هكذا. كان مختلفًا... فهمت؟».

- «تقصدين مختلفًا عني؟».

- «برايّن. ليس هذا ما أعنيه».

لم يفاجئها ذلك الصمت الذي حلّ بينهما، لكنّها لم تكن مستعدّة لغضبه الذي بدا قريبًا جدًّا من الكراهية.

- «لا أصدّق أنّك أخفيتِ هذا الأمر عني، وأنّ تعرفين كم تخليتُ عن أشياء من أجلك».

ها هو مرّة أخرى، الجدال الوحيد الذي لا حلّ له بينهما، ينتظر الفرصة كي يطلّ من جديد.

- «لماذا تتحدّث عن هذا الأمر الآن؟ كنتَ تعرف حين تزوّجنا أنّي لم أخطّط قطّ لإنجاب أطفال».

- «أنّ لم تريدي حتى أن ترغبي في أطفال!».

نظرث إليه، تتوقّع أن يدرك غرابة ما قاله، لكنّه في تلك اللحظة رفع ذقنه وقال: «لم تقبلي أن تنجبي منّي، لكنني أراهن أنّك كنتِ ستنجبين أطفالاً منه».



وما هي إلا دقائق قليلة حتى جمعت زليخة بعض متعلقاتها، ووضعتها في صندوق، ورحلت.

\*\*\*

ستبيت في المختبر هذه الليلة مرةً أخرى، لكنّ هذا لا يزعجها ما دامت معها حبوبٌ منومة. تبتلع حبّتين بقليلٍ من الماء من ترمس، ثم تبحث في الخزانة عن بطّانيةٍ تحتفظ بها لأوقات كهذه. تُخرج الكتاب الذي استعارته من خالها مالك. كانت تودّ أن تبدأ قراءته الليلة، لكنّ أجفانها تنغلق. لذلك تلفّ سترتها عليه، كي يكون نينوى وآثارها وسادتها هذه الليلة. لعلّها تحلم باللاماسوات ذات الرؤوس البشريّة وأجنحة الطيور، وهي تهبط بريشها من الغيوم المحمّلة.

تطفئ الأنوار، فتهاجمها في الظلام ذكرى، بلا دعوة أو استئذان. كانا يحزمان أغراضه، معاً، يوم غادر بيرنبرغ المكتب. كانت درجة الحرارة قد انخفضت في ذلك الصباح، فتكثّفت أنفاسهما أمام أعينهما. سألته إن كان قد ندم يوماً على دراسة «الذاكرة المائيّة»، نظراً للثمن الذي دفعه لاختيار موضوعٍ مشيرٍ للجدل كهذا.

– «ولا ثانيةً واحدة. أردتُ أن أبحث في خاصيّة مجهولة في الماء، وكلّ لحظةٍ من هذا البحث عزيزةٌ عليّ».

– «لكنّه كلّفك الكثير».

– «صحيح... لكنني أنا وأنتِ نحبّ هذا العمل الذي نقوم به، وهذا الحبّ يتجاوز كلّ نجاحٍ أو فشلٍ شخصيّ. ستكملين من

حيث توقفت. وإن تعثرت، سيتولّى شخصٌ آخر بحثك. نفعل هذا لنُبقي البحث العلمي مستمرًا، بنا أو من دوننا».

تأمل الآن هذه الكلمات، فتنكمش على نفسها وتحتضن ركبتيها. الأريكة أقصر منها، ولكن ليس هذا ما يزعجها. فهي تشعر بالذنب لأنّها لم تخبر بيرنبرغ قط كم كان يعني بالنسبة إليها، وتشعر بالذنب لأنّها أخبرت زوجها كم كان بيرنبرغ يعني بالنسبة إليها. لقد صمتت حين كان عليها أن تتكلّم، وتكلّمت حين كان عليها أن تصمت. في كلتا الحالتين، كان الذنب رفيقًا الأوفى. والندم أيضًا، لا على ما فعلته، بل على ما عجزت عن فعله. لقد انجذبت إلى تفاني بيرنبرغ ومثابرتة، في إخلاصٍ يخلو من الأنانيّة لدرجة أنّه لا يسعى إلّا إلى خير ما يخلص له، والتزام مفرطٍ لعلّه يُلاحظ عند المتصوّفة والزهاد القدامى أكثر ممّا يجده المرء في مقرّات العمل الحديثة.

وبينما هي تغمض عينيها، تنتظر أن تغوص في نوم مُخدر، إذا بها تسمع تموجًا لطيفًا من بعيد. كلّها هناك. أنهار الزمن المفقودة، بعيدة عن الأنظار والأذهان، لكنّها ملحوظة في غيابها، كأشباح أطرافٍ ما تزال قادرة على إحداث الألم. إنّها هنا وفي كلّ مكان، تنخر البنى الصلبة التي بنينا عليها مهنا وزيجاتنا وسمعتنا وعلاقاتنا، تتدفّق إلى الأمام أبدًا، بنا أو من دوننا. تُدرك زليخة أنّها قد لا تكون واحدة منهم، لكنّها ستظلّ تنجذب دائمًا إلى من ينجذبون إلى شيءٍ أكبر وأفضل من أنفسهم، في شغفٍ يدوم مدى الحياة، رغم أنّه سوف يقضي عليهم في نهاية المطاف.

-O-

آرثر

بجوار نهر التمز، 1857 - 1858

في اليوم الذي وصل فيه الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات إلى المتحف البريطاني بوصفه عضوًا في طاقم العمل، دخل المبنى المهيب بدافع جديد، رغم كونه موظفًا مبتدئًا ومؤقتًا. ينتظره القيم على المقتنيات الشرقية عند مدخل مجموعة نينوى، وإلى جانبه شابٌ آخر.

- «صباح الخير، آرثر. هذا مساعدتي، إدورد».

فيقول إدورد وهو يمدّ يده كي يصافح آرثر: «يسعدني لقاء العبقري الشاب أخيرًا».

يدبُ احمرارٌ على وجنتي آرثر. لا يعرف أبدًا ما إذا كان

الناس يعنون ما يقولونه، فرغم مهارته في فك رموز الكلمات، يعجز عن اكتشاف السخريّة.

لا يفصل بين إدورد وآرثر سوى بضع سنوات، رغم أنّ التباين بينهما واضح للعيان. فإدورد رياضيّ البنية، أنيقٌ وعصريّ المظهر، من عائلة ثريّة رفيعة المكانة، وقد تخرّج مؤخرًا من تخصّص الدراسات الكلاسيكيّة في جامعة أكسفورد. وإلى جانبه آرثر النحيل، بحبّات العرق الظاهرة على جبينه، يبذل قصارى جهده كي يتناسى بقع الطين والروث العالقة بأطراف سرواله، ولكنته وافتقاره للتعليم المناسب.

— «هيا، تعال كي نريك المكان الذي ستعمل فيه».

يقود العالم المسنّ ومساعدته آرثر إلى المحارب الداخليّة في المتحف البريطانيّ. يتردّد صدى خطواتهم عبر الممرّات الرخاميّة وهم يمضون من أبواب مزخرفة وقاعات شاهقة، ويمرّون بغرف تخزين مملوءة من أرضيّتها حتى سقفها برفوف وخزائن مكتظة بقطع أثريّة مرقّمة ومفهرسة ومصنّفة. ينتهي بهم المطاف في غرفة ممتلئة عن آخرها بصناديق خشبيّة، يعرف آرثر لاحقًا أنّ في داخلها أكثر من خمسة وثلاثين ألف لوح جرى التنقيب عنها في بلاد الرافدين ثم سُحنت إلى إنكلترا. كثيرٌ منها مشروخٌ أو مكسور، وبعضها صغيرٌ جدًّا، محطّمٌ ومبعثرٌ كلعبه بالغه التعقيد من ألعاب الصورة المركّبة (puzzle).

لا يتوقّع القيمّ ومساعدته أن يستمرّ آرثر أكثر من بضعة أيّام، بعد أن تتحطّم روحه ويتآكل حماسه من هذا التحديّ الكبير،

لكنهما لا يبوحان بذلك. فالعمل المطلوب منه شاقٌ وغير مجزٍ  
وضئيل الأجر، لكنّه فوق ذلك كلّه مستحيل. إذ يبدو أقرب إلى  
الجنون القول إنّ هذه الفوضى ستقبل شكلاً من النظام.

لكنّ فتى العشوائيّات ظلّ يأتي، يوماً بعد يوم.

\*\*\*

فما يراه الآخرون فوضى، يرى آرثر فيه أنماطاً. وما يروونه  
غريباً مخيفاً يراه هو لغزاً مثيراً ينتظر الحلّ. يأخذ كلّ أسبوعٍ  
صندوقاً آخر من الرفوف، ليجد بداخله كومةً جديدةً من الألواحِ  
المتضرّرة. يبذل جهده في فرز عشرات الشظايا المطبوعة بعلاماتٍ  
مجهولة، باحثاً عن سرديّاتٍ كامنة، عن قصّةٍ تقرّبه من عالم  
القدماء. فلو أنّه استطاع أن يجد نافذةً إلى زمن الملك  
آشوربانيبال، هل سيسمع الريح تهبّ عبر القصب الأجوف في  
مستنقعات بلاد الرافدين، ورذاذ الماء على النخيل، وتنهّادات نهرٍ  
آخر، في مكانٍ بعيد؟

وكلّما صارع آرثر ألغاز الكتابة المسماريّة، ازداد فضولاً  
حول الناس الذين نقشوا تلك العلامات. كيف كانوا؟ وهل كان  
الكتّبة المتدربون يسجّلون ما يُطلب منهم فقط، ولا يرغبون في  
شيءٍ أكثر من أداء واجبهم واتباع القواعد، أو أنّهم تجرّؤوا على  
إضافة صوتهن هنا وهناك، بلمسةٍ شخصيّةٍ؟ وإن حدث هذا، فما  
كان مصيرهم؟

يتخيّل التلاميذ في مدارس الألواح، ما بين توبيخ وضربٍ من  
معلّمين لا يقلّون صرامةً عن أولئك الذين عرفهم. وذات مرّةٍ عثر

على ملاحظة كُتبت على قطعة طين صغيرة ملساء كأنها حصاة من قاع جدول، من ذلك النوع الذي تصنعه الأنهار.

أيقظني / أيقظني باكراً في الصباح.

يجب ألا أتأخر وإلا جلدني معلّمي.

وفي مرة أخرى، اكتشف لوحًا به آثارُ أسنانٍ في الزاوية. لعلّه طالبٌ محبّط في بلاد الرافدين القديمة، منزعجٌ من المسألة الرياضية التي كُلف بها، فعصر على الطين. ها هو ذا غضبه، وإحباطه، وتمرّده الصامت واضحٌ ملموس، حتى بعد آلاف السنين.

ويلاحظ آرثر أيضًا أنّ معظم النقوش تنتهي بالإهداء نفسه،  
لإلهٍ واحدٍ دائماً :

### الحمدُ لنابو

\*\*\*

يُمنح الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات غرفة ضيقة في مؤخرة المتحف البريطانيّ، تطلُّ على «ساحة رَسِل». تصلصلُ نوافذها مع أخفّ نسمة، وثمة تيارٌ يهبُّ من مكانٍ ما، لكنَّ آرثر لا يتذمّر أبداً. يطيب له البقاء هنا بمفرده. ومع كلّ لوح مكسورٍ يُعيد تجميعه، يلتقي شخصيّاتٍ جديدةً تفوق أقصى خياله: ملوكٌ من بلاد الرافدين، وآلهة وإلاهات... وكهنة، وأمناء مكاتب، وموسيقيّون... حاملو كؤوس، وأصحاب حانات، وبناء قنوات... وعرفّافون، ومستحضرو أرواح، ومفسّرو أحلام... تتراكم قصصهم بعضها فوق بعض، مثل حصّى تلتقي في قاع

جدولٍ تتقاذفها تياراتُ أقوى. يفضل آرثر أن يدفن نفسه في طيّات التاريخ البعيد، في أيِّ مكانٍ إلّا هنا والآن. يشعر بقرب أكبر من أهل الماضي عن أهل الحاضر، وبسلام أكثر مع الأشباح عن الأحياء.

لا يخطر في باله أننا ننجذب إلى الحكايات الموجودة أصلاً في داخلنا، تلك التي تنبت وتشقّ طريقها إلى السطح، مثل بذورٍ مستعدّة للإنبات مع أوّل لمحةٍ من الشمس. إنجاز آرثر بطيء ومضن؛ إذ يستغرق الأمر منه أسابيع كي يشقّ طريقه في جزءٍ صغير، رغم أنّه واثقٌ من قدرته على تسريع الأمر إن عمل بجدّ أكبر. حتى الآن، معظم الألواح التي فكّ رموزها كانت متعلّقةً بالبيع والشراء. ففي اللوح الذي يعمل عليه اليوم مطالبةٌ تاجرٍ في نينوى بدفع فوريٍّ لقائمة أغراض: ثلاث وثلاثين جرّة زيت، وأربعين برميل نبيذ، وخمسة وعشرين كيس شعير. هذا كلّ ما في الأمر. لا توجد طريقةٌ يعرف بها ما إذا كانت الفاتورة قد سُدّدت. مع ذلك، فكلُّ نصٍّ مسماريٍّ يُعدّ استثنائياً في عينيّه، مهما كان تافهاً. فمن المدهش أنّه رغم فناء أولئك الضبّاط العسكريين الكبار، والتجار الأثرياء، والعرفّاء الأقوياء، بقيت هذه الألواح الطينيّة البسيطة المصنوعة من ترابٍ وماء. وهذه معجزةٌ بالنسبة إليه.

رغم اعتياد العاملين في المتحف البريطاني والعلماء الذين يقيمون في غرفه الفسيحة على وجود آرثر، فهم ما يزالون يعاملونه على أنّه غريب. ومع ذلك، يستشعر أنّ هناك فرصاً له لم يكتشفها بعد. فهناك تراتبيّة راسخة ونظام صارمٌ للسلطة في كلّ قسمٍ في

المتحف، لا سيّما في الآثار الكلاسيكيّة، أي في الحضارتين  
القديمتين المتشابكتين: اليونان وروما. غير أنّ الأمر يختلف في  
دراسات بلاد الرافدين. فهذا المجال الذي يُعدّ حديثاً وغير  
مستكشفٍ ما يزال غير متبلور، كمعدنٍ سائلٍ ينتظر أن يُصبّ في  
قالب. قد يكون هذا في صالحه، إذ يدرك أنّ شخصاً مثله (يفتقر  
إلى الامتيازات التي تمنحها العلاقات الاجتماعية والتعليم  
الخاصّ) لا يمكنه أن يصل إلى مكانٍ بعيدٍ في التخصصات  
الأخرى التي أغلقت أبوابها أصلاً، وشُغلت معظم مناصبها. أمّا  
في قراءة الكتابة المسماريّة، فما يزال الجميع مبتدئين، حتى أبرز  
الخبراء. ففي ذلك الرواق الآشوريّ، لا فرق بين من تخرّج في  
جامعةٍ مرموقةٍ ومن ترك الدراسة طفلاً. الجميع في الجهل سواءً  
أمام اللوح الطينيّ. وهذا الإدراك لا يزيده إلّا تفانياً في المهمّة  
التي يؤدّيها. هكذا يجد نفسه على قدم المساواة مع الآخرين من  
حوله، لأوّل مرّة في حياته. يبتهج آرثر في صمتٍ بإحساس الثقة  
اللذيذ وهو يسري في عروقه، وهو يتمايل على أعتاب نداءٍ لم  
يكن يجروّ حتى على أن يرجو سماعه.

كان المتحف البريطاني بدوره يمرّ بتحوّلٍ صامت، شأنه شأن  
آرثر. فلقد كان منذ تأسيسه عبارةً عن مستودعٍ للغرائب، إذ يحوي  
مجموعةً عشوائيةً من الأشياء الغريبة أو الغرائبيّة أو ما يسرّ  
الناظرين، بعضها معروض، لكنّ معظمها مخزّن. قطعٌ أثريّةٌ  
مشتراةٌ أو تبرّع بها أصحابها، بعضها جاء عبر عمليّات التنقيب  
وبعضها عُثر عليه صدفة، بعضها مهرّبٌ وبعضها مسروق. خزينٌ



لم يكن يُفهرس دائماً على نحوٍ منهجيّ. وحين جاء مدير المتحف الوطنيّ الدنماركيّ كريستيان يورغنسن تومسن في زيارةٍ للمتحف البريطانيّ قبل أكثر من عقد، خاب أمله حين وجد المعارض وغرف التخزين في حالة فوضى. أمّا مواطنه عالم الآثار البارز ج. ج. أ. وورسي فقد عبّر عن استيائه باستنكارٍ واضح، فوصفه بـ «الفوضى التامة».

لكنّ المتحف يتغيّر في هذه الأيام، يتطوّر إلى مركزٍ فكريّ حريصٍ على أن يكون محوراً للدراسة العلميّة للحضارات. لم يعد مجرد مستودع، بل يقدّم إسهاماً مهماً في تحديد ما يستحقّ الحفظ للأجيال القادمة. فالتاريخ بين جدرانها لا يُحمى ويُعرض فحسب، بل تُعاد كتابته أيضاً. لكنّ آرثر ما يزال صغيراً على أن يفهم أنّ المتحف، أيّ متحف، حين يقرّر ما يبقى للذاكرة، فإنّه في جزءٍ منه يقرّر أيضاً ما سوف يُنسى.

\*\*\*

تمتدّ الأسابيع إلى شهور، ويستمرّ القيم على المقتنيات الشرقيّة في دعم آرثر. لقد ظلّ هو ومساعداه يصارعان الألواح فترةً طويلةً دون أن يحرزا أيّ تقدّم حقيقيّ، فأصبح عالم الآثار العجوز مرتاحاً لأنّ شخصاً آخر قد تولّى هذا الصراع، رغم أنّ هذا الشخص لم يكن متوقّفاً على الإطلاق. وهكذا حصل آرثر على إذنٍ بزيارة المتحف في غير أوقاته المعتادة.

لكنّ العقبات في طريق آرثر أكثر من أولئك الذين يدعمونه. وإحدى تلك العوائق الرئيسيّة قلّة الضوء، لا سيّما في أيّام الشتاء

الكثيية. الشموعُ خطرة، فالمتحف مليءٌ بالقطع والمخطوطات الثمينة. مصابيح الغاز آمن، لكنّها محجوزةٌ للموظفين الكبار، ولا يحقّ لآرثر أن يستأثر بمصباح له وحده. لذلك لا يستطيع أن يدرس الكتابة المسماريّة إلّا تحت ما يتسلّل من أشعة الشمس النحيلة. يتدهور بصره شيئًا فشيئًا، وهو يدرك قلة الوقت المتبقّي له بمرور ساعةٍ إثر أخرى، فيجلس قريبًا من النافذة قدر الإمكان، منحنيًا فوق لوح، إلى أن يغطّيه ظلامٌ عميقٌ يلتفّ حوله كطيفٍ شاردٍ من عالمه الخاص.

بعد أسابيع قليلةٍ من هذا، يتوصّل آرثر إلى حلٍّ عمليٍّ؛ إذ يضغط ورقًا رطبًا على سطح اللوح فيصنع نسخةً مطابقةً منه، يأخذها إلى البيت فيعمل عليها حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل. وبهذه الطريقة يصبح لديه وقتٌ أطول مع النقوش. مع ذلك، لا بدّ أن يكون حذرًا، فغالبًا ما تقضم الفئران تلك المطبوعات الهشّة.

لكنّ العقبة الأكبر جاءت حين تلقّى والداه إخطارًا رسميًا بإخلاء البيت. سوف تُبنى سككٌ حديدٍ جديدةٌ في لندن، وسوف تقطع بعض المسارات مناطق مكتظةً بالسكّان، بما فيها حيّهم. هكذا فقدَ مئآتُ الناس منازلهم في بضعة أيّام، وصارت أسرته تشترك مع ثلاث أسرٍ أخرى في غرفةٍ ضيّقةٍ واحدةٍ ملطّخة الجدران بأوساخ السنين، نوافذها مرقّعةٌ بقطع قماشٍ لصدّ البرد. يقرّر آرثر أن ينام بملابسه، خشية أن تُسرق في منتصف الليل. ما يزال يبذل قصارى جهده كي يبقى نظيفًا، لكنّ الصابون محدود، والماء أيضًا. تحاول والدته أن تساعد حين تشعر بتحسّن، رغم أنّ هذا لا يحدث إلّا لمامًا، مع حزنها على فقدان طفلها

الصغير، وإحباطها من سُكر زوجها وإسرافه، وقلقها الذي لا يتوقّف حول توفير الطعام لها ولأطفالها.

لكنّ آرثر لا يستطيع أن يخفي التدهور في مظهره. فالجري من دار النشر إلى المتحف البريطاني والعودة مرّة أخرى لا يمنحه ما يكفي من الوقت لتمشيط شعره أو تسوية سترته التي اهترأت عند الكمّين. بيد أنّ مظهره ليس وحده الذي ينفرّ الناس منه؛ إذ تُقلقهم تمتماته الغامضة وأسلوبه الغريب، فبدأ القيّمون يتشاورون فيما بينهم حول مسألة إبقائه في وظيفته. لذلك يشعر القيّم على المقتنيات الشرقيّة بأنّه مُلزَمٌ بإبلاغ الشاب بأنّهم لن يحتاجوا إلى خدماته بعد الآن، بأسرع طريقة ممكنة وأطفها.

في ذلك الأسبوع، يهطل المطر بلا انقطاع. يعلو نهر التيمز، ويندفع. يتضبّب الحدّ الفاصل بين الأرض والسما في لونٍ رماديٍّ خاملٍ يغطّي كلّ شيء، كما يلفّ الشاشُ جرحًا. أبراج المدينة تكفهّر عند الغسق كالمشانق. يستيقظ خوفٌ بدائيٌّ عند أهل لندن من عنف المطر، خوفٌ عميقٌ من أن يكونوا قد أغضبوا الله، أو حوريّة نهرٍ أو عروس ماء. يتدفّق المطر عبر المزاريب، ويقرق على النوافذ، يريد أن يفرض حضوره، في حين ترتجف لندن وتنكمش، تنطوي على نفسها كوردةٍ تذبل مع غياب الشمس.

في الصباح الثالث، يغرق قبو الأسرة، فيجدون أنفسهم في ماءٍ عكرٍ كريه الرائحة، يصل حدّ ركبهم. يجرّون القليل الذي يملكونه إلى الشارع. يحمل والدّه الفراش، وتحمل والدته

المقاعد، ويحمل أخوه الأصغر أواني الطبخ، فيما يهرع آرثر لإنقاذ نسخ الألواح.

فیتتم والده في ازدراء: «ما بالك يا فتى، يقتلك القلق على حفنة خربشات!». .

فلَمَّا هَذَا المطر أخيراً بعد ساعات، وتشبَّعت الأرض، سقط صمْتٌ مهزومٌ على الحيّ. بَدُرٌ يتعلّق في السماء، ساطعٌ لدرجة أن آرثر يستطيع رؤية البحار القمرية على سطحه. ثمّة ترتيبٌ من الضوء والظلّ. هناك أشياء كثيرةٌ في الحياة تتألّف من أنماطٍ متكرّرة. التعرّجات التي ترسمها البروق، والحلقات داخل شجرة مقطوعة، والخيوط على نسيج العنكبوت، والفسيفساء في خلية النحل، والخطوط الملتوية في صدفة البحر، وبتلات الأقحوان... المدينة أيضاً تعجّ بهندسة الأنماط المتكرّرة. السرايب أسفل سوق كامدن، وأقواس محطّة بادنغتن، والزخارف القوطيّة الجديدة في مبنى البرلمان... والناس أيضاً، يتشكّلون من عاداتٍ وأعرافٍ متكرّرة. ألواح الرافدين، أيضاً، تجسّد سلسلة أنماطٍ يصمّم آرثر على اكتشاف معناها.

يلتفّ ببطانيّة قديمةٍ يتدفّق بها، ويضع إصبعه على سطرٍ من الكتابة المسماريّة، فيقرأ اسمًا غامضًا لم يصادفه من قبل.

گل - گا - مش .

في عصر اليوم التالي، يدخل د. صامويل بيرتش الغرفة التي يعمل فيها آرثر، متهيّئًا لمحادثةٍ صعبة. كان يتوقّع أن يرى الشاب

كعاداته منكبًا على لوح قرب النافذة، فوجده يذرع المكان جيئةً وذهابًا، بشعراً شعث، وياقةً معوجةً، وربطة عنقٍ محلولة، وأطراف قميصٍ متدلّية، وعينين متوهجتين.

يهتف آرثر: «آه، سيّدي، تسرّني رؤيتك جدًّا».

- «هل كلّ شيءٍ على ما يرام يا سمث؟».

فيقول آرثر بصوتٍ مرتجف: «لديّ أنباءٌ سارّة! أظنّني وجدتُ شيئًا مهمًّا، بل مذهلاً!».

ثمّ النقطة لوحًا وأخذ يترجم الأسطر الآتية:

هو الذي رأى العمق...

جاء من سفرٍ طويل، مُتعبًا، فوجد السلام

وسطرّ كلّ معاناته على لوحٍ من حجر.

رفع آرثر رأسه ليجد العالم يحدّق به بذهولٍ لا يخفيه. فلمّا التقت نظراتهما، انبجست منهما ابتسامة، وهما مأخوذان بهذا الإدراك أنّهما أمام شيءٍ غامضٍ غير متوقّع على الإطلاق. فهذا اللوح لا يشبه شيئًا قرأه آرثر حتى الآن. ليس جردًا لحبوب تاجر، أو نصًّا أو مذكّرة قانونيّة. هذا شعر.

فيقول القيمّ على المقتنيات الشرقيّة: «يا له من اكتشافٍ رائع. سيُسّرُ الأمناء بهذا. هل يمكنك أن تستمرّ في الترجمة، إن استطعت أن تجد المزيد في هذه الفوضى؟».

يتنفّس آرثر ملء رئتيّه، فقد انتظر هذه اللحظة طويلًا. «إنّ سمح لي بمواصلة عملي، وهذا من دواعي سروري، فلي شرط واحد. أو شرطان في الواقع، إن سمحت لي».

- «قُل».

- «أحتاج إلى مصباح غاز، كي أتمكن من القراءة حين يضعف الضوء».

- «يمكننا توفير ذلك».

- «وسترة جديدة يا سيدي. سترتي قديمة جدًا».

فيومئ القيم على المقتنيات الشرقية بنظرة حانية. «لك ذلك طبعًا».

هكذا يبدأ آرثر في تجميع قصّة قديمة، من قطعة مكسورة تلو أخرى. يظهر گلگامش في بداية الملحمة وحشًا قاسيًا، قويًا لا يعرف الرحمة. يفتضّ العذارى في ليلة الزفاف، ويتهجم على أزواجهنّ المهانين، ويستبدّ بمجتمعاتٍ بأكملها. مخدوعٌ بالغرور، مفتونٌ بالرغبة، تُعميه الطموحات، فينحطّ في نهاية المطاف ويهزمه الفشل. يحار آرثر في هذا الأمر؛ ففي جميع الكتب التي قرأها، كان الأبطال بارزين، محدّدين بوضوح، ولا يوجد شكّ في تفوّقهم على الآخرين في الموهبة، أو الشجاعة، أو الذكاء. أمّا في مخيلة الرافدين، فلا يوجد شيءٌ قطعيّ. هنا يتداخل الإلهيّ والدينيّ، والخير والشرّ، والعالم العلويّ والعالم السفليّ، في رقصة دائمة. گلگامش، أقدمُ حكاية موثّقة في تاريخ البشريّة، وأقدم قصيدة باقية، مدهشةٌ في سيولتها وتقلّباتها، إذ تتحوّل شخصيّتها الرئيسة وتدور، وتفشل في تجاربها مرّة بعد أخرى. فلا ينضج هذا البطل (الذي ليس بطلًا) إلّا بعد توالي

الهزائم. يتفكك السردُ ويُستعاد من جديد، كالبحر الذي يتحطم عند الحاجز، إذ يدمر نفسه ويجددها.

في كانون الثاني / ديسمبر من ذلك العام، عُرض على الفتى الذي بدأت حياته قرب نهر التمز منصبٌ بدوام كاملٍ في مجموعات الشرق الأوسط بالمتحف البريطاني. فرحل عن دار النشر كي يتفرغ تمامًا لآثار بلاد الرافدين، وقد بلغ لتوّه الثامنة عشرة.

راتبه أقلّ بكثير ممّا كان يحصل عليه في دار النشر، مع ساعات عملٍ أطول. حذّره السيّد إيفنز من ارتكاب هذا الخطأ الفادح بالاستقالة؛ ففي غضون عام أو اثنين قد يصبح طابعًا متمرّسًا. لقد ارتقى منزلةً عالية، وهما هو الآن يتخلّى بحماقةٍ عن هذه النعمة، من أجل ماذا؟ كانت مجاعةُ القطن قد فعلت فعلها، وعمّال المطاحن في لانكشير عاطلون عن العمل، وأمواج السخط واليأس تلطم شواطئ لندن. ثمّة أُسرٌ بأكملها لا تملك طعامًا ولا مأوى. جوعٌ وفقرٌ ومعاناةٌ كبيرةٌ في كلّ مكان، فيما هو يترك وظيفةً براتبٍ جيّد كي يعبث بكومةٍ من الألواح المتفتّنة المحطّمة.

غضب والدّه من انخفاض راتبه، فبات يلعن ويشتم باستمرار، ولكنّ ليس في يديّه شيءٌ يستطيع فعله كي يغيّر الأمر. فقد طالت قامة آرثر، ورغم أنّه لم يكن قويّ البنية على الإطلاق، فإنّه قادرٌ على صدّ الضربات. فأولئك الذين يولدون لأبٍ شتّامٍ عنيف، لا بدّ لهم من أن يكبروا سريعًا.

في تلك المرحلة تقريبًا، بدأ آرثر يكتب يومياته. يقول في الصفحة الأولى:

وهكذا، ففي شتاء 1858، دخلت، أنا آرثر سميث ملك المجاري والعشوائيات، الحياة الرسمية في المتحف البريطاني لأتابع بانتظام دراسة الألواح المسمارية من مكتبة آشوربانيبال في نينوى، وعلى وجه الخصوص، لأتابع ترجمة قصيدة ملحمة، يبدو أنها كانت معروفة على نطاق واسع وعزيزة جدًا لدى القدماء. أعتقد أنني وجدت أخيرًا مهنتي في الحياة: واجبي أن أجمع ما تحطّم، وأن أساعد الناس على تذكّر ما أُحيل إلى النسيان قرنًا بعد قرن، وأن أستعيد ما ضاع في مكان ما في ذلك الطريق.

أتمنى أن أكون مثل نهر التيمز: أن أعني بما نبذه الناس، وأتلفوه، ونسوه.



## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

- «احكي لي قصّة الطوفان...».

- «ماذا تريد أن تعرفي عنه يا قلبي؟».

- «كيف بدأ؟».

- «بقطرة ماءٍ واحدة».

تمدّ الجذّة رأسها وكأنّها تحاول أن ترى بشكلٍ أفضل من ثقب بابٍ إلى فضاءٍ آخر. «سقطت القطرة من السماوات اللانهائية، نذيرًا لما كان قادمًا. لم يُعرها أحدٌ اهتمامًا، بالطبع. ثم بدأ المطر يهطل، أيّامًا وليالي من دون توقّف. ارتفعت

الأنهار، واختفت الأرض. كثيرون هلكوا، لكننا نحن اليزيديين نجونا بفضل امرأة شجاعة، تُدعى پيرافات».

- «مهلاً! ماذا حدث لبابا نوح والسفينة؟».

- «ذاك الطوفان الأوّل، طوفان النبي نوح، وهو الطوفان الذي أصاب بني آدم وحوّاء. فكما أخبرتك من قبل، نحن ننحدر من آدم وحده؛ حوّاء لم يكن لها دورٌ في خلقنا. الطوفان الثاني أصابنا نحن اليزيديين، لكننا نجونا».

- «كيف؟».

- «بفضل الأمّ پيرافات. كانت تستطيع أن تطفو فوق المياه مثل طائر أو فراشة أو ملاكٍ إن جاز القول. كانت تحمل في يديها جرّة زجاجيّة، وضعت فيها بذورنا، وبعد أن انحسر الماء غرست تلك البذور، فنبتنا من جديد وعمّرنا الأرض مرّة أخرى».

- «إذن كان هناك طوفانان؟».

- «الأكيد أنهما اثنان على الأقلّ، لكنني في صغري سمعتُ الشيوخ يقولون إنّ هناك ثلاثة، إن لم يكن أكثر».

تنهّدت نارين. «لا أدري لماذا يفعل الله بنا هذا؟».

- «يفعل ماذا؟».

- «يبتلينا بالعواصف والسيول».

- «قد يقول الآخرون إنّها طريقته في عقاب البشر على ضلالهم. فالأمواج تُرسل لتطهير البشر من خطاياهم. لكنني لا أؤمن أنّ الله برحمته ومغفرته يحاول إيذاءنا. أؤمن أنّ الطوفان كان كارثة لا مفرّ منها. أو يمكن أن نسمّيه القَدَر. لا تنسي أيضاً

أَنَّ الأمور تحتاج إلى وقتٍ كي تستقرّ، وهذه الدنيا شأنها شأن رُوب الماعز؛ يظلّ وقتًا طويلًا قبل أن يتخثّر.

تبسّمت نارين وقالت: «أترين أَنَّ الأرض عبارة عن طاسة رُوب؟».

- «بالتأكيد... فهي تتخمّر، وتتكثّف. صحيحُ أَنَّها الآن صلبة، لكنّها لا يمكن أن تنسى أبدًا أَنَّها كانت سائلة ذات يوم».

- «ما معنى ذلك؟».

- «معناه أَنَّها ما تزال تغلي في داخلها. هناك ماءٌ في الأسفل، يتمخّض، لكنّنا لا نسمعه. ثمّة دوراتٌ في الطبيعة، في التاريخ، نسمّيها دَوْرًا. فبين نهاية عصرٍ وبداية عصرٍ جديد، هناك دائمًا فترةٌ ارتباك، وتلك هي الأوقات الأصعب. أعاننا الله جميعًا».

- «وهل نحن الآن في واحدةٍ من تلك الفترات؟».

- «أظنّ ذلك. ولهذا يجب أن ندرس الماضي بعناية. قصص أجدادنا هي الجذور التي تثبّتنا أثناء العواصف والرياح العاتية».

لمست نارين أذنها اليمنى بخفّة. ثمّة طنينٌ في الداخل، يزعجها، لكنّها لا تريد أن تذكره، وكأنّه سيزداد قوّةً وحياةً إن تحدّثت عنه. فسألَتْ جدّتها: «وماذا حدث بعد كلّ طوفان؟».

- «ما الذي يحدث بعد الكوارث؟ يداوي الناجون قلوبهم المكسورة ويبدؤون من جديد. هذا ما يفعله المرء دائمًا، وما ينبغي له».

\* \* \*

لا يوجد أثاثٌ ذو قيمةٍ في البيت سوى صندوقٍ من خشب

البلوط، مطليّ بالبرتقاليّ والأخضر. تحتفظ الجدة بمهرها هنا، وكلّ مقتنياتهم الثمينة: مفارش مُحَاكة، مناشف مُطَرَّزة، أوشحة حريريّة، أساور ذهبيّة أُهديت إليها كهدايا زفافٍ منذ زمنٍ بعيد... نبشت نارين في محتوياته مرّاتٍ عديدةً منذ أن كانت صغيرة. ومن بين الأغراض المتنوّعة التي يحفظها الصندوق قانون، محفوظٌ بعناية. منقوشٌ بزخارف هندسيّة ومُعْطى بالعاج، وهناك ريشاتٌ من درع السلحفاة لنقر أوتاره. يُقال إنّه جُلب من إسطنبول قبل أكثر من قرن. هذه هي الآلة التي أثارت اهتمام والد نارين بالموسيقى حين كان صبيّاً.

القانون قديمٌ جدّاً، لكنّه لا يساوي في قِدمه غرض نارين المفضّل، الملفوف كطفلٍ بمهادٍ أبيض، معقوداً بشريطٍ أحمر. هديّة غريبةٌ من الماضي. وبينما هي تبحث في الصندوق، أخرجت تلك الرزمة. في داخلها لوحٌ من الطين عليه رموزٌ إسفينيّة الشكل على كلا الجانبين. كان قد أُهدي إلى جدّة جدّتها ليلي، فجلبته معها حين غادرت نينوى وارتحلت في نهر دجلة إلى أن استقرّت في كاستروم كيفا. ومنذ ذلك الحين وهو يُورث للجيل التالي كإرثٍ عائليّ. تعرف نارين أنّه مهمٌ جدّاً، رغم أنّه مصنوعٌ من ترابٍ بسيط. فلا أحد في القرية يملك شيئاً مثله. ورغم أنّ الجدّة لا تستطيع قراءة الأبجديّة التركيّة أو الكرديّة قراءةً صحيحة، فقد تعلّمت من جدّتها عدداً لا بأس به من العلامات الغامضة على سطحه، ثم علّمتها نارين. وهكذا استطاعت الطفلة أن تستشعر بعض الأشكال، رغم أنّها لا تعرف شيئاً عن القصّة التي يرويها اللوح.

- «حدّثيني عن جدّتك ليلي».

فقالت الجدّة مبتسمة: «داپر [جدّتي]»، وتوقّفت كأنّها قالت كلّ شيء. «كانت جميلةً جدًّا. عيناها كعيني حمار -». - «هاه!».

- «لا تضحكي يا صغيرتي. عيون الحمير أجمل العيون. كان شعُر ليلي طويلًا، حريريًا، أسود. قطعةً من سماء الليل. لكنّ الأهمّ من ذلك أنّها كانت مُعالجّة موهوبة».

فأسندت نارين ذقنها على كفّها. «مثلك تمامًا!».

- «لا، لا. فموهبتني (التي هي ملكٌ لله وحده، كموهبتها) تافهةٌ مقارنةً بجدّتي. كانت ليلي عرّافة. فقرا». - «ماذا تعني هذه الكلمة؟».

- «رائية، تعرف أشياء لا يعرفها الآخرون. مع ذلك، لا تنسي أنّ هناك كثيرين في هذا العالم يدّعون أنّهم عرّافون، لكنّهم في الحقيقة دجّالون. أمّا جدّتي فكانت واحدةً من العرّافين الحقيقيين».

فانحنت نارين إلى الأمام كي تصيخ السمع. ثمّة أصوات حادّة كثيرةٌ تجاهد لالتقاطها، رغم أنّها ما زالت تستطيع أن تسمع الأصوات ذات التردّد الخفيف، ولحسن الحظّ أنّ صوت جدّتها واحدٌ من هذه الأصوات.

- «هذا جزءٌ من تقاليدنا. يُطلق اسم كوچك أو فقرا على النساء، ويُطلق اسم چقرون على الرجال والنساء. كلّهم محترمون، فاضلون. ما زلت أذكر المعروفين منهم في طفولتي:

كوچك شامو، كوچك سيلو، كوچك هاجو... لكنهم قُلُوا في هذه الأيام. لقد استوعب شعبنا هذه الموهبة واحترمها منذ فجر التاريخ، وما من شك في أنَّ ليلي كانت تملكها».

زمت نارين شفتيها في تأمل، غير أنَّ ما قالته الجدَّة بعد ذلك فاجأها.

- «لكنَّ هذه الموهبة قد تكون مؤلمة؛ فهم يدخلون في غيبوبة. بعضهم يسقط على الأرض، يرتجف كورقة في عاصفة. ولفرط تشنُّجاتهم لا يمكنك أن تلمسيهم. وآخرون يتحدثون بلغات أجنبية لا يفهمها أحد. أولئك العرَّافون أناسٌ غير عاديِّين. صحيحٌ أنَّهم يرون ما سوف يأتي، لكنَّه حملٌ ثقيلٌ».

- «كيف يمكنهم التحدُّث بلغاتٍ أخرى؟».

تنفَّست الجدَّة ملء رئتيها. «يتغيَّر حالهم حين يكونون في حالة شبه واعية. ففي تلك اللحظة حتى الفقرا النحيلة يمكنها أن ترفع كيسًا ثقيلًا وكأنَّه ريشة في يدها. وقد شهد الناس أشياء أغرب من ذلك».

حاولت نارين، لكنَّها لم تستطع أن تتخيَّل جدَّة جدَّتْها وهي توازن أكياسًا ثقيلةً على أطراف أصابعها.

- «لعلَّه من الصعب أن تصدِّقيني، ولكنَّ تذْكَري أنَّ الذي يستعصي على الفهم ليس أسرار الدنيا، بل ذاك التوحُّش الذي يستطيع الإنسان أن يتعامل به مع الآخرين».

يمتدَّ الصمتُ بينهما ثانيةً بعد أخرى.

- «جدَّتِي، هل رأيتِ ليلي مرَّةً وهي تحكي تنبُّواتها؟».

- «لا، لم يحدث هذا قط. فحين وُلدت كانت ليلي قد توقفت منذ زمنٍ طويل». - «لماذا؟».

فلمستُ الجدَّة الوشمَ على وجهها، وكأنَّها تتأكَّد أنَّه ما يزال في مكانه.

- «لأنَّ الفقرا ليلي رأت شيئًا... شيئًا مروِّعًا... ثم حدث كما تنبأت بالضبط. في مكانٍ يُدعى نينوى. بعدها، لم تعد قادرة على فعل ذلك».

فسرى رعبٌ مفاجئٌ في أوصال نارين. «ما هو - ذلك الشيء المروِّع؟».

نظرت الجدَّة بعيدًا، لعلَّها رأت أنَّ السؤال غير مهمٍّ أو استحيل الإجابة عنه، لكنَّها بعد ذلك تكلمت، بصوتٍ ناعم، وإن كان حادًا.

- «يُقال إنَّ المرء إذا ما أصاب رؤيا مؤلمةً جدًّا يصعب التعبير عنها بالكلام، فسوف يبقى مجروحًا إلى الأبد. لذلك تخلَّت ليلي عن التنبُّؤ بالمستقبل، وأرادت لذرِّيَّتها أن يتخلَّوا عن هذا الأمر أيضًا، كي نتجنَّب الألم. ومنذ ذلك الحين أصبحنا قافرين. نستطيع العثور على الأنهار والجداول تحت الأرض، ونستطيع أن نعالج بعض العلل، لكنَّ نساء هذه العائلة لا ولن يتنبَّأن أبدًا».

-O-

آرثر

بجوار نهر التمز، 1871

في يوم معتدلٍ من أيّام حزيران / يونيو، ينعطف آرثر إلى شارع بيكاديلي. يمشي مسرعًا، بيقظةٍ لا يستطيع الفكّك منها، وعيناه على الرصيف. يتناهى إلى سمعه أرغنٌ برميليّ من بعيد، يصفّر اللحن المحبوب «In the Sweet By and By»<sup>(\*)</sup>. كان قد بدأ مؤخرًا في إطلاق لحيته، لكنّ أصابعه تظلّ تعبت في تلك الشعيرات الخشنة، غير معتادةٍ بعد على كلّ هذا الشعر في وجهه.

---

(\*) من الأناشيد المسيحيّة المعروفة المكتوبة في ستينّيات القرن التاسع عشر، يقول مطلعها: «في القادم الغدّب، سنلتقي على الشاطئ الجميل»، في إشارةٍ إلى اللقاء في الجنّة. (المترجم)



يحمل في جيبه منديلاً حريريًا معطرًا. راجت في هذه الأيام موضة المسك والعنبر، وراقه هذا المزيج رغم سعره الباهظ. مرّت سنواتٌ وهو يقرأ الألواح في إصرار، ويعمل دون كلل، لكنّه لم يحصل على ترقية بعد.

تعطّر اليوم بعطرٍ ساعد في تركيبه، فقد وجد وصفةً لعطّارة تُدعى تابوتي على لوح من ألواح بلاد الرافدين عمره آلاف السنين. ودون أن يخبر أحدًا، طلب إلى محنّط في شارع ريجنت أن يُعيد إنشاء المزيج القديم باستخدام زيت القصب، والمرّ، واللوز المطحون، والفجل الحارّ، والتوابل وأزهارٍ متنوّعة. لم تحدّد تابوتي نوع تلك الأزهار، لذلك اختار البنفسج والباتشولي وزهر اللوز. كانت النتيجة مُسكِرةً لفرط روعتها، وهذا ما وضعه الآن بحذرٍ على منديله.

تغيّر الكثيرُ في حياته خلال السنوات القليلة الماضية، لكنّ الشيء الوحيد الذي ظلّ ثابتًا هو هذه الوحدة الحادّة التي يحملها في كلّ مكانٍ معه. عزلةٌ لا تفارقه، وكأنّها الرفيقُ الوحيد الذي يصرف كلّ الآخرين. يفتقد أخاه الأصغر الذي استقرّ في «يوكسر» بعد إرساله إلى الريف للعيش مع خالةٍ مسنّة، فلم يرغب في العودة إلى لندن. يفتقد والدته التي لم يرها منذ أربع سنوات، منذ إيداعها في المصحّة، بعد أن قضت ليلةً كاملةً تهذي وتنوح في الشارع. كان الناس قد اشتكوا من وجود علّةٍ في عقلها، ورأى الجيران ووالده فيها أعراضًا للجنون والهستيريا، فأخذت سريعًا إلى المصحّة. وقد رُفض طلب آرثر لزيارتها رغم رسائله المتكرّرة إلى المسؤولين في المصحّة، بحجّة أنّ الزيارة ستؤذي المريضة.

أمّا والده، فلم يره منذ زمنٍ طويل. يبدو لآرثر أنّ أسرته بأكملها قد تفكّكت، كجدائل حبلٍ تهرأً مع الوقت. الثابت الوحيد هو عمله: ألواح بلاد الرافدين.

يمرّ بكنيسة سينت جيمس، فيتدفّق سيلٌ من الأصوات إلى جانبه. مئات العجلات من عرباتٍ بشتّى أنواعها: الهنسوميّة، والكالاش، والبرّوشية، والكرّاجة وغيرها، تدور دفعةً واحدة(\*) . وباعةٌ جائلون ينادون على بضائعهم من عرباتهم اليدويّة، وأطفالٌ يدفعون عربات يدٍ فيضعف حجمهم... لكنّ آرثر يسمع في وسط الضجيج والازدحام صيحة الصبيّ الذي يبيع الصحف:

«الكاتب مات! السيّد دكنز ذهب للقاء بارئه!»

يشهق آرثر، فيشتري صحيفةً ويحدّق في صورة الروائيّ. العينان اللتان يعرفهما، نافذتان متأمّلتان لكنّهما في الوقت نفسه مبتهجتان شيئاً قليلاً، تستوعبان العبث المحض في هذا العالم. يقرأ المقال مرّةً تلو الأخرى. ترافقُ المقال رسمّةٌ لمكتب دكنز في «غاذز هل پليس»، مع كرسيّ فارغ، مائلٍ قليلاً، وكأنّه أُخلي قبل لحظات، ما يزال جلده دافئاً من الجسد الذي نسج قصصاً كثيرةً في حضنه.

---

(\*) أنواعٌ مختلفةٌ من العربات أو الحناطير كانت معروفةً في بريطانيا آنذاك. الهنسوميّة (hansom cab) عربةٌ أشبه بسيّارة الأجرة في وقتنا الحاضر، يقودها حصانٌ واحد، ويجلس فيها راكبان والسائق من خلفهما. والكالاش (calash) عربةٌ خفيفةٌ ذات عجلاتٍ خفيفةٍ يجرّها حصان، وبها غطاءٌ ينطوي. والبرّوشية (barouche) عربةٌ فارهةٌ لها غطاء، يجرّها حصانٌ وبها مقعدٌ للسائق في الأمام ومقاعد متقابلةٌ للركّاب. وأمّا الكرّاجة (dray) فهي عربةٌ خفيفةٌ قويّةٌ لنقل الأغراض الثقيلة. (المترجم)

يغمره الحزن. فهناك أناسٌ استثنائيون يظهرون فجأةً على دروبنا، ثم يختفون فجأةً أيضًا، تاركين بصمةً لا تُنسى وشعورًا بالحسرة. يأتون في سطوع ولا يلبثون طويلًا، كعود ثقابٍ في الظلام، يشعلون أحطاب قلوبنا، ثم يرحلون.

وبينما يطوي آرثر الصحيفة، يلفت نظره أسفل الصفحة مقالٌ صغير: «وُلد عجلٌ في حديقة حيوان لندن. فَرَسا النهر اللذان أرسلهما باشا عثمانيّ إلى إنكلترا (أوباش وأديلا) أنجبا طفلًا أخيرًا، وسُمّي غاي فوكس. ها هي ذي، في الصفحة نفسها، حياةٌ تنتهي، وأخرى تبدأ.

في ذلك اليوم، ما إن يصل آرثر إلى المتحف البريطاني، حتى يسحب من الرفوف صندوقًا عشوائيًا من الألواح المكسورة، ويجد جرّةً كي يستخدمها مَبُولَة، ثم يقفل بابه حتى لا يخرج من الغرفة ولا يدخل إليها أحد. في هذه الحالة يكرّس نفسه كليًا لعمله، لأنّه يعرف أنّه إن لم يشغل نفسه، فسوف يتلعه الإحباط الكامن في قلبه تمامًا.

\*\*\*

في عصر اليوم التالي، يفتح آرثر الباب بشعره الأشعث، وعينه طافحتان مثل السماوات الزرق بعد مطرٍ شديد. يتحرّك بسرعةٍ على طريقة شخصٍ استيقظ لتوّه من نوم مضطرب، ويقول إنّهُ يحتاج إلى الحديث عاجلاً مع الجميع، بمنّ فيهم الأمناء، بل لا سيّما الأمناء! سلوكه محيرٌ. كان قد بذل قصارى جهده طوال هذه السنين كي يتجنّب أبسط المحادثات، لكنّه الآن لا يستطيع

الانتظار كي يلتقي الجميع معًا. يتقاطرون إلى غرفته، الأمناء، والقيّمون، والكتبة وبعض طُلاب الفنّ، متلهّفين لمعرفة ما لديه. يُذهلون حين يجدونه بوجنتين متوهّجتين، وربطة عنقٍ مرخاةٍ ونظرةٍ تشتعل بشراسة، فيبدو مشوّشًا للغاية.

يهتف آرثر بيدّين مفتوحَتين: «سادتي، شكرًا لحضوركم سريعًا. تسعدني رؤيتكم».

يتبادلون النظرات، وبعضهم يقلّب عينه في نفاد صبر، لكنّ آرثر لا يلاحظ شيئًا.

«لقد حدث شيءٌ استثنائيٌّ ولا أستطيع الانتظار كي أطلعكم عليه!» ثم يقول في حماسٍ شديدٍ تتسارع معه نبضات قلبه: «يبدو لي أننا على وشك تحقيق كشفٍ مذهل».

ثم يبدأ آرثر في ترجمة مقطعٍ من ملحمة گلگامش، وقد بات وجهه لوحةً ترسم عليها مشاعره:

هل يرتفع النهرُ ويأتي بالفيض أبدًا،

وهل يترك العسوب شرنقته(\*)

يقول لهم إنّه عثر صدفةً على لوحٍ شديد الأهميّة، لوحٍ يحكي عن طوفانٍ كارثيّ يلتهم الممالك، وعن سفينةٍ جانحةٍ على قمّة جبلٍ تأوي حيواناتٍ من كلّ نوع. وبعد أيّامٍ من جنوحها في مياهٍ عاصفة، يرسل أهل السفينة طائرًا ليرى إن كانت هناك أرضٌ جافّةٌ قريبة. القصّة مألوفةٌ جدًّا.

---

(\*) الترجمة العربيّة منقولةٌ من: فراس السّوّاح، جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة: دراسةٌ شاملةٌ مع النصوص الكاملة وإعداد درامي. القاهرة: مؤسّسة هنداوي، 2024 م. ص 175.

فيسأله أحد الأمناء: «هل تقصد أنك وجدت وصفًا قديمًا لسفينة نوح؟».

يمرّر آرثر أصابعه في شعره، ويسوّي شاربه، إذ يُدرك هول ما سيقوله الآن. «سادتي، ملحمة گلگامش أقدم من الكتاب المقدّس. ضعوا في اعتباركم أنّ الناس تناقلوا هذه القصيدة قرناً بعد قرنٍ قبل أن يسجّلها الكتّبة وتُحفظ في مكتبة الملك آشوربانيبال. وهذا يعني أنّ رواية بلاد الرافدين للطوفان أقدم بكثيرٍ من سفينة نوح المذكورة في الكتب المقدّسة. وسوف أترك لكم تحديد الآثار المترتبة على هذا الكشف».

يتبع ذلك صمتٌ مشوّبٌ بتوتّر، رغم قصره، إلى أن يتنحى الأمين الذي تحدّث سابقاً، فيقول: «لا بدّ أن أعترف يا رفيقي أنّك حققتَ كشفًا رائعًا».

ويضيف شخصٌ آخر: «بالفعل. كشفٌ تاريخيٌّ!».

هكذا، يمشون إليه واحداً بعد الآخر، يصافحونه إشادةً بإنجازه المذهل. وفي آخر الصفّ القيّم على المقتنيات الشرقيّة، الوحيد في هذا المتحف الذي دعمه منذ البداية. فلمّا رآه آرثر (الخجول بطبعه) يتسم بفخر، جرى إليه وضّمّه في عناقٍ معظريّ بالباتشولي.

ينتقل حماسه كالعدوى، رغم منافاته لأعراف اللباقة. ينسكب في الممرّات الرخاميّة كموجة متكسّرة، يتدفّق عبر الجدران المكسوّة بالألواح والأبواب المقوّسة، فيغسل أواني العصر الحديديّ، والبرونزيّات الصينيّة، والمومياءات المصريّة وبقايا الهياكل العظميّة البشريّة، والأفاريز الإغريقيّة، والآثار

الرومانية، والعملات البيزنطية، ونقوش عصر النهضة. يُغرق مخطوطات غاليليو، ومايكل أنجلو، ونيوتن، وواشنطن، وكرومول... وصولاً إلى القسم الآشوري حيث تقف اللاماسوات، فيندفع فوق حوافرها وأجنحتها الحجرية، ومن هناك ينصبّ على شوارع لندن.

\*

جاء هذا الكشف في وقته تمامًا؛ إذ كان دارون قد نشر مؤخرًا كتابه نشأة الإنسان، بعد النجاح الهائل الذي حققه كتابه السابق أصل الأنواع. وقد أفضى التقدم في الجيولوجيا وعلم الأحياء وعلم النبات والكيمياء إلى انقسام أكبر بين العلم والدين، وبين البحث الأكاديمي والكنيسة. فما تحقّق من اكتشافات في علم المتحجّرات والآثار والجيولوجيا يكاد يلغي تاريخ الخلق الذي تعارف عليه علماء اللاهوت، وحدّدوه بحوالى عام 4004 قبل الميلاد. فتزايد الشكّ في أنّ الأرض في واقع الأمر أقدم من ذلك بكثيرٍ جدًا.

وفي هذه الأيام، بات يُقال إنّ البشر مجرد نوع واحدٍ من أنواع كثيرة تسكن الأرض، بصرف النظر عن تفردهم وتفوّقهم على بقية المخلوقات. ولم تعد الدنيا تسير وفق تقديرٍ مسبق، بل تبدو وكأنّها تتدفّق. على خلفية هذه المشاعر المتغيّرة إذن، جاء آرثر ليفك رموز لوح الطوفان. يرى البعض في هذا الكشف مثلاً واضحاً على ما في الدين من أساطير. فمن الواضح أنّ سفينة نوح ليست سوى خرافة تناقلها الناس جيلاً بعد جيل. ثمّة تشابهات بين رواية بلاد الرافدين والرواية التوراتية، فكلتاهما

تتحدّثان عن طوفانٍ يغمر العالم، وبناء سفينةٍ ينجو بها البشر والحيوانات من ذلك السيل العظيم، وطائرٍ يُرسل للبحث عن اليااسة. كلّ هذه التشابهات تشير إلى أنّ النصّ المقدّس ليس سوى إعادة سردٍ لقصصٍ مُختلفةٍ من غابر الأيّام.

بيد أنّ هناك آخرين يرون أنّ العكس هو الصحيح؛ فاكشاف آرثر إنّما هو تأكيدٌ على صدق الكتاب المقدّس. يقولون إنّ بلاد الرافدين مهّد الحقيقة اللاهوتية. ففي مكانٍ ما في تلك البلاد ازدهرت جنّة عدنٍ وتفجّرت بالحياة، وفيها وُلد إبراهيم أبو المؤمنين، وشيّد برج بابل حتى بلغ السماء ثم تفتّت إلى أشلاء، فانقسم البشر إلى قبائل لم يعد يفهم بعضها لسان بعض. وفيها ألقي مفسّر الأحلام دانيال في جبّ الأسود، ومشى أصدقاؤه الثلاثة في النار دون أن تمسّهم بأذى. في تلك الأرض إذن يبدأ كلّ شيءٍ في قصّة البشر، وحين يستعر النقاشُ حول أصل الأنواع، تبدو هذه الأرض البعيدة مفتاحًا لأصعب الأسئلة المتعلّقة بمعنى الحياة ووجود الله. وهكذا ينتقل الجدلُ في أوروبا بأكملها، ويشتعل على الضفّة الأخرى من المحيط الأطلسي. فتُنشر صحيفة النيويورك تايمز مقالًا يوضّح الروايات المختلفة لقصّة الطوفان، ويذهب إلى أنّ الرواية التوراتية قد تكون «أسطوريةً مثل غيرها». وما لبثت تلك القصيدة التي وُجدت في نينوى ونُقلت بالبحر إلى لندن أن أصبحت حديث الملايين حول العالم، بعد أن تصدّى شابٌّ من عشوائيات تشلسي إلى ترجمة جزءٍ منها.

واجه آرثر عقب اكتشافه هذا كثيرًا من الأشياء الجديدة وغير المتوقعة، لكنّ أكثر ما يذهله في الأمر هو افتتاح الجمهور بالموضوع. فقد ظلّ سنواتٍ يفترض أنّه لا يوجد أحدٌ يلقي بالآ بعمله هذا غير العاملين في مجال الدراسات الآشورية، لكنّ الكشف عن وجود قصّةٍ شبيهةٍ للغاية بسفينة نوح على قطعةٍ أثريةٍ من بلاد الرافدين استحوذ على المخيال الجمعيّ، وأشعل جدلاً محموداً بين المحافظين والبراليين على حدّ سواء.

وهكذا فجأة، وجد آرثر نفسه تحفةً تلفت الأنظار، شأنه شأن لوح الطوفان نفسه. ففي كلّ يوم يأتي غرباء إلى المتحف البريطانيّ يسألون عنه. صار يسلك الشوارع الخلفية في ذهابه وإيابه من العمل، ينظر إلى الأرض، رجاءً ألاّ يلاحظه أحد. غير أنّ هذا الأمر لا يمكن أن يستمرّ طويلاً كما يبدو.

يقول القيم على المقتنيات الشرقية ذات عصرٍ وهو يلوّح برسالةٍ عليها شعارٌ مذهبٌ نافر: «لقد تلقّيت دعوة».

— «أنا؟».

— «تهانينا، أنت مدعوٌّ لإلقاء محاضرةٍ في جمعيّة علم آثار الكتاب المقدّس».

يمتقع وجه آرثر. «لكنّني لا أجيد هذه الأشياء. ألا يمكنك أن تذهب أنت؟».

فيبتسم العالم الشيخ. «لكنّهم لا يريدونني، وهذا أكيد. يريدونك أنت، المعجزة القادمة من بدايات متواضعة! سيستمع إليك جمهورٌ من أعلى الدرجات. علماء، ودبلوماسيون،



وصحافيّون، وأساقفة، وغيرهم. ليس هذا فقط، فرئيس الوزراء نفسه سيحضر! لا بدّ أنّها المرّة الأولى التي يحضر فيها رئيس وزراء بريطانيّ محاضرةً عن بلاد الرافدين. أمرٌ يثير الحماس، أليس كذلك؟».

لكنّ آرثر كان قد غادر الغرفة أصلاً، وقد شعر بإرهاقٍ وغثيانٍ من فكرة الوقوف على منصّةٍ أمام جمهورٍ عامٍ.

\*\*\*

في اليوم السابق للمحاضرة، يطلب آرثر سمّث من مُوقِظٍ(\*) أن يوقظه من النوم خشيةً ألاّ يصحو في الوقت المناسب. غير أنّه في واقع الأمر لم يكن في حاجةٍ إلى ذلك؛ فقد جافاه النوم. ظلّ يتقلّب على فراشه طوال الليل، متنبّهاً على كلّ صوتٍ خفيف. وحين قرع الرجل على بابه بُعيد الساعة السادسة، كان آرثر قد استيقظ وارتدى ملابسه.

يحاول أن يتماسك، رغم التسارع في نبضات قلبه. يلمّع حذاءه، ويسوّي شاربه، ويدهن شعره بمرهمٍ عطريّ، ويرشّ الكولونيا على كُميّه. مزيجٌ غالي الثمن من البرغموت والخزامى وزيت الليمون، للمناسبات الخاصّة. هي محضُ أشياء يفعلها كي يهدّئ نفسه، لكنّه مع ذلك ما إن يصل إلى الجمعيّة حتى يقفز فوق الدرجات من فرط توتره.

---

(\*) كانت هذه وظيفةً معروفةً نشأت في بريطانيا مع الثورة الصناعيّة، وفي المدن خاصّةً حيث لا يستيقظ الناس باكراً مع طلوع الفجر. فيطرق الموقظ على باب الشخص في الوقت المحدّد لقاء أجرٍ معيّن. (المترجم)

في الصفِّ الأوَّل يجلس رئيس الوزراء وَلِيَمِ إِيَّوَرْت  
غلاستون، وهو رجلٌ ليبراليُّ الهوى وذو حَسٍّ دينيٍّ عميق، رجل  
دولةٍ واسع المعرفة، ويُقال إنَّه قرأ آلاف الكتب باللغات الحديثة  
والقديمة. على وجهه تعبيرٌ لا يوحي بشيء.

ينحني له آرثر، ويشكر أعضاء الجمعية على هذه الفرصة التي  
منحوه إيَّاهَا كي يقدِّم اكتشافاته. لكنَّه ما إن يقول ذلك حتى  
يتلعثم. فكلُّ هؤلاء الحضور الذين تحصَّلوا على تعليم رفيع  
جاؤوا إلى هنا كي يستمعوا إليه، وهو الناشئ الذي لم يكْدِ يصيب  
حُظًّا من التعليم. تجرَّحه الفكرةُ مثل مبضع ينفذ في اللحم، فتسُدُّ  
حنجرته لحظة. ماذا تُراه يفعل بين هؤلاء، ومن الواضح أنَّه لا  
ينتمي إلى هذا المكان؟ الأمرُ كلُّه يبدو خطأً شنيعًا. تسيطر عليه  
رغبةٌ مفاجئةٌ في مغادرة المكان، ويكاد يخطو خارجًا من خلف  
المنصَّة. يحاول أن يثبَّت أنفاسه وهو ينظر إلى قطعةٍ من لوح  
الطوفان أحضرها معه. يحفظها سطرًا سطرًا، عن ظهر قلب. باليةٌ  
تلك القطعة ومشروخة، تذكِّره بيدي أمه، فيريدها أن تفخر به.

«حضرات السادة المبجلون، لا يمكن أن نكتب قصَّة البشرية  
من دون قصَّة الماء». يتشبَّث آرثر بحافَّة المنبر كي يمنع ارتجاف  
جسده. «لكنَّا لا نكاد نولي اهتمامًا كافيًا لهذا المركَّب الرائع  
الذي تعتمد عليه حياتنا ومستقبلنا. وما أريد أن أطرحه عليكم  
اليوم من اكتشافاتٍ يتعلَّق بالأنهار والعواصف المطريَّة، وذكرى  
طوفانٍ قديم. والحال أنَّ تلك الذكرى الأليمة لم تبارح أهل  
البلاد التي سأحدث عنها: «ميزوپوتاميا». كثيرٌ من الحضور  
يعرفون بالتأكيد أنَّ هذه الكلمة تعني باليونانية «بين النهرين»».

ثم يبدأ آرثر في وصف المنطقة، إذ لاحظ أنَّ قليلين في إنكلترا يستطيعون تحديد موقعها على الخريطة، رغم افتتانهم بفكرة «أراضي الكتاب المقدس». فهي تظلّ غامضةً في ذهن العام، وبعيدةً وأجنبيةً وخياليّةً إلى حدٍّ كبير. يوضّح آرثر كيف كانت هذه الأرض موطنًا لحضاراتٍ لا حصر لها، ويؤرّخ للمدن والمعابد البديعة التي بناها أهلها، والتقدّم الهائل الذي حقّقه في العمارة والشعر والرياضيّات والحرب، وفي مجال الريّ على نحوٍ خاصّ.

يعلو صوته من أثر الحماس، فيخبرهم عن ملكٍ مدهشٍ يدعى آشوربانيبال عاش في نينوى قبل آلاف السنين. إذ كرّس هذا الحاكم نفسه للبحث عن المعرفة، على عكس من جاؤوا قبله أو بعده. فأنشأ مكتبةً ضخمة، وأمر مبعوثيه بجمع الألواح من كلِّ حذبٍ وصوب. وگلگامش على أهميّتها، ليست سوى قصّة واحدة من قصصٍ كثيرةٍ تزخر بها المكتبة. كانت هذه القصّة مكوّنًا أساسيًا من الموروث الشفهيّ، وظلّت إلى وقتٍ طويلٍ جزءًا مركزيًا من المخيال الجمعيّ، إلى أن دُوّنت على الطين في حوالى عام 1800 قبل الميلاد. وهذا يعني أنَّ تاريخ الملحمة يسبق قصّة نوح الواردة في العهد القديم بألف سنةٍ تقريبًا، أي قبل سفر التكوين بما يقرب من الألفيّة.

يتفصّد العرق من جبين آرثر وهو يحكي عن حرق مكتبة آشوربانيبال حين هاجم الأعداء المدينة. كان الدمار شاملاً، فأودى بالقصور والمعابد. قُتل السكّان، ونُهبت الكنوز، وسُوّيت المباني بالأرض. أمّا الألواح المسماريّة، فكانت لها قدرةٌ مذهلةٌ على البقاء، لأنّها مصنوعةٌ من طين النهر والماء. فيسهلُ على

النار أن تلتهم البرديّ والرقّ ولفائف الورق، لكنّها لا تملك للطين ضرّاً. بل على العكس تمامًا؛ إذ زادتْها الحرارةُ صلابةً. فتأتي القرون وتنقضي، والألواح باقيةً تحت الأرض.

ثم يصف آرثر كيف كرّس نفسه بحبٍّ لترجمة الملحمة عامًّا وراء عام. فقد ألزم نفسه بترجمة لوح الطوفان (الحادي عشر، في سلسلةٍ من اثني عشر لوحًا). على أنّ القصّة التي فكّ رموزها ما تزال منقوصة، فكان يجمع شظايا الكلمات وهو يدرك أنّ هناك فجواتٍ في القصيدة. هناك سبعة عشر سطرًا مفقودًا. ويختتم آرثر حديثه بالقول إنّ غاية أمنيّاته أن يجد تلك الأسطر ذات يوم.

ينفجر تصفيقٌ حارّ، صادق، وينحني آرثر لجمهوره يتفحّصهم، وقد احمرّ خجلًا. ثم يلمح القيم على المقتنيات الشرقيّة جاثمًا على حافة صفٍّ من الصفوف، يصقُّ كأبٍ فخورٍ لم يحظَ به آرثر قطّ. كما فوجئ آرثر بحضور السيّد إيثنز. لا بدّ أنّه جاء متأخرًا، وانسلّ إلى مقعدٍ خالٍ في الصفوف الخلفيّة. كان ينظر إلى آرثر بعينين لا شيء فيهما غير الدفء. كم يتمنّى آرثر أن يكون السيّد برادبري هنا أيضًا، ويتمنّى لو كان بإمكانه أن يدعو أمّه وأخاه وأخاه الراحل والطواشر الذين منحوه اسمه. كان سيسعد كثيرًا بالترحيب بهم بين هذا الحشد المرموق، بهم كلّهم أمواتًا وأحياء، أولئك الذين أحبّهم منذ أن كان صبيًّا صغيرًا، أولئك الذين شكّلوه وغيروه وجعلوا منه ما هو عليه اليوم.

\* \* \*

ينهض رئيس الوزراء ويمشي إلى المنصة، كي يلقي خطابًا طويلًا. يقدّم تهانيه لآرثر، مشيدًا بعمله الدؤوب ومؤكّدًا أهميّة

اكتشافه، في تجاهلٍ واضحٍ لمسألة ما إذا كان يعزّز الكتاب المقدّس أو يناقضه. ثم يمضي ليمتدح هوميروس، ويسمّيه صديق شبابه ورفيق منتصف العمر «الذي أرجو ألا أفارقه ما بقيت في أنفاس». صحيحٌ أنّ حديثه لا يتعلّق كثيرًا ببلاد الرافدين أو بملحمة جلجامش، لكنّ الحضور لا يبدو أنّهم يبالون بذلك، فقد اشتعلوا حماسةً لطرح الأسئلة على آرثر، وقد رفع كثيرٌ منهم أياديهم بالفعل.

يصيح صحافيّ: «سيدّ سمث. هل تودّ أن تذهب إلى نينوى للبحث عن الأسطر المفقودة في لوح الطوفان؟».

فيقول آرثر دون أدنى تردّد: «أوه، هذا حلمي. فمنذ أن كنتُ صبيًا وأنا أودّ السفر إلى نينوى».

فيصيح صحافيّ آخر: «معنى ذلك أنّك مستعدٌّ للتنقيب في الأراضي العثمانيّة يا سيّدي، تحت سيادة السلطان؟».

يتردّد آرثر، فلم يفكّر في هذه التفاصيل. «يسعدني أن أحاول، إن استطعتُ تأمين دعمٍ لهذا الأمر».

فيسأله صحافيّ آخر: «معنى ذلك أنّك تودّ من الحكومة أن تموّل بعثتك؟».

لكنّ رئيس الوزراء يستبعد الفكرة فورًا، قبل أن يردّ آرثر. «إنّ سمحتم لي بالتدخّل يا سادة، فأنا لا أحبّ تشجيع هذه الفكرة الخطيرة التي تفيد بأنّ من واجب الحكومة أن تنخرط في رعاية المبادرات الأثريّة. فقد كان من دواعي تميّز هذه الأمّة العظيمة وفخرها أن أنجزت أشياء كثيرةً جدًّا بالجهود الفرديّة. لا بدّ أن

تكون زيارة نينوى وليدة مبادرة خاصّة، وليس من الحكومة».

تتبع ذلك أسئلة أخرى عن السياسة ورجالاتها، ولا سؤال منها يهتم آرثر في شيء. يتفصّد العرق منه، ويجفّ فمه. لم يعد واثقاً من أنّ المحاضرة سارت على ما يرام، فلا يودّ في هذه اللحظة إلّا أن يغادر المكان ويعود إلى عمله. لكنّه وهو يخطّط للهروب، يرفع صحافيّ في الصفّ الأوّل يده.

- «سيدّ سمث. هل ستحتفل بنجاحك مع شخصٍ حميم هذا المساء؟».

- «لا يا سيّدي».

- «هل لك أن تخبرنا لماذا لم تتزوّج بعد؟ يودّ قرأونا أن يعرفوا».

يشهق آرثر، ويجاهد لإيجاد ردّ على هذا السؤال الذي لم يتوقّعه. ولم تخفّ على أحدٍ تلك الحمرة التي انتشرت من عنقه إلى جبهته.

- «أنا... كلّ ما في الأمر... ليس لديّ وقتٌ لهذه الأشياء».

فيسأله صحافيّ آخر: «هل تقصد أنّ الحبّ شيءٌ تافه؟».

يزداد التوتر في صوته، ويقول بتلعثم: «ل ل لم آتِ إلى هنا لأتحدّث عن الحبّ».

\*

في اليوم التالي، نُشرت أخبارٌ عن آرثر في جميع الصحف، مع صورٍ ورسوماتٍ له على الصفحات الأولى. يبدو وجهه هادئاً جاداً، لكنّ المرء حين يمعن النظر يجد عينيه تحدّقان في ضيق،

لا تُخفيَان أَنَّهُ لا يَصَدِّقُ ما يحدث له . غُيِّرَ شيءٌ من كلامه  
وَحُرِّفَ ، في حين ضُحِّمَت تفاصيل حياته وزُخِرَتْ .

فأطلقت عليه صحيفةٌ لقب «فاتح الأقفال الفكرية» ، وادَّعت  
أَنَّهُ معروفٌ بغرابة أطواره وعقله المتألق . وذكرت صحيفةٌ أخرى  
على نحوٍ مُخرج أَنَّهُ تجرَّد من ملابسه لفرط الحماس حين اكتشف  
أجزاءً من ملحمةً گلگامش . وأعرب أحد المحرِّرين عن دهشته من  
تواضع آرثر وخجله ، نظرًا للدور المثير الذي يؤديه في الجدل  
حول ما إذا كان العهد القديم قد نشأ من التراث البابليّ ، وما إذا  
كانت الأرض مخلوقةً بأمرٍ إلهيٍّ أم صدفةً عشوائيةً . في الوقت  
نفسه ، لقَّبته إحدى المجلَّات النسائية بـ «واحدٍ من أكثر العزَّاب  
الأكفَّاء في لندن» ، وحثَّت الشابات على ألا يتجاهلن هذا النجم  
الصاعد في علوم الآثار . يقول المقال إنَّ الأسطر المفقودة من  
لوح الطوفان ليست الشيء الوحيد الذي يحتاج آرثر إلى إيجاده ؛  
فالمفقود فعلاً في حياته هو الحبّ .

يقرأ آرثر في غرفته الصغيرة بالمتحف البريطاني كلَّ ما نشرته  
الصحف ، منزعجاً من مجاملاتهم وانتقاداتهم على حدٍّ سواء .  
أشارت إليه إحدى الصحف بـ «العبقريِّ القادم من العشوائيات» .  
يستوقفه هذا التعبير ، إذ لم ينسَ ما قاله مدير مدرسته : هذه  
العشوائيات لم تُخرج عبقرياً قط . لكنَّه لا يشعر بالرضا أو  
بالفخر ، بل بالتوتر لا أكثر . يغادر غرفته ويقترب من نافذة تطلّ  
على المدخل الجنوبيّ في شارع غريت رسل . تتدفَّق المدينة أمام  
عينه ، في هديرٍ من الأصوات ، وحشودٍ من الغرباء الذين يثرثرون  
عنه ، يقولون أشياء لا يريد أن يسمعها .

## - H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

تنعطف زليخة إلى شارع غريت رَسل، يتناهى إلى سمعها  
أزيرُ ساعة الذروة بعيدًا في الخلفيّة. ذهبت صباح اليوم لزيارة  
هَلِن في معرضها الذي يدعمه والداها. يقع المتجر في أحد  
الشوارع الجانبية المحيطة بالمتحف البريطاني، ويقدم مجموعة من  
أعمال الفنّ والمقتنيات، لكنّه يتخصّص في اقتناء القطع الأثريّة  
وتوثيقها وبيعها. أخبرتها الموظّفة أنّ هَلِن غير موجودة، فكتبت  
لها رسالةً وغادرت.

تمشي مسرعةً في طريق عودتها، وعقلها ممتلئٌ بأفكارٍ لا هي  
تستطيع أن تتجاهلها ولا أن تُسكتها. تلاميذُ المدارس يتدافعون



أمام بوابات المتحف، في ضجة مبهجة. تتنحى جانباً لتفسح الطريق لأم تدفع عربة طفلها، وترفع رأسها لحظة كي تنظر إلى المتاجر في الجانب الآخر. عندها فقط تتذكر ما قاله جيرانها عن أصحاب البيت العائم. لا بد أن متجر الوشم في مكان ما هنا.

تبطئ في سيرها كي تتفحص ما حولها، فتندesh حين تكتشف أن المتجر في مكان واضح. ها هو هناك، متجر الوشم بين مطعم ومتجر تذكارات. تتوهج على نافذته لافتة بالنيون الأزرق:

### الإلهة المنسية

ثمة نقش أصغر تحته بالنيون الأزرق أيضاً، لكن نظرها ضعيف، فتقترب أكثر كي تقرأه.

وشومنا تدوم أطول من معظم الزيجات

فلا تستطيع منع نفسها من النظر إلى الداخل.

لم يسبق لزليخة أن زارت محلّ وشوم من قبل، فيخطر في بالها أن ترى مكاناً قذراً، وموسيقى صاخبة، وأثاثاً رثاً، ومصاييح متذبذبة، والحشد المعتاد من شخصياتٍ بغیضة. لكنّها ترى مكاناً فسيحاً يشرح النفس، فيه أريكة أنيقة من المخمل الزمردّي، وكراسٍ بيض وأرضية مرصوفة ببلاط خزفي ذي ألوانٍ ترابيّة. ثمة مصاييح معلقة من خيزران، ونباتات طويلة وزهور كثيرة في أصص فخارٍ تمنح المكان شعوراً منزلياً. تغطي الجدار المقابل رفوف خشبية تفيض بالكتب والمجلّات. كل شيء يبدو دافئاً، ونظيفاً، ومرحباً في هدوء.

تظلّل زليخة عينيّها بيديّها، وتحّدق عبر النافذة. فينتابها حَرَجٌ خفيفٌ حين ترى أنّ هناك شخصًا في الداخل يراقب كلّ حركةٍ من حركاتها بابتسامةٍ مستمتعةٍ. رجلٌ طويل القامة، ممشوق القوام ذو شعرٍ داكن متموّج وعينيّين واسعتيّين. تلتقي نظراتهما، فتراجع زليخة وهي تشعر بأنّها متطفلة.

لا بدّ أنّه صاحب البيت العائم. ما يزال ينظر إليها، وما يزال يبتسم، فشعرت بأنّها مضطّرةٌ إلى التعريف بنفسها. تفتح الباب، فيرنّ جرس.

- «مرحبًا. هل يمكنني الدخول؟».

فيردّ الرجل بابتهاج: «بالتأكيد». ذراعه مزيتتان بالوشوم. ثم يضيف: «أخذت القرار أسرع ممّا توقّعت».

- «عفوًا؟».

- «الوشم. أليس هنا للوشم؟».

- «أوه، لا، لا... مررتُ بالمكان ليس إلّا». تدفع شعرها للخلف، ثم تقول: «في الواقع، كنتُ أودّ التحدّث إليك».

- «إليّ أنا؟».

- «نعم، أنا المستأجرة. استأجرتُ بيتك العائم في تشلسي».

يرتسم ارتباكٌ على وجهه لحظةً ثم يُشرق. «ليته بيتي... أنت تقصدين نين».

- «أوه، المعذرة، ظننتُ أنّك -».

- «لا عليك. إنّها في الطابق السفلي».

إنَّها . لم تتوقَّع زليخة أن تكون صاحبة البيت العائم امرأة .  
فعاتبت نفسها على افتراضها بأنَّه لا بدَّ أن يكون رجلًا .

فيقول الرجل : «قاربٌ جميل ، أليس كذلك؟ أقمنا فيه بعض اللقاءات للموظَّفين» .

فتومئ زليخة ، رغم أنَّ فكرة شربهم ، وتدخينهم ، وعمل وشوم في المكان الذي أصبح الآن بيتها تبدو مقلقةً بعض الشيء .  
الأفضل ألاَّ يعرف خالها شيئًا عن الأمر أبدًا . «المنظر مذهل» .

- «يصبح أفضل مع المطر ، وهذا ما يحدث في معظم الوقت تقريبًا . ارتاحي من فضلك ، وسأذهب لأرى إن لم تكنِ نِ مشغولة» .

وحدها في الغرفة ، تنظر حولها ، مفتونةً بالأعمال الفنيَّة المعلقة على الجدران . ثمة رسومٌ متعدِّدةٌ بتصاميم مفصَّلةٍ وصورٍ أسطوريَّة ، بعضها في براويز ، وبعضها مثبتٌ على ألواحٍ فلين . على الطاولة الصغيرة دفتريٌّ كبيرٌ مفتوح ، مملوءٌ برسائل شكرٍ من زبائن سعداء . وإلى جانبه ألبوم صورٍ لأشخاصٍ يستعرضون وشومهم . أشخاصٌ من كلِّ سنٍّ وعرقٍ وخلفيَّة اجتماعيَّة . كثيرون وشموا على أجسادهم تلك الرموز الغريبة نفسها . فتميل زليخة برأسها ، تحاول أن تفهمها .

- «مرحبًا» .

تلتفت زليخة ، فترى امرأةً ترتدي فستانًا أزرق منسدلاً وحذاءً جلديًا أسود يصل إلى الكاحل . شعرُها عسليُّ اللون يصل إلى

كتفها، متموّجٌ جامعٌ بعض الشيء، وكأنَّ هبةَ ريحٍ عبثت به. تشبه الرجل في بنيته الطويلة النحيلة، لكنّها تبدو أكبر سنًا، ربّما في منتصف الثلاثينيات أو أواخرها.

- «أهلاً وسهلاً. أنا زين. سمعتُ أنّك من سيعتني بالبيت العائم. شكرًا لك».

تصافحها بيدٍ قويّةٍ ثابتة.

لم تتوقّع زليخة أن يشكرها أحدٌ على استئجار منزل، فتقول: «أعتذر عن المجيء دون موعدٍ مسبق. كنتُ في الجوار، ولم أخطّط للدخول، لكنّ أحد موظّفيك رآني أحدّق -».

فتقول زين في ابتسامة: «أخي. هذا أخي الأصغر. ولديّ أربعة آخرون».

- «لديك خمسة إخوة؟».

- «نعم، كلّهم أصغر منّي. نحن عشيرةٌ كبيرة».

لطالما كانت زليخة مفتونةً بالأسر الكبيرة، فلم تستطع أن تمنع نفسها من السؤال: «كيف كان الأمر في نشأتكم؟».

- «يعتمد على المرحلة التي نتحدّث عنها. كان الأمر فظيعةً جدًّا حين كنتُ صغيرة. فالأولاد صاخبون، لا يكفُّون عن الشجار. وكان الأمر أسوأ في فترة المراهقة. جوارب متسخة في كلّ مكان... ولكن في مرحلةٍ ما أصبح الأمر نعمةً ما بعدها نعمة. ماذا عنك؟».

- «أوه، أنا وحيدةٌ أبويّ».

- «وكيف كان الأمر في نشأتك؟».

- «مُوحِشًا بعض الشيء. لكنَّ ابنة خالي هِلن كانت بمثابة أختي، إنَّ كان هذا يُحتسب».

- «أبناء الخؤولة والعمومة، والأصدقاء، والكتب، والأغاني، والقصائد، والأشجار... أيُّ شيءٍ يجلب المعنى لحياتنا يُحتسب».

تمرُّ في الخارج مجموعةٌ من السيَّاح في طريقهم إلى المتحف البريطاني، فتتناهى ثرثرتهم عبر النافذة.

- «هل كلُّ شيءٍ على ما يرام في القارب؟».

فتقول زليخة: «نعم، نعم، كلُّ شيءٍ على ما يرام». لكنَّها تشعر بالحاجة إلى تبرير زيارةٍ لم يكن لها من دافعٍ سوى الفضول، فتقول: «لكنَّ هناك تسريبًا في المغسلة».

- «أيَّ مغسلة؟».

- «في المطبخ».

- «حقًا؟ آسفةٌ جدًّا، فلم أكن أعرف. لكنَّه ليس عذرًا. ينبغي أن أكون على اطلاعٍ بهذه الأمور».

فتقول زليخة: «لا بأس. مجرد أمرٍ صغير».

- «ولكنَّ ينبغي أن نصلحها». تضع نين خصلةً من شعرها خلف أذنها، ولديها ابتسامةٌ حاضرة، تدفئ وجهها كله وتضيء عينيها الخضراوين، المؤطرتين برموشٍ كثيفةٍ طويلة، مطليةٍ بمسكرةٍ زرقاء. تستجيب لنظرة زليخة الممتلئة بالفضول، فتسألها: «هل تريدن قهوة؟».

- «أوه، لا أودّ أن أثقل عليك -».

- «أبدًا أبدًا. قهوتنا معروفةٌ وتستحقّ التجربة، إن صحَّ لي أن أمتدح قهوتنا». تسير إلى آلة فوق خزانة مزخرفة، وترفع الإبريق عاليًا وكأنّها تقدّم الدليل على كلامها. «أعددتُها لتؤي».

- «شكرًا لك. قهوتي سادة من فضلك. بلا سكر». تُدرك الآن أنّها لم تعرّف بنفسها بعد. «اسمي زليخة بالمناسبة».

فتقول زين وهي تنطق الاسم بمقاطع ثلاثة واضحة: «سعيدة بلقائك يا زليخة».

- «قد يكون نطقه صعبًا بعض الشيء. لا تقلقي إن أخطأت، فمعظم الناس يخطؤون».

تقول زين وهي تتناول كوبًا يتصاعد منه البخار: «اسمٌ جميل. اسمي اختصارًا لبرين».

- «أيرلندي؟».

- «نعم. ومعناه «قطرة ماءٍ صغيرة»».

تومئ زليخة، وأصابعها تشتدّ حول الكوب. ثم تقول في ردّ فعلٍ شبه عفويّ: «وظيفتي دراسة الماء».

- «صحيح؟ هذا رائع. استأجرتُ قاربي عالمة!».

تفتّح ابتسامةٌ صغيرةٌ على وجه زليخة، أقرب إلى الإحراج منها إلى السرور. لكنّها تندهش ممّا تسمعه من زين بعد ذلك.

- «علاوةً على أنّك سُميتَ تيمُنًا بامرأةٍ استثنائية. زليخة الأسطورية. رائعٌ جدًا».

ترشف زليخة من قهوتها، عاجزةً عن الردّ. القهوة قويّةٌ وغنيّةٌ، لكنّها ليست مرّةً، وبها طعم شيءٍ لا تستطيع تحديده.

فتقول نين وهي تراقب ردّ فعلها: «خزامى. نضيف زهر الخزامى المجفّف في قهوتنا، فيوازن الكافيين، ويجعلك متيقّظةً في هدوء».

«لذيذةٌ جدًّا». تنظر زليخة في الغرفة حولها، وتقول: «ما تلك الرموز على الجدران؟».

- «كتابةٌ مسماريّة. هو نظام كتابةٍ من بلاد الرافدين، قبل آلاف السنين. وأنا أوّشم بالكتابة المسماريّة بطبيعة الحال».

- «مذهل! وما طبيعة الأشياء التي يطلب الناس منك وشمها؟».

- «كلّ شيء. أسماء أحبّائهم، كلمات تهّمهم... أو أبياتٍ من قصيدةٍ أو أغنية. يمكنك أن تكتبي أيّ شيءٍ بالكتابة المسماريّة. دعيني أريك».

تضع نين كوبها على رفّ، وتُخرج عودين من أعواد الأكل وصلصال. «هذا هو العجين الذي أستخدمه للتمرين. أصنعه بنفسى من طحينٍ وماءٍ وقليلٍ من الملح. انظري...». ثم تضغط طرف العود على السطح اللين، وتديره مرّةً بعد أخرى بحركاتٍ ماهرة، وتركيزٍ مُطلق. وحين تنتهي، تظهر مجموعةٌ من العلامات الإسفينيّة مطبوعةً بأناقةٍ على اللوح الشاحب.

فتمدّ زليخة رأسها وتساءل: «ما معنى المكتوب؟».

- «هذا اسمك».

تنظر زليخة من قرب، تتفحص الأشكال التي تبدو كرؤوس سهام تشير إلى الطريق. «لغة غريبة جدًا».

فتقول نين بهدوء: «غير أنَّ الكتابة المسماريّة ليست لغة. وليست أبجديّة تمامًا، فليس فيها حروف. هي أقرب إلى مجموعة من المقاطع. كتابة مقطعيّة رمزيّة استخدمتها حضارات كثيرة: السومريّون، والأكديّون، والبابليّون، والآشوريّون، والعيلاميّون، والحثيّون...».

يقطع كلامها نين جرسٍ إثر فتح باب المحلّ. امرأةٌ ورجلٌ يتشاحان بالأسود من الرأس إلى القدم، يدخلان المحلّ يدها في يده، مبتسمين.

– «مرحبًا نين».

فتقول نين بابتسامةٍ مثلها: «عُدتما إذن! كنتُ أحسب أننا اتّفقنا على ألا ترياني وجهيكما ثلاثة أشهرٍ على الأقلّ؟».

فتقول المرأة: «لا تكوني قاسية. لا نستطيع الانتظار طويلاً».

– «كنّا نتساءل إن كنتِ تستطيعين كتابة كُلِّوا الأغنياء بالكتابة المسماريّة».

– «في الواقع، هو يريد كُلِّوا الأغنياء، وأنا أريد حواءَ مظلومة».

فتضحك نين وتهزّ رأسها. «معتوهان».

تلتقط زليخة حقيبتها وتنهض. «يُستحسن أن أذهب. شكرًا



على القهوة». وتترك العجين على الطاولة.

فتقول زن: «احتفظي به، إن أردت. إنه اسمك». ثم ترفع عينيها وتشير إلى الرجل والمرأة: «ما رأيكما أن تنتظراني في الطابق السفلي؟ سألحق بكما».

فتهتف المرأة: «يا سلام!».

تتجه زن نحو زليخة، ويتعمق الأخضر في عينيها مع الضوء المتغير. «بخصوص حوض المطبخ... يمكنك إصلاحه وإرسال الفاتورة لي. أو إن شئت يمكنني أن آتي مع سباك هذا الأسبوع لنلقي نظرة».

- «لا أودّ إزعاجك».

- «لا إزعاج على الإطلاق. أذهب مع أصدقائي دائماً صباح السبت للبحث عن الآثار في الطين قرب النهر. سيكون البيت في طريقنا على أي حال».

- «تذهبن للبحث في الطين؟».

- «نعم، مع انخفاض المدّ. تماماً كالعصر الفكتوريّ، ولكن دون مجارٍ كثيرة لحسن الحظّ».

- «وهل وجدت شيئاً يثير الاهتمام؟».

- «أوه، أكواماً! يختلف الأمر في كلّ مرّة، فلا تعرفين أبداً ما يقدّمه النهر كلّ يوم. لديّ في البيت كومة من عظام السلاحف. هل تعلمين أنّ الفكتوريّين كانوا يحبّون حساء السلاحف؟ ولديّ أيضاً كسر فخّار، وغلايين تبغ، وقواعد أعمدة من العصر الحجريّ الحديث، وعملات سلتية، وغير ذلك».

حضارات كثيرة تركت آثارها على لندن. لقد عثرت ذات مرة على قنبلة يدوية من الحرب العالمية الثانية. كان الأمر مخيفاً بعض الشيء. اضطررنا إلى استدعاء الشرطة، وشاهدناهم وهم يفجرونها». ثم تتوقف نين قليلاً وتتفكر. «لكنني أحب التنقيب في طين النهر عن أشياء مفقودة أو مهملة».

تمشيان نحو الباب ثم تتوقفان. تبدل زليخة بين قدميها في وقفتهما وتقول: «إذن، سأراك يوم السبت».

- «اتفقنا». ثم تستدير نين نصف استدارة في مواجهة زليخة، وتنظر في عينيها. «الغريب أنني حين رأيتك لم أر فيك شخصاً يود هذا النوع من الحياة. أقصد «التسكع في القوارب»».

تنكمش زليخة وهي تدرك الإحالة إلى كتاب أطفال كانت أمها تقرأه لها، بعنوان الريح في أشجار الصفصاف. فتقول بوجه ينطفئ: «نعم، لم أعش على الماء من قبل».

- «الأمر مميز جداً. حين تستيقظين في بيت عائم على صباح ماطر أو تشاهدين غروب الشمس فوق النهر، ربّما لن تودّي العودة إلى اليابسة أبداً».

- «صحيح؟».

- «نعم. مرحباً بك إذن في قبيلة الماء».

\* \* \*

تجلس زليخة عند النافذة في بيتها العائم ذلك المساء، وما يزال طعم الخزامى المجفّف في فمها بعد ساعات من مغادرتها محلّ الوشوم، تحمل في راحتها قطعة العجين التي كُتب عليها

اسمها بالكتابة المسماريّة. في الخارج تنزلق السماء نحو الظلام،  
فيما يستقرّ اللّاماسو الخزفيّ الصغير على حجرها. لقد ألصقت  
جناحه المكسور قدر استطاعتها، لكنّ الطرف مفقود، وغيابُ  
القطعة يبقى ملحوظًا مهما كانت صغيرة. تضغط برفقٍ على  
الحوافّ، وكأنّها تحاول تقدير ما إذا كانت الوصلة ستصمد.  
تُدرك أنّها لا بدّ أن تتوقّف، وإلاّ انفصلت مرّةً أخرى، لكنّ  
إصبعها ما يلبث أن يعود إلى الشرخ، ذلك الكسر، وكأنّها تختبر  
عمق الألم.



3

أنهارٌ قلقة





-O-

مكتبة

t.me/soramnqraa

آرثر

بجوار نهر التمز، 1871 - 1872

تمرُّ الأشهر التالية للمحاضرة في جمعيّة آثار الكتاب المقدّس بسرعةٍ غريبة. يتلقّى آرثر دعواتٍ للتحدّث في الجمعيات التعليميّة، ويطلب حضوره في نوادي السادة. يرحّب به هؤلاء السادة الذين يرتدون ربطات عنقٍ حريريّة بأسلوبهم اللبق، ويدعونه إلى غرف التدخين. يتذوّق هناك أطعمةً لذيذةً لم يسمع بها من قبل، ويشارك في وجباتٍ من اثني عشر طبقًا تُقدّم على صحونٍ خزفيّة فاخرة. أوّز مشويّ، وسلطة سرطان البحر، وحلوى الأرنب، وحساء السلاحف، وطبقٌ أخير ينفر منه حين يعلم أنّه يُطبخ بإزالة رأس السلحفاة ووضع البقيّة في ماءٍ مغليّ، بدرعها كاملاً.

يدخل بيوت الأثرياء، فيندهش من المرايا المذهبة، والثريات الذهبية، وأدوات المائدة المصنوعة من فضة خالصة، ويرتشف الشمبانيا من كؤوس برّاقة. يتأمل اللوحات المعلقة على الجدران في إعجاب، ويتساءل في نفسه كيف كان الفنانون الكبار سيصوّرون هذه الأماكن التي وجد نفسه فيها على سبيل الحظ. في الوقت نفسه يتقاطر الناس للجلوس إلى جانبه، في حرص على الحديث معه. نساءً في أثواب الحرير والساتان بشعر مصفّف بأناقة يبتسمن له حين يتلعثم ويحمرّ وجهه من مجاملاتهنّ. والحال أنّ خجله وارتبাকে يزيدانه جاذبيّة.

هكذا يمضي آرثر، أسبوعًا بعد أسبوع، يرفع الأنخاب ويتناول الحلويات مع مصرفيّين ومحامين وسياسيّين ومُحسنين، لكنّه في أعماق نفسه يشعر بإحباط متزايد. فرغم أنّ الجميع يثني على نجاح محاضراته، ويهنّئه على فكّ الكتابة المسماريّة، فإنّ عقله مشغولٌ بالجزء المفقود من لوح الطوفان في مكانٍ ما في نينوى.

في إحدى تلك الأمسيات، في بيتٍ في منطقة ذا بولتونز، يُقدّم آرثر إلى شابّة فاتنة. تنحدر مايبل من عائلة عريقة ميسورة، ورغم أنّها أصابت شيئًا من التعليم، فهي غير مثقّفة تمامًا. لكنّها تبدو مفتونةً به، ومهتمةً بعمله. لها ابتسامةٌ طبيعيّة، وعينان تتألّقان على بشرتها الرخاميّة الناصعة المتوهّجة بالدفع. تتحدّث بسرعة، ولكنّ في تردّد، وتظلّ يداها تلمسان عنقها من دون هدف، وكأنّها تتحقّق من كلماتها قبل أن تنطق بها. لا يغيب عن آرثر أنّ زملاءه



وأصدقاءه يحاولون تزويجه، ولا يتشكك أو يقاوم حين يلقاها مرة بعد أخرى في أماكن مختلفة، فيما يبدو مصادفة، وهو متيقن من أنها عمّا قريب ستملّ غرابه أطواره وتحفّظه، رغم أنها لا تُبدي أي علامة على ذلك.

وبينما يمضي آرثر وقتًا أطول في أوساط الطبقة الوسطى، يدرك شيئًا لم يكن يعرفه عنهم؛ وهو أنهم مشغولون بالسعادة الزوجية والحياة المنزلية. فلا سگان العشوائيات الذين يكافحون يومًا بعد يوم للبقاء على قيد الحياة، ولا الأرستقراطيون المهتمون بالحفاظ على إرثهم وثرواتهم، لا هؤلاء ولا هؤلاء ينظرون إلى الزواج بوصفه مثالاً رومنسياً يكاد يصل إلى حدّ القداسة. فقد قيل له مرارًا وتكرارًا إنّ بيت الزوجية حصن الرجل الإنكليزي ضدّ العالم بأسره. لكنّ آرثر لديه أمورٌ أكثر إلحاحًا في ذهنه. فلا يمرّ يومٌ ولا ساعة واحدة لا تهيمن عليها ألواح الرافدين.

لا يعرف كيف يقول إنّ معظم الزيجات تبدو له تعيسة، وإن لم تكن تعيسة، فهي جافّة وكئيبة ومملّة. وعلى أيّ حال فإنّ جاذبيّة كثير من النساء ما تزال لغزًا محيرًا بالنسبة إليه. لم يحاول قطّ أن يجذب انتباههنّ، أو يجعل نفسه مميّزًا في أعينهنّ. فالحقيقة أنّه سلّم منذ زمنٍ طويل بأنّ هذه طبيعته؛ إذ يمكنه بسهولة أن يقضي حياة كاملة دون أن يمسّ إنسانًا آخر.

\*\*\*

في ظهيرة خريفية عاصفة، وبينما تدقّ ساعة الكنيسة عند الثانية ظهرًا، يتلقّى آرثر استدعاءً من محرّر الديلي تلغراف. يحضر

الاجتماع وهو يتوقع ساعة أخرى من الثروة الفارغة، فيُضمر أن يغادر في أسرع وقتٍ ممكن، لكنه يتفاجأ، حين يخبره الرجل أن الصحيفة تودّ أن ترعى حملة تنقيبٍ أثريّ. فهم مستعدّون لدفع ألف جنيه. وكي يكون هناك تكافؤ في الفرص، سينشرون إعلاناً يطلبون فيه من المتطوّعين أن يتقدّموا، ثم يختارون أفضل مرشّح من بينهم. يقول المحرّر إنّه مجرد إجراءٍ شكليّ، إذ لا يخطر في باله شخصٌ يناسب هذه المهمة أكثر من آرثر.

يظلّ آرثر ينتظر ظهور الإعلان طوال الأسبوع، وما إن يُنشر الإعلان، حتى يكتب رسالةً على عجل. وما هي إلّا أيّام قليلة حتى تعلن الصحيفة أن «العبقريّ القادم من عشوائيّات تشلسي» قد اختير لهذه الحملة.

ولأوّل مرّة في حياته يشعر آرثر وكأنّ آلهة القدر الثلاث (اللائي ينسجن مصائر البشر) يتبسّمن له. هكذا يأخذ إجازةً مدّتها ستّة أشهر من المتحف البريطانيّ ويبدأ التحضير للرحلة. وعندها فقط، حين يبدأ في احتساب الأسعار لكلّ الأغراض المطلوبة في الرحلة، يُدرك أنّ الأموال التي بدت سخيةً جدّاً في أوّل الأمر محدودةٌ نوعاً ما. فلا بدّ أن يكون حريصاً في ميزانيّته الشخصيّة، بما في ذلك نفقات طعامه. لكنّ هذا لا يهمّ، فهو عازمٌ على هدفه، ومستعدّ للانطلاق إلى أرض گلگامش. سيصل الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيّات أخيراً إلى ضفاف دجلة.

والدّ ما بيل مذهولٌ من براعة وإمكانيّات الشاب الذي يواعد ابنته، ويتوقّع أن يعود آرثر من نينوى إمّا بثروة كبيرة، وإمّا بشهرة

عظيمة، وإمّا بكليهما في أفضل الأحوال. يرتّب لقاء معه، ويحثّه على التقدّم للزواج من ابنته قبل أن ينطلق إلى الأراضي الغربية. يقول لآرثر إنّ من دواعي الاستقرار للشاب أن يعرف أنّ هناك شخصًا ينتظره في بلده، فيكون أشبه بالمرساة التي من دونها قد ينجرّف المرء بسهولة. والمرأة في حاجة إلى هذا الاستقرار أيضًا، تحتاج إلى مسارٍ آمنٍ مرسومٍ للمستقبل. هكذا، وبناءً على تشجيع الوالد، يذهب الاثنان في رحلةٍ بالقارب على نهر تشيرون، برفقة شقيق ماويل الأصغر. ينظر آرثر إلى الشمس وهي تبقّع فستان ماويل تحت مظلتها المكشكشة، فتصنع أنماطًا تدور، كالماء، كالحلم. يجلسان في بادئ الأمر في صمتٍ لطيفٍ لا يقطعه سوى تعليقاتٍ مهذّبةٍ عن الطقس والمنظر، لكنّ ماويل ما تلبث أن تمطره بالأسئلة. يبدو وكأنّها تشاركه شغفه بالسفر، ولديها تعطشٌ مماثلٌ للمغامرة وامتطاء المجهول، فهي محصورةٌ في عالم يبدو فيه كلّ شيءٍ مألوفًا للغاية. وبينما هما ينزلان من القارب، يمسك يدها المقفّزة في لفّةٍ طبيعيّةٍ من آداب السلوك، لكنّه يفاجأ حين تترك يدها تلبث في يده بضع لحظات. وببطء، دون أيّة مقدّمات، تقترب جدًّا حتى يرى بقع الشمس الذهبية في عينيها الزرقاوين، فتمنحه قبلةً خفيفةً جدًّا على شفتيه.

تركه القبلة مذهولًا، فيشعر بأنّه ملزمٌ بقول كلمةٍ لطيفة، لكنّه لا يعرف ما ينبغي عليه أن يقول. يتلعثم، ثم يقول أخيرًا: «شكرًا على إعجابك بي، لكنني لستُ محبوبًا جدًّا».

تضحك ماويل، ورغم أنّ لضحكاتها رنينًا كالأجراس الزجاجيّة، فإنّ آرثر يفقد الشجاعة أو الرغبة في قول أيّ شيءٍ آخر.

وحين يستعيد هذه اللحظة في ذهنه لاحقًا، يقنع نفسه بأنه من المفيد أن يبني المرء علاقةً مع إنسانٍ آخر، أو ربّما حتى أن يكون أسرة، مثلما تفعل أشجار الصفصاف المزروعة على ضفاف النهر حين تغمس أغصانها في التيار كي تقلّل من وحشتها. ورغم أنّه لا يستطيع أن يتخيّل نفسه زوجًا محبًا، ويخشى من فشله في أن يحقق ما تتوقّعه منه ما بيل، فإنّه يتوق إلى حياةٍ منزليّةٍ مستقرّة، وإحساسٍ بالانتماء. قيل له إنّ الخطوبة المثاليّة لا ينبغي أن تزيد عن اثني عشر شهرًا، وفي ذلك الوقت سيكون قد عاد من نينوى.

كلُّ شيءٍ جاهزٍ للرحلة، لكنّ هناك شيئًا واحدًا ينبغي على آرثر أن يقوم به قبل أن يغادر لندن: لا بدّ أن يزور والدته. ورغم أنّهم رفضوا طلباته لزيارتها منذ أن دخلت المصحّة، فإنّه سُمح له الآن فجأةً بزيارتها، بعد أن أصبح مشهورًا.

في صباح يوم الخميس، يستقلُّ عربةً إلى مصحّة ميدلسكس كاونتي للمجانين في هانول، على أطراف لندن. مبنّى مهيبٌ من الطوب الأحمر بجناحين ونوافذ منزلفة، في وسط حديقة قاحلة خلف أسوارٍ عالية. يقدّم آرثر نفسه لحارس البوّابة الذي يسجّل جميع الداخلين والخارجين في دفتر. وما إن يسجّل دخوله، حتى يترجّل من العربة ويسير على قدميّهِ. لقد زادت الحاجة إلى مستشفيات الأمراض العقليّة في العقود الماضية نظرًا لانتشار مرض الزهري، فبُنيت أكثر من ستّين منشأةً جديدة. ويُقال إنّ هذه واحدةً من أفضل المنشآت في البلاد.

في الداخل، يستقبله الطبيب المسؤول عن الجناح وممرضة في منتصف العمر بشفاةٍ رقيقة وهشة، حتى إنّ ابتسامتها تبدو أشبه بالجرح، لكنّها لا تبتسم كثيرًا. أمّا الطبيب الممتلئ ذو الوجه المغطى بالبثور فيبدو مرحًا، وربّما أكثر من اللازم بالنسبة إلى منصبه. كان قد سمع أنّ رئيس الوزراء بنفسه حضر محاضرة آرثر، فرغب في مقابلته شخصيًا، لكنّ آرثر لم تكن لديه أيّ رغبة في الحديث عن ألواح الرافدين. فكلّ ما يريد الحديث عنه هو والدته.

يقول الطبيب: «حسنًا، هي مصابة بالمانخوليا [الكآبة]». - «وما تعريف ذلك تحديدًا؟».

فيشرح له الطبيب أنّ زميله المبجل الدكتور بلاندفورد نشر مؤخرًا مقالًا علميًا عن الجنون، وحدّد فيه أربعة أنواع مختلفة من المانخوليا: القاتمة، والقلقة، والمؤذية، والمتعجرفة. ولكلّ منها سبب جذريّ مختلف، وبالتالي يتطلّب علاجًا خاصًا.

- «وأُمّي مصابة بأيّ نوع؟».

- «المانخوليا القلقة».

- «وهل هي خطيرة جدًا؟».

- «للأسف هو مزيجٌ خطيرٌ إلى حدّ ما. فالقلق يُنهك العقل، ممّا يجعل تهدئته أمرًا في غاية الصعوبة. وفي الوقت نفسه، فإنّ المانخوليا عبارة عن حزنٍ غير معقولٍ يشلّ الجسد. الأمر أشبه بأن يُسحب جسدك في اتجاهين مختلفين في الوقت نفسه».

يتساءل آرثر في نفسه ما إذا يمكن للحزن أن يكون غير معقول. ماذا لو أنّ له أسبابًا خاصّة، حتى وإن لم تكن واضحةً

للآخرين؟ فيسأل في تردّد: «ألم تبدُ عليها أيّ علامات تحسّنٍ منذ أن جاءت إلى هنا؟».

فيكتفي الطبيب بالقول: «سوف يستغرق الأمر بعض الوقت».

\*

يوجّهون آرثر إلى أعماق المبنى، يخطو في ممرّاتٍ طويلةٍ خافتة الإضاءة، ويسمع همهماتٍ من وراء الجدران. يلمح المرضى، بعضهم يتحرّك ببطء، وآخرون محصورون في أسرّتهم أو مقيّدون بأحزمة، وبعضهم حلق الرأس.

تقول الممرّضة: «القمل. أمرٌ فظيع. لا توجد طريقة أخرى للتعامل معه».

فيسألها آرثر: «ولكن لماذا البعض مقيّد بالسلاسل؟».

– «لا بدّ من ذلك، وإلا سيؤذون أنفسهم».

ثم تخبره الممرّضة نفسها بأن والدته حاولت في هذا المسار اليائس عدّة مرّات، فقطعت أصابعها على زجاج مكسور، واقتلعت خصلاتٍ من شعرها. لذلك ينبغي ألا يتفاجأ حين يرى الأحزمة حول كاحليها.

مخالبٌ من قلقٍ تنهشه، فيتبع الممرّضة إلى غرفةٍ بقضبانٍ حديديةٍ على نوافذها. يتوقّف، بالكاد يتنفس. ثماني مريضاتٍ هنا، ولا يكاد يتعرّف عليها بينهنّ. ليس جسدها الذي تغيّر، بقدر ما تغيّرت عيناها. فهناك فراغٌ في نظرتها، والحدقة تكاد تغرق في سواد بؤبؤها. ثمّة انكسارٌ في تعبيرها، يذكره بالشقوق العميقة في طين النهر. أمامها صينيةٌ عليها أوراقٌ مقطوفةٌ من شجرة كستناء الحصان. تلتقط الواحدة تلو الأخرى، تملّسها، ثم تضعها جانباً.

تبدو منغمسةً في مهمَّتها، لكنَّها ترفع نظرها حين يقترب.

- «أمِّي... هذا أنا، آرثر. جئت لأراك». يُشرق وجهها قليلاً.

فيقول آرثر: «تبدین بخير». يتجعد جبينه وهو يبحث جاهداً عن كلمات. «قال الطبيب إنَّك في حالٍ جيِّدة. حاولتُ زيارتك مرَّاتٍ كثيرةً من قبل، لكنَّهم لم يسمحوا لي بالزيارة إلى أن تشعرِي بتحسُّن... لا بدَّ أنَّك تحسَّنتِ كثيراً إذن».

يتمنَّى، بتوقٍ مؤلم، أن تردَّ بشيء، لكنَّها لا تردّ. ثمة خمولٌ في جلستها، وفتورٌ ملموسٌ يشكِّكه في حقِّ الطبيب بأن يصف حالتها العقليَّة بالقلقة. فحالتها تبدو بالأحرى ساكنة، مخدَّرة.

كان قد خطَّط لإخبارها عن ما بيل وما حدث بينهما من مغازلة، إنَّ جاز له أن يسمِّيها بذلك. لكنَّه يجد نفسه يروي قصَّةً گلگامش وسَّعيه النهم، وإحساسه بالقلق الذي يحمله إلى أقاصي الدنيا. يتحدَّث، فتقترب بعض المريضات للاستماع، ويبدو الأمر وكأنَّهنَّ يجلسن حول نارٍ متوهَّجة في الهواء الطلق، والريح ممزوجةٌ بالدخان والكلمات، تتماسك بخيوطٍ سرديٍّ مشترك. يبدو الأمر قديماً بشكلٍ من الأشكال.

- «سأسافر قريباً للبحث عن الأسطر المفقودة من القصيدة. سستمرُّ فترةً دون أن أستطيع زيارتك. سأذهب إلى الشرق، إلى الأراضي العثمانيَّة. يقولون إنَّ هناك أربعمئة وأربعين امرأةً في حريم السلطان».

تضحك إحداهنَّ. ليست أمَّه.

- «تمنّي لي التوفيق، أرجوك. حين أعود إلى لندن، ربّما يرقّونني في المتحف البريطاني. وعندها سيكون لديّ راتبٌ لائق، وسأخرجك من هنا. وستكون لديك شراشف نظيفة، وخبزٌ طازجٌ كلّ يوم. وخادمةٌ تحت أمرك! ستشعل النار في الصباح، ولن تبرد يدك بعد الآن».

يحفحفُ غصنٌ خارج النافذة ذات القضبان، وكأنّه يحاول الدخول. لعلّه من شجرة الكستناء نفسها التي جاءت منها الأوراق، يريد استعادة أوراقه. ثم يبدأ المطر، في رذاذٍ رقيق، كئيب.

يقول آرثر: «أريدك أن تفخري بي». ورغم أنّه يرى والدته تغفو، تتباطأ حركاتها وإيماءاتها، فإنّه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الحديث بحماس، وكأنّ للكلمات شيئاً من القوّة، وتأثيراً منعشاً في الروح. «أذكر أوّل مرّة رأيتك فيها يا أمّي. أذكر صوت النهر، والريح المتجمّدة، والثلج الذي يتساقط من السماء... كنت جميلةً جدّاً... أنت دائماً جميلة».

ثم يُخرج من جيبه شيئاً خشبياً صغيراً. لقد نحت لها لاما سو صغيراً. مخلوقٌ جميل، مفعّمٌ بالحياة، رغم أنّه لا يضاهي براعة الفنّانين في بلاد الرافدين. لكنّه روحٌ حارسة، سيضعه بجانب والدته كي يحميها حين يرحل عن لندن.

بعد ثلاثة أيّام سيكون في طريقه إلى نينوى.



## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

«ثلاثة أيام أخرى وسنكون في طريقنا». هكذا تقول الجدّة، وهي تعدّ زوادة الطريق في حماس. ففي هذا الصباح حَشَت أوراق العنب بالرزّ والتوابل والزبيب الأسود، وها هي الآن تصنع البوريك، تلك المعجنات المقرمشة المحشوة بالسبانخ وجبنة الفيتا. وتهتف نارين: «أنا متحمّسة جدًا».

– «وأنا أيضًا يا قلبي. فليحفظنا خِضرٌ»(\*) في طريقنا».

---

(\*) خِضر: شخصيّة مقدّسة لدى اليزيديّين، يحتفلون بعيده (عيد خضر الياس) في بداية شهر شباط / فبراير، وهو نفسه الخضر المشار إليه في سورة الكهف في القرآن الكريم. (المترجم)

خَضِرُ رَوْحٍ حَارِسَةٌ، وهو راعي المسافرين والمتعلّمين والعشّاق. وكلّهم سواءٌ تقريبًا في رأي الجدّة.

كائناتٌ خفيّةٌ في كلّ مكانٍ تُعين وترشد، لكنّ البشر لا يدركون ذلك أبدًا، ناهيك عن أن يقدّروه. فهناك صورة - صوران الذي يتحكّم بالرياح ويرسل النسيم البارد في الحرّ القائظ. وهناك ماما - راسان المسؤولة عن المحاصيل، إذ تبذل قصارى جهدها لنموّ المحاصيل. وهناك خاتونا - فرخا راعية النساء الحوامل والصغار. وهناك پيرا - فات التي تحرس الرضّع، لا سيّما في أيّامهم الأربعين الأولى. وهناك ماما - شفان وگرفاني - زرزان اللتان تحميان الرعاة وقطعانهم. وماما - راسان هي التي تقدّم العون حين يشخّ الماء. ولذلك، حين تجفّ الأرض وتصبح كالرماد، تأخذ الجدّة كأسًا وتطلب من نارين أن تكتب الكلمات الآتية في داخله: لا تنسينا يا ماما - راسان. ثم ترفع الكأس إلى السماوات وتقول: «املاؤه يا الله. املاؤه برحمتك».

هناك أيضًا پيرا - ستير، الروح الخيرة التي تظهر في هيئة امرأة ذات شعرٍ أشيب. تنام آناء النهار، ولكنّ ما إن يحلّ الليل حتى تجول في البيت، وتحرك الأثاث. هي في الواقع حنون، وإن كانت مجنونةً شيئًا يسيرًا. وهناك خوداني - مالي، «سيد البيت» الذي يقيم في الموقد ويحفظ الأسرة. أمّا الخليل - إبراهيم، «خليل الله» فهو الذي يعتني بالمخازن والمؤن. ثم هناك جنّ - طيّار (الجنّي الطائر)، ذاك الماكر الذي تطيب له الحيل والألاعيب على الناس. صحيحٌ أنّه يطرب بالتغلب على من يدّعون الذكاء، لكنّه عطوفٌ مع الضعفاء والمستضعفين. تعلم

نارين أنهم جميعًا هنا، في مكانٍ ما. تلك الكائنات الخفية تعيش مع الأحياء في المكان نفسه، بعضها خارج البيت أو فوقه، وبعضها أقرب من ذلك بكثير.

تقول الجدّة وهي تنخل الطحين في وعاء: «تأتي الطيبة أحيانًا من حيث لا نحتسب أبدًا. هل حكيثُ لكِ قصّة إبراهيم؟». - «لا أعتقد».

- «حسنًا، كان إبراهيم حبيب الله. ولهذا كرهه نمرود. فقال لأعوانه: أشعلوا نارًا، وألقوا إبراهيم فيها. حوّلوه إلى فحم، احرقوه حتى يصير رمادًا».

- «أوه، يا له من قاسي القلب».

- «نعم، كان قاسيًا. ولكن من المهم أيضًا أن نسأل كيف تصرّف الجميع حين حلّت المصيبة. كثيرون اكتفوا بالمشاهدة. بل إنّ البعض أسرع لجلب الحطب كي يزيد اللهب. السحليّة، مثلاً. قليلةٌ تلك النفوس الطيبة التي حاولت إنقاذ إبراهيم، مثل الضفدع. فقد ملأ فمه بالماء وأخذ يبصق في اللهب إلى أن هدّه التعب. ضحكت السحليّة وقالت: «أنت صغيرٌ جدًّا، والنارُ هائلة. أوتظنّ أنّك ستغيّر شيئًا بمائك الضئيل؟». لكنّ الضفدع قال: «ما الفرق بيني وبينك إن لم أفعل شيئًا؟». كان ضفدعًا حكيمًا. لا بدّ أن نصت دائمًا لضميرنا، ونساعد المحتاجين. لا ينبغي لنا أن نصبّ الزيت على إنسانٍ يحترق، بل أن نحمل له الماء».

تفكّر نارين وتقول: «ومتى حدث هذا؟».

فتجيب الجدّة وهي تكسر بيضتين في وسط الطحين: «في الأزمنة الغابرة».

- «هذا ما تقولينه دائماً».

- «لأنّ القصص إنّما تعيش هناك، في الأزمنة الغابرة».

تقول الجدّة إنّ الزمن شجرة حارسة، موسومةٌ بحلقاتٍ غير مرئيةٍ في داخلها، تمتدُّ أغصانها المتشعبة إلى السماء اللانهائية، على نحوٍ غير مثاليٍّ أبداً، وغير خطّيٍّ. ففي جملةٍ واحدةٍ يستطيع الراوي أن يقفز من قرنٍ إلى آخر جيئةً وذهاباً، وكأنّ الألفية يمكن أن تمرّ في طرفة عين. غير أنّه قد يستغرق الأمر ساعاتٍ لوصف حدثٍ واحد. فكلّ دقيقةٍ مدّى، وأبديةٍ.

- «لا تنسَ يا قلبي أنّ زمن القصّة يختلف عن زمن الساعة».

فزمنُ الساعة مشوّّةٌ وخدّاعٌ، مهما ادّعى الدقّة. ذلك أنّه يسير تحت وهم مفاده أنّ كلّ شيءٍ يتحرّك باطرادٍ إلى الأمام، وأنّ المستقبل سيكون دائماً أفضل من الماضي. أمّا زمن القصّة فيفهم هشاشة السلام، وتقلُّب الظروف، والمخاطر الكامنة في الليل، لكنّه في الوقت نفسه يثمن الطيبة مهما صغرت أفعالها. ولهذا لا تعيش الأقلياتُ في زمن الساعة.

بل يعيش أهلها في زمن القصّة.

\* \* \*

حين يُخبز البوريك، وتفوح رائحةٌ شهيةٌ في أرجاء البيت،

تقطع الجدة قطعةً سخيةً لنارين. تضع إبريقًا من شراب اللبن الرغويّ البارد إلى جانب طبقها، وتبتسم بحنانٍ وهي تراقب الطفلة تأكل بشهية.

– «من يعطيك طعامًا أعدّه بنفسه، يعطيك قلبه».

تقول الجدة إنها حين كانت صغيرة، كانت هناك فتاةٌ مسلمةٌ تحبّ اللعب معها. كانت الأسرتان متقاربتين تتزاوران بانتظام. وذات يوم، توقفت أم الفتاة عند بيتهم في طريق عودتها من السوق. كانت ظهيرة حارة خانقة، فقدّموا لها بطيخًا مقطّعًا طازجًا في حديقتهن المظلّلة. رفضت المرأة ذلك بابتسامة مهذّبة، وقالت إنها لا تحبّ طعم البطيخ. لم تقبل الماء المقدّم لها أيضًا، رغم أنها كانت تتفصّد عرقًا بوضوح. فأحضروا لها إبريقًا من عصير الليمون اللذيذ. وهذه المرّة أخذت المرأة كأسًا على مضض، لكنّها حين ظنّت أنّ لا أحد يراقبها، سكبت العصير خلف شجرة. صدموا حين وجدوه هناك بعد مغادرتها. وحينها أدركوا شيئًا لم يلحظوه طوال هذا الوقت. فرغم أنّ الأسرتين متجاورتان، وبينهما ضحكٌ كثيرٌ وأحاديث، فإنّ والدي الفتاة أنفا من أكل طعامهم، لأنّ اليزيديين وثنيون في نظرهم.

– «كانوا يرون خبزنا وحتى ماءنا حرامًا. كيف؟ لقد كنّا أطفالًا. كنّا أصدقاء».

– «يؤسفني ذلك يا جدّتي».

– «لا أقول لك هذا كي أحزنك. إنّما أريد أن أقويّ عزيمتك. كان أسلافنا صامدين، وورثوا صمودهم هذا جيلاً بعد

جيل، لكنَّ نموَّك مسؤوليتك أنت، مهما كان جدُّك طويلًا». -  
«فهمتُ يا جدَّتِي».

- «وتذكَّرِي أنَّ العالم جميل، رغم كلِّ ما فيه من آلام وأحزان. كيف لا وهو مطلِّيَّ بألوان قوس قزح من ريش ملك طاووس؟ في وسعنا أن نرى الجمال حتى بعيونٍ مغمضةٍ إن عرفنا كيف ننظر».

ترشف نارين من شرابها، فيرتسم شاربٌ أبيضٌ فوق شفَتَيْها. ثم تضع كأسها وتساءل: «كم سنبقى في العراق؟». -  
«شهرين ونصف الشهر يا قلبي».

- «وماذا لو غرقت حصن كيفا ونحن بعيدون؟».

- «لا تقلقي. سيستغرق الأمر وقتًا لبناء السدِّ بتلك الجرفَّات». تمسح الجدَّة جبينها بظهر كفِّها. «ستُهجنا هذه الرحلة. طوبى لمن يزور لالش المقدَّسة. هل تعرفين أسطورة نشأة وادينا المقدَّس؟ مذكورةٌ كلَّها في نشيد «قولي هزار أويك نا؟» [ألف اسمٍ واسم].. -  
«أخبريني».

- «يقول النشيد إنَّ الأرض تستند على رأس ثور، والثور يقف على زعانف سمكة».

- «مستحيل! كيف يمكن ذلك أصلاً؟».

- «لا يمكنك معرفة ما هو ممكنٌ ما لم تحاولي تخيُّله أوَّلاً. حين خلق الله الملائكة، طافوا فوق البحار وقتًا طويلًا، فلمَّا وصلوا إلى لالش، هتف الملائكة بصوتٍ واحد: «هذا هو المكان

المناسب!» ألقى الله الخميرة في الماء كي يتكثف، فصارت الأرض صلبة، وأصبحت لالش مكانًا للسلام والأمان. لهذا، حين تسمعين اسم وادينا، يجب أن تقولي: «يا وطني، يا وطني، أنتَ وطني».

تكرّر نارين تلك الكلمات وهي تنظر بحبّ إلى جدّتها، فيبدو الأمر وكأنّها تقول ذلك للعجوز نفسها: «يا وطني، يا وطني، أنتَ وطني».

الوطنُ حيث يكون أحبابك، لكنّ العكس صحيحٌ أيضًا. فأحبابك ملاذك، ومأواك، وبلدك، وقد يصبحون منفاك أيضًا. فأينما ذهبوا، نتبعهم.

في الليلة التي تسبق سفرهما إلى العراق، تتكوّران جنبًا إلى جنبٍ على فراشٍ على الأرض، تحت ضوء قمرٍ شاحبٍ يتسرّب من النافذة المفتوحة.

- «هل نمّت يا جدّتي؟».

- «ليس بعد يا قلبي».

فتنهض نارين وتجلس على الفراش. «هناك شيءٌ لا أفهمه. إن كانت ليلي وُلدت في نينوى، فلماذا جاءت إلى هنا، إلى حصن كيفا؟».

«في الماضي، كانت نينوى وحصن كيفا منطقتين من ضمن الإمبراطوريّة العثمانيّة، لكنّ الأهمّ من ذلك هو أنّهما كانتا متّصلتين بالماء. فيبدأ نهر دجلة رحلته من تركيا، ويتدفّق إلى أن

يصل إلى العراق. يجري عبر الجبال والوديان، وتعتمد حياة الناس وأرزاقهم عليه. وكانت ليلي من قرية على طريق النهر». - «ولكن لماذا تركت مكانها؟».

فترفع الجدّة نفسها وتجلس. ينسكب شعرها الطويل المحنّى غير المجدول على كتفيها. «لم يكن أمامها خيارٌ آخر. حتى الأشجار تُضطرّ أحياناً لاقتلاع جذورها. ثمّة غاباتٌ بأكملها هاجرت».

- «ماذا تقصدين؟».

- «يعني أننا مهما استقررنا في هذه الأرض، يمكن للرياح أن تهبّ بقوةٍ أحياناً، لدرجة أن تقتلعنا من أماكننا». - «كلامك كالألغاز».

- «إنّما تسترُ الحقيقة نفسها بالألغاز».

- «ولماذا تحتاج الحقيقة إلى أن تستر نفسها؟».

- «لأنّها لو مشت عارية، لرجّمها الناس في الشوارع».

تنتظر الجدّة قليلاً حتى تتفكّر الطفلة في تلك الكلمات، ثم تقول: «حين غادرت ليلي بلدها، ارتحلت شمالاً، على خطى نهر دجلة إلى الأعلى. وحدها تماماً، على ظهر حصان. لم يكن من السهل أن تفعل المرأة هذا في ذلك الزمن، ولا في هذا الزمن. لكنّها نجحت، واستقرّت في كاستروم كيفا. هنا تزوّجت وأنجبت أطفالها الاثني عشر. وحين وُلدت أمّي، سرعان ما تبين أنّها ورثت شيئاً من مواهب ليلي. ثم وُلدت أنا، وأدركوا أنّ لديّ المزيد من مواهب ليلي. ثم وُلدت ابنتي، أمك، سهّل الله



عودتها. لقد ورثت قدرًا أكبر من مواهب ليلي، لكنّها توفّيت صغيرة جدًا». ثم تسكت الجدّة، وتقول: «هل فهمت كلامي؟».

- «لا».

- «رگزي أكثر إذن... لبعض النساء في عائلتنا موهبة. ورغم أنّ الموهبة قد تتغيّر، فإنّها تزداد قوّة مع كلّ جيل يأتي بعد أن رحلت ليلي عن نينوى. معنى هذا أنّك يا قلبي قد تملكين من مواهب ليلي أكثر ممّا نمتلكه أنا وأمك معًا».

- «أنا!».

- «نعم أنت يا دلي من».

تعبس الطفلة، وقد اعتملت موجة من غضبٍ في صدرها.

«كيف ذلك؟ لقد قال الطبيب إنني سأصم».

- «لا علاقة لهذا بمرضك. قفّر الماء عبارة عن وعي. والموهبة لا تكون مستمرّة، وإلا ما استطعنا أن نحتمل قوّتها. هناك لحظات إشراق، ثم تخبو. كانت ليلي تسمّيها «أحلامًا». لا ينبغي أن تخافي منها. قد تزداد حين تكبرين. وعليك أن تكوني شكورًا يا طفلي، ومؤمنة. كرّمي أصلك دائمًا، فهناك موهبة تجري في عائلتنا. قد نملك نحن بنات ليلي ما كانت تملكه، يزيد عند واحدة ويقلّ عند أخرى. وكلّ ذلك يعتمد على رعايتك للموهبة التي وهبت إياها. إنّما هي موهبة نؤتمن عليها، ولا أحد يملكها. نعتني بها، إلى أن نمُرّها إلى الجيل التالي».

ثمّة نسيمٌ كسولٌ مشبّعٌ برائحة القصب والتربة الخيّّة يزحف

من الشاطئ عبر النافذة المفتوحة. يبدو النهر الآن وشيكًا، مثلما يبدو الغد قريبًا.

- «قلتِ إنَّ ليلي تنبأت بحدوث شيءٍ مروّع، ولهذا السبب توقفت عن التنبؤ. لكنك لم تشرحي لي ما حدث».

- «كان فرمانًا».

- «ماذا؟».

- «الفرمان هو القرار، أو المرسوم».

- «وكيف يكون الفرمان شيئًا سيئًا؟».

- «لأنه قد يعني أيضًا التصريح بالمذبحة».

فتحس نارين بقلبها يتسارع.

- «كان ذلك منذ زمنٍ طويل. فقد كان هناك باشا في الموصل، رجلٌ جشعٌ أنانيٌّ لا يهتم إلا بالثروة والسلطة. له عينٌ بنيةٌ، والأخرى رماديةٌ باهتة، كالرماد الباقي من النار. وقد عقد اتفاقًا مع قاضي قاسٍ لقتل كلِّ رجال اليزيديين واستعباد نسائهم. أسألي الناس في هذه المنطقة، هل يتذكرون ما حدث لأسلافنا؟ الجميع نسوا، كلُّهم إلا نحن.. ونهر دجلة».

- «ألهذا السبب اضطرت ليلي إلى الهرب؟».

- «نعم يا قلبي».

تمرَّ الجذَّة إصبعيها على خصلة شعرٍ على وجه نارين، وتقول: «ولكن دعينا ننام الآن قليلًا. غدًا سنسافر. وحين نصل إلى نينوى، سأريك المكان الذي حدث فيه ذلك. وعندها ستفهمين لماذا حتى الأنهار ينبغي أن تهاجر أحيانًا من مجاريها».

-O-

آرثر

في الطريق إلى نهر دجلة، 1872

يعبر الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات القناة الإنكليزية للمرة الأولى في حياته ذات يوم عاصفٍ من آذار / مارس. لعلّه كان من الأسهل انتظار طقسٍ أقلّ قسوةً من هذا، لكنّه يشعر بأنّه مقيّدٌ بالإحساس بالواجب. في الوقت نفسه، يساوره القلق بأنّ اهتمام الجمهور ببلاد الرافدين (وربّما بأيّ موضوع) متقلّبٌ غير ثابت. لا بدّ أن يغذّ الخطى قبل أن يفقد الناس اهتمامهم بملحمة گلگامش.

الشمسُ آخذةٌ في الهبوط فيما تغادر سفينته الشواطئ البريطانية، وما إن يصل إلى المياه المفتوحة حتى يحيط الظلام

بها من كلّ جانب. يسمع تقلّب البحر، ويشعر بقوّته، لكنّه لا يرى أبعد من قمم الأمواج التي تلطم بدن السفينة. قمرٌ أحذبٌ يتوهّج بين ضفاف السحب، قبل يوم من اكتماله. يحاول آرثر أن يبدّد مخاوفه، فيحوّل انتباهه إلى رفاقه في السفينة. ثمّة مجموعة من الحجاج في طريقهم إلى الأرض المقدّسة. رجل دينٍ عابسٌ لا يتحدّث مع أحد، وتاجرٌ على عكسه تمامًا، لا يقوى على الصمت. يتساءل آرثر عن السبب الذي يجعل رفاقه يشعرون بأنّهم مضطرونّ إلى ترك أسرتهم الدافئة للشروع في رحلةٍ محفوفةٍ بالخطر في منتصف الليل. لكنّه هو نفسه لا يستطيع أن يشرح سبب وجوده هنا. فما الذي يجعله مهووسًا هكذا بالتنقيب عن ألواحٍ قديمةٍ ترقد تحت الأرض مكسورةً منذ آلاف السنين؟ ما إن يطرح السؤال حتى تنطلق موجةٌ من أسئلةٍ أخرى، كسمكة شُبوطٍ تقفز فوق الماء، تاركةً أثرًا من أكاليل مائيّةٍ في أعقابها. تمرُّ عليه أوقاتٌ لا يستطيع فيها أن يعرف ما إذا كان قد نُومَ مغناطيسيًّا للبحث عن نهر دجلة، أم أنّه يهرب من نهر التيمز ليس إلّا.

تطارده ذكريات زيارته للمصحّة. ذلك الفتور في حركات أمّه، وانزلاقها البطيء المتكاسل نحو الموت الذي ما انفكّ يطارده منذ ذلك الحين. ألا يتخلّى عنها حين يغادر لندن للبحث عن مغامرةٍ في أرضٍ بعيدة؟ يذكرّ نفسه بأنّه لا يستطيع مساعدتها إلى أن يحقق شيئًا في مهنته ويكسب مالا كافيًا، لكنّ هذا المنطق، رغم عقلانيّته وطمأنينته، لا يكفي لتبديد إحساسه بالندم.

في منتصف الرحلة، يعلقون في عاصفةٍ من برَد. ترتفع الأمواج إلى مسافاتٍ مدوّخة، وتهبُّ الرياح بلا هوادة. تتأرجح

السفينة من جانبٍ إلى آخر، تتهاذى مع البحر المتلاطم. يخطر لآرثر أنه قد يهلك هنا، ويغرق في قاع الماء فيما هو يحلم بإنقاذ الألواح من أحشاء الأرض.

- «أَوَّلُ مرَّةٍ تعبر فيها؟».

يحدثه التاجر، وهو يراقبه في فضول.

- «الأولى والأخيرة، إن استطعتُ أن أتجنَّب ذلك».

فيبتسم التاجر ويُخرج قَنِينَةً فضِيَّةً من سترته. «تناول شيئًا منه. سيساعدك».

يقبل آرثر هذا العرض، رغم أنه ليس ذا باعٍ في الشراب. يُحرق السائلُ حلَقَه، لكنَّه يستقرُّ في بطنه دافئًا.

- «سيصبح الأمر أسهل. سترى».

ويروي له التاجر كيف عبر القناة مرَّاتٍ عديدة، وينوي تكرار ذلك إلى آخر أيَّامه. يقول إنَّ المرء حين يتذوَّق طعم السفر، لا تعودُ حياته مثلما كانت قبل ذلك أبدًا.

يصل آرثر إلى باريس مع انفجار الأوراق من براعمها وتفتَّح النرجس البرِّي في الحدائق والمنتزَّهات. متحمَّسٌ هو لزيارة هذه المدينة التي سمع الكثير عنها، ويشعر وكأنَّه يعرف هذا المكان بالفعل من خلال القصص التي قرأها، والفقراء والمعدَّمين الكثيرين الذين عرفهم في تجربته الخاصَّة، وشوارعها وأزقَّتْها التي رسمها خياله. لكنَّه فوق هذا كلَّه يريد أن يرى نهر السين الأسطوري، وشقيقه الأصغر نهر البييفر. فرغم أنَّ هذا النهر

الأخير صغير، فإنه كان مصدر إلهام كبيرٍ للشعراء والكتّاب. كان آرثر قد قرأ شعر رابليه، وتساءل عن الجدول الذي اصطادوا على ضفافه السُّمَّان والضفادع وجراد البحر. وقرأ فكتور هوغو كذلك، ويتذكَّر أوصاف الماء التي أوردتها في البؤساء. كان نهر البييفر يندفع من منبعه في غويانكور كسيلٍ سريع مليء بالصخور، يتدفَّق عبر المدينة قرنًا وراء آخر، فيهب أهل بَاريس الماء الثمين والثلج أيضًا.

في طريقه إلى النُّزُل الذي سببت فيه ليلة، يتمشَّى بخطواتٍ طويلةٍ متمايلة، يتشرَّب ما يراه من حوله. ففي لندن لا يسمح لنفسه بالاسترخاء أبدًا، ولا يأخذ لحظة راحةٍ يستمتع فيها بأغاني الفنَّانين الجائلين أو يشمّ الزهور المتسلِّقة فوق جدران الطوب العالية، لكنَّه يستطيع فعل ذلك الآن وهو في مدينة غريبة، وهو ذاته غريبٌ عنها. يتجوَّل في لي بو كارتيه، الأحياء الجميلة التي تزخر بمتاجر أنيقة ومطاعم راقية ومقاهٍ مذهَّبة ذات طاولاتٍ رخاميَّة على الأرصفة، يجلس إليها الزبائن يرتشفون الأفسنتين والنيذ وعصير الليمون، ويضحكون وكأنَّهم قد ألقوا كلَّ همومهم أدراج الرياح.

يتذكَّر مقالاً (بكلِّ كلمةٍ فيه) كتب فيه الصحافي والناشر الفرنسي جوليان ليمير أنَّ هناك ضوءًا كثيرًا ينسكب من واجهات المحالِّ من شارع لويس لو غران إلى شارع ريشليو، لدرجة أنَّ المرء يستطيع أن يقرأ صحيفةً وهو يتمشَّى هناك. يلاحظ الشوارع المرصوفة بالحصى التي وُسِّعت حديثًا، تُحيط بها أشجارٌ طويلةٌ مضاءةٌ بمصابيح الغاز، في تنفيذٍ مثاليٍّ لطموحات هوسمان

الكبرى(\*)). يتجول على الكورنيش، فيغمره شعورٌ بالخفة، وكأنه يدوس على طحلبٍ بقدمين حافيتين. الناس أنيقون واثقون، يتدققون من جانبيه في غير عجلة كما يبدو. لم يسبق له أن رأى هذا الشكل من الثقة البسيطة؛ فقد منعه الفقر والنشأة الصعبة من تجربة هذا الترف. لا يعرف كيف يكون الأمر حين لا يضطر المرء إلى العمل كل لحظة في كل يوم، أو أن يذهب في نزهة لا لشيء سوى أن يرى، ويرى.

ولكن ما يلبث أن يبدأ منظر المدينة في التغير. تتلاشى الألوان، وتعمق الظلال، فيضلُّ آرثر طريقه إلى أزقة ضيقة وقذرة، فإما عربة مقلوبة تسد طريقه، وإما رائحة لا تطاق. ثمّة مستنقعات من الفضلات في كل مكان. ففي الأحياء المركزية، هناك ممرات كثيرة لا يوجد بها تصريف مناسب، رغم أنها مزدحمة. يتجمع الماء الراكد والمجاري الخام في برك عكورة مروعة للحواس. يلقى الحطام والجيف من المطاحن والمدابغ في نهر البييفر، فيما يتدقق بجهد في منحنيات متعرجة قبل التقائه بالسين.

وكما هو الوضع في لندن، فإن التباين بين أحياء الأغنياء والفقراء ملموسٌ جدًا، لدرجة أنه يصعب تخيل أنهم يعيشون جميعًا في العاصمة نفسها. ولكن هناك شيء آخر يفصل هذه التجمعات، شيء أقل وضوحًا، ألا وهو علاقتهم بالزمن.

---

(\*) جورج أوجين هوسمان (Georges Eugène Haussmann)، الذي وضع مخطط باريس في القرن التاسع عشر. (المترجم)

فالأثرياء لا يُضطرُّون إلى الجري كي يلحقوا بالساعات. ينسلُّون في أيَّامهم، يدلُّلون الساعات في أياديهم، ويرتدونها مثل قفَّازاتٍ أنيقة. أمَّا الزمن بالنسبة إلى الفقراء فهو محض خِرْق، وقصاصاتٌ ممزَّقةٌ لا تكفي أبدًا مهما شددت وجذبتَ فيها، لا تغطِّي اللحم المقشعر ولا تمنحك أيَّ دفء.

\*

قبل أن يغادر آرثر باريس، يزور متحف اللوفر كي يرى القطع الأثرية من بلاد الرافدين. فقد قرأ الكثير عن هذا الصرح الشهير الذي بُني في الأصل كي يكون حصنًا، ثم تغيَّر وأُعيد بناؤه مرَّةً بعد مرَّة، كقصيدةٍ قيد الكتابة. لكنَّ تجربته المباشرة في المتحف تركت فيه انطباعًا أعمق ممَّا توقَّع. فإنَّ كان اللوفر قصيدة، فهي مكرَّسةٌ للجمال والشغف واللذة الحسيَّة، لكنَّها مكرَّسةٌ أيضًا للسلطة والمادِّيَّة والتملُّك. يجد في الداخل آثارًا ملمعةً ونقيَّةً خلف واجهاتٍ زجاجيَّة، وقد باتت الآن مألوفة: ألواحًا مسماريَّة، وطوبًا مزججًا، وقطعًا من اللازورد، وغيرها. هناك أيضًا ثيرانٌ مجنَّحةٌ ضخمةٌ ذات رؤوسٍ بشريَّة من قصر آشوربانيبال، معزولةٌ عن غيرها، تمامًا كتلك الموجودة في المتحف البريطاني.

بعد يومين، يقف آرثر في الظهيرة على متن سفينةٍ جديدة. باخرةٌ ذات ثلاث صواريٍّ وأشرعةٍ مرفوعة، مستعدةٌ للشروع في رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط. تشق السفينة الأمواج دون



أن تعتمد على اتّجاه الريح، فتترك أثراً شاحباً في الماء، تبتلعه الأعماق بنهم. يُبحرون في مساراتٍ بحريّة قديمة، منقوشة على الخرائط البحريّة كالتعرّجات على أطراف الأصابع. ميناء مرسيليا، ثم المضائق التي تفصل كورسيكا عن سردينيا، فصقلية، فباليرمو، فخليج نافارينو، فشروق الشمس المذهل فوق جبل إتنا، وغير ذلك.

يقضي آرثر ساعاتٍ كثيرةً على السطح، يتغيّر لون عينيه مع الضوء المنعكس من البحر، وهو يشاهد بعجبٍ أماكن لم يحلم بها قطّ. يثبت كلّ ما يراه في ذاكرته، رغم دوار البحر. وجهه شاحب، ومعدته تتقلّب، يقبض على حاجز السفينة بيديه الباردتين المبلّلتين، لكنّه مع ذلك مشدوّ بقوة الماء.

من غرائب الرحلات البحريّة أنّها تجبر حتى أكثر النفوس انعزاًلاً على التحدّث مع الغرباء. ومن بين مختلف الناس الذين التقاهم، هناك واحد ترك فيه أثراً. صيّاد نباتاتٍ من جزيرة في الكاريبي، من أحفاد المارون(\*) الذين هربوا من العبوديّة. عالم النبات الشاب هذا في طريقه إلى بوتان للبحث عن أنواع جديدة من النباتات، وإحضار البذور. يعرف آرثر من الحديث بينهما أنّ الرجل لم ير الثلج قطّ.

يقول آرثر: «أوه، إنّهُ ساحر. هو أكثر أشكال الماء إذهالاً».

— «هل له طعم؟».

---

(\*) المارون (Maroons): اسمٌ يُطلق على السود الذين هربوا من العبوديّة في الأمريكيتين، فعاثوا في أماكن معزولة كي لا يُسترقوا مرّةً أخرى. (المترجم)

فُجِيب آرثر في لحظتها: «طعمه مثل حليب الأم».

\*\*\*

ما إن يتغلَّب آرثر على دوار البحر حتى يبدأ في قراءة الكتب التي أحضرها معه. هناك الكثير ممَّا يريد أن يتعلَّمه عن بلاد الشام: تاريخها، وطعامها، وعاداتها، وفلكلورها، رغم أنَّه لا يستطيع أن يقطع ما إذا سيعود أيُّ من هذا بالنفع عليه في نينوى. والحقُّ أنَّه يشعر في أعماقه بالقلق؛ فهو لم يكن مرتاحاً مع الآخرين قطَّ، فكيف تُراه يتواصل مع أشخاصٍ من ثقافةٍ أخرى؟ يخشى كذلك أنَّ مهاراته العلميَّة لن تسعفه كثيراً لدى السلطات العثمانيَّة (رغم أنَّها قد تجلب له شيئاً من الاعتراف في إنكلترا). يساوره خوفٌ عميقٌ من أنَّ اختياره لهذه المهمَّة كان خطأ. لم يكن يجدر به أن يغادر البيت قطَّ، ولا أن يغامر أبداً في ما وراء نهر التمز. لكنَّه لا يعرف أحداً يوازيه في هوسه بالأسطر المفقودة من ملحمة گلگامش، ولعلَّ هذا في حدِّ ذاته يجعل منه الرجل المناسب للمهمَّة.

الشكُّ أَكْأَلُ المسافرين، وآرثر مترعٌ بالشكِّ. ولكنْ مع انقضاء الساعات والأَيَّام وهو ما يزال على قيد الحياة في البحر، ينحسر خوفه وشكُّه (رغم أنَّهما لم يُهزَمَا بعد)، ويُفسحان المجال لشعورٍ جديدٍ أشبه بالإثارة. قد لا يكون آرثر بطلاً، لكنَّه متحمَّسٌ للشروع في أوديسته. يتوق، بقوةٍ لا يستطيع مقاومتها، إلى أن يلبِّي نداء الحوريَّات، ذلك النداء الذي ظلَّ يستدعيه منذ أن كان صبياً.

ثلاثة مقاطع سحرية: ني - ن - وى.

\*\*\*

يقول القبطان: «عند فجر الغد، اصعدوا إلى السطح.

فالدخول إلى القسطنطينية من البحر منظرٌ لا مثيل له . استيقظوا باكراً كي لا يفوتكم».

تُثير هذه الكلمات ترقُّبًا ملموسًا بين ركَّاب السفينة . يركض الأطفال، ويتحدَّث الرجال بحيويَّة بعضهم إلى بعض، في حين تنسحب النساء القليلات إلى مقصوراتهنَّ استعدادًا . حتى البحَّارة المتمرِّسون يبدوون منتعشين . أمَّا آرثر، فيتكئ على الحاجز، يحدِّق في الأفق وهو يحاول أن يستوعب سبب الإثارة هذه، لكنَّه لا يرى سوى جدارٍ من ضباب .

في اليوم التالي، يستيقظ آرثر قبل شروق الشمس على صوت خطواتٍ متعجَّلة . يرشّ وجهه بالماء في نعاس، ثم يرتدي ملابسه وينضمُّ إلى الآخرين . أحضر بعض الركَّاب مناظير، رغم أنَّ السماء ما تزال حالكة السواد . يزول بردُ الليل فيما تتقدَّم السفينة شيئًا فشيئًا . وبعد قليل، تشقَّ السماء شطيَّةً قرمزيَّة رقيقة، ضوءٌ ينزف في ذلك الظلام . لا أحد ينطق بكلمة . صمتٌ كاملٌ وشامل . هكذا يقتربون من مدخل البوسفور الذي يفصل بين قارَّتَيْن . فعلى جانبٍ يمتدُّ الساحل الأوروبي، وعلى الآخر يمتدُّ الساحل الآسيوي، رغم أنَّه من الصعب تحديد أين ينتهي الواحد منهما بالضبط وأين يبدأ الآخر .

فيقول القبطان معلنًا: «نحن على وشك الوصول».

تتكيف عينا آرثر مع تلاشي الظلام، ويحدِّق في البعيد، لكنَّه لا يرى أكثر من بضعة أطيافٍ شفَّافة . ثم يتبدَّد الضباب مع انبلاج الفجر فوق رؤوسهم بكلِّ عظمته، وكأنَّ ستارًا رُفع من الأعلى،

فتكشف أشعة الشمس (بألوانها الأرجوانية والبرتقالية والفوشيا) عن الأسوار ذات الفُرَج، والقباب الفضّية، والمآذن الشاهقة في المدينة المترامية. يتعرّف آرثر على قبة «آيا صوفيا» من الرسومات التي تأملها في المطبعة. يحبس أنفاسه، وتتكشّف من أمامه أميالٌ وأميالٌ من الأحياء، كوشاح حريريّ. قصور، وأكشاك، وسرادقات، وكوناكات [بيوت تركيّة]، وأشجارٌ من البطم والتنّوب والسرو، كلّها تنبض بالحياة. يتدفّق «القرن الذهبيّ» أمامهم في شريطٍ متلألئ، أقرب إلى النهر منه إلى البحر. وتبحر السفينة بين تلّ «السراي» من جهة، و«قاضي كوي» و«سكوتاري» من الجهة الأخرى، إلى أن تظهر «غلطة» و«پيرا» متوهّجتين بالضوء. يستدير آرثر في مقدّمة السفينة كي يستوعب المنظر، ثم يقف ساكنًا، متسمّرًا.

يقول له القبطان من جانبه: «شيءٌ مميّز، أليس كذلك؟».

– «إنّه مذهل».

فيقول القبطان في ضحكةٍ قصيرة: «نعم، بالفعل، ولكن كن حذرًا. لقد تعلّمتُ من تجربةٍ مريرةٍ أنّها مدينةٌ غريبة».

– «لماذا؟».

فينحني القبطان مقتربًا منه، بنفحةٍ بصلٍ أخضر في أنفاسه. «لأنّ لهذه القسطنطينيّة فمًا جشعًا. احرص على ألاّ تبتلعك، كما ابتلعت كثيرين غيرك».

– «أنا عابر سبيل ليس إلّا. سأبقى هنا بضعة أيّام، ثم أكمل طريقي إلى نينوى. لستُ مهتمًا بالقسطنطينيّة».

فيقول القبطان بنظرة جانبية: «نعم، أكيد».  
لكنَّ آرثر يشعر بسخريته كسكينٍ تنخر في ضلوعه.

حين يترجّل آرثر من السفينة، يكون الوقت متأخرًا بعد الظهر، فيشقّ طريقه نزولًا على جسر النزول، ويودّع القبطان ثم يستلم أمتعته. لقد افترض أنَّ السفارة البريطانية سترسل شخصًا يستقبله، ولكنْ لا أثر لأيِّ شخصٍ في انتظاره.

ينظر في قلق، يتفحص الميناء الذي يعجّ بالموظفين والتجار والبحّارة وعمّال التحميل، وهم يهرولون على طول الواجهة البحرية. سفنٌ من جميع الأحجام راسيةٌ على طول الرصيف، الشراعية والبواخر والفرقاطات. غابةٌ كثيفةٌ من الصواري على مدّ البصر. ثمة خيولٌ وعرباتٌ توصل البضائع، فيما ترفع الرافعات صناديق الشحن الكبيرة، تتأرجح ذهابًا وإيابًا فوق رؤوس المارّة. وهناك الباعة الجائلون، يدورون حول القادمين الجدد، يثرثرون بلا توقّف. وفوق هذا الضجيج كلّه، يسمع آرثر صفعة الأمواج على أبدان السفن، وتموّج الماء، ونعيق نورس ينقر قمامةً على مقربة، وهسهسة الريح فوق الحبال. ثم فجأة، يشعر بضيق، وخوف.

- «فرنجي؟ مرحبًا، هل تحتاج إلى مساعدة؟».

فيستدير آرثر، ويرى رجلًا نحيلًا قصيرًا، ذا بشرةٍ منقّطةٍ وعينين متعبتين. يُشير وجهه الذي سفعته الشمس وظهره المحدودب إلى أنّه حمّالٌ من دون شكّ.

يسأله آرثر بصوتٍ خشنٍ من أثر التوتُّر: «كم؟». فيتمتم الرجل ببضع كلماتٍ بالتركيَّة. يقبل آرثر، واثقًا من أنَّه المبلغ الصحيح، وأنَّه غير مخدوع.

- «هل تعرف الطريق إلى السفارة البريطانيَّة؟».

فيومئٍ الحَمَّال باقتضاب.

فيقول آرثر في محاولةٍ لأن يبدو واثقًا: «حسنٌ جدًّا، هيَّا بنا. هل لديك شخصٌ يساعدك؟» لكنَّ الرجل يحمل صندوقًا تحت كلِّ ذراع، وصندوقًا آخر على ظهره، ثم يمشي بصعوبةٍ مبتعدًا. يصيح آرثر: «انتظرنِي!».

ثم يشقَّ الهواء صوتٌ ذكوريٌّ رنَّان، تتبعه أصواتٌ أخرى تتردَّد من كلِّ اتِّجاه. يتوقَّف آرثر مرتبِّكًا، وتمضي لحظةٌ قبل أن يدرك أنَّ تلك النغمات الحزينة أذانٌ لصلاة العصر، يتهادى من المآذن القريبة.

تتحطَّم موجةٌ على الرصيف، فترشَّ وجهه بالرداذ. هكذا تهاجمه ذكرى يوم قارس، منذ زمنٍ طويلٍ أشبه بالحلم، وطعم الثلج على لسانه، وإحساسه بشعر أمِّه الذهبيِّ على خلفيَّة السماء الرماديَّة. تختفي هذه الرؤية بسرعة، مثلما ظهرت بسرعة. فيمسح آرثر وجهه، ويسرع في أثر الحَمَّال. لا يمكن أن يكون أدرك ما حدث، لكنَّ الاستقبال المالح في القسطنطينيَّة في هذا المساء من عام 1870، هو نفسه ندفة الثلج التي ذابت في فمه عند ميلاده في لندن عام 1837.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

تنهض زليخة فتجلس في سريرها، منزعجةً من نوم مضطرب. يتسارع قلبها، كأنَّه يستشعر خطرًا متسللاً لم تدركه بعد. ليست في حاجةٍ إلى النظر إلى الساعة كي تعرف الوقت: الثالثة وسبعٌ وثلاثون دقيقةً فجرًا. غالبًا ما تستيقظ، في هذه الدقيقة ذاتها، في هذا البرزخ بين منتصف الليل والفجر. براهما مُهورتا، وقت الخالق، حين تكون طاقة النور في أقوى حالاتها، وفقًا لمختلف العقائد. اللحظة الأنسب للغوص في أعماق روحك ومواجهة أعمق مخاوفك، كما يقولون. لكنَّ الأمر بالنسبة إليها لا يتعلَّق بذلك. فليس صلاة، ولا تأملًا. إنَّها ساعة الحزن. الحزنِ

الصافي غير المُصَفَّى، الحزن المضطرب.

تعلّم أنّها لن تستطيع العودة إلى النوم بسهولة، فتشغل حاسوبها المحمول إلى جانبها. في الضوء الآليّ يكتسب وجهها مسحةً مزرقّةً، وتظهر ومضةٌ من النواذير الإعلامية عبر الشاشة.

شيءٌ يلفت انتباهها في الحال. هناك، بين تقارير عن الرئيس الأميركيّ وهو يعلن عن القبض على العديد من قادة داعش، وتصادم قطاراتٍ في ألمانيا، وآخر الاستعدادات لحفل الزفاف الملكيّ، ثمّة خبرٌ في أسفل الصفحة، خبرٌ موجز. فبعد عاصفةٍ رعديّةٍ نادرة - وسيولٍ مفاجئةٍ في مصر، غزت آلافٌ من عقارب فلسطين الصفر مدينة أسوان، ولدغت أكثر من خمسمئة شخصٍ وقتلت عدّة أشخاص. كما اندفعت العناكب، مطرودةٌ من جحورها، إلى منازل الناس وساحاتهم، فألقت بكلّ من صادفته في حالة ذعر.

يقول شاهد عيان: «كانت ساعةً واحدةً فقط من المطر الشديد. ثم جاء السيل. حدث الأمر بسرعةٍ لم نملك معها وقتاً للهرب، وتلك الكائنات جُنّت...».

تسحب زليخة نفساً، وهي تستوعب الكلمات: ثم جاء السيل... بسرعة.

ترتعش يدها ارتعاشاً خفيفاً وهي تطفئ الحاسوب. فتمدّ يدها إلى حقيبتها وتُخرج قارورة. حبوبٌ منوّمة. ستحتاج إليها الليلة. تنفض كلّ الأقراص في كفّها، وتنتقي واحداً، تبتلعه من دون ماء. ثم تأخذ واحداً آخر.

تُغلق المنبّه في هاتفها. هناك عدّة رسائل «واتس آب»



تنتظرها من زملاء يزفون إليها تهاني عيد ميلادها. رموزٌ تعبيريةٌ لبالوناتٍ وزينة حفلاتٍ وكعكات. وهناك أيضًا رسالةٌ من زوجها:

مرحبًا ز، أفكر فيك. آسف لعدم وجودي معك في عيد ميلادك. أشتاق إليك أكثر ممّا ينبغي، وأصارع الرغبة في الاتصال. هناك كثيرٌ تحطّم بيننا، بدأت للتوّ في تقبّله، ولا أرى كيف يمكننا إصلاحه... لا توجد طريقةٌ سهلةٌ لقول هذا: سأ تقدّم بطلب الطلاق. خطر لي أن تسمعي الأمر منّي، لا من المحامين. آسفٌ على انتهاء الأمور بهذه الطريقة. أرجو لك عيد ميلادٍ رائعًا. بصدق.

الغريبُ أنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهنها هو كيف ستخبر خالها. تُعيد قراءة الرسالة وكأنّها تتوقّع أن تكتشف رسالةً مشفرةً. فقد اعتذر براين مرّتين في نصٍّ موجزٍ واحد. لقد راقتها هذه الخصلة فيه حين التقيا أوّل مرّة: رجلٌ يسهل عليه الاعترافُ بأخطائه. تتذكّر نفسها معه، بعد تناول عدّة كوكيتلات، وطعم بشرته، الذي كان حلواً ومالحاً في الوقت نفسه، كطعم الصيف، يتبادلان الأحضان والقبلات عند سلّم الطوارئ خلف مطعم صينيٍّ في سوهو، إلى أن أسقطا من شدّة اندفاعهما سلّة المهملات واضطراً إلى الهرب، ناثريّن الاعتذارات في أعقابهما. تتقدّ وجنتّاهما بهذه الذكرى. تمسح عينيّها، وهي عاجزةٌ عن التفكير في شيءٍ تكتبه ردّاً على رسالته.

وفجأةً تظهر رسالةٌ من خالها مالك. تتساءل عمّا يبقيه مستيقظاً حتى هذه الساعة، وإن كان هناك ما يقضّ مضجعه، لكنّ الرسالة نفسها مبهجة.

هل ظننتِ أننا سننسى عيد ميلادك، يا عزيزتي؟ العشاء عندنا هذا المساء. ستأتي هِلن. ستكون هناك كعكةٌ حقيقيَّةٌ وبلا سمك. وعدتني خالتك بذلك. ما يزال من الممكن أن تصبح كارثة! هذه مزحة بالطبع. سيكون الطعام لذيذاً، والرفقة كذلك. لا تتردّدي في إحضار شخصٍ معك.

\*\*\*

حين تفتح زليخة عينيَّها، تشعر بتبيُّسٍ في رقبتها من النوم في وضع غير مريح. تتفقّد الساعة في هاتفها، فتدرك أنَّ الوقت تأخَّر كثيراً. تنهضُ عن السرير ببطء، فتحسّ بثقلٍ في أطرافها، فيما يخرقُ جرسُ الباب هدوء البيت العائم. في بيتها شبه المؤثث هذا، يتردّد صدى الرنين بصوتٍ يكفي لإفزعها.

تفتح زليخة الباب، فيتدفّق ضوء الشمس إلى الداخل. تجد أمامها نين، ترتدي «أفرول» أخضر زاهياً وحذاءً أصفر مطّاطياً، وتضع حقيبة ظهرٍ على ظهرها وقبعةً صوفيَّةً برتقاليَّةً منسوجةً بالكروشيه على رأسها. من خلفها يقف رجلٌ طويلٌ أصلع يحمل صندوق أدوات.

تهتف نين: «أوه، أيقظناكِ عزيزتي!».

فتشدّ زليخة ياقتها، في حَرَج من ملابس نومها. «لا عليك، كان لا بدّ أن أستيقظ قبل هذا الوقت».

فتبتسم نين معذرة: «أوه، أنا آسفةٌ جدّاً. سنعود في وقتٍ آخر».

– «لا، لا، أرجوك. هل كنتِ تبحثين في طين النهر؟».

فتقول نين بوجهٍ مشرق: «نعم. كان الجَزُرُ مبكّرًا هذا الصباح. جئنا كي نلقي نظرةً على المغسلة، ولكنْ يمكننا أن نعود لاحقًا».

- «لا داعي لذلك. الوقت مناسبُ الآن».

- «أكيد؟».

- «نعم، تفضّلًا».

تراجع زليخة إلى الوراء، وتفتح الباب لهما. ترتسم ابتسامةٌ أخرى على وجه نين فور دخولها. «واو، يبدو المكان أكبر حين يكون فارغًا. كان مكدّسًا وغير مرتّبٍ حين كنتُ أعيش هنا. يروقني أسلوبك».

- «لم أجد فرصةً بعدُ لشراء أيّ أثاث».

فتومئ لها نين برأسها وهي تُخرج علبةً من حقيبتها. «تفضّلي، لقد خبزتُ لك بسكويت».

«لي أنا؟». تنزع زليخة الغطاء في دهشة، فتجد في داخل العلبة قطعًا مرصوصةً من بسكويت الزنجبيل على شكل ألواح صغيرة من بلاد الرافدين، وعلى كلٍّ منها علاماتٌ مختلفةٌ بالخطِّ المسماريّ.

- «يا إلهي! كيف صنعتها؟».

- «الأمر بسيط. العجين مثل الطين، كما رأيتَ بنفسك في ذلك اليوم. أستخدم أعواد الأكل كأنّها أقلام، وأخطُ لكلّ بسكويتةٍ كلمةً خاصّة، ثم أضعها في الفرن. أربعون دقيقة، على حرارة مئة وثمانين درجة، وانتهى الأمر! دائمًا ما أصنعها لكلّ أصدقائي».

فتسألها زليخة وهي تشير إلى بسكويتة عليها ثلاث علامات عموديّة: «وما معنى المكتوب هنا؟».

- «ماء . جرّبيها» .

- «ماء \_» .

- «نعم . صمّمْتُها كلّها لأجلك» .

تضع زليخة البسكويتة في فمها ، فتذوب على لسانها تشكيلةً من النكهات : الزنجبيل ، والقرفة ، والهيل ، والعسل ، وشيءٌ من الليمون . «لذيذة» .

تمدُّ نِز رأسها إلى الأمام وتشير إلى بسكويتةٍ أخرى : «وهذا يعني نهرًا . لا بدّ أن تجرّبيها أيضًا» .

لا تعترض زليخة ، فهي لم تأكل سوى القليل جدًّا هذا الأسبوع ، وصارت معدتها ترحب بهذه المفاجأة السعيدة .

ثم تلتفت نِز إلى السبّاك . «وهذه التي اسمُها «الطوفان» لصديقي رك . تكريماً لمهاراتك في السباكة» .

يضحك الرجل وهو يقبل الهدية ، ثم يتّجه إلى المطبخ حاملاً صندوق أدواته .

فتقول زليخة : «هل تودّين الجلوس ؟ لديّ كرسيّ بلا ظهر ، وآخر بذراعين . الخيارات كثيرةٌ كما ترين ، فدلّلي نفسك !» .

- «الكرسيّ بلا ظهر مناسب» .

تجلسان متقابلتين ، وتنظران عبر النافذة . سفينةٌ شحنيّ تمرّ من

بعيد، وسطح الماء يلمع كالفضّة المصقولة. أمّا السّبّاك، فأخذ يدندن في المطبخ واضعاً سمّاعتين في أذنيه، يحاكي لحنًا لا يسمعه سواه.

- «المعذرة. لا أستطيع أن أقدم لك شايًا أو قهوة، للأسف. لا أملك غلّاية».

فتنظر إليها نين في إشفاق. «لا عليك. لقد أفرطت في تناول الكافيين. يبدو أنّك من أولئك الذين يتنقلون بحملٍ خفيف». ورغم أنّ نين ابتسمت وهي تقول ذلك، فإنّ زليخة شعرت بشيءٍ من الحرج. «ما زلتُ أرْتبُ أموري».

- «هذا ما أشعر به كلّ يوم».

تمرّر زليخة إبهامها على حافة الكرسيّ، وقد أدهشتها كلمات نين. ثمّة نشاطٌ وحيويّةٌ في طريقة نين في الكلام وشخصيّتها، لدرجة أنّها لا تستطيع أن تتخيّلها امرأةً تشعر بالقلق أو النقص بأيّ شكلٍ من الأشكال.

- «نسيْتُ أن أسألك. اسم محلّك يثير الاهتمام. الإلهة المنسيّة. ما معناه؟».

فتميل نين إلى الأمام، وكأنّها تبوح بسرّ. «اسمها نيسابا. إلهة الكتابة والزراعة. كانوا يسمّونها «السيدة الملوّنة كنجوم السماء». وكانت شرارة الإلهام وراء كلّ حكاية وقصيدة. راعية الحكّائين والشعراء والمنشدين».

- «لم أسمع بها من قبل».

- «لأنّها منسيّةٌ إلى حدّ كبير».

- «لماذا؟».

فتعود نين بظهرها إلى الوراء، وقد تصلبت نظراتها. «ما رأيك أنت؟ لماذا تُستبعد النساء من التاريخ؟ لماذا نُضطرُّ إلى أن نللم شتات قصصهنَّ من الشظايا، مثل كسر الفخار؟».

لا يفاجئها السؤال، بقدر ما تفاجئها الحماسة في صوت نين. فالأمر يتطلب حدةً من نوع آخر، أقرب إلى الشغف، ولا تظنُّ أنَّها تملك ما يكفي منه كي تنتقد العالم وتفاوتاته التي لا تُحصى بهذا الانفتاح. فتقول ببطء: «يبدو أنَّك تعرفين الكثير عن الحضارات القديمة».

- «أعرف القليل عن بعض الحضارات، لكنَّ اهتمامي بالتاريخ لا حدَّ له... منذ طفولتي. درستُ الآشوريَّات في الجامعة، وأكملتُ جميع المقرَّرات لكنِّي لم أخرج. كنتُ أمرُّ بفترةٍ عصيبةٍ في ذلك الوقت ولم أستطع أن أكمل شهادتي. فشلت».

- «يؤسفني سماع ذلك -».

- «لا عليك. مضت الأمور على ما يرام، في نهاية المطاف».

- «ماذا عن صالون الوشم؟».

- «أوه، هذا الذي أنقذني. يدي خفيفةٌ جدًّا بالإبرة، بشهادة الجميع. كنتُ قد عملتُ في عدَّة صالونات من قبل، ولذلك حين انسحبتُ من الجامعة، أدركتُ أنَّني أتقن شيئًا فقط في هذه الدنيا، ولا يوجد بينهما شيءٌ مشترك. كنتُ أجيد الوشم، وأجيد

الكتابة بالخط المسماري. فخطر لي أن هناك مجموعة كاملة من الشخصيات في ملحمة گلگامش يمكن أن نصنع منها وشومًا رائعة. وإلى جانب ذلك، فيمكنني أن أَسِمَ بالخط المسماري. وإن لم يرغب أحدٌ في ذلك، فلا بأس. ليس لديّ ما أخسره. هكذا هو الفشل: فإمّا أن يجعلك خائفةً جدًا من تكرار الفشل، وإمّا أن يعلمك بطريقةٍ ما كيف تتغلّين على الخوف».

تتفكر زليخة في سكون.

– «لكنّ المفرح أن الفكرة راقّت عملائي، وصاروا يوصون بي للآخرين. فنجح المشروع، ويسير الآن على ما يرام. رسمتُ نسجًا عديدةً من گلگامش، وصديقه إنكيدو، وخمبابا وحشٌ غابة الأرز، والغانية المقدّسة شمخات، وغيرها. تخرجُ منهم كلّهم تصاميم رائعة».

– «ماذا عن الكلمات؟ ما أكثر شيءٍ وشمته وترك أثرًا في ذاكرتك؟».

تسكت زن لحظةً لتفكر. «كان هناك رجلٌ رياضيٌّ موهوبٌ ذو مستقبلٍ واعد. تعرّض لحادث سيرٍ مروريٍّ مروّع، وأصيب بالشلل من خصره إلى الأسفل. تحطّمت روحه، وانتهت مسيرته المهنية. فظنّ أنّ حياته قد ذهبت، وانتهى به المطاف في وضع شديد السوء. وأعتقد أنّ حبّ زوجته هو الذي أنقذه في النهاية، بالإضافة إلى طبيبٍ [نفسيّ] رائع. فلمّا زار محليّ، كان مصمّمًا على أن يبدأ من جديد. وطلب منّي أن أقترح عليه عبارةً تذكّره دائمًا بما مرّ به. عبارةً لها معنى قويّ، يمكن النفس. أراد أن

يكون وشمًا في ذراعه الأيمن، كي يراه كلّ يوم. فتصفّحنا ملحمة  
گلگامش معًا، وقرأتُ له بعض المقاطع، واختار ما يريد». -  
«ماذا اختار؟».

- «السطر الأوّل من القصيدة. كانت عبارةً مثاليّةً له. هو  
الذي رأى الأعماق».

- «اسم هذا البيت العائم؟».

- «نعم. اشتريتُ البيت العائم بالمال الذي كسبته في ذلك  
العام، بالإضافة إلى مدّخراتي، فشعرتُ بأنّه الاسم المناسب.  
لجميع النساء اللواتي مررن بمصاعب في حيواتهنّ: هي التي رأت  
الأعماق».

في تلك اللحظة، يرتفع صوت السبّاك من المطبخ. «نن، لقد  
انتهيت. هل تريدان أن تلقي نظرة؟».

فتقول نين وهي تنهض: «رائع».

ثم تلتفت إلى زليخة وتقول: «يظنّ الناس أنّ الوشم فعلٌ  
تمرّدٍ أو شيءٌ من هذا القبيل، لكنّه في الواقع شكلٌ من أشكال  
السرد. هذا ما يأتي من أجله معظم العملاء. فالأمر ليس مجرّد  
صورة عشوائية أو كلمةٍ بالحبر. إنّما يأتون لأنّ لديهم قصّة  
يروونها».

\*\*\*

وما هي إلّا ثوانٍ حتى يقف الثلاثة جنبًا إلى جنب، يراقبون  
الماء وهو يتدفّق في المغسلة من دون أيّ تسرّب.  
يسأل السبّاك: «كلّ شيءٍ على ما يرام؟».



فتجيبه نين: «كلّ شيء على ما يرام. أشكرك يا صديقي.  
أرسل لي الفاتورة».

- «حسنًا يا مديرة. أراك لاحقًا إذن».

يلتقط صندوق أدواته، ويعيد السمّاعتين إلى أذنيه، ويمضي.  
«حسنًا، عليّ أن أنطلق أنا أيضًا». تقولها نين وهي تضع  
إصبعين على جبينها، وكأنّها تؤدّي التحيّة برفع القبّعة. وبينما هي  
تنتحي، تلمح التحفة الموضوعة على الرفّ. «أوه، لديك  
لاماسو!».

- «نعم، هي هديّة من خالي. يهوى جمع التحف والأعمال  
الفنيّة من جميع أنحاء العالم. بل إنّ لديه معرضًا بالقرب من  
محلّك».

فتخطو نين خطوة نحو اللاماسو. «هذا من تصميم لادرو.  
ويبدو أنّه إصدارٌ محدود. لا بدّ أنّه يساوي مبلغًا كبيرًا».

فتحمرّ وجنتا زليخة قليلًا. دائمًا ما يُخرجها إسرافُ عمّها في  
الهدايا. «خالي مالك من الطراز القديم. يبالغ في الأمر قليلًا».

تلتقي عينا نين بعيني زليخة مرّةً أخرى. عينا نين حانيتان،  
تزدادان خُصرة، مثل ظلّ في قاع جدول. «حسنًا، يبدو أنّه  
شخصٌ مهمّ في حياتك. هل هو الذي شجّعك على دراسة  
الماء؟».

«خالي مالك؟ لا، ليس لديه أيّ اهتمام بالعلوم. كان ذلك  
قراري، واضطرّرتُ إلى أن أخالف رغباته. وفي وقتٍ لاحق،  
كان هناك عالمٌ فتح عينيّ على أسرار الماء، ولولاه، لربّما ما

اقتربتُ منها قطّ». ثم تتوقّف زليخة وتتنفّس ببطء. «لقد فقدتُ والديّ حين كنت في السابعة من عمري. توقّيا في فيضانٍ مفاجئٍ وهما يخيّمان بجوار نهر».

- «أوه، يؤسفني سماع ذلك. لا بدّ أنّ الأمر كان صعباً للغاية. ولكن لا بدّ أنّ هذا العالم كان رائعاً، لدرجة أن يعيد تصالحك مع الماء».

فتشعر زليخة بضيقٍ في صدرها. «نعم، كان عالمًا رائعاً، لكنّه ارتكب خطأ كبيراً في نهاية حياته. صار مهووساً بفرضيّة لم يستطع إثباتها فعليّاً».

- «تقصدين أنّه فشل. شأنه شأن أيّ إنسانٍ آخر».

- «ربّما يمكنكِ قول ذلك. لكنني نشأتُ بتفكيرٍ مختلف. يقول خالي دائماً إنّ أمثالنا لا يجوز لهم الفشل. أقصد المهاجرين».

تدسّ نين يديها في جيبَيْها. «لا أعرف خالك، لكنني، ومع خالص احترامي له، أختلف معه. في رأيي أنّ المهاجر بالذات يفهم معنى أن يواجه الخسارة، ويبقى غير مهزوم».

✱

تخرجان إلى سطح القارب. يتموّج نهر التّمز في الخلفيّة، يتحرّك ببطءٍ شديدٍ لدرجة أنّه يبدو صلباً، كصفحةٍ من الزجاج الأزرق.

تقول زليخة: «الشخصان اللذان رأيتهما في محلّك... هل وشمّت لهما حقّاً عبارة «كلوا الأغنياء» بالخطّ المسماري؟».

- «آه، نعم! وبدت جميلة جدًا».

فتهزّ زليخة رأسها غير مصدّقة. «وكم وشمًا لديك أنت؟ إن لم يكن في السؤال تدخّل كبيرٌ في حياتك».

فتقول نين بابتسامة: «صفر».

- «ماذا؟ حقًا؟».

- «نعم. أنا أرتعب من الإبر. ربّما يغمى عليّ إذا رأيت إبرة تخترق جلدي».

فتنظران إلى بعضهما بعضًا لحظة، ثم تنفجران ضاحكتين.

تقول زليخة: «وشامةٌ تخاف من الإبر!».

هي أوّل لحظةٍ مرحٍ بالنسبة إليها منذ وقتٍ طويل. تَلِينُ عينا نين، وكأنّها تشعر بذلك. ثمّة لطفٌ ثابتٌ في نظرتها وهي تقول: «ليس أغرب من عالِمة هيدرولوجيا تخاف من الماء. يحدث ذلك».

يغرّد طائرُ الرفراف على مسار النهر. لقد بدأت زليخة تلاحظ الطيور منذ انتقالها إلى هنا. فتقول بهدوء: «أظنك على حق».

تُخرج نين يديها من جيبيها وتقول: «عليك أن تأتي معنا يومًا ما للبحث عن الكنوز العائمة في الطين. نشاطٌ جميلٌ وهادئٌ ومطمئنٌ يبدأ به المرء يومه، لا سيّما لأولئك الذين وهبوا قلبًا مضطربًا».

فترسمُ على وجه زليخة نظرةً متسائلة.

«من ملحمة گلگامش. هكذا تشتكي والدّة گلگامش للآلهة:

لماذا وهبتم ابني قلبًا مضطربًا؟ دفعتموه إلى السفر... ليواجه معركةً مجهولة». ثم تعدّل نين حقيبتها وتمشي نحو ممرّ النهر. «وداعًا زليخة. سررتُ جدًّا بلقائك».

فترفع زليخة يدها وصوتها. «شكرًا لك على إصلاح المغسلة. وعلى البسكويت!».

«العفو». ثم تنزل من السطح وتلتفت لتلوّح لزليخة: «اعتني بنفسك».

تلمح زليخة من طرف عينها حركةً عند نافذة البيت المجاور. يراقبها الزوجان الجاران من وراء الستائر. فتشعر برغبةٍ قويّةٍ في الدخول إلى بيتها، محرجةً من منظرها بثياب النوم، لكنّ شيئًا يدفعها للمقاومة. فتخطو على الممرّ وتصيح: «هياي! نين».

تتوقّف نين في منتصف خطوتها. «نعم؟».

«هممم... هناك حفل عشاءٍ في منزل خالي مساء اليوم بمناسبة عيد ميلادي...». تتحرّك الستائر مرّةً أخرى.

«قد يكون مملاً بعض الشيء، فهم رسميُّون جدًّا، وقد لا يروقك الطعام. ولكن، يبدو أنّ هناك اهتماماتٍ مشتركةً بينك وبين خالي. أقصد أنّكما مغرمان بـ ملحمة گلگامش والتاريخ القديم. اممم، نعم، فهل تودّين مرافقتي؟».

-O-

آرثر

في الطريق إلى نهر دجلة، 1872

تقع السفارة البريطانية في حيّ پيرا العالمي بالقسطنطينية، وقد صُمِّمت لتبدو نسخة مصغرة من قصر باكنغهام، مزينة بأعمدة إغريقية ونوافذ كبيرة تطلّ على القرن الذهبي. أمّا ثرياتها الضخمة في قاعة الرقص (والتي كانت مخصصة في الأصل للسفارة البريطانية في موسكو)، فقد رُكِّبت هنا عندما اندلعت حرب القرم.

أسكنوا آرثر في غرفة صغيرة تحت سقف ذلك المبنى المائل. بدأ جفناه يرتحيان من شدة الإرهاق وهو يتناول الطبق الموضوع أمامه، يخنة أرانب بالشعير مطهّوة على مهل. وحين

أوى أخيراً إلى فراشه، تدثر بالبطانيات وأصغى إلى الأصوات المتسرّبة عبر النافذة. القسطنطينيّة تتحرّك وتهمس في الظلام، مثل كائنٍ ليليٍّ يتشمّم بحثاً عن فريسة.

※

استدعي آرثر في الصباح لمقابلة السفير، فصعد درجاً رخامياً منحنيّاً، ودخل قاعةً فسيحةً عالية السقف، مؤثثةً بتمائيل برونزيّة، وخزائن عتيقة، ولوحاتٍ زيتيّة، وأطباقٍ خزفيّةٍ وأوانٍ من جميع الأحجام. تتجاور التحف القادمة من الهند وشرق إفريقيا مع مقتنياتٍ من مختلف أرجاء الإمبراطوريّة العثمانيّة، معروضةً على رفوفٍ مزخرفة. وفي وسط هذه المجموعة الفخمة يقف السفير، بفكّه المربّع ومنكبّه العريضين.

- «آرثر سمث. مرحباً بك في القسطنطينيّة، أو «مدينة الألف قبة» كما يحبّ الأتراك أن يسمّوها».

يُعدّ السفير من ذوي الحظوة في مشواره إلى وزارة الخارجية، ممّا ينعكس في ثقته بنفسه وعفويّته المكتسبة، فهو سليل عائلةٍ أرستقراطيّةٍ عريقة، وتخرّج في إيتن وكيمبرج. قال وهو يمدّ يده: «سمعتُ عنك الكثير. يقولون إنّ خطابك ترك انطباعاً قوياً على رئيس الوزراء».

- «متى يمكنني السفر إلى نينوى؟».

فيضحك السفير من إخفاق ضيفه في الالتزام بالآداب الاجتماعيّة في تجاذب الحديث.

يقول آرثر وهو يدرك خطأه: «أعذر». ثم يحاول العودة إلى

اللباقة الاجتماعية: «المبنى مشيرٌ للإعجاب فعلاً».

- «نحن ممتنونٌ للغاية لوجود سقفٍ صغيرٍ يظللنا لاستضافة الفنانين الزائرين والعلماء البارزين من أمثالك».

يتململ آرثر، فينقل وقفته من قدم إلى أخرى. لا يدري ما إذا كان ينبغي عليه أن يعلق بأنه ليس «سقفًا صغيرًا»، أم يتظاهر بأنه كذلك.

يقول السفير وهو يتأمله: «يبدو أن تلك الألواح القديمة تأثيرًا عليك. عليّ القول إنني معجبٌ بهذا التفاني. بعض الناس قد لا يفهمون شغفك أبدًا، لكنني لست منهم».

يبتلع آرثر ريقه. يشعر بالحيرة كعادته حين يستمع إلى حديث الطبقات العليا، فلديهم طريقةٌ ملتويةٌ في التعبير، ولا يستطيع أبدًا أن يعرف ما إذا كانوا يمتدحونه بصدقٍ أم يسخرون منه بلطف.

- «متى يمكنني المغادرة إلى نينوى؟ أودّ الانطلاق على الفور».

- «حسن، المسألة لا تتوقّف على رغبتك يا صديقي العزيز. بل على ما يريده السلطان».

- «حسبْتُ أن جميع الترتيبات قد اكتملت قبل وصولي».

- «لا يمكنك التنقيب في الأراضي العثمانية دون فرمان».

- «عفوا؟».

- «فرمان، أي تصريحٍ رسميٍّ. ختم الموافقة. مرسومٌ سلطانيٌّ يصدره السلطان أو الحكومة. فلا يمكنك التنقيب في نينوى من دونه، وإن فعلت، ستقع في ورطةٍ لا أستطيع حتى أنا أن أنقذك منها».

يتوتّر وجه آرثر. «ولكنّ بالتأكيد لستُ مضطّرّاً إلى الانتظار هنا. سيصل خطاب التصريح أثناء سفري في الطريق. سيوفّر هذا عليّ الوقت».

فيكرّر السفير الكلمة وكأنّها جديدةٌ عليه. «الوقت... يختلف معناه من منطقةٍ إلى أخرى في العالم. للأتراك مفهومهم الخاص للوقت، وقد يكون في غاية البطء».

يهزّ آرثر رأسه. «قل لي إنّ السلطان لا يهتمّ بالألواح الطينية القديمة».

- «أوه، لا يهتمّ بها إطلاقاً، لكنّه فجأةً بعد ذلك يهتمّ بها. هي نزوات الباب العالي وأهواؤه...».

يشعر آرثر وكأنّ قلبه قد هوى. يركّز نظره على الأنماط المرسومة على السجّادة التركيّة، فيجد شيئاً من العزاء في انتظامها. يحسب بسرعة أنّ هناك متي زخرفة ماسيّة الشكل على سطحها، بما في ذلك الأنصاف والأرباع على الحواف. كلّما نظر مرّةً أخرى، سيظلّ العدد نفسه. هذا شيءٌ يمكنه التحكّم فيه.

فيقول السفير: «صديقي العزيز. أرى أنّ هذا الخبر أزعجك. لديّ شيءٌ قد يخفّف عنك».

يمشي بخطواتٍ واسعةٍ إلى خزانة، ويصبّ كأساً من سائلٍ عديم اللون. يقبّذ المشروب لآرثر ويأخذ واحداً لنفسه.

- «هل جرّبتَ هذا من قبل؟ يسمّونه فودكا. اخترعه راهبٌ روسيّ في دير، يرحم الله روحه الخفيفة. سمّاه «نبيذ الخبز»، فهو يُقطّر من القمح. ولكنّ عليّ أن أحذّرك، فهو قويّ».



يتناول آرثر رشفةً كبيرة، ويسعل، وقد احمرَّ وجهه.

فيتنسم السفير. «أنصحك بأن تأخذ الأمور على مهلك في القسطنطينية. يقولون إنَّ في هذا الجزء من العالم، إذا ركضت بسرعة كبيرة، فسوف تفوتك البقعة الآمنة التي كان يمكنك الاختباء فيها». مكتبة سرٌّ من قرأ

\*\*\*

القسطنطينية... مكانٌ مراوغ، يصعب الإمساك به. مدينةٌ كثعبان الماء. تظنُّ أنك أمسكت به، فينزلق من بين يديك.

يمرُّ أسبوع، ثم آخر. لا أخبار عن الفرمان. ينام آرثر بقلق في الليل ويستيقظ متعباً في الصباح، وكأنَّ الوحوش تطارده في أحلامه. حاول عدَّة مرَّات أن يتواصل مع السلطات العثمانية، لكنَّه وهو يرتدُّ من مسؤولٍ إلى آخر لا يصل إلى أيِّ مكان. والآنكى أنَّه لا يستطيع التحدُّث بلغتهم. لقد أبدى في صباه موهبة ملحوظة في تعلُّم اليديشية والإيرلندية بالتنصُّت على متحدثيهما الأصليين، ولو أنَّه استطاع أن يُهدئ أعصابه، لتعلَّم التركية بالسرعة نفسها على الأرجح، لكنَّه لا يستطيع التخلُّص من الشعور بأنَّه حتى لو فعل ذلك فلن يستطيع أن يفهم الآخرين ما يريد.

يقول كبير الكتبة: «أنت سمكة خرجت من الماء. لا تعرف كيف تزيّت الأيادي، لا تفهم لغة البقشيش. أنت حسَّاسٌ جدًّا، وناقد الصبر».

لئن كان آرثر يواجه وقتاً عصيباً مع النبلاء العثمانيين، فإنَّه لا يُبلي بلاءً أفضل مع موظفي السفارة البريطانية. فبالإضافة إلى

السفير وزوجته وأطفالهما الثلاثة المستقرّين بارتياح في المبنى، هناك العديد من الكتبة والملحقين والدبلوماسيين. التّجار أيضًا يأتون ويذهبون، على الرّغم من أن «شركة المشرق» تخلّت عن سيطرتها على التجارة في هذه المنطقة منذ زمن بعيد. وقد عرف آرثر أنّ هذا المسكن شكّل في الماضي ملاذًا آمنًا من موجات الطاعون الدبلي التي دمّرت القسطنطينيّة. لكنّه رغم حداثة الرائحة ومساحاته المؤثّة بأناقة، يشعر بعدم ارتياح داخل هذه الجدران. المسؤولون أنيقون ودمثون، والضيوف متبجّحون متغطرسون، رجالٌ اعتادوا تلبية كلّ نزواتهم وتوقع كلّ رغباتهم. لا يستطيع أن يجاري أسلوبهم في المحادثة، ولا يجد في نفسه اهتمامًا بالموضوعات المطروحة. وفي كلّ يوم بعد العشاء، يطلب الإذن كي يأوي إلى غرفته، بدلًا من الانضمام إليهم للشرب حول المدفأة. يعلم أنّه يجب أن يبذل مزيدًا من الجهد، ويشعر أنّهم يتناقلون الشائعات وراء ظهره، مستخفّين بأسلوبه الفظّ وغرابة أطواره، لكنّه لا يملك الرغبة ولا القدرة على التّأقلم.

في بعض الأحيان، يُدعى آرثر لتناول الطعام في منزل أسرة من الأهالي. لكنّ الكباب المتبلّ يربك معدته. الرزّ ولحم الضأن مملوءان بالزيت، لكنّه يستمتع بالخشاف الذي يقدّمونه في النهاية، وهو عبارة عن وعاءٍ من الماء المحلّى بالفاكهة المطبوخة. للأتراك ولعٌ بالحلويّات (مثل الملكة فكتوريا)، ويستهلكون تشكيلةً مذهلةً من الحلويات، بعضها بأسماء غريبة: قاع المرحل، شفاه الحسناء، بطن الزوجة، حلوى المحظيّة، إصبع الوزير، وما إلى ذلك. لكنّ الحلوى التي يفضّلها آرثر هي العاشوراء. حلوى سفينة

نوح، وصفةً بأربعين مكوّنًا، يُقال إنّها اخترعت على السفينة للاحتفال بالنجاة من الطوفان. ما زالت ذاكرة الماء حيّة في هذا الجزء من العالم، وما تزال تشكّل الحياة اليومية.

يحبّ آرثر المقاهي ويتردّد إليها كثيرًا. بأوراق اللبلاب الكثيفة التي تغطّيها، وجدرانها المكسوّة بالخشب، ومقاعدھا المحشوّة بالوسائد، فهي ساحرة ونظيفة جدًّا، على عكس الشوارع. يجلس تحت عريشة، يرشف قهوته وهو يتصفّح مجموعة من القصائد. أحيانًا يرسم ما حوله: أطفالًا يلعبون لعبة الأحجار، رجالًا يرتدون الطرايش والعمائم، باعة فاكهة يحملون صواني التين. في المرّة الأولى التي جرّب فيها النرجيلة، سحب نفسًا بسرعة كبيرة، فسعل كثيرًا لدرجة أنّه أثار ضحك النادل الصبيّ. لكنّه صار أكثر حذرًا بعد ذلك. يراقب الزبائن الآخرين، الذين يجلسون في ثبات تامّ، وكأنّهم لا يدخّنون بل يتأمّلون في تصاريّف العناية الإلهيّة. يتباطأ الزمن، وصوت فقاعات الماء في الوعاء البلّوريّ يبعث الهدوء.

على بعد يارداتٍ قليلةٍ من مقهاه المفضّل في أورطة كوي، يوجد كوئ متداعٍ يتردّد إليه فريقٌ من الصيّادين. يراقبهم آرثر بإعجابٍ وهم يصلّحون شباكهم أو يشوون صيدهم اليوميّ. يدعونه ذات مساء، وعلى عكس الموجودين في السفارة، فهؤلاء لا ينخرطون في حديثٍ سطحيّ، بل يرضيهم الصمت. يجلسون في دائرةٍ حول النار، وتشكّل قطط الحيّ دائرةً أخرى خلفهم. يقدّمون له سمك البونيتو المشويّ على الفحم مع خبز قمح ولِفَتٍ مخلّل.

لم يذق في حياته شيئاً بهذه اللذة.

كلّما وجد آرثر فرصة، تجوّل على طول البوسفور، متأملاً امتداده الأزرق المبهر، والذي يصعب سبر غوره. تنزلق العصافير فوق الماء، وتنقضّ النوارس لتنقر الفتات. يفاجأ حين يعلم أنّ الأتراك يكتّون احتراماً كبيراً للقالق، معتقدين أنّ هذه الطيور تحجّ إلى مكّة، وتعود كلّ عام أكثر حكمةً وقداًسة. كان يتوقّع أن يرى إبلاً أكثر في المدينة، لكنّه رأى مرّةً جَمَلَيْنِ يصطدّمان في زقاقٍ ضيق. فوجد الراكبان حلّاً على الفور: يجلس الجمل ذو الحمولة الأخفّ بينما يقفز الآخر من فوقه. هي اتّفاقاتٌ غير منطوقةٍ وقواعد غير مكتوبةٍ تحكم الحياة اليومية، ويجب أن يطيعها البشر والحيوانات على حدٍّ سواء.

لكنّ الكلاب هي التي تفاجئه أكثر. تتهاذى في المكان، تتشمّس، تنازع الآخرين على ملكيّة الشوارع. قبل مئة عام، أمر السلطان بوضعها في أكياسٍ ونفيها إلى جزيرةٍ في بحر مرمرة، فمات الكثير منها جوعاً. لكنّ سكّان القسطنطينيّة المستائين من قسوة السلطان، استطاعوا أن يعيدوا الكلاب الباقية على قيد الحياة، ومنذ ذلك الحين تكاثرت في انتقام. لا يمكن لأحد أن يمسه الآن.

التنقّل من حيٍّ إلى آخر يشبه الانتقال من بلدٍ إلى آخر. لا يملك آرثر إلّا أن يشكّ في أنّ القسطنطينيّة ليست مدينةً واحدة، بل عدّة مدنٍ مخبّأةٍ في واحدة. فهي ليست كيّاناً منفرداً، بل ألف شطيّةٍ مكسورة. يتحدّث الناس مجموعةً كثيرةً من اللغات هنا، فيعتمد الأمر على الشارع الذي تجد نفسك فيه: التركيّة،

واليونانية، والأرمنية، والكردية، والعربية، والفارسية، واللادينو [الإسبانية العبرية]، والفرنسية، والإنكليزية، والإيطالية، والروسية، والإسبانية، والبوسنية، والبلغارية، والصربية، والكرواتية، والمقدونية، والألبانية، وغيرها. يلاحظ آرثر في تجواله اليومي الدبلوماسيين الأوروبيين بملابسهم المميزة، واليهود بجداول شعرهم، والألبان بالمسدسات السود والتنانير البيض، والتتار في جلود الأغنام، والحمالين الأرمن المنحنيين تحت ثقل السلال على ظهورهم، والجورجيين الذين يرتدون أحزمة معدنية حول خصورهم. يصادف رهبان الدومينيكان، واليسوعيين، والقساوسة، والحاخامات، والأئمة. يرى دراويش الصوفية بقبعاتهم المخروطية. يتعلم كيفية التعرف على أفراد المجتمعات المختلفة: البوماك [المسلمون البلغار]، والكروات، والموارنة، والروما [الغجر]، والبدو، والدروز، والسوريين، والشركس، والمصريين، والقوزاق، وغيرهم. تعمل كل اللهجات في تلك البوتقة العملاقة: القسطنطينية. يرتدي بعض الناس ساعات ذات قرصين، يُظهر كل منهما وقتًا مختلفًا. المدينة بأكملها تعمل بمناطق زمنية متعددة في وقت واحد.

من الاختلافات الرئيسة بين شوارع لندن وشوارع القسطنطينية ندرة النساء هنا. يلمح ذات مرة محظية تغادر حريم السلطان في نزهة نادرة، يحملها حمّالون بالزي الرسمي على محفة. يسير في مقدمتهم خصي (يُرجح أن يكون واحدًا من العبيد الكثرين الذين اختطفوا من إفريقيا وتعرضوا لإخضاع وحشي في صغرهم)، موبّخًا أي شخص يجرو على النظر إلى الداخل. وفي يوم آخر،

أثناء تجواله على طول القرن الذهبي، يلمح ثلاث نساءٍ مسلماتٍ في قاربٍ صغير، متّكئاتٍ على وسائد، يتردّد صدى ضحكاتهنّ على سطح الماء. يراقبهنّ إلى أن يختفي قاربهنّ عن الأنظار.

وفي أسكدار، يتمشّى على طول مساراتٍ حصويّةٍ محاطةٍ بأشجار البتولا والصفصاف، إلى أن يجد نفسه أمام ثكنةٍ عسكريّةٍ: مبنى ضخمٌ مستطيل الشكل بساحة عرضٍ في وسطه. هنا عُولج آلاف الضحايا من حرب القرم (من جنودٍ بريطانيّين وفرنسيّين وأتراك) منذ وقتٍ ليس ببعيد. سمع آرثر الكثير من القصص عن السيّدة ذات المصباح وزميلاتها الممرّضات وهنّ يقمن بجولاتهنّ، والمرضى المصابين بالغرغرينا وتقرّس الصقيع يصرخون في الظلام، لدرجة أنّه يتوقّع نوعًا ما أن يراهم جميعًا هنا الآن. ولكن لا توجد أيّ علامةٍ على أنّهم كانوا هنا من قبل. فلم يبقَ سوى غضب الريح: لودوس. يخطر له أنّ القسطنطينيّة مدينة النسيان، أكثر من أيّ مكانٍ آخر رآه أو سمع عنه.

\*\*\*

بعد ثلاثة أسابيع من إقامة آرثر، يصطحبه ترجمانٌ يعمل في السفارة إلى البازار الكبير. يشقّان طريقهما عبر الأزقة المقوّسة، فيما الحمّام يتطاير عبر القباب العلويّة. يمشيان بتناغم مع تدفّق ثابتٍ من المتسوّقين، يمرّان عبر أعمدةٍ منحوتةٍ ويردّان التحيّة على الباعة الجالسين متربّعين على السجّاد، يرشفون شايًا دافئًا كأعينهم.

يكشف آرثر أنّ كلّ قسمٍ من البازار متخصّصٌ في نوعٍ معيّنٍ

من البضائع. فهناك شارعٌ واحدٌ يبيع الأقمشة فقط: الديباج، والكثَّان، والشاش، والحريز، والكشمير، والمخمل، والدمقس، وغير ذلك. وثمَّة شارعٌ آخر للزجاج المزخرف: المضلَّع، والمذهَّب، والمفقَّع، والمحفور، وغيره. والشارع التالي مخصَّصٌ للمدخَّنين: غلايين الشبوك [غلايين تركيَّة رفيعة]، وغلايين العاج، وأراجيل الكرستال، وغيرها. وفي صفٍّ مختلفٍ مخصَّصٍ للعطور، تمتزج الروائح من زجاجاتٍ لا حصر لها، ومساحيق، ومراهم، ودهاناتٌ في الهواء. يندهش آرثر من المباخر المرصَّعة بالأحجار، وصناديق الحنَّاء، وأكياس المسك، والكحل بأنواعه. هذا الجزء من البازار مزدحمٌ جدًّا لدرجة أنَّ الناس المتزاحمة تشدُّه إلى تيارٍ بشريٍّ، كالتيار الذي يسحب قاربًا تحت الماء.

ينعطف آرثر، فيجد نفسه في ممرٍّ يتلأأ بالأحجار الكريمة: العقيق الأزرق، والعقيق اليمانيّ، وحجر البحر، والزمرد، والياقوت الأزرق، واللؤلؤ، والعقيق الأحمر. أكوامٌ من المسابيح التي يحبُّ الأتراك قلبها مرتبَّةً على الأكشاك. يتوقَّف لينظر إلى حجرٍ أزرق محدَّب.

فيقول صاحب المحلِّ بإنكليزيَّة طليقة، وإن كانت ولكنها ثقيلة: «اختيارٌ موفَّق. هذه قطعةٌ خاصَّة».

«لاپيس لازولي [اللازورد]». يبتسم آرثر فيما ترنّ كلمات السيّد برادبري في أذنيه: لاپيس من اللاتينيَّة، وتعني «حجر»، ولازولي من العربيَّة والفارسيَّة، وتعني «السماء»، والأزرق الداكن...»

الجوهرة السماوية من بلاد الرافدين القديمة. صخرة الأسلاف. لقد صادف آرثر إشارة إلى لوح أزرق في قراءاته لملحمة جلجامش، لكنه افترض أنه مجرد ترخيص شعري. غير أنه وهو يحمل الحجر في كفه الآن مثل طائر مذعور، يبدو له من المعقول أن يوجد نقش كهذا باللازورد في مكان ما بجوار دجلة، مدفوناً تحت الأنقاض.

- «سأعطيك خصماً جيّداً. لك أنت فقط».

وما كاد آرثر يفكر في الردّ حتى سمع ضجّة. صيحات وهتافات وصفيراً، ثم صرخة يائسة.

فيقول آرثر: «ما الذي يجري بحقّ الله؟».

يمدّ الترجمان رأسه ليرى بوضوح أكثر. «يبدو أنهم يتسلّون قليلاً مع عابد شيطان».

فيسرع آرثر في ذلك الاتجاه، والحجر ما يزال في يده، وصاحب المحلّ والترجمان في أثره.

تجمّع حشدٌ من الشباب الصاخبين في مكانٍ قريب، ترتفع أصواتهم كالأمواج. يرسم أحدهم بالطباشير دائرةً حول فلاح مسنّ. فيقف الرجل في وسط الشكل الهندسيّ، ساكناً، بكتفين محنيّين، ووجهه منقوشٌ بالألم.

يقول الترجمان وقد لحق بآرثر: «هذا من غرائب الشرق. يعتقد بعض الناس أنك إذا صنعت حلقةً حول عابد شيطان، فلن يستطيع الخروج منها، إلى أن يمحوها أحد المارّة. لا أدري ما



إذا كان هذا صحيحًا، ولكنّ يوجد دائمًا من يرغب في التجربة». يشقّ آرثر طريقه وسط الحشد. وحين يصل إلى المقدّمة، يُخرج منديله ذا النقوش الكشميريّة الذي اشتراه من شارع ريجنت (فهو محض بهرج لا فائدة منه)، ثم يمسخ الدائرة ببطء. يسكت الناس وهم يراقبونه باستمتاع. لا يُعدّ التحرّش بيزيديّ أمرًا استثنائيًا، لكنّ مشهد الإفرنجيّ وهو يجثو على يديه وركبتيه كي يساعد شخصًا آخر هو الذي يستحقّ المشاهدة في البازار الكبير.

يتفرّق الشباب الصاخبون على مضض، شيئًا فشيئًا. وطوال ذلك الوقت لم يحوّل الرجل المسنّ عينيه عن آرثر، لكنّه يتمتم الآن ببعض الكلمات.

فيقول آرثر: «ماذا يقول؟».

يهزّ الترجمان كتفيه. «يشكرك. هذيان شيخ مسنّ. يقول إنك شخص طيّب، ولكنّ عليك أن تكون حذرًا، لأنك وُهبّت قلبًا مضطربًا».

تتّسع عينا آرثر وهو يتذكّر الجملة التي قالتها والدة گلگامش: لماذا وُهبتم ابني قلبًا مضطربًا؟ دفعتموه إلى السفر... يتساءل في نفسه ما إذا كان الرجل قد سمع عن الملحمة، ثم يتمتم الرجل بكلماتٍ أخرى.

- «ماذا يقول الآن؟».

- «يقول إنّ هناك نهرًا يجري من خلالك. ولا أعرف ما يعنيه ذلك».

يتأمّل آرثر الرجل، ببشرته المجعّدة كالجلد، وأنفه المهيب

العريض من أعلاه، وجبينه الواسع وشعره الداكن الغزير المجعد،  
إذ يندمج مع لحيته التي تستريح على صدره. يشبه كثيرًا صور  
القدماء من بلاد الرافدين، لكأنه خرج من نقش آشوري من زمن  
آشوربانيبال.

يقول صاحب المحلّ: «أستشترى هذا الحجر أم لا؟»

يغادر الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات البازار  
الكبير القائم منذ أربعمئة عام، وهو يحمل قطعة اللازورد في  
كفّه، ويفكر في كلمات الشيخ اليزيديّ. ماذا عساه يعني؟ في  
ملحمة گلگامش، يسافر بطل القصيدة المضطرب بعيدًا عن وطنه،  
ويصل إلى مصبّ الأنهار في نهاية العالم، وكلّ ذلك من أجل  
مغامرة محكوم عليها بالفشل. ربّما يعاني آرثر أيضًا من هذا  
المرض نفسه. ربّما هذا هو السبب في عجزه عن الاستقرار. كلّ  
ما يعرفه هو أنّه إذا كان هناك نهرٌ يجري من خلاله، فيبدو أنّه  
يتدفّق دائمًا، وبكلّ طريقة، نحو الكآبة.

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

- «هل حدث هذا الأمر معك يومًا يا جدّتي؟».

- «لم يحدث معي، لكنّه حدث مع أخي الأصغر. عاد ذات يوم من المدرسة وهو يبكي. طرّحه الصبية الآخرون أرضًا ورسموا دائرةً حوله».

- «ولكن لماذا؟».

- «لأنّ الناس اختلقوا أساطير وأكاذيب من كلّ شكلٍ ولونٍ عن ثقافتنا».

تنظر نارين إلى أبيها. تودّ أن تسأله إن كان هو أيضًا قد مرَّ

بتجربة مماثلة، لكنَّ عينيَّ بابا على الطريق، ويديَّه على المقود. ذاهبون إلى العراق، أخيراً في طريقهم إلى وادي لالش المقدَّس. تجلس نارين في المقدَّمة، ممَّا يجعلها تشعر بأنَّها كبيرة. الجدَّة في الخلف، محاطةٌ بحقائب مليئةٍ بالهدايا لأقاربهم.

تقول نارين: «لو رسم أحدهم دائرةً حولي، لقفزت فوقها!».

فتقول لها الجدَّة: «أكيدُ يا قلبي. لكنَّ المؤلم ليس الرسم بالطباشير، وإنَّما المقصود منه».

وحين يصلون إلى جزيرةٍ قرب الحدود التركيَّة - السوريَّة، وبالقرب من العراق، تحكي الجدَّة لنارين عن عالمٍ شهيرٍ وُلد هنا.

- «اسمه الجَزْري. كان طفلاً نابغاً، وُلد ونشأ في شمال بلاد الرافدين، مثلك يا قلبي».

تقول الجدَّة إنَّ الجزريَّ كان يعشق الماء. وكان مفتوناً منذ صغره بمنعطفات الأنهار المليئة بالطمي، وحركات المدّ والجزر. فصنَّع نوافير رائعة، وأجهزة ريّ، وساعاتٍ مائيَّة. وذات يوم ابتكر شيئاً لم يره أحدٌ من قبل: آلة طاووس. فإنَّ سحبَت ذراعاً خفيَّةً في ذيل الطاووس، أطلق الماء من منقاره كي تغسل يديك. بعد ثوانٍ قليلة، ينفتح الباب الأيسر وتظهر دميةٌ صغيرةٌ تحمل الصابون. وما إنَّ تنتهي من الوضوء، حتى ينفتح الباب الأيمن وتخرج دميةٌ أخرى تحمل مناشف نظيفة.



فتقول نارين: «مذهل!».

ثم يشاركهما الأب في الحوار. «تخيّلني أنّ الجزريّ اخترع قبل تسعمئة عام آلاتٍ مثيرة للإعجاب، تسبق عصره بكثير! يقولون إنّ العديد من رسوماته موجودة الآن في أميركا. في مكتبة أو متحف».

فتقول الجدّة: «أوه، إذن يستطيعون هم أن يروها، ونحن لا».

- «على الأقلّ ستكون آمنة لديهم يا ماما. يعلم الله أنّها ربّما كانت ستُلف أو تضيع هنا».

تتنهّد الجدّة. «آمنة لمن يا خالد؟ الغرب يأخذون ماضيّنا وذكرياتنا، ثم يقولون: «لا تقلقوا، يمكنكم أن تأتوا وتشاهدوها في أيّ وقت». ولكنّ كيف لنا أن نصل إلى هناك أصلاً؟».

- «تلك المتاحف لديها ملايين الزوّار من شتّى أنحاء العالم. أبوابها مفتوحة على مصاريحها».

- «نعم، لكنّ ملايين آخرين لا يستطيعون السفر، أليس كذلك؟ نحن هنا، لكنّ تاريخنا في مكانٍ آخر. كأنّهم قَطَعُوا جسدنا إلى قطع، وقالوا: «يمكنكم زيارة أطرافكم متى أردتم». فيلتفت خالد نحو نارين ويغمز. «جدّتك حسّاسةٌ جدًّا في هذا الموضوع».

تخشى نارين من نشوب خلافٍ بين أحبّ شخصين إلى قلبها، فتقول: «بمناسبة ساعة الطاووس تلك... هل كان الجزريّ يزيدًا أيضًا؟».

فتردّ الجدّة: «يعتمد الجواب على الشخص الذي تسألينه. فإنّ سألتَ عربيًّا، سيقول إنّ الجزريّ كان عربيًّا. والإيرانيّون يقولون إنّّه كان فارسيًّا. والأكراد يقولون إنّّه كان كرديًّا. لا أحد يسألنا نحن أبدًا».

يضغط الأب على دوّاسة الوقود، فيحسّون بعيوب الطريق. «سواء كان عربيًّا أو كرديًّا أو يزيدًا... ما نعرفه هو أنّ الجزريّ كان يحبّ الموسيقى. وقد أنشأ فرقةً آليّةً من الموسيقيّين. روبوتاتٍ صغيرةً في قارب، تعزف الأغاني للضيوف وهم يبحرون».

- «مستحيل!».

فيقول أبوها: «بل حقيقة. كان له عقلٌ متميّز. ولكنّ الناس نسوه، مثل كلّ عبقرٍ وُلد في هذه الأرض».

تقول نارين في حرصٍ على إسعاده: «ولكنّك لم تنسه! ما زلت تذكر الجزريّ! وجدّتي تذكر أيضًا».

فيردّ عليها مومئًا برأسه: «نعم يا حبيبتي. نحن قبيلة الذاكرة».

تضغط نارين جبينها على النافذة، فيندمج انعكاسُ وجهها بالحقول المصفرة. ثم تتعب من مشاهدة المناظر الطبعيّة، فتلتفت إلى الخلف وتنظر إلى الصندوق الذي يحملونه معهم.

- «لماذا نأخذ القانون معنا؟».

فُجِيبها أبوها: «في العراق حِرَفِيٌّ ماهر، مشهورٌ جدًّا. أريده أن يلقي نظرةً عليه. يحتاج إلى إصلاح، لكنني لا أستطيع أن أؤمن عليه أيّ شخصٍ وحسب. القانون قديمٌ جدًّا، وهو هديّة، لذلك علينا أن نعتني به جيّدًا».

- «هديّة ممّن؟»

لحظةٌ صمتٍ تمرّ، ثم تقول الجدّة: «أحضره الإنكليزيّ معه من إسطنبول وأعطاه لجدّتي».

- «لماذا؟».

- «كان يريد أن يشكرها. ليس وحدها، بل القرية كلّها. كان يشعر بامتنانٍ لهم لأنّهم سمحوا له بالبقاء فيها».

فتقول نارين وهي ترفع كتفيّها: «وهذا أيضًا حدث في الأزمنة الغابرة، أليس كذلك؟!».

\*\*\*

فلمّا عبروا الحدود إلى العراق، شقّوا طريقهم بثباتٍ على طول دجلة الذي يرشدّهم في طريقهم.

تقول الجدّة إنّ هذه المنطقة كانت مليئةً بحيوان المها ذات يوم. تلك الطباء الكبيرة ذات القرون الطويلة المستقيمة، في مزيج من الجمال والقوّة. فراؤها لامعٌ جدًّا يعكس أشعّة الشمس كالمرايا الناعمة، ولها قدرةٌ على الاحتفاظ بالماء حتى في درجات الحرارة الحارقة. يمكنها أن تكتشف الروائح من على بعد أميال، فتستطيع أن تشمّ في الريح بشائر المطر.

حين كانت الجدّة فتاةً صغيرة، كان هناك ما يقرب من خمسمئةٍ من المها في المنطقة، لكنّها حين تزوّجت لم يكن قد بقي منها سوى عددٍ قليل. فقد وصل الصيّادون بمركباتهم وأسلحتهم الآليّة. كان مديرو شركات النفط يقيمون الحفلات لضيوفهم، ويأخذونهم إلى الصحراء لمطاردة هذه الحيوانات السماويّة.

وكانت هناك أسودٌ أيضًا على طول دجلة في يوم من الأيام. قططٌ كبيرةٌ مهيبّةٌ ومخيفةٌ ألهمت الفنّانين الذين نحتوها في الحجر بتفاصيل مذهلة. كانت تعيش جنبًا إلى جنب مع الغزلان، والثعالب، والوشق، وابن آوى، والنمور، والضباع المخططة التي تطلق في الليل أصواتًا تجمّد الدم في العروق. كانت هناك تماسيح أيضًا، لكنّها لم تكن كثيرةً في هذا الجزء من النهر. ذات مرّةٍ سبحت سمكة قرشٍ من نهر الغانج في الهند لرؤية أضواء بغداد، فقرّرت البقاء للأبد. لكنّ هذا كلّهُ اختفى، الحيوانات والفنّانون، كلّهم تحوّلوا إلى غبار. ولم يبق سوى الحجارة، والحكايات المدفونة في الأعماق.

\* \* \*



توقّفوا مرّةً أخرى للراحة، فوصلوا في غضون ثلاث ساعاتٍ إلى مشارف الموصل. من هنا سيقودون السيّارة إلى القرية التي وُلدت فيها ليلي: زيراف، «المياه الذهبية»، إذ تقع بين نهر دجلة ورافده نهر الخوصر.

يقول الأب: «تخيّلني يا نارين أنّ كلّ هذا كان ذات يوم إمبراطوريّةً هائلة. فأشور كانت في أوج قوّتها تغطّي العراق وسورية و«إسرائيل» وفلسطين والأردن ولبنان ومصر وإيران وأجزاء من تركيا. لم تكن قوّتها تكمن في غناها فحسب، بل في قدرتها على زرع الخوف أيضًا. فالآشوريّون كانوا حين يغزون أرضًا جديدة، يجبرون جميع أهلها على الهجرة. من القسوة أن يفقد الناس ارتباطهم بمسقط رأسهم».

يقول الأب إنّه بعد آلاف السنين، مُحيت قرى اليزيديّين كذلك من الخريطة عندما أمر صدّام [حسين] بتدميرها، لإفساح المجال لسدّ الموصل. فأصبح أهل القرى بين ليلةٍ وضحاها بلا مأوى، وغدوا لاجئين في وطنهم. بنى صدّام أيضًا خزّاناتٍ وسدودًا لتحويل الماء من الأهوار التي كانت خضراء وخصبة، لدرجة أنّ كثيرين اعتقدوا أنّها جنّة عدن. لكنّ الطاغية أراد أن يلقّن عرب الأهوار درسًا، فيرسل بذلك رسالةً لجميع المعارضين.

– «أتدريّن، كان عرب الأهوار يزرعون الرزّ والقصب، وخيار «الطرح». آه، يا لتلك الرائحة! لكنّ الدكتاتور حين دمّر الأهوار، أصبح الماء غير صالح للشرب، مليئًا بالملح. تسمّمت الجواميس، وماتت النباتات. عشرون ألف كيلومتر مربّع من التربة

الغنيّة، تخيّلِي، تحوّلَت إلى أرضٍ قاحلة. مات الناس جوعاً». يقول الأب إنّه في الفوضى التي أعقبت الغزو الأميركيّ، تلوّث نهر دجلة بالموادّ الكيميائيّة والأنقاض من الوقود والأسلحة. وسدّ الموصل الذي كان صدّام قد سمّاه ذات يوم باسمه من فرط غطرسته، يُعدّ الآن أخطر سدّ في العالم، إذ بُنيّ على أساساتٍ ضعيفةٍ من الصخور القابلة للذوبان، تتآكل يوماً بعد يوم. قد ينهار في المستقبل، وإذا حدث ذلك، فسوف يغمر الموصل والمنطقة المحيطة بها في غضون ساعات، يلتهم المنازل والحقول وتاريخاً من آلاف السنين. يقول إنّ هناك مدينةً قديمةً واحدةً على وجه الخصوص معرضةٌ لخطر المحو: نينوى.

-O-

آرثر

في الطريق إلى نهر دجلة، 1872

تمرُّ الأسابيع، وما يزال آرثر في انتظار الفرمان الذي سيسمح له بالسفر إلى نينوى. كلَّ حركةٍ وكلَّ إيماءٍ منه تنضح بالتوتر. وكلَّ يومٍ يسأل الكتَّبة ما إذا كانت لديهم أيّ أخبارٍ جديدة. وكلَّ يومٍ ينصحونه بالصبر.

يستدعيه هؤلاء الكتبة أنفسهم ذات مساءٍ قبل العشاء، ومعهم الترجمان الذي رافقه إلى البازار الكبير.

يقول الترجمان: «كُنَّا نتحدَّث عنك يا سِمِث. واتفقنا جميعًا على أنَّك تحتاج إلى شيءٍ من الترفيه. لقد قضيتَ أسابيع في القسطنطينية، لكنَّك لم تكد ترى شيئًا منها».

فيقول آرثر: «رأيتُ الكثير. فأنا أتمشى فيها».

- «هذه النزعات لن تريك الكثير. فللقسطنطينية وجوه عديدة، لكنّها لا تُبدي في النهار سوى وجهٍ واحد. لا بدّ أن تلقي بها في ضوء القمر. ماذا لديك الليلة؟».

- «سأكون في غرفتي. أقرأ».

- «انسَ الكتب، وتعال معنا».

يُلحّ عليه ثلاثتهم كثيرًا إلى أن يستسلم. يتبعهم إلى الخارج، وفي نيّته أن يعتذر عن هذا الارتباط غير المتوقع في أقرب وقتٍ ممكن. لكنّه في اللحظة التالية يجد نفسه مدفوعًا إلى عربة ذات مقاعد ناعمة ووثيرة. بعد مشوارٍ قصيرٍ بالعربة، ينزلون ويشقُّون طريقهم في شارع خافت الإضاءة، فيصلون إلى منزلٍ ببوابةٍ عاليةٍ ومقبض بابٍ نحاسيٍّ. يطرق الترجمانُ البابَ مرّتين، وينتظر بضع ثوانٍ، ثم يطرق مرّةً أخرى.

يفتح البابُ صبيًّا صغيرًا، ودون أن يقول كلمة، يقودهم إلى غرفةٍ مزينةٍ بستائرٍ ثقيلة، ووسائدٍ حريريّة، وسجّادٍ ناعم. وُضعت صواني كبيرةٌ في الوسط، محمّلةٌ بالمشروبات والأطياب.

ينظر آرثر حوله بقلق. «ما هذا المنزل؟».

فيقول الترجمان: «منزلٌ من أحلى المنازل. لا يجدر بك أن تغادر القسطنطينيّة من دون تجربةٍ شرقيّةٍ حقيقيّة».

يحمّر وجه آرثر فيغدو قرمزيًّا. تعود إليه ذكرى لا يريدّها، حين ذهب مع والده إلى دار النشر، فما تزال عينا تلك العاهرة في شارع سينت جايلز تخترقانه طوال هذه السنوات. يهّم

بالمغادرة، في اللحظة نفسها التي يُفتح فيها الباب وتدخل امرأة.

البغاء في القسطنطينية بهلوانٌ ماهر، يمشي على حبلٍ مشدودٍ فوق أسوار المدينة وتحتها، وكلّ خطوة خطيرة. تعمل هذه الكرّخانات سيئة السمعة في مواقع متعدّدة، وتعيش في الفجوة ما بين الخطيئة والمسموح به. فبين الحين والآخر، يقرّر رجل شرطة أن يغلق بيت دعارةٍ ويعتقل جميع العاملات فيه، إمّا لأنّه غير راضٍ عن الرشوة، وإمّا مدفوعاً بنوبةٍ من ورع. وفي أوقاتٍ أخرى، تسير حشودٌ غاضبة (يقودها إمامٌ متحمّسٌ أو واعظٌ متوقّد) إلى عنوانٍ سيئ السمعة، فتحاول إحراق المبنى بما فيه من سكّان. في مثل هذه المناسبات، يستيقظ الحيّ بأكمله على صيحات النساء المرعوبات والعلماء المهانين الهاربين عبر النوافذ الخلفيّة إلى ظلام الليل. يُعفى عن العاهرات المنفيّات من العاصمة كلّ بضعة أشهر، ويبقى بعضهنّ في المنفى، بينما تعود أخريات، ليُطردن مرّةً أخرى.

وقد تصبح الحمامات العموميّة أيضًا مكانًا للقاءات غير المشروعة. كما توفّر الخانات على أطراف المدينة خدمةً سرّيّة. أمّا أولئك الذين لا يستطيعون استئجار غرفة، فلهم قوارب «الكايك» التي توفّر في القرن الذهبيّ شكلاً من أشكال السرير، رغم المخاطر. فإذا اختلّ توازن القارب في لحظة، سقط الرجل والمرأة في المياه، وتعيّن عليهما بعد ذلك السباحة إلى الشاطئ بهدوءٍ قدر الإمكان، خشية القبض عليهما. وأمّا من لا يستطيعون حتى أن يتحمّلوا كلفة المتعة العائمة، فقد يلجؤون إلى المقابر

التي تمارس فيها أفقر العاهرات مهنتهنَّ مقابل ما يدفعه المرء لحلوى.

في الوقت نفسه، تُباع مئات السبايا في أسواق الرقيق عبر الإمبراطوريَّة [العثمانية] لمن يدفع السعر الأعلى. في تلك الأسواق يُعرَّين ويُعرضن بلا خجل، وتُفحص أجسادهنَّ، ولا يُنظر إليهنَّ إلَّا كسلع. يُبَّعن ويُعاد بيعهنَّ مرَّات عديدة. وقد تُعتق الواحدة منهنَّ إذا أنجبت طفلًا لسيِّدها في حال موافقته، ونادرًا ما يحدث ذلك. ورغم إغلاق بعض هذه الأسواق بأمر السلطان في الآونة الأخيرة (مع الإصلاحات الجديدة)، فإنَّ تجارة الرقيق ما تزال مزدهرة في الخفاء. في بعض الأحيان، تُباع امرأةٌ لليلة واحدة، وتُشتري مرَّةً أخرى في صباح اليوم التالي، ثم تُباع لشخصٍ آخر، ولا يُعدَّ ذلك إثماً أو أمراً منافياً للأخلاق. وأولئك الذين يستفيدون من هذه الصفقات لا يخشون عقوبةً قانونيةً ولا غضباً من حشود الأتقياء.

يحدِّق آرثر في المرأة التي دخلت لتوها (وهو لا يدرك أيًّا ممَّا سبق). تلتصق قطرات العرق على جبينه، ويتلعثم. «أنا آسفٌ جدًّا، لقد حدث سوء فهم... لم أطلب هذا».

فيقول الترجمان: «لم تطلبه طبعًا، لكنَّها هدَّيتنا لك».

يهزَّ آرثر رأسه ويقول: «لا أريد هدايا. من فضلك اعتذر لي من السيِّدة».

يفاجأ آرثر، إذ يبدو أنَّ المرأة تفهم الإنكليزيَّة. «لا تذهب يا باشا. لم العجلة؟».

وعندها يُدرك آرثر أنَّ هذه المرأة القصيرة ذات العنق الممتلئ، والتي تكاد تكون في سنِّ والدته، لا بدَّ أن تكون «المدام» التي تدير البيت.

تبتسم وهي تنظر إليه. «هل تحبَّ الموسيقى؟».

وعندها، تتهاذى ثلاث شاباتٍ إلى الغرفة يحملن آلاتٍ موسيقيَّة، وكأنَّهنَّ ينتظرن الإشارة. يجلسن على وسائد ويبدأن العزف، في لحنٍ بطيءٍ عذب.

ولا يملك آرثر أن يحوِّل عينيَّه عن المرأة الثالثة، تلك التي ترتدي فستانًا أخضر كاليشم، بشعرها النحاسيِّ اللامع المنسدل على كتفيَّها، وقد استقرَّت على حجرها آلةٌ أفقيَّة الأوتار. يقول الترجمان ساخرًا: «يبدو أنَّ هناك ما أعجبك».

- «جميلة».

- «يسعدني أن أعجبتك».

- «وقديمةٌ جدًّا».

- «نعم؟».

- «لقد رأيت صُورًا».

- «صُورًا؟».

فيومئِ آرثر. «قرأتُ أنَّها وُجدت في حفريَّاتٍ في بلاد الرافدين، لكنِّي لم أعرف أنَّ صوتها فاتنٌ هكذا».

- «هل تتحدَّث عن تلك الآلة اللعينة؟».

فيقول آرثر بنفاد صبر: «نعم، القانون».

- «القانون؟».

- «نعم. الكلمة تعني «قاعدة» أو «مبدأ الحياة». من كلمة «كانون» اليونانية، وكذلك «كانون» باللاتينية. أمرٌ مدهش».

يهزّ الترجمان رأسه. «يا لمضيعة الوقت في إحضارك إلى هنا. كان لا بدّ أن ندرك أنّ ذوقك في مكانٍ آخر. ليتك أخبرتنا أنّ ميولك غريبة».

فتقول المدام وهي تسحب آرثر من مرفقه: «لكنّه يحبّ النساء طبعاً». تملأ كأساً بشرابٍ عديم اللون يتحوّل إلى لونٍ رماديّ حين تخلطه بالماء. «خذ، أشرب قليلاً».

فيطيعها آرثر، مرتبكاً من نبرة الترجمان. يُحرق الشرابُ حلقة كالنار. رائحة اليانسون طاغية. يشرب أكثر، ويجلس ويغلق عينيه، مستمعاً إلى الموسيقى.

يحلّ عليه هدوءٌ نادر. الزخارف المتشابكة المنسوجة في السجّاد، والسوار المطعّم بالذهب والفضّة على معصم المدام، والخياطة على ستائر الدمقس... كلّ تفصيلة في الغرفة توحى بمخطوطةٍ منمنمةٍ من القرون الوسطى. تندمج الأشكال والأنماط في دوّامةٍ متناغمةٍ واحدة. يتباطأ نبض قلبه، ويشعر بالسلام.

يتسلّل الآخرون على أطراف أصابعهم، مندهشين من استمتاعه بالموسيقى، فيتركونه وحيداً مع المرأة ذات الشعر الأحمر. تظلّ تنقر على الآلة، وكأنّ لديها قوّة خاصّة تقطف بها الأوتار، إلى أن تتوقّف فجأة.

يفتح آرثر عينيه، فيجدها تنظر إليه في فضول. «استمرّي من فضلك. إن لم يكن لديك مانع».



لا تعترض. وشيئًا فشيئًا تتخذ الأغاني نغمةً أشدَّ حزنًا. يتساءل ما إذا كانت تعزف الألحان السابقة للزبائن، وتعزف هذه له فقط. يتفحص آرثر القانون أثناء عزفها. يندهش من عاج الفيل، وريشة ظهر السلحفاة، والأوتار المشدودة الممتدةً طولياً. هذه «بيانة الشرق» إذن، صندوق الأصوات القادر على تحقيق أروع النغمات وأكثرها إثارة. هذا ما كان يخفف عن القدماء في بلاد الرافدين آناء الوحدة وانكسار القلب، وهو الذي يرفع معنوياتهم في أوقات الحاجة. هذه هي الألحان التي كانت تبهج الملك آشوربانيبال في أعصر أيام كثيرة، وهو متكئ على وسائد ناعمة في مكتبته، يقرأ الشعر.

\*\*\*

يشعر بالنعاس من أثر [مشروب] العرق، ومن أثر الموسيقى أكثر. فينام على الأريكة الخفيضة، ويتلاشى كلّ التوتر في جسده. كان يمكن أن يقضي الليلة هناك، غارقاً في نوم هادئ، لولا صرخة تخترق الهواء، وكأنّها قادمة من الشارع، رغم أنّها تبدو قريبة للغاية. تتضاعف الأصوات، مرتدة من قبة الليل السوداء. فيدرك آرثر في رعبٍ أنّ حشدًا قد تجمع أمام المنزل.

– «ما الذي يحدث؟».

لكنّ المرأة كانت قد اندفعت إلى الخارج، دون أن تأخذ الآلة معها. وحين يتبعها آرثر إلى الردهة، يجد الناس يهرعون صعودًا ونزولًا على السلالم، ما بين عاهرات وزبائن في ذعرٍ شديد.

يأتيه صوت الترجمان فوق الضجيج: «آه، ها أنت هنا. أسرع، علينا الخروج من هنا. حريق!». فيمتقع وجه آرثر. «في المنزل؟».

- «في الحيّ بأكمله. لا بدّ أن نخرج فوراً».

- «ماذا عن الكاتيين؟ ألن نبحث عنهما؟».

- «يعرفان طريق الخروج. أسرع».

«انتظر لحظة». يُسرّع آرثر إلى الغرفة، فيعود مندفعاً والقانون في يده. «لا يمكننا التخلّي عنه!».

\*

وما إن يخطوان إلى الخارج حتى تلفح وجوههم موجة من حرارة، ودخانٌ لاذعٌ يلسع أنوفهم. السماء فرنٌ مفتوح. الغبار والحطام يتطايران فوق رؤوسهم. طبقةٌ سميكةٌ من الرماد تغطي كلّ شيء. يسمعان زجاجاً يتحطّم من بعيد، وشخصاً ينوح. يندفع الناس ذهاباً وإياباً، يحملون قطع أثاث، محاولين أن ينقذوا ما يستطيعون إنقاذه من اللهب.

مجموعة رجالٍ نصف عراة، وجوههم مطليةٌ وشعورهم مغطاةٌ بالسخام، يندفعون نحو منزلٍ محترق. على أكتافهم لفائف حبالٍ ومضخّات مياه.

يقول الترجمان: «هؤلاء رجال الإطفاء: طُلُمبَجي. بعضهم مجانيين جدّاً، لكنّهم شجعانٌ إلى أقصى الحدود».

وبعد انتظارٍ يبدو طويلاً لا نهاية له، يخرج رجال الإطفاء، يحملون صناديق وحقائب، وآخرهم يحمل قفصاً فيه طيور كناري.

يعودون فوراً إلى الداخل، والعرق ينساب على رقابهم، بينما العوارض الخشبية تنهار وتحطّم من حولهم، فيما تحترق الأعمدة بسهولة، كالرسوم الورقية.

يتصاعد ثلثا پيرا إلى دخانٍ في تلك الليلة. تتحوّل منازل المسلمين واليهود والمسيحيين إلى بقايا مشتعلة. تحطّم تسعة آلاف وخمسمئة وخمسون مبنى، وانطفأت أكثر من ألفي حياة. ولا يبدأ السكّان الذين اعتراهم الذهول في استيعاب الدمار الذي حلّ بحيّهم إلّا بعد أن تهدأ الرياح ويخفت الحريق. فقد كان قبل أيّامٍ حيّاً هادئاً مزدهراً من أحياء القسطنطينية.

\*\*\*

يصل آرثر بعد ساعاتٍ إلى مبنى السفارة، منهكاً من المشي. فيجد كبير الكتبة في انتظاره.

- «كنّا نبحث عنك يا صديقي العزيز. يريد السفير أن يراك على وجه السرعة. قلقنا من أن يكون الحريق قد التهمك».

- «أنا بخير. ماذا سيفعل هؤلاء المساكين الآن؟ لقد فقدوا كلّ شيء».

- «سيعيدون الإعمار. لقد مرّت القسطنطينية بزلازل وحرائق وغير ذلك. تحترق البيوت الخشبية، ويُعاد بناء بيوتٍ غيرها». ثم يخفض الكاتب صوته ويقول: «لكنّك لن تكون هنا لتشهد ذلك. لقد انتهى انتظارُك. السفير بنفسه سيخبرك، لكنني أقوله لك أولاً. لقد وصل الفرمان. وعمّا قريب ستكون في طريقك إلى نهر دجلة».

يتسارع نبض قلبه، ويرفع القانون. «عليّ أن أعيد هذا». فيرفع الرجل كتفيه. «احتفظ به يا سمث. ربّما يكون المكان الذي أخذته منه قد احترق. خذه معك. لعلّك تتعلّم العزف عليه. الطريق طويلٌ من القسطنطينيّة إلى نينوى».

\*\*\*

يغسل آرثر وجهه، ويمشّط شعره، ويعطّر ياقته وأكمامه، ثم يصعد الدرج الرخاميّ كي يودّع السفير.

- «سمث. تسعدني رؤيتك. تفضّل بالجلوس».

ثمّة شيءٌ في نبرة السفير يشعره بالقلق، لكنّ آرثر لا يتوقّف عند الأمر طويلاً. «لقد سمعتُ الأخبار السعيدة».

- «عفوًا؟».

- «الفرمان. أظنّ أنّه وصل».

- «أوه، نعم نعم. لقد نسيت».

فينقبض قلبُ آرثر. «أوليس هذا سببُ استدعائك إليّ؟».

- «لا، يؤسفني أنّنا... تلقينا رسالةً لك. من أخيك». ثم يحوّل نظره بعيداً. «والدتك... لقد سارت في الطريق الذي يسلكه الجميع. خالص العزاء لك».

فيغمض آرثر عينيه لحظة، وينبض العرق في جبينه. ثمّة طرُق في رأسه، لم يدرك بعدُ أنّه ألم. «كيف... كيف حدث ذلك؟».

- «لا أظنّ أنّ معرفة الظروف ستسهّل الأمر عليك».

- «أريد أن أعرف. أرجوك، أخبرني».

- «كانت حالتها تتحسن في الفترة الماضية، وقد سمح لها الأطباء بالتزُّه في المكان. وعثرتُ على سكين...». ينهض آرثر. «هل يمكنني الانصراف؟ أفضل أن أكون وحدي».

- «نعم، طبعًا. أتفهم ذلك. أكرّر تعازي». يتعثّر آرثر في طريقه إلى الباب. ساقاه ثقيلتان، وكأنّه يخوض في وحل.

- «أوه، صحيح. بخصوص رحلتك، سنفعل كلّ ما في وسعنا لتسهيلها، فقد وصل فرمان وحصلت على إذن من السلطان للتنقيب عن قصيدتك. إلّا إذا غيّرت رأيك ورغبت في العودة إلى إنكلترا، ويمكننا أن نرتّب هذا الأمر أيضًا». يهزّ آرثر رأسه نافيًا. لن يعود إلى لندن الآن. سيُنهي ما بدأه. سيذهب إلى نينوى.

في فناء السفارة، تتعالى أشجار الصنوبر فوقه، فضيَّة وحادة كالإبر، كأنّ خيَّاطة عملاقة استخدمت المنحدر الأخضر مدبَّسة لها. تثير الغثيان فيه رائحة زهر العسل إذ تختلط بملح البحر. تجول عيناه إلى أعلى نحو السماء التي شقَّتْها الغيوم. ينزل نورسٌ على الريح، لكنّ نعيقه الحادّ المختنق حين يقترب يبدو أشبه بالنواح في جنازة.

الوطنُ هو المكان الذي يشعر الآخرون فيه بغيابك، ويبقى صدى صوتك حيًّا هناك، بصرف النظر عن طول غيابك أو مدى

ابتعادك. هو المكان الذي ما يزال يحيا بنبضات قلبك. لا يوجد  
أحدٌ ينتظره في لندن، ربّما باستثناء ما بيل. لكنّه لا يتوقّع أن  
تشتاق إليه، بناءً على العلاقة القصيرة السطحيّة بينهما. أمّا زملاؤه  
في المتحف، فسوف يتولّون المهمّة التي كان يؤدّيها. وبما أنّه لم  
يبقَ له أحدٌ يندم على فقدانه أو يعتزّ بذكريات طفولته، فلم يعد  
لديه وطن.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## -H

### زليخة

عند نهر التّمز، 2018

بعد رحيل نين، تجلس زليخة بجانب النافذة في البيت العائم، ترقب نورسًا يحمل شيئًا غامضًا في منقاره. وحين يختفي الطائر، تُخرج الصندوق الذي أحضرته نين، وتقرّر أن تأكل بسكويت الخطّ المسماريّ على الإفطار.

السماء قاتمة وملبّدة بالغيوم، مع لمحةٍ من رعدٍ في الهواء، وطعم كهربائيٍّ على لسانها. كانت في طفولتها دائمًا تتساءل أين تحتمي الأسماك في العاصفة. هل تظلّ تسبح حتى مع اضطراب الماء وهيجانه، واثقةً بأنّه لن يؤثر عليها، أو تهرب عند أدنى إشارة لاضطراب، وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أين تذهب؟ تدرك

اليوم أنَّ سؤالها البسيط لا تسهل الإجابة عليه. يفهم العلماء مدى حساسية الحيوانات النهرية والبحرية للحرارة والضغط والضوء، ويمكنهم تتبُّع بحثها عن مياهٍ أكثر هدوءًا، لكنَّهم لا يعرفون على وجه اليقين إلى أين تذهب الأسماك في العاصفة.

وإذا كان النهر ملوَّنًا لدرجة انخفاض الأوكسجين فيه، لا تستطيع الأسماك أن تتنفس جيّدًا، ويضطرب سلوكها، فتسبح بسرعةٍ في البداية، وتمضي في جنونٍ بحثًا عن هواء. ثم تبطئ، وتصل شيئًا فشيئًا إلى خمولٍ قاتل. قد تحدث حالات نفوقٍ جماعيٍّ في غضون دقائق. تُرهق الأمّهات أنفسها لإيصال الأوكسجين إلى بيوضها، رغم أنَّ هذا الجهد يستنزفها. فتستمرّ في التهوية لإبقاء ذريّتها حيّة، إلى أن تنفذ مخزوناتِها من الطاقة. وفي الأعماق المظلمة، يخبو التوهُّج من البيوض، واحدةٌ تلو الأخرى، مثل مصابيح صغيرة تنطفئ مع هبوط الظلام حين يموت النهر.

بعد أن تفرغ زليخة من الاستحمام، تتفحّص الملابس القليلة التي أحضرتها إلى البيت العائم. لا شيء منها مناسبٌ لهذا المساء. تعلم أنَّ خالها وزوجته سيكونان أُنقيّين، وسترتدي هِلن بالتأكيد ملابس أنيقةٍ عصريّة. وكالمعتاد، ستشعر بأنّها «رماديّة» إلى جانبهم. لكنّها تتذكّر أنَّ نين سترافقها، وهي تلبس كما تشاء. وجودُها مهدئٌ بطريقةٍ غريبة.

تأخذ قميصًا بعشوائيّة، وترتديه، فلا يروقها ملمسه الخشن



ولونه الصارخ. تخلعه، وهي تعرف أنَّ هذا الأمر سيتكرَّر مرَّةً تلو الأخرى. ستجرب كلَّ قطعةٍ من ملابسها وتلقي بها على الأرض، ويزداد يقينها بأنَّ لا شيء يبدو أنيقاً عليها.

تتذكَّر حفل عيد ميلادٍ آخر، منذ زمنٍ بعيد. لا بدَّ أنَّه كان بعد عامين من وفاة والديها وانتقالها للعيش مع خالها. كان المنزل في «ذا بولتونز» مزيَّناً بمصابيح صغيرة، وشرائط، وفوانيس ورقية، وبالوناتٍ أيضاً. لم ترَ من قبل بالوناتٍ بهذا الجمال، بشراسيب ورديةٍ ونثارٍ برَّاق. لا يقلق المرء من انفجارها أبداً؛ فهي إن انفجرت، ستغمرك بالذهب.

وفي وسط الطاولة كعكةٌ بثلاث طبقات، بأشكال حورية البحر، لفرط جمالها قد تشعر بالذنب إن شوَّهت روعتها الفيروزيَّة. كان هناك أطفالٌ يركضون، يشربون مخفوق الحليب بنكهة العلكة. كانوا جميعاً ضيوف هِلن. لم تكن زليخة قد كوَّنت أيَّ صداقاتٍ بعد في مدرستها الخاصَّة الجديدة في كنسغتن، وأصداقائها القدامى كانوا في مانشستر، لا يستطيعون المجيء حتى لو دعَّتهم. وهكذا كان أغلب الحضور في عيد ميلادها غرباء، في منزلٍ ليس منزلها، يحمل حزناً هادئاً في هيئة مَرَح. تسألها هِلن بعينين تفيضان إثارة: «ألن تطفئي الشموع؟ هيَّا، تمنِّي أمنية».

– «لا أريد».

– «لكننا سنغني «هَبي بيرثدي»».

– «لا داعي لذلك».

- «ماذا هناك؟».

- «لا أدري... لا تعجبني هذه الزينة على الكعكة».

فمطّت هِلن شفتها السفلى وصرخت بأعلى صوتها: «أبي!».  
جاء الخال مالك في هدوء، يحمل كاميرا فيديو في يده.  
فلَمّا علم أنّ زليخة لم ترقها حوريّة البحر، التقطها من ذيلها  
المصنوع من السكّر ووضعتها على طبقٍ جانبي. «هل هكذا  
أفضل؟».

فأشارت زليخة إلى فرس البحر. «ليس تمامًا».  
فأزالها خالها أيضًا، وترك كلّ منهما فجوةً في الكريمة  
الناعمة.

فقالت هِلن في احتجاج: «ولكن... ستمدّرون الكعكة  
هكذا. كانت جميلةً جدًّا».

فتجاهلها أبوها، وعيناه مثبّتان على زليخة. «والآن؟».  
- «لا...».

لم تكن زليخة ذات التسع سنوات تريد سمكة المرزبان أو  
الأخطبوط المصنوع من حلوى المارينغ، ولا الأصداف الذهبية،  
أو المرجان المزخرف، أو صندوق الكنز المصنوع من  
الشوكولاتة. فأزالها خالها واحدةً تلو الأخرى، وكدّسها فوق  
بعضها بعضًا، وكأنّها كارثةٌ بحريّة.

- «هل هكذا أفضل يا عزيزتي؟».

- «هل يمكنك أن تزيل الكريمة الزرقاء أيضًا؟».

ثم وضعوا تسع شموع في الكعكة التي أصبحت إسفنجا مشوّها، ونادوا الأطفال للغناء، لكنّ هِلن جاءت بوجهٍ مغضّن، تجاهد كي تقاوم الدموع، فخرج صوتها أشبه بالعويل.

\*

بعد سنوات، ستجد زليخة الفيديو الذي صوّره خالها في ذلك اليوم. لم تبدُ حزينةً في اللقطات، ولم تبدُ هِلن منزعجة. لا يستطيع أحدٌ أن يخمّن ما حدث. العلامة الوحيدة على أنّ شيئاً ما لم يكن على ما يرام كانت حورية البحر المهشّمة في الخلفيّة، بتاجها المسحوق وفمها المفتوح، وكأنّها سمكةٌ تلهث بحثاً عن هواء. في ذلك الوقت (والآن أيضاً) شعرت زليخة بامتنانٍ لخالها مالك لعدم انزعاجه منها، كما قدّرت له الطريقة التي اعتنى بها بكلّ شيءٍ بعد الحادث الذي قتل والدَيْها. ترتيبات الجنازة، وبيع المنزل، وما إلى ذلك. وضع خالها ما تبقى من مالٍ قليلٍ بعد سداد الرهن العقاري جانباً، وأضاف مبلغاً كبيراً من حسابه الخاصّ لتعليم زليخة.

الخال مالك... كان على الدوام مطمئناً، ومرحاً، وداعماً، وكان صارماً أيضاً، ولكنّ ليس معها. كانت أكبر مخاوف زليخة أن يعذّها عبثاً عليه، أن يراها كائنًا طفيلياً. فأخذت تجدّ في دراستها احتراماً لمعروفه. وبينما كانت هِلن (وما تزال) طالبةً متوسطة في الغالب، تفوّقت زليخة في كلّ المواد، واجتازت كلّ الامتحانات وفازت بجوائز داخل المدرسة وخارجها. كانت تعلم أنّها هي التي يرى الخال أنّها قد تسير على خطاه، وليس ابنته هِلن. مع ذلك، ومهما مرّت السنوات، فقد كانت تتذكّر كلّ

صباح حين تفتح عينيها في ذلك المنزل أنْ غرفتها وسريرها وملابسها وأحذيتها وألعابها، وحتى الكتب التي قرأتها وأعادتها قراءتها، كلّها ليست ملكًا لها. كانت تفتقد المنزل الصغير ذا الشرفات الذي عاشت فيه مع والدَيها، وسماع ضحكاتها عبر الحائط الخشبي في سريرها ليلاً. لا بدّ أن تغادر منزل خالها فور أن تستطيع تدبّر أمرها، قبل أن ينفد حسّ الضيافة لدى أهل البيت. كان ذلك المنزل أقرب إلى المأوى منه إلى البيت، إذ تأوي إليه وكأنّها هاربة من عاصفة.

تتذكّر زليخة والدَيها، وابتساماتهما السهلة، ولطف كلامهما، وكيف يحبّان مشاهدة الأفلام القديمة معًا، وتشابك الأيدي في نزّهاتٍ متمهّلةٍ في حدائق بيكادلي. تتذكّر ظهيرةً هادئةً، من زمنٍ بعيدٍ جدًّا، حتى إنّ ذكراها تلامس حوافّ ذاكرتها، مثل تموجاتٍ من عملةٍ رُميت في بئر الأمنيات. منظرٌ طبيعيٌّ تلاطمه الرياح. طريقٌ ترابيٌّ محاطٌ بكتلٍ من نبات الخلنج والقندول. صمتٌ لا يعكّره سوى طنين اليعاسيب ووقع الأحذية. في البعيد، صخورٌ بالوانٍ ساحرة، مخطّطةٌ بطبقات، أشكالها غريبةٌ لدرجة أنّها ربّما كانت منحوتةٌ بأيدي خفيّة.

يصعد أبوها التلّ بنشاط، يدندن أغنية. بين الحين والآخر، يتوقّف ليقول شيئًا عن نباتٍ أو حشرة. يحمل حقيبة ظهرٍ ثقيلة، فيما تتساقط جداول صغيرة من العرق على عنقه. ومن وقتٍ إلى آخر، ينظر إلى الخلف ليطمئنّ على زوجته وابنته. عندما يتسم، تتجعدّ عيناه في مواجهة الشمس، والجلد مشدودٌ بإحكام. وعادةً

ما يتوهج شعراً ذراعيه البنيّ الكستائيّ، فيغدو ذهبياً. تتبعه الأم ببضع خطوات خلفه، وقد لقت منديلاً برتقالياً حول رأسها. يتحرّكان في تناغم، وظلالهما تندمج مع ظلالٍ أخرى. تلتهم زرقاء الماء في البعيد، وضافه غائمة بالذباب الذي يشبه القطرات المتناثرة من قلم حبرٍ سائل. وبينما هم يقتربون من وجهتهم، يتعثّر والدها في أحد الجذور، ويكاد يسقط. تنزلق القارورة من يده وترتدّ العلبة المعدنية نزولاً في المنحدر، فتقرقع طوال الطريق.

يهبط المساء، وزليخة لمّا ترتدّ ملابسه بعد. تجلس في الكرسيّ إلى جانب النافذة، تلمس الزجاج البارد بأطراف أصابعها. لا ترتدي سوى سروالها الداخليّ وحمالة الصدر، وترجو ألا يراها الناس في القوارب العابرة. يبدون بعيدين بما يكفي، لكنّها في جزءٍ منها لا تكثرث كثيراً. لا رغبة لديها في حضور الحفل. ماذا سيحدث لو تخلّفت عن عشاء عيد ميلادها؟ ماذا سيحدث لو كفّت عن الاستحمام، وكفّت عن نتف حواجبها، وكفّت عن إزالة شعرها، وكفّت عن الغسيل، وكفّت عن ممارسة الرياضة، وكفّت عن الشرب، وكفّت عن الأكل؟ لو كفّت عن الكلام؟ والغريب أنّ فكرة التخلّي عن العمل هي التي ترعبها.

يعود خاطر الموت، مثل حلم مكثّف وجد ممراً من عوالم النوم إلى عالم اليقظة. أطرافها ثقيلة، وصدرها مقيّد. تنهض ببطء، وتبدأ البحث عن شيءٍ مقبولٍ ترتديه. ستذهب إلى عشاء الليلة. فهو عيد ميلادها في نهاية المطاف.

-O-

آرثر

عند نهر دجلة، 1872

تبلغ المسافة من القسطنطينية إلى الموصل قرابة التسعمئة ميل، أي أربعة أضعاف طول نهر التّمز. الرحلة مرهقة، وآرثر لم يجهّز نفسه للسفر كما ينبغي. كلّما طالت إقامته في بلاد الرافدين، زادت دهشته من تعقيداتها. تحيّره دياناتها وعقائدها وطوائفها العديدة. ففي منطقة واحدة، بل في البلدة نفسها، قد يكون هناك اختلافٌ مذهلٌ بين السكّان.

على أنّ هناك أيضًا أشياء تبدو مألوفةً من قراءاته عن الحضارات القديمة. يتعرّف على بعض الأشياء التي ظلّت مستمرّة: قنوات الريّ، والمناظر الطبيعيّة الثابتة، ونبات البردي

على ضفاف النهر، وغير ذلك. وفي الجنوب تحديداً، تُصنع البيوت والقوارب من القصب، وأحياناً تُستخدم المواد نفسها ويُعاد استخدامها، من بيوتٍ إلى قوارب، ومن قوارب إلى بيوت. فإذا أغمض عينيّه، أمكنه بسهولة أن يتخيّل نفسه في زمن الملك آشوربانيبال. وكأنّه لم يمض وقتٌ يُذكر، وكأنّ آلاف السنين كانت مجرد هبة ريح. فالماضي ليس غابراً، مهما كان بعيداً أو مجهولاً. إنّه حيّ. الماضي لوحٌ طينيّ، متآكلٌ ومكسور، لكنّه بات صلباً من حرارة القرون.

يجتاز الغابات والسهول. وبعد فترة، لا يبدو أيّ مكانٍ غريباً على شخصٍ كان يستيقظ يوماً بعد يوم، في غرفٍ غير مألوفةٍ وأماكن مجهولة. يقضي ليلته بالقرب من نهر دجلة، في نُزلٍ يُدعى «خان يعقوب»، وتُقدّم له وجبةٌ من البطاطا المشويّة وطائرٍ مطبوخٍ أكثر ممّا ينبغي له، لدرجة أنّه يصدر صوت قرقشةٍ حين يحاول قضمه. يمدّ تاجرٌ شاميّ تعرّف عليه في الطريق رأسه ويغمز له.

– «مبروك يا صديقي. ها أنت وجدت أول قطعة أثريّة. لا بدّ أنّ القدماء من سكّان بلاد الرافدين قد تركوا هذا الطائر المسكين. خذه إلى متحف».

الشرق. يربكه هذا المصطلح. أين تُراه يبدأ بالضبط، وأين ينتهي؟ لقد قرأ عن نابليون (الأوّل، العريف الصغير، كابوس أوروبا، رجل المصير، الجنرال الكورسيكيّ) الذي كانت أمنيته الأخيرة أن يُدفن على ضفاف نهر السين، رغم أنّ البريطانيين

دفنوه بدلاً من ذلك في جزيرة سانت هيلانة البركانية، إلى أن نُش قبره ونقل جُثمانه إلى فرنسا. ما يثير فضول آرثر هو مدى بحث نابليون المستفيض عن الشرق الأوسط. وعلى غرار الإسكندر الأكبر (المحارب الذي خاض المعارك رفقة فنّانين وفلاسفة)، فقد جمع نابليون حين أطلق حملته إلى مصر رسّامين، ونحّاتين، ولغويّين، وكتّاباً، وحفّارين، ومؤرّخي فنون، وجغرافيّين، وعلماء حيوان، وجيولوجيّين، ومهندسين، وعلماء نبات، ورسّامي خرائط، ورياضيّين، وموسقيّين وغير ذلك. مئة وخمسون رجلاً من رجال الآداب انضموا إلى حملته العسكرية. قوَّات التنوير في مواجهة الشرق المظلم. كان لا بدّ من إثبات تفوّق الغرب، لا في الحرب فحسب بل من خلال العلم والفنّ والأدب أيضاً. تألّف الجيش الفرنسيّ من آلاف الجنود، والمدفعية الثقيلة، والخيول، إلى جانب أحدث المعدات التقنيّة وأدوات الملاحة. أحضروا معهم مطبعة ذات حروفٍ عربيّة للتواصل مع السكّان المحليّين. واحتوت سفينة نابليون الرئيسة الضخمة على مكتبة مذهلة متخصصة في مجلّداتٍ من الشرق الأوسط القديم والحديث، وسُمّيت تيمناً بالسفينة نفسها: لوريون [الشرق].

«لا بدّ أن نتوجّه شرقاً. فجميع عظماء العالم اكتسبوا شهرتهم هناك».

كانت فكرة التفوّق الأوروبيّ في حاجةٍ إلى شرقها المشبّع بالحرمان واليأس، تماماً كما يحتاج اللهب إلى الظلام كي يوجد ويتوسّع. ورأى نابليون أنّ مهمّته هي تحرير سكّان المنطقة من مصيرهم وإعادتهم إلى عظمة أسلافهم. بهذه الطريقة سيستفيد



الجميع، الغازي والمغزو. وهكذا أمر بجمع التحف الأثرية، بدافع من هذه القناعة، غير أن نقلها إلى متحف اللوفر لن يكون سهلاً. فهم لم يكونوا وحدهم في طموحهم. كان البريطانيون أيضاً غارقين في علم المصريّات.

في اليوم الأوّل من آب / أغسطس من عام 1798، وصلت لوريون (التي يبلغ وزنها ما يقرب من ثلاثة آلاف طنّ) إلى مصبّ النيل، محمّلة بمئة وعشرين مدفعاً، وعشرات الجنود والبحّارة والعلماء. وكان على متنها أيضاً بعض النساء، من زوجات، وخادمات، وغسّالات، ومتسلّلات. وهناك في خليج «أبو قير»، التقت البحرّيتان البريطانيّة والفرنسيّة في معركة. كان الماء مغطّى بالسفن من جميع الأحجام على مدّ البصر، بصواريها العالية الشّماء. تمايل النهر، غير معتادٍ على هذا القدر من الدم. يقول أولئك الذين شهدوا انفجار لوريون إنّ السماء والبحر اندمجا في ضربة فرشاة برتقاليّة واحدة من لهب. وانطلق الحطام في كلّ اتّجاه، من خشب، ومعدن، وقماش، وحجارة ثقل، ولحم بشريّ. وذاب حبر آلاف الكتب والمخطوطات في النيل. وما يزال حطام السفينة الرئيسة هناك في الأسفل. هاونات برونزيّة، وأدوات علميّة، وعملاتٌ ذهبيّة. وفي مكانٍ ما في ذلك الطمي والوحل، حروفٌ ساكنةٌ من طباعة حروفٍ عربيّة، تغطّيها الطحالب وتعيد ترتيبها إلى كلماتٍ جديدة.

يدرك آرثر أنّ دجلة نهرٌ مختلفٌ تماماً، يحافظ على أسرارهِ. فنهر النيل يفيض كثيراً، لكنّه ليس مفاجئاً، ممّا يخفّف من ضرره. أمّا دجلة فنهرٌ متقلّب المزاج ولا يتّبع أيّ نمطٍ محدّد، يفاجئ

الجميع في كلِّ مرَّةٍ يرتفع فيها، فيجلب الكوارث. لئن كان مفتاح أسرار مصر القديمة في آثارها العظيمة، فإنَّ أسرار بلاد الرافدين القديمة منسوجةٌ في صمتها. في الفجوات الناقصة من الحكايات. هذه أرض الألواح المجزأة والقصائد المتصدعة.

يُعدّ دجلة نهرًا قديمًا، ذاكرةً سائلة، شأنه شأن كلِّ شيءٍ عمَّرَ طويلًا. يُسمَّى بالفارسيَّة القديمة «سريع الحركة»، «مثل السهم» في رشاقته التي لا تنضب. أطلق عليه القدماء لقب «النمر». هو إيديغا بالسومريَّة، وحداقل بالعبريَّة، ودجلة بالعربيَّة، وأفا ميزن بالكردية، أي «الماء العظيم». هو أحد الأنهار الأربعة التي يُعتقد أنَّها تدفقت من جنة عدن، يتألَّق بضوءٍ ليس من هذه الأرض، مخيفٌ وجميلٌ وغامض، يغذي الحياة فوق الأرض وتحتها. ينبع من مرتفعات الأناضول، تغذيه روافد خصبة، وأمطارٌ متساقطة، وثُلُوجٌ ذائبة، يندفع وكأنَّه يستعجل الذهاب إلى مكانٍ آخر، ويفيض أحيانًا بعواقب كارثية. جريءٌ هذا النمر وصاخب، يتحوَّل إذا غضب إلى عدوٍّ قاتل.

السفرُ عبر النهر يخيف آرثر، إذ يتمايل المركب، وألواحُه تنثَنُّ تحت الضغط، وتزعجه سرعة التدفُّق، حين يُزبد النهر بغضب. يلمح على طول الطريق قرى مُعدمة. للفقر تضاريسه الخاصَّة، إذ ينهض من أضلاع الأرض، ويمدُّ أطرافه العارية في مواجهة السماء، بملامح جافَّة ونحيلة، تفيض ألما حين تلمسها. الفقر أمةٌ لا حدود لها، وهو ليس غريبًا فيها، بل ابنٌ أصيل.

على كلِّ جانبٍ في مجرى النهر، يرى كهوفًا محفورةً عاليًا في الصخور. يخبره دليله أنَّ الجماعات التي ظَلَّت تُضطهد قرناً بعد قرنٍ لجأت إلى هذه التجاويف. تحومُ أسراب الناموس حول القارب، يحملها التيارُ معه إلى الأمام. لم يجرّب آرثر من قبل هذا القدر من الخوف والإثارة والترقُّب، كلّها دفعةً واحدة. يلسعه الناموس في ساقَيْه، مخلِّفاً حَكَّةً ونزيفاً. يشعر ببشرة وجهه تشتدّ في الريح والشمس، فيُعاد تشكيل ملامحه. يُنصت إلى الأمواج وهي تضرب مقدّمة المركب وترتدّ عنه، معجباً بصلاية المركب غير المصقول وهو يصمد أمام جبروت الماء.

إذا أغمض عينَيْه يمكنه أن يتخيّل منظرًا مختلفًا تمامًا من آلاف السنين الماضية، ويرى ما حوله وكأنّه ينظر عبر زجاج مقطوع: حدائق خُضراء كالفردوس، ونخيلًا وكروم عنب، ونباتاتٍ صالحةً للأكل وزينة، وأشجار صنوبر، وزيتونا، وعرعرًا، وسِرّوا، ورمّانا، وتينًا في كلِّ مكان. ببغاواتٌ تتهاذى بين الأغصان، فيما تجول أسودٌ مستأنسةٌ في الأسفل. فاكهةٌ من كلِّ نوع، وبساتينُ فاخرةٌ تمتدّ بعيدًا في الأفق، وحقول حبوبٍ على كلِّ الجهات. تأتي كلّ ذلك لأنّ آلاف العبيد (بأجسادٍ موشومةٍ ليُعرف مالكوهم) كدحوا بالمعاول ينحتون قنواتٍ لجلب الماء إلى هذه الأرض القاحلة، محوّلين النهر من الجبال إلى نينوى. كانوا جميعًا هنا: الملوك وبناء القنوات. هنا حدث الأمر كلّهُ: الحلمُ الطموح الذي حمّله الملك سنحاريب، ثم أكمله وتوسّع فيه حفيده الملك آشوربانيبال.

بعد يومين من وصول آرثر إلى الموصل، يدعو الباشا إلى مأدبة. للرجل وجهٌ ممتلئٌ عريض الفك، وعينان غائرتان، إحداهما بنيةٌ والأخرى رمادية. يبدو مستاءً لأنَّ الإنكليزي لم يزره فور وصوله، لكنّه يستضيفه، وبذلك يوبّخه على قلة تأدّبه. غير أنَّ آرثر لا يفهم الرسالة المشفرة.

بعد العشاء، يدخّن الرجال الأرجيلة بينما يتملّل آرثر على وسادته، فلم يتقن بعد فنّ الجلوس متربّعاً فتراتٍ طويلة. حينها يظهر راقص، يلفّ تنورةً مكشكشةً مع أجراسٍ نحاسيةٍ حول خصره. ينتاب آرثر الحزن وهو يشاهد الشابّ يتمايل ويدور. يتذكّر راقصة الباليه في صندوق مجوهراتٍ رآه في شارع ريجنت، من تلك التماثيل الصغيرة التي تراها عند فتح الغطاء، فتندفع فوراً في رقصةٍ مرحة. لطالما ظنَّ أنّه بمجرد إغلاق الغطاء، يغوص التمثال الصغير مرّةً أخرى في الصندوق، بكتفينٍ محيّتين ورأسه للأسفل.

يقول الباشا وهو يراقبه من كُتب: «لا تبدو مستمتعاً، يا سيّد سمث».

يتوقّف التصفيق، ويخيّم صمتٌ متوتّرٌ على الغرفة.

في سعل التاجر الشاميّ ويقول: «سيّدي، سامحه. فقد نجا من حريقٍ في القسطنطينية، وما يزال مضطرباً للغاية».

يومئ الباشا برأسه، رغم أنَّ عينيه تظللان باردتين. أمّا آرثر فلا ينظر إليه، بصرف النظر عن قوّته وحزمه. لا ينظر إلّا إلى الراقص الشابّ الذي يبادلّه النظر، فيدرك آرثر حينها أنّه ليس

الوحيد الذي يودّ أن يكون في مكانٍ آخر.

ما إن يغادروا المنزل، حتى يلحق التاجر بآرثر. «الباشا رجلٌ خطير، وقد أغضبته. وهذا أمرٌ سيّئ. فهو من الأساس كان مرتاباً منك».

- «لماذا؟».

- «يظنّ أنّك أتيتَ للتنقيب عن الذهب. يشكّ في أنّ هذا هو هدفك الحقيقيّ، وأنّ مسألة الآثار مجرد ذريعة».

- «أنا أبحث عن الأسطر المفقودة من قصيدة. ما الصعب في فهم ذلك؟».

فيسحب التاجر نفساً حاداً. «يا صديقي، لعلّك أنت الذي لا تفهم. ليس لك أن تنزعج من الآخرين لتشكيكهم في دوافعك إن ذهبَ إلى أراضيمهم لتأخذ أشياءهم».

تصدّمه تلك الكلمات غير المتوقّعة. أثراه جاء إلى أراضي الآخرين ليأخذ شيئاً من حقّهم؟ هو مقتنعٌ بأنّه جاء للمساعدة في التنقيب والحفاظ على التحف الأثريّة التي ستكون في حالٍ أفضل بالتأكيد في أيدي الأوروبيين بدلاً من السكّان الأصليين. لم ير شيئاً في رحلاته يمكن أن ينافس عظمة المتحف البريطانيّ، بقاعات عرضه الكهفيّة الباردة، وكنوزه الأجنبيّة التي يحرسها حراسٌ أمناء يقظّة، وتخضع لفحص الخبراء من أمناء المتحف المجتهدين. المسألة بالنسبة إليه ليست مسألة ملكيّة، بل مسألة القدرة على تمييز التراث التاريخيّ وحمايته. وإضافةً إلى ذلك،

فلم يخطر في باله أبدًا أنَّ ألواح نينوى ملكٌ لأيِّ شخصٍ سوى أشباح الماضي.

ومهما كان الشكُّ الذي يستولي عليه، فلن يدوم طويلًا. حماسه كبيرٌ لدرجة أنَّه لا يوجد مكانٌ في قلبه لأيِّ شيءٍ آخر. فها هو أخيرًا في أرض لوح الطوفان. هذا موطن كلكامش. وهذه هي اللحظة التي كان ينتظرها منذ أن رأى لأول مرةً ثيرانًا ضخمةً برؤوسٍ بشريةٍ وأجنحةً طيورٍ تُحمل إلى داخل المتحف البريطاني.

\*\*\*

يركبون الخيل من الموصل إلى أطلال نينوى تحت جناح الظلام. هي رحلةٌ قصيرة، لكنَّ الجوَّ يزداد برودةً، والريح لا هوادة فيها. ينظر آرثر في الخريطة، فيبدو أنَّ هناك قريةً قريبةً تُدعى زيراف.

- «يمكننا أن نستريح هناك».

فيقول الدليل: «هناك قريةٌ أخرى في الجنوب».

- «ولمَ لا نذهب إلى القرية الأولى؟ فهي أقرب بكثير».

- «ذلك المكان سيئ. لا ينبغي لنا الذهاب إلى هناك».

تتصلَّب تعابير آرثر ويقول: «إذا لم تبين لي السبب، سأصرُّ على رأيي. أنا متعبٌ جدًّا».

فيقول الدليل وهو يشرح بنظره بعيدًا: «كما تشاء. ولكن تذكَّر أنَّني حذرتك. زيراف موطنٌ لعبدة الشيطان».

## H-

نارين

عند نهر دجلة، 2014

منذ وصول الجدة ونارين إلى زيراف وانتقالهما للعيش مع أقاربهم، كانتا تخرجان من القرية بانتظامٍ للتجول عند نهر دجلة.

واليوم، تجلسان على صخرةٍ لالتقاط أنفاسهما، في مكانٍ يمتدّ فيه حدّ الشاطئ إلى الخارج في قوس. تلوح في البعيد مجموعة من المباني الخفيضة، قال لهنّ أهل القرية إنّها كانت مطاعم شعبيةً حتى وقتٍ قريب، تُلقِي أضواء النيون فيها أقواس قزح تتموّج على امتداد الماء، وروائح شهيةً تتهاذى مع النسيم. كانت تقدّم مجموعةً من اللحوم وما يأتي به الصيادون، من سمك الجري [السُلور]، والحنكلّيس [الأنقليس] الشوكيّ، والشبوط.

وتقدّم أسماك المياه المالحة أيضًا، مثل أبو منقار والدينيس والأنشوفة. لكنّ الطبق الأشهر لديهم كان الشبّوط المشويّ، المسكوف.

نارين مثل جدّتها؛ لا تأكل السمك، ولا تأكل لحم الخنزير أو الديك أو الغزال أو البامية أو القرنبيط أو اليقطين أو الملفوف أو الخس، فكلّ هذا منهيّ عنه في دينها. كما أنّها لم تزر قطّ مطعمًا فاخرًا. لكنّ رؤية تلك المطاعم في حالتها البائسة تلك تُحزنها. كانت تودّ أن ترى شكلها حين كانت مزدحمةً ومليئةً بالحياة.

تقول الجدّة: «أوه، لدينا زائر».

تتبع نارين نظرة جدّتها، فتري عقربًا يدبّ في الأرض الجافّة، مسرعًا من تحت صخرة.

فتقول الجدّة: «نهارك سعيد. اذهب الآن، رعاك الله. واحتفظ بسمك لنفسك».

فتضحك نارين. «لماذا تتحدّثين دائمًا إلى الأشجار والصخور والماء الجاري؟».

تقول الجدّة إنّ كلّ شيءٍ في هذا العالم يتحدّث طوال الوقت. ومثلما لا يوجد موتٌ مُطلق، فكذلك لا يوجد صمتٌ مطلق؛ إذ يتحدّث الصمتُ أيضًا بلغته ولهجته الخاصّة. يُخرخر الحليبُ وهو يتحوّل إلى زبدة؛ وتهدّرُ الجبالُ وهي تتفتّت. تميّزُ الماعزُ ثغاء صغارها حتى بعد الفطام بفترةٍ طويلة، وتعوي الذئاب لتجد طريقها إلى مواطنها، وتصرصر الصراصير بفرك أجنحتها



معًا. والروح البشرية أيضًا تنتهّد وهي تغادر جسدها وتهاجر إلى شكلها التالي. ولا ينبغي لنا أن نحزن لأنها ذات يوم لن تستطيع اكتشاف هذه الأصوات؛ فهي بمجرد أن تتبّع إيقاعات الحياة ونبراتها، ستستطيع دائمًا أن تتحرّك بانسجامٍ معها. ويمكن للأصمّ أن يسمع أكثر أصوات الموسيقى سحرًا.

- «نعم، لكنك تتحدّثين حتى إلى الحيوانات الخطيرة».

«اششش». تتجمّد العجوز فجأة، وتعمّق التجاعيد بين عينيها. «هناك شيءٌ في النهر».

- «ماذا هناك؟».

- «ابقي هنا يا قلبي. سأذهب لأتأكّد».

تستاء نارين حين تركها جدّتها، فتتبعها في صمت. تقترب من دجلة، وهي تجمعُ آخر ما تبقى من ضوء النهار، فيقف شعر قفاها. ثمّة جسدٌ يطفو في الماء.

- «هل الرجل... هل هو ميت؟».

تسكت الجدّة لحظة. «المسكين. لا بدّ أن له إخوةً يكون عليه، ووالدًا أو والدة. سأرى إن كنتُ أستطيع أن أسحبه إلى الشاطئ».

فيمتقع وجه الفتاة. «لكنك قد تسقطين!».

- «لا تقلقي. سأكون حذرة».

تخلع الجدّة حذاءها، وتدسّ ثوبها في حزام خصرها، ثم

تخوض في دجلة وهي ممسكةٌ بعصاها، خطوةً تلو الخطوة في حذر. يتلاطم الماء على فخذَيْها في موجاتٍ صغيرة، والحجارة تحت قدمَيْها ملساء لفرط ما مرَّ فوقها من ماءٍ على مرِّ القرون.

- «بإذنك يا آفا مِزن. المعذرة، اسمح لي بالدخول».

تقول ذلك، وتمضي قُدماً. وحين يصل الماء إلى صدرها، تتوقَّف. ثمَّة رائحةٌ مالحةٌ نباتيَّةٌ تنفضُّ عليها. تمُدُّ عصاها لأبعد مدى، وتحاول أن تجرَّ الجثَّة نحو المياه الضحلة. وسرعان ما يتَّضح أنَّ المهمَّة مستحيلة، فالتَّيار قويٌّ للغاية.

تكفَّ الجدَّة عن المحاولة وهي تلهث، ثم تشاهد الجثَّة تنجرف بعيداً، فتتمتم بدعاءٍ في اتِّجاهها. «الموت أمرُ الله: مِرن آمري خوديا. ما ابنُ آدم إلَّا ضيفٌ على هذه الأرض، ولو حاز كلَّ ثروة، أو عاش مئة عام».

الرجل الميت عارٍ إلَّا من سروالٍ ممزَّق. ثمَّة قروحٌ حمراء في صدره، تعرف الجدَّة أنَّها علامات تعذيب، فتقرَّر ألا تذكرها لنارين. يلوّن الحزنُ ملامحها، فتستدير وتشقُّ طريقها نحو الشاطئ.

تسألها نارين وقد جاءت مسرعةً إلى جانبها: «هل تعتقدين أنه غرق؟».

فترطب الجدَّة شفَتَيْها بلسانها. «ربَّما. من الأفضل ألا نخبر أحداً. سنثير قلقهم، ولا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً».

- «حسنٌ يا جدَّتِي».

لا تذكر نارين ولا الجدّة لأقاربهما العراقيين ما حدث، لا في ذلك المساء ولا في اليوم التالي. ولو أنّهما قالا شيئاً، لانتشرت شائعاتٌ عن أحداثٍ غريبة. ففي الأسابيع الأخيرة، شهدت نينوى اختفاء بعض الأهالي، راعي غنم هنا، وسبّاك هناك. يظهر بعضهم بعد أيّام، يرفضون الحديث عمّا جرى لهم، وآخرون لا يعودون أبداً.

هذا هو السبب في إغلاق المطاعم واحداً تلو الآخر. كان النهرُ صافياً فضّياً تحت نور الشمس ذات يوم، لكنّه تلوّث الآن جدّاً، لا من النفايات الصناعيّة ومخلّفات الجيش وبقايا النفط فحسب، بل كذلك من الضحايا المضروبين الذين انتفخت جثثهم. سُحبت جثثٌ كثيرةٌ من الماء مؤخّراً، حتى إنّ رجل دينٍ مسلم أفتى بعدم جواز أكل السمك. فأسماك الشبّوط العراقيّة الشهيرة كانت تقرض لحم البشر. وحين توضع الحواجز على مجرى الماء لالتقاط الحطام، لا يجدون فيها نفاياتٍ فحسب، بل يجدون جثثاً وقعت في تلك الشباك، فيدفنونها على عجل، ومن دون تشريح. هكذا انتشرت مقابر الأرواح التي لا أسماء لها على ضفاف دجلة، فأصبح النهر مقبرةً متدفّقة.

تحدّث الجدّة مع الأشجار والصخور والماء الجاري. تقول إنّ كلّ شيءٍ يتحدّث طوال الوقت، بيد أنّ هذا العدوّ المجهول يظلّ صامتاً.

-O-

آرثر

عند نهر دجلة، 1872

الأطفال أوّل من يستقبله في قرية زيراف. يضحكون، مشدوهين، يخرجون مسرعين من منازلهم، يدفعهم الفضول إلى لقاء هذا الزائر غير المنتظر. من خلفهم تسير مجموعة من الرجال المسنّين، بضفائر طويلة رفيعة تبرز من تحت قبعاتهم. في وسطهم رجلٌ يرتدي الأبيض من رأسه إلى أخمص قدميه، يبدو أنّه الشيخ. يحمل عصًا منحوتة من المرمّر الأبيض، تعلوها حليّة فضيّة على شكل شجرة بين طاووسين.

يقول آرثر للدليل: «أخبرهم من نحن، واسألهم ما إذا كان بإمكاننا أن نبيت ليلتنا هنا. أتراهم يتكرّمون باستضافتنا؟».

فيقول الشيخ بعد أن تُرجم كلامه: «أهلاً وسهلاً بك. فنحن نؤمن بأنّ الضيف مُرسل من الله».

يُصطحبون إلى منزل الشيخ، ويُقدّم لهم أوّلاً حليبُ الماعز والتين المجفّف، ثمّ عشاءٌ فاخرٌ من الرزّ مع شراب الرمان، وبرياني الدجاج، وكعكة تمر، وكبّة الموصّل، وهي فطيرة لحم غنيّة مصنوعة من عجينة البرغل، محشوّّة باللحم المفروم والزبيب والصنوبر واللوز.

يقول الشيخ: «لعلّ هناك من نصّحك بعدم التوقّف في قريتنا. جيّد أنّك لم تستمع إليهم».

فيحمرّ وجه آرثر، محاولاً تجنّب النظر إلى دليله الجالس إلى جانبه، وقد شبك ذراعَيْه على صدره. لم يمسّ الرجل طعامه، ولا ينظر في عين أحد. فلمّا أدرك آرثر أنّه يمتنع عامداً عن تناول الطعام، أقبل يأكل بشهيّة هائلة، لأوّل مرّة في حياته.

يقول بين لقمته والأخرى: «يؤسفني أنّ الناس يقولون أشياء سيئة عنكم. لا بدّ أنّ ذلك يؤلمكم».

يبتسم الشيخ، فتتغصّن التجاعيدُ حول عينَيْه. «نحن أبناء الله، مثل الجميع. لكنّ الناس لا ينصفوننا، وقد علّمتنا الحياة أن نظلّ أقوياء، صامدين. وإلاّ ما استطعنا البقاء أبداً».

تُقدّم لهم القهوة بعد العشاء في فناجين صغيرة.

يقول الشيخ: «كُن حذراً. فباشا الموصّل يعتقد أنّك هنا بحثاً عن الذهب. إنّهُ رجلٌ قويّ».

فيعبر طيفٌ من الدهشة على وجه آرثر وهو يدرك أنّ الناس

في جميع أنحاء المنطقة كانوا يتحدثون عنه .

يهزّ رأسه في تفكّر . «لست مهتمًا بالذهب . إنّما أبحث عن قصيدة قديمة عن الطوفان العظيم» .

فيرفع الشيخ رأسه ويقول : «حسنٌ إذن ، أنت في المكان الصحيح ؛ لأنّ هذا هو المكان الذي حدث فيه كلّ شيء : الفُلك والطوفان . نؤمن بأنّ سبعة آلاف عام قد مرّت منذ ذلك الحين ، فبعد كلّ ألف عام ينزل أحد الملائكة السبعة إلى الأرض لمساعدة البشر ، غير أنّ البشر لم يتعلّموا الكثير» .

✱

واحدًا بعد الآخر ، يغادر الحضور إلى منازلهم ، ولا يبقى سوى بضعة رجالٍ في الغرفة . تُطقطع النار في المبخرة ، ويسأل الشيخ : «هل لديك زوجةٌ في بلدك؟ وأطفال؟» .

فيُجيب آرثر باقتضاب : «لا» .

– «لا أحد ينتظرك؟» .

فيتردّد آرثر . «لديّ خطيبة» .

– «هل تحبّها؟» .

ما يمنعه من الحديث ليس الخجل ، بل حزنٌ غير قابلٍ للتفسير . فهو رغم وجود المترجم لا يملك لغةً يستطيع أن يشرح بها كيف أنّه منذ صباه يجرّه نهرٌ خَفِيّ ، وتدفّق قويٌّ جدًّا لا يسمح له بالراحة أو الاستقرار في مكان . التيّار الذي يحمله أقوى من شؤون القلب ، أو هكذا يعتقد .

ما يزال غير واثقٍ من كَيْفِيَّةِ الردّ ، فيدور على عقبه ، شاعرًا

بحركةٍ من زاوية عينه . ثمّة شخصٌ دخل الغرفة .

يقول الشيخ : «تلك ابنتي بالتبني . لا تنضمّ النساء إلى المحادثات المسائيّة، لكنّها مختلفة . فهي فقرا» .

- «فقرا؟» .

- «نعم . ليلي عرّافة» .

يقولون له إنّ الفقرا تستطيع اكتشاف أشياء لا يلاحظها الآخرون . تعرف المناظر الطبيعيّة بالطريقة التي يعرف بها طائر القصب مداخل المياه ومخارجها . يمكنها أن تتنبأ بعاصفةٍ من طيران مالك الحزين ، أو شكل أكوام النمل ، أو حركات العناكب . تعرف الفقرا أشياء تتمنّى لو لم تعرفها ، لكنّها إذا عرفتّها لا يمكن أن تنساها . لهذا السبب يُقال إنّهنّ لا يعشن طويلاً ، إذ لا تقوى قلوبهنّ على ذلك الحمل فترةً طويلة . يعرف آرثر في ليلته الأولى في القرية أنّ اليزيدي يرث ديانته . أعدادهم قليلةٌ إذا ما قورنت بالآخرين من جيرانهم ، ذلك أنّه لا يجوز لأحدٍ أن يعتنق هذه الديانة ، ولا يُسمح لأحدٍ منهم بالزواج من خارج الجماعة ، إلى جانب ما تعرّضت له جماعتهم من هجوم وتهجير عدّة مرّات . تنحدر ابنة الشيخ المتنبّة من سلالةٍ طويلةٍ من العرّافين ، يرون الماضي ويتنبّؤون بالمستقبل ، فيكشفون الأسرار التي تظلّ محجوبةً عن الآخرين . ورغم أنّها هبة ، إلّا أنّها محنةٌ أيضاً ، وينبغي تحمّلها باعتزاز . تعيش الفقرات في نطاقٍ زمنيٍّ خاصٍّ بهنّ ، في تاريخ دائريٍّ يعود إلى بداية الزمن . فيستوعبن الأصداء القادمة من القرون الخالية ، ويركبن أمواج المعاناة ،

ويجمعن بقايا الحكايات. هنّ حافظات المعرفة، وحافظات الذاكرة. يُمكن القول إنهنّ أمينات المكتبات في ثقافة لا تكاد تدوّن شيئًا.

\*\*\*

يقدمون له سريرًا ناعمًا نظيفًا، تفوح شراشفه برائحة إكليل الجبل. فيبتهج جسده بعد الفراش المثير للحكة في خان يعقوب، ولا يلبث أن ينام. لكنّه يستيقظ على صوتٍ غريبٍ في وقتٍ متأخّرٍ من الليل. حفيفٌ بعيد. يفتح النافذة وينظر إلى الخارج، وقلبه يتسارع.

هناك، تحت قمرٍ ساطعٍ يستطيع القراءة على ضوءه، طيفٌ واقفٌ بين كتل نبات الخلنج. يعرف على الفور من تكون: ابنة الشيخ. ترتدي ليلي ثوبًا أبيض يصل إلى كاحليها. يتدلّى شعرها الطويل الداكن فوق كتفيها. وقدماها العاريتان تطآن الأرض بلطفٍ كأنّها تخطو على سجادةٍ فاخرة. من الواضح لآرثر أنّها تسير في نومها. منظرٌ غريبٌ لدرجة أنّه لا يملك إلا أن يشاهده، مسحورًا. لكنّه بعد ذلك يتراجع، خشية أن يصبح متطفلاً عليها. يعود إلى النوم، فيرى حلمًا غريبًا. يرى والدته، وهي شابةٌ جميلة، تبحث عن الكنوز في طين نهر التمز في ثوبها الأبيض نفسه، تجرّ حافّته عبر الوحل.

في الصباح الباكر، يستيقظ آرثر على صوت ضحكٍ ومرح. تجمّع حوالى عشرين طفلًا عند نافذته، يتدافعون للنظر إليه.



وحين يرونه يتحرّك في فراشه، يركضون مبتعدين، وهم يضحكون.

فيقول آرثر مبتسمًا: «منذ متى وأنتم تراقبونني؟». يبحث في كلّ مكانٍ عن دليله، لكنّه سرعان ما يعرف أنّه رحل ليلاً من دون أن يخبر أحداً، في رفضٍ لضيافة اليزيديّين. وحين يجلس على الإفطار مع الجميع، ينتهي به الأمر بتناول طعام شخصين، مرّةً أخرى. لا يصعب عليه الأمر؛ فالطعام لذيذٌ جدًّا. جنبٌ أبيض مفتّتٌ مع أعشابٍ برّية، وعسلٌ أسود من خلايا النحل في سنجار، وخبزٌ طازج، وزبدة شهية للغاية. يتناول آرثر طعامه بشهية كبيرة، رغم أنّه متعجّلٌ لبدء العمل، حتى إنّ أهل القرية ينظرون إليه في دهشة. وحين يحاول أن يشرح سبب استعجاله، يتلعثم.

أمّا الذي ينقذه في هذا الموقف فهو الابن الأوسط للشيخ. إذ قضى «ديشان» فترةً في القسطنطينيّة ودرس في بغداد، ويتحدّث الإنكليزيّة والفرنسيّة، بالإضافة إلى الكرديّة والعربيّة والتركيّة. فيوافق بسرورٍ على أن يكون مترجمه الجديد.

– «أخبرهم من فضلك أنّي يجب أن أبدأ التنقيب. أنا ممتنٌّ جدًّا لطبيعتهم».

فيقول الشيخ بعد ترجمة كلامه: «اذهب للبحث عن قصيدتك، ولكن لا حاجة بك لأن تنام في خيمة. قريتنا قريبةٌ من الموقع. من الأسهل لك أن تبقى هنا، في ضيافتنا لأيّ وقتٍ تريد».

– «هذا... هذا كرمٌ كبيرٌ منكم. لا أريد أن أكون عبثًا عليكم».

- «لست عبثًا علينا. ونحن نؤمن أنَّ البصلة التي نقتسمها مع الضيف أشهى من لحم الضأن المشوي».

\*\*\*

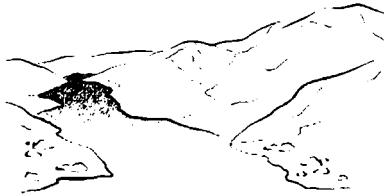
ني نَ وى. يالفرحة الوصول أخيرًا! يشعر آرثر وكأنَّه حبيبٌ يلتقي حبيبته المفقودة بعد فراقٍ طويل.

هناك ما يدعو إلى التواضع في العمل في الحفريات الأثرية. إذ يكدح المرء في الحرِّ والغبار بمجرفته وفرشاته في قاع حفرة، يتقدَّم ببطءٍ عبر رواسب القرون والألفيات الغابرة. تذوب الحدود الفاصلة بين اللحظة الحالية والماضي البعيد، فيجد نفسه يتهاوى في عالم قد اختفى، لكنَّه يعود إلى الحياة رغم أنَّه ميتٌ مدفون. تتغيَّر مفاهيمه؛ إذ يُدرك هشاشة كلِّ ما يبدو قويًا ومهيِّبًا، من قصور، وقنواتٍ مائيَّة، ومعابد. وفي الوقت نفسه، يُدرك صمود ما يبدو صغيرًا وقليل الأهميَّة، كخاتم من العاج، أو عملة برونزيَّة، أو عظم ترقوة. لا شيء تافه بالنسبة إلى عالم الآثار. فالاكتشاف يبقى استثنائيًا، مهما كان بسيطًا وعاديًا.

يُطلقون على التلِّ الذي يغطِّي أطلال القصر الشمالي اسم كويونجك. يقع هذا التلُّ على الضفة المقابلة لنهر دجلة، بارتفاع مئة قدم، وفي داخله أسرارٌ مدفونة. لقد سقطت هنا، في ظهيرة من أوائل الصيف منذ آلاف السنين، قطرةٌ مطرٍ صغيرة من السماء على رأس الملك آشوربانيبال. وهنا، يحفر الآن آرثر سمث في طبقات الأرض، في طبقات الزمن.

# 4

## ذكریات الماء





## -H

### زليخة

بجوار نهر التّمز، 2018

ما إن تدخل زليخة منزل خالها رفقة ضيفتها نين، حتى تشعر  
بوخزة من شك في أنّه قد لا يكون هذا القرار مناسباً. وما تلبث  
هذه البوخزة أن تتحوّل إلى قلقٍ كاملٍ بعد جلوسهما لتناول  
العشاء.

يسأل الخال مالك وهم يضعون المناديل على أحضانهم:  
«إذن، كم يكسب فتان الوشم؟».

فترفع زوجته حاجبيها: «عزيزي!».

– «ماذا؟ ألا يستطيع المرء أن يتحدّث في منزله؟».

لكنَّ نين تبدو مستمتعة. «أكسب ما يكفي لأعيش».

- «وما يكفي لامتلاك بيتٍ عائمٍ في مرفأٍ تشلسي، وهو الذي لا يمكن أن يكون رخيصًا كما أعتقد».

- «عزيزي!».

فسيئد الخال مالك على ظهر كرسيه، ولا يستغرق الأمر منه أكثر من لحظةٍ ليبادر بسؤالٍ جديد: «ولماذا لا تسكنين فيه ما دمتِ تحبِّين الماء كثيرًا؟ هل به مشكلة؟ هل يسرِّب؟».

لكنَّ نين لا تبدو متأثرةً أو متفاجئةً من سيل الأسئلة المتطفلة هذه. «أوكد لك يا سيِّد مالك أنه لا توجد مشكلةٌ في هي التي رأت الأعماق. كلَّ ما في الأمر أنني انتقلتُ قبل فترةٍ للسكن مع صديقتي... صديقتي السابقة. لكنَّ الأمر لم ينجح، وانفصلنا. وحين فُكرتُ في العودة إلى البيت العائم، كان قد جرى تأجيرُه». يرتفع حاجبا الخال مالك، لكنَّه يلزم الصمت، إلى أن يأخذ رشفةً من الخمر. «أنتِ منهَنّ إذن؟».

- «عزيزي!».

فتقول نين في هدوء: «لا بأس».

فيهزّ الخال رأسه. «طبعًا لا بأس! وما المشكلة؟ كلَّ شيءٍ على ما يرام. وكلَّ شخصٍ أصبح شيئًا ما في هذه الأيام -». فتتدخل زوجته: «حسن، أيّ صديقةٍ لزيخة مرَّحِبُّ بها في منزلنا».

فُعيد نين رأسها إلى الخلف وهي تبتسم لزيخة. «لكنَّنا لسنا صديقتين بالضبط». غير أنَّها ما إنْ تقول ذلك حتى تدرك المعنى

الضمني الذي فهمه الخال مالك، فتسرع بالإضافة: «أقصد أننا لتونا التقينا. سنصبح صديقتين».

فتقول زوجة الخال: «إذن دعونا جميعًا نشرب نخب الصداقة. لكنك لا تشربين شرابك يا نين. هل أقدم لك نبيذًا مختلفًا؟ لعل هذا النبيذ لا يروقك».

- «النبيذ رائع بالتأكيد. لكنني لا أشرب. أقلتُ عن الشراب منذ ثماني سنوات».

يتبع ذلك صمتٌ قصير، لكنه مشحون. يحدّقون فيها جميعًا على مدار لحظة. زوجة الخال تنظر إليها بفضول واضح، وينظر الخال إليها باستنكار، فيما تنظر زليخة بشيء يكاد يكون إعجابًا. لم يسبق لها أن التقت شخصًا متصالحًا مع نفسه هكذا، بندوبه وكدماته وكل شيء.

تنقل نين عينيها من واحدٍ إلى الآخر. «ولكن إذا كنتم ما زلتم ترغبون في شرب نخب الصداقة، فسيسعدني أن أنضم إليكم بالماء».

وهكذا يرفعون جميعًا كؤوسهم.

\* \* \*

يتردّد صدى خطواتٍ مسرعةٍ في الردهة. في غضون ثوانٍ قليلة، تدخل هِلن، وهي تلهث قليلًا. ترتدي سترةً من ماركةٍ عالميةٍ وفستانًا متوسط الطول مطويًا، كلاهما باللون الأزرق الفاتح الذي يُبرز عينيها. تبدو فاتنة.

- «أعرف، أعرف. تأخّرت».

تتَّجه مباشرةً إلى زليخة، مع ابتسامةٍ فوريَّةٍ ترفع أطراف فمها. «كيف حال فتاة عيد الميلاد؟ لم أرك منذ زمن! أسفة لأنِّي لم أكن في المعرض حين جئت. دعيني أنظر إليك».

تضع زليخة خصلة شعر خلف أذنها بارتباك، وقد أحاطتها هِلن بعناقٍ معطرٍ، ثم أمسكتها على مسافة ذراعٍ تتفحَّصها. في تلك اللحظة، لا تملك إلا أن ترى نفسها بعيني ابنة خالها. بملابسها غير المتناسقة، ووجهها الخالي من المكياج، والحيرة التي تلقَّها دائماً حين تكون في هذا المنزل. غيابُ الراحة ليس حالةً عاطفيَّة، بل بؤابةً تعبرها عدَّة مرَّاتٍ في اليوم الواحد. ترفع رأسها قليلاً وتقول: «أحضرتُ معي صديقة. هذه نين».

فتقول هِلن: «مرحباً بك يا نين».

تنظر زليخة إليها وهما تتصافحان. تلاحظ الآن فقط أنَّ عيني هِلن متعبتان مضطربتان تحت ظلال العينِ الفضيَّة اللامعة.

تسألها زليخة: «كيف حال الحبيبة ليلي؟»

تسحب هِلن كرسيًّا بشحوبٍ مفاجئٍ في ملامحها. «ما يزالون يجرون الفحوص». ثمَّة تقطُّعٌ في صوتها. «كان أسبوعاً صعباً. أعتقد أنَّني أحتاج إلى مشروب».

تميل زليخة إلى الأمام كي تمسح على يدها، لكنَّها تأخَّرت ثانيةً واحدة. فقد مدَّت هِلن يدها لوالدها. «شكراً يا أبي على مرافقتي إلى المستشفى».

تُدرك زليخة ذلك التعبير على وجه هِلن. إحساسٌ عميقٌ بالامتنان. هو الشعور الذي يثيره خالها فيها طوال الوقت.



يقول الخال: «انظروا إلى هذه الطاولة. يا لي من رجل محظوظ. زوجتي تجلس قبالي، وابنتاي إلى جانبي. وضيعة مفاجئة رائعة تنضم إلينا. يستحق هذا الأمر أن نحتفل بالتأكيد. انسوا هذه الزجاجة. دعونا نفتح زجاجة نبيذ جيد من ناپا. هل لديكم اعتراض على نبيذ سكريمينغ إيغل؟»(\*)

\*\*\*

يشرب الخال في تلك الليلة أكثر من المعتاد. يتجاهل تدخلات زوجته، فيملأ الكأس تلو الأخرى، دون انتظار الخادمة. وبعد انتهاء الزجاجة الثالثة، يتوجّه كلامه كله إلى زن. يستسلم لنبيذ سكريمينغ إيغل، فينطلق في حوارٍ فرديٍّ طويلٍ لا يعرف اتِّساقًا أو ترابطًا.

ففي لحظةٍ يقول: «أفتخرُ بأنني من الشرق الأوسط يا زن. فدائمًا ما يساء فهم منطقتنا. اسألني شخصًا غربيًا: «هل تعرف أين تقع سوريا والأردن وإيران والعراق ولبنان وتركيا على الخريطة؟». سيعجز تمامًا. ففي نظرهم كلنا من مكانٍ ما في أقصى البعيد. لا يعرفون حتى إنّ بلاد الرافدين كانت نبع الحضارة. لقد اخترعنا المدن، والرياضيات، والكتابة، وعلم الفلك، بل حتى العجلة اللعينة! والساعة أيضًا. كيف كانوا سيحسبون الوقت من دوننا؟ إنهم لا يعرفون شيئًا عن قدر ما يدينون به لنا».

فتومئ زن. «أتفق معك. هناك صورٌ نمطيّةٌ سلبيةٌ كثيرةٌ -».

---

(\*) من الأنبيذة الفاخرة غالية الثمن، علمًا بأنّ الأنبيذة المصنوعة في وادي ناپا بكاليفورنيا معروفةٌ بأثمانها المرتفعة جدًا. (المترجم)

ويقاطعها الخال بنفاد صبر: «أفرادُ شعبنا يا نين لا يكونون الأبطال أبدًا. دائمًا ما نكون الأشرار في قصصهم. وإن لم نكن الأشرار، فمجرد مساعدين ثانويين. مثل سانشو پانزا لدون كيخوته، وفرايدي لروبنسن كروزو، وهكلبري فين لتوم سوير».

فتساعده نين قائلة: «والدكتور واتسن لشرلوك هولمز...».

- «بالضبط! ما دمنا نعرف مكاننا في الخلفية، فالأمر على ما يرام. بل قد نتسامح مع بعضنا. لقد سئمت».

- «أنفهم ذلك. لديك كل الحق في هذا الشعور بـ».

فيقاطعها: «ولكن لا تسيئي فهمي! أنا لست شرق أوسطي. أنا من المشرق! سليل الحضارة الهلنستية، وأعتز بها. كان البحر المتوسط والشرق الأدنى شيئًا واحدًا. لا أحد يتحدث عن هذا الآن، لكنها حقيقة. سِمرنة [إزمير]، والإسكندرية، وبيروت... كانت متعددة الثقافات جدًا. لم نكن في صناديق منفصلة، يونانيون هنا، وسوريون هناك. كنا في اختلاط مستمر. كيف كانت ستبقى الكلاسيكيات الغربية لو لم تُترجم إلى العربية؟».

- «صحيح. نحن ندين لـ».

لكن الخال كان قد انتقل في كلامه فعلاً. «ومع ذلك، فلا شيء يملؤني فخراً أكثر من كوني بريطانيًا. هل تعرفين عن خطابي الأول في مجلس اللوردات؟ كان حماسيًا، مثيرًا حقًا. قلت فيه إن الاختلاط هو الذي يجعلنا بلدًا عظيمًا هكذا. في بريطانيا، الاختلاف يمدنا بالقوة، والتسامح يمنحنا الوحدة».

وهكذا طوال المساء.

حين جاء وقت الكعكة بنكهة الباشن والمانجو، كان الخال قد وصل إلى نهاية جولته الجغرافية. يحرك الآن كأسه، ويسوي كتفيه قائلاً: «زليخة غالية علينا جدًّا، يا زين. مثلها مثل ابنتنا. لقد عانت في سنٍّ مبكرة. لا ينبغي لأيِّ طفلٍ أن يتحمَّل هذا النوع من فقدان والحزن. ومع ذلك، فقد كانت مبهجةً دائمًا. طالبةٌ مثاليةٌ. مجتهدة. قويَّة الإرادة. الأولى في صفِّها كلَّ عام. لم تكن متمرِّدة أبدًا... حتى عندما اختارت العلوم على عكس رغبتني، احترمتُ قرارها. كان هناك جزءٌ منِّي يتفهَّم ذلك. قلتُ لنفسي: لا بأس، لا ينبغي للجميع أن يدرسوا التجارة أو الدراسات الماليَّة، رغم أنَّها تمتلك العقل المناسب لذلك. لكنَّها كانت مثاليَّة».

فتقول زين: «أفهم ذلك».

فيقول الخال: «حقًّا تفهمين؟ لأنني عجزتُ عن الفهم. لا أفهم كيف لإنسانةٍ مستقرَّة وثابتة طوال حياتها أن تنهي زواجها من دون أيِّ سبب، ثم تترك شقَّتْها الجميلة وتنتقل إلى بيتٍ عائمٍ متداعٍ على نهر التَّمز، قد يكون مليئًا بالثقوب ويسرَّب، ثم تظهر فجأةً مع صديقةٍ جديدةٍ يتبيَّن أنَّها وشَّامةٌ ومدمنةٌ خمرٍ سابقةٍ و...».

- «عزيزي!».

- «خالي!».

- «أبي!».

فيُلقي الخال يديَّه عاليًا في الهواء. «كلُّنا كبارٌ هنا، أليس

كذلك؟ أقول الحقائق ليس إلا. هل أزعجت أحدا؟ هل تشعرين بإهانةٍ يا نين؟».

فتقول نين بلمحة انبساطٍ في وجهها: «لا».

يأخذ الخال رشفةً أخرى من كأسه، بذهنٍ شارد. ثم ينظر إلى نين مرةً أخرى من جانبه. «أخبرتني زليخة أنك تحبين ملحمة گلگامش».

- «نعم».

- «وترسمين وشوماً لشخصياتها؟».

- «نعم».

فيقول وهو يتنهد: «يا إلهي! لكنّها مع ذلك قصيدةٌ عظيمة».

فتومئ نين. «نعم. وهناك معجبون بها من شتى أنحاء العالم. ليتك ترى السيّاح القادمين لمتجري، من اليابان والنرويج وكندا... هذه القصيدة القديمة توحدنا رغم الحدود، لكنّ الغريب أيضًا أننا لا نتفق أبدًا على كيفية تفسيرها. ولهذا السبب كانت محلّ تقدير لدى الطغاة والمعارضين والأقوياء والضعفاء على حدّ سواء. ثمّة تأويلاتٍ مختلفة لها».

فيسألها الخال: «وكيف تؤوّلينها؟».

تفكر نين مقدار ثانية. «في رأيي، تتعلّق الملحمة في المقام الأوّل بما فينا نحن البشر من هشاشةٍ وصمود، كما أنّها تتحدّث عن إمكانيّة التغيير. وتعلّم الاهتمام بالآخرين. علينا الاعتراف بأنّ گلگامش كان شخصًا فظيعةً في البداية، لكنّه أصبح ألطف وأكثر تواضعًا عبر الحبّ والصداقة والفقد. فهي إذن قصّة لا يوجد فيها

بطلٌ بالمعنى التقليديّ، وكلُّ شيءٍ إمّا مكسورٌ وإمّا متغيّرٌ . . . مثل الحياة نفسها».

يزمّ الخال شفّتيّه. «أختلف معك يا عزيزتي. أعتقد أنّ القصيدة تتعلّق بالخوف من الموت. لا بدّ أن نتخلّى كلّنا عن هذا الجسد الفاني، إن جاز التعبير، فسوف نصبح ترابًا. هذا محتوم. ما المغزى إذن؟ بسيط. تقول لنا الملحمة إنّهُ بما أنّنا لا نستطيع الوصول إلى الخلود، أو حتى إطالة الشباب، فيجب أن نأكل ونشرب ونمرح ونعطي الأولويّة دائماً للعائلة والأصدقاء. أهلنا. تلك هي رسالتها العالميّة. العائلة أوّلاً».

ترشف نين من الماء، وتضع الكأس. «لماذا؟».

– «ماذا تقصدين بلماذا؟».

– «لماذا يجب أن تكون العائلة فوق كلّ شيء؟».

يقطّب الخال جبينه. «سؤالٌ لافت. ليس لي إلّا أن أفترض بأنّك لم تكوني أسرةً بعد. ستفكرين بشكلٍ مختلفٍ عندما يحين الوقت».

لكنّ نين تصرّ على موقفها، بنبرة هادئة، مع شيءٍ من الحدّة. «ليس على الجميع أن يتزوّجوا أو ينجبوا أطفالاً».

– «حسنٌ إذن. أنا آسف، لكنّك لن تعرفي أبداً هذا التفاني الذي أتحدّث عنه».

– «عزيزي!».

فيلتفت الخال مالك إلى زوجته بقسوة. «لا تتوقّفين عن توبيخي. تهاجمينني طوال المساء، لكنني أتحدّث بصدق. أقول

ما أفكّر فيه، بعكسك أنت! تدفعيني إلى أن أنجز الأعمال القذرة من أجلك، كي تظلّ يدك نظيفتين. تتصرّفين دائماً وكأنك قديسة، وتجعلين مني أثماً».

يحطّ عليهم ذلك التعليق الوقح غير المتوقع، مولّداً موجاتٍ من ضيق. يسكت الجميع لحظة، ثم تمسح الزوجة شفّتيها بمنديلها وترفع رأسها.

– «أعتقد أنّه حان وقت القهوة. من الواضح أنّ هناك من شرب ما يكفي من النبيذ».

\*\*\*

بعد تقديم القهوة وإبريق شاي البابونج في آنية فاخرة، تنظر زليخة باعتذارٍ إلى زن، خشية أن تكون ضيفتها قد انزعجت.

– «أخبرينا، هل لديك اقتباسٌ مفضّلٌ من ملحمة گلگامش؟».

فتبتسم زن، أولاً لأنّ السؤال أعجبها، وثانياً لأنها تعرف أنّ زليخة تحاول تخفيف التوتر.

– «نعم. هناك بيتٌ يقوله إنكيدو لگلگامش قبل انطلاقهما في الرحلة. أعتقد أنّه واحدٌ من أجمل الأشياء التي يمكن قولها لصديقٍ أو زوجٍ أو حبيب». تسكت لحظة، وعيناها تتألّقان في ضوء الشموع المتذبذبة، ثم تُنشد:

ابدأ الرحلة حيث وضعت عقلك

لا يعرفنّ الخوف قلبك، وأبقِ ناظرَيْك عليّ.

تقول زليخة: «جميل!».

فيوافقها خالها، وسط دهشة الجميع: «نعم، جميلٌ فعلاً!». يتغيّر مزاج الحفلة، من أثر هذه الكلمات القادمة من عالمٍ قديم، فتمضي بقيّة الأمسية بسلاسة.

قبل أن تنتهي الأمسية، يسلم الخال وزوجته هديّتهم المشتركة لعيد ميلاد زليخة. مظروفٌ كبيرٌ آخر، منقوشٌ بترويسة الخال مالك. تخشى أن يكون المال الذي رفضته سابقاً، فتشعر بالضيق، لكنّها تجد قسيمةً من شركة سفرّيات، ومعها بطاقة عيد ميلادٍ مبهجة بخطّ زوجة الخال الأنيق، بحروفٍ مائلةٍ إلى اليمين قليلاً.

لقد أهدياها عطلةً لشخصين لمدة أسبوعٍ إلى الوجهة التي تختارها، في الوقت الذي تختاره، مع تذكّر بدرجة رجال الأعمال وإقامةٍ في فنادق الخمس نجوم. وبما أنّها مشغولة الآن في عملها وحياتها الشخصية، يمكنها أن تستخدم القسيمة في الوقت الذي يناسبها.

فتقول زليخة وهي تخفض رأسها خشية أن يلاحظوا عدم ارتياحها: «أوه، هذا رائع... لكنّه كثيرٌ جدّاً... شكراً لكما».

\*\*\*

تمشي زليخة وزنّ معاً في طريق الخروج. ينتظرهما «كريم» عند الباب، يحمل معطفيّهما وحقيبتيهما.

– «لقد طلب لك سيّارة أجرةٍ مرّةً أخرى».

– «شكراً لك يا كريم».

تستقبلهما رائحةٌ دسمةٌ من ترابٍ وياسمين عند خروجهما إلى الحديقة.

فتطلق زليخة تنهيدةً طويلة. «استطعتُ أن أقنع خالي بعدم توصيلي بسيَّارته الخاصَّة مع سائقٍ بالزيِّ الرسمي. لكنِّي لا أستطيع منعه من طلب سيَّارة أجرة. هل نوصلك في طريقنا؟». فتبتسم نين. «سيكون المترو أسهل. ولكنَّ شكرًا لك».

تمرَّان بالنافورة الأندلسيَّة، والماء يرنّ بسلام.

- «قد يصعب احتمال خالي في بعض الأحيان. إنَّه متمسِّكٌ بقناعاته جدًّا. أظنَّها مسألة سنٍّ أيضًا. يزداد تصلُّبه كلَّما كبر». تنصت إليها نين دون تعليق.

- «لكنِّي مع ذلك مدينةٌ له بالكثير. فقد ربَّياني بعد وفاة والديّ. ولولاهما (لولاه هو بالتحديد) لكانت حياتي أصعب بكثير. على أيِّ حال، لا أعرف لماذا أخبرك بكلِّ هذا. أعتذر جدًّا عن سلوكه هذه الليلة».

فتقول نين بلطف: «لا، لا تعتذري عن سلوك الآخرين».

تنتظران فتح البوابة الإلكترونيَّة، وحين تُفتح، تقفان جنبًا إلى جنبٍ على الرصيف، تشاهدان سيَّارة أجرة سوداء تدخل الشارع المصطَفَّ بالأشجار، تسير نحوهما ببطء.

«كانت أمسيةٌ جميلة. شكرًا على دعوتي». تُخرج نين علبةً صغيرةً من حقيبتها. «لم أجد فرصةً لتقديمها لك. عيد ميلاد سعيد!».

فتقول زليخة: «أوه، كلَّفتِ نفسك. شكرًا لك».



فتضع نين يديها في جيبَيْها. «تذَكَّرْتُ شيئًا الليلة، إن كانت لديك عشر ثوانٍ لسماع قصَّة».

- «بالأكيد».

- «حين جئتُ إلى لندن أوَّل مرَّة، أهداني إخوتي سمكة تتره [رباعيَّة الأجنحة]. أسميتها كي أنغ، ومعناها بالسومريَّة «يحبّ». لم أكن أعرف الاسم، فاستخدمتُ الفعل. على أيِّ حال، كانت كي - أنغ لطيفةً جدًّا، لكنِّي قلتُ في نفسي لا بدَّ أنَّها وحيدة، فاشتريتُ سمكةً أخرى تكون معها. ظلَّت الأمور على ما يرام فترة، وكبرت السمكة الثانية، لكنني ذات صباحٍ وجدتُ سمكةً واحدةً فقط في الوعاء. كان الحبُّ قد اختفى».

تتوقَّف سيَّارة الأجرة أمامهما، ويطلّ السائق برأسه من النافذة، مومئًا باتِّجاههما.

فتسألها زليخة: «هل كانت السمكة الأخرى من نوع سمكة الملاك؟».

- «نعم. تعرفين كيف تسير هذه القصص. لكنني لم أكن أعرف. تبين أنَّه لا يمكنك الاحتفاظ بالسمكتين معًا فترةً طويلة، لأنَّ سمكة الملاك ستلتهم التتره غالبًا».

تسيران نحو السيَّارة. وتفتح نين الباب لزليخة. «خطر لي الأمر الليلة فقط... أنني لم أعطِ السمكة الأخرى اسمًا. ولكن لو كان لي أن أسميها الآن، لأسميتها «الامتان».

تدخل زليخة السيَّارة، وتنظر إلى نين من النافذة المفتوحة. «تريدين القول إنَّ الامتان يبتلع الحب».

«نعم، إذا كان أكبر من اللازم». نظرةٌ نين ثابتةٌ لا تتراجع.  
«اعذريني. لا أقصد التدخل في حياتك الخاصة. كلّ ما أقصده  
هو أنّ الإنسان يحتاج إلى الحذر من سمكة الامتنان. هذا ما  
تعلمته ودفعْتُ ثمنه».

\*\*\*

وبينما تطوفُ سيّارة الأجرة في شوارع لندن مسرعةً باتجاه  
البيت العائم، تفتح زليخة العلبة. في داخله قلادةٌ مصنوعةٌ من  
قطعةٍ مسنونةٍ مخدوشةٍ من اللازورد، جميلةٌ بعيوبها. ومعها  
رسالة:

وجدتُ هذه القطعة السماوية الزرقاء مدفونةً في طين النهر.  
من يدري كم عمرها، ومن أين جاءت. مسافرةٌ غامضةٌ عبر  
الزمن، في الماء. قلتُ لا بدّ أن أحولها إلى قلادة... لك.  
عسى أن تجلب لك الفرحة والوضوح والحبّ.

نين

-O-

آرثر

بجوار نهر دجلة، 1872

يقف آرثر على تلٍّ في نينوى، يحجب عينيّه عن الشمس،  
يرتشف من مطّارةٍ مثبّتهٍ حول صدره. الماء دافئٌ وطعمه مائلٌ إلى  
المرارة قليلاً، لكنّ ذلك لا يزعجه. الأرضُ المتشقّقةُ الشاحبة  
مليئةٌ بالخنادق والحفر التي نبشتها فِرْقٌ سابقةٌ من علماء الآثار.  
كُدّست أطنانٌ من الأنقاض جانباً، فأصبحت تلاً صناعياً ثانياً.  
كان الأهالي يهدمون بعض الجدران القديمة من وقتٍ إلى آخر،  
فتكون الحفرة مقلعاً لهم لاستخراج الحجارة من أجل منازلهم.  
وهكذا بات كلُّ شيءٍ في فوضى عارمة. من الجنون المحض أن  
تبحث في هذه الفوضى عن جزءٍ من قصيدة.

هناك ثلاثون رجلاً تحت إشرافه، بعضهم ينقّب، وآخرون يزيلون الحطام. يبدوون في الصباح الباكر، مع شروق الشمس. هذا هو الوقت الذي يحبه آرثر أكثر من غيره. إيقاع مجارفهم ومعاولهم يخترق الهواء، صوتٌ ثابتٌ يذكّره بهدير قطارٍ مسرع. وفيما عدا استراحةً قصيرةً للقهوة، يستمرّون في العمل، والعرق يتساقط على رقابهم السمر وأذرعهم المفتولة. ينسحب آرثر خلال الغداء إلى خيمة مؤقتة لا تفيد كثيراً في حمايته من البعوض أو الحرارة القاسية، ويدرس الألواح. وحين تغرب الشمس، يستأنف العمل. إيقاع العمل مرهق، وقد راوده القلق من أن المال الذي أُعطي إياه لدفع أجور العمّال سينفذ عمّا قريب. في المساء، يعود إلى القرية اليزيدية وقد هدّه التعب والعطش.

ذات مرّة، ينظر آرثر من باب الفضول في جحرٍ تركه ثعلب الفنك، ليجد في الأسفل بقايا حوض قواربٍ قديم. تحت هذا المشهد الطبيعيّ القاحل، ثمة هياكل عظمية لقوارب غارقة وصيادين أقوياء. الموانئ المنسية منذ زمنٍ بعيدٍ تغطّيها الآن طُرُق القوافل، تطؤها الحوافر وتبليها عواصف الغبار. السفن التي نقلت شحنات الحبوب والتين والجواهر ترسو وتظلّ ثابتة فيما تبقى من الزمن. إذا أخذت حفنة من رملٍ وتركتها تجري بين أصابعك، سمعت تنهّادات الأشرعة وأناشيد البحّارة. ما زالت روح الماء حيّة، تحت الصحراء العارية.

حين اكتُشف قصر آشوربانيبال أوّل مرّة، بغرفة التي تصل إلى المئات، وجدرانها المزينة بمشاهد صيد الأسود والعربات المتسابقة، كانت التماثيل والنقوش البارزة هي التي جذبت انتباه

الجميع. أمّا الألواح فلم تجذب اهتمام العامة إلا قليلاً. وعلى الرغم من أنّ بعض العلماء تحمّسوا لتلك الألواح الطينية المكسورة، وذهبوا إلى أنّه سيأتي الوقت الذي تجد فيه تقديرًا أكبر من التماثيل نفسها، فإنّه لم يصدّقهم أحد. وفي حين أنّ الصور كانت تقرّب الماضي، بدا نظام الكتابة المنقرض بلا قيمة، فاحتفظت المكتبة بأسرارها. وهذه هي الأسرار التي بصر آرثر الآن على الكشف عنها.

ومع ذلك، فقد بدأ يشعر أيضًا بأنّ الكشف عن قصيدة منسية لا يعني إنقاذها من النسيان بالضرورة. فهو مصدومٌ وحزينٌ لمعرفة أنّ العديد من القطع الثمينة قد فُقدت أو دُمّرت بالخطأ في الماضي. كانت حفريات الفرق البريطانية السابقة فوضويّة في بعض الأحيان، وتعرّضت القطع الأثرية لأضرارٍ لم يكن لها من داع، وفُقدت عيناتٌ قيّمة، اختفى بعضها في بومبي في طريقه إلى إنكلترا. أمّا الألواح فلم يجرّ التعامل معها بما تستحقّ من عناية، فألقيت في سلال، وشُحنت بحرًا على طوافات، وتعرّضت لأضرارٍ لا يمكن إصلاحها.

عملت دولتان أوروبيّتان في التنقيب في المنطقة نفسها عقودًا من الزمن، جنبًا إلى جنب ولكن في منافسة شرسة. الفرنسيّون إلى الجنوب، والبريطانيّون إلى الشمال. وحين تتغيّر الريح، تحمل أصوات فريقٍ منهما إلى الآخر. وإذا توقّف العمل في موقع واحد، غالبًا ما ينزعج أصحاب الموقع الآخر؛ لأنّهم عادةً ما يتوقّفون عن العمل حين يحققون اكتشافًا مهمًا.

كانت المجموعات هذه تصادف بعضها بعضًا أحيانًا، بتحيةٍ

مدنيّة، وابتساميّة متوتّرة، وعداءٍ غير خفيّ. ذلك أنّهم كانوا يتسابقون ليكونوا أوّل من ينقل آثار بلاد الرافدين إلى أوروبا. كان الناس في باريس ولندن ينتظرون. ولم يقتصر الاهتمام على الجمهور والصحف، بل حتى الملكة فكتوريا نفسها كانت مفتونةً بالآثار الآشوريّة، لدرجة أنّها أمرت بصنع مجموعة من المجوهرات المستوحاة منها. وكانت المفضّلة لديها قطعة زرقاء أسمتها «دبّوس نينوى». كم كانت تحبّ لونه، وانعكاس الضوء عليه! ثم أهدتها الإمبراطورة يوجيني في زيارةٍ إلى فرنسا، في رسالةٍ ضمنيّةٍ تعني أنّ البريطانيين أصبحوا الآن منافسين لهم.

وهكذا، ففي يومٍ مثل هذا، كان الفريق الفرنسيّ يسرع لإرسال غنائمه من نينوى إلى باريس. نُقلت القطع الأثريّة على بارجاتٍ خشبيّةٍ محمولةٍ بجلود أغنام منفوخة، وأُرسلت من الموصل إلى البصرة، حيث كان من المقرّر نقلها إلى سفنٍ أكبر. ومن بين البضائع الثمينة أربعة تماثيل ضخمة: جنّيان ولاماسوان. ربّط هذان الأخيران بالطوّافات، وسافرا منفصلين. لقد حملت المراكب النهريّة في المجمع أكثر من مئتين وخمسة وثلاثين صندوقًا تحتوي هذه الصناديق على ثلاثين طنًا من غنائم بلاد الرافدين. لكنّ اللصوص هاجموهم في الطريق بين بغداد و«القرنة». انقلب قاربٌ واحد، وصعد اللصوص إلى القوارب الأخرى، وقتلوا طواقمها. أُلقيت الجثث في المياه، وارتفع نهر دجلة وهدر، جاريًا بسرعةٍ أكبر. في غضون ذلك، استولى اللصوص على الدفّة، وحاولوا توجيه السفن في الاتجاه المعاكس، لكنّهم فقدوا السيطرة. وهكذا غرقت الصناديق المليئة

بآثارٍ لا تقدّر بثمنٍ في قاع النهر. ما تزال هناك في مكانٍ ما. لقد أخذها دجلة، ولم يُعدها.

الآن، وبينما يجوب آرثر هذه الشواطئ، يتساءل أين هي، رغم أنّه يعلم ألاّ جدوى من السؤال، فقد جرفتها التيارات ويستحيل تحديد مكانها، ناهيك عن إنقاذها. في أعماق دجلة توجد عمالقةٌ حجريّةٌ (من بشر، وثيران، وطيور) تستريح على قاع النهر الطيني، وعيونها مفتوحةٌ على اتّساعها بينما تغسلها المياه.

وصل كثيرٌ من الرّحالة الغربيّين إلى نينوى بإحساس التفوّق، غير أنّ المكان له تأثيرٌ معاكسٌ تمامًا على آرثر. فهو يشعر بارتباكٍ وتواضع. في كلّ صباح، حين يمشي المسافة من القرية اليزيديّة إلى التلّ الذي كان ذات يوم نينوى، ينشغل ذهنه بالأطلال تحت قدميه. البقايا. ترى ما الذي يتبقّى منّا حين نرحل، سواء كنّا ملوكًا أم عبيدًا أم كتّبة؟

للإمبراطوريّات أسلوبٌ في خداع أنفسها، حين تعتقد أنّها ستدوم إلى الأبد بسبب تفوّقها على الآخرين. فهناك توقّع عامٌّ بأنّ الشمس ستشرق غدًا مرّةً أخرى، وتظلّ الأرض خصبة، والماء لن يجفّ أبدًا. محضٌ وهم مريح بأنّ المباني التي نشيّدُها، والقصائد التي نؤلّفُها، والحضارات التي نُقيمها، ستبقى رغم أنّنا سنموت جميعًا.

يعلم آرثر أنّهم كانوا يخافون الموت، حتى أقوى الحكّام. فهو الشيء الوحيد الذي لم يكن لهم سيطرةٌ عليه. كما يعلم أنّه

في مكانٍ ليس بعيدًا من هنا، في يومٍ مثل هذا قبل آلاف السنين، اصطفتُ الناسُ من جميع الأعمار في الشوارع كي يشاهدوا جنازة ملكٍ من بلاد الرافدين. كانت زوجة الملك الأثيرة في مقدّمة الموكب، مع الزوجة الأصغر، وابنه المفضّل، وحلّاقه، وحقّائمه... وفي رفقتهم كذلك حاشيةٌ من الجنود، والخدم، والموسيقيّين الذين يحملون القيثارات بأنواعها، وأعضاء البلاط، في ملابس متألّثة مزينةٌ بالعقيق واللازورد. ساروا جميعًا في صمت، وكلٌّ منهم يحمل كأسه الصغيرة.

فلمّا وصلوا إلى المكان المخصّص للقبر الملكيّ، شربوا السمّ من كؤوسهم واحدًا تلو الآخر. كان من المقرّر أن يُدفنوا جميعًا في القبر نفسه، حتى يبقى مع الملك حلّاقه وخدمه وموسيقيّوه وحقّائمه في الحياة الآخرة. في ذلك المساء، انتحروا جميعًا كما كان مرثبًا، ببساطةٍ حتى لا يُضطرّ رجلٌ معتادٌ على السلطة أن يواجه الفناء وحده.

بدأ آرثر يشكّ في أنّ الحضارة هي اللفظة التي نطلقها على القليل الذي أنقذناه من خسارةٍ لا أحد يريد أن يتذكّرها. تُقام الانتصاراتُ على سقالاتٍ هشةٍ من وحشيّةٍ لا تُروى، وتُنسج الأساطيرُ البطوليّة من خيوط العدوان والفظائع. كان نظام الريّ إنجاز نينوى المتألّق، ولكن كم من الأرواح أهدرت في بنائه؟ هناك دائمًا جانبٌ آخر، جانبٌ منسيّ. كان الماء أكبر مقدّرات المدينة وميزتها الفارقة، لكنّه كان أيضًا ما قوّضها في النهاية. فقد تلفتُ التربةُ من كمّيّاتٍ كبيرةٍ من الملح التي رسّبتها السيول والمدّ. الأنهار نفسُها ارتفعت، ودمّرت. في بعض الأحيان، قد



تصبح قوّتك الكبرى أسوأ نقاط ضعفك.

يعود آرثر في كلّ ليلة إلى القرية اليزيديّة، محمّلاً بالمزيد من الأسئلة. يحبّ تلك القرية. يحبّ الأطفال بأعينهم الواثقة، والشيخ بحكمته الهادئة، وديشان بذكائه الحادّ، وفوق هؤلاء كلّهم يحبّ الفقرا، بتلك السكينة العميقة الغامضة التي تندفّق حولها مثل نهرٍ سرّيّ... هناك من يقول إنّ اليزيديّين مسلمون مهرطقون أو مسيحيّون مرتدّون. ويدّعي آخرون أنّهم يهودٌ مارقون، أو طائفةٌ زرادشتيّةٌ غريبةٌ ضاعت في طبّات التاريخ. ويصرّ البعض على أنّ نظام الطبقات الموجود لديهم لا بدّ أنّه مشتقّ من الهندوسيّة. وثمة افتراضٌ واسعٌ بأنّ اليزيديّين نسخةٌ مزيفةٌ من معتقديّ أصيل، فرعٌ ضالّ. لكنّ آرثر لا يوافقهم على ذلك. يبدو له أكثر فأكثر أنّ نسبهم المتجذّر في التربة كالأشجار المحليّة يمكن في الواقع تتبّعه إلى زمن القدماء في بلاد الرافدين.

يريد أن يدافع عنهم ضدّ كلّ تشهيرٍ وتشنيع. فتشويه سمعة اليزيديّين لا يقتصر على القبائل المحليّة المسلمة. إذ يكتشف آرثر أنّ مبشّراً من الكنيسة الأنغليكانية وصل إلى هنا قبل بضع سنوات ادّعى أنّ «فجوراً عظيماً يسود سرّاً» بينهم. وآرثر متأكّد من أنّ الرجل يهرف بما لا يعرف، لكنّ الضرر ما إن يقع حتى لا يمكن محوه. وكلّما وجد آرثر وقت فراغ، يتحدّث مع الشيخ، أو يتعلّم من ديشان كيفيّة تعليق خيوط الغزل المصبوغة حديثاً على حائط، أو يساعد امرأةً مسنّةً في وضع أكوام من صوف الأغنام الرقيق كي تجفّ في الشمس، أو ينحت طيوراً خشبيّةً للأطفال. لو كان

والده هنا، لكان سعيدًا برؤيته يستخدم حرفته أخيرًا. أمّا مواهبه الخاصة فلا تعني الكثير لأهل القرية. يعتبرونه رجلًا لطيفًا غريب الأطوار، ينحني فوق علاماتٍ غير مقروءة. ورغم أن آرثر يستمتع بهذه الأنشطة كثيرًا، فإنّه لا يوجد شيءٌ يضاهي قضاء الوقت مع الفقرا. فلدى ليلى قدرةٌ رائعةٌ على العزف على آلات النفخ والإيقاع. يهديها آرثر القانون الذي أحضره من القسطنطينيّة، فترفض في البداية، إذ يمنعها اعتزازها من قبول هدايا من أجنبيّ، لكنّها تغيّر رأيها حين ترى لهفة الأطفال على سماعها وهي تعزف. وهكذا بات آرثر يعمل في غرفته أيامًا عديدة، يستمع إليها وهي تنقر الأوتار برفق، مفتونًا بقدرتها على الانسجام العميق مع الموسيقى. لا يملك آرثر إلّا أن يلتفت إلى ليلى كلّما كانت حوله، وكأنّها زهرة عبّاد الشمس التي تنمو على طول الضفّة، فتميل رأسها نحو أشعّة الضوء الأولى. يُعجب بعزيمتها الهادئة، ويبتسم حين يراها تبتسم. ثمّة رقّةٌ في قوّتها، ولطفٌ في حركاتها. يراقبها وهي تقدّم أوراق التوت لليرقات التي ستحوّل قريبًا إلى فراشات، بكلّ محبّة.

غالبًا ما يجتمع أهل القرية في المساء للاستماع إلى الفقرا. إذ تروي حكاياتٍ من الأزمنة الغابرة، حكاياتٍ قديمةٍ قدّم النهر نفسه. فبينما يرفرف العثّ حول الفوانيس، تتحدّث ليلى بصوتٍ هادئٍ واضح، إذ تسمع أصواتًا من عوالم أخرى. ومهما حاول آرثر أن يتابع كلّ كلمةٍ يقولها المترجم، إلّا أنّه واثقٌ من أن أجزاءً مهمّةً تفوته. ومع ذلك، فما يسمعه يُبقّيه متلهّفًا لمعرفة المزيد. معظم حكايات الفقرا تدور حول الماء بشكلٍ أو بآخر. ولمّا كان

آرثر متلهفًا على دخول عالمها هذا، فقد بدأ في دراسة اللغة الكردية، ووجد قدراته القديمة على التقاط اللغات تتجدد بسرعة. لا يريد أن يفوت شيئًا مما تقوله ليلى. وإذ كرّس حياته لنشر الكتب، ثم ترجمة الخطّ المسماريّ، يُثير فضوله الآن أنّ اليزيديّين ليس لديهم كتاب مقدّس. يدهشه للغاية أنّ ثقافة يمكن أن تستمرّ بالكلمة المنطوقة وحدها. يبدو أنّ الحكايات والقصائد والأغاني هي الملاط الذي يجمع بينهم، ويبقيهم على قيد الحياة. في ليالٍ كثيرة، يعمل آرثر على دراسة الألواح الطينية على ضوء مصباح زيتيّ، لكنّ جزءًا منه يظلّ ينتظر أن يسمع خطوات ليلى. فكثيرًا ما تسير في نومها، لكنّها لا تبرح القرية أبدًا. وفي هذه اللحظات دائمًا ما يغمره إحساسٌ بالنعمة، وكأنّ وجودها ضربٌ من ضروب البركة. حتى عندما يكون عقله منشغلًا بفكّ شفرة الخطّ المسماريّ، تظلّ حواسّه متنبّهةً على أصغر الإشارات، كصوت انكسار غصنٍ تحت قدميّها وهو يندمج مع أمواج دجلة المتلاطمة في البعيد. تمتزج الأصوات بسلاسة، فيكاد يعتقد أنّها تمشي إلى النهر، بل إنّها هي نفسها قُدّت من الماء الجاري.

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

يقتلون الماء أولاً. في هذه الأرض التي تُعدُّ الأنهار فيها مقدّسة وكلُّ قطرة مطرٍ نعمة، يتسلّلون في جوف الليل ويسمّمون كلّ الآبار والقنوات والنوافير في القرية. في صباح اليوم التالي، يستيقظ سكّان زيراف على منظرٍ مروّع. ألواحٌ خرسانيّة، وحطامٌ معدنيّ، وأكياس مبيداتٍ أُلقيت في كلّ موردٍ للماء.

يتطوّع عدّة رجالٍ للمشي إلى القرية اليزيديّة المجاورة طلباً للمساعدة، فيكتشفون أنّهم هم أيضاً تعرّضوا لدمارٍ مماثلٍ وهم في حاجةٍ ماسّةٍ إلى أيّ عون. لا يوجد ماءٌ يصلح للشرب إلّا على بعد كيلومترات. تقرّر المجموعة (التي زاد عددها) أن تذهب لتفقد

جيرانهم المسلمين. يُفاجئون حين يرون أن آبارهم لم تُمسّ. لقد أفسدوا الماء في القرى اليزيدية وحدها. تشفق بعض العائلات عليهم، لكن آخرين يغلقون الأبواب في وجوههم، قائلين إنهم لن يساعدوا وثنيين. في النهاية يعودون ومعهم بضعة أوعية ممتلئة. وإذا هدّتهم الحرارة، يشربون قليلاً في طريق العودة، ويحفظون الباقي، فأحبّاءهم يعتمدون عليهم.

يمرّ ما تبقى من النهار في بطءٍ مؤلم، والشمسُ كرةً من غضب. في وقتٍ لاحقٍ من العصر، تخترق خطوط السحب السماء، لكنّ المطر لا يتحقّق. يحاول أهل القرية تنظيف الآبار قدر المستطاع. يزيل الأطفال الحجارة، ويجرّ الرجال ألواح الخرسانة، وتستخدم النساء مناديلهنّ لتصفية الحطام.

في الماضي كان لديهم النهر يعتمدون عليه، لكنّ دجلة ملوّث أيضاً. يستولي حماسٌ كثيبٌ على الجميع. هناك شيءٌ يكاد يكون تدينيساً للمقدّسات في مشاهدة الماء النظيف وهو يُلوّث عمداً.



بعد يومين، يعود العدو، ولكن ليقتل الأشجار هذه المرّة. دائماً ما يأتون في الليل، متستّرين بالظلام، يشعلون النار في بساتين الزيتون، محوّلين حقولاً بأكملها إلى أراضٍ مقفرة من الجذوع المتفحّمة. يكسرون الأغصان، ويفسدون الثمار. يحرقون الشجيرات ويقتلعون الشتلات الرقيقة.

منظرٌ محزنٌ أن ترى شجرةً واحدةً تشتعل في مواجهة

السماء. لكنَّ بساتين بأكملها تلتهمها النيران، وما إن تلمحها حتى تظلَّ موسومةً في ذاكرتك إلى الأبد. مع بزوغ الفجر، تجلس نارين إلى جانب النافذة، تراقب طائرًا في الخارج. سَمَامَةٌ تبني عشًا في شقٍّ على الجدار. تحمل العصفورة الصغيرة عيدانًا وقشًا، فتنحت بإصرارٍ مساحةً خاصَّةً بها. تشاهد نارين هذا المنظر، فيثير فيها حزنًا أكبر من أيِّ حزنٍ آخر، إذ تدرك أنَّ الحياة تستمرّ رغم تعرُّضهم لتلك الكراهية والعداء. تظلّ تعودُ في ذهنها إلى السؤال المخيف نفسه، مثل ضرسٍ مؤلم لا تستطيع التوقُّف عن دفعه بطرف لسانها: هذا العدو الذي يسمُّ الماء ويحرق الأشجار، ماذا تُراه سيفعل بالبشر؟ من الجيّد أنَّ والدها ليس هنا. سيكون أكثر أمانًا في بغداد. لكنَّها تعرف أيضًا أنَّه إذا حدث شيءٌ لها ولجَدَّتْها، فلن يسامح نفسه أبدًا. ترتجف نارين، رغم أنَّ اليوم حارٌّ لدرجة أنَّها تشمُّ رائحة المشمش المسحوق المتعفُّن في الحديقة. رائحةٌ تعفُّنٌ مقرَّزة.

\* \* \*

يتَّصل أبوها في ظهيرة اليوم التالي. يقول إنَّه بينما كان يقود سيَّارته شمالًا بعد عزفه في حفل زفاف، ألقي القبض عليه عند نقطة تفتيشٍ واحتُجز دون توجيه تهمةٍ له. يبدو متعبًا فاتر الهمَّة، لكنَّ ذلك يتغيَّر فورًا عندما تخبره نارين بما يحدث في القرية.

- «سمِّموا الماء؟».

- «نعم، وأحرقوا الأشجار أيضًا. هل تعرف من الذي يفعل هذا؟».

- «لا أعرف. لا بدَّ أنَّهم بعض المتطرِّفين».

- «جدَّتني قلقَةٌ جدًّا. لا تنفك تصلِّي. متى ستعود؟».

- «أنا في الطريق». يسكت خالد، ثم يكمل. «آسف، لم أكن أعلم بما حدث. سأصل سريعًا». ثم يسكت سكتةً أطول. «ربَّما من الأفضل أن نعود إلى حصن كيفا».

- «ولكنَّ ماذا عن تعميدي؟ كنَّا سنزور وادي لالش الأسبوع المقبل. وقد أعددتُ ردائي».

- «أعرف يا حبيبتي، لكنَّ... هذا المكان لا يبدو آمنًا». يتنحج، وهو يُدرك أنَّه لا ينبغي أن يشير قلق الطفلة دون داع. «لا أتوقَّع أن يفعل هؤلاء المتطرِّفون شيئًا أخطر. لا يملكون القوَّة لذلك. هم يحاولون تخويفنا ليس إلَّا. هذا ما يفعله المتنمِّرون. ولكنَّ لا تنسي، هناك قوَّاتُ كرديَّةٌ مسلَّحةٌ تحرس كلَّ قريةٍ يزيديةٍ. ستحميكم البشمرگة. لا داعي للقلق. ستكونين في أمان».

فتقول نارين وهي ترفع رأسها، تتظاهر بشجاعةٍ لا تجدها في نفسها: «لستُ قلقة».

- «أحسنِ يا ابنتي».

تضغط نارين سماعة الهاتف على أذنها اليمنى، التي تسمع بها. «ما زلتُ أسمع صوت رنين. وبدأتُ تؤلمني مرَّةً أخرى».

- «صحيح؟ سآتي وأقبلها لكي تتحسن».

- «تقول جدَّتني إنَّه من الشؤم أن تقبَّل أحبابك على أعينهم أو أذانهم. فذلك يعني الوداع».

- «جدَّتكَ امرأةٌ حكيمة، لكنَّها ليست دائمًا على صواب».

تحبس نارين أنفاسها، وهي تشعر بالنبرة الخفيفة في صوت والدها. أترأه يلوم جدتها على إصرارها على السفر إلى العراق هذا الصيف؟

- «هل أنت نادٍ على المجيء إلى هنا يا أبي؟».

فيقول خالد بسرعة: «لا، لا. لكنني أعتقد أنه من الأفضل تقصير الرحلة والعودة إلى الديار. على أي حال، سنتحدث حين أصل. سأصل إليك غدًا».

لكن والدها لا يتمكن من العودة في اليوم التالي. ولا بعده. الطرق مغلقة، ويُجبر على اتخاذ مسارٍ طويلٍ للوصول إلى زيراف. سيُضطر إلى البقاء ليلةً أو ليلتين في قريةٍ يزيديّةٍ أخرى. عليه أن يكون حذرًا، فهناك شائعاتٌ عن اختطافات. ولكن من الصعب تقدير المدى الحقيقي لهذا الخطر. يُقال إنَّ اليزيديين، والمسيحيين، واليهود، والمندائيين، والمسلمين الذين يُدينون المتطرفين علنًا، كلهم في خطر.

في الوقت نفسه، تجلس الجدّة إلى جانب المذيع، تستمع إلى الأخبار بملامح مضطربة. لم تنم جيدًا منذ أن لوّثوا الآبار. تتجوّل حول القرية في ساعاتٍ غريبةٍ من الليل، وبالقرب من الأشجار المحترقة آناء النهار، توجّه وجهها نحو الشمس، تتنبّه على صفير الريح عبر القصب. تتساءل نارين في ذهنها عن الذي تسمعه ولماذا لا تُطلعها عليه.



في صباح اليوم التالي، تصعد الجدة على السطح، كالمعتاد، تؤدّي صلاة النهار الأولى. يتوقّف تنفّسها في صدرها وهي تشعر أنّ هناك خطبًا ما. ثم تعرف. تعرف أنّ القوّات الكرديّة التي تحمي القرية غير موجودة في أيّ مكان. لقد ذهبوا جميعًا. لقد رحل البشمرگة، «أولئك الذين يواجهون الموت»، حاملين أسلحتهم معهم.

تصل الأخبار بأنّ ثمانية عشر ألف جنديّ كرديّ في نينوى وحدها قد انسحبوا في ليلة واحدة، تاركين اليزيديّين وحدهم عاجزين. يضغط الخوف على قلوبهم باردًا وثقيلًا، مثل آلة لسفرة الخشب. يناقشون ما ينبغي فعله بنبرات متوتّرة، ولكن من المستحيل معرفة ذلك في غياب المعلومات الموثوقة. ما التصرف الآمن الآن: البقاء أم الذهاب؟ ماذا لو كانت هذه فرصتهم الأخيرة للهرب؟ ولكن، ماذا لو كان فحًا لدفعهم إلى مغادرة القرية حتى يستولي آخرون على منازلهم وأراضيهم؟ تتشاجر الأسر، ويقع الأصدقاء في خلاف. في النهاية، يقرّرون رفع أعلام بيضٍ على النوافذ، والانتظار.

\*\*\*

في القرية التي ينوي خالد أن يقضي فيها ليلته، تسير ثلاث شاحنات في الطريق، تُثير سحبًا من غبار. تدخل المركبات المدجّجة برشاشاتٍ ومسلّحين متّشحين بالسواد الشارع الرئيس، تزمجر محرّكاتها، وإطاراتها تصرخ. غطّى المسلّحون وجوههم بأقنعةٍ كيفما اتّفق، وجميعهم يحملون بنادق نصف آليّة.

- «اخرجوا من منازلكم الآن!».

هناك رجلٌ قصيرٌ ذو لحيةٍ قصيرةٍ وشعرٍ بلون القش، يبدو أنه من يعطي الأوامر. لا يتحدث الكردية أو العربية. إلى جانبه شخصٌ يترجم كلامه. يتعرّف خالد (من مكانه خلف النافذة) على ذلك الشخص الذي يساعد المتطرفين. إنه الحاج عامر. رحب خالد بهذا الرجل في العديد من حفلات الزفاف والاحتفالات، وتقاسم الخبز معه، وتبادل الحكايات، واعتبره صديقًا موثوقًا به طوال هذه السنوات. هذا الرجل الذي يصرخ الآن عبر مكبر الصوت، «أحضروا نقودكم، وهواتفكم المحمولة». يفيض صوته بشيء قريب من الإثارة. يبدو أنه يستمتع بسلطته الجديدة. «خواتم، أساور، ساعات، قلائد، أقراط... أي شيء ذا قيمة! سلّموها كلّها!».

الأسر مذعورةٌ خلف الأبواب المغلقة، خائفةٌ جدًا من التحرك.

- «إذا فعلتم ما تؤمرون به، لن يصيبكم مكروه. ستتركون أغراضكم وتعودون إلى منازلكم. أمّا إذا أخفيتم شيئًا، فسوف نجده ونعاقبكم جميعًا».

هكذا، تُفتح الأبواب، واحدًا تلو الآخر، وتظهر وجوه خائفة. يحمل الرجال هواتف، ونقودًا، حتى الأساور الذهبية التي قدّموها لزوجاتهم في الزفاف.

- «لا تنسوا أوراق الهوية، وبطاقات الائتمان، ومفاتيح السيارات... أحضروها كلّها! لا تخافوا. الدولة الإسلامية تضمن لكم سلامتكم».

يجرّ خالد نفسه خارج المنزل بهاتفه المحمول ومحفظته وجواز سفره. أخفى هاتفه التركيّ داخل جوربه، وبات يتحرّك الآن ببطء، كأنّه يخوض في الماء، لا يحوّل نظره أبدًا عن صديقه القديم. لم يره الحاجّ عامر بعد. ظهره إلى خالد وهو يهرول هنا وهناك، ينقل تعليمات المسلّحين بحماس.

- «قلتُ الجميع! النساء والأطفال أيضًا. لا يجوز لشخصٍ واحدٍ أن يبقى. اخرجوا كلّكم!».

تلقي الأسر مقتنياتهما الثمينة على بَطَانِيَّة مفروشة، وتراجع خطوةً إلى الخلف. وما تلبث أن تتراكم كومةٌ كبيرة، من وثائق وكنوز، تلتقط حوافها الزجاجيّة وأسطحها المعدنيّة أشعة الشمس.

- «هل هذا كلّ شيء؟ كاذبون! ماذا لديكم غير هذا؟».

فيقول المختار، زعيم القرية: «هذا كلّ شيء. هل يمكننا أن نعود إلى منازلنا؟ الأطفال خائفون».

يقول الحاجّ عامر: «ستذهبون حين نخبركم. قبل ذلك، ستحقّق ممّا إذا كنتم تقولون الحقيقة».

ينهبون كلّ منزل، يحطّمون الأواني، يقلّبون المقاعد والمهود، يعيشون فسادًا. في مقابل ذلك، يسود الصمت في الساحة، باستثناء بكاء طفلٍ وهمسة أمّ. ينتظر أهل القرية، والخوف يشوّه ملامحهم.

- «فليتحرّك جميع الرجال والفتيان فوق الثانية عشرة إلى يميني. أمّا النساء والفتيات والأطفال الأصغر سنًا، فليبقوا هناك».

يُدِير الحاجّ عامر عَيْنِيهِ حوله، ومكَبَّر الصوت ما يزال في يده. ثم تقع نظرتَه على خالد، فيبدو مذهولًا لحظتها، مثل شخصٍ ينتقل من ضوء الشمس الساطع إلى غرفةٍ مظلمة. لكنّه سرعان ما يمحو من ملامحه أيّ أثرٍ للتعرف على خالد.

- «الخلافة [الإسلاميّة] تنظر إليكم بعَيْن الرحمة. سنمنحكم فرصةً لتغيير ديانَتكم. إذا وافقتم، لن يصيبكم مكروه. ولكن إذا رفضتم، سنطرّدكم من قريَتكم. لديكم خمس دقائق لاتّخاذ القرار».

يتقدّم خالد، فيُجبر الرجل الآخر على النظر في عَيْنِيهِ. «لا نحتاج وقتًا. لن نتخلّى أبدًا عن عقيدتنا. من المفروض أنّك تعرف هذا جيّدًا، بصفتك كَرِيفًا<sup>(\*)</sup> لصبيّين في هذه القرية. لقد حضرت زفافنا وحفلات الختان. هل نسيت؟».

ولن يعرف خالد أبدًا ما إذا كان أيّ من كلامه قد تُرجم إلى قائد المسلّحين. إذ يُجبرون جميع الرجال اليزيديّين على المسير شرقًا في صفٍّ واحد. غاب الصمتُ الآن، وحلّت محله الصيحات والصراخ.

- «تحركوا!!».

فيسألهم خالد: «إلى أين تأخذوننا؟».

---

(\*) الكريف هو الأخ بالدم، والكرافة عادةٌ يزيديّة اجتماعيّة يتآخى بها اليزيديّ مع شخصٍ آخر، وذلك حين يختار اليزيديّ شخصًا من ديانته أو من ديانةٍ أخرى يشاركه في ختان ابنه، فيحملُ الرجلُ الآخر الطفل اليزيديّ بين يديه، وحين تنزل قطرة الدم من الطفل على ثوب الرجل، يُصبح أخًا بالدم لوالد ذلك الطفل. (المترجم)

- «سنأخذكم في نزهة».

يمشون ببطءٍ عبر الحقول التي لم تُحصد بعد، والمسّاحون خلفهم، يدفعون ويضغطون على المتأخرين. ينظر خالد إلى المحاصيل المسحوقة تحت أقدامهم، من باذنجان، وفلفل، وشعير، وقمح، وطماطم... لم يكن يحبّ الباذنجان أبدًا، لكنّه إذا نجا من هذا اليوم فسيأكله بسرور.

يصلون إلى خزّان ماء، فيأمر المسّاحون الجميع بالتوقّف. عرضُ الخزّان عشرون مترًا، وارتفاعه ثلاثة أمتار، فلا بدّ أن يكون قد استُخدم يومًا لريّ الحقول، لكنّه الآن فارغ.

- «اقربوا أكثر!».

فيسألهم خالد: «تريدوننا أن ننزل إلى هناك؟». وبينما هو ينظر إلى فكّ الخرسانة الفاجر، تعبر رأسه فكرةٌ مرعبةٌ بأنّهم سيُجبرون على الدخول إلى تلك المساحة المظلمة، المحصورة، الخالية من الهواء ويحتجزون فيها.

- «كفى أسئلة، ونقذ الأمر».

يُجبر جميع الأسرى، صغارًا وكبارًا، على الصعود على الحافّة الخرسانيّة. يرتجف مراهقٌ بزغبٍ خفيفٍ على شفّته ارتجافًا شديدًا، حتى إنّهُ بالكاد يستطيع الوقوف. يمسك خالد بذراع الصبيّ ليثبّته. يحاول أن يقول شيئًا ليواسيه، لكنّ فمه جافٌ وكلّ ما يستطيع قوله هو: «اهدأ يا ولدي. هذا قدرنا. ثق بالله».

يسمعون شتيمَةً من خلفهم، أُلقيت في غضبٍ أعمى. كلمةٌ

تتكسّر في الهواء كالزجاج المحطّم.

- «كفّار!».

ينبض قلب خالد بقوة أكبر، ويرفع رأسه. عندها، يجد الحاجّ عامر يحدّق فيه مباشرة. تلتقي أعينهما لحظة. يبحث خالد في نظرة الرجل (الذي كان يعدّه ذات يوم صديقًا) عن علامة خجل أو ذنب أو حتى شفقة، أيّ شيء. ولكن لا شيء على الإطلاق. نظرة فارغة مثل الخزّان من تحتهم.

- «أطلقوا النار!».

يفتحون النار دفعةً واحدة. وهم يصرخون «الله أكبر». يطلقون النار على أربعة وستين رجلًا وصبيًا يزيدًا أعزل. تسقط الأجساد واحدًا تلو الآخر في الفراغ.

فيصيح أحد الرجال: «ما يزال بعضهم حيًّا! صوبوا على رؤوسهم».

يستغرق الأمر دقيقتين ونصف لا أكثر، لإعدام أربعة وستين إنسانًا. مدّة وصول قطرة مطرٍ إلى الأرض.

\*

داخل الخزّان باردٌ جدًّا. رائحةٌ حامضةٌ تتخلّل الهواء، من مسحوق البارود، والدم، والبول، وشيءٍ مثل التفّاح المتعفن. يتنفّس خالدٌ بصعوبة. يعرف أنّه ميّت، لا بدّ أنّه ميّت، ولكن كيف ما يزال يشمّ؟ يشعر جسده بالخدر، باستثناء ألم حارقٍ يحفر في فخذه، حيث اخترقت رصاصةٌ لحمه. من تحته وفوقه جثثٌ دافئةٌ وزلقة، تسحقه من كلّ جانب. واختفى الخوف على نحوٍ

غريب، فالرعب لم يتغلغل بعد. إنه الحزن الذي يستهلك قلبه الآن. تملؤه وحشة المكان باليأس. وأصبح خزان الماء مقبرة جماعية.

يسمع المسلّحين يضحكون. أصواتهم حادة، منتشية، واهتزاز خافتٌ يخنق كلّ الأصوات الأخرى. ثم يأتي هدير الشاحنات وهي تبتعد. يستمع، متنبّها على أقلّ حفيف، محاولاً أن يعرف ما إذا كان أيّ شخصٍ آخر قد نجا. لا أنين ولا نحيب. لا يسمع سوى طنين ذبابة فوق رأسه. يشعر بشيءٍ رطبٍ ينزل على ساقه، فيعرف أنّه ينزف. يغمض عينيه بقوة، يريد أن يبقيهما مغمضتين، لولا التفكير في نارين. ما تزال ابنته موجودة في هذا العالم المؤلم، في مكانٍ ما، وهي في حاجةٍ إليه.

يرفع خالدٌ نفسه من بين الأطراف والصدور الملتوية، سنتيمتراً تلو الآخر. يلاحظ أنّه ما يزال متشبّثاً بذراع المراهق الراقد الآن بلا حراكٍ إلى جانبه، وعيناه مفتوحتان على اتساعهما. تنفّلت صرخةٌ من شفتيه.

كان المساء قد حلّ، حين زحف خالد إلى خارج الخزان. ألمٌ حادٌ ينبض في أوصاله. يُدرك الآن أنّ هناك رصاصةً ثانيةً في داخله، عالقةٌ في مكانٍ قريبٍ من أسفل بطنه. يستلقي لاهثاً منبطحاً على الأرض بعض الوقت، يستشعر الأرض الصلبة الدافئة. يمزّق شيئاً من قميصه المغموس بالدم ويربطه حول فخذه لإبطاء النزيف.

عندها يسمع رنيناً، جرس هاتفٍ محمول. لقد نسي تماماً أنّه

ما يزال لديه في جوره. ترتجف أصابعه وهو يُخرج الهاتف. حماؤه، بسمه.

تصيح العجوز بمجرّد أن يردّ: «خالد! أوه، بارك الله صوتك. خشيتُ أن يكون قد وقع لك حدثٌ فظيع. يقول الجميع إنّ داعش قادمون. علّقنا أعلامًا بيضاء».

- «ماما - اسمعي...». يحاول أن يرفع صوته، لأنّها تقاطعه. «عليكم أن تغادروا الآن. عليكم أن تهربوا فورًا!».

- «ماذا؟ ماذا تقول؟ لدينا أعلامٌ بيض -».

- «انسي الأمر. فهم لا يهتمّون بذلك. هؤلاء قتلة. يذبحون الأبرياء».

فتصمت بسمه.

- «لا بدّ أن تهربي أنتِ ونارين. في هذه اللحظة. أخبري الآخرين. من فضلك حذّريهم، ولكن لا تتوقّفي للحديث مع الجميع. خذي ابنتي... لا بدّ أن تنقذيه».

- «إلى أين نذهب يا ولدي؟».

فيقول وهو يبّلل شفتيّهِ الجافّتين: «إلى الجبل. سألحق بكما هناك. اذهبا إلى سنجار».

ثمّة مزرعةٌ مهجورةٌ على الطريق الترابيّ. المزارع مسلمٌ سنّيٌ في منتصف العمر، يراه قادمًا ويأخذه إلى منزله. يقدّم له الماء والطعام، ويحاول تنظيف جروحه. يعلم خالد أنّ الرصاصة الثانية مغروسةٌ في أعماق جسده. تراقبهما العجوزُ والدّة المزارع من



الزاوية، وشفثاها تتحرَّكان في دعاءٍ صامت، والمسبحة في يدها. تنهمر الدموع على وجهها المجعد حين ترى معاناته. لا يتكلَّمان. يتهالك خالدٌ على الأرض، فينزلق بين الوعي وغيابه، غير واثقٍ ممَّا إذا كانوا سيأوونه أو يسلمونه للعدوِّ.

وفي وقتٍ متأخِّرٍ من الليل، يتحرَّك خالدٌ قبل بزوغ الشمس بوقتٍ طويل. كان الفلاح ينتظر عند النافذة، يراقب المكان. يحذِّره الرجل من أنَّ داعش قد هدَّت الأهالي، وقالت لهم إنَّ من يؤوي يزيديًّا أو شيعيًّا ستُقطع رأسه. أعدَّ صرَّةً فيها بعض الخبز واللبن وزجاجة ماء. عيناه موسومتان بالحزن وهو يخبر خالدًا أنَّه لا يستطيع البقاء.

## مكتبة

t.me/soramnqraa

- «نارين... يا قلبي».

تنحني الجدَّة فوق الطفلة النائمة، وتهزّها برفق. «استيقظي يا روعي».

تنهض الفتاة. «ماذا هناك؟».

- «يجب أن نخرج من هنا. لم يعد المكان آمنًا».

- «لكنَّا علّقنا الأعلام البيض. لقد قلتِ إنَّهم لن يؤذونا».

- «يقول أبوك ألا نثق بداعش، وأنا أثق بما يقوله أبوك».

تنهض نارين من سريرها بصمت، وتتبع العجوز.

ينتظرهم أقرباؤهم في سيَّاراتهم، يحملون الرضع بين أذرعهم، فيما يجلس الأطفال فوق بعضهم البعض، وأكياس الطعام والمؤن محشورةً بين أرجل الكبار. تدرك نارين أنَّ جدَّتها

لم تنم إطلاقاً، وأنها ذهبت من بابٍ إلى بابٍ تحاول أن تقنع الآخرين بالمجيء معهم. لم توافق سوى بضع أُسْر. ينطلقون بهدوءٍ في الظلام، وأضواء سيَّاراتهم مطفأة.

تسأل نارين بعد أن تركوا القرية خلفهم: «إلى أين نذهب؟».

- «إلى جبل سنجار».

عندها تتذكَّر الطفلة. سنجار، الجبل المقدَّس الذي رست عليه السفينة، وتسرَّبت مياه الطوفان من ثقبٍ في هيكلها. هناك ظهرت أفعى سوداء كبيرة وسدَّت الثغرة، فأنقذت البشرية.

- «مثل بابا نوح؟».

- «مثل بابا نوح يا حبيبتي».

بعد قرابة ساعتين من السير بالسيَّارات، يأتي مع انبلاج الفجر منعطفٌ في الطريق، تختبئ فيه شاحنةٌ لداعشٍ مجهزةٌ برشاشاتٍ ثقيلة. لا تشكُّ العائلات الهاربة في شيءٍ إلَّا بعد أن يفوت الأوان. إنَّه كمين. هنا، بهذه الطريقة، يُقتل أكثر من مئة يزيديٍّ. الحفنة القليلة التي تنجح في التسلُّل دون أذى تتعثر مبتعدة، تحمل أقرباءها المصابين. تشتعل بعض السيَّارات المتروكة، فيما تلتمع سيَّاراتٌ أخرى في الشمس مثل توابيت معدنيَّة، ومحركاتها ما تزال تدور.

فقلَّة من السائقين فقط يلمحون الفخَّ في اللحظة الأخيرة، وينحرفون عن الطريق الرئيس، يتدحرجون فوق الشقوق في الأرض المحروقة. وبضربة حظٍّ لا تفسير لها، كانت سيَّارتهم

إحداها. لا أحد يتكلّم. وجوههم شاحبة، يواصلون السير. بعد خمسين مترًا تتوقّف السيّارة، والدخان يتصاعد من غطاء المحرّك. يخرجون بسرعة، ويركضون نحو سنجار.

ينضمّ إليهم آلاف غيرهم في سفح الجبل. غبار، غبار كثيف. تمشي نارين متشبّثةً بتنّورة جدّتها. تشتدّ حرارة الأرض تحت باطن قدميّها، متشقّقة كظهر سلحفاةٍ متروك. يتسلّقون الجبل، النساء، والأطفال، والرضع بين الأذرع. ومن فوقهم شمسٌ تسفعهم بضراوة. ترتفع درجة الحرارة. ولا توجد أشجارٌ يستظلّون بها، أو ينابيع تروي العطش. لا شيء سوى أرضٍ جافّةٍ قاحلة. كلّهم يفكّرون في الشيء نفسه، ولكن لا أحد يجهر به: إلى متى سيستطيعون البقاء أحياء من دون ماء؟

يحتاج الإنسان إلى نحو أربعة لتراتٍ من الماء يوميًا. وهناك خمسون ألف شخصٍ محاصرون على جبل سنجار.

-O-

آرثر

بجوار نهر دجلة، 1872

چارشما سور. «الأربعاء الأحمر»، المهرجان الذي يرحَّب  
بالربيع ويحتفي بالبدايات الجديدة. اليوم الذي خُلِق فيه الكون من  
لؤلؤة بيضاء، وانفصل الماء عن اليابسة. وقتُ الإحياء والولادة  
من جديد. شهر نيسان / إبريل هو «عروس السنة». يغلي سَكَّان  
القرية البيض ويصبغونه بأزهى الألوان، استعدادًا للعبة الاحتفالية  
هِكَّانة. يضعون خليطًا من قشور البيض المكسورة والأزهار البرية  
والطين على مداخل البيوت. يزيّنون القبور، محتفلين بقدوم العام  
الجديد مع الأحياء والأموات.

انغمس أهل زيراف في التنظيف طوال الأسبوع. فأينما التفت  
آرثر، رأى الناس يغسلون السجّاد، ويفركون المواقد، ويكنسون

أرضيات التراب المتراص. والآن يطرق الشيخ كل باب ليوزع رغيفاً من الخبز، وخميرةً لاستخدامها عجيناً مختمراً. أمّا العائلات الأكثر ثراءً فتذبح الخراف، وتوزع اللحم على من لا يجدونه. يُذيبون شحم الحيوانات المضحى بها لصنع الشموع: چيره. تُضاء الشموع الكبيرة لله، والمتوسطة للملائكة، والصغيرة للبشر. كل هذه التقاليد قديمة راسية كالجبال.

يندهش الأطفال عندما يخبرهم آرثر أنّ العام الجديد في موطنه لا يبدأ عندما تتكَلَّل الأشجار بالزهور، وتنادي الكتاكيت من أعشاشها، وتقفز الحملان من حولها، وتُحيا الأرض، بل يبدأ العام الجديد في قلب الشتاء القارس. يبتسمون له بأدب، بالفجوات بين أسنانهم. لا يريدون أن يسيئوا إلى الإنكليزي ذي العينين الزرقاوين وعاداته الغريبة.

عند الغروب السابع، يحين وقت الاحتفال. يجتمعون داخل منزل الشيخ وحوله، يجلبون الطعام والزهور. تفوح من النوافذ المفتوحة رائحة إكليل الجبل، وزهر العسل، والمرميّة، والثوم البرّي. تُوضع على طاولةٍ سبع قطع من اللحم، وسبعة أرغفة من الخبز، وسبع عناقيد من الزبيب، مرتبةً بأناقة. يُدعى آرثر للانضمام، رغم أنّه من غير المعتاد أن يحضر الاحتفال غريب. أثر فيه هذا الأمر، إذ يُدرك أنّهم يميّزونه. ينظرون إليه كصديق. يخطر له في تلك الليلة أنّ هناك جانباً من الصداقة يشبه الإيمان. كلاهما مبنيّ على هشاشة الثقة.

ينسحب آرثر إلى زاوية، يحمل عصيراً في يده. تبدو الحياة سعيدة، ويأمل أن يجلب العام الجديد الفرح لهؤلاء الناس الذين كانوا في غاية اللطف معه. بعد قليل، تدخل ليلي الغرفة، ترتدي

ثوبًا أبيض طويلًا بحاشية حمراء وسوداء مخيطةً عبر صدرها. تحمل دُفًا، تضرب على حافته بين الحين والآخر. الليلة ستنبأ. فيُخرج الأطفال من الغرفة، إذ لا ينبغي أن يروا ذلك.

تتحرك أصابع الفقرا نحو وسط الدف، فتصل إلى قلبه. تتمايل قليلًا وهي تعزف. تحترق الشموع، فترقص الظلال على الجدران، فيما يتجمّع الظلام خارج الغرفة. لا يجرؤ آرثر على إحداث صوت، ناهيك عن طرح سؤال. يشعر أن ما هو على وشك مشاهدته طقسٌ غامض. لن يعرف أبدًا ما إذا كانوا قد نسوا وجوده في الغرفة، أم أنهم يسمحون له بالانضمام إلى لحظةٍ مقدّسة.

تبدأ ليلي بالغناء، في لحنٍ أسر، يشبه المراثية. يرتفع صوتها وينخفض باستمرار. تارةً تصبح امرأةً شابةً، وتارةً أخرى تبدو بلا عمر، مخلوقًا من ماءٍ ورغوة. تتحدّث، لكنّ حديثها ليس بالكرديّة. يشعر آرثر بشعر قفاه يقف. فالكلمات المتدفّقة من شفّتيها تشبه الأكديّة، تلك اللغة الساميّة القديمة في بلاد الرافدين. يأسره تناظرُ الحروف الساكنة. يجد نفسه مرّةً أخرى يتساءل ما إذا كان اليزيديون من نسل حضارةٍ ازدهرت في هذه المنطقة قبل آلاف السنين. ولكن ليس هناك وقتٌ للتأمّلات العلميّة. تتسارع الموسيقى، وأصابع ليلي تقرع الدف. شيئًا فشيئًا تنسلّ إلى حالة غيبوبة.

تبدأ بالدوران، بسرعة، وأسرع. ثم فجأة، تغطّي وجهها بكلتا يديها. ترتعش، وتطلق صرخة. ورغم أنّ الصرخة لا تدوم طويلًا، فإنّ الألم في صوتها شديدٌ جدًّا لدرجة أن يتردّد صدها في أنحاء الغرفة. تظهر خطوطُ القلق على جبينها. وجهها شاحب، كأنّه صُفّي من الدم. تتمتم بشيءٍ غير مفهوم، لكنّ آرثر يتعرّف

فورًا على كلمة واحدة بين الكلمات الغريبة.

- «فرمان».

ينحني آرثر في ذهول، إذ يربكه استخدامها لهذه الكلمة المألوفة. فيهمس لابن الشيخ: «ماذا تقصد؟».

- «مذبحة».

- «مذبحة؟».

- «تقول إنَّ هذا سيحدث لشعبنا. سيأتي عدو، بعضهم غرباء، وآخرون من حولنا. سيقتلون الرجال ويخطفون النساء والفتيات. تقول إنَّ قسوتهم لا تعرف حدودًا».

«لكنَّ كلمة فرمان تعني...». يسكت آرثر حين يتّضح له أنَّ الكلمة نفسها قد تعني أيضًا ترخيصًا بالقتل. رخصة لإبادة جماعة بأكملها.

\*

تُلقي ليلي بالدَف، وتسقط على ركبتيها، ترتعش بشدّة إلى أن تصطك أسنانها. تنهمر الدموع على خديها. ويندفع آرثر مرتعّبًا إلى الأمام ليمسكها، لكنَّ الشيخ يسدّ طريقه بعصاه. هناك حاجز، خطٌّ لا يمكنه عبوره. فيتراجع آرثر خطوةً بهدوء. فمهما كان الرعب الذي تنتبّه به، لا بدّ أن يسمعه.

تقول الفقرا إنَّ الفرمان حين يأتي، سيُدمر ضريح النبيّ يونس. ستُحوّل المواقع المقدّسة إلى أنقاض. سيموت الكثيرون، وآخرون سيعانون من وحشيّة يتمنّون معها لو أنّهم قُتلوا.

«أرى رجالًا مسلّحين مدرّبين، قلوبهم من حجر.

أرى قريتي تحترق، ومنزلي يُسوّى بالأرض،

أرى صرخات المسنين، وتلاًّ من عظام».

جميع من في الغرفة صامتون. بعضهم يبكي دون صوت. لا أحد يجرؤ على المقاطعة.

«حين يأتون ليقتلونا،

فرّوا إلى الجبل.

لا تقتربوا من الماء،

ولا من بئر، أو نهر».

تسكت ليلي، فلم يبقَ لديها شيء آخر تقوله. تنهضُ على قدميها، مُنهكةً مستنزفةً من كلّ العواطف. تخرج ببطء. ورغم أنّها في حالة نصف واعية، فإنّها سوف تتذكّر كلّ كلمة حين تستعيد وعيها. الذاكرة عبء، ولا أحد يفهم هذا أكثر من آرثر.

ما إن يُفتح الباب، حتى يهرول الأطفال عائدين إلى الغرفة، مسرورين بالسماح لهم بالدخول مرّةً أخرى، متلهّفين لتذوّق الطعام والانضمام إلى الأمسية. وجوههم متوهّجة، يتشبّثون بأيدي آبائهم ويسألون عمّا قالته الفقرا، وما إذا كان جيّدًا ومفرحًا. أمّا الكبار فيكافحون لإيجاد أصواتهم.

\*\*\*

في تلك الليلة، لم يذق آرثر النوم. ظلّ عقله يدور حول السؤال نفسه. لقد ازدهرت حضاراتٌ ودياناتٌ كثيرةٌ وترعرعت وذبلت في هذه المنطقة. ولكن لا بدّ أنّهم جميعًا ظلّوا يعتقدون أنّ المستقبل، مستقبلهم، سيكون أفضل من الماضي بطريقةٍ أو بأخرى، وأنّ الشمس ستوهّج أكثر غدًا وتتقلّص الظلال. لدى



اليزيديين تقليدًا راسخًا في العِرافة. كيف ينجو شعبٌ من إدراكِ مؤلم بأنَّ تاريخهم ليس مليئًا بالقمع والاضطهاد والمذابح فحسب، بل إنَّ مستقبلهم نفسه قد يأتي بالمزيد؟

في ظهيرة اليوم التالي، يجلس آرثر بجوار دجلة. الحرارة لا تُطاق، والبعوض أكثر. أنقاضُ نينوى تكسر قلبه. لم يكن هذا ما كان يتوقَّعه. فحين وصل إلى هنا، كلَّ ما تخيَّله هو أنَّ مسؤوليَّته كانت استخراج الآثار وإعادةتها إلى إنكلترا. لم يكن مستعدًّا للحزن الذي يظلل ينقر صدره مثل نسرٍ فوق جثَّة.

تغلغلت تنبؤات الفقرا في روحه. فإذا كانت صحيحة، هل يساعد ذلك حقًّا أيَّ شخصٍ أو مجتمعٍ كي يعرف أيَّ مصيرٍ فظيعٍ ينتظره؟ لقد ظلَّ آرثر طوال حياته يبذل كلَّ جهدٍ لتوسيع خبرته ومعرفته. لم يخطر له قطُّ أن يأتي عليه يومٌ يتساءل فيه ما إذا كان من الأفضل للمرء أن يعيش بريئًا، ويموت جاهلاً.

هناك شيءٌ يتغيَّر. يشعر بذلك. يراه في قرص الشمس، وتضخُّم النهر، والزقزقات القاسية وصرخات الزراير المتجمِّعة في سُبْحٍ متموِّجة. تجمَّع في الهواء، مثل نذير شؤم.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التّمز، 2018

في عصر يوم الجمعة، تغادر زليخة العمل مبكرًا لمقابلة هِلِن. تلتقيان في مقهى بحدائق «ميدان رَسَل». المكان محاط بأشجار الدلب وأزهار ذات لونٍ أصفر عميق، هادئٌ رغم هدير المدينة الذي يستحيل تجاهله.

تبدو هِلِن مشتّتة، متعبة، والخطوط على وجهها متطاولةٌ وهي تخبر زليخة أنّ الأطباء توصّلوا الآن إلى تشخيصٍ لحالة ابنتها. - «كُلّيتها. قد تحتاج إلى زراعة كُلية».

تنحني زليخة إلى الأمام، ممسكةً بيد ابنة خالها. «أوه، حبيبتى المسكينة. قلبي معك».

فتنهَارُ ملامح هِلين. «ليس من السهل إيجاد متبرِّع».

- «وما رأي خالي؟».

- «يتحرَّك في الأمر بسرعةٍ طبعًا. يُجري اتِّصالاته في كلِّ مكان. تعرفين كيف يتصرَّف في هذه الظروف. لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل من دونه».

✱

تقضيان وقتًا طويلًا في الحديث عن الأطباء والمستشفيات وعلاجات غسيل الكلى ومخاطر المضاعفات، إذا ما وجدوا متبرِّعًا مناسبًا. يقطع زوجُ هِلين رحلته ويستقلُّ أوَّل طائرةٍ عائداً. تتحدَّثان أيضًا (باختصارٍ وشعور انزعاج) عن أمورٍ أخرى: المعرض والعمل، وحديقة الزن التي تُزرع خلف منزل خالها، مع شذراتٍ من نميمة. لكنَّ كلَّ موضوعٍ آخر يعيدهما إلى البداية: زراعة الكلى.

تمدَّ هِلين يدها إلى منديل، وتمسح عينيَّها. «سامحيني على أناثيتي. لم أسألك سؤالًا واحدًا عنك، رغم أنَّ لديك مشاكلك الخاصة أيضًا».

فتقول زليخة: «لا تقلقي عليَّ. أنا بخير».

فتقول ابنة خالها وهي تتمعَّن في ملامحها: «لم أعد أراكِ تبسمين. ابتسامةٌ كبيرةٌ أقصد. لا تبدين سعيدة، وهذا يحزنني جدًّا. كنتِ سعيدةً فيما مضى، أليس كذلك؟ أعني، رغم كلِّ شيء. عندما كنَّا أصغر، كنتِ تضحكين، فتشعَّ ضحكك في الغرفة كلّها. أحيانًا أتمنَّى لو نعود إلى تلك الأيام، وذاك الشعور بالخفَّة».

تتذكّر زليخة تلك السنوات على نحوٍ مختلف، ولكن لا جدوى في الخلاف. تنظر إلى يديها، أظافرها مقضومةً إلى آخرها، والجلد حولها محمّرٌ مسلوخ. تفكّر في إخبار هِلن أنّها منذ أسابيع لا تستطيع النوم جيّدًا، حتى مع حبوب النوم، وأنّها تستيقظ متعبةً كلّ صباح، تحمل شعورًا بالفقد. لكنّها تقرّر ألا تقول شيئًا من هذا، فلا تودّ أن تضيف همومًا إلى هموم ابنة خالها.

فتقول هِلن على حين فجأة: «كانت فرصةٌ سعيدةٌ أن نلتقي بصديقتك في ذلك اليوم. أرجو ألا تكونين مصدومةً جدًّا من والدي». هو شيءٌ مُشتركٌ بينهما، ذاك التقدير للورد مالك في تعقيده البشريّ العميق رغم عيوبه، بعيدًا عن شخصيّته العامة.

– «راقنتي نين. تبدو متوازنةً جدًّا. في تصالحٍ مع نفسها».

«نعم». تُميل زليخة رأسها، تفكّر، ثم تومئ، كأنّها وصلت إلى استنتاج. «تروفتني أيضًا». مكتبة سرٌّ من قرأ

حين تغادر زليخة المقهى، يعجّ رأسها بالأفكار. يتطاير شعرها حول وجهها في الريح العاصفة. عاشت فترةً طويلةً من حياتها لا تستمتع إلا بالقليل جدًّا في هذه الحياة، يغزوها شعورٌ مقرّرٌ مُغرق، حتى وهي تمضي في روتين كلّ يومٍ جديد، وفي كلّ مهمّة. لكنّها الآن، وهي تغربل كلّ كلمةٍ من حديثها مع ابنة خالها (كيف تكافح هِلن ببسالةٍ لمساعدة ابنتها الصغيرة على التعافي)، ثمّة جزءٌ منها يشعر بالخجل من اكتئابها المستمرّ،

وكآبتها المعتادة، وأفكارها عن الانتحار. يتشبَّث الناس بالحياة، وهناك أطفالٌ صغارٌ يقاتلون من أجل النعمة التي تخطُّط للتخلِّي عنها بسبق الإصرار. يُربكها ما تعاني منه هِلين وأسرتها، ويقلب أولويَّاتها. تريد مساعدتهم، تريد أن تكون موجودةً حولهم، وتريد مساعدة نفسها أيضًا.

تلك الرغبة في إعادة التفكير في حياة الدكتورة زليخة كلارك ومسارها لا تأتي تدريجيًّا، بل في اندفاع مفاجئ، منقوص. تتعثر على بلاطة رصيفٍ مفكَّكةٍ تجمَّعت تحتها مياهُ الأمطار، فتُثَقَّر باستعدادٍ يملؤها بالدهشة أنَّها في حاجةٍ إلى التغيير.

بعد نصف ساعةٍ من ذلك، تدفع زليخة باب محلّ الوشم، فترنّ الأجراس.

يقول أخو نين: «ليست موجودة، للأسف».

- «أوه، لا بأس. سأعود في وقتٍ آخر».

ينظر إليها بفضول، ولكن من دون قسوة. «جربني المتحف. ستجدينها على الأرجح في قسم نينوى. ذاك مكانها المعتاد».

خمسٌ وخمسون خطوةً فقط من محلّ الوشم إلى المتحف البريطاني. فما هي إلَّا بضع دقائق حتى تدخل زليخة المبنى المهيب، ويقع الضوء على شعرها من زجاج السقف. لا تجد صعوبةً في العثور على نين. تجدها على مقعدٍ مع دفتر، ترسم لاماسو.

- «مرحبًا».

- «مرحبًا».

ترتدي اليوم فستانًا أحمر بزهورٍ صغيرةٍ وكَمَّيْنٍ منتفَخَيْنِ، مفكوك الأزرار من الخصر إلى الأسفل، مع سروالٍ من الجينز الأزرق الممزَّق وحذاءٍ أسود من ماركة الدكتور مارتنز. تَحَارُّ زليخة من هذه التوليفة. في المختبر، غالبًا ما تفضِّل زميلاتها القمصان الرسمية والسراويل الفضفاضة، وهو خيارها المعتاد أيضًا، فيما تحبُّ زوجة خالها وهِلين التنانير الضيقة الأنيقة والملابس المفصَّلة. كانت زليخة تفصل بين هذين العالمَيْنِ في مكانٍ ما في ذهنها: الألوان الأحادية مقابل الألوان الزاهية، والفساتين مقابل السراويل. لم تعرف قطَّ شخصًا يخلط الألوان والأنماط مثل نين، يستمتع بالمزج والتباين دون القلق ممَّا قد يفكِّر فيه الآخرون.

- «تأتين إلى هنا كثيرًا إذن. هذا ما يقوله أخوك».

- «نعم، كلَّما سنحت لي فرصةٌ كي أنسلَّ بعيدًا».

تجلس زليخة إلى جوارها، وتراقب المنحوتة القديمة لحظةً دون أن تتكلَّم. «منذ فترةٍ لم أنظر إلى لاماسو كامل الحجم. كنتُ قد نسيْتُ مدى روعتها».

فتومئ نين. «لها فائدةٌ علاجيةٌ كبيرةٌ بالنسبة إليّ».

- «حقًّا؟».

- «لا أظنَّ أنَّ طبيبًا سيرسل مرضاه إلى المتحف البريطاني، لكنَّك حين تجلسين إلى جوار شيءٍ غارقٍ في القدم، تصبح الأشياء في منظورها الصحيح. فالأمور التي تزعجك (مهما كانت)، لا تعني الكثير في مسار الزمن. أعتقد أنَّ على الجميع

أن يقضوا وقتًا مع لamasو بين الحين والآخر».

تمرّ مجموعة من السيّاح، يتنقّلون من معرضٍ إلى آخر، وتمتزج الدهشة بالإرهاق في وجوههم.

تقول زن: «هل تعلمين أنّ الأوساط العلميّة لم تكن تكثرث بكنوز بلاد الرافدين حين اكتُشفت؟ كانت بالنسبة إليهم أدنى مرتبة، إنّ قورنت بالتراث المصريّ أو الإغريقيّ. أنكروا ما بها من قوّة جماليّة. يا لها من حماقة!».

على الحائط من خلفهما نقوشٌ بارزةٌ من نينوى، تلتفت زليخة في اتّجاهها. «لا توجد نساءٌ كثيراتٌ في هذه الصور. هل كلّها عن الحرب والصيد؟»

«غالبًا ولكن ليس دائمًا. انظري إلى تلك». تشير زن بذقنها. «هنا الملك آشوربانيال وزوجته في نزهةٍ لطيفةٍ صغيرةٍ في حدائق القصر. المشهد كلّهُ مُبهجٌ جدًّا. ولكن ركّزي في الأشجار: هناك مفاجأةٌ بين الفروع. فالملك وزوجته يجلسان تحت رأس عدوّهما المقطوع. هذا ما تبقى من تيومان ملك عيلام».

تتأمل زليخة اللوحة. «كان آشوربانيال قاسيًا إذن؟».

- «كان واحدًا من أكثر الحكّام الآشوريّين وحشيّة. ويُعدّ تدميره لعيلام بمثابة إبادةٍ جماعيّةٍ في نظر العديد من العلماء».

- «ما كنتُ أتوقّع ذلك من رجلٍ عُرف ببناء مكتبةٍ مذهلة».

- «لستٍ وحدك في هذه الفكرة. لكنّه في الواقع تذكيرٌ مفيدٌ بأنّ المرء قد يكون مثقّفًا ومهذبًا وكريمًا وعارفًا بأمور الدنيا، لكنّه مع ذلك يرتكب أعمالًا في قمّة القسوة».



تسمعان من خلفهما همساتٍ مع اقتراب مجموعةٍ من الطلاب .

فتغلق نين دفترها . «تعالِي، سأريك شيئًا» . تمشيان باتجاه اللاماسو الذي كانت نين ترسمه . وعندها فقط تلاحظ زليخة أنَّ أحد حوافره محروقٌ متفحِّم .

تقول نين : «كنتُ أتساءل كيف حدث هذا . أترى نجت هذه المنحوتة العملاقة من حريقٍ في قصر آشوربانيبال؟ أم هو سهمٌ ملتهبٌ في حصار نينوى؟ من يدري . لكنِّي أشعر أنَّ شيئًا فظيعةً حدث ، وكان هذا المخلوق الحجريّ شاهدًا عليه» .

يمتدّ الصمتُ بضع ثوانٍ بينما تبقى عينا زليخة على وجه نين . ثم تسأل : «هل يتفاجأ الناس أحيانًا باهتمامك ببلاد الرافدين القديمة؟» .

- «دائمًا . حتى إخوتي يرون في ذلك شيئًا من الجنون . تصحيح : يرونني أنا مجنونةً بعض الشيء» .

تبتسم زليخة .

فتقول نين وكأنَّها تجادل نفسها : «ولكن كيف نجد شغفنا؟ لا أعرف . في معظم الأحيان يكون الأمر محض مصادفة . كتابًا نصادفه في المكتبة ، أو معلمًا يترك فينا انطباعًا ، أو فيلمًا لا



يمكننا أن ننساه... حين أنظر إلى الماضي، أدرك أنني كنتُ  
ساجنٌ لو لم تكن لديّ أماكن أخرى ألجأ إليها. وكلّما كانت أبعد  
عن واقعي، كان ذلك أفضل».

- «وبلاد الرافدين القديمة هي ذلك المكان؟».

- «بالضبط. أعتقد أنّ التاريخ بالنسبة إليّ هو الماء بالنسبة  
إليك. لغزٌ يستعصي على الفهم، وشيءٌ أهمّ بكثيرٍ من حياتي  
الصغيرة، لكنّه في الوقت نفسه شخصيٌّ جدًا. هل يبدو ذلك  
منطقيًا؟».

- «في الحقيقة، نعم».

- «إذن نعم، بلاد الرافدين القديمة ملاذي. كنتُ في صغري  
أعاني من مشكلاتٍ نفسيّة، وساء وضعي بعد ذلك».

- «أوه، كنتُ أحسب أنّك نشأت في أسرةٍ محبّة -».

فتنظر نين إليها. «يمكن للمرء أن ينشأ في أسرةٍ محبّة، ويعاني  
أيضًا».

تخرجان من معرض آشور، وتمرّان بمتجر الهدايا ذي  
الرفوف المحمّلة بالكتب والزخارف. المقهى في الفناء الكبير  
مكتظّ. تبحثان عن طاولةٍ فارغةٍ تحت سقف الزجاج المرتفع،  
وهو أمرٌ ليس سهلاً، إذ يعجّ بالزوّار. تتردّد الأصوات في  
المساحة المفتوحة، مثل صوت الأمواج المتكسّرة على الرمال  
الناعمة. تنجحان في العثور على كرسيّين فتجلسان جنبًا إلى  
جنب، ظهراهما إلى رفوف البطاقات البريدية.

وجه نين مُلغِزٌ في البداية، فملاحمها في تركيزٍ شديد. تقول بلطف: «أشعر أنك تعانين أيضًا يا زليخة. أعذر عن تدخلي في حياتك. كنتُ أريد أن أخبرك... أعتقد أنك إنسانة رائعة. من السهل جدًا أن تشعر بالضياع حين تنخفض معنوياتك، كأنك تنجرفين وحدك في فيضانٍ لا نهاية له. لكنك لست وحدك. هناك الكثير منّا على هذه السفينة الخشبية، نبحر من دون أن نعرف ما إذا كانت هناك أرضٌ أمامنا. لكننا نبحر بالأمل رغم ذلك...».

لو كان هذا يومًا آخر، لربّما غيّرت زليخة الموضوع، إذ لا ترتاح للمشاعر التي تنبثق من أعماقها، مثل مخلوقٍ بحريٍّ مجهول. أمّا اليوم، فلن تشيح ببصرها. تقول: «أعتقد أنني اكتأبتُ فترةً طويلة، حتى أصبح ذلك طبيعيًا بالنسبة إلي».

— «لا أحبذ تلك الكلمة أصلًا: طبيعي».

— «هل كان لدى القدماء من بلاد الرافدين كلمةٌ للاكتئاب؟».

— «نعم، لكنهم كانوا ينظرون إلى الصّحة النفسية نظرةً مختلفة، وكأنّ قوّةً خارجيّةً تسببت فيها، إلهاً كان أو شيطانًا. هناك وصفٌ مذهلٌ على ألواح الطين، من تعاويد وطقوسٍ وتبخيرٍ وجرعات. وهناك كلمة أشوشتو، وتعني شيئًا أقرب إلى الضيق. وكلمة پولوهتو، وتُستخدم للشخص القلق أو دائم الخوف، أو من لديه رهاب. وكلمة نيساتو تعني «الحزن». يقول گلگامش عندما يموت إنكيدو: «يدخل الحزنُ بطني». وكلمة شينيت طيميس تعني تغيير العقل، ولذلك قد تكون أفكارًا انتحاريّةً أو نوبات هلعٍ شديدة. وهناك هب لبّي، مرض الكآبة. والكلمة تعني حرفيًا «تحطّم القلب».

- «هَبْ لِي؟».

تقول زن وهي تتوجّه نحو معرض آشور: «نعم. كان هذا الهَبْ لبي يعيش بالنسبة إليّ في زجاجة خمر، مثل جنّي في مصباح. كنتُ ألمحه في مشروبي، يطفو أحياناً على سطحه، ساكناً تماماً، ويسبح في أوقاتٍ أخرى، لكنّه دائماً هناك، في قاع كلِّ كأس».

تُصت زليخة، وهي تقيّمها بعينين متأملتين.

تقول زن: «في العشرينيّات من عمري، كنتُ أفتخرُ بتحملي للكحول على نحوٍ أفضل من معظم الناس. كنّا نذهب إلى الحانات، فتكفّ جميع الفتيات بعد بضع جرعات، إلّا أنا. كنتُ أبزّ الرجال وأهزمهم، فيهنّئني الجميع على ذلك. في بداية الثلاثينيّات، كنتُ فخورةً بأنني شريفةٌ «عالية الكفاءة». فكان يمكنني بسهولة أن أمضي أيّاماً وأسابيع دون شرب. لا مشكلة! كنتُ أحبّ أن أثبت أن لديّ ضبطاً للنفس، لكنني كنتُ أعرف أيضاً أن هناك مكافأةً في النهاية. كان الشرب هو الكيفيّة التي أحفّز بها نفسي وأهدّئها. بدأتُ الأمور تتغيّر، لكنني ظللتُ أرى أن كلّ شيءٍ كان على ما يرام. فلم أكن من السكارى المزعجين. لم أكن عدوانيّةً أو كثيرة الشجار. كنتُ أسعى إلى مجرد انتشاءٍ لطيفٍ بسيط. لم يكن هناك ضررٌ في ذلك طبعاً. كان شربي خفيفاً ومعتدلاً، غير أنّي لم أعد أستطيع أن أقضي وقتاً ممتعاً دون شرابٍ في يدي. لم يكن لديّ أيّ صبرٍ على الناس، إلّا إذا سكرت، وحينها لا أكرث بأحد. استغرق منّي الأمر وقتاً طويلاً كي أعترف بوجود مشكلة. أقول لك هذا لأنّ اهتمامي ببلاد

الرافدَيْن لم يخفت في تلك السنوات من الصعود والهبوط . كان مكانًا مختلفًا عن واقعي ، لدرجة أنني كنتُ أذهب إلى هناك وأعيد تجهيز دماغي . لقد تسنى لي أن أجد ملاذًا في تلك البلاد الخيالية بين النهرَيْن ، غير أنها كانت حقيقيةً ومدهشة . بلادٌ مكسورةٌ مكدومةٌ وجميلةٌ وحزينة ، لكنّها شديدة المرونة والإلهام . . . هذا ما تعنيه لي بلاد الرافدَيْن القديمة» .

تتهادى من كلّ الزوايا أصوات السيّاح والطلّاب والآباء والأمّهات والأطفال . تبتسم لهما امرأةٌ مسنّةٌ تحمل صينيةً بها قهوةٌ وكعكة ، فتبتسمان لها .

– «أتدرين يا نين ، لو كنتُ أؤمن بتناسخ الأرواح ، لقلتُ إنك لا بدّ عشتِ في نينوى في حياةٍ أخرى» .

– «عجيب . فأحدى زبوناتِي (وهي لطيفةٌ جدًا لكنّها مجنونةٌ بعض الشيء) مهتمةٌ بهذه الأمور وتحاول دائمًا إقناعي بأنّي كنتُ كاتبةً من موظفي آشوربانيبال» .

– «بالضبط . رغم أنني أتخيّلك أيضًا تروّضين الأسود في حديقة الحيوان الملكية» .

فتضحك نين . «لعلّي متٌ هكذا إذن . في بطن أسد» .  
وتضحك زليخة أيضًا . «ولهذا السبب تخافين من الإبر .  
تذكرك بالمخالب» .

تقول زليخة في نفسها إنّه لا يوجد مكانٌ يتباطأ فيه الوقت أكثر من المتحف ، إذ يبدو كلّ شيءٍ حولهما سائلاً ، وتصبح

الحدود بين المنطقة والأخرى والقرن والآخر مُنفِذة. تقول: «شربت القهوة اليوم مع ابنة خالي هِلن، التي قابلتها في ذلك اليوم. ابتُها مريضةٌ جدًّا. تحتاج إلى زراعة كلى».

- «يا إلهي! قلبي معكم. لا بدَّ أنَّهُم في وضعٍ صعبٍ جدًّا».

- «نعم. نفسيتها مدمّرة. حين استمعتُ إليها، بدا لي الاكتئاب الذي أعاني منه ضربًا من الترف. هل ما أقوله منطقي؟».

- «نعم».

يتبع ذلك صمتٌ هادئ، مسالم.

- «نن؟».

- «همم؟».

- «لو جئتُ إلى محلّك يومًا ما، زبونةٌ أعني وليس صديقة... وطلبتُ وشمًّا، ماذا ستقولين؟».

تُلقي نِن رأسها إلى الخلف، وعيناها تفيضان بالمكر. «سأكون مسرورة. إذا جاء هذا اليوم المفترض، سأسألك عن الوشم الذي يخطر في بالك».

فتنظر زليخة بعيدًا، ثم تعود إليها: «وسأجيب... تلك العلامة على البسكويت. راقتني كثيرًا. بسيطة، وقويّة».

فتقول نِن: «أيّ واحدة؟» ثم تسكت فورًا. ليست في حاجةٍ إلى طرح مزيدٍ من الأسئلة كي تعرف العلامة التي تقصدها زليخة.

في تلك الأمسية، تغادر زليخة محلّ «الإلهة المنسيّة»، وألمّ خفيفٌ متوهّجٌ فوق معصمها. كان يمكن أن تضعه في أيّ مكان، على ظهرها، أو أعلى ذراعها، في مكانٍ مستورٍ بعض الشيء كي لا يراه خالها مالك. لكنّها اختارت تلك المساحة الرقيقة من بشرتها، عند تقاطع يدها اليسرى وباطن ذراعها. آلمها الأمرُ قليلاً، لكنّه لم يكن مؤلماً بقدر ما توقّعت. وها هي الآن تنظر بفخرٍ إلى وشمها وهي تمشي إلى المترو عائدةً إلى بيتها العائم. ثلاث علاماتٍ بالحبر الأزرق، بلون اللازورد. علامةُ الماء.

-O-

آثر

بجوار نهر دجلة، 1872

ذات صباح باكر، ترافق ليلي آثر إلى موقع التنقيب. تحب أن تبحث عن الأعشاب والنباتات، وتمشي معه أحياناً. تفوح في الهواء رائحة مسكية، ترابية، فيما يكتسب المنظر الطبيعي (المنحوت من هبوب) هيئة الريح.

تقول ليلي إن كلّ يزيدّي على وجه الأرض لا بدّ أن يكون له أخ أو أخت روحية. تستخدم لفظ أخيرتي، بمعنى «الآخرة». ولا بدّ أن يكون هذا الشقيق (بالقلب، لا بالدم) رفيقاً موثقاً في هذه الحياة وما بعدها.

- «هل لديك أخت سماوية إذن؟».

فتبتسم في هدوء. «نعم. أختي في العالم التالي تعيش على الضفاف العليا في نهر دجلة، قرب كاستروم كيفا. وأعيش أنا في مجرى النهر. نمزح دائماً، فنقول إنَّ من تموت قبل الأخرى ستحوّل إلى قطرة ماء، وبذلك يمكنها أن تتدفّق بسهولة نحو الأخرى».

يحاول آرثر أن يبادلها البسمة، لكنّه لا يستطيع. يشعر بانزعاج من سماعها وهي تتحدّث عن الموت، بعد نبوءاتها المؤلمة. يودّ لو يمدّ يده إليها، ويجد طريقةً ليخبرها بأنّه يهتمّ بسلامتها. لكنّ معايير الشرف اليزيديّة صارمة. ولهذا السبب، يطرد عنه مجرد الفكرة في لمسها.

فتقول ليلي: «من الجيّد أن يكون لديك رفيقٌ روحيّ. فإن وقع لي مكروهٌ في حياتي، لجأتُ إليها».

ينصت إليها آرثر بعناية. ففي داخله شيءٌ يتفهّم ذلك. أولئك الذين يفقدون الأمان هم غالباً من يرغبون في تلك الرابطة مع شخصٍ من الخارج، مع روحٍ شقيقةٍ قد تعينهم في وقت الحاجة. تلتقي عيناها بعينيّه وتسأله: «هل لديك في بلدك شقيقٌ سماويّ، برايبي أخيرتي؟».

فيفكر آرثر في السؤال.

- «كان لديّ شقيقٌ أصغر... تُوفّي للأسف بعد أن شرب ماءً ملوّثاً. لم أستطع أن أسامح نفسي على ذلك. فأنا الذي أحضرتُ الماء إلى المنزل».

ورغم أنّهما يتحدّثان عن شيئين مختلفين تماماً، تحترم ليلي



حاجته إلى التحدُّث عن هذا الفقد. تستمع دون إبداء حكم، فيكفيه ذلك، يكفيه أنَّها تنصت لما يقوله، بتعاطفٍ في عينيها، واستعدادٍ لأنَّ تشاركه أحزانه.

\*\*\*

في الأسبوع التالي، يفتح مبعوثُ موقعِ التنقيب، حاملًا رسالةً من باشا الموصل. يمسح آرثر الطين من يديه ويقرأ الرسالة. يُطلب منه الحضور عاجلاً إلى منزل الباشا. ويبدو أنَّه لا خيار لديه سوى أن يذهب. فهي ليست دعوةً بقدر ما هي استدعاء.

يقول الباشا، والمترجم إلى جانبه: «لقد سَمَرْتُكَ الشمسُ أيُّها الإنكليزي».

- «نعم. نعمل كلَّ يوم».

- «بلْغني ذلك».

يدخل خادمٌ يحمل صينيةً محمَّلةً بالمعجنات والقهوة في فناجين صغيرة، يقدِّمها إليهم ثم ينسحب.

يقول الباشا: «استمتع».

فيرتشف آرثر من فنجانه. القهوة قويَّةٌ جدًّا، وشديدة الحلاوة.

يقضم الباشا قطعة حلوى، وهو يراقب ضيفه. «بلْغني أنَّك تقضي وقتًا أطول ممَّا يلزم مع الوثنيين».

يُدرِك آرثر أَنَّهُ ينبغي عليه الكلام بحذر، إِنَّ لم يكن من أَجل سلامته، فمن أَجل الفقرا وأهلها. «القرية قريبةٌ من موقع التنقيب. لذلك من المناسب أن أقيم فيها».

- «لكنَّك تعلم أَنَّهُم عبدة الشيطان».

يُعيد آرثر فنجانه إلى الصحن، ويده ترتجف. «هم أناسٌ طيِّبون».

- «يقولون إِنَّك تتحدَّث الكردية الآن».

- «ما زلتُ أتعلم. الأمر يستغرق وقتًا، ولكن لديَّ أفضل معلِّمين: أطفال القرية».

- «أنت رجلٌ غريب». يحشو الباشا فمه بقطعة حلوى أخرى، ثم يقول: «بخصوص التنقيب... لقد أخذ الإنكليز والفرنسيُّون كثيرًا من التماثيل على مرِّ السنين، صغيرةً وكبيرة. هل هو ضربٌ من الوثنيَّة؟ هل شعبك يعبدها؟».

تطير عثةٌ من النافذة المفتوحة، ترفرف بجناحيها، وتصطدم بمصباح. تتراجع، وتحاول مرَّةً أخرى، في جوٍّ من الذعر الوشيك.

يقول آرثر: «التماثيل معروضةٌ في المتاحف. أمَّا أنا، فالباشا يعلم أَنِّي أبحث عن قصيدة».

- «قصيدة... قطعت كلَّ هذه المسافة من أَجل قصيدة؟ أليس هناك شيءٌ غير ذلك؟ ستحصل على شيءٍ منها على أيِّ حال... سلطة، مال، شهرة، إعجاب النساء...».

يحمّر وجه آرثر شيئًا قليلًا.

فيقول الباشا مبتسمًا وكأنه نفذ إلى ما في داخل آرثر: «إذن فالأمر لا يتعلّق بالقصيدة فقط». يمدّ يده إلى قطعةٍ أخرى من الحلوى. «ألا تأكل؟».

- «يُعرف عني ضعف شهيتي».

- «لكنني سمعتُ أنّك استمتعتَ بطعام اليزيديّين».

يخفض آرثر عينيه، خشية أن يكشف وجهه عن مشاعره. لكنّهم يسمعون خطواتٍ في الردهة قبل أن يفكّر في شيءٍ يقوله. وما هي إلّا ثوانٍ حتى يُفتح الباب، ويدخل رجلٌ طويلٌ ضخّم البنية ذو وجهٍ مغضّنٍ ولحيةٍ كثيفة، متجاوزًا الخدم.

فيهتف الباشا واقفًا على قدميه: «أوه، حضرة القاضي الكبير. لقد شرفّنتني بزيارتك. ليتك أخبرتني بقدومك، حتى أستعدّ».

فيقول القاضي: «دعك من هذا التصنّع. أهذا هو الإنكليزيّ الذي أخبرتني عنه؟».

يجلس القاضي دون أن ينتظر تقديمه لآرثر. ثمّة قسوة في تعابيره تدفع آرثر إلى التفكير في السجون، بما هي مخفيةٌ ومغلقةٌ وخطيرة.

يقول الباشا: «كنّا نتحدّث عن عبدة الشيطان. يبدو صاحبنا مولعًا بهم».

فلا يقول القاضي شيئًا بينما يُملأ فنجانُه. لا يكثرُ بالحلويات، لكنّه يبدو حريصًا على القهوة. وحين يغادر الخادمُ الغرفة، يلقي الرجل نظرةً جانبيةً على آرثر.

- «ولماذا تحبهم؟ ليسوا أهل كتاب. المسلمون والمسيحيون واليهود أهل كتاب، أمّا اليزيديون فلا».

فينظر آرثر إلى الحديقة، رغم أنّه لا يرى شيئاً في تلك اللحظة. عينا الرجل مسلّطان عليه، تقيّمان كلّ إيماءٍ منه، فيشعر برغبةٍ عارمةٍ في الهرب، حتى إنّهُ يُضطرّ إلى التشبّث بالوسادة التي يجلس إليها كي يقمع رغبته.

يتلمّظ الباشا وفمه مملوءٌ بالمعجّجات السكّريّة. «حضرة القاضي المبجل، لديّ مسألة أرجو نصيحتك فيها. قل لي، إنّ أنا أقسمتُ يميناً لهؤلاء اليزيديّين أن يكونوا آمينين، فسَلّموا أسلحتهم ووثقوا بي، إلى أيّ حدٍّ أكون ملزماً بالوفاء بكلمتي؟».

- «اليزيديّون كفّار. فلا جناح عليك إن كذبتَ عليهم. في شرع الله يجوز أن تمكر بالوثنيّين. لك أن تخدعهم فيعتقدون أنّك لا تريد بهم ضرّاً، ثم تفعل بهم ما تشاء».

يشعر آرثر بنبضات قلبه تتسارع. يتفاعل جسده مع هذه الكلمات أسرع ممّا يمكن لعقله أن يتفاعل معها. فتستجيب قدماه، ورأسه يخفق بقوة.

يسأله الباشا: «هل ستذهب؟».

- «عليّ الذهاب. ينتظرونني في الموقع».

- «لا بأس. ولكنّ لو كنتُ في مكانك لابتعدتُ عن الكفّار. أنا واثقٌ من أنّك تعرف القول المأثور: «من ينام مع الكلاب، يستيقظ مع البراغيث»».

في ذلك المساء، كأَيِّ مساءٍ آخر، يعود آرثر إلى القرية  
بألواح كشفت عنها أعمال التنقيب. وحين يجلس مع الشيخ  
وأسرته على العشاء، يفكر في إخبارهم بما حدث في منزل  
الباشا، لكنّه لا يريد أن يثير قلقهم. يأكل قليلاً من أثر اضطرابه  
وتشوُّش أفكاره، يعبث بطعامه للمرّة الأولى منذ وصوله. وحين  
يرفع رأسه، يجد ليلَى تراقبه، فينتابه شعورٌ بأنّها تعرف عن لقائه  
بالباشا.

بعدها، يعود إلى غرفته، فينظّف القطع الأثريّة، ويزيل  
الرواسب عنها. ثم يبدأ في قراءة لوح من الألواح، على ضوء  
مصباح زيتيّ. وما إن يفك رموز السطر الأوّل، حتى يكاد قلبه  
يتوقّف. يضع إصبعه على سطح الطين، ويمرّ على العلامات كي  
يتأكّد من أنّه لا يتخيّل. تسبح الأحرف الإسفينيّة أمام عينيه،  
فتشكّل الكلمات التي كان يتوق لرؤيتها طوال هذا الوقت:  
«طوفان»، «سفينة»، «المياه من كلّ جانب»...

لقد وجد الجزء المفقود من لوح الطوفان!

القصيدة طائرُ سنونو في الهواء. تستطيع أن تشاهده وهو  
يحلّق في السماء الواسعة، ويمكنك حتى أن تشعر بالريح تمرّ فوق  
جناحيه، لكنك لا تستطيع أبداً أن تمسك به، ناهيك عن  
الاحتفاظ به في قفص. القصائد لا تنتمي إلى أحد. وطالما راود  
آرثر خوفٌ من أنّ ملحمة مهمّة كهذه ستظلّ دوماً بعيدة المنال،  
وهي التي تناقلتها الألسن آلاف السنين قبل أن تُكتب وتوزّع على  
ألواح كثيرة. حتى عندما شرع في رحلة تأخذه إلى مسافاتٍ طويلةٍ  
عن وطنه للبحث عن الأبيات المفقودة، حاول أن يُجهّز نفسه

للفشل المحتوم. لكنَّ السنونوَّ حطَّ على يديَّه الآن بالصدفة. يستطيع أن يضمَّه بين راحتيَّه، ويستمع إلى نبضات قلبه. لديه اللوح الحادي عشر من ملحمة گلگامش كاملاً.

غداً مع انبلاج الفجر، سيرسل رسالةً إلى أصحاب الديلي تلغراف يقول لهم فيها إنَّه قد نجح. سيُسروُن بالخبر ويسارعون إلى نشره. سيسمع الناس في إنكلترا عن «اكتشافاته الآشوريَّة». ربَّما يهتمَّ بالخبر رئيس الوزراء مرَّةً أخرى، وأعضاء المجتمع الراقي، وربَّما الملكة فكتوريا. وقد يُعرض عليه أخيراً عقدٌ محترَّم من المتحف البريطاني. لكنَّ آرثر ليس متحمَّساً للعودة إلى وطنه. تظلَّ أفكاره تدور، لا تستقرَّ، مثل النوارس عندما يرتفع الماء.

يفتح النافذة وينحني على عتبتيها، محدِّقاً في الظلام. رائحة الأعشاب البريَّة مُسكرة، وهناك عطرٌ مُسكيٌّ في الهواء لا يستطيع تحديده. ثم يرى ليلى، تسير في نومها، ظلًّا على الجدار. والقمر سائلٌ هذه الليلة، هلالٌ متزايد [من مراحل القمر]. يُمطر على شعرها قطراتٍ فضيَّة. فتشقَّ طريقها عبر الحديقة، تارةً تدخل في الظلال وتارةً تخرج.

يهمس آرثر، رغم أنَّه يعرف أنَّها لا تستطيع سماعه: «وجدتُ الجزء المفقود من قصيدة الطوفان. لا بدَّ أن أبلغ رعاة رحلتي، لكنِّي لا أفكر في العودة قريباً. أودَّ البقاء هنا فترةً أطول، أدرس الألواح، رغم أنَّي لا أستطيع التظاهر بأنَّ هذا هو السبب الوحيد».

«لقد أقلقني تنبؤاتك في الأربعاء الأحمر. فمنذ ذلك الحين،

لم يمرَّ يومٌ ولا ساعةٌ من يقظةٍ لم أفكر خلالها... فيك». يتلعب ريقه، وهو يشعر بالدوار. «في السومرية القديمة، كانت كلمة كي أنغ تعني «يحب». والغريب أنَّ الكلمة كانت تعني «يقيس الأرض». لم يكن الحبُّ شعورًا أو عاطفةً بقدر ما كان مرساةً تثبت المرء في مكانٍ ما. وطوال هذه السنوات لم أجد نفسي مضطراً قط إلى قياس الأرض.

«وجدتُ مؤخرًا لوحًا طبيًا من مكتبة آشوربانيبال. جاء فيه أنَّ المريض إذا ظلَّ يتنحَّج، ويبدو أنَّه لا يجد ما يقوله، أو يتحدث إلى نفسه حتى حين لا يكون هناك أحدٌ يسمعه، فالأرجح أنَّه يعاني من مرض الحب. من اللافت أن تُستخدم الكلمة نفسها هِب لِبي (أي: تحطُّم القلب) للألم العاطفي والجسدي أيضًا، لكنِّي لا أستطيع تفسير السبب». ثم يسكت آرثر.

«وبينما كنتُ أقرأ هذا اللوح، فهِمتُ فجأةً؛ فهذا ما أفعله حين تكونين حولي يا ليلي. لديَّ الأعراض نفسها حين أكون قريبًا منك. عندها أدركتُ أنَّي... أحبك».

يمتدَّ الصمت. وتميل رأسها في اتجاهه.

في تلك اللحظة، ينتابه شعورٌ غريبٌ بأنَّها تستطيع سماعه. يشعر بالخوف حينها، لكنَّه الآن لا يستطيع أن يتوقَّف عن الكلام.

«في صغري كنتُ أساعد في نشر الكتب. لذلك قرأتُ قصصًا كثيرةً عن الحب، واستنتجتُ في وقتٍ مبكرٍ من حياتي أنَّني لستُ (ولن أكون أبدًا) من أولئك الذين يجربون الوَلَه. لستُ أشتهي، وإنَّما أعبر عن حقيقة. أحاول أن أتعامل مع الحياة بوعي كاملٍ بحدودي، بمعنى أنَّه ليست لديَّ آمال، ولن أفكر أبدًا في

مضايقتك أو إحراجك بأي شكلٍ من الأشكال».

يستنشق آرثر هواء الليل. كلُّ شيءٍ حوله ينبض: النهر، والأرض، والجبل. لا يعرف متى صار مفتونًا ببلاد الرافدين، لكنَّه حدث ولا يمكن التراجع عنه. تتسلسل قصيدةٌ قديمةٌ عبر ذهنه. وتتوهَّج في البعيد جوهرتان. تراقبه المها في الظلام. مخلوقةٌ جميلة! يراقبها وهي تتحرَّك برشاقة، فيشعر أنَّه يلمح مستقبلًا بعيدًا، لحظةً في حياة شخصٍ آخر. هو زمنٌ لن يعيشه، لكنَّه يظلُّ زمنًا متَّصلًا بهذه اللحظة تحديدًا، هذه اللحظة التي تتلاشى، بل ذهبَت بالفعل.

يقول: «لقد عاملتني أنتِ وأهلك كضيفٍ أرسله الله، ولستُ أجهل قواعد الشرف والحشمة اليزيدية، بإطلاقها وصرامتها، فلا يبقى لديَّ شكٌّ في أنَّك ستظلِّين دائمًا بعيدة المنال. أقول لكِ كلَّ هذا دون أيِّ آمالٍ أحملها. لا حاجة لأن يعرف أحدٌ أبدًا بمشاعري نحوك. ولا حتى أنت، بل أنتِ بالذات يا ليلي».

تداعب النسمة خصلات شعرها المنسدلة. تتحرَّك نحوه، ببطءٍ ومن دون جهد، كما يفعل الناس في الأحلام. ينزلق الشال الملفوف حول كتفَيْها قليلًا. لم يعد آرثر يعرف ما إذا كانت مستيقظة أم ما زالت تسير في نومها. تقف قريبة جدًا لدرجة أنَّه يستطيع استنشاق رائحة شعرها، فيخطر له الياسمين والقرنفل وإبرة الراعي. ثم تفعل شيئًا لم يكن ليتخيَّل قطَّ أنَّها ستفعله: تقبَّله على خدِّه. لمسةٌ عفويةٌ جدًا، لا تبدو كبشرة تلامس بشرة، بل كقطرتي ماءٍ تجد إحداهما طريقها إلى الأخرى.

ثم ترحل.

مكتبة

t.me/soramnqraa



## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

كان القدماء من سگان بلاد الرافدين يعتقدون أن الجبال كائنات حيّة، حدود تربط الأرضي بالسمائيّ، أو فضاءات بينيّة. وكأنّ أصابع الأرض ترجو أن تمسّ السماء. بل إنّ إحدى أقدم المفردات المكتشفة في الحفريات الأثرية كلمة كُرساك، أي «جبل».



في هذه الثقافة إذن، كان «سنجار» أكثر من مجرد جبل. هو أعلى قمّة في سلسلة تمتدّ إلى مئة كيلومتر، وظلّ ملاذاً للمضطهدين والمظلومين قرناً وراء قرن. فقد لجأت أفواج وأفواج

من الناس إلى كهوفه الصغيرة وأوديته الوعرة. في سفح سنجار، يقع معبد «شرف الدين»، الذي يعود تاريخه إلى ثمانمئة عام، وقد شُيّد من حجرٍ أصفرٍ شاحبٍ ومخروطين فوق سقفه. كلُّ شبرٍ من هذه الأرض مقدّسٌ في الديانة اليزيدية.

هناك، في تلك الأرض المسطّحة القاحلة، صعودًا إلى التضاريس الصخرية، يتحرّك تيارٌ لا نهاية له من البشر. أجسادٌ منهكةٌ تكافح ضدّ الجاذبية. أمّهاتٌ يتشبّثن بأطفالهنّ، وحوامل يحاولن أن يحمين ما في أحمامهنّ. أطفالٌ ذاهلون حائرون، يسرون في صمت، يخشون البكاء. امرأةٌ مسنّةٌ تتوسّل إلى أسرّتها كي تتركها تموت. مئآتٌ وآلافٌ يواصلون التسلّق، يحملون أطرافهم كأنّها أعواد قصب جوف. لا يوجد ظلٌّ هنا، والشمس لا ترحم. تلتوي حرارة الأرض المسفوعة، تتلوّى وكأنّها تكتب بخطّ خفيّ.

يتوقّفون وهم عاجزون عن مواصلة الصعود، إذ يساقط العرق على ظهورهم، فتُخرج الجدّة زجاجة الماء الوحيدة. تقيس الماء بالغطاء البلاستيكيّ، فتملؤه بعنايةٍ كي لا تهدر أيّ قطرة، وتعطيه نارين.

فيأتيها صوتٌ حزين: «أريد القليل أيضًا، أرجوك».

تلقت الجدّة فترى فتاةً في حوالى الخامسة من العمر، بعينين حزينتين غائرتين. تصبّ الماء في الغطاء، وتعطيها. فيظهر على الفور صبيٌّ إلى جانبها، لعلّه أخوها.

– «وأنا أيضًا».

ترتجف يدُ الجَدَّة. فهذه هي الزجاجاة الوحيدة، وكانت تنوي أن تحتفظ بها لنارين. ولكن كيف لها أن تحرم طفلًا من الماء؟ تبسم للصبي، وتبذل قصارى جهدها للحفاظ على شريان الحياة. يصطف مزيدٌ من الأطفال أمامها، ينتظرون في صبر، بينما ينظر أهلهم بعيونٍ حزينّة. تحاول الجَدَّة أن تُحسن التصرف بالقليل الذي تستطيع أن تجود به، فتخصّص لكلّ طفلٍ بضع كلماتٍ لطيفةٍ وبضع قطراتٍ بالكاد تكفي لترطيب الشفاه وبلّ الحلق.

لا سبيل إلى النوم في تلك الليلة على سفح سنجار. تتكدّس الأسر معًا، فيما تنخفض الحرارة (التي وصلت إلى 48 درجةً في النهار) إلى 30 درجةً مئويّة. فتلّف الجَدَّة نارينَ بشالها كي لا ترتعش. في حركات الجَدَّة طلاقةٌ واضحة، وتصميمٌ شديد.

– «سننجو من هذا يا قلبي».

وتتدلّى شفة نارين السفلى، فتحاول جاهدةً ألا تبكي. لكنّ الجَدَّة تزرع قبلاّت على أطراف أصابعها، واحدةً تلو الأخرى، كما اعتادت حين كانت نارين صغيرة.

– «لا بدّ أن تنصتي إليّ الآن. أخبري الماء بكلّ شيءٍ حدث، أيّا كان. سيأخذ كلّ الألم والخوف. وإن لم تعثري على جدولٍ متدفّق، فتذكّري أنّه في داخلك. أنتِ مخلوقةٌ من ماء».

ترتعش نارين دون توقّف، فتضمّمها جدّتها إليها، وتبقيها في مكانٍ آخر غير المكان الذي هما فيه الآن.

وعند بزوغ الفجر، تتطوّع مجموعةٌ من الفتيان للمشّي إلى نبعٍ

قديم في سفح الجبل. يأخذون زجاجاتٍ وأباريق فارغة، قدر ما يمكنهم حمله، ثم يبدؤون النزول ببطء.

هناك في الأسفل، ثمة فسحة صغيرة بها مجموعة شجيرات، يختبئ فيها رجال داعش، منتظرين. يراقبون الفتیان وهم ينطلقون عند رؤية الماء، فيشربون على عجلٍ ويملؤون أوعيتهم إلى آخرها، بأيدي تترجف من التوتر. ثم يراقبونهم وهم يستديرون نحو الجبل، حيث ينتظرهم أحبابهم. عندها، يطلقون النار، فيحترق الرصاص الأباريق، ويختلط الماء بالدم. هكذا ذهب الفتیان إلى النبع، ولم يعد منهم أحد.

يمرّ يومٌ آخر في الأعلى، في ذلك المكان الأقرب إلى السماء الصافية. يواصل الرضع بكاءهم، رغم أن أصواتهم تضعف شيئًا فشيئًا. المسنون أول من يستسلم، ويموت الصغار واحدًا تلو الآخر من أثر الظمأ والإرهاق. تبذل الأسر جهودها لإخفاء الجثث، لكنّ الأطفال يرون كلّ شيء، حتى وهم يحدّقون في البعيد، بنظراتٍ خاملةٍ انطوائية. تبدو وجناتهم جوفًا مشمعة، وكأنّها منحوتة من شموعٍ قديمة.

وفي اليوم التالي، تنتشر شائعاتٌ بأنّ الأميركيكان يُسقطون مساعداتٍ من الجوّ. تهبط بعض العلب على الرمل، فيما تضرب أخرى الصخور فتنشقّ ويتسرّب ما فيها. يهرع الشباب لالتقاط البقايا، فيما تكشط الأمّهات الطعام بأظافرهنّ ويحاولن إدخاله في أفواه الصغار. يقول الناس إنّ الأميركيكان يزودون الناس أيضًا

بالفؤوس والمجارف، لحفر القبور.

لكنَّ هذه الهبات لا تصل إلى مجموعتهم. في صباح اليوم الرابع، ومع تسارع حالات الوفاة، تُعطي الجدَّة نارين آخر ما تبقى من الماء الذي حافظت عليه. تُميل الزجاجاة البلاستيكية ذات الغطاء الأزرق، فتضع القطرة على لسان الفتاة كأنَّها لؤلؤة ثمينة.

لا تعرف الجدَّة أنَّ هذه القطرة الأخيرة على جبل سنجار في آب / أغسطس من عام 2014 م هي نفسها التي سقطت على نينوى ذات ظهيرة عاصفة قبل آلاف السنين، فاستقرَّت في شعر الملك آشوربانيبال.

– «لا بدَّ أن أجد ماء».

فتقول نارين وهي مستلقية: «لا، لا تذهبي إلى أيِّ مكان».

– «يا قلبي... الأطفال يموتون، ولا بدَّ أن أساعدهم».

تُبعد الجدَّة خصلة شعرٍ من وجه نارين. شفتا الفتاة متشققتان متورمتان، وشحوب وجهها غريبٌ لا ينتمي إلى هذا العالم، حتى إنَّ العجوز خافت أنَّ الوقت قد فات. «عليك أن تبقي هنا مع الآخرين. وعد؟ سأطلب من إحدى الأسر أن تطمئنَّ عليك».

فتخفض نارين بصرها، وتشعر برعشة تسري في عظامها، رغم النهار الحارق. تقول: «انتبهي لنفسك أرجوك».

- «أعدك. سأعود قريبًا. تذكّري يا نارين أنّ هناك في السماء  
الأشدّ سوادًا نجمةً تتلألأ عاليًا في ظلمة الليل، شمعةً ذات ضوءٍ  
ساطع. لا تيأسي أبدًا. وعليكِ دائمًا أن تبحتي عن أقرب مصدرٍ  
للحياة».

الجدّة قافرة الماء.

الجدّة مكتشفة الينابيع.

\*\*\*

تُخرج الجدّة غصنًا متفرّعًا كانت قد التقطته في الطريق،  
وتبرّيه بسكّين. كانت تفضّل أغصان الصفصاف في بحثها عن  
الماء، لكنّها لا بدّ أن تدبّر أمرها بهذا الغصن. وفي حال حدّدت  
الجدّة موقع نبع تحت الأرض، لن يكون بمقدورهم أن يحفروا،  
إلاّ إذا حصلوا على فؤوس ومجارف. لا بدّ من وجود ماءٍ في  
مكانٍ قريب، وهي مؤمنةٌ بأنّها تستطيع العثور عليه.

تمشي بخطواتٍ ثقيلة، ودُمها ثخينٌ من أثر الجفاف. لكنّ  
تركيزها شديد، وعيناها تركّزان على الأرض، فتمضي هكذا، لا  
تسمع شيئًا سوى نداء ماءٍ خفيّ.

يمضي الوقت بتعبٍ يشبه تعبها، وتصفّر الريح أغانيها. غير  
أنّ الجدّة تتجاهل آلام قدميّها المتورّمتين وأطرافها المتوجّعة،  
وتواصل طريقها. تمرّق الأشواك ملابسها، وتعلق النباتات  
الشائكة بكاحليها. لا تنفك تلوم نفسها؛ فهي التي أحضرت نارين  
إلى العراق. لم يكن يجدر بهم أن يغادروا كاستروم كيفاً، رغم  
أنّ كاستروم كيفاً كان يغادرهم. تمتلئ عيناها بالدموع فتشوش

رؤيتها. يسيل العرق على رقبتها، لكنها يجب أن تواصل. لا يمكن أن تعود إلى شعبها صفر اليدين.

ما تلبث أن تبرد راحتا يديها، وكأنها لمست كتلة من جليد. يتغصن جبينها. البحث عن الماء ليس أمرًا ممتعًا على الإطلاق. منهكة، لكنَّ الجذب الذي تشعر به الآن أقوى من ضعفها. يرتعش الغصن. هنا مصدر الماء، تحت هذه الأرض القاحلة. ترتفع رعشة في صدرها وتنتشر إلى أطراف أصابعها. إنه بالتأكيد هنا، فهي تشعر به. لا بدَّ أن تعود الآن لإخبار الآخرين بأنها وجدت ماء.

وبينما تتخيَّل العجوز نفسها وهي تزف الأخبار إليهم، تنحبس أنفاسها في حلقها، ثم تنقبض أعضاؤها. فقد سمعت صوتًا غريبًا. ضحكة خفيضة، خبيثة. تدير رأسها نصف دورة. وعلى مسافة لا تبعد أكثر من طول ظلها، يحدق بها مقاتلٌ داعشيٌّ من خلف فوهة البندقية. لقد انحرفت في مسارها إلى مكانٍ قريبٍ جدًا من سفح سنجار.

– «ماذا تفعلين أيتها العجوز؟».

فيقهقه أحدهم. الرجل ليس وحده إذن. خمسةٌ يدورون في المنطقة، يصطادون اليزيديين الذين يبحثون عن الماء. تشبك الجدة يديها كي لا ترتعشا، وتنظر بعيدًا. لن تردَّ عليهم، حتى وإن كانت تجيد العربية. لن ترضي رغبتهم في رؤية الخوف على وجهها.

يقول المسلَّح: «ليس لديك جواب؟».

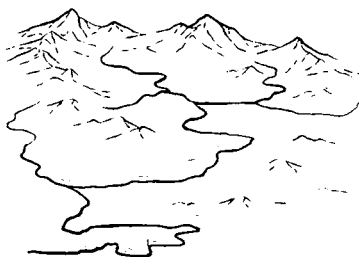
فيصيح مسلّح آخر من وراء شجيراتٍ متفرّقة: «انظروا ماذا وجدتُ هنا!». يصيح الرجال ما بين قولٍ وردّ، تتقاذف الريح أصواتهم، فلا تستطيع بسمّة أن تفهم ما يقولونه في البداية. بعد ذلك، تسمع وسط الضجيج صوتًا حييًّا. فيتجمّد جسدها بأكمله. - «جدّتي!».

تستاء نارين حين تتركها جدّتها، فسارت وراءها.



# 5

## الطوفان





-O-

آرثر

بجوار نهر التمز، 1872

يحدث شيئان في الوقت نفسه تقريبًا، بعد أن أ برق آرثر إلى رؤسائه يبلغهم أنّه وجد الجزء المفقود من لوح الطوفان. إذ يخبر سگان القرية أنّه قرّر تمديد إقامته كي يتمكن من مواصلة العمل بجوار دجلة. رغم ذلك، يُعلن رؤساؤه في إنكلترا (دون علمه) عن عودته الوشيكة إلى نهر التمز.

تصله برقيّةٌ يعرف منها أنّ صورته منشورةٌ في الصحف الإنكليزيّة، وأنّ نجاحه قد أُعلن للجمهور، وأنّ رحلة العودة قد حُجزت. فلمّا انقطع راتب آرثر فجأة، شعر بأنّهم خاتلوه وتلاعبوا به. يزعجه ما حدث، فيحاول مرّةً بعد مرّةً أن يقنع رؤسائه

بجدوى بقائه في نينوى، لكنّه لا يفلح في إقناعهم، رغم كثرة رسائله، وتوسّلاته.

يمرّ شهرٌ في حالةٍ من الحيرة، فلا يبقى لديه خيارٌ آخر سوى أن يودّع أهل «المياه الذهبية»، ويستعدّ للعودة إلى إنكلترا. لكنّه رغم ذلك يرجو أن لا يكون الأمر قد ضاع كلّهُ؛ وأنّه ما إن يصل إلى لندن حتى يعثر على شخصٍ يموّل رحلةً استكشافيةً أخرى، ينطلق إليها على الفور.

عشيّة سفره، يراقب ليلى من نافذته للمرّة الأخيرة. يفترض أنّها تسير في نومها، لكنّها حين تستدير نحوه، يرى عينيّها مفتوحتين متيقّظتين. تحمل في يدها كأس ماء، ترشه نحوه، وتبتسم.

يسألها آرثر: «ما معنى ذلك؟».

- «نسكب الماء طلباً للتوفيق والحماية. اذهب مثل الماء، وعُد مثل الماء، بحريّة وسهولة».

فيُخرج مديته، ويمدّ يده عبر النافذة المفتوحة إلى شجرة الرّمّان، ويرسم ثلاث علامات عموديّة على لحائها.

- «هذه هي العلامة القديمة للماء. وهي وعدي. أعدك بأنّي سأعود».

- «أعرف أنّك ستعود. لكنّك ستعود وقد تغيّرت، وستجد الأشياء قد تغيّرت».

يهزّ رأسه نفياً، رغم أنّه يشعر في قرارة نفسه أنّها محقّة. يشعر برغبة قويّة في احتضانها، حتى إنّهُ يُضطرّ إلى أن يشبك

ذراعِيه كي يمنع نفسه. صوته ضعيف، ولا يملك إلا أن يكرّر ما قاله.

- «سأعود. أعدك، سأعود».

\*\*\*

يُستقبل آرثر في لندن بحفاوة وابتهاج، بل إنَّ الديلي تلغراف تهلّل بوصوله:

لوح الطوفان في إنكلترا

آرثر سمث بطل!

هكذا فجأة صار بطلاً، في قصّة كتبها آخرون. كثر معجبهوه، وباتوا يرونه عالمًا بارزًا، وعَلامةً معروفةً. يقولون إنّه ليس ذكيًا فحسب، بل شجاعًا كذلك، لأنّه انطلق في رحلة خطيرة كهذه للسعي وراء المعرفة. لكنّ حجم الاهتمام هذا يفاجئ آرثر. فحين يتعرّف عليه الغرباء في الشارع ويمطرونه بالأسئلة، يتلعثم في إجاباته. وحين يطلب السادة والسادات المتأنقون الأنيقون صحبته، لا يبادلهم ذلك الحماس الشديد. بل يشقّ عليه حتى أن يتكيّف مع الطقس، فينسى مظلّته، ويرتعش داخل معطفه، ويتوق إلى الحرارة التي اعتادها جسده.

كما صار لديه أعداء كذلك. فحين كان فقيرًا، لم يكن له من خصوم سوى الجوع والبرد. أمّا الآن وبعد أن ذاع صيته، فقد أصبح كثيرون يستأوون من نجاحه. تهاجمه «جمعية الرسالة الدينية» بتهمة اختلاق ألواح مزيفة، ونشر ترجمات مزيفة من لغة مختلفة. بل إنَّ البعض يذهب إلى حدّ الادّعاء بأنّه لم يذهب إلى

بلاد الرافدين قط، وكان مختبئًا في مزرعة قرب لندن.

يهزه رد الفعل هذا، سواء كان مديحًا أم تشنيعًا. وتمرّ عليه أيّام لا يرغب فيها في الخروج من مسكنه المؤقت في بلومزبري. مع ذلك، تطلّ تأتية الدعوات لإلقاء المحاضرات، والمشاركة في ندوات ومؤتمرات.

وهناك ما بيل أيضًا. فخطيبته سعيدة بعودته وازدياد شهرته، فتخبره بضرورة أن يسرعا في ترتيب الزفاف. هكذا تضع قائمة كبيرة للمدعوين تليق بمكانة آرثر الجديدة، فلا يجد طاقة في نفسه للاعتراض. ورغم الهدوء الظاهر عليه واستئناف عمله في المتحف البريطاني (حيث يستقبلونه بإعجاب كبير وحسد وفير)، إلّا أنّه مضطرب في أعماقه. يبدو له أنّ خيوط حياته وشخصيته باتت تتفكك. فلقد كرّس حياته للكلمات، لكنّ الكلمات فجأة لم تعد كافية. إذ لا يعرف كيف يعبر عن هذا الشعور الذي حلّ عليه فجأة بأنّه وحيد جدًّا، ومُنْبَتّ بين أهل بلده. شعورٌ غريبٌ يجتاحه، بأنّه غريبٌ في وطنه.

\*\*\*

بعد شهرٍ من ذلك، يتلقّى آرثر دعوةً لحضور حفلة، من إيرل يُعرف باهتمامه بالفنون، وبإسطبل الخيول الأصيلة الذي يمتلكه. فيطلب إلى آرثر وخطيبته أن يحضرا إلى حفل استقبالٍ في «كوخ ريفي» يملكه ذلك النبيل.

تُسّر ما بيل بالدعوة، ولكن ما يلبث حماسها أن يفتر، ويحلّ محلّه قلقٌ حول الملابس التي تناسب الحفل. يصطحبها آرثر لشراء ملابس جديدة، مدعومًا براتبه الذي زاد مؤخرًا، فيشتريان

ثلاثة فساتين حريريّة، وقفّازات، وقبّعات، ولفاعًا من الريش يناسبها. يُصدم آرثر من كُلفة الأقمشة، في حين تشعر مابيل بالأسف لأنّها لا تملك مجوهراتٍ تناسب ملابسها الجديدة. أمّا آرثر فيستأجر لنفسه معطفًا داكنًا مبطنًا بالساتان، ويشتري ربطة عنقٍ عريضة. سيُضطرُّ إلى إعادة المعطف لاحقًا، لكنّ ذلك لا يهمّه، إذ لا يتوقّع أن يحتاج إليه مرّةً أخرى.

يتبيّن أنّ «الكوخ الريفيّ» قصرٌ فخم. تتهاذى الضحكات والأحاديث من الشرفات المنيرة إلى الحدائق المنمّقة. يبدو أنّ المجتمع اللندنيّ الراقي موجودٌ هنا بأكمله هذه الليلة. يقطع الفناء المرصوف بالحصى مع وصول العربات التي تحمل الضيوف. وفي الداخل، تزخر الغرف بتمائيل الملائكة الصغار، وخزائن ملمّعة، وستائر ثقيلة مزخرفة، ومعلّقات الحرير على الجدران. ورغم اتّساع القصر وسقوفه العالية التي تشبه سماوات الشتاء، فإنّ آرثر يشعر بأنّه حبيس، وكأنّه محصورٌ في كرة ثلجٍ يُمكن التقاطها وهزّها في أيّ لحظة.

أمّا صاحبة البيت فهي امرأةٌ في غاية الأناقة، متورّدة الوجه، يجيش صدرها باللؤلؤ وقلادةٍ من الياقوت الأزرق، وهي من أنصار الأعمال الخيريّة، وجامعةٌ للتحف الفنيّة. لديها مجموعةٌ متنوّعةٌ من الكنوز، بدءًا من مطبوعات عصر النهضة ورسوماته، والخزفيّات الصينيّة من سلالة مينغ، والأواني اليابانيّة البرّاقة، إلى آثار بلاد الرافدين التي تهتمّ بها كثيرًا. ويُقال إنّها جمعت عددًا كبيرًا من التحف عبر علاقاتها العائليّة والتجاريّة مع المستكشفين البريطانيّين الذين زاروا تلك المنطقة.

- «سيد سيمث، يسعدني أنك تمكنت من حضور حفلنا البسيط. هلاً شرفتنا بالانضمام إلى بعض ضيوفنا الآخرين في جولة حول نينواي الصغيرة؟».

- «نينواك الصغيرة؟».

فتشبك ذراعها في ذراعه وهي تبسم. «اسمح لي أن أريك إيّاها».

تؤخذ ماويل إلى قاعة الرقص، حيث ترتشف الشمانيا وتبسم للسادة البدناء أصحاب اللحى، بينما تصطحب الكونتيسة آرثر إلى غرفة جانبية. وما إن يدخل حتى تتوقف أنفاسه. هي نينوى بالفعل! بوفرة نقوشها البارزة، واللوحات المعلقة، وتماثيل الحيوانات المجنحة، وعشرات الألواح المسمارية. ها هي آثار بلاد الرافدين تظهر من جديد في منزلٍ فخيم قرب لندن.

تسأله الكونتيسة: «ما رأيك يا سيد سيمث؟ لا شك في أن مجموعتنا المتواضعة هذه تتضاءل إن قورنت بالروائع التي رأيتهَا».

فيقول آرثر وهو يزدرد ريقه بصعوبة: «مبهرة. ولكن كيف استطعت -».

- «بعضها هدايا من أصدقاء أعزاء. وبعضها اشتريتها -».

ثم تشغل بضيف آخر يندفع نحوها للتعبير عن سروره. يلمح آرثر انعكاس صورته في النوافذ الفرنسية. يتشبث الحزن بملامحه، إذ يبدو له من الخطأ أن تُعرض آثار نينوى لتسلية الأثرياء والنافذين. أمّا شعب بلاد الرافدين، أحفاد الكتبة



الذين كتبوا الألواح والحرفيين الذين نحتوا التماثيل، فلن تُتاح لهم أبدًا رؤية هذه التحف. إلى هذه اللحظة، لا يزعمه أن تُجلب التحف الأثرية إلى أوروبا لتودع في المتاحف والمؤسسات الكبرى. بل على العكس من ذلك؛ كان يرى أنه ينقذها من النسيان. لكن رؤيتها الليلة معروضة في منزلٍ خاصٍّ يوجع فؤاده.

يقترّب ببطءٍ من انعكاس صورته، ويحدّق في وجهه. عيون الفقرا تنظر إليه. يشتاّق إلى ليلى، ويشعر بألمٍ حادٍّ يجتاحه. ليت في وسعه أن يجد بابًا خلفيًا كي يهرب من هذا المكان وكلّ ما فيه من بريق.

تسأله الكونتيسة وهي تستدير لتنظر إليه: «ألن تأتي يا سيّد سمث؟».

– «حاضر يا سيّدي».

فيتراجع عن النافذة، ويتبع المجموعة إلى الخارج.

يقاد آرثر ليجلس قبالة خطيبته على إحدى الطاولات، فيجد نفسه إلى جوار دوقٍ عجوزٍ أرملة. السيّدّة مسرورةٌ لجلوسها بجوار عالم الآثار الشهير الذي عاد لتوّه من أراضى الكتاب المقدّس. فتراقبه بفضولٍ من تحت أجفانها المنسدلة، وتلاحظ أنه لم يكد يقرب الحساء، وأنه لم يأكل سوى لُقيماتٍ صغيرةٍ من الطبق الرئيس (إوزٌ محشوٌّ وثعبان البحر المطبوخ بجوزة الطيب والنبيد البرتغالي).

– «أنت هادئٌ جدًّا سيّد سمث. حدّثنا عن رحلتك الاستكشافية. كيف كانت؟».

فيضيف رجلٌ ذو شاربٍ مشمَّعٍ: «نعم، أخبرنا. هل واجهت خطرًا في أيِّ وقتٍ من رحلتك؟».

يخيِّم الصمتُ بينما يميل العديد من الضيوف إلى الأمام ليسمعوا إجابته. فيرتشف آرثر رشفةً من نبيذه، ويفكر في الحريق المروِّع الذي شبَّ في القسطنطينيةً واجتاح أحياءَ بأكملها، فسرَّد الآلاف بين عشيةٍ وضحاها. يفكر في الفقر والبؤس الذي رآه في طريقه إلى الموصل، وفي الباشا والقاضي اللذين تأمرا على جماعةٍ بأكملها على فنجان قهوةٍ وحلوى. تعذِّبه الذكريات منذ أن عاد. فيقول: «كانت رحلةٌ بلا أحداثٍ كبيرة».

فتلحُّ عليه الدوقة: «أنت شديد التواضع. هل قابلت أيَّ لصوصٍ في الطريق؟ هل شهدت أيَّ إعدامات؟».

- «كانت هناك أوقاتٌ صعبة، لكنني أوكد لكم أن رحلتي لم تكن أخطر من ركوب قارب نزهةٍ على نهر التمز».

يضحك البعض، فيما يتنهد آخرون في خيبة أمل. ويلاحظ آرثر أن خطيبته تنظر إليه بشيءٍ أقرب إلى القلق.

عندها تتدخَّل صاحبة البيت، فيسري صوتهَا عبر الطاولة: «ماذا عن عبدة الشيطان؟ أليسوا موجودين في تلك المناطق؟».

فيشعر آرثر بالتوتر.

ويضغط عليه صاحبُ الشارب المشمَّع: «سمعتُ أنَّهم معتادون على نهب القوافل، وأنَّهم لا يغتسلون أبدًا. شعبٌ منحطٌ تمامًا، ومتهتِّكٌ للغاية، كما سمعت. نحن الآن في مجتمعٍ متهدِّب، فهل هذا ما يمنعك من إخبارنا بفجورهم؟».

فيحمرُّ وجه آرثر. «هذا محضُ كذب، بل إهانةٌ شنيعة». يشحب وجه الرجل.

ويلتفت آرثر إلى مضيفته. «اليزيديُّون شعبٌ طيّبٌ يا سيِّدتي، أوكدُ لك ذلك. إنَّهم أهلُ كرمٍ ولطفٍ وتقاليِدٍ راسخة، وهم نظيفون جدًّا. بل إنَّ المرءَ لا يمكنُ أن يدخلَ واديَ لالش المقدَّس إلاَّ بعد أن يستحمَّ ويخلعَ حذاءه. ولا يسمحون للأغراب بدخوله. للأسف، فقد تعرَّضَ اليزيديُّون لاضطهادٍ وسوء فهمٍ شنيع، لا بينَ جيرانهم المسلمين فحسب، بل بينَ المسيحيِّين أيضًا، بما في ذلك نحنُ المسافرون الغربيُّون. وهذا ظلمٌ كبير». ثم ينظر إلى الأعلى، ويرتفع صوته في انفعال. «هم قومٌ معتزُّون بأنفسهم، ومحترمون ومتواضعون جدًّا. وفي حقيقة الأمر، فإنِّي منذ وصولي إلى لندن أشتاق إليهم وأرغب في العودة إلى ديارهم».

لا يدوم طويلًا ذلك الصمت الذي حلَّ عليهم، إذ يضحك الرجل نفسه بصوتٍ عالٍ. «قد يكون هذا مفاجئًا للبعض، لكنَّه في الواقع شائعٌ جدًّا. يفقد العلماءُ عقولهم بسبب الموضوعات التي يدرسونها. فالكتَّاب يقعون في سحر شخصوصهم المتخيِّلة، والمستكشفون يُفتنون بالمناطق التي يزورونها. وقد أكدُ لنا صديقنا العزيز الآن حالةَ نموذجيَّةٍ من هذا التعلُّق الغريب وغير المنطقي. وهذا يثبت أنَّه عالمٌ ممتاز».

هكذا يومثون ويستأنفون محادثاتهم. لا تبدو الكونتيسة مستاءة، ولكن لا أحد يسأل آرثر عن أيِّ شيءٍ آخر. يجلس في صمت، وجبينه متغصَّنٌ في انزعاج، فيما ينخرط الناس على

جانبَيْه في ثرثرة هادرة. تقع نظرته على خطيبته، فتبتسم بهدوءٍ وهي تستمع إلى السيّد الذي يحدثها إلى جانبها. فهي، على عكسه، سعيدةٌ بين هؤلاء الناس، متألفة. تلتفت لحظة، وعيناها تنظران إليه ببرود.

قد تذهب إلى بلادٍ بعيدة، رجاء أن تجد شيئًا مختلفًا تمامًا عما كان لديك في وطنك، ولا يربو إليك الشكُّ أبدًا في أنك ستعود شخصًا آخر. لا يعرف آرثر متى حدث ذلك بالضبط، وعند أي مفترق طرق، لكنّه لم يعد آرثر نفسه. بلاد الرافدين ما تزال تناديه. يرى حلمًا تلو الآخر، يمشي فيه على صحارى سائلة، أو يُبحر على رمالٍ متحرّكة، فيستيقظ بشعور الفراغ ليس إلّا. يُقلقه أنّه ترك شيئًا هناك، ترك جزءًا هشًا منه، لكنّه حقيقيّ، ضاع في تلك المنطقة التي لا يفهم كلّ عاداتها، وتربكه طوائفها ومذاهبها العديدة. حتى الماء هناك له مذاقٌ خاصّ. ورغم هذي الغرابة كلّها، استحوذت على قلبه. لقد تسرّب نهر دجلة إلى حياته وتصلّب، كالشمع المتقطّر.

يتزوّجان في ذلك الصيف. مابيل آيةٌ من الجمال في فستان زفافها بصدرة الساتانيّ المحكم وريش النعام، وذيلٍ طويلٍ ينبغي لها أن تحرص كي لا تتعثّر به. تجلب مهرًا كافيًا لهما لاستئجار شقّةٍ فسيحةٍ في الطابق الأوّل من منزلٍ في «بيزوتر»، بنوافذ منزلةٍ عاليةٍ وتيّار هواء، ورائحة عفنٍ خفيفةٍ تغزو الحواسّ حين تدخلها. يأسفان أنّه ليس في وسعهما استئجار منزلٍ كاملٍ بصالةٍ كبيرةٍ وقبوٍ وعليّةٍ وحديقةٍ معرّشة. صحيحٌ أنّ آرثر يلقي تقديرًا

واحترامًا في جميع أنحاء البلاد وفي الأوساط العلميّة، لكنّ هذا لا يعني حصوله على دخل مرتفع. معظم زملائه في المتحف لديهم مداخيل خاصّة، فلا يُضطّرون إلى الاعتماد على الراتب. مع ذلك، لا يبدو آرثر منزعجًا؛ فشقّته هذه تشبه القصر إن قورنت بالمنزل القذر الذي قضى فيه طفولته.

يبدأ في إطلاق شعره، ولحيته. كان قد ظلّ سنواتٍ حليقًا، باستثناء فترةٍ قصيرةٍ مع سالفَيْن على شكل فخذ ضأن، بتأثيرٍ من الموضة التي سنّها الأمير الراحل ألبرت. لا تروقه زيارة الحلاقين، رغم وجود شيءٍ من المتعة في الجلوس على كرسيّ والإحساس بالمناشف الساخنة على وجهه، وحلاقه بموسى حادّة فوق وعاءٍ من البخار العطريّ. ولحسن حظّه أنّ أسلوبه الجديد يتمشى مع أحدث صيحات الموضة، فكثيرٌ من الرجال يطلقون لحاهم هذه الأيام. ما يزال حريصًا على نظافته الشخصية، فيستخدم زيت اللوز والمراهم. أمّا شحم الدبّ فله رائحةٌ منقّرة، رغم أنّه أثبت. في بعض الأحيان يكحلّ عينيه، فقد تعلّم ذلك من أهل القرى بجوار دجلة، لكنّه لا يجرؤ أبدًا على الخروج هكذا.

تراقب ماويل تلك الطقوس اليوميّة من كُتب. «أليس الأفضل أن تحلق؟ ألنّ يزداد احترامهم لك؟». فيقول آرثر: «لكنني أحبّ شكلي هكذا. أشعر برغبةٍ في خصلاتٍ طويلةٍ تندلّي على وجهي، مثل الملك اليونانيّ تيريلوس. أرجو ألاّ يقطع أحدٌ شعري أثناء نومي».

لكنّها لا تردّ ابتسامته، إذ لم تفهم ما كان يحيل إليه. ليست المرّة الأولى التي يشعر فيها آرثر بالتّساع الهوّة بينهما. يقول لنفسه

إنَّها تحبُّه وتريد للناس أن يحترموه. فلاحتمال الآخر مؤلِّمٌ للغاية، وهو أنَّ تركيزها على سمعته لا علاقة له بالحبِّ، بل بمكانتهما في المجتمع، إذ تصبح إنجازاته مجرد سلِّم يرتقيان به في المجتمع. فرغم نشأتها الموسرة، فإنَّها تدرك أنَّ نجاح زوجها هو الطريق الوحيد للاستقرار والإنجاز، ما دامت تريد أن تكون أسرة.

يأكل جيِّدًا هذه الأيام. ففي الصباح يتناولان اللحم المقدَّد والبيض، والسمك المدخَّن ولفائف الخبز والمربَّى. وفي بعض الأحيان، يتناولان على الغداء يخنة لحم أو سمكًا مفرومًا. لكنَّ آرثر دائمًا ما يعدُّ الطعام ابتلاء؛ فذكرى الجوع هي الشيء الوحيد الذي لم يتخلَّص منه. ما تزال التشنُّجات في معدته كالحجارة، ويشعر بالحاجة إلى التحقُّق يوميًّا ممَّا إذا كانت مؤنهم قد نفدت. لعلَّه تمكَّن من رفع رأسه وتغيير أوضاعه، لكنَّ الأرض تحت قدميه لا تبدو صلبة أو آمنة.

ومثلما اعتاد تسليم راتبه لوالده ثم والدته، أصبح الآن يعطيه زوجته. يستقطع مبلغًا صغيرًا لصابونه وكولونيائه، ثم يقدِّم الباقي لمايبل. وقد طلب إليها أن توفر قدر استطاعتها، لكنَّ مايبل تحبُّ الصرعات الجديدة. تتغيَّر الموضات بسرعة، وهكذا تنمو ديونهم شهرًا بعد شهرٍ لمتاجر شارع ريجنت.

لا يتذمَّر آرثر أبدًا من جولات التسوُّق هذه التي لا يستطيعون تحمُّل نفقاتها، بل يعد بأنَّه سيعمل بجدِّ أكبر لإنهاء الكتاب الذي بدأ في كتابته، ويحقِّق مدخولًا إضافيًّا. لكنَّ مايبل حبلَى، وسوف تحتاج عمَّا قريبٍ إلى ملابس جديدة. فعلى الرِّغم من أنَّ كتيِّبات

العلاقات الجنسية تؤكد أنّ «الحمل لا يمكن أن يحدث من دون إثارة للشهوة، أو استمتاع بالفعل الجنسي»، فإنّ هذا الادّعاء يبدو خاطئًا تمامًا. لدى آرثر ومايبل غرفتان منفصلتان، وقد توصّلا إلى اتّفاق بأن يزورها مرّتين في الشهر لأداء واجباته الزوجيّة، في الأيّام التي تختارها.

تسأله مايبل: «بما أنّ لدينا الآن طفلًا في الطريق (أو ربّما اثنين، فالتوائم موجودة في عائلتك)، ألم يحن الوقت لكي تطلب ترقية؟ ألم تنته من تلك الألواح القديمة التافهة؟ ألم ينته ذلك العبث والتململ طوال اليوم مع قطع طينيّة قذرة؟».

فيردّ عليها: «هذا ليس عملاً مؤقتًا. سوف يستغرق وقتًا. ملحمة گلگامش مهمّة للغاية. فهذه القصيدة أقدم حتى من الأساطير اليونانيّة، تخيلّي!».

فتمسك مايبل نفسها.

– «خذي مثلاً أخيل ورفيقه باتروكلوس. فتلك القصّة، على روعتها، قد تكون مستوحاة من قصّة گلگامش وإنكيدو».

فتقاطعه مايبل بإشارة من يدها. «ما دامت مهمّة جدًّا هكذا، لماذا لا تطلب من المتحف أن يرفعوا راتبك إلى مبلغٍ لائق؟ كيف يتوقّعون أن نكوّن أسرةً بهذا الراتب الضئيل؟».

– «ستدبّر أمرنا بطريقةٍ ما».

– «بطريقةٍ ما؟ أخبرني كيف. أنت تعيش في الأحلام».

ينحني كتفاه إلى الأمام، ويبدو لحظةً كأنّما فقد القدرة على الكلام. ولم يكذب يقول شيئًا طول ذلك اليوم.

مع ذلك، ظلّ يستيقظ كلّ صباح باكراً، ويسرع إلى عمله. يشعر بالذنب لترك ما بيل بمفردها، رغم وجود مدبرة المنزل فلورس التي تأتي كلّ يوم للتنظيف. سوف يتعيّن عليه أن يقلّل من غيابه عن البيت بمرور أشهر الحمل، فقد صمّم على أن يكون أباً أفضل ممّا كان عليه والده. بدت حياته كافيةً هكذا لبعض الوقت: كتابه، وزوجته، والطفل أو الطفلان القادمان... والعمل باجتهاد على قصيدة قديمة قدم التاريخ المكتوب. يقنع نفسه بأنّه لا يحتاج إلى الكثير غير هذا. مع ذلك، ثمّة شيء يشدّ قلبه، ويعشّش في أعماق صدره. ثمّة طائرٌ محبوس، يرفرف بجناحيه، ويضرب بقوة في قفصه، ويغرس مخالبه في لحمه. لا يريد آرثر إخراج هذا الطائر، خشية ألاّ يستطيع احتواءه مرّةً أخرى.

آخر ما يفعله في الليل وأوّل ما يفعله في الصباح، حين يعود إلى متاهة الذاكرة، هو أن يفكر في الأرض والنهر والمرأة التي تركها في بلاد الرافدين.



## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

في مساء الجمعة، كانت زليخة آخر من غادر مركز علم البيئة والهيدرولوجيا. فهي تستمتع بالعمل في الساعات المتأخرة، إذ يتحوّل المعمل إلى مكانٍ مختلفٍ حين لا يكون هناك أحد، ويصبح الصمت في المبنى شبه ملموس. يذكّرُها المبنى بصخرةٍ تقف حارسةً بجوار ضفّة النهر، مثقلةً بتراكمات الطحالب ومرور الزمن، كمراقبٍ ثابتٍ للأشياء التي تتلاشى، بينما تنمو النباتات من حولها وتتحلّل الأحياء الصغيرة وتعود إلى الحياة.

تنظر زليخة في المجهر، تحت ضوء مصباح مكتبيٍّ مائل. تتحرّك آلاف الكائنات الدقيقة ذات الخليّة الواحدة بلا انقطاعٍ على

الشريحة الزجاجية. بكتيريا فيبريو كوليرا. جناة ضئيلون قادرون على إبادة الأرواح البشرية. ورغم الافتراض السهل بأن الكوليرا (التي قُضي عليها إلى حدٍّ كبيرٍ في المجتمعات الصناعية) لم تعد تشكّل تهديدًا خطراً، إلّا أنّ هذا المرض القاتل لم يختفِ تمامًا، وما يزال يشقّ طريقه بين السكّان في البلدان النامية. ومع تدمير البيئة وتلوّث مصادر الماء، أصبح اندلاع حالاتٍ جديدةٍ في شتّى بقاع الأرض مسألة وقتٍ ليس إلّا. ففي غضون عقودٍ قليلةٍ لا أكثر، سيعيش واحدٌ من كلّ أربعة أطفالٍ حول العالم في مناطق ملوّثة المياه، لدرجة أنّ شرب الماء سيقتلهم. تخلع قفّازي اللاتكس ونظّارات الأمان. هي حركاتٌ كرّرتها مرّاتٍ كثيرةٍ حتى أصبحت طقوسًا يوميةً. وقد تركت الأشرطة الضيقة علامةً حمراء حول عينيها، كالعادة. ترثّب زليخة الأوراق على مكتبها، ثم تشغل حاسوبها وتدخل أحدث البيانات من الملفات التي وضعها أحد الباحثين في صندوق الوارد.

لقد درست هي وفريقها في السنوات الست الماضية أكثر من ثلاثمئة موقع حول العالم لمعرفة كيف يؤثّر التغيّر المناخيّ في خصائصها المميّزة، بما في ذلك كمّيّات التدفّق، والطيني، والتنوّع الحيويّ. ينزلون البيانات يوميًا من محطّات القياس، من أميركا الجنوبيّة إلى أستراليا وشرق الولايات المتّحدة الأميركيّة، ويسجّلون مستويات المياه. فالتغيّرات في المناخ المائيّ تجلب معها خطرًا متزايدًا من حدوث الفيضانات. وتعرف زليخة جيّدًا أنّه لا توجد منطقة في العالم كلّها في مأمنٍ من الفيضانات.

تدخل اليوم بيانات نهر دجلة. كانت حريصةً على العمل مع

علماء من الهلال الخصيب، فهي منطقةٌ معرضةٌ للخطر على نحوٍ خاصٍّ، وسوف تختفي تمامًا في هذا القرن تحديدًا. يجفّ القوسُ الممتدُّ من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج الفارسيّ [العربي] بسرعة. هو أكبر نظام بيئيٍّ للأراضي الرطبة في الشرق الأوسط، يتقاسمه العراق وإيران وسوريا وتركيا، لكنّه يُحتضر.

لطالما استغربت زليخة أنّ خالها لم يبدِ اهتمامًا بالعودة إلى تلك المنطقة، ولا حتى لقضاء إجازة. فقد قطع كلّ الروابط التي تربطه بطفولته، كلعبةٍ مهملةٍ تجاوزها. تتذكّر حوارًا دار بينهما ذات مرّةٍ في أيّام دراستها عن أنواعٍ مختلفةٍ من السلمون تُولد في المياه العذبة ثم تهاجر إلى المحيطات، ثم تعود إلى مسقط رأسها كي تموت. أنصت الخال إليها، لكنّ ستارةً انسدت على وجهه. ورغم أنّ الحوار كان عن السمك ولا شيء غير ذلك، فإنّها أدركت ما خطر لهما في الوقت نفسه: أنّ خالها حالةٌ مختلفة. فلن يعود أبدًا إلى المياه التي وُلد فيها. لقد سبح بأقوى ما يستطيع وبأسرع ما يمكن، بعيدًا عن مسقط رأسه.

\*\*\*

بعد ساعة، تخرج زليخة من المبنى. وبينما هي تغلق الباب، يرنّ هاتفها. هِلن تتصل.

– «أعتذر عن الاتّصال بك في هذا الوقت المتأخّر يا عزيزتي».

– «لا بأس. هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟».

– «لديّ أخبارٌ مذهلة. لم أستطع أن أنتظر حتى أخبركِ بها. وجدنا متبرّعًا».

فيضيء وجه زليخة: «حقًا! هذا مذهل».

- «نعم، نعم. رتب أبي كل شيء».

- «رائع، كم أنا سعيدة لأجلك، ولكل الأسرة».

- «شكرًا! ما زلت أحاول أن أستوعب الخبر».

تُخرج زليخة مفاتيحها من قاع حقيبتها الممتلئة. تنقل الهاتف إلى يدها الأخرى، وتقفّل الباب. «لا بدّ أنّك تشعرين بارتياحٍ شديد».

- «نعم... ولنتفاءل بالخير. لا أريد أن أعتبر الأمر وكأنّه قد قُضي. أكثر ما أخشاه أن يحدث شيء ما في اللحظة الأخيرة».

- «يا حبيبتى لا تفكّري بهذه الطريقة. سيكون كلّ شيء على ما يرام. في أيّ مستشفى ستكون؟ مستشفى غاي؟ أم تشلسي؟».

- «لا هذا ولا ذاك. سنذهب إلى إسطنبول. هي عيادة من الدرجة الأولى كما أكّد لي بابا. فهو يعرف الطبيب المسؤول. سنسافر جميعًا».

- «إسطنبول؟ متى؟».

- «بعد حوالى ثلاثة أسابيع. سيخبروننا بالموعد». تسكت هِلن، ثم تقول. «هل يمكنك أن تأخذي إجازة؟».

فتقول زليخة: «بالتأكيد. سأحرص على ذلك. أريد أن أكون معكم».

- «أوه، أقدر هذا جدًّا. زليخة... قد يكون والدي متحكّمًا

أحياناً، لكنَّ نواياه طيِّبة. لا تنزعجي كثيراً إذا حاول أن يثنيك عن إكمال الطلاق. كان منشغلاً جداً بليلي، حتى إنَّه لم يجد وقتاً للحديث معك، لكنَّه بالتأكيد كان يفكّر في الأمر. وأنا واثقة من أنَّه سيشرع الآن في حملته الجديدة: أنقذوا زواج زليخة. تعرفين أنَّ هذه هي طريقته في إظهار حبِّه له. يحرك الأرض والسماء من أجل من يحبُّهم».

- «نعم، أعرف ذلك».

- «الحقيقة أنَّ كلَّ ابنةٍ تعشق والدها، لكنَّ المحنة التي مررتُ بها جعلتني أدرك كم هو رجلٌ مميّز. كريمٌ وداعمٌ إلى أقصى الحدود. معي ومعك أيضاً، لا يوجد أيّ فرقٍ على الإطلاق. فهو مستعدٌّ دائماً لدعم أسرته، في أيّ وقتٍ نحتاج إليه».

فتقول زليخة: «صحيح. لا أنسى أبداً كم نحن محظوظون. ينبغي لي فقط أن أخبره بلطفٍ أنَّني لن أعود إلى براين. لا أرى أيّ أملٍ في ذلك».

تتنهّد هِلن. «حسنٌ يا عزيزتي. القرار لك. أحبك. سأحجز تذاكر إسطنبول عندما يحين الوقت».

- «ممتاز. وأنا أحبك».

في اليوم التالي، تدعو زليخة نين للعشاء. وبما أنَّها لا تجيد الطبخ وليس لديها كثيرٌ من أدوات المطبخ في البيت العائم، تطلب طعاماً من مطعمٍ لبنانيٍّ قريب. بابا غنوج، وتبولة، وفلافل،

ورقائق خبز البيتا، ورزّ، وعدّس. تستخدم أطباقاً ورقيةً وملاعق خشبيةً معادة التدوير وقابلةً للتحلل، بدلاً من الأطباق المعتادة، وهي تعلم أنّ نين لن تنزعج من ذلك.

بعد السابعة بقليل، تصل نين متأخرةً قليلاً، ترتدي سترةً مطبوعةً يدويًا بالأبيض والأسود، مصنوعةً من أقمشةٍ قديمةٍ مستخدمةٍ وبقايا ملابس، مع بنطالٍ فضفاضٍ وقُرْطٍ فضيّ طويلٍ يتدلّى من إحدى أذنيها. تعلق حقيبة ظهرٍ على كتفها، ومعها صندوق خشبيّ مكّسّ بالبرتقال.

- «ما هذا؟».

- «مخزونك الشهريّ من فيتامين سي».

ثم تفتح حقيبة ظهرها وتُخرج آلة قهوة وكيس قهوة وحزمةً من الخزامى المجفّفة. «لديّ آلةٌ زائدةٌ في المنزل، فأحضرتها معي، في حال أردت الاحتفاظ بها».

- «يسعدني ذلك جدًّا. شكرًا لك!».

تبتسم نين، وتقلب الصندوق على الكرسيّ، فتندحرج البرتقالات في كلّ اتجاه، كشموسٍ صغيرةٍ مشتعلةٍ تنير المكان كلّهُ.

ثم تسأل نين: «طيّب، هل لديك مفرش طاولة؟».

- «لديّ شال».

- «ممتاز».

تنشران الشال فوق الصندوق المقلوب، إذ تحوّلانه إلى طاولة صغيرة. يبدو ساحراً، وكأنّه من قصص الأطفال. نين تعرف كيف تجعل الأشياء سهلة.

لحسن حظّ زليخة أنّ الطعام كان لذيذاً، فاختفى توثرها شيئاً فشيئاً. تتسرّب نسمةٌ إلى البيت العائم عبر النافذة. رائحةٌ خفيفةٌ من النهر، مليئةٌ بالوعود. تجد زليخة نفسها تتحدّث عن أحدث البيانات من نهر دجلة، عن الانخفاض المقلق في مستويات المياه. وبن مستمعةٌ ممتازة، صبورٌ منتبهة، فتدركُ زليخة أنّها تستمتع حين تحدّث نين عن عملها.

تقول زليخة: «ليس التغيّر المناخيّ وحسب. بناء السدود في تركيا، أي في المنبع نفسه، يزيد الأمر سوءاً للعراقيين، أي في المصبّ. فهذا يقلّل تدفّق المياه قليلاً هائلاً. حين تبني دولةٌ ما سدوداً ضخمة، تنتج عن ذلك عواقبٌ وخيمةٌ على جيرانها».

تقول نين: «مؤسفٌ جدّاً. فهذان النهران الأسطوريّان، دجلة والفرات، ولدا من دموع امرأة».

- «ماذا؟ لم أسمع عن هذه القصة».

- «أوه، إنّها قصةٌ رائعة».

- «احكي لي».

تسكب نين لنفسها كأس ماءٍ من حنفيّة المطبخ، وتتأكّد ممّا إذا كان هناك تسريبٌ في المغسلة. ثم تجلس على الأرض، حيث ترتاح أكثر من جلستها على المقعد. ثم تقول: «في تلك الأيام، في تلك الأيام البعيدة... في الأزمنة الغابرة... كانت السماء

والأرض شيئاً واحداً. كان العالم لوحاً فارغاً، ينتظر تشكّل الكلمات الأولى. كان كلُّ شيءٍ في انسجام. المياه المرّة والحلوة تمتزج بسلاسة. كانت تيامات إلهة البحر (المياه المالحة)، وأبسو إله الينابيع (المياه العذبة). كانا مختلفين جداً، لكنهما وقعا في الغرام».

– «وماذا حدث بعد ذلك؟».

– «نشأت منهما آلهة أخرى. وحين قُتل زوج تيامات، أرادت أن تنتقم. كانت جبّارة، قويّة الإرادة. حشدت جيشاً من المخلوقات الأسطورية وهاجمت قوَّات مردوخ، عدوّها اللدود. استمرَّت الحرب فترةً طويلة، لكنَّ مردوخ وضع خطة. إذ طلب من الريح أن تدخل فم تيامات، فكبر جسدها إلى أن أصبح بحجم العالم، فسَهَّل عليه أن يقتلها بسهم. وهكذا خلقت الأرض من جسدها المتحلّل، ومن عينيّها الباكيّتين نبع النهران الأسطوريَّان في بلاد الرافدين: دجلة والفرات».

– «يا لها من قسوة!».

فتأخذ نين برتقالةً وتبدأ في تقشيرها. «نعم، تبدو قصّة آدم وحواء والثمرة المحرّمة مجرد نزهة إن قورنت بقصّة الخلق في بلاد الرافدين».

«إذن فقد نشأ النهران من دموع امرأة». تسكت زليخة، ثم تسمع نفسها تقول: «أنا متعبة جداً من الشعور بالحزن طوال الوقت».

لا تُبدي نين دهشةً لسماع ذلك. تكفي بالإيماء بنظرة رقيقة.



تقول زليخة: «أحسد الناس السعداء. ليس غيرةً منهم، لكنَّ الأمر يحيرني. أريد أن أدرسهم، أن أضعهم تحت المجهر كالعينّة. كيف يفعلون ذلك، وأنا على الدوام مختلّة التوازن؟».

تقدّم نين لزليخة نصف برتقالتها. ثم تقول إنّنا حين ننظر إلى شخص ما، فكلّ ما نراه في تلك اللحظة صورةٌ جزئيةٌ منه، وهي في الغالب صورةٌ متحيّزةٌ دون أن نعي. يبدو في أعيننا ناجحين وراضين، لذلك نعتقد أنّ الخطأ فينا بالتأكيد، ما دمنا لا نستطيع أن نكون مثلهم. لكنّ تلك الصورة ليست الواقع الكامل، ولسنا نحن بتلك البساطة أو الجمود. «كلُّنا مثل الألواح الطينيّة، مكسورةٌ عند الحواف، نخفي أسرارنا الصغيرة وشقوقنا».

- «ولكنّ ليس الجميع».

- «بل الجميع، صدّقيني. هل يوجد شيءٌ اسمه سعادةٌ مطلقة؟ أو نجاحٌ لا ينتهي؟ أو زواجٌ مثالي؟ أو حلٌّ سريعٌ لعلاج القلق؟ يطيب لنا أن نصدّق ذلك، تمامًا كما أراد گلگامش أن يصدّق بأنّه يستطيع الخلود. لكنّنا بعد ذلك نلقى الهزيمة والمذلة. نتعلّم أن نتقبّل وجود خطأٍ دائمًا، وجود شيءٍ مكسور، ولن يتغيّر هذا الشعور بالنقص ما لم نُحسن إلى أنفسنا».

- «لعلّك محقّقة، رغم أنّي لا أستطيع تخيّل خالي على هذا النحو... لقد واجه صعوباتٍ كثيرة، لكنّه لا يسمح لها بالتأثير فيه أبدًا».

تحرّك نين في مقعدها، وتقول: «لا تكوني واثقةً هكذا». تقول ذلك بقناعة، وكأنّه شيءٌ فكّرت فيه من قبل. «أعتقد أنّه أكثر

شخصٍ منكوبٍ في أسرتك كلّها، رغم أنّه يبدو الأنجح».

※

تملأ زليخة كأس ماءٍ وتجلس بجوار نين، تتلامس كتفاهما. تأخذ رشفة. وهناك لحظة صمتٍ بينما تضع يدها على يد نين. «أحبّ الحديث إليك».

«وأنا أحبّ الحديث إليك أيضًا». تلتفت نين لتنظر إليها.

※ ※ ※

يبدو جسد نين وهي تجلس بالقرب منها أكبر ممّا تخيلته. ينتشر النمش على صدرها، وثمة لونٌ نحاسيٌّ في شعر ذراعيها، كما أنّ أذنها اليسرى أطول قليلاً من اليمنى، أو لعلّه خداعٌ بصريٌّ من ذلك الضوء المتلاشي. لكنّ هذه التفاصيل التافهة كلّها تثير في زليخة ابتسامة. تطلُّ نين ساكنة، وكأنّها تقرأ أفكار زليخة وتشعر بحيرتها، غير أنّها تحتضنها بنظرةٍ طويلةٍ صافية.

تقول نين: «أنت جميلةٌ جدًّا».

– «لستُ جميلة. ولم أكن جميلةً قطّ».

– «هل تمزحين؟».

فتهزّ زليخة كتفيها.

تقول نين: «انظري إليّ».

– «ها أنا أنظر».

– «بصدق، انظري في عينيّ. ألا ترين نفسك فيهما؟».

تنظر زليخة من كتب. «ثمة شخصٌ هناك».

- «استخدمي عيني كمرآة كي تقدري جمالك».

فتبتسم زليخة. «هل هذا شعر؟ هل تكتبين الشعر؟».

- «ليتي أستطيع. لستُ إلا قارئة مخلصه».

ثميل زليخة رأسها، تتذكر حوارهما السابق. «قلت إن الإلهة المنسية كانت راعية الحكّائين والشعراء. هلأ حدثتني عنها أكثر؟».

- «أوه، يمكنني أن أتحدث عنها بلا انقطاع. ستُضطرّين إلى إيقافني إذا بدأتُ أثرثر».

- «أحبّ ثرثرتك».

فتقول نين وهي تنهض على قدميها في حركة انسيابية واحدة. «حسنٌ إذن. ولكن دعيني أعدّ لنا قهوة أوّلاً».

\* \* \*

كانوا يسمونها نيسابا، رغم أنّها عُرفت بأسماء أخرى أيضًا وفقًا للمكان والزمان: نيدابا، ناغا، سي - ناغا... إلهة الحبوب والحصاد، التي تتحكّم بالمطر، وتوجّه كلّ قطرة تسقط من السماء. في الصور تحمل ساق قمح في يد واحدة، رمزًا للحياة والتجديد والولادة الأخرى، وفي يدها الأخرى تحمل قلمًا ذهبيًا ولوحًا من اللازورد. تتشابك جذور الزراعة وجذور الأدب، ولا يوجد من يضفّرهما معًا سوى نيسابا، مثل خصلة من شعرها.

وُلدت نيسابا من اتّحاد السماوات والأرض، من عوالم تبدو مختلفة وبعيدة جدًا، حتى إنّه قد لا يكون واضحًا ما لدهما من قواسم مشتركة. ومن هنا جاءت مهارتها، أي فنّ الكتابة، إذ تمثّل

رغبةً دائمةً في محو الشائئيات، وفكّ التراتبيّات، وتجاوز الحدود. فلمّا نمت مدن الرافدين وازدهرت تجارتها، ازدادت الحاجة إلى حفظ السجّلات. فكان لا بدّ من تسجيل كلّ معاملةٍ بدقّة: البضائع، والأسعار، والديون... لكنّ الذاكرة البشريّة معرّضةٌ للخطأ.

لم تعد علامات التذكير كافية، كالنقش على لحاء الشجر، أو الخربشة بالفحم على الحجارة، أو رسم الخطوط على عظام الخراف. لا بدّ من طريقةٍ جديدة. لا بدّ من شيءٍ متعدّد الاستخدامات يمكنه أن يربط الأرقام والأصوات، لا بالجماد فحسب، بل حتى بالأفكار المجرّدة والمشاعر. أصبحت هناك ضرورةٌ لخطّ أكثر تطوّرًا. أن تكون الكتابة وسيلةً للتذكّر. ولكن كيف؟

تساعدنا الأنهارُ دومًا. يجلب نهرا دجلة والفرات كمّيّاتٍ هائلةً من الطمي. والتربةُ ذات الحبيبات الناعمة، سواءً كانت صلبةً أم لزجة، تُعدّ مثاليّةً للتشكيل في ألواح حين تكون رطبة، وقويّةً حين تُسخّن بالنار ثم تُجفّف تحت الشمس. هكذا بات أهل الرافدين القدماء يُدخلون التفاصيل اليوميّة على هذه الألواح المضغوطة، ما بين كيس الشعير، وسعر البيرة، وعدد العمّال في موقع البناء، وما إلى ذلك. ولمّا انتقلت الكتابة المسماريّة (التي نشأت عند السومريّين) إلى البابليّين والآشوريّين، اكتشف الكتّبة أنّ الكلمات ما إن تُطبع على الحجر حتى يصبح عمرها أطول من أولئك الذين كتبوها. فالقصص تتجاوز أسوار المدن، تعبر الصحارى وتمتدّ عبر الأودية. الكتابة تُحرّر النفس من قيود

المكان والزمان. ولئن كانت الكلمة المنطوقة ميزةً للآلهة،  
فالكلمة المكتوبة انتصاراً للبشر.

وهكذا ازدادت شهرة نيسابا. تظهر في الأختام الأسطوانية  
بخصلات شعرها الطويلة الباذخة بعناية في صفائر، فتُبدي خصوبةً  
محكمة، بعينيها الداكنتين كريش الزرزور. ترتدي ثوبًا مكشكشًا،  
ويلمع التاج ذو الجواهر على رأسها كال مياه التي يضيئها القمر.  
تتدلى من أذنيها سيقان قمح أو عناقيد تمر، تقرقع مع كل خطوة  
تخطوها. ينقش الناس رمزها على النُصب التذكارية ويعلقون  
صورتها فوق عتبات منازلهم. اسمها محفورٌ على جدران المعابد،  
منقوشٌ على التماثيم. هي راعية أمناء المحفوظات وأمناء  
المكتبات، وهي التي تهمس في آذان المنشدين والحكّائين.  
يستدعونها عندما يحتاجون إلى الإلهام، فتأتي لمساعدتهم في  
لحظات الحيرة. هي مؤرّخة الزمن، وجامعة القصص، وحارسة  
الذكريات.

إلهة الكتابة تسجّل الحسن والقيبح، من احتفالاتٍ ومراث،  
وانتصاراتٍ وهزائم، وجمالٍ وفظائع، أي كلّ ما يمنح البشر  
صمودهم وهشاشتهم. تحظى بتبجيل كبير في بعض المناطق من  
بلاد الرافدين، حتى إنّه لا يُוכל إليها سرد الأساطير والحكايات  
فحسب، بل تُسند إليها تسوية النزاعات أيضًا، ورفع المظالم.  
فالعُدل يحتاج إلى توثيق، كي يكون له معنى.

حين يُنشد الشعراء في بلاد الرافدين قصائد البطولة وانكسار  
القلب، نيسابا هي التي تزرع قبلّةً على شفاههم. وحين يستيقظ  
الطلّاب مع بزوغ الفجر للتدرب على الكتابة، نيسابا هي التي  
توجّه أصابعهم المتردّدة. هكذا أصبح الخطّ الإسفيني أكثر تعقيدًا

بمرور السنوات وانتقاله من مدينةٍ إلى أخرى، مثلما صارت نيسابا نفسها أكثر تعقيداً. ليس الكتبة وحدهم من يذكرونها حين يفهرسون بضائعهم ويسجّلون معاملاتهم، بل كذلك العلماء والكهنة وعلماء الرياضيات والفلك. ثمّة معبدٌ لنيسابا في «إريش» يُعرف باسم إيساغين، أي «بيت اللازورد»، فهذا حَجَرُها، وهذا لونُها. فالناس يرون إلهة المعرفة والسرد بأعمق درجةٍ من اللون الأزرق.

تمرُّ القرون، ويخلفُ الزمن آثاره كالغشاء البرونزيّ على سطح المرأة. وتكتب الشمسُ أقواساً ذهبيةً كثيرةً عبر سماوات بلاد الرافدين، فيما تتطوّر نيسابا إلى إلهةٍ للقراءة والكتابة والأدب والمكتبات. تُحفر على جدران مدارس الكتبة عبارة «المجدُ لسيدتي». حتى الألواح الطينية تنتهي بالكلمات نفسها:

### الحمد لنيسابا

الكتابةُ حرفة، مثل أيّ حرفةٍ أخرى. ينبغي أن تتعلّمها من أستاذ، وتتابعها بتفانٍ وتمارسها يوماً بعد يوم إلى أن تتقرّح أصابعك، ويحدودب ظهرك، ويبدأ بصرك في الخفوت. تنتشر المدارس في كلّ مكان، القواعد صارمة، والأخطاء غير مقبولة. كتبةٌ من ذكورٍ وإناثٍ يدرسون في بيوت الألواح هذه، رغم أنّ أعداد الإناث كانت تتناقص بسرعةٍ شديدة. ومعظم اللاتي بقينَ تراجعنَ إلى دَيرٍ في «سيپار»، إذ يُسمح لهنّ بالعمل، لكنّ الثمن الذي يدفعه هو العزلة عن بقيّة المجتمع. تشعرُ إنهيدوانا بتدهور الأمور، وهي الكاهنة الكبرى في أور، وشاعرةٌ تنفث الحياة في الكلمات، وعابدةٌ ناسكةٌ لنيسابا. لديها الآن أعداءٌ في كلّ مكان،

فهناك من يقول إنّ النساء لا ينبغي أن يُسمح لهنّ بالحكم أو تقديم المشورة للقادة، ولا حتى بالكتابة.

هكذا يبدأ الموت البطيء للإلهة الكتابة. ظلت هناك أماكن مقدّسة حُصّصت لها، وظلّ البعض يذكرها ويبجلّها، لكنّهم لا يُعلنون ذلك. فلا بدّ من الحذر عند ذكر نيسابا.

وفي زمن حمورابي، يَغشى القلوب خوفٌ جديد، إذ تُسنّ أقسى العقوبات، ويُنقش الرعب في الحجر. يفضّل القانون القوّة، ويفضّل الرجال، وبالتالي تصبح النساء والأطفال والعبيد والغرباء والضعفاء الذين لا يملكون سلطَةً أو ثروةً في منزلة أدنى. يُنزل حمورابي غضبه على من يخلّون بالنظام، كالزوجة التي تؤذي خصيتيّ زوجها بالخطأ، إذ تُعاقب أكثر من اللصّ أو حتى من يقتل بدم بارد. أمّا المرأة التي تُتهم بإهمال بيتها فتُلقى في النهر. وهكذا يَستقبل دجلة أجسادهنّ، فقد ظلّ دومًا صبورًا على عادات البشر.

تُجرّد إلهة الكتابة من سلطاتها في النظام الحالي، وتُمنح كلّها لإلهٍ ذكرٍ يُدعى نابو. من الآن فصاعدًا سيصبح نابو راعي القراءة والكتابة وسرد القصص. سيُجسّد نابو المعرفة والذاكرة والحكمة. وهكذا يُجبر الكتّبة الشباب في مئات المدارس على إنهاء فروضهم بهذه الكلمات:

الحمد لنابو

أمّا نيسابا، فيجري تحويلها إلى «زوجة نابو المحبّة»، وفيّة معطاءة ومطبعة. هكذا تصبح سكرتيرته المجدّة، إذ تحوم في

خلفيّة المشهد للمساعدة. ولا يبقى من ماضيها المجيد سوى قلادة من اللازورد على شكل قلم يتدلّى حول عنقها. لا تُمحي نيسابا دفعةً واحدةً، بل شيئًا فشيئًا، إذ تتراجع إلى الظلال وتراقب نابو وهو يجمع الأوسمة والإطراء الشديد. ما أسرع صعوده! وفي الوقت الذي يُتوج فيه مردوخ ملكًا للإلهة، يُعلن نابو ابنًا للملك. هكذا يقف بقامته الطويلة فخورًا بجوار عرش والده، يحمل في يديه اللوح الأزرق الذي كان ملكًا لنيسابا ذات يوم. فلمّا جاء عهدُ الملك السادس من السلالة الأولى لملوك بابل، أصبحت الكتابةُ مهنةً غير مناسبةٍ للنساء.

يعلو نجم نابو أكثر فأكثر، وينتشر من بلاد الرافدين إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، فتتبنّاه حضاراتٌ عديدة، يونانيّةٌ ورومانيّةٌ ومسيحيّةٌ. لكنّ تراث نيسابا سيبقى متجذّرًا في المكان الذي نشأ منه، وسيموت هناك أيضًا، إذ تُكسر ألواحها، ويُدفن قلمها على ضفاف دجلة. تحوّلُ كامل، تُمحي فيه إلهة الكتابة، وتبقى سيّدةُ الذاكرة منسيّةً إلى الأبد.

حين تنتهي نين من سرد قصّتها، يكون الضوء قد تلاشى في البيت العائم، وتحوّل الأثاث القليل إلى ظلال. ورغم أنّ زليخة لم تشرب شيئًا مُسكرًا أكثر من قهوة نين، إلّا أنّها تشعر بدوار.

تقول نين وهي تنهض: «الوقت تأخّر. لا بدّ أن أذهب».

فتقول زليخة وهي غير واثقةٍ ممّا تريد قوله أو فعله، لكنّها تشعر بأهميّة أن تكون نين هنا حين تكتشف ذلك: «هل تريدين



قضاء الليلة هنا؟ لديّ مَنَامَةٌ إضافيّةٌ يمكنني أن أعيرك إيّاها. . . إذا أردت».

تعودُ نين للجلوس، وتسعل قليلاً.

– «ماذا هناك؟».

– «لا شيء. لكنني سأرتدي منامتك. . . بكلّ سرور».

لم تتوقّع زليخة أن تنام بسهولة، لكنّ هذا ما يحدث، فتشعر بإحساسٍ مفاجئٍ بالهدوء، بل بما يشبه السلام.

تستيقظ زليخة فجأةً عند الساعة الثالثة وثلاثٍ وأربعين دقيقة. تجلس في سريرها، وتحسّ بضيقٍ في صدرها. تظلّ ساكنة، تستمع إلى تلك الأنفاس اللطيفة المنتظمة بجانبها. ثم تبتعد بحذر، وتأخذ وقتها في إبعاد يدها عن يد نين. يصبح جسد نين صورةً ظليّةً متموجّةً تحت شبكة ضوء القمر القادمة من المصاريع. وفي هدوءٍ شديد، تغادر زليخة السرير وتصعد الدرج. هناك في الأعلى، تجلس على الكرسيّ وتغمض عينيّها. يتوقّف الوقت.

– «زليخة؟».

نين، بشعرٍ أشعثٍ وقدمين حافيتين.

– «هل أنت بخير؟ لماذا تجلسين في الظلام؟».

– «هناك ضوءٌ كافٍ». وتشير إلى القمر.

تخطو نين خطوةً أقرب. «منذ متى وأنت هنا وحدك؟ هل كنتِ تبكين؟».

تمسح زليخة عينها بظهر يدها. «أنا بخير. لم أستطع أن أنام. لم أقصد إزعاجك».

فتسحب نين المقعد وتجلس إلى جانبها، ثم تقول بحنان: «متى تخبريني؟».

- «أخبركِ بماذا؟».

- «لقد كنتِ هناك. أعتقد». تسحب نين نفساً، وتزفر. «كنتِ مع والدَيْكِ في الليلة التي توفياً فيها. كنتُ أفكر في الأمر... أفكر فيكِ. ردُّ فعلكِ على الماء عميقٌ جداً، وحزنكِ قريبٌ جداً من السطح، لا يكاد يغمره الماء. أعتقد أنَّ هذا ما حدث. فحين سافر والداكِ إلى الشرق الأوسط، لم يتركاكِ في لندن. كانت عطلَةٌ عائليَّة. كنتِ في السابعة من عمرك، وحدث شيءٌ فظيعٌ في تلك الرحلة. نجوتِ أنت، لكنَّهما لم ينجوا».

يخرج صوتٌ غريبٌ من شفَتَي زليخة. تكاد تكون صرخة، لكنَّها خافتةٌ لا تكاد تُسمع.

تهزّ زليخة رأسها. «كان والدي يحبّ الهواء الطلق. كان يخطّط دائماً للرحلات، في سور هادريان، أو جزيرة سكاي، أو منطقة البحيرات، أو يوسيميتي، أو غير ذلك. لكنَّ أمِّي كانت ترغب بشدَّة في أن تراه نهر دجلة. كانت تحلم بأن تراه الأرض التي جاءت منها. وفَرّا المال اللازم للرحلة، وتخطّيا عطلات الصيف كي يتمكّنا من أخذ إجازة في الخريف. كانت الخطَّة أن نسافر من أنطاليا إلى أنطاكيا، ومن هناك إلى الموصل. كان والدي رجلاً حذراً، فلم يكن يسمح لنا بالمبيت في موقعٍ خطير.

كان هذا مكانًا آمنًا للتخيم، وبه أكواخ. أراد الإقامة في واحدٍ منها، لكنني أصررتُ على المبيت في خيمة. قلتُ في نفسي ستكون مغامرةً شائعة. نصبنا الخيمة قرب جدول، قريبًا جدًا من الجدول. وكان المطر يهطل في ذلك المساء، لكنه لم يكن غزيرًا. ثم جاء الفيضان بسرعةٍ شديدة -.

- «كيف هربت؟».

تُلقي زليخة رأسها إلى الخلف، والدموع تنهمر على وجنتيها. «استيقظتُ في منتصف الليل، لأقضي حاجتي. ناديتُ أمي، لكنها كانت تغطّ في نوم عميق. نظرتُ إلى الساعة. كانت الثالثة وأربعًا وثلاثين دقيقةً صباحًا. لم أستطع أن أنتظر حتى الصباح، وكنتُ خائفةً من الذهاب إلى مراحيض الموقع، ولكن كان بإمكانني أن أتبول خلف الشجيرات. تسلّلتُ إلى خارج الخيمة. وحين كنتُ في طريق العودة، جاء الفيضان -.

تُمسك نين بيدها. «قلبي معك».

- «رأيتُ السيل يجرف الخيمة. ظهرتُ جثة والدي بعد كيلومتراتٍ قليلةٍ في المصب، لكنهم لم يعثروا على جثة أمي إلا بعد يومٍ آخر، عالقةً بين القصب». تطأطئ زليخة رأسها. «الذنب كله ذنبي».

فتهمس لها نين: «ليس ذنبك. ولكن أخبريني. إن لم يأت أحدٌ لإسعافكم حتى صباح اليوم التالي... فهل قضيتَ الليلة وحدك هناك؟».

لا تجيب زليخة، ولا تضغط عليها نين. تجلسان لحظةً في

صمت، تستوعبان وطأة المسكوت عنه. وخارج النافذة تياراتُ  
التمز تستمرّ في ضرب القارب.

لا تذكر زليخة سوى بقايا من تلك الليلة في موقع التخيم في  
تركيا. فقد محا عقلها الباقي ببراعة، ولم يترك سوى لطخاتٍ هنا  
وهناك. لكنّها تذكر اليوم التالي بتفاصيله الدقيقة. تذكر صفّ  
سيّارات الشرطة، وضابطًا بدينًا أحمر الوجه يدخن بشراهة،  
تتراكم سجائره في المنفضة، وعلمًا تركيًا معلقًا عند المدخل،  
وصدى اللاسلكيّ يتردّد من مكانٍ في المبنى، بلغةٍ مختلفةٍ جدًّا  
عن لغتها.

لكنّ الذي تتذكّره بوضوح أكثر هو خالها مالك. تذكر كيف  
دخل إلى مركز الشرطة، طويل القامة قَلِقًا، بعد أن وصل لتوّه من  
لندن. يحمل في يده حقيبة، وفي يده الأخرى هديّةً اشتراها من  
المطار. شالًا جميلًا مطرّزًا في حوافّه. لم يسألها عن شيء. لم  
يضغط عليها كي تقصّ عليه ما حدث. لفّ الشال الناعم حول  
كتفَيْها، رغم حرارة الجوّ، وأخبرها بأنّها ستجتاز هذا الألم  
وتكبر، وتصبح امرأةً سعيدةً وناجحة. ورغم التأكيد الذي يوحى  
به كلامه، وإصراره المقلق على النجاح، إلّا أنّ ملمس الشال كان  
مريحًا على نحوٍ ما. كان شيئًا يمكنها أن تختبئ تحته، فلم تخلعه  
إلى أن وصلا إلى إنكلترا.

بعد ذلك، كَفَّت زليخة عن الكلام فترةً طويلة. كانت تشير أو  
تخرّبش على ورقة. لم تجبرها أسرة خالها على الكلام قطّ،

فكانوا يمشون على أطراف أصابعهم حول صمتها وكأنه طفلٌ نائمٌ لا ينبغي إزعاجه. بعد عام، في صباح أحد الأيام على مائدة الإفطار، كانت زليخة تراقب هِلن وهي تصارع لفتح برطمان المربّى، فانحنّت زليخة إلى الأمام وقالت: «دعيني أحاول». كانت كلماتها الأولى عاديةً جدًّا، فحدّقتْ هِلن في دهشة، لكنّ الخال تصرّف وكأنّ الأمر كلّهُ طبيعيّ، فناولها البرطمان بلا اكتراث. لا تذكر ما إذا كانت قد تمكّنت من فتح البرطمان، لكنّها منذ ذلك اليوم، باتت تتواصل مع الآخرين كما يفعل معظم الناس: بالكلام.

اقترحت زوجة الخال أن تُعرض الطفلة على معالج نفسيّ، لكنّ الخال كان مصرًّا على أنّ الذي تحتاج إليه زليخة هو البيئة الأسريّة المستقرّة، والأهداف الطموح التي تشغلها. هكذا اعتنّت بها أسرة الخال جيّدًا. كانوا يتهايمسون عنها حين يظنّون أنّها ابتعدت، لكنّها كانت تسمعهم أحيانًا.

-O-

آرثر

بجوار نهر التمز/نهر دجلة، 1876

كلُّ شيءٍ يبدو مختلفًا في المرّة التالية التي يسافر فيها آرثر إلى نينوى. لم يعد لديه راع خاصّ كما في المرّة السابقة، ولا صحيفةٌ تدعمه. ويبدو ترك أسرته الآن أمرًا عسيرًا بعد أن أصبح التوأمان في سنٍّ يشعران فيها بافتقاده، إذ يقفان عند الباب، يتغصّن وجهاهما من القلق. يحمل الطفلة بذراعه، والطفل في الذراع الأخرى، واعدًا إيّاهما بالهدايا التي سيحضرها.

رسم ابنه صورةً له بتاجٍ وسيف. «هل ستذهب إلى بلاد المرادفين يا بابا؟»

فيصحّح له آرثر: «بلاد الرافدين، نعم»، رغم أنّه يتساءل في

نفسه عمًا يعنيه هذا الاسم لطفلٍ لم يغادر ركنه الصغير من لندن قط. «ولكن لماذا السيف يا صغيري؟».

فيرد الصبيّ بصوتٍ خافت: «لقتل البرابرة».

يرتعد آرثر. «ليسوا برابرة. هم أناسٌ مثلي ومثلك تمامًا. هي الأرض التي بدأت منها الحضارة».

يزمّ الصبيّ شفّته.

– «يومًا ما سأخذك معي، وتراها بنفسك».

فُشرق ابتسامةٌ على وجه الطفل تكشف عن أسنانٍ مفقودة.

«سأحتفظ بها معي طول الوقت». يدسّ آرثر الصورة في سترته، وينظر نحو زوجته، لكنّها تظلّ في الخلف منتصبّة كالرمح. كانت طول الأسبوع منطويةً على نفسها، تريده أن يعلم بأنّها لم تسامحه على قرار السفر مرّةً أخرى بهذه السرعة، والطفلان ما يزالان صغيرين.

يقول آرثر: «سأعود بأسرع ما يمكن».

– «ومتى قد يكون ذلك؟ كان في وسعك أن تطلب من المتحف إرسال شخصٍ آخر».

– «لكنني أعرف المنطقة وأستطيع قراءة الألواح. أنا المرشّح الأنسب. لقد عكفتُ على القصيدة وقتًا طويلًا جدًّا».

– «أطول من اللازم! بحقّ المسيح، كيف يهمل رجلٌ أسرته من أجل قصيدة! أو لعلّك تخدعني. لديك عشيقَةٌ شريقيّة، ولهذا تتلهّف على العودة».

يحمرّ وجه آرثر.

فتنادي المربيّة بصوتٍ خافتٍ وهي تدفع الطفلين: «تعاليا

معي . لقد فات موعد نومكما» .

هكذا يتركون الزوجين واقفين عند العتبة ، وأعينهما مثبتة على أحذيتهما كأنهما يبحثان عن خدوش .

فيقول آرثر : «لا أود أن أضايقك . ليست لي عشيقه هناك ، ولا في أي مكان . أنا مُلزم بالذهاب ، لكن الأمر أكبر من ذلك . . . فحين أقرأ الألواح ، أشعر بالاكتمال ، رغم الكسور التي فيها» .  
تهزّ ماويل رأسها .

«منذ أن رأيت المنحوتات المجنحة في صباي ، شعرت بأنني منذور للذهاب إلى نينوى . هناك رجالٌ بارعون في السياسة والتجارة والحرب . . . والذي كان موهوباً في استخدام يديه ، كان يستطيع نحت أعمالٍ خشبية رائعة . أمّا أنا فمواهيبي ليست في أي من ذلك ، لكنني حين أنفرد بالألواح القديمة ، يبدو لي الأمر وكأنها كُتبت من أجلي . أعرف أن هذا يبدو سخيلاً ، لكنه ما أشعر به» .

فتقول ماويل بجفاء : «كفى من فضلك . أنت تُخرج نفسك بهذا الكلام . لا يتحدث أي رجل نبيل بهذه العاطفية . هذا ليس لائقاً . لا عجب أن الناس يرونك أنثوي الطباع ، وبالتأكيد تعرف ذلك ، بملابسك المتأنقة وقصائدك الرقيقة . لا يهمني ما إذا كانت لديك عشيقه . ربّما كنتُ أهتم في الماضي ، لكنني الآن في حالة لا مبالاة تامة . الحقيقة الواضحة هي أنك تحبّ عملك أكثر ممّا تحبّنا» .

- «لكنك كنتِ تعرفين ما يعنيه لي عملي حين تزوّجتني . في ذلك الوقت كنتِ تنظرين إليّ بإعجاب» .

يعلو صوتها وهي تقول : «نعم . كنتُ مستعدة حتى للاهتمام بقطع طينك القديمة . كنتُ مختلفاً عن الشبان الآخرين الذين



قابلتُهم. راقبني غرابة أطوارك إلى حدٍّ ما، لكنني تعبتُ من ذلك. لم أتوقَّع أن أضطرَّ إلى قضاء شهور طويلةٍ وحدي، في قلقي حول المال طول الوقت. كنتُ أظنُّ أنَّ مسؤوليَّاتك كزوجٍ وأبٍ ستجعل منك رجلاً».

فيقول آرثر: «أتفهم ذلك»، ولا يعود هناك شيءٌ يقال بعد ذلك.

\*\*\*

يصل آرثر سميث إلى القسطنطينية في بداية صيف 1872. المدينةُ خاليةٌ من نشاطٍ محموم، مزينةٌ بالبنفسجيِّ الزاهي، فهو موسمٌ ما تزال فيه أشجار الأرجوان مزهرة. تنفجر الأغصان في عربةٍ من الأزهار الأثيرية، على خلفيةٍ البوسفور الأزرق. لكنَّ الألوان، على روعتها، لا تستطيع أن تخفي التوتر المتفشِّي في الهواء. ثمة انتفاضاتٌ في البلقان، وسخطٌ ينتشر بسرعةٍ في الدولة العثمانية.

وحين ينزل من السفينة، تنتشر الأنباء بأنَّ السلطان عبد العزيز وُجد ميتاً في بركةٍ من الدماء، بعد أن قطع معصميه. وهناك شائعاتٌ تقول إنه قد قُتل، وصوِّر مقتله كانتحار. المدينةُ تعجُّ بالمؤامرات.

يقول السفير: «تسرُّني رؤيتك من جديد. هذه المرة سيصدر فرمانك بسرعةٍ أكبر. لديَّ ثقةٌ في ذلك، لكنني لو كنتُ مكانك، لما تعجَّلت».

– «قلت لي هذا من قبل يا سيدي. يقولون إنَّ في هذا الجزء

من العالم، إذا ركضت بسرعة كبيرة، فسوف تفوتك البقعة الآمنة التي كان يمكنك الاختباء فيها».

يفغر الرجل فاه قليلاً. «ذاكرتك مذهلة. لكن ما قصدته هو أن هناك عقبات في الطريق».

- «عقبات؟».

- «الطاعون مثلاً... آخر ما سمعته هو أنه يفتك بالمنطقة جنوب نهر دجلة. هناك الكوليرا أيضاً. وفي الشمال، قتال بين عدّة قبائل. ستكون رحلة محفوفة بالمخاطر».

- «عليّ العودة إلى نينوى يا سيدي».

\*

يغادر آرثر القسطنطينية فور الحصول على الفرمان. وفي كل مكان يتوقّف فيه، يحرص على أن يرسل رسالة إلى أسرته، فيصف الناس الذين قابلهم، والطعام الذي تذوّقه. يضيف رسومات أيضاً، إذ يعلم أن طفليه سيستمتعان بها. يصوّر المناظر الطبيعية بالتفصيل، من مراعي عشبية وحقول برسيم، إلى منحدرات مكسوة بغابات من السنديان والبتولا، إلى شلالات خفية تفاجئك، وجداول ذات مياه منعشة لا تود أن تكف عن شربها أبداً. ودائماً ما يختم الرسالة بإبداء شوقه إليهم، مرسلًا قبلاته إلى «ملاكيه الصغيرين». يطلب من ماييل مرارًا وتكرارًا أن تردّ على رسائله، فيُخبرها بالبلدات التي سيمرّ بها حتى توجه الرسائل إليها. لكنّ زوجته لا تردّ.

وما تزال كلماتها ترنّ في أذنيه: لديك عشيقَةٌ شرقيةٌ...

\*\*\*

يقترّب آرثر من القرية اليزيديّة، فيبدأ قلبه في الخفقان بصوت عال، حتّى يخشى أن يسمعه رفاقه. يراقب البيوت الصغيرة ذات الأسطح المسطّحة، والقبور المخروطيّة، وأشجار الفاكهة... كلّها هناك، تمامًا كما هي في ذاكرته. سيقابل الفقرا مرّةً أخرى، ويسمع غناءها. سيتعلّم المزيد من الكلمات الكرديّة من الأطفال، وقد عقد العزم على تعليمهم شيئًا من الإنكليزيّة هذه المرّة. مرّت أربع سنواتٍ وشهران وستّة عشر يومًا منذ آخر مرّة تحدّث فيها إلى ليلي. لا يدري ما إذا كانت قد تغيّرت. لعلّها تزوّجت. لا يستطيع أن يمنع عن نفسه وخزة الغيرة التي يعرف جيّدًا أنّها لا تليق برجلٍ متزوّجٍ ولديه طفلان.

أمّا دليله، وهو شخصٌ طيّبٌ يختلف كثيرًا عن دليله السابق، فيمتطي حصانًا أمامه. يلقي عليه محمودٌ نظراتٍ متكرّرةً بطرف عينه. كان صامتًا في أواخر الرحلة، وثمّة توتّر في سلوكه بات يزداد وضوحًا كلّما اقتربا من القرية اليزيديّة.

يسأله آرثر وهو يبطئ كي يتوقّف: «ما الأمر؟».

فيشدّ محمود اللجام. «لم أعرف كيف أخبرك. هذا المكان لم يعد كما كان».

— «ماذا تقصد؟».

— «يؤسفني القول إنّ هناك أشياء حدثت في غيابك». تعبيرٌ هذا الشابّ العربيّ مترعٌ بالألم، فتبيّن لآرثر أنّه لن يقول أكثر من ذلك.

يترجّل آرثر عن حصانه، وتظهر زيراف عبر موجات الحرارة

المتصاعدة من الأرض المحروقة. هناك مجموعة رجالٍ يدخنون في زاوية، وامرأة تمرّ مسرعةً تحمل إبريق ماء. أناسٌ كثيرون، ولا يوجد وجهٌ واحدٌ مألوف. يظنُّ لحظةً أنه أخطأ المكان. لعلّها قريةٌ أخرى تشبهها كثيرًا. لكنَّ الشكَّ يغادره فور أن يرى شجرة الرمان وعلامة الماء المحفورة على جذعها.

تمشي مجموعةٌ من أهل القرية نحوه، يتوسَّطهم شخصٌ يبدو من ملابسه أنه زعيمهم.

يقول الرجل وهو ينتظر ترجمة كلامه: «سمعنا أنك قادم. سمعنا أنك رجل علم. أهلاً وسهلاً بك».

فيقول آرثر وهو عاجزٌ عن ردِّ المجاملة: «أين الذين كانوا يعيشون هنا؟».

— «عبدة الشيطان؟ لقد رحلوا والحمد لله».

يرتعد آرثر، ثم يدور ويتقدَّم بخطواتٍ واسعةٍ نحو محمود. «أين أصدقائي؟ أخبرني أرجوك».

فيخفض محمود عينيه. «باشا الموصل والقاضي... حشداً جيئاً وهاجموا القرية. لم ينج منها كثير».

هديرٌ يملأ أذنيه، خفقانٌ كقرع الطبل. يترنَّح آرثر مبتعداً، دون أن ينبس بكلمة، وخطواته غير ثابتة. لا أحد يوقفه، ولا أحد يناديه كي يعود.

لن يُذكر في كتب التاريخ أبداً ما حدث في قرية المياه الذهبية. وحدهم أحفاد الناجين سيتذكرون. ستبقى تلك الحادثة

مكتومةً في عباراتهم غير المكتملة، وصمتهم القلق، وكوايسهم المتكررة. ستُنقل ذكرى المذبحة في حرصٍ من جيلٍ إلى آخر، مثل تمرير عود ثقابٍ مشتعلٍ تحميه بكفك من الريح.

ذات يوم سينشد الشعراء الجائلون عن الفرمان. ستستعيد القصائد أشباح الماضي، وتحكي كيف اتَّحد الباشا والقاضي مع حاكم رواندز المعروف باسم ميري كورا، وأمروا بقتل مئات اليزيديين بالسيف في غضون ساعات. حشدوا جيشًا، ووجَّهوا الجنود لقتل الرجال والصبيان، وسبي النساء والفتيات.

ستروي الأغاني كيف أنَّ أهل القرى من نساءٍ ورجالٍ وأطفالٍ حاولوا الهرب من هذا المصير، لكنَّ الجيش كان يفوقهم عددًا وعتادًا. فرَّ بعضهم نحو جبل جودي وطور عابدين، وآخرون فرُّوا إلى جبل سنجار، لكنَّ المجموعة الأكبر اتَّجهت إلى نهر دجلة، حيث المياه تموج وترتفع بالثلج الذائب. وكم كانت صدمتهم حين وجدوا أنَّ الجسر المؤتَّ قد اختفى، فبحثوا عن قارب، أو طوَّافة، أو أيَّ شيءٍ يعينهم على العبور، لكنَّهم لم يعثروا على شيء. كان القاضي قد أمر بتدمير الجسر وإزالة القوارب. هكذا وقع أهل زيراف في الفخ، بينما يندفع النهر من أمام أعينهم. من حاول السباحة غرق. أمَّا الآخرون فقد هدَّهم الخوف، فركضوا عائدين إلى تلِّ نينوى. وما إن بدأت الشمس بالغروب حتى أحاط بهم الجنود، فلم يبق منهم أحدٌ على قيد الحياة.

لقد حدث هذا هنا، في هذه الأرض التي تثير الروح، هذه الأرض التي بنى فيها الملوك الآشوريُّون قبل آلاف السنين قصورًا وقنواتٍ وحدائقٍ ومكتبةً عظيمة، مع أرواحٍ حارسةٍ عند المداخل

كي لا يحلّ الضرُّ أبدًا بهذه الجنة الجميلة. حدث هذا هنا، بجوار هذا الموقع الأثري الذي يملك آرثر تصريحًا بالتنقيب فيه بحثًا عن الأبيات المتبقية من ملحمة گلگامش.

اسمُ التلّ كويونجك، أي «الخروف الصغير»، وذات يوم سينشد الشعراء عن ذبح البشر هنا مثل خرفان الأضاحي.

\*\*\*

يجلس آرثر كلَّ يوم بجوار التلّ، وعيناه حمراوان ملتهبتان من قلة النوم. ما يزال يحمل ذكرى أصدقائه، مثل كهفٍ يحتفظ ببقايا الريح في أعماقه، غير مستعدٍّ للتخلّي عن تلك التجربة التي جوّفته. ينوح عليهم، على الشيخ والأطفال وديشان والفقرا... ليلي. قالت له ليلي ذات مرّة إنّها تنحدر من النهر، وإنّ هذا هو المكان الذي تودّ العودة إليه يومًا ما. قالت إنّها ستصبح قطرة مطرٍ أو ندفة ثلج، عندما بخاريًا في الأثير قبل أن تحطّ على هذه الأرض مرّة أخرى. ينظر آرثر حوله، رجاء أن يجد علامة، أو أيّ شيء يثبت له أنّها موجودة، روحٌ مائيّة يحملها التيار.

تحت سماءٍ شاسعة تبدو ممتدّة إلى ما لا نهاية، يراقب آرثر دجلة وهو يهدر مارًا دون توقّف، تاركًا في أعقابه قصصًا كالرواسب الطباشيريّة، غير عابئٍ بمعاناة البشر. يشعر بموجة غضبٍ في صدره. هذا هو النهر الذي تسبّب في موت الأبرياء، إذ كان حاجزًا لا يمكن عبوره وهم يحاولون الفرار. لكنّه غاضبٌ من نفسه أكثر. لو أنّه أطال المكوث في القرية أو أسرع في العودة، أترأه كان يستطيع فعل شيءٍ لمنع الكارثة؟ يعرف في

أعماقه أنَّ هذه الأفكار عقيمةٌ ولا تنمُّ إلَّا عن غرور. فمن الغرور افتراض أنَّ وجودنا يمكن أن يغيَّر مجرى الأمور. ينتمي الأبطال إلى الأساطير التي يمتدُّ فيها الزمن امتدادًا حاليًّا، ويمتزج القانون بالآلهة. لكنَّه ليس بطلًا في قصَّة أحد.

تحفُّرُ الشمسِ عيوبًا في جلده، بينما هو منشغلٌ بالتفكير في خذلان الحياة له وخذلانه للآخرين. لكنَّ الذي يحيرُه أكثر من أيِّ شيءٍ آخر هو أنَّه لم يسمع بالمذبحة حين كان في إنكلترا. هو الذي يعدُّ نفسه قارئًا نهيمًا، والجميع يقولون إنَّه رجلٌ مثقَّف. باحثٌ ومفكِّرٌ ودارسٌ، مثقَّفٌ حقيقيٌّ. لكنَّه لم يعثر على سطرٍ واحدٍ في الصحف أو في أيِّ مكانٍ آخر عن مذبحة اليزيديين في المكان نفسه الذي ظلَّ علماء الآثار البريطانيون والفرنسيُّون والألمان والفنلنديُّون ينقُّبون فيه عن بقايا نينوى القديمة. كان علم الآثار بالنسبة إليه يعني التنقيب عن القطع الأثريَّة القديمة واستخراج أبيات الملاحم. وحين كان يستخرج بقايا بشريَّة، كان ينظر إليها بلا مبالاة، إذ يفترض أنَّها من أصولٍ عتيقة. لكنَّه يجد نفسه الآن أمام فكرة استخراج شظايا ليست لأناسٍ ماتوا منذ زمنٍ بعيد، بل لأولئك الذين عرفهم وأحبَّهم.

\*

تمرُّ الأيام، ويفقد الواجب إلحاحه. وكأنَّ ضبابًا كثيفًا قد هبط على دجلة فغطَّى كلَّ شيءٍ بأنفاسه، كالضبابات التي رآها في لندن في صباه. حتى الآن كان يستوعب العالم في تضادَّاتٍ واضحة المعالم: الغرب في مواجهة الشرق، والجديد في مواجهة القديم، والعلم في مواجهة الخرافة، والمتحضَّر في مواجهة

الجاهل. وبطريقة ما، دون أن يبوح بذلك، كان قد وضع التّمز في مواجهة دجلة أيضًا... زوّدته هذه الثنائيات باليقين الذي احتاج إليه كي يواصل طريقه. لكنّ معتقداته السابقة تحطّمت، ولم يعد لديه سوى شظايا من الشكّ. في خيالاته، يتدفّق دجلة إلى التّمز، ويطارحه التّمزُ الغرام، وتظلّ الحدود تذوب بعضها في بعض. ولأوّل مرّة في حياته، يعجز آرثر عن التفاني في عمله، فيهمل واجباته. مضت أسابيع منذ وصوله إلى نينوى، ولم يحرك قدر مجرّفة واحدة من تراب. كما أنّه لم يتمكّن من قراءة لوح واحد جديد. يشعر بأنّه مغمورٌ في الحزن، مثل شمعة تغرق في شمعها نفسه.

يخشى أن يكون قد بدأ يفقد صوابه، إذ يشعر بحضورٍ إلى جانبه، وأنّ الفقرا تراقبه. تتحدّث إليه بتلك اللغة الغريبة التي كانت تستخدمها حين كانت تتنبأ، وهو ينصت مأخوذاً، وكأنّ كلماتها ستكشف عمّا قريبٍ عن المعنى. لو رآه والده الآن، لضحك عليه. هذا إذن ما أصبح عليه في السادسة والثلاثين من عمره: رجلاً يتحدّث مع الأشباح. إنّهُ ابن أمّه بالفعل.

غريبٌ أن تفقد الإيمان بالمعتقدات التي كنتَ تتمسّك بها. وما أغرب أن تحمل قناعاتك مثل مجموعة من المفاتيح، ثم تكتشف أنّها لن تفتح أيّ باب. لم يعد آرثر يعرف كيف يشعر حيال التنقيب عن الآثار القديمة ونقلها إلى إنكلترا. لا يستطيع أن يتذكّر إثارة الاكتشاف التي كانت تحرّكه ذات يوم. كيف له أن يواصل البحث عن الآثار المدفونة وهو يكافح لاستخراج إحساسه بذاته؟ أترأه، في غمرة حماسه لاكتشاف مكتبة آشوربانيبال، لم



يقدّم للأحياء الاحترام أو الاهتمام نفسه الذي أولاه للأموات؟ إحساسٌ بالقلق يتخلّل كلّ لحظةٍ من لحظاته. الحرُّ لا يُطاق. إن لم يبدؤوا الحفر قريباً، فسيصبح من المستحيل التنقيب لاحقاً في الصيف. لقد تأخّر عن الجدول الزمنيّ أصلاً. يسأله محمود كلّ يوم ما إذا كان بإمكانهم البدء في استئجار العمّال. وكلّ يوم يُجيب آرثر بهزّة الرأس نفسها. يشعر بأنّه مفرّغٌ من الداخل، هو نفسه من الخارج لكنّه فارغٌ من الداخل مثل شجرةٍ فاسدة، تتقشّر طبقاتها إلى خشبٍ جافٍّ ميّت.

تصله رسالةٌ قصيرةٌ جافّةٌ من زوجته. نبرتها أكثر ليونة، وكأنّها تشعر بخطيئٍ ما. تخبره أنّ الطفلين مشتاقان إليه. تقول إنّهما متحمّسان لاقتناء طيرين من طيور الكناري وتطلب منه أن يقترح بعض الأسماء. يخطر في بال آرثر اسما «لاپيس» و«لازولي»، لكنّه لا يجد في نفسه القوّة كي يضع القلم على الورق.

تسأله ما بيل عن التنقيب، وتساءل متى سيعود إلى البيت مع «كنوزه». يتمنّى آرثر أن يُجيب بالنبرة الخفيفة المرحّة نفسها، لكنّ أصابعه متيبّسةٌ وهي تقبض على الريشة. لا يستطيع أن يستجمع أفكاره، وحين يتمكّن من الكتابة تتدلّى عباراته بطريقةٍ محرّجة، مثل أطرافٍ مكسورةٍ لم تُجبرَ بعد.

مكتبة

t.me/soramnqraa

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

تُجرُّ نارين إلى شاحنةٍ مع عشرات النساء والأطفال، فتُنقل في قافلةٍ باتّجاه الموصل. تقف جامدةً وهي غارقةٌ في كربها، ووجهها متيبّسٌ متجمّدٌ من الخوف. لم تشعر قطّ بهذا العجز، مشفوعاً بوحدةٍ حادّةٍ تخترق ضلوعها. تعصف الريح بشعرها، وتلسع وجهها. تستطيع أن تشمّ رائحة الأعشاب البرّية من بعيد. علّمتها الجدّة كيف تميّزها من رائحتها: القراص والهندباء والشيخ... توحى لها الأصناف المألوفة بأنّهم ليسوا بعيدين جدّاً عن ضفاف دجلة.

تعرف نارين أنّ تيّارين جبّارين يتدفّقان في كلّ إنسان: الخير

والشرّ. والمسار الذي نختار أن نتّبعه (بقلوبنا وأرواحنا وعقولنا) يحدّد في نهاية المطاف مَنْ نكون. قد يفعل بعض الناس كلّ ما في وسعهم لتجنّب إيذاء شخص آخر، حتى في أشدّ المواقف يأسًا، في حين يلحق آخرون الألم بالآخرين بكلّ عفوّة، وكأنّهم يهشّون ذبابة.

في الحكايات التي كانت الجدّة تحكيها، كانت هناك شخصيّات مُستهجنة. ملوكٌ قساةُ القلوب يتزوّجون عذراء كلّ ليلة، ثم يأمرون بإعدامها في الصباح، ووزراء جشعون ينهبون خزائن الدولة، وقطّاع طرقٍ ينقضّون على المسافرين في الظلام... لكنّ حتى أسوأ الأشرار كانوا يعرفون في أعماقهم أنّ ما يفعلونه خطأ. لم يكونوا يدّعون غير ذلك. ربّما يحاولون تبرير أفعالهم، بل ويتّخذون مظهر الفضيلة لخداع الآخرين وإيهامهم بأنّهم طيّبون، لكنّهم لم يتخيّلوا ولو لحظة أنّهم فاضلون. غير أنّ المتطرّفين الذين يذبّحون الأبرياء والعُزّل، وينهبون القرى، ويستعبدون النساء والأطفال، يؤمنون بأنّهم مقدّسون. مع كلّ حزنٍ ومعاناةٍ يمطرونها على الآخرين، يتوقّعون أن ينالوا حظوةً عند الله، ويقترّبوا من إتمام الجسر من هذا العالم إلى جنّتهم. كيف يمكن لأيّ كان أن يفترض أنّه سيَرْضِي الخالق بإيذاء خلقه؟ حتى أكثر المنحطّين في حكايات الجدّة لم يكن يتوهّم هذا.

تطير كلمات العجوز في الهواء، مثل بقايا ذكرى من الريش تطير بعيدًا. في السماء الأشدّ سوادًا نجمةٌ تتلألأ عاليًا في ظلمة الليل، شمعةٌ ذات ضوء ساطع. لا تياسي أبدًا. وعليك دائمًا أن تبحّثي عن أقرب مصدرٍ للحياة. ترفع نارين وجهها، والدموع تنهمر

على خديها. أين تُراها تعثر على النور وهي محاطة بالظلام؟

تمرُّ ساعات، ثم تتوقَّف القافلة أمام مبنى فخم تاريخي في الموصل كان يُستخدم إلى وقتٍ قريبٍ للأعراس والاحتفالات. لن تكتشف نارين إلَّا بعد فترةٍ طويلةٍ أنَّ هذا هو المكان الذي كان من المقرر أن يعزف فيه والدُها بعد أسبوعٍ تقريبًا.

تصل شاحناتٌ وحافلاتٌ أخرى. نساءٌ وأطفالٌ مخطوفون من المستوطنات اليزيدية من كلِّ حدبٍ وصوب: كوجو، وتلّ بنات، وقينية، وتلّ قصب... عندها فقط يغدو واضحًا أنَّ هذه ليست أعمال عنفٍ عشوائيةٍ، بل حملةٌ محسوبةٌ من كراهيةٍ مطلقة، إبادةٌ لثقافةٍ بأكملها. في غضون ساعاتٍ معدودةٍ دُمّرت مجتمعاتٌ بأكملها، وأبيدت جماعاتٌ سكانيةٌ، وأُجبر أكثر من نصف مليون شخصٍ على الرحيل. ينتشر الدمار في جميع أنحاء العراق، حتى في المستشفيات نفسها، حيث يصطحب بعضُ الأطباء داعش إلى أجنحةٍ تضمُّ مرضى يزيديين. ورغم أنَّ المسلَّحين يأتون من شتّى أنحاء العالم، وبعضهم لا يتكلَّم العربية، إلَّا أنَّ كثيرين منهم جيرانٌ قدامى، يتعاونون مع القتلة.

تُدفع نارين إلى قاعةٍ كبيرةٍ مضاءةٍ بمصابيح مشعَّةٍ عارية. المكان مكتظ. بين الفينة والأخرى تفتح الأبواب المزدوجة على مصاريعها ويدخل المسلَّحون متبخترين، إمَّا لإحضار المزيد من الأسيرات وإمَّا لسحب امرأة. ومَن تُقاوم منهنَّ تُضرب. ينساب الذعر إلى كلِّ زاوية. أمٌّ شابةٌ معها طفلٌ رضيعٌ تتوسَّل طلبًا

للرحمة فيركلونها إلى أن تفقد الوعي. تخترق الجدران صرخات اللواتي يُسحبن، فتطارد مَنْ بقي في الانتظار. فتاةً تتقيأ في الزاوية، يجيش صدرها وتسعل ما أفرزه الكبد. فتتخلل الهواء رائحةٌ حامضةٌ مُقرفة.

تتوقع نارين وظهرها إلى الحائط، ككرة صغيرة من خوف. قبضتها مشدودتان بقوة إلى درجة أن أظافرها تحفر في راحتيها، فتترك علاماتٍ مثل آثار أقدام حجلةٍ على ضفاف دجلة.

يسألهنَّ أحد المسلّحين وهو يضع يديه على خاصرتيه ويبعد بين ساقيه: «هل كلكنَّ تتحدثن العريّة؟». لا تتحرّك أغلب الفتيات، لكنّ القليلات يومئن. يجذب أقربهنَّ إليه، فقد وقع الاختيار عليها كي تترجم.

يقول الرجل: «هل تعرفن سبب وجودكن هنا؟ لأنّ آباءكن كفّار. أمّهاتكن كافرات. وجميع أسلافكن كفّار أثمون. أنتنّ وقومكن عبدة شيطان!».

تجفل نارين، إذ تتذكّر وجه سائق الجرّافة الذي قاطع تعميدها، وعامل النظافة في المستشفى... تتذكّر جميع من كرّر تلك الكلمات البشعة، مرّةً بعد مرّة. كثيرًا ما سمعت هذا الافتراء في حياتها القصيرة، لكنّه ما يزال يؤلم مثل المرّة الأولى.

فيتابع المسلّح كلامه: «لكننا رحماء. سنعطيكُنّ فرصةً للتوبة. فإذا أسلمتنّ الآن، قد تصبحن زوجاتٍ شرعيّاتٍ لمقاتلينا الشرفاء. يمكنكنّ أن ترافقن جيشًا مجيدًا في الجهاد. ها أنا أسألكنّ للمرّة الأولى والأخيرة: هل تبتريان من كفركنّ؟».

فلا يجيبه أحد.

- «إمّا أن تنضممن إلينا وتكسبن مكانًا في الجنة، وإمّا تبقين كافراتٍ ويحقّ عليكم العذاب. لديكنّ ستون ثانيةً لاتخاذ القرار، بدءًا من الآن».

يحلّ في القاعة صمتٌ كثيفٌ لا تُسمع فيه همسةٌ واحدة. تُعلّق كلّ الأصوات لحظة: ذلك الطفل الذي ينتحب في حضن أمّه، والفتاة التي تبكي في منديلها، بل حتى صرير الباب.

فيصرخ الرجل مستمتعًا بالسلطة التي وجد نفسه يمارسها: «لم يبق لديكنّ وقتٌ طويل. اثنتان وعشرون ثانية، هل ستسلم أيُّ واحدةٍ منكنّ؟ هذه فرصتكنّ الأخيرة».

فجأة، تهبّ نارين على قدميها وتصرخ بكلّ قوّتها، فتكسر الصمت.

- «أين جدّتي؟ ماذا فعلتم بها؟».

يَحَار الرجل من سؤالها المفاجئ. يتوقّف عن العدّ، وقد بدا ارتباكٌ على وجهه.

فتصيح نارين بصوتٍ لم يعد يبدو صوتها: «اسمها بسمة. أخذها أولئك البغيضون. هل رآها منكم أحد؟».

فيقول الرجل الذي كان يعطي الأوامر من قبل: «تبّاً لك! ما بها، مجنونة أم ماذا؟».

فيقبضون على نارين من شعرها ويجرّونها عبر الأرض الإسمنتية مثل كيسٍ فارغ. يمزّق رأسها ألمٌ مبرّح، فيكاد يُغمر عليها. ثم يخفت ضجيجُ العالم.



تعود إليّ وعيها، فتجد القاعة قد هدأت. أغلب النساء والأطفال قد أخذوا.

يقول أحد المسلّحين وهو يلكزها بحذائه: «الحمقاء استيقظت. قفي! ما اسمك؟ تكلمي».

فيقول مسلّح آخر: «لا تفهم العريّة. تتحدّث التركيّة والكرديّة فقط».

ويقول آخر: «سمعتُ جدّتها تناديها نارين». فيكرّر الرجل وهو يكتب اسمها في قائمة: «نارين. قولي لنا، كم عمرك؟».

يطلبون من أحدهم أن يترجم السؤال إلى اللهجة الكرمانجية، لكنّ نارين لا تسمع شيئاً سوى خفقان قلبها. لا تعرف ما إذا كانت ستكشف عن عمرها الحقيقيّ، أم تدّعي أنّها أصغر سنّاً، أم أكبر. ما الذي قد يمنحها فرصةً للنجاة، إن كانت هناك فرصة أصلاً؟

تقول الحقيقة في نهاية المطاف: «تسع».

فيقول الرجل: «عذراء. ستكون هديّة جميلةً للقائد. وهو يتحدّث التركيّة. سيعرف كيف يروّضها».

يقول الآخر: «متأكّد؟ تبدو مثيرةً للمشكلات».

فيُجيبه الأوّل وهو يشير إلى ثلاث شابّاتٍ يبكين في الزاوية: «أرسلها مع الأخريات».

— «حسن. ثلاث سبايا جميلاتٍ للقائد. وسنضيف هذه اللقمة أيضًا».

بيت في الموصل. مسكنٌ إسمتيّ من طابقيّن، مع طبق أقمارٍ صناعيّة على السطح، وحديقةٍ مهملةٍ في الخلف، ونباتات طماطم في علب زيتونٍ مرتّبة على عتبات النوافذ، ورائحة الحرارة في التراب. هذا هو المكان الذي يُحتجزن فيه. بيت عائلة، مثل أيّ بيتٍ آخر، به أطفالٌ يركضون هنا وهناك، ودجاجٌ ينقر في الفناء.

صبيٌّ صغيرٌ يراقب من الممرّ حين تُدخل السبايا، وعيناه الداكنتان تفيضان بفضولٍ لا يخفيه. لديه لصقةٌ على جبهته، فوق حاجبه مباشرة، من أثر حادثٍ قريب. تنظر إليه نارين وتتساءل ما إذا كان يعرف شيئاً عمّا يحدث تحت هذا السقف.

يقول مسلّحٌ وهو يدفعها بمؤخرة بندقيّته: «تحرّكي». يُقدن إلى غرفةٍ في الطابق العلويّ ذات قضبانٍ حديديةٍ على النوافذ وأقفالٍ على الباب.

تمرُّ ساعة، ربّما أكثر، إذ لا سبيلَ لديهنّ لحساب الوقت. هناك دلوٌ في الزاوية إذا ما احتجن إلى قضاء الحاجة. يا له من عارٍ مستمرٍّ يتبعهنّ أينما ذهبن! ولكن لا ذنب لهنّ فيه. الضوء في الخارج أصفرٌ ناعم، رغم أنّ السماء مظلمةٌ في البعيد. يسمعن الناس في الشوارع وهم مشغولون بأعمالهم. وفي مكانٍ قريبٍ قرعةٌ إناءٍ على موقدٍ للطبخ. تمرّ سيّارةٌ تحت النافذة، تنفجر منها الموسيقى. أصوات الحياة المألوفة هذه تزيد من شعورهنّ بالعجز لا أكثر.

تدخل امرأةٌ طويلةٌ دون أن تنظر إليهنّ. تضع صينيّةً على



السَّجَّادَة، بها خبز، ووعاء حليب، وإبريق ماء. لا ملاعق، لا كؤوس. ولا أحد يقرب الطعام، رغم أَنَّهُنَّ لم يأكلن شيئاً طول اليوم. أمَّا الماء فلا يرفضنه. ورغم محاولتهنَّ التخفُّف في الشرب، فَإِنَّ العطش يتغلَّب عليهنَّ وهنَّ يمرَّرن الإبريق بصمت.

بعد قليل يأتي الصبيُّ صاحب اللصقة ليأخذ الصنيَّة. يحضر معه كومة ثيابٍ ملوَّنة زاهية: ملابس داخلية ضيقة من الدانتيل. وبصوتٍ فاترٍ يبلغهنَّ أَنَّ والده يريد منهنَّ ارتداءها. يقول هذا، وتقع نظرتُه على حمالة صدرٍ ذات أزهار، لكنَّ تعابير وجهه تفضح جهله بهذه القطعة أو المغزى من طلب والده.

لا توافق أيَّ منهنَّ على ارتداء الملابس الداخلية. فيُضربن جميعاً.

يتكوَّرن تلك الليلة على فراشٍ واحد. النوم مستحيل. يصعب تصديق أَنَّهُنَّ منذ أيَّام قليلة كنَّ يستيقظن إلى جانب أحبابهنَّ. كيف يمكن لحيواتٍ نُسجت بحنانٍ وحرصٍ شديدٍ عامًّا بعد عامٍ أن تتحطَّم بين ليلةٍ وضحاها؟

في صباح اليوم التالي، يُحضر المسلَّحون سبيَّةً أخرى، امرأة ذات عينيَّ واسعتيَّ سوداويَّتين جميلتيَّ ووجهٍ بيضاويٍّ شاحب. لقد ترك الحزن آثاره على ملامحها.

تقول فور أن ترى نارين: «هل أنتِ حفيدة بسمه؟». ثم تمشي بلطفٍ نحو الفتاة وتجلس إلى جانبها. «اسمي سلمى يا حبيبتي، من قرية كوجو. سمعتكِ تصرخين على ذلك الرجل المقرف. كنتُ أعرف جدَّتك».

- «كنتِ تعرفينها؟».

- «نعم، منذ سنوات، حين كنت حبلًى بطفلي الأول. كنّا في زيارةٍ إلى أقاربنا في حصن كيفا، وكدتُ أجهض.. جدّتك أنقذت حياتي».

ثم تتردّد المرأة حين ترى التعبير الذي ارتسم على وجه الطفلة.

تقول نارين: «لقد أخذوها. لا أعرف ما فعلوا بها. أعتقد أنهم قتلوها».

فتتكئ سلمى على الحائط، وتهدئ أنفاسها. لا تودّ أن تُخبر نارين بما تفعله داعش باليزيديّات الكبيرات اللاتي يرونهنّ غير مناسباتٍ للمتعة الجنسيّة. لا يريدون أن يضيّعوا رصاصةً واحدة، فيدفنونهنّ وهنّ على قيد الحياة.

تقول: «لا تبتئسي يا طفلي. سادعوا لها. لن أنسى طيبتها أبداً. ولكن كيف جئت إلى هنا؟ كنتُ أظنّ أنّ أسرتك في تركيا».

«أرادت جدّتي أن تريني القرية التي وُلدت فيها جدّتي الكبيرة ليلى... وكنتُ سأعمّد في وادي لالش المقدّس. سافرنا مع والدي...». تتشجّع معدة نارين حين تتحدّث عن أحبابها، وتنهمر الدموع التي كانت تحبسها.

- «يا مسكينة، هل لي أن أعانقك؟».

فتمسح نارين عينيّها بظهر يدها، وتومئ، ببطء.

لا تسألها سلمى عن شيءٍ آخر، لكنّها تحتضن نارين إلى أن

تغطّ الفتاة في النوم. وتظلّ قريبةً منها طول الوقت، لفرط حنانها وإشفاقها.

غير أنّ سلمى هي التي يأمر القائد بإحضارها إلى غرفة نومه أولاً، في الليلة التالية.

\*\*\*

في الطابق السفليّ مطبخٌ وثلاث غرفٍ يعيش فيها القائد مع أسرته. فهو متزوّج وله طفلان صغيران وطفلٌ رضيعٌ ما يزال في المهد. في كلّ يوم يأتي ويذهب عشراتٌ من مسلّحي داعش، يأخذون الأوامر ويمرّرونها، ففي الطابق العلويّ يجتمعون في غرفةٍ كبيرةٍ ذات شرفةٍ تطلّ على شارعٍ مزدحم. لا يُسمح لأطفال القائد ولا الأسيرات بدخول هذه الغرفة، باستثناء نارين التي يطلبون منها أحياناً إحضار الشاي والطعام.

المرأة الطويلة ذات العينين الزرقاوين والأجفان الثقيلة هي زوجة القائد. تتحدّث العربيّة ولكنّه أميركيّة، ولا تكاد ترفع عينها حين تتحدّث. صوتهّا واهن، ربّما من قلّة استخدامه، إلّا حين تصرخ، وكثيراً ما تصرخ. تأمرهنّ بالطبخ وغسل الملابس والتنظيف. وكلّما عملن بجدّ أكبر، انزعجتُ منهنّ أكثر. الطبخة لا طعم لها، والرزُّ محروق، والملابس المغسولة ما تزال ملطّخة. تتهمهنّ بسرقة الطعام من المطبخ وتضع قفلاً على الثلاجة، ثم قفلاً آخر على صندوق الخبز بعد بضعة أيّام، رغم أنّها شمتت بالتأكيد رائحة الجوع في أنفاسهنّ.

\*

في كلِّ ليلة، يختار القائد سبيّةً يجبرها على وضع المكياج وارتداء الملابس الداخليّة. وفي الصباح التالي، تعود هذه السبيّة مرضوضةً محطّمة، لا تقوى على النطق بكلمة.

في اليوم العاشر، يرسل الرجل في طلب نارين. تقول سلمى للرجل المسلّح الذي جاء بالرسالة: «إنّها طفلة».

فيقول وهو يمرّر عينيّه ببطءٍ على نارين: «تبدو لي مناسبة».

- «هي طفلةٌ مباركة. قل له أن يتركها وشأنها».

- «لا يوجد شيءٌ مباركٌ في الكفّار».

لكنّ سلمى تصرّ. «قل لقائدك إنّها تنحدر من سلالة مُعالجات. فجذّتها كانت معالجة، وجدةٌ جذّتها كانت معالجة. من يمسّ سليلة الفقرا يُصاب بلعنة».

- «هراء. لا تضيّع وقتنا بهذه الأكاذيب السخيفة».

وتتابع سلمى دون توقّف: «افهمني. كانت جدّتها تكتفي بنظرةٍ واحدةٍ على الشخص، فتعرف أيّ مرضٍ سيأكله. كانت تستطيع أن تجد الماء في التربة الجافّة. هذه عائلة عرّافات».

يضحك الرجل، لكنّه رغم ذلك يذهب دون أن يأخذ نارين، ولا يعود ليأخذها.

تقول سلمى: «ليت مصيرنا كان مثل أهل حلبجة. أبرياء قتلهم ذلك الوحش صدّام. استنشقوا السمّ، المساكين. كان موتاً فظيماً، لكنّهم لم يفقدوا كرامتهم. ليتنا مُتْنَا بالغاز في حلبجة، لكان الأمر أهون».

-O-

آرثر

بجوار نهر دجلة، 1876

الآن وقد أصبح الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات عاجزاً عن العمل، يرسل برقيةً إلى أمراء المتحف البريطاني، يخبرهم فيها أنه يرغب في إنهاء بعثته والعودة، بسبب الطاعون والكوليرا اللذين يفتكان بالمنطقة. يأتيه ردٌّ جاف.

عزيزي سمث،

يؤسفنا ما بلغنا من رسالتك الأخيرة بأن الطاعون والكوليرا يتزايدان إلى حدٍّ كبيرٍ جداً. لا شك أن الوضع يتطلب منك أقصى درجات الحذر وأنت تمضي قدماً في المهمة الكبيرة التي كُلِّفَتْ بها.

مع فائق الاحترام،

س. مكالستر جونز

سكرتير المتحف البريطاني

يكرمش آرثر الرسالة، وهو يرتعش. فهو الآن في ورطة فظيعة. لا يستطيع تأدية عمله في هذه الحالة الذهنية، لكن رعايته لن يسمحوا له بمغادرة نينوى ما لم يحقق اكتشافاً مجدياً. وبينما يكافح لإيجاد حلّ، يوجّه انتباهه إلى الحطام الذي تركته فرق الآثار السابقة. فقد تراكت كومة ضخمة من بلاط مشقوق، وطوب متصدّع، وكسر فخاريّة ألقيت دون فحص مناسب. يبدأ في غربلتها بصبر. تناسبه هذه المهمة، فهو معتاد على اكتشاف القيمة في الأشياء التي يسارع الآخرون إلى التخلص منها.

وفي عصر يوم من الأيام، بينما تناسب ينابيع العرق على رقبتة، يصادف شيئاً غير متوقّع. كان اللون هو الذي يلفت نظره أوّل الأمر، وميضاً من الكوبالت. طلاء شديد الكثافة، حتى إنّ آرثر أخذ يرمش ليتأكّد أنّه لا يهلوس. يسحبه بحذر من تحت الشظايا. ثمّة لوحة تحت التراب والغبار. زرقاء عميقة، لا حدود لزرققتها. كان آرثر قد فحص آلاف القطع الأثرية من بلاد الرافدين على مرّ السنين، من الأختام الأسطوانية الصغيرة إلى النقوش البارزة الكبيرة، لكنّه لم ير شيئاً مثل هذا من قبل.

في تلك الليلة، يجلس في خيمته متدنّراً ببطانية تحت مصباح زيت، فيما يرسم النسيم نقوشاً على قفاه. ينكبّ على اللوحة الزرقاء. يُدرك أنّه مقطعّ من ملحمة گلگامش، لكنّه مقطعّ لم

يصادفه من قبل . فالبطل هنا يعود إلى وطنه محطّماً، بعد أن فقد كلّ شيء: صديقه / حبيبته، وشبابه، وغروره. لكنّ الذي يُذهل آرثر ليس هزيمة الشخصية المحوريّة في الملحمة وحسب. فهناك ملاحظة في الأسفل بعض كلماتها غير واضحة:

هذا... كاتبٌ صغير

واحدٌ من شعراء... كثيرين...

... ننسج القصائد... والحكايات...

... تذكّرنا...

يفاجأ آرثر حين يرى أنّ اللوحة ليست مهداةً إلى نابو كما هي العادة، بل إلى إلهة مجهولة تُدعى نيسابا.

\*\*\*

حين مات الملك گلگامش، دفنوا جسده تحت النهر. لم يدفنوه داخل النهر، بل تحته. ولذلك اضطرّوا إلى تحويل مجرى الفرات، فجعلوه يتدفّق في اتّجاهٍ غير طبيعيّ. ولمّا انتهت الجنازة، أعادوا النهر إلى مساره الأصليّ. أمّا العمّال الذين حفروا قبر البطل فقد قُتلوا جميعاً بعدها. وبهذه الطريقة، لم يعد هناك من يستطيع أن يكتشف المدفن.

بلاد الرافدين مقدودةٌ من حكايات الماء. فأقدم الحكايات مكرّسةً للجداول والعواصف والفيضانات. والكلمة السومريّة التي تعني الماء «آ» تعني كذلك الحمل والمنّيّ والبدائية، مثلها مثل كلمة «أو» الكرديّة.

والأنهار جسورٌ سائلة، قنوات تواصلٍ بين عوالم منفصلة.

تربط ضفّةً بأخرى، والماضي بالمستقبل، والمنيع بالدلتا، وأهل الأرض بالكائنات السماويّة، والمرئيّ بالمخفيّ، والأحياء بالأموات. تحمل الأنهار أرواح الراحلين إلى العالم السفليّ، وتعيدهم أحياناً. وفي التيارات الجارفة وبرك المدّ تختبئ أسرار العصور الغابرة. أمّا المٌوجات الصغيرة على سطح الماء فهي ندوب النهر. ثمّة جراحٌ في أعماقه لا يستطيع حتى الزمن أن يداويها.

أغاني هذه الأرض تبدو في ظاهرها أغاني حبّ أو قلبٍ مكسور، لكنّها في الواقع تحكي عن المكان، وما يجسّده من جماليّ وحزن. عُرف القدماء من بلاد الرافدين باختراع الكتابة والرياضيّات وعلم الفلك والريّ والعجلة، لكنّ اكتشافهم الأعظم لم ينل حظّه من التقدير. فهم أوّل من عرف الألم من فقدان الوطن.

لقد عرف سكّان هذي البلاد أنّهم دائماً ما يعتمدون على الماء في حياتهم. كانوا ممتنّين لكلّ قطرة ماءٍ عذبٍ تتنعم بها أيّامهم، فشكروا الأنهار، وخافوا منها في الوقت نفسه. حين تتحطّم السدود وتنفجر الضفاف، تترك خلفها صدمة، وحكاية تُروى من جيلٍ إلى جيل. تُدرك أساطير الرافدين أنّ الماء هو القوّة الحاسمة في الحياة. الأشجار «ماءٌ متجذّر»، والجداول «ماءٌ متدفّق»، والطيور «ماءٌ طائر»، والجبال «ماءٌ صاعد». أمّا البشر فسوف يبقون دوماً «ماءٌ محارباً»، لا يعرف السلام أبداً.

للماء ذاكرة.



والأنهار بارعةٌ جدًّا في التذكُّر.

\*\*\*

- «سيد آرثر... سيدي؟».

يرفع رأسه. لقد شاخ في هذه الأسابيع الماضية قبل أوامه. وجهه شاحبٌ متعب، ثقیلٌ من قلة النوم. ثمة تجاعيد حول عينيه من طول التحديق في الشمس، وخطوطٌ جديدةٌ ظهرت على جبينه.

يقول محمود: «يجب أن أخبرك بشيء. التقيت هذا الصباح رجلًا يسافر صعودًا ونزولًا على نهر دجلة، يصلح القدور والمقالي. وقد وصف شيئًا غريبًا رآه في طريقه إلى هنا -».

ينصت آرثر إليه بنصف اهتمام، لكنَّ الذي يقوله محمودٌ بعد ذلك يشدُّ انتباهه كاملاً. «قال إنَّه رأى قبل فترةٍ شابةً يزيديةً تسافر بالحصان وحدها. شعر بالقلق عليها وأراد أن يعرف لماذا لا يوجد معها أحد».

- «هل... هل قال لك اسمها؟».

- «لا. حاول أن يتحدَّث إليها، لكنَّها لم ترغب في الحديث مع شخصٍ غريب».

- «وهل وصف شكلها؟».

- «قال إنَّها تغطِّي وجهها، لكنَّه خَمَّن من ملابسها أنَّها يزيدية. والغريب أنَّ هذه المرأة كانت تحمل معها قانونًا».

هنا يهَب آرثر واقفًا على قدميه وهو يترنَّح. «لا بدَّ أنَّها هي! إنَّها ليلي».

- «لا أريد أن تعلق آمالاً كبيرة، لكنني قلتُ في نفسي لا بدَّ أن أخبرك».

يمرُّ آرثر يديهِ فوق شعره، وعقله يعمل بسرعة. «كيف لم أفكر في هذا من قبل؟ لقد تنبَّأت بالمذبحة منذ سنوات. وحذَّرت الجميع في تلك الليلة».

حين يأتون ليقتلونا،

فروا إلى الجبل.

لا تقتربوا من الماء،

ولا من بثر، أو نهر.

- «هل فهمتَ يا صديقي؟ لم تذهب إلى الماء. بالطبع لا! لم تهرب إلى النهر مثل الآخرين، وهكذا نَجَّت».

يضحك آرثر ضحكة مجنون، ويقبض على يد محمود ويهزّها بفرح. «تخيّل، كنتُ هذا الصباح أظنُّ أن ليلى ميّتة، لكنني عرفتُ الآن أنها قد تكون حيّة».

- «لا نعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هي. لا أريدك أن تُصاب بخيبة أمل».

لكنَّ آرثر لا يسمع. «الحياة مليئةٌ بغير المتوقَّع يا صديقي. وكأننا نمشي في نهرٍ من الطين، ونجرؤ على غمس أيدينا بين الحين والآخر، نبحث عن زرٍّ أمل، أو عملة صداقة، أو خاتم حبّ. كلنا نباشون في الوحل».

لا يفهم محمود شيئاً ممّا يهذي به آرثر، لكنّه سعيدٌ لرؤيته يتسم مرةً أخرى، إلى أن يراه يحزم أغراضه على عجلٍ في حقيبة قماشية.

- «مهلاً! إلى أين تذهب؟».

- «إلى كاستروم كيفا، هناك حيث تعيش أختها من العالم الآخر. أسرة ليلي ميّنة، فلا بدّ أنّها ذهبت لتلحق بأخيرتها. يجب أن أجدها».

- «اهدأ أرجوك. الطريق خطيرٌ في هذه الأيام. الكوليرا...». يسكت محمود، وهو يدرك أنّه لن يغيّر شيئاً من عزيمة آرثر. «إذن سأذهب معك».

- «لا، ليس لي أن أطلب منك ذلك».

- «لا بدّ أن أرافقك. لا أقصد إهانتك، لكنني لست واثقاً من نجاتك يوماً واحداً إن ذهبت بمفردك».

وهكذا، ينطلق الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات في منتصف آب / أغسطس 1876 نحو المجاري العليا لنهر دجلة، يحمل في حقيبته قربة ماء، وكيس تمر، ومفكّرةً جلديةً، ولوحةً من اللازورد مهداةً إلى إلهة منسيّة. يودّع آرثر إذن نينواه الحبيبة للمرّة الثانية والأخيرة، تاركاً جزءاً من نفسه على تلةٍ تخفي قطعاً أثريةً من قصر الملك آشوربانيبال، وبقايا بشريةً من إبادة منسيّة.

## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

ذات صباح باكر، والشمس لمّا ترتفع بعد، يصل الخال مالك إلى البيت العائم على حين فجأة. يخطو إلى السطح، ثم يحملق في النهر لحظة قبل أن يدقّ الجرس. لم يسبق له قطّ أن زار شخصًا دون اتّصالٍ مسبق، فهذا ليس من شيمه.

- «خالي!».

- «أهلاً حبيتي. هل فاجأتك؟ مررتُ بالسيارة قريباً من هنا، فخطر لي أن آتي لأرى بيتك العائم. جيّدٌ أنني تذّكرت اسم القارب، فسهل عليّ إيجادهُ».

لكنّ تعابير وجهها تتحوّل إلى ارتباك، فتسترق نظرةً إلى

الطريق حيث تقف سيّارة الخال البنتلي الكستنائية، وبداخلها السائق ينتظر. تلتفت إليه، بحثًا عن عذرٍ مهذّبٍ كي تصرفه، لكنّ شيئًا في وجهه يمنعها. فعيناه محتقتان، وكأنّه لم ينم، وله زغبٌ رماديّ خفيفٌ لم يحلقه. لم يسبق لها طول تلك السنوات أن رأته غير حليق.

- «هل أنت بخير؟».

يبدو كأنّه يوشك على قول شيء، لكنّه يلوّح بيده بغير اكتراث. يشربُ كي يرى البيت العائم من وراء زليخة.

- «هذا ملاذك إذن؟ ألن تدعيني أدخل؟».

وهكذا تتنحّى زليخة.

\*

يقول خالها فور دخوله: «عجيب. ألا تنوين شراء أيّ أثاثٍ لطوّافتك هذه يا عزيزتي؟ أم أنّها موضوعة؟ بيتٌ فارغ، وعقلٌ فارغ، شيءٌ من النرفانا على النهر، وما إلى ذلك؟».

- «قد أشتري بضعة أشياء في نهاية المطاف، لا أعرف. أحاول أن أتعامل مع كلّ يومٍ كما يأتي».

ينظر إليها، في تعجّب.

فتعرض عليه الكرسيّ المريح وتجلس أمامه. «تفضّل».

«ولكنّ عليّ الاعتراف بأنّ المنظر جميل». ينظر خالها حوله، وقد أصبح التعب في عينيه أقوى من سرعة أحكامه.

- «هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟ تبدو وكأنّك -».

- «منهك؟ ربّما. كانت الأيّام الماضية مرهقةً مع ما تمرّ به لي، كما تعلمين. لكنّ هذا ليس سبب مجيئي. جئتُ للحديث عن الفوضى التي أحدثتها في حياتك، والتي أرجو أن أسويها كي تستطيعي إنقاذ زواجك».

- «لن يحدث هذا. براين رفع دعوى الطلاق».

- «حقًا؟ وإن كان، لو بذلت جهدًا فأنا واثقٌ من أنكما ستجدان طريقة. الرجال مخلوقاتٌ ضعيفة، يحتاج إلى أن يسمع منك أنك في حاجةٍ إليه. اسمعي، أعرف أنّ هذا ليس موضوعًا سهلاً. سأقول لك السبب. ربّما لا يوجد لديك أيّ طعام في مطبخ الرهبان هذا. دعينا نترك هذه الخلوة المائية ونذهب إلى مكانٍ لطيفٍ نتناول فيه إفطارًا أو غداءً مبكرًا. أنا وأنتِ فقط. دردشة، وطعامٌ جيّد، مثل الأيّام الخوالي».

- «كنتُ أودّ ذلك، ولكن -».

يغزو المكان بينهما صوتُ الماء من المرحاض في الطابق السفليّ.

فينكمش وجه الخال. «أوه، لديك ضيوف؟».

لم يكن سؤالًا حقيقيًا، ولا تحاول زليخة أن تجيب. فتشهق بحدة، وتحترق وجنتاها كمراهقةٍ ضبطها والدها تتبادل القبل في الشارع. تحاول أن تقول شيئًا يبدو عاديًا، لكنّها لا تستطيع.

- «يُفضّل أن أذهب. آسفٌ جدًّا على إزعاجك يا عزيزتي».

وبينما يتكئ الخال على عصاه، تفاجئهما تحيةٌ مرحّةٌ من الأسفل.

– «السيد مالك؟».

تظهر نين فوراً، ترتدي منامة زليخة. حافية القدمين، وشعرها مبلل.

تقول وقد أشرق وجهها: «مرحباً».

تمرّ مشاعر كثيرة على وجه الخال. صدمة، فانزعاج، فشيء يشبه الغضب، فهزيمة. يغوص في كرسيه المريح مرّة أخرى ويتمتم لنفسه، لا لأيّ شخصٍ آخر: «كان لا بدّ أن أعرف أنّك السبب».

تخفض نين صوتها وتقول: «هل قطعْتُ حديثكما؟ هل أغادر؟».

فتقول زليخة: «لا، ابقِ من فضلك».

تجلس نين متربّعة على الأرض، وعيناها تقفزان بين زليخة وخالها.

تمرّ لحظة حرج لا يتكلّم فيها أحد، ولا صوت في البيت العائم سوى لطم الأمواج على القارب.

تقول زليخة في تردّد: «لدينا قهوة طازجة. أعدّتها نين قبل قليل. هل تريد قهوة يا خالي؟».

يوميئ خالها، وقد غلب الكسلُ رغبته في الرفض. تناوله زليخة كوباً يتصاعد منه البخار، فيرتفع كمّها.

– «واتخذتِ وشماً أيضاً؟ لا تقولي لي إنّ هذا الوشم دائم يا عزيزتي!».

- «إنه دائم. هل أعجبك؟ يعني «ماء» بالسومرية القديمة». يتنهد الخال. يأخذ رشفة من قهوته، ويتنهد مرة أخرى. «القهوة جيدة على الأقل».

فتقول زليخة، ولا تستطيع أن تمنع ابتسامتها لنين: «بها زهور الخزامى المجففة. توازن نسبة الكافيين، ورائحتها رائعة». تتلاشى حيرة الخال، فيحملك في نين. ثمّة تعبير غامض في وجهه، رغم كلماته المباشرة: «أنتِ فعلتِ كلّ هذا». تسأله نين بهدوء: «فعلتِ ماذا؟».

- «أنتِ التي ضللتِ زليخة العزيزة. كانت مثاليّة طول حياتها. لم تزعجني مرّة واحدة. ثم جئتِ أنتِ وأثرتِ عليها وأفسدتِ ذوقها وأخلاقها وحياتها. أنفهم أن تكون مرحلة عابرة. طلاق، وزوجك لا يريدك، فتشعرين بأنك غير محبوبة، وتتشبّثن بأقرب شخص».

فتقول زليخة ببطء، ولكن باقتناع شديد: «خالي... أنا التي دعوتُ نين للمبيت هنا. لماذا تفترض أن العكس هو الصحيح؟ هل لأنك تظنّ أنني أفعل الصواب دائماً، أو لأنك في أعماقك تراني خجولاً وديعةً وعاجزةً عن فعل أيّ شيء... غير تقليدي؟».

تتنح نين. «يمكنني أن أغادر إن فضّلتما -». فيقول الخال: «لا». يدفع نظّارته إلى أعلى أنفه، ثم يلتفت إلى زليخة. «الأمرُ وما فيه أني لم أعد أعرفك. أين الفتاة الصغيرة التي كانت تنتظرنني في مركز الشرطة في تركيا؟ الفتاة التي



لففتها بشالٍ وأحضرتها إلى إنكلترا؟ الفتاة التي كانت الأولى في صفّها ولم تسبّب لي أيّ مشكلاتٍ قطّ؟ في جنازة والدك، كان المطر غزيرًا، مظلّاتٌ كثيرةٌ حتى إنني حين وقفتُ تحتها شعرتُ وكأنّ السماء كلّها تحوّلت إلى سواد. ربّما ما كانت أختي تريد أن تُدفن في إنكلترا المطيرة، لم نتحدّث في هذا الأمر قطّ... في عصر ذلك اليوم، أمسكتُ بيدك، وكان هناك طينٌ على حذائك، وأدركتُ أنّ فردتيّ حذائك غير متطابقتين. كيف لم نلاحظ هذا قبل أن نغادر البيت، لا خالتك ولا أنا؟ بدا الأمر محزنًا، وكأنّ الحذاءين يجذبانك في اتّجاهين متضادّين، فوعدتُ نفسي بأن أكون دائمًا حاضرًا لأعتني بك».

- «وقد فعلت. أنا ممتنةٌ جدًّا».

- «لا أريدك أن تكوني ممتنة. أريدك أن تكوني سعيدة. هل لديك أيّ شيءٍ في مطبخك الفارغ هذا لتحسين هذه القهوة؟ زجاجةٍ وسكي؟ قضيتُ ليلةً فظيعة، والآن هذا الأمر».

- «ولكن لماذا كانت ليلتك سيئة؟ هل تُقلقك عمليّةٌ ليلي؟ يمكنك أن تخبرني».

«لا، لا، ربّيتُ كلّ شيء. ستكون ليلي بخير. جميعنا سنكون بخير». وهنا تظهر تجعيدهُ بين عينيّه. «أنا مستعدٌّ لفعل أيّ شيءٍ من أجلهم. ومن أجلك أيضًا يا عزيزتي. أيّ شيء».

تحاول زليخة أن تبتلع القلق الذي انتابها.

«قد تعتبريني من الطراز القديم، ديناصورًا متجمّدًا في الزمن. اللورد برونوسورس...». يسكت الخال قليلًا، عاجزًا

عن الماضي في النكتة أكثر من ذلك. ترتعش يده التي تحمل الكوب قليلًا. «لا أريد شيئًا سوى أن أحمي أحبائي. لقد حاربتُ طول حياتي من أجل عائلتي، على عكس أمي. لن أتخلّى عن عائلتي أبدًا. أبدًا».

تحميل زليخة في ذهول، عاجزة عن تصديق أنه يبكي. لم تره متأثرًا هكذا من قبل، فيستغرق الأمر منها بضع ثوانٍ كي تتفاعل معه. «خالي...».

لكنّه نهض بالفعل، ورفع رأسه.

- «لم يكن يجدر بي أن آتي دون إبلاغك مسبقًا. أعتذر. لكنني أشكرك على القهوة. زهور الخزامى المجففة إذن، عجيب».

- «خالي، لا تغادر هكذا أرجوك».

- «لديّ أشياء أفعلها يا عزيزتي. جدولتي مزدحم». يتوقّف، لكنّه لا يستدير، وكأنّه يوجّه كلامه إلى نهر التمز. «تعالى لتناول العشاء. أحضري صديقتك زين. ستتابع حوارنا عن گلگامش ونحن نشرب النبيذ والماء. والآن، بعد إذنك، لن أذكر شيئًا من هذا لخالتك. قد تظنّين أنّها متفتّحة ومتساهلة جدًا، وأنني أنا الشيخ المتزمت. لكنّ المظاهر قد تكون خداعة، صدّقيني».

-O-

آرثر

بجوار نهر دجلة ، 1876

يُعدُّ شهر آب/ أغسطس أسوأ الشهور للسفر من نينوى إلى  
كاستروم كيفا؛ فهو ليس شهرًا بقدر ما هو رثاءٌ لأغاني الربيع  
النابضة، نواح يطوف عبر السيقان المجففة والقصب الهش الذي  
ينحني تحت الريح. لا يأكل آرثر إلَّا القليل. فمن الصعب أن تكون  
لديك شهيةٌ حين تسفعك الشمس بلا رحمة. غذاؤه من التمر  
والخبز وحليب النوق. ينامان آناء النهار ويواصلان السفر ليلاً.  
تتغيَّر المناظر في الظلام، وكأنَّ ساحرًا ماهرًا قد مسحها. تكتسب  
الدنيا سكونًا نادرًا، تحت قمرٍ يبدو قريبًا جدًّا حتى إنَّك تستطيع أن  
تقف على أطراف أصابعك وتلمسه بأناملك. تتلأأ النجوم مثل  
حصياتٍ شفافةٍ صغيرةٍ على قاع نهر، وكلُّ منها يحمل أسرارَه.

يحذّره دليله من خطورة الترحال بعد الغروب، لكنّ آرثر يحبّ الصفاء، وضوء النجوم، والصمت العميق إلى درجة أنّه يستطيع سماع الأرض وهي تتنفس، حيّةً تمامًا. لذا يواصلان المسير، مسافرين ليليّان يتتبّعان طرق القوافل القديمة، وكأنّهما شخصان تعارفا في رحلة لا يستطيعان الاتفاق عليها أو التخلّي عنها.

يعرف آرثر أنّ الأرض التي يعبرانها لم تكن دائمًا صحراء. فتحت الكثبان الرملية بقايا ما كان يومًا أكثر المدن ازدهارًا: مراكز حضريّة خصبة مترفعة تزدهر في دلتا الأنهار. كانت التربة غنيّة في جميع أنحاء هذه المنطقة، والمناخ رحيماً. كان بإمكانها بسهولة أن تعيل أجيالاً كثيرة قادمة، لكنّ إساءة استخدام الموارد الطبيعيّة، وشهوة السلطة والهيمنة، والتنافس اللامتناهي عوامل أدّت إلى تدهور المدن، ثم جاءت المجاعة والفيضان والجفاف. فحبس الملوك الجشعون الأنهار، وخاضوا الحروب الشعواء من أجل الماء.

حين بدأ آرثر في دراسة الألواح لأوّل مرّة، كان يرى الحضارة مبنى صلباً، يظهر بأناقة في الرخام والخشب والزجاج والمعدن. إنجاز في الهندسة والتخطيط والتصميم والبناء. انتصارُ البشريّة على الطبيعة. أمّا الآن، وهو يجتاز هذا المشهد الموحش، فيبدو له أنّ ما يسمّونه الحضارة هو في الحقيقة عاصفة تنتظر. عاصفة قويّة ومتحوّلة ومدمرة تماماً، تتحرّر عاجلاً أو آجلاً من حواجزها وتبتلع كلّ شيء في طريقها.

يريان في القرى التي يمرّان بها مرضى يرقدون بلا حراك، وقد اصطبغت جلودهم بلونٍ أزرق مثيرٍ للقلق. تتسرّب من

الأبواب رائحة كريهة لا تُطاق. يتعرّف آرثر على العلامات: هي الكوليرا، الوباء الذي نشأ من سهول نهر الغانج وانتقل بالماء ثم انتشر في كل صوب. يترأى له وجه شقيقه الرضيع أمام عينيه، فجرح فقدته لا يبرأ أبدًا.

- «ينبغي أن نحضر لهم طبيبًا».

فيهزّ محمود رأسه بحزن. «لا طبيب سيأتي إلى هنا».

ينظر آرثر إلى دليله الشاب وهو يرفع راحتيه نحو السماوات ويدعو لأرواح الموتى والمحتضرين. كلمات بالعربية، مقاطع منظومة معًا مثل خرزات المسبحة. يشعر بارتياح وهو يرى أحدهم يتوسّل إلى الله من أجل كلّ المحتاجين، بصرف النظر عن عرقهم أو دينهم، فهذه منطقة عاش فيها المسلمون والمسيحيون واليزيديون واليهود والمندائيون جنبًا إلى جنب قرنًا بعد قرن. ولئن كانت الكوليرا لا تولي اهتمامًا لمثل هذه الاختلافات، فإنّه يشعر أنّ الأحياء أيضًا ينبغي أن يترفّعوا عنها. لكنّه يعجز عن الانضمام إلى هذا الدعاء، فقد شهد كثيرًا جدًّا من الكراهية وسفك الدماء باسم الدين. جزءٌ منه ما يزال يؤمن بكائن أسمى: خالق الكون ومصدر السلطة الأخلاقية، لكنّ جزءًا أكبر يدرك أنّه هو والله افترقا منذ زمن بعيد.

يقولون إنّ الإيمان طائر، لا تستطيع أن تحبسه حتى وإن كان القفص من ذهب. أطلقه حرًّا، أرسله بعيدًا، وقد يعود أو قد لا يعود. قد يكون الإيمان طائرًا، لكنّ آرثر يراه الآن غرابًا محنّطًا يحملق فيه بعينه الزجاجيتين. لن يحلّق مرّةً أخرى أبدًا، ومن الصعب تخيل أنّه كان يطير أصلًا.

يركب حصانه وهو أشبه بالمهووس، لا صبر لديه للوصول

إلى كاستروم كيفا ورؤية ليلي مرّة أخرى. يشعر بالذنب لفرض هذه السرعة المدمّرة على الدليل الشاب، فيقول: «يجب أن تعود إلى قرينك يا صديقي».

يتغصّن جبين محمود. «لا تريدني؟».

- «لم يعد بإمكانني أن أدفع أجرك. نفدت أموالني. كما أن الوضع غير آمن. ينبغي أن تعود إلى أسرتك».

- «لديك أسرة أنت أيضًا».

- «نعم، وسوف أتخذ كلّ ما يلزم كي يلتئم شملنا».

يأخذ محمود نفسًا، ثم يقول: «فلتعذر وقاحتي، ولكن لم كلّ هذا العناء من أجل امرأة لن تكون لك أبدًا؟».

سؤال لا يستطيع آرثر أن يجيب عليه فورًا. يبتلع ريقه بألم، وزوايا فمه متشقّقة مؤلمة من أثر الحرارة. «لا أريد إلا أن أطمئن عليها».

- «أعرف أنك تتصرّف مثل قيس المجنون؟».

- «ومن هذا؟».

- «هي قصيدة مشهورة: ليلي والمجنون. كان قيسٌ مولعًا بليلى، وهي تحبّه أيضًا، لكنّها زوّجت لشخصٍ آخر. فقد قيسٌ عقله، وتحوّل إلى شاعرٍ وراح يَجول في الصحراء كالمجنون، تستحوذ عليه هواجسه عن ليلي، رغم أنّها كانت بعيدة جدًا عن مناله. هل ترى التشابه بينكما؟».

فيبتسم آرثر بأسى. «لكنني لستُ شاعرًا يا صديقي. لستُ إلا قارئًا مخلصًا».

بعد توسّلاتٍ كثيرة، يفلح آرثر في إقناع محمودٍ بالعودة إلى أهله. هكذا ينطلق آرثر تحت ضوء الهلال، مصمّمًا على المواصلة وحده عبر الصحراء، فيقطع ثلاثمئة ميلٍ إلى حلب على ظهر الحصان. تشتدّ الشمسُ في اليوم التالي، من دون مأوى أو ظلّ، والريح لا تريد أن تهدأ، لا تنفكّ تُلقِي بنداواتها. فيُنصت آرثر، ويحاول أن يفكّ الرموز.

كان القدماء من أهل الرافدين يرون العلامات في كلِّ مكان، في وهج الجمر في الموقد، وهجرة الزراير في السماوات، ودوَّامات الدخان من مباخر البخور، وسقوط العظام على التراب في لعبة الأحجار(\*)، وتشكيلات الغيوم... كانوا يقرؤون الطوالع في أمعاء الأضاحي، وخطوط الدقيق المسكوب، وأنماط الزيت على الماء... لا أحد كان يستخفّ بالنذر، فالملوك والخدم والجميع يتوقون إلى لمحةٍ من الغيب. من أسباب ذلك أنّهم أدركوا هشاشة الحياة، وقُرب الموت، ومن أسبابه أيضًا أملٌ ساذجٌ لديهم بأنَّ شخصًا أو شيئًا من عالم آخر قد ينصّحهم أو يساعدهم في وقت حاجتهم، رغم ما في هذه الدنيا من ظلمٍ وتفاوت.

\*

---

(\*) لعبة الأحجار أو عظام المفاصل (knucklebones): لعبةٌ قديمةٌ جدًّا لا يُعرف أصلها بالتحديد، من بين طرائقها أن يُرمى حجرٌ أو عظمٌ من مفاصل الحيوانات للأعلى، ثم يحاول اللاعب أن يلتقط أكبر عددٍ من الأحجار الأخرى والتقاط العظمة الساقطة من الهواء. وما تزال اللعبة موجودةً حتى الآن، وتُلعِب بالنرد مثلاً. (المترجم)

صوتٌ حَبَبٍ يقطع أفكار آرثر. هناك شخصٌ يتبعه. يشعر بخفقانٍ في حلقه، وتشتد أصابعه حول الخنجر في حزامه، رغم أنه لا يعرف كيف يستخدمه. يقترب الغريب أكثر، يحث حصانه بأقصى سرعة.

يصرخ آرثر: «مَن هناك؟ أحمرك، فأنا مسلح». من الحماسة أن يصرخ بالإنكليزية، لكنّها غلبته.

وما هي إلّا ثوانٍ قليلة حتى يسمع آرثر صوتًا مألوفًا. «أنا! محمود».

لم يتخلّ عنه الشاب العربيّ. يعضّ آرثر باطن خدّه في تأثّر شديد، ويقول: «قلتُ لك عُذ يا صديقي».

- «قلتُ لك إنك لم تُخلق للصحراء. لا بدّ أن يعتني بك أحد».

\*\*\*

يتسلّل المرض إلى آرثر مثل قملة، ماصة، لا تراها إلّا بعد فوات الأوان. لقد استطاع أن يتجنّب الأخطار والأمراض طول الفترة الماضية، ولكنّ يبدو أنّ حظّه بدأ ينفد. يشعر بثقلٍ في أطرافه، وفمه مملوءٌ بالملح. غثيانٌ ومغصٌ وحمّى. الدوسنتاريا ليست قاتلةً إن عُولجت بسرعةٍ كافية، وحصل المريض على ماءٍ وراحةٍ كافيين. لكنّ وقتًا كثيرًا قد فات، ولا يوجد أطباء قريبون من هنا.

يقول محمود: «يجب أن تتوقّف. لا يمكنك المواصلة هكذا».



- «ليس الآن. نحن قريبون جدًا».

تتوهج الشمس، ويتراوح آرثر بين الوعي والإغماء، لكنه يقبض على العنان.

يتوسّع الدرب ويتمدد أمامه في دوراتٍ مدوّخة. ويواصل محمود الكلام إلى جانبه، وكأنّ الكلام يُشفي، والصمت تهديد للحياة. فلمّا نفذ ما لديه من إنكليزيّة، انتقل إلى العربيّة. يُنصت آرثر لإيقاع صوته، فيجد إحساسًا بالسلام في هذه اللغة التي لا يفهمها.

\*\*\*

«كاستروم كيفاً!». يشير محمود إلى المدينة القديمة التي تظهر في الأفق، بجروفها الكلسيّة وآلاف الكهوف. «كدنا نصل». لكنّ آرثر مغطّى بالغبار والعرق، بالكاد يستطيع الوقوف. ينحني إلى الأمام فوق عنق الحصان. لولا دليله القريب منه، لسقط.

لا يوجد مسكنٌ في الأفق سوى كوخ راع. يحمله محمود إلى الداخل، ويضعان آرثر على فراشٍ من القشّ، فيرتعش رغم أنّ جسده يحترق.

يندفع محمود خارجًا. «لا بدّ أن نسعفه. سأعود بأسرع ما يمكن».

يعتني الراعي بهذا الضيف فترة، لكنّه مضطّرّ إلى رعي قطيعه، فيغادر.

\*

يرى آرثر أمّه في نوبات الحمّى وهو وحيدٌ في تلك الغرفة،  
شابةً جميلةً حتى وهي ملفوفةٌ في معطفٍ سميكٍ قدرِ ذي جيبينِ  
منتفخينِ، وقداها مغطّاتان بطين التّمز والنفايات. يتساقط الثلج،  
والجوّ جميلٌ وباردٌ وقاس. يظهر طفلاه وسط الندف المتدحرجة،  
يلعبان عند بركةٍ بقوارب خشبيّةٍ صغيرة. يلوّح لهما مبتسمًا،  
لكنّهما لا يلاحظانه. وحين ينحني ليرشّ وجهه بالماء، يرى  
انعكاسًا في سطح البركة. شخصان يقفان خلفه من كلّ جانب،  
مرفقًا بمرفق. تتّشح زوجته بسواد الأرامل، أمّا الفقرا، فتلبس  
الأبيض.

وما هي إلّا ثوانٍ حتى يبدأ في التقيؤ.

في تلك اللحظة، يتسلّل طيفٌ إلى الغرفة: لصّ. صامت،  
مندفع، وكأنّه قارض. يلقي نظرةً وحيدةً على الرجل المريض  
الذي يثنّ على فراشه. يدير ظهره، ويفتّش معطف آرثر ويفرّغ  
حقيبته. دفتر ملاحظات، ومنديل، ورسمه طفل، وكيس تمر...  
فيطلق شتيمة، منزعجًا. بعد ذلك، يأخذ الحذاء الجلديّ الملقى  
في الزاوية. وحين يوشك على المغادرة، يلمح اللوح الأزرق.  
يدور القطعة الأثريّة في يده. لا تبدو قيّمة، لكنّ لونها أعجبه.  
لعلّه يكسرها إلى قطع ويستخدمها لصنع خواتم، أو يبيعها ببضع  
قطع نقدية. هكذا يأخذ لوح اللازورد الذي أهدها كاتبٌ مبتدئٌ  
إلى إلهةٍ منسيّة، والحجرُ ما يزال دافئًا من لمسة آرثر.

## H-

نارين

بجوار نهر دجلة، 2014

تقف نارين عند مغسلة في بيت إسمنتي بسيط ذي طبق أقمارٍ اصطناعيةٍ على سطحه، ومرفناها مغطيان بالدهن وهي تفرك مقلاة. ثمّة صمتٌ متوتّرٌ في كلّ مكان، تقطعه موجاتٌ من صراخ غاضب. لقد ساء المزاج بين المسلّحين مع تسرّب الأخبار السيئة من خطوط القتال. فباتوا يفقدون رجالاً وذخيرة، ويُجبرون على التخلّي عن الأراضي التي احتلّوها.

القائد في مزاج عكر، رغم أنّه حصل مؤخّراً على سبّيتين إضافيتين يفعل بهما ما فعله بالأخريات. تبكي اليزيدية الصغرى طول الوقت، حتى في نومها، أمّا الكبرى التي تلزم الصمت في أغلب الأوقات، فقد وُجدت ذات صباح بحبلٍ من أغطية السرير

مشدودٍ على رقبتها، بالكاد تتنفس. فيعري القائد نصفها العلوي ويجلدها أمام البيت كله، عقابًا لها على محاولة الانتحار، وإفساد أغطية السرير.

- «هيه، هل أنتِ صماء؟».

يدخل الصبي الصغير، ابن القائد. «والدي يناديك. يريدون شايًا!».

\*

تحمل نارين بحذرٍ صينيةً محملةً بأكواب الشاي إلى الغرفة في الطابق العلوي. تطرق الباب، وتنتظر. تفترض أنهم أذنوا لها، فتدفع الباب بكتفها قليلًا. هناك حوالي عشرين مسلحًا بالداخل. وهناك رجلٌ جالسٌ عند المدخل ظهره إليها، يمسك شيئًا في يده. تنظر نارين من كذب، وتفاجأ حين ترى أن العلامات المطبوعة على سطحه تشبه تلك الموجودة على اللوح الطيني الذي كانت الجدة تحتفظ به في صندوق مهرها.

تخطو وهي مشتتةً خطوةً إلى الأمام، فتقرقع الأكواب. يلتفتون جميعًا نحوها ويتوقفون عن الكلام فورًا. ينقبض حلقها من الذعر، وتمشي عبر صمتٍ مخيف.

بالكاد تستطيع أن تمنع ارتعاش يديها، لكنها تتمكّن من صبّ الشاي للجميع. ثم حين تستدير لتخرج، يتمتم أحد المسلّحين بصوتٍ خفيض، ويمسك بها من الخلف، ويبدأ في تدويرها في الهواء. تصرخ، وتركل بقدميها، تحاول أن تتخلّص من قبضته، لكنه أقوى منها بكثير.

فيقول القائد بنبرة استياء: «كفى يا أبا معاوية! هذه سببتي التي تعبت بها».

فينزعج الرجل من توبيخه أمام الجميع، ويُسقط نارين من يديه كدمية من قماش. تترنح الطفلة وهي تخرج من الغرفة، يمنعها خوفها حتى من البكاء.

\*\*\*

بعد ثلاثة أيام، وبينما تنزل سلمى كي تطبخ، يتناهى إلى سمعها صوت زوجة القائد تدرش مع امرأة أخرى في المطبخ.

- «صدّقيني، هذه الفتاة شرٌّ مستطير. لقد أصابت أبا معاوية بلعنة. وإلا كيف يموت رجلٌ سليمٌ مثله فجأةً هكذا؟».

- «صحيح، لم يكن مريضاً أو يشكو من شيء».

- «بسببها. ابنة الشيطان! تبأ لها، ليتّها تختفي من هنا. ما أزال أتوسّل إلى زوجي أن يبيعها».

- «ينبغي له ذلك».

- «نطعمها ونكسوها، لكنّها لا تبدي أيّ امتنان. لا أريدها في بيتي. هذا بيتٌ طاهر، ونحن أناسٌ أتقياء. وهي خادمة الشيطان، تجلب الشؤم علينا. إن لم يتخلّص منها زوجي، سأتصرّف بنفسى».

وبعد أن تروي سلمى لنارين ما سمعته، تحاول هذه أن تتجنّب زوجة القائد قدر الإمكان، لكنّ الأمر شبه مستحيل وهما تعيشان في البيت نفسه. فكلّما دخلت الفتاة المطبخ لغسل الأطباق أو عبرت الفناء لنشر الغسيل، تشعر بعين المرأة تحدّق

فيها. حتى أطفالها يصمتون حين تقترب نارين.

\*\*\*

يقول القائد: «قررتُ أن أبيعك. زوجتي مقتنعةٌ بأنك ستجلبين الشؤم علينا. لستُ ممَّن يؤمنون بالخرافات، لكنني لا أحبُّك. لا أريدك هنا». ينظر إلى الطفلة لحظة، في انتظار ردِّ فعلها، لكنَّها لا تُبدي شيئاً، فيقول: «سيأتي سيِّدك الجديد لأخذك خلال أسبوعٍ تقريباً. يعيش في «عنتاب»، وسيأخذك إلى تركيا كي تخدميه».

فتسأله نارين بصوتٍ أقرب إلى الهمس: «هل يمكن لسلمي أن تأتي معي؟». - «سلمى ستظلّ هنا».

يراقب الذعر وهو يرتسم على وجهها. يريد أن يكسرها، أن يقطع أغصان صمودها. «سمعتُ أنَّ سيِّدك الجديد مولعٌ بالثمار غير الناضجة. يقولون إنَّه يحبُّ السبايا الصغيرات. في سنِّ الاثنتي عشرة سنة وأصغر. لا يكثر بالخرافات السخيفة، ولن يفيد هذا الهراء معه».

تتججّر نارين من شدَّة الخوف، حتى إنَّها لا تلاحظ أنَّ القائد قد خرج.

\*

ترتعث الطفلة وهي وحيدةٌ في الغرفة، رغم حرارة الجوِّ. تعرف أنَّ هذه هي الطريقة التي ستموت بها. لا تتوقَّع أن تنجو من البيت التالي، أو الرجل التالي. ففرصتها الوحيدة هي الهرب.

ولكنّها حتى لو تمكّنت من الخروج وراحت تطرق أبواب الغرباء تتوسّلهم أن يساعدها، فإلى أيّ مكانٍ ستصل، وبمن يمكنها أن تثق، في مدينةٍ يمكن للكثيرين أن يشوا بفتاةٍ يزيديةً بكلّ سرور، مقابل مكافأة؟ وهي تعرف ما يحدث لمن يحاولن الهرب ويفشلن. يُضربن، ويُجلدن، ويُغتصبن جماعياً أمام أسيادهنّ.

تخذلها ركبتها، وقد أغمي عليها من الخوف. تترنّح، وأصابها تحكّ غطاء الصندوق الملتصق بالحائط. لا تذكر أنّه ترك مفتوحاً من قبل، لكنّه مفتوح. تتلمّس يدها شيئاً بالداخل. إنّهُ اللوح الطينيّ الذي رآته سابقاً. سطحه منقّرٌ بعلاماتٍ مرصوفةٍ بإحكام، بالخطّ القديم نفسه الذي درسته مع جدّتها.

تُخرج القطعة القديمة في حذر، وهي جالسةٌ على السجّادة. تتبّع الخطوط بطرف إصبعها، وتتعرّف على بضع كلمات: «طوفان»، «ماء»، «فُلك»... شفتها تنحنيان رغماً عنها في ابتسامةٍ وهي تتذكّر حكايات الجدّة. فتأتيها لمحاتٌ من حياتها السابقة، وذكرياتٌ محمولةٌ على تيارات دجلة، مثل حجارةٍ تُلقى على سطح الماء.

— «تبّاً لك! ماذا تفعلين؟».

تنفّلت صرخةً من شفتيّها وهي تتراجع في ذعر. لم تسمع خطوات الرجل وهو يعود.

ينتزع القائد اللوح من يديها. «كيف تجرئين على التفتيش في أغراضي؟».

— «آسفةٌ جدّاً. لم أقصد».

يلكمها في وجهها، فتسقط على ظهرها، مقطوعة الأنفاس. تنساب قطرة من الدم من زاوية فمها على السجادة، وثمة شيء هش يتدحرج على لسانها، كبذرة تخشخش داخل يقطينة. ذاك ضرسها الذي هللت له الجدّة، في أوقاتٍ كانت سعيدة. تسعل دماً، وتظنّ لحظةً أنّ الرجل انتهى من فورة غضبه، لكنّها محض مهلة. إذ يلفّ اللوح في قماش، ويضعه في مكانٍ آمن. تتناقض رقته هذه مع ما سيأتي بعد ذلك، إذ ينقضّ عليها مرّةً أخرى ويركلها في الضلوع.

فتتكور نارين في ألم شديد. يخطر لها (سريعاً، كطائر السنونو) أنّها إن ماتت الآن ستري جدّتها. ثم تنساب بركة دافئة من تحتها، فتنسلّ إلى هدوئها السائل.

فلما استعادت وعيها، وجدت كلّ بقعة في جسدها تنبض بالعذاب. أنفها متخثر بالدم، وشفثاها متورمتان. يقول أحدهم: «ها هي تفيق».

يوجد شخصٌ آخر في الغرفة، طبيب. يرفع الرجل رأس نارين ويصبّ سائلاً عديم الطعم في حلقها. يسأله القائد: «هل تستطيع أن تستوعب ما أقوله؟». - «يُفترض ذلك. أعطيتها منشطاً».

فيجلس القائد إلى جانب نارين على الأريكة. «أخبريني، هل كنتِ تقرأين اللوح؟ كيف؟ تكلمي!». فتحشرج نارين بصوتٍ منخفضٍ جدّاً، يضطرّ معه الرجلان



إلى الانحناء عليها كي يسمعا: «جَدَّتِي... جَدَّتِي... عَلَّمْتَنِي». - «عَلَّمْتُكِ امْرَأَةً قَرَوِيَّةً جاهلة؟».

لكنَّ نارين لا تقدِّم لهنَّ تفسيرًا. لن تحدِّثهنَّ عن ليلي ووصولها إلى حصن كيفا. لن تحدِّثهنَّ عن الإنكليزيّ. فهي لا تملك شيئًا سوى حكاية عائلتها، ولن تفرط فيها.

يتنهد القائد. «لن تفهمي أبدًا. نحن بنبي عالمًا جديدًا. نضع الأسس، ونزيل العفن. ستشكرنا الأجيال القادمة، نحن مؤسِّسو الخلافة».

ثم يسكت، وكأنَّه ينتظر مديحًا.

يقول وقد اختفت نبرته الحالمة: «اسمعي، لدينا أشياء من متحف الموصل، ومن أماكن أخرى. هناك مُشْتَرُونَ أجانب مستعدُّون لدفع مبالغ باهظة لهذه الأشياء. لكنني سمعتُ أنَّ هذه الألواح تجلب مالًا أكثر إذا كانت تحتوي على شعر. فإن كان هناك من يستطيع قراءة هذه الأشياء، سيساعدنا ذلك في تقدير قيمتها».

فتقول نارين في نفسها: إذن، لهذا السبب لم يقتلها.

هؤلاء لا يقتلون ويخطفون ويغتصبون فحسب، بل لديهم عملٌ جانبيٌّ غير ذلك: نهب الآثار والاتجار بها. ورغم انتشار مقاطع الفيديو للمسلَّحين وهم يهدمون التماثيل ويعيشون في المكتبات ويحرقون الكتب، فإنَّ خلف هذا الدمار العشوائي أرباحًا هائلة تُجنى من تهريب الآثار. فهناك جامعو تحفٍ عبر

العالم، يتلهّفون على امتلاك قطع من بلاد الرافدين، دون أن يكثرثوا بمصدرها الملطّخ بالدماء. بل إنّ بعض الآثار تُطرح علناً في المزادات، وأخرى تجد طريقها بهدوءٍ إلى مشترين في نيويورك وباريس وطوكيو وبرلين ولندن.

ليس في الأمر شيءٌ جديد؛ فهي دورةٌ تتكرّر. منذ عقدٍ مضى، إبان الفوضى التي تلت الغزو الأميركي، أفرغت المتاحف في شتّى أنحاء العراق. وفي غضون أيّام، اختفت آلاف القطع الأثريّة، حتى تلك الموجودة في خزائن البنك المركزي. حاول بعض القيمّين على المتاحف أن يقاوموا، فسدّوا الأبواب، وخاطروا بحيواتهم. وعلّق موظّفو المتحف الوطني لافتةً تقول إنّ المبنى تحت حماية القوّات الغربيّة، في محاولةٍ أخيرةٍ لحماية المقتنيات. كذبةٌ بدافع اليأس؛ فالجنود الأميركيّون لم تكن لديهم أيّة أوامر بإنقاذ المتاحف أو المكتبات. وحين سُئلوا عن هذا لاحقاً، قال متحدّثٌ عسكريٌّ بكلّ بساطة: «هذه الأشياء تحدث».

لقد باتت كاميرات المراقبة تلتقط كيف يبدو اللصوص وكأنّهم يعرفون طريقهم، ويعرفون ما ينبغي سرقة أولاً. يكسرون الواجهات الزجاجيّة، ويفرّون بالأختام الأسطوانيّة والتمائيل الصغيرة والبرونزيّات والألواح. ينزعون الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة من قيّثارات أور الجميلة، ذهباً وعقيقاً ولؤلؤاً ولازوردًا. ستظهر بقاياها الهزيلة ذات يوم ملقاةً في موقف سيّارات، مهشّمة. يسافر تمثال الملك الآشوريّ سرجون الثاني إلى لندن ونيويورك، قبل أن يُعاد أخيراً إلى العراق. ويظهر تمثالٌ صغيرٌ للملك إنتيمينا (ملك مدينة لكش السومريّة) في مستودعٍ في

كوينز. حتى في المتاجر الأنيقة والمحالّ العصريّة ودور المزادات المحترمة، تُعرض آثار الرافدين للمشتريين الجدد، في حين تعاود غيرها الظهور في أكشاك الشوارع. هذا وتنتقل عدّة كنوز من نينوى من شخصٍ إلى آخر في شارع پورتوبيلّو في لندن. لكنّ الألواح تبقى أسهل الآثار المستهدفة وأكثرها طلباً، تلك التي تنتمي إلى مكتبة آشوربانيبال، لا سيّما ملحمة گلگامش. تُنقل أسطرّ من القصيدة سرّاً إلى شتّى أنحاء العالم، فهي خفيفةٌ يسهل حملها. ورغم أنّ المشتريين الأثرياء قد يمنحون تلك الآثار ملاذاً آمناً، فإنّها تبقى حلقةً مفرغة: فالطلب عليها يزيد السرقة، والسرقة تزيد الطلب. وكلّما ازدادت المبالغ المعروضة، ازدادت شهية اللصوص أكثر فأكثر.

\* \* \*

يقول القائد: «أحضرتُ لك شيئاً». يفتح حقيبةً ويضع لوحاً على الطاولة، لكنّه ليس طينياً كالألواح الأخرى، بل من أبهى أشكال اللازورد. - «هل صحيحٌ أنّ هذا اللون له خصوصيّةٌ لدى عبدة الشيطان؟».

فتقول نارين: «نحن لا نلبس اللون الأزرق». لكنّها لا تخبره أنّه لون ملك طاووس، وبسبب قداسه هذه لا يرتديه البشر. فيقول: «عاداتُ كفّارٍ حمقاء». يتفحص وجه الطفلة، فيرى جسر أنفها المكدوم المتورّم، والجروح التي ما تزال واضحةً على شفّتها. «أريدك أن تقرئي هذا. سيجلب لنا مالا وفيراً».

فتنظر إلى الأسفل وتقول: «بشرط واحد».

- «ماذا قلت؟».

تبتلع ريقها، فتجد طعمًا حارقًا على لسانها، لكنّها لا تتراجع. «ألا تستدعي سلمى إلى غرفتك بعد الآن. ولا أيًا من الأخريات».

يحملق فيها لحظة. «أيتها المعتوهة. ابدئي العمل، ولا تملي عليّ أبدًا ما أفعله».

في تلك الليلة نفسها يرسل في طلب سلمى، فتعود في صباح اليوم التالي بحروق سجائر في شتّى أنحاء صدرها. يعرف الجميع أنّ داعش حرّمت التدخين، فقد أغلقوا محالّ التبغ، ومنعوا بيع السجائر وتدخينها. ومن يخالف هذا الأمر يُجلد أو يعاقب بكسر إصبعه. وكلُّ حرقٍ على جسم سلمى إنّما هو رسالةٌ من القائد إلى نارين بأنّه يفعل ما يشاء.

عندها، تفقد الطفلة كلّ أمل. تمتنع عن الأكل. تمتنع عن الكلام. تعرف أنّه سيبيعها عاجلاً أم آجلاً، وسيكون الرجل الذي بعده أسوأ. لكنّها لم تعد تشعر بشيء: لا خوف، ولا حزن، ولا حتى ألم. ليس إلّا الخدر، في انتظار الموت.

-O-

آرثر

بجوار نهر دجلة، 1876

بصعوبةٍ تفتح عينا آرثر، إذ يُحتضر في كوخ الراعي. يرمش، يحاول أن يستوعب أين هو. يسود الغرفة إحساسُ الفقر. هناك كومة خَرَقٍ في زاوية، ودلوٌ خشبيٌّ إلى جانبه كوب شايٍ قد برد. يمدُّ آرثر يده من تحت الغطاء المصنوع من جلد الغنم، فتلمس أطرافُ أصابعه ظهر مفكِّرتِه. يفاجأ حين يجدها ملقاةً على الأرض، مفتوحةً كيفما اتَّفَق. يتنَفَّس بصعوبة، يتلمَّس بحثًا عن بقيةَ قلم رصاص، فيسحب الدفتر إليه، ويكتب ما يلي:

لكلِّ إنسانٍ في هذا العالم مَيلٌ أو نزعةٌ ما، فإذا رعَته الظروف المواتية، ألقت بظلالها على ما تبقى من حياته.

أما الذي ألقى بظلاله على حياته هو فهو حبّ القصائد، والسعي وراء الكلمات. لقد أمضى شبابه في ترتيبها وطباعتها في كتب، ثم في فك رموزها وترجمتها ودراستها في الألواح. كرّس آرثر نفسه لملمحة قديمة، وطاب له أن يجمعها بيتًا بيتًا.

كان الناس يقولون له منذ صباه إنه صاحب موهبة استثنائية. وقد آمنت أمه بذلك إيمانًا لا يتزعزع، أما والده فكان يعترف بذلك متى ما وافق غاياته. وزملاؤه اعترفوا أيضًا بموهبته، رغم أن زوجته ربّما لم تر ذلك. لكنّ آرثر مقتنع بأن لكل إنسان موهبة. ويمكن لكل شخص أن يرتقي بمهارته إذا ما وجد فرصة، وشيئًا من الدعم. في نهاية المطاف، ربّما ما يفرّق بين شخص وآخر ليس الموهبة، بل الشغف. وما الشغف إن لم يكن قلقًا يصيب القلب، وتوقًا شديدًا لتجاوز حدود النفس، مثل نهر يفيض على ضفافه؟

كان گلگامش ملكًا قاسيًا مغرورًا طاف البلاد في رحلات، وعرف الفقر والهزيمة، فتعلّم أن يتواضع. وآشوربانيبال الملك القاسي المثقّف كان يفاخر بعاصمته وقصره ومكتبته، لكنّها سوّيت بالأرض. وها هو الملك آرثر (صاحب المجاري والعشوائيات، ذاك الذي سمّته عصبه من الطواشر من أصحاب القلوب النقيّة) فقدّ اليقين في قناعاته وهو بعيدٌ عن بلاده.

تجتمع الدموع في عينيه. كان يؤدّ أن يكون أبًا أفضل لطفليّه، أن يقضي وقتًا أكثر معهما، أن يراهما يكبران. تستحق زوجته زوجًا أفضل. كان ينبغي أن يشعر بالآلفة والحميميّة في قلبه، لكنّه يشعر الآن بوحدة هائلة. يحمل في داخله رغبات مكبوتة، وأسرارًا مكتومة. الحبُّ لغزٌ مكتوبٌ بالخطّ المسماريّ.

لغزٌ لم يتمكّن من حلّه. في واقع الأمر، كانت أسعد لحظاته حين يعمل على لوح قديم. هكذا، يُدرك في ألم أنّه لا يشعر بالألفة إلا حين يدرس الماضي، ولا يشعر باكتمالٍ إلا حين يرتّب الشظايا المكسورة.

\*

الزمن نهرٌ يتعرّج، يتفرّع إلى روافد وجداول، ويترك رواسب من حكاياتٍ على شواطئه، رجاءً أن يجدها أحدٌ ذات يوم، ذات مكان. صحيحٌ أنّ اللوح الأزرق حالةٌ استثنائيةٌ، لكنّه حين يتأمّله يشعر بصدمةٍ من إمكانية أن يكون على خطأ. فمن يملك الحقّ في هذا اللوح؟ الشعراء الجائلون الذين أنشدوا القصيدة في ترحالهم من مدينةٍ إلى أخرى؟ أم الملك الذي أمر بكتابتها؟ أم الكاتب الذي تعب في تدوينها؟ أم أمين المكتبة الذي حفظها؟ أم عالم الآثار الذي استخرجها بعد قرون؟ أم المتحف الذي سيحافظ عليها؟ أم تُراها من حقّ شعب هذه الأرض وحدهم؟ وإن كان كذلك، فهل تُحسب الأقليات من بينهم، كاليزيديين؟ لقد أهدى ليلى واحداً من الألواح التي وجدها. فهل كان ينبغي له أن يسلمها كلّها لها؟

يرجو آرثر أن يقرأ الباحثون المتحمّسون ملحمة گلگامش ويدرسوها في مشارق الأرض ومغاربها. قد لا يبدو من النظرة الأولى أنّ هناك أشياء كثيرةً مشتركةً بينهم، سوى انجذابٍ غريبٍ إلى حكايةٍ مجتزأةٍ بلغةٍ منقرضة. عشاق الحكاية هذه سيكونون على الأرجح جماعةً غريبة، يمشون بسحر قصيدةٍ طولها ثلاثة آلاف سطر، وعمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة. قصيدةٌ ناقصةٌ متشظية، يبطلها المَعيب وشكوكها ومزاجها المتقلّب، ورفضها

تقديم تفاؤل سهل. هي حكاية تعكس عالماً منقوصاً.  
 إنما ننحت أحلامنا على شكل أشياء، كبيرة أو صغيرة.  
 والمشاعر التي نحملها ولا نثمّنها، نحاول التعبير عنها من خلال  
 الأشياء التي نصنعها، واثقين من أنّها ستعيش عمراً أطول من  
 أعمارنا، واثقين من أنّها ستحمل شيئاً منا عبر طبقات الزمن،  
 كالماء إذ يتسرّب عبر الصخور. هي طريقتنا في قول «اذكرونا»  
 للأجيال التالية، لأولئك الذين لن نلتقيهم أبداً. هي طريقتنا في  
 الاعتراف بأننا ضعفاء معيبون، وأننا ارتكبنا أخطاء، بعضها  
 محتوم، وبعضها أحرق، لكننا في أعماقنا كنا نقدر الجمال  
 والشعر. فكلّ قطعة أثرية تاريخية إذن هي التماس صامت من  
 الأسلاف إلى الأحفاد: «لا تقسوا علينا في أحكامكم». نحن  
 نصنع الفن لنترك علامة للمستقبل، أو انحناءة طفيفة في نهر  
 الحكايات الذي يتدفّق بسرعة وجموح لا نستطيع أن نستوعبه.

يغمض آرثر عينيه، ويغوص مرةً أخرى في سباتٍ خدر.  
 متصالحٌ مع فناءه، بعكس گلگامش. لقد علّمته الفقرا أن الموت  
 ليس نهايةً بقدر ما هو بدايةٌ جديدة، وانفتاحٌ على المجهول، لكنّ  
 آرثر لا يخاف، رغم خجله وتردّده طول حياته.

وهكذا، في هذا اليوم من شهر آب/أغسطس 1876، يلفظ  
 آرثر أنفاسه الأخيرة على شواطئ دجلة. هو الملك آرثر صاحب  
 المجاري والعشوائيات، الصبي الذي وُلد على ضفاف التّمز في  
 فقرٍ ومشقّة، ونشأ في عشوائيات تشلسي، وهو التلميذ الذي  
 التحق بمدرسة رثة، والمتدرب في مطبعة ودار نشر بارزة، وهو  
 الذي فكّ رموز الألواح المسمارية في المتحف البريطاني،



والمشهور المتردد الذي وُضع في وسط جدلٍ عنيفٍ بين الدين والعلم، والخلق والتطور، وهو العلامة والباحث والمستكشف وعالم الآثار، وهو الأب والزوج والرجل الذي حمل في قلبه حباً مدفوناً. ها هو يلفظ أنفاسه الأخيرة في كوخ طينيٍّ متداعٍ، لا يختلف عن أكواخ القدماء في بلاد الرافدين، أولئك الذين رسمت حكاياتهم وقصيدتهم حياته.

\* \* \*

يعودُ محمودٌ بالطبيب. لكنَّ الأوان قد فات. يحملان الجثة على عربةٍ ويأخذانها إلى كاستروم كيفا. هناك امرأةٌ تنتظرهما عند مدخل المدينة القديمة، ترتدي فستاناً طويلاً أبيض. على جبهة ليلي وشمٌ صغيرٌ من ثلاث علاماتٍ إسفينيةٍ حفرها آرثر ذات مرةٍ على لحاء شجرة رمّان. لم تنسه قط، وهي الوحيدة التي استطاعت أن تستوعب كينونته الكاملة (صبيّاً ورجلاً)، وإنسانيّته وشجاعته ووحدته وحماسه وهشاشته... وقد أوفى بوعده، وعاد.

سيُدفن آرثر في قلعة الصخرة، وهي واحدةٌ من أقدم المستوطنات المأهولة على مرّ التاريخ، في مقبرةٍ تحدُّ القرية اليزيدية. وسوف يكتبون على شاهد قبره:

الملك آرثر، صاحب المجاري والعشوائيات

وُلد عند نهر التمز في عام 1840

وتُوفي عند نهر دجلة في عام 1876

## -H

### زليخة

بجوار نهر التمز، 2018

في منطقة أنيقة من أحياء تشلسي، تضغط زليخة الرقم السريّ على لوحة مفاتيح مثبتة في الحائط، في انتظار انفتاح البوابة. في الداخل، تفوح من الحديقة رائحة زكية، أزهار وأوراق غضة وتربة قُلبت من قريب، مع نفحة ياسمين تتصاعد من التعريشة. وفي ضوء الشمس الغاربة تتلأأ مياه النافورة الأندلسية، في درجاتٍ متعدّدة من الزرقة.

يفتح كريم الباب، وقد ارتسمت المفاجأة على وجهه. «تسرّني جدًّا رؤيتك! هل السيّد مالك في انتظارك؟».

يقلقها السؤال قليلًا. هو ذاك الوعي المؤرّق بأنّ هذا المكان

ليس بيتها، ولم يكن بيتها قط. تفكر في أن تبوح له بالحقيقة: إنها كانت قلقة على خالها، فجاءت للاطمئنان عليه. لكنها تطرد الفكرة، وتبحث عن سبب يبدو أقل إثارة للقلق. فتخرج من حقيبتها كتاباً: نينوى وآثارها.

— «جئتُ أعيد هذا. تمكّنتُ أخيراً من قراءته».

فيومئِ كريم بلا اكتراث. «تفضّلي».

تجتاز زليخة الردهة الرخاميّة الملوّنة بالمربّعات السود والبيض، وتصعد الدرج المنحني حيث تنتصب المرأة الصينيّة المطلية بالزجاج المعكوس، فيما تحدّق لوحات الوجوه من الجانبين. لا تتباطأ أمام غرفتها القديمة. تجد الباب موصداً، فتتركه كما كان.

مكتب الخال الواقع في آخر الممرّ فارغ. تدخل زليخة على أطراف أصابعها، وعيناها تجولان بين التحف الرائعة والأعمال الفنيّة المرتبة على الجدران والرفوف. ثمّة نعومة في ضوء الغرفة، وكأنّ حريقاً شفافاً ألقي على مصباح، فحقّف من حدة الأطراف. تسمع العمّال من النافذة المفتوحة وهم يعملون في حديقة الزن التي لم تصبح بعدّ واحدة من صفاء. تقترب من النافذة وتطلّ.

خالها وزوجته هناك، عند شجيرات الأزاليا والورد، يقرفسان في التراب بحذاءٍ مطّاطيّ من ماركة «بربري»، وبينهما ليلى، أطرافها النحيلة شاحبة في البرد. يبدون جميعاً منشغلين بفحص مخلوق صغير على ورقة، لعلّه حلزون أو دودة. تمدّ زوجة الخال عنقها، فتبلّل إصبعها وتمسح أثر طين من جبهة

حفيدتها، ثم تضمّ الطفلة إليها وتعانقها. في تلك الحركة رقةً وتخلّ تاءً عن الشكليات والآداب، وهو أمرٌ نادرٌ في سلوكها، حتى إنّ زليخة تتراجع كمن تطفّل على لحظةٍ حميمةٍ ما كان ينبغي له أن يراها.

تتذكّر الغرض من مجيئها، فتدير ظهرها للنافذة. تتّجه نحو طاولة القهوة لتضع نينوى وآثارها، لكنّ نظرها ينسلّ من تلقاء الغريزة إلى خزانة الأدراج، فتقرّر وضع الكتاب في مكانه الأصلي الذي اختاره خالها. تفتح الدرج العلويّ. سكين الورق الفضّيّة الأنيقة في مكانها، وكذلك النقود التي تركها في ذلك اليوم. وبجانبهما مظروفٌ آخر من أوراق الخال المطرّزة بالأحرف الأولى، لكنّه أكبر حجمًا، وليس مغلقًا. تقف ساكنة، تحمق في إحدى زواياه حيث تخرج منها حافّة صورة.

تسحبها.

في الصورة فتاةٌ صغيرة، ينطبع ظلّها النحيل على الحائط المكسو بالكلس خلفها. لا بدّ أنّها التّقطت في مكانٍ داخليّ مفروشٍ بالوسائد والسجاجيد، وربّما ليلاً، إذ إنّ الضوء مائلٌ يلقي بنصف وجهها في الظلال. الثوب الذي ترتديه فضفاضٌ عليها. لها جبهةٌ عريضةٌ وفمٌ مقوّس الشفتين وعينان خضراوان حزينتان رائعتان. لا يبدو أنّها تنظر إلى الكاميرا بقدر ما تنظر من خلالها إلى شيءٍ أبعد، وفي محيّاها ألمٌ لا تخطئه العين، يجعلها تبدو أكبر من سنّها.

تأمل زليخة الصورة، غير واثقة مما يقلقها فيها. فالصورة مفاجئة لا تشبه أي صورة شخصية رأتها من قبل. حين قلبها، تجد ملاحظة على الظهر بخط أنيق منق، تميل فيه الحروف قليلاً نحو اليمين.

الفتاة إكس

العمر: 13 سنة

فصيلة الدم: AB+

الطول: 1,52 م

الوزن: 42 كيلوغرام

نسبة تطابق المتبرع: 96%

تكتم زليخة صرخة، وتضع يدها على فمها. يبدأ صدرها في خفقانٍ متسارع. تعيد الصورة إلى المظروف بيدين مرتعشتين، ثم تغير رأيها وتأخذها معها. تدفع الدرج بقوة، لكنه يعلق، أو لعلها لفرط خوفها نسيت شيئاً علق فيه، فتتركه وتهرع خارجة.

تجد في الطابق الأسفل كريماً وهو منهمك في توجيه الخادمة حول تنظيف الثريا الفكتورية، فيرى زليخة وهي تنطلق نحو الباب.

- «هل ستغادرين؟ لقد أبلغتُ خالك الآن بوصولك. وسيحضر بعد قليل».

- «يجب... يجب أن أذهب».

يرتفع حاجباه، ويقول: «ماذا أقول له؟».

«قل له إنني تذكّرتُ موعدًا مهمًّا...». تسكت قليلًا. «بل قل له إنني عرفتُ ما يفعله، وإنّه خطأ».

\*\*\*

بعد ساعة، تتوقّف سيّارة خالها البنتلي الكستنائية أمام محلّ نين للوشوم، فتسدّ الشارع أمام المتحف البريطانيّ. يسارع السائق لفتح الباب له، تحت أنظار السائقين في السيّارات المصطفّة خلفه. فينزل الخال مالك ويقرأ المكتوب على النافذة.

### الإلهة المنسيّة

يدخل، فتُعلن الأجراس المعلّقة على الباب عن قدومه. «أين هي؟».

نين منشغلة بتنظيف أدواتها وتعقيمها، فترفع رأسها وتواصل عملها.

- «أين هي؟ ليست في البيت العائم».

- «إنّها لا تريد أن تراك يا سيّد مالك».

يأخذ الخال نفّسًا حادًا. تبدو الهالات تحت عينيه أكثر تورّمًا وقمامةً هذا اليوم. «ماذا قالت لك؟».

- «لا شيء. صامتةٌ لا تتكلّم».

«كعاداتها حين كانت صغيرة». يرتمي الخال على الأريكة. «هل لديك مشروب؟».

- «لديّ قهوة».

- «نعم، قهوتك الشهيرة!». يهوي كتفيه وهو يحملق دون

تركيز في الصور المعلقة على الجدران. وحين يعاود الحديث، يبدو صوته حشرجةً بطيئةً خافتة. «لقد حدث سوء فهم فظيع. لقد قلبت زليخة الأمور رأساً على عقب، وقفزت إلى استنتاجاتٍ من دون أن تعرف القصة بأكملها. لا بدّ أن أتحدّث إليها في أسرع وقت».

تقف نين في مكانها ساكنة، ولا يبدو في ملامحها شيءٌ سوى وميضٍ خاطفٍ في عينيها. فينتبه الخال على ذلك التغيّر في نظرتها، ويلتفت ليجد ابنة أخته تحدّق فيه وقد جاءت لتوها من الأسفل.

- «عزيزتي...».

ينحني إلى الأمام وكأنّه سيقف، ثم يعود فيجلس. «أرجوك، لا تحكمي قبل أن تسمعي كلّ ما عندي. دعيني أشرح لك».

- «ها أنا أسمعك».

«حسن...». ثم يلقي نظرةً قصيرةً على نين. «لكنّه موضوعٌ خاصّ».

- «أريدها أن تبقى هنا».

فتضع نين أدواتها وتتناول معطفها. «لا بأس، لا تقلقي. سأكون في المتحف البريطاني. عليّ أن أنهي رسم اللاماسو». تضع يدها بلطفٍ على كتف زليخة وتبتسم لها. «أتصلي بي إن احتجتِ إلى شيء».

يُغلق الباب، فيتردّد الرنين طويلاً في ذلك الصمت

المشحون. يتأمل الخال في المكان كأنه يتأكد من عدم وجود أحد.

- «للي في حالة صعبة جدًا. لا يمكنك أن تتصوّر خطورة وضعها. قد تمرّ شهور، بل سنوات، قبل أن يجدوا لها في النظام الصحيّ متبرّعًا متطابقًا. وحتى لو لجأنا إلى القطاع الخاصّ، فهناك نقصٌ شديدٌ وقوائم انتظارٍ لا تنتهي. لقد بحثت في كلّ مكان، صدّقيني. ثم صادفتُ شيئًا لم أتوقّعه... لقاءً عابرًا. كنتُ أستفسر عن شراء اللوح الأزرق، فأوصلوني بأشخاص سمعوا عن فتياتٍ يزيدنّ في وضعٍ مأساويّ. وتبيّن أنّ إحداهنّ متطابقةٌ جدًا مع ليّ».

فتهزّ زليخة رأسها دون أن تنظر إليه.

- «لا بدّ أن تفهمي، لا أحد يكثرث لهؤلاء الفتيات. لقد نسّين تمامًا. بالنسبة إلى العالم هُنَّ في حكم الموتى. قليلاتٌ قد يحالفهنّ الحظّ ويُنقذن، أمّا الباقيات؟ حتى أهاليهنّ المساكين لا يستطيعون أن يجدوهنّ».

- «أوتظنّ أنّك تسدي إليها معروفًا؟».

يرفع العمّ راحتيه للأعلى. «في العالم المثاليّ لا يحدث شيءٌ من هذا، لكنّنا لا نعيش في عالم مثاليّ. لنكن واقعيّين. لولا أنّي وجدتها، لبقيتُ من دون شكّ أسيرةً إلى الأبد. ليس لها أحد».

- «هذا لا يعني -».

- «أرجوك، فكّري. من كان سينقذها، أخبريني من كان



سينفق فلسًا واحدًا في سبيل إنقاذها؟ الفتاة صمًا، كما أخبروني. لا يريدونها. هي عبءٌ بالنسبة إليهم. وحسب ما فهمت، فقد باعوها من بيتٍ في الموصل إلى بيتٍ آخر في عنتاب... جُوعت وضربت وعُذِّبت، والأرجح أنَّها اغتُصبت أيضًا.

فتضغط زليخة بأطراف أصابعها على زوايا عينيها، عاجزةً عن فتحهما.

- «يعتقد آسروها أنَّها من سلالةٍ ملعونة، تجلب الشؤم. سيقتلها أحدهم عاجلاً أم آجلاً. لكنني أستطيع أن أساعدها. أستطيع رعايتها، طول حياتها. لن تتعرَّض لأذى بعد اليوم. لن تُظلم. ستحصل على أفضل رعاية. وتلتحق بالمدرسة. سأكفلها».

- «هل تصدِّق فعلاً أنَّك تنقذها؟».

- «ما أفعله يصبُّ في مصلحة الجميع. كيف يكون الأمر سيِّئًا ما دام سيجعلنا جميعًا في وضع أفضل؟ والفتاة ستستفيد حتمًا. ستنال حرِّيَّتها. ستنال حياةً جديدةً، وهي صغيرةٌ تستطيع بدء حياتها من جديد. والناس يعيشون على ما يرام بكُلِّيةٍ واحدة».

فتنفلت شهقةً من شفتي زليخة: «هذا لا يبرِّر ما تفعله! ألا تفهم أنَّ الأمر منافعٌ للأخلاق؟ لا يوجد سببٌ لاهتمامك بهذه الفتاة سوى...». تتلعثم، وتصارع للعثور على الكلمة المناسبة. «المتاجرة بالأعضاء. هذا هو الأمر».

- «يا حبيبتي، ألا تهملِكِ لِي؟».

«بلى، تهمّني!». ثم ينكسر صوتها دون إرادة منها. «وهل تعلم هَلن بهذا؟».

- «لا. أختك لا تعرف التفاصيل. إنّما هي تشعر بسعادة واطمئنانٍ بالعثور على متبرّع جيّد لطفلتها».

- «خالي، هذا جنون! لا أصدّق أنّك تبرّر الأمر كي يبدو منطقيًا ومعقولًا. هذا مخالفٌ للقانون!».

«ربّما... لكنّك لن تتحمّلي مسؤوليّة هذه المجازفة، بل أنا». ثم ينهض الخال مالك في تأنّ، متّكئًا على عصاه. «يجب أن أذهب. تنتظرني خالتك على العشاء، تجرّب وصفة سمكٍ جديدة».

فتسري في جسد زليخة هزّة باردة كالثلج، وتتمتم: «أنت تكره السمك... لكنّك دائمًا تسمع كلامها. كيف لم أتفطّن لهذا الأمر من قبل؟ لقد فعلتما هذا معًا. أنت استخدمتَ علاقاتك واتّصالاتك، لكنّ خالتي هي صاحبة هذا... الحلّ».

فينقل الخال عصاه من يدٍ إلى أخرى، ويسير نحو الباب.

- «خطّها هو المكتوب على ظهر الصورة. هي التي ألحّت على هذه الخطّة، وأنت رضختَ لها، كعادتك. لكنّ الأمر أقلقك، وما يزال ينخر ضميرك. لهذا كنتَ في حالة سيّئة في الفترة الماضية. ولهذا حين شربتَ في عيد ميلادي انفجرتَ فيها غاضبًا. قلتَ إنّها لا تلوّث يديها أبدًا، وتدّعي دور القدّيسة دائماً، بينما أنت عالقٌ في دور الآثم».

يتوقّف الخال مالك، وهو ينظر إلى الشارع.

- «أنتِ ذكيَّةٌ يا حبيبتي . كعادتكِ دائماً . ولكن هل يهم حقاً من صاحب الفكرة؟ لقد ربَّنا كلَّ شيءٍ معاً ، الطبيب والمستشفى في إسطنبول والأوراق . . . نفعل هذا من أجل ابنتنا وحفيدتنا» .  
تحاول زليخة أن تكتم دموعها . «بالتأكيد . دائماً تأتي عائلتك أولاً» .

- «هي عائلتكِ أنتِ أيضاً يا حبيبتي ، أم نسيت؟» .  
هكذا هو الأمر ، في تلك الكلمات القليلة ، والقيد الذي ينطق به الخال مالك : انتظار الامتحان على كلِّ ما بذله من أجلها ، وكلِّ ما تدين به له .  
تبدأ زليخة في البكاء . «والآن وقد عرفتُ سرَّك ، كيف تثق بأنِّي سأسايركم في هذا الأمر؟» .  
- «ستفعلين يا حبيبتي . فنحنُ كلُّ ما لديك . نحنُ دمك» .

# —H<sub>2</sub>O—

نارين، زليخة، آرثر

بجوار نهر دجلة، 2018

اليوم تُفتح بَوَّابة السدّ. سيبدأ الماء بالتدفُّق، في انسيابٍ قويٍّ لا ينقطع، يزأر ويتمدّد ويطالب بحصّته من المكان. سيرتفع منسوب الخزّان ارتفاعاً لا يُلحظ في البداية، لكنّه سرعان ما سيمتلئ. سيصعد الماء كلّ يوم خمسةً وثلاثين سنتيمتراً إضافياً، ليبلغ عشرين متراً في غضون شهرين. وبنهاية هذا العام، ستغمر المياه كاستروم كيفاً تاماً، وتغدو المدينة المسوّرة القديمة مطمورةً في الأجيال القادمة.

تنظر زليخة حولها، وتشعر بحزنٍ طاغٍ يغمرها، ووعيٍ حادٍّ بالأشياء وهي تمضي نحو نهايتها. المنظر من أمامها قاحلٌ مُحترقٌ

عارٍ من الشجر، كبطن حيوانٍ سقط على ظهره، يكابد كي ينقلب،  
لكنّه صغيرٌ عاجز.

تسألها نين: «هل أنتِ بخير؟ فيم تفكرين؟».

فتقول زليخة بابتسامةٍ شاردة: «كانت هناك سلاحف ذات  
دروع رخوة، تبيض عند الفرات، ولكن حين قضت محطّاتُ  
الطاقة الكهرومائيّة على مصاطب القصب، اضطرّرت إلى الهجرة  
إلى هنا، إلى دجلة. والآن دُمّر ملاذها هذا... فإلى أين ستذهب  
بعد ذلك؟».

تنصت نين، متنبّهةً كعادتها. وبعد لحظة، تسألها بلطف: «هل  
تحدّثتِ إلى خالك؟».

تهزّ زليخة رأسها. «لا يردّ على مكالماتي. ولا خالتي أيضًا.  
لا أظنّهما يسامحاني في وقتٍ قريب. ربّما لن يسامحاني أبدًا.  
لكنّي توصلتُ إلى هِلين. كانت أصعب مكالمةٍ في حياتي. صُدِمتُ  
كثيرًا، وانهارت. كان كلّ شيءٍ مرتّبًا، لكنّهم عادوا الآن إلى  
أسفل قائمة الانتظار. يتتابني شعورٌ فظيع».

فتزيج نين خصلة شعرٍ من وجه زليخة. «لقد فعلتِ الصواب،  
فعلتِ الصعب».

- «هِلين تتفهّم الأمر. نبحث أنا وهي عن متبرّع آخر، عبر  
القنوات الرسميّة. سأفعل كلّ ما في وسعي لمساعدتها. لن أتركها  
وللي وحدهما».

فتومئ نين. «هل أنتِ مستعدّةٌ لرؤية نارين؟».

- «مستعدّة».

تتسلّقان التلّة المنحدرة، في تطابقٍ طبيعيٍّ بين خطواتهما. تمتدّ المقبرة القديمة خلف سياج مكسورٍ متشظّ، وحدودها تذوب مع الأفق. الفتاة هناك. كانت تريد أن تقضي بعض الوقت وحيدةً عند قبور أسلافها، فظلّت نين وزليخة تتجوّلان وتستكشfan المكان نصف ساعة، كي تمنحا نارين خلوتها التي تريد.

لقد اشترتا نارين من تاجرٍ له علاقةٌ مع تاجرٍ يتعامل مع داعش. دفعتا ثلاثة آلاف، وهو سعر السوق لكائِنٍ بشريٍّ في ذلك اليوم تحديدًا. دبرًا معظم المبلغ من محلّ الوشم، بالإضافة إلى مساعداتٍ من أهل المنطقة الذين كانوا يودّون تقديم العون. فلم يكن سرًّا أنَّ هناك عبدةً يزيديّةً محتجزةً في بيتٍ في ضاحيةٍ مزدحمةٍ من مدينةٍ نابضةٍ بالحياة في تركيا، مثلما تُحتجز آلافٌ أخرياتٍ في بيوتٍ عائليّةٍ في سوريا والكويت والعراق والسعودية وغيرها. أسيراتٌ في أحياءٍ عاديّةٍ، حيث تمضي الحياة كالمعتاد.

\*

تدخل المرأتان المقبرة القديمة بحجارتها المتداعية وأعشابها المتشابكة، فتلزمان الصمت. في أعلى الدرب المغبرّ، تحيظُ بجسد نارين الرشيق هالّةً من الشمس اللافحة. لم تسمع الفتاة قدومهما ولن تلاحظ حضورهما إلى أن تقفا أمامها. تتوقّف المرأتان لحظة، كي لا تُفزعاهما. تتساءل كلّ منهما في نفسها كم من الوقت ستحتاج هذه الفتاة كي تتعافى. فلاحتمال الآخر قاسٍ جدًّا: أن تكون الجراح عميقةً لدرجة أنّها قد لا تشفى أبدًا، ولا يشفى قلبها أبدًا. لكنّهما في الوقت الحاليّ سعيدتان، لأنّهما تمكّنتا من إحضارها إلى مسقط رأسها قبل أن يضيع إلى الأبد.

\*

في تلك الأثناء، وعلى بُعد أمتارٍ قليلة، انسحبت نارين إلى عالمها الصامت وهي جالسةٌ على العشب المحترق. وضعتُ زهورًا على قبري أمّها وجدّتها الكبيرة ليلي... أمّا جدّتها الحبيبة بسمّة فهي مدفونةٌ في مقبرةٍ جماعيّةٍ في العراق. لا تعرف الطفلة ما إذا كان والدها حيًّا، لكنّها تتشبّث باحتمال أن يجد كلٌّ منهما الآخر يومًا ما. سوف تتحدّث إلى أقاربها في ألمانيا لاحقًا، فقد فرحوا فرحًا عظيمًا حين علموا أنّها على قيد الحياة. لعلّها تلحق بهم ذات يوم في هانوفر. تعرف أيضًا أنّ زليخة وزنن تريدان أخذها معهما إلى لندن. لكنّها لا تعرف صعوبة الحصول على التصاريح والأوراق اللازمة لانتقالٍ كهذا. الأمور ليست واضحةً بعد، سوى أنّ حياتها القديمة لم تعد موجودة.

بعد قليل، ترفع نارين ذقنها، وكأنّها تلتقط عبيرًا من ضفّة النهر، فترى المرأتين تنتظرانها، كطيفيّين يرفرفان عند حافة حلم. يظلّ وجهها جامدًا. فلا هو ارتياح، ولا إدراك: عدَم محض.

تقترب المرأتان ببطءٍ من الفتاة، فيحدث شيءٌ غير متوقّع حينها. تمدّ زليخة يدها لمساعدتها على النهوض، ويرتفع كمّها قليلًا، فتلاحظ نارين الوشم على معصمها، في تطابقٍ مع «الدق» المرسوم على جبهة الجدّة. ترمش كي تطرد دموعها، وتحدّق في الوشم، فينضمّ شعورٌ جديدٌ إلى الحيرة والحزن في عينيها: بذرةٌ صغيرةٌ من ثقةٍ قد تنمو يومًا، أو لا تنمو إلى شيءٍ أقوى.

تشقّ الثلاثة طريقهنّ عبر الصخور المبعثرة والنباتات المتناثرة، عائداً إلى الفندق الرثّ حيث سيقضين الليلة. قبل أن يغادرن المقبرة، تشير نارين إلى شاهد قبر، تتفاجأ زنن وزليخة

بوجود نقشٍ غريبٍ عليه بالإنكليزية: الملك آرثر صاحب المجاري  
والعشوائيات. تقرآن النقش، وتتمتان في حيرة، في حين تومئ  
نارين (دون أن تريها) إيماءة خفيفةً باتجاهه، في وداعٍ أخيرٍ لآرثر  
قبل وصول المياه.

لم يعد الأمر سوى مسألة وقت، والوقت كاللوح القديم؛  
يتكسر بسرعةٍ لا تسمح لأحدٍ بإعادة تجميعه. غداً، حين يُطمر  
آخر ما تبقى من قصائد بلاد الرافدين، وتغرق حصن كيفا،  
سيحدث الناس عن تدمير الثقافة والبيئة وذكريات الأرض، رغم  
أنه لا أحد (ولا حتى النهر نفسه) سيتذكر أن كل شيء بدأ بقطرة  
مطرٍ واحدة.

قطيرةٌ من دجلة تصعد ببطءٍ شديد، تتبخر تحت الشمس،  
كلولٍ شفافٍ من ضباب. دورةٌ أبديةٌ تبدأ في التكرار، من السائل  
إلى البخار إلى الصلب. تختلط دموع مدن الرافدين المدمرة  
بضباب السيول الآتية. وبينما تعبر الغيمة القارات، تتجمد إلى  
بلورات. تسقط ندفة ثلج فوق لندن، تتأرجح بسرعةٍ نحو طفلٍ  
وليدٍ راقٍ على الأرض الجليدية. ويرفع الرضيع نظره إلى هذا  
اللغز المسمى ماء، في اضطرابه وحركته، فضياً حيناً، وأزرق  
حيناً آخر، في أجمل الألوان وأعماقها زرقة. ولو كنا نستطيع رؤية  
العالم بعيني طفل، نتطلعُ بدهشةٍ بريئة، لرأينا الأنهار في السماء.  
أنهاراً عظيمةً لا تكف عن التدفق.

مكتبة

t.me/soramnqraa



| مدّة مكوثها  | رحلة قطرة ماء                                                                                 |
|--------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------|
| 30 دقيقة     | 630 ق.م، نينوى، تهطل كقطرة مطرٍ وتحطّ على شعر الملك آشوربانيال                                |
| 5 - 15 يومًا | تتبخّر في الجوّ                                                                               |
| 1,500 سنة    | تعود كقطرة مطر، تتسرّب في الأرض وتصل إلى المياه الجوفيّة العميقة                              |
| 970 سنة      | تعود إلى السطح عبر ينبوع، وتسافر إلى البحار المفتوحة                                          |
| 5 - 15 يومًا | تصعد إلى الغلاف الجوّي                                                                        |
| 2 - 6 أشهر   | 1840، تتحوّل إلى ندفة ثلج، وتسقط في فم وليدٍ حديث الولادة عند نهر التّمر في لندن              |
| 32 سنة       | تذوب في النهر وتُحمل إلى بحر المانش. تدفعها التيّارات السائدة، فتدور حول موانئ البحر المتوسّط |

|              |                                                                                                                             |
|--------------|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| 5 ثوانٍ      | 1872، تبلل وجه آرثر حين يصل إلى القسطنطينية من موجة تضرب الرصيف                                                             |
| 142 سنة      | تتبخّر، ثم تستقرّ على غيمة، وتهطل مطرًا في جبال طوروس، وتنام في المياه الجوفية الضحلة، ثم تجري إلى المجاري العليا لنهر دجلة |
| 3 أيام       | 2014، تملأ قنينة جُلبت من وادي لالش                                                                                         |
| 5 - 15 يومًا | تذوب في الجو                                                                                                                |
| شهر واحد     | تُجمع كماء مطر، وتقطر وتُعبأ                                                                                                |
| 12 ساعة      | تجد نفسها القطرة الأخيرة في قنينة ماء بلاستيكية على جبل سنجار                                                               |
| 49 يومًا     | تتبخّر، وتجوب العالم في دورة واحدة شرقًا                                                                                    |
| 2 - 3 أيام   | تهطل مطرًا في خزان إنكليزي، وتبقى هناك                                                                                      |
| يوم واحد     | 2018، تُشرب كماء حنفيه في لندن                                                                                              |
| دقيقة واحدة  | 2018، تتحوّل إلى دمية في بيت عائم، وتسقط في مغسلة                                                                           |
| ما تزال هناك | تمتزج بماء الحنفيه ومياه الصرف المعالجة، وتصل إلى البحر مرة أخرى                                                            |

فهذا ما خطته يدا كاتبة صغيرة  
واحدة من شعراء ومنشدين وحكّائين كثيرين  
يمشون على هذه الأرض.  
إنّما نحن ننسجُ القصائد والأغاني والحكايات من كلِّ نَفَسٍ.  
عسى أن تذكرونا.



# الفضلُ لنيسابا

الآن، ودائماً



## ملاحظة إلى القارئ

لم تسمع جدّتي لأُمّي (المرأة التي ربّنتني حتى بلغتُ العاشرة من عمري) قطّ بالفيلسوف والرياضيّ اليونانيّ طاليس الملطيّ، لكنّها هي أيضًا كانت تؤمن بأنّ الماء هو المبدأ الأساسي للحياة. كانت تريد أن تعلّمني كيف أنصت للمطر الرقيق أو الجداول في خريرها، لكنّني كنتُ في غمرة جهلي طالبةً بليدة. وفي النهاية، كما في أشياء كثيرةٍ أخرى، كان الأدب هو الذي ربطني بالحقائق والأسرار التي كانت أمامي طوال الوقت. فالماء، بما يكتنزه من خصائص ما تزال مجهولة، يحمل سرّاً عظيمًا.

حكاياتُ بلاد الرافدين<sup>(\*)</sup>، وما تصمت عنه أيضًا، إنّما تشكّله الأنهار، سواء كانت سابقةً أو حاليّة، أو ميّنةً أو على

---

(\*) أعني ببلاد الرافدين: العراق الحاليّ، وأجزاء من تركيا وإيران وسوريا والكويت الحاليّة. (المؤلّفة)

وشك أن تموت. ومن بين الدول العشر الأكثر ظمًا في العالم، سبغ منها في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. دجلة والفرات في أدنى مستوياتهما في التاريخ، بعد أن كانا ذات يوم مهد الحضارة. وفي الوقت الذي تجفّ فيه أنهار الرافدين، لا تنفكّ تظهر من تحت شواطئها المتراجعة مستوطنات عمرها ألف عام.



الملك آرثر صاحب المجاري والعشوائيات شخصيةً خياليّةً تعيش في مخيلتي، لكنني اعتمدتُ فيها اعتمادًا فضفاضًا على شخصيةٍ تاريخيّةٍ حقيقةً: جورج سميث، العبقريّ القادم من الطبقة العاملة، الذي فكّ رموز الخطّ المسماريّ، وسافر إلى الدولة العثمانيّة ومات في طريق العودة في قريةٍ قريبةٍ من الحدود بين تركيا وسوريا. كان رائدًا في علم الآشوريّات، علّم نفسه بنفسه، ولم يكتشف ويترجم ملحمة جلجامش فحسب، بل كرّس حياته كلّها لهذه القصيدة القديمة. كانت الكتب التي ألّفها وتلك التي كتبت عنه محوريّةً في بحثي، مثل كتاب اكتشافات آشوريّة: سرّد للاستكشافات والاكتشافات في موقع نينوى، خلال 1873 و1874 والرواية الكلدانيّة للتكوين<sup>(1)</sup>. وأودّ هنا أن أسلّط الضوء على تحفة دايفد دامروش الرائعة الكتاب المدفون: فقدان

---

George Smith, *Assyrian Discoveries: An Account of Explorations and Discoveries on the Site of Nineveh, during 1873 and 1874 and The Chaldean Account of Genesis*.



واكتشاف ملحمة گلگامش العظيمة<sup>(1)</sup>. كما يقدم كتاب إيرفينغ فينكل الفلک قبل نوح: فک رموز قصّة الطوفان<sup>(2)</sup> معرفة مضيئة ومفيدة. لقد تعلّمت كثيرًا من كتاب أساطير من بلاد الرافدين: الخلق، والطوفان، وگلگامش، وأخريات وكتاب ملحمة گلگامش<sup>(3)</sup>. هناك عشاق لهذه القصيدة من جميع أنحاء المعمورة، وأعدّ نفسي واحدة منهم. وتجدر بي الإشارة أيضًا إلى كتاب جلجامش بيننا: لقاءات حديثة مع الملحمة القديمة لثيودور زيولكوفسكي<sup>(4)</sup> الذي يُعدّ مرجعًا شائعًا عن التأثير المستمرّ والسحر الدائم لأقدم عملٍ أدبيّ في العالم.

لقد كان كتاب أوستن هنري ليارد الرائد نينوى وآثارها: مع سرد لزيارة إلى المسيحيين الكلدانيين في كردستان واليزيديين، أو عبدة الشيطان؛ وبحث في تقاليد وفنون الآشوريين القدماء<sup>(5)</sup> حاسمًا في بحثي، وسيلاحظ القارئ المتيقّظ أنني لعبت بترتيب

---

David Damrosch, *The Buried Book: The Loss and Rediscovery of the* (1) *Great Epic of Gilgamesh*.

Irving Finkel, *The Ark before Noah: Decoding the Story of the Flood*. (2) *Myths from Mesopotamia: Creation, The Flood, Gilgamesh, and Others* (3) (translated by Stephanie Dalley), *Epic of Gilgamesh* (translated by Andrew George).

Theodore Ziolkowski, *Gilgamesh among Us: Modern Encounters with* (4) *the Ancient Epic*.

Austen Henry Layard, *Nineveh and Its Remains: With an Account of a* (5) *Visit to the Chaldaean Christians of Kurdistan, and the Yezidis, or Devil-Worshippers; and an Enquiry into the Manners and Arts of the Ancient Assyrians*.

الكلمات في العنوان الأصلي. هذا وكانت الكتب التالية مصادر ثمينة بالنسبة إليّ: منحوتات القصور الآشورية لهول كولنز، وأنا آشوربانيبال: ملك العالم، ملك آشور (تحرير غاريث بريرتون)، والثور المجنّح: الحياة الاستثنائية لهنري ليارد، المغامر الذي اكتشف مدينة نينوى المفقودة لجيف بيرس<sup>(1)</sup>. حريّ بالذكر أنّ المشهد الذي يرى فيه آرثر قاضيًا دينيًا يمنح الإذن بخداع اليزيديين وذبحهم بحجّة أنهم ليسوا «أهل كتاب» مبنيّ على روايات ليارد نفسه. المشهد حقيقيّ.

هناك أشياء كثيرة في هذا الكتاب مستوحاة من أحداث حقيقية وشخصيات تاريخية، مثل «أوباش» فرس النهر، الذي أرسله باشا عثمانيّ هديةً إلى إنكلترا، أو تابوتي، العظارة في بلاد الرافدين القديمة. بسكويت الزنجبيل المسماريّ موجود أيضًا وهو لذيذ. يمكنكم العثور على الوصفة في موقع متحف بن. وللاستزادة حول تقاليد الطبخ والطقوس الأخرى، يمكنكم الرجوع إلى كتاب أقدم مطبخ في العالم: الطبخ في بلاد الرافدين لجان بوتيرو<sup>(2)</sup>.

---

Paul Collins, *Assyrian Palace Sculptures*; Gareth Brereton (ed.), *I am (1) Ashurbanipal: king of the world, king of Assyria*; Jeff Pearce, *Winged Bull: The Extraordinary Life of Henry Layard, the Adventurer Who Discovered the Lost City of Nineveh*.

Jean Bottéro, *The Oldest Cuisine in the World: Cooking in (2) Mesopotamia*.

وقد نشر تشارلز دكنز أعماله بالفعل لدى دار برادبري وإيفنز بعد أن ترك دار تشاپمان وهول في عام 1844. وقد يصادف المرء الآن طبعاٍ أولى من رواية البيت الكئيب أو دوريت الصغيرة في فهارس تجّار الكتب العتيقة، رغم أنّها باهظة الثمن جدًّا. انفصل دكنز عن الشركة في عام 1859، حين رفضوا طباعة إعلانٍ في مجلّةٍ ينشٍ يشرح فيه سبب انفصاله عن زوجته. جديرٌ بالذكر أنّي غيّرت بعض التفاصيل أو التواريخ لتناسب سير الحكاية. فعلى سبيل المثال، نُشر كتاب ليارد في الواقع لدى دار جون موري، وتولّت دار كوارتش طباعة رباعيّات عمر الخيّام. كان هناك عالم مصريّ مشهورٌ في المتحف البريطاني اسمه الدكتور صمويل بيرش، وعُيّن قيّمًا على قسم الآثار الشرقيّة، لكنني أجريت تعديلاتٍ على وقت تولّيه المنصب. وكانت هناك فعليًا حالة انتحارٍ هزّت قطاع الطباعة والنشر في إنكلترا، لكنّ المنتحر كان هنري برادبري، ابن وليم برادبري. أمّا الدكتور جون سنو فهو حقيقيٌّ بالطبع، وقد قدّم اكتشافه بأنّ الكوليرا تنتشر عبر شرب الماء وليس استنشاق الروائح الكريهة إسهامًا كبيرًا في فهمنا للأوبئة. ومن المصادر القيّمة جدًّا، أذكر هنا: خريطة الأشباح: قصّة أكثر أوبئة لندن رعبًا وكيف غيّر العلم والمدن والعالم الحديث لستيفن جونسن؛ التّمز: النهر المقدّس (مجلّدان) ولندن تحت الأرض لبيتر أكرويد؛ النّانة العظيمة في لندن: السير جوزف بازلجيت وتطهير العاصمة

الفكثورية لستيفن هاليدي؛ الأنهار المفقودة في لندن  
لنيكولاس بارتن؛ التّمز الحلو لماثيو نيل؛ التّمز: نهر إنكلترا  
لجوناثن شنير؛ لندن في القرن التاسع عشر لجيري وايت؛  
دليل زائر لإنكلترا الفكثورية لميشيل هيغز؛ والمعرض العظيم  
1851، لجوناثن شيرز<sup>(1)</sup>. أمّا المشهد الذي يرى فيه آرثر  
إسطنبول للمرّة الأولى فهو مستوحى من كتابات الروائي  
والشاعر الإيطالي إدموندو دي أميتشيس من القرن التاسع  
عشر، والذي صوّر القسطنطينيّة تصويرًا بديعًا بعيني شخص  
أجنبيّ. يُشار إلى أنّ الرسالة التي وردت من سكرتير  
المتحف البريطاني حقيقيّة، على أنّي غيّرت بضع كلماتٍ  
فقط. كما استخدمت أيضًا مقاطع من يوميات جورج سميث  
التي ظلّ يكتبها حتى لحظاته الأخيرة.

كان «حسن كيف» موقعًا تاريخيًا وتراثيًا من الدرجة  
الأولى، مُدرجًا في قائمة التراث العالميّ، لكنّه مُحي من على  
وجه الأرض. وقد ترك المكان فيّ أثرًا كبيرًا حين زرته قبل

---

Steven Johnson, *The Ghost Map: The Story of London's Most (1)  
Terrifying Epidemic - and How It Changed Science, Cities and the  
Modern World*; Peter Ackroyd, *Thames: Sacred River* (2 vols.) and  
*London Under*, Stephen Halliday, *The Great Stink of London: Sir  
Joseph Bazalgette and the Cleansing of the Victorian Metropolis*,  
Nicholas Barton, *The Lost Rivers of London*; Matthew Kneale, *Sweet  
Thames*; Jonathan Schneer, *The Thames: England's River*, Jerry White,  
*London in the Nineteenth Century*, Michelle Higgs, *A Visitors Guide to  
Victorian England*; Jonathon Shears, *The Great Exhibition, 1851*.

زمن، قبل وقتٍ طويلٍ من غرقه بسدِّ إيلسو. سمَّاه العرب حصن كيفا، وسمَّاه الرومان كيفا، لكنني أثرتُ الاحتفاظ بالاسم الآشوري القديم: كاستروم كيفا. وتنبغي عليَّ الإشارة أيضًا إلى أنَّ تماثيل اللاماسو الموجودة في المتحف البريطاني إنما جاءت في واقع الأمر من «نمرود» و«خورسباد»، لكنني أجريتُ تعديلاتٍ طفيفةً هنا وهناك لأنني أردتُ أن تكون نينوى في مركز السرد. أمَّا قصَّة الملك الذي دُفن مع خدمه وحكَّائيه، فهي حقيقةٌ، رغم أنني عدَّلت في تاريخ الاكتشاف الأثري. يُشار إلى أنَّ مكتبة آشوربانيبال، الموزَّعة على أربعة مواقع مختلفة، ليست شائعةً في حدِّ ذاتها فحسب، بل ما تزال ذات أهميَّة راهنةٍ في يومنا هنا، إذ تتعرَّض المكتبات لخطرٍ متزايد.



ورغم أنَّ العالم بيرنبرغ شخصيَّةٌ خياليَّة، فإنَّه مبنيٌّ بشكلٍ فضفاضٍ على عالم المناعة الفرنسيِّ جاك بنفينيست الذي وضع نظريَّة «ذاكرة الماء» ودفع ثمنها من سمعته ومسيرته المهنيَّة. لا يهمني عمله من الناحية العلميَّة أو العلاجيَّة، لكنني روائيَّةٌ أنجذب إلى الحكايات الإنسانيَّة. لا بدَّ أن أقول إنني أحببتُ وأكبرتُ جميع قراءاتي عن الماء، ولا يسعني هنا أن أنصف جميع الأدبيَّات المكتوبة عن الموضوع، لكنني أودُّ أن أُشير إلى الكتب التالية: الإكسير: تاريخُ إنسانيٍّ للماء لبراين فيغن؛ الآلة الزرقاء: كيف يشكِّل المحيط عالمنا لهلن تشيرسكي؛

حين تجفُّ الأنهار لفردِ پيرس؛ كيف تقرأ الماء: إشاراتٌ وعلاماتٌ وأنماطٌ من البرك إلى البحر لترستن غولي؛ والتدفُّق: الأنهار والماء والبرية لإيمي - جين بير<sup>(1)</sup>، وفي هذا الكتاب تحديدًا ستصادفون السطر الذي ألهمني اسم هذه الرواية.

\*

ثمّة جدلٌ معقّدٌ حول المتاحف ومن له الأحقية في امتلاك التراث الثقافي، وليس هناك مساحةٌ أفضل من الأدب (والرواية تحديدًا) لاستكشاف أعقد قضايا عصرنا بحريّة، بتفصيلٍ وعمقٍ وحرصٍ وتعاطف. فالرواية تسمح لنا بإدراك الموضوعات المهمّة والحسّاسة من زوايا متعدّدة، وهي حرّية بتنا نفقدها تدريجيًا في عصر وسائل التواصل الاجتماعي والخوارزميّات التي لا تعرف المشاعر. في كتاب صانعو المتاحف: رحلةٌ إلى الخلف، من صناديق قديمةٍ لأسرارٍ عائليّةٍ مظلمةٍ إلى عصرٍ ذهبيٍّ للمتاحف، تستكشف ريتشل مورس الغريزةَ الإنسانيّةَ في حبّ الاقتناء والجمع. وفي كتاب من نينوى إلى نيويورك: الحكاية الغريبة للنقوش الآشوريّة في متحف المتروبوليتان والتحفة المخفية في مدرسة كانفرد،

---

Brian Fagan, *Elixir: A Human History of Water*; Helen Czerski, *Blue* (1) *Machine: How the Ocean Shapes Our World*; Fred Pearce, *When the Rivers Run Dry*; Tristan Gooley, *How to Read Water: Clues, Signs and Patterns from Puddles to the Sea*; Amy-Jane Beer, *The Flow: Rivers, Water and Wildness*.

المبني بالكامل تقريباً على أرشيفاتٍ غير منشورة، يقدم جون مالكوم رَسَلَ نظرةً شائعةً لليدي شارلوت غِست، «أغنى امرأةٍ في إنكلترا»، والتي كانت تمتلك مجموعةً ضخمةً من القطع الأثرية من بلاد الرافدين، لدرجة أنها صنعت «شرفة نينوى» في بيتها الريفي «كانفرد مانور». ومن هذه الحادثة التاريخية، جاء المشهد الذي عثر فيه آرثر على قطع أثريةٍ من نينوى في بيت أثرياءٍ في إنكلترا.



كانت عملية البحث لكتابة هذه الرواية مكثفةً وضخمةً ومتعددة التخصصات. وقد راقبني قراءة مجموعةٍ متنوعةٍ من الكتب والمقالات الأكاديمية، من الأزمة البيئية العالمية وحفظ الموارد المائية إلى الطقوس الأكديّة القديمة في الجنائز والإراقة، إلى العلاجات والأدوية الإثنية في بلاد الرافدين. وقد ساعدتني الكتب التالية كثيرًا من المنظور التاريخي والجغرافي: أنهار السلطان: دجلة والفرات في الإمبراطورية العثمانية لفیصل حسین؛ نهرا دجلة والفرات: بيئتهما من المنابع إلى المصب (تحرير ليث جواد)؛ ودجلة الجريحة: رحلة عبر مهد الحضارة لليون مكارون<sup>(1)</sup>. ومع

---

Faisal H. Hussian, *Rivers of the Sultan: The Tigris and Euphrates in the Ottoman Empire*; Laith A. Jawad (ed.), *Tigris and Euphrates Rivers: Their Environment from Headwaters to Mouth*; Leon McCarron, *Wounded Tigris: A Journey through the Cradle of Civilisation*.

ذلك، فربّما نشأ التحديّ الأكبر حين تعمّقت في ثراء الثقافة والتقاليد اليزيديّة وتعقيدها. فلا يمكن للنصوص المكتوبة وحدها أن تقدّم فهمًا كاملاً لهويّة جمعيّة نُقلت قرنًا بعد قرن، غالبًا عبر الأغاني والحكايات والتهويدات والقصائد. وقد جادلتُ كثيرًا في التهجئة التي ينبغي لي أن أتبعها، «يزيديّ» أم «أيزيدي»، وما اخترتُ التهجئة الأولى إلّا لكي تتّسق الرواية مع نصّ القرن التاسع عشر واكتشاف آرثر لكتاب ليّارد.

أمّا الصعوبة الأخرى فكانت تتمثّل في أنّ ممارسات الجماعات اليزيديّة تختلف من مكانٍ إلى آخر ومن زمانٍ إلى آخر. فقد تختلف بعض المعتقدات (مثل الامتناع عن أكل السمك أو الإيمان بتناسخ الأرواح) بين اليزيديّين في العراق واليزيديّين في أرمينيا مثلاً. حاولتُ إلّا أتجاهل هذا التنوّع الشائق، وأردت أن أحتفي بأهميّة التراث الشفهيّ، ولذلك نظرتُ في أغاني وأساطير وحكايات شعبيّة، بالإضافة إلى الخرافات. وقد أفدتُ أيّما إفادةٍ من الكتب التالية: التقليد النصّيّ الدينيّ اليزيديّ: من الشفهيّ إلى المكتوب لخانا عمر خالي؛ دين ملك طاووس: اليزيديّون وعالمهم الروحي لغارنيك س. أساتريان وفكتوريا أراكيلوفا؛ الله والشيخ عدي كاملان: قصائد مقدّسة وحكايات دينيّة من التراث اليزيديّ لفيليب ج. كرينبروك و خليل جندي راشو؛ اليزيديّون لإستر سبات؛ التراث الشفهيّ اليزيديّ في كردستان العراق لكروستين



أليس؛ دور الطبيعة في اليزيدية لريزان شيفان آيسيف؛ اليزيدية في أوروبا: أجيالٌ مختلفةٌ تتحدّث عن دينها لفيلپ ج. كراينبروك؛ اليزيديات: الفرمان 73 لنورجان بايسال؛ اليزيديون: تاريخ مجتمع وثقافة ودين لبيرغول آتشك يلدز<sup>(1)</sup>. كما أشعر بامتنانٍ عميقٍ لأشخاصٍ من المجتمعات المحليّة ومهاجرين فتحو لي قلوبهم وذكرياتهم بكلّ لطفٍ وكرم، حتى حين كانت تلك الذكريات مليئةً بالألم والمعاناة.

في روايتي إبادةً جماعيّةً في أواخر القرن التاسع عشر على شواطئ دجلة، وهذا مبنيٌّ على حقائق تاريخيّة. لكنني غيّرتُ التاريخ الدقيق وبعض التفاصيل ذات الصلة لخدمة السرد. فقد أقدم محمّد باشا حاكم رواندز (المعروف بميري كورا) مع بدر خان بك على ذبح آلاف اليزيديين في عام 1832. وأولئك الذين هربوا نحو النهر وقعوا في الفخّ، إذ لم يكونوا يعلمون أنّ جميع القوارب قد دُمّرت. أمّا الإبادة

---

Khanna Omarkhali, *The Yezidi Religious Textual Tradition: From Oral (1) to Written*; Garnik S. Asatryan and Victoria Arakelova, *The Religion of the Peacock Angel: The Yezidis and Their Spirit World*; Philip G. Kreyenbroek and Khalil Jindy Rashow, *God and Sheikh Adi are Perfect: Sacred Poems and Religious Narratives from the Yezidi Tradition*; Eszter Spät, *The Yezidis*; Christine Allison, *The Yezidi Oral Tradition in Iraqi Kurdistan*; Rezan Shivan Aysif, *The Role of Nature in Yezidism*; Philip G. Kreyenbroek, *Yezidism in Europe: Different Generations Speak about Their Religion*; Nurcan Baysal, *Ezidiler: 73. Ferman*; Birgül Açıkyıldız, *The Yezidis: The History of a Community, Culture and Religion*.

الجماعيّة التي حدثت في عام 2014، فقد وقعت أمام أعين العالم بأسره. وهناك شهادات قويّة عليها تفطر القلب، مثل: سنجار: 14 يومًا أنقذت اليزيديّين من الدولة الإسلاميّة لسوزن شاند؛ الغروب اليزيديّ: الإبادة الجماعيّة التي نفّذتها داعش في العراق ليهول مارتن كنغري؛ ظلّ على الجبل: مذكّرات يزيديّة عن الرعب والمقاومة والأمل لشيكّر جفري وكاثرن هولستين. كما يُعدّ كتاب مسؤوليّة الدولة والإبادة الجماعيّة لليزيديّين (تحرير البارونة هيلينا كيندي وعارف إبراهيم واللورد ديفد ألتن وتاتيانا إيتويل) وثيقةً محوريّة، وأودّ هنا أن أوكّد على أهميّة التحقيقات الدقيقة لـ «لجنة العدالة اليزيديّة»<sup>(1)</sup>. جديرٌ بالذكر أنّ ما قالته سلمى في هذه الرواية عن أمنيّتها في أن تكون قد ماتت بالغازات في حلبجة بدلًا من أسرها واغتصابها على يد داعش مأخوذٌ من كلام إحدى الناجيات.

في بعض الأحيان كانت قراءة المذكّرات والشهادات التي كتبتها المسترقّات اليزيديّات أمرًا في غاية الصعوبة، لكنّها تبقى مهمّة جدًّا. وقد تركت الكتب التالية تأثيرًا كبيرًا عليّ: الفتاة الأخيرة لنادية مراد؛ الفتاة التي هزمت داعش

---

Susan Shand, *Sinjar. 14 Days that Saved the Yazidis from Islamic State*, (1) Paul Martin Kingery, *The Yezidi Sunset: The Genocide by ISIS in Iraq*; Shaker Jefferey and Katharine Holstein, *Shadow on the Mountain: A Yazidi Memoir of Terror, Resistance and Hope*; Baroness Helena Kennedy, Aarif Abraham, Lord David Alton and Tatyana Eatwell (eds.), *State Responsibility and the Genocide of the Yazidis*.

لفريدة خلاف؛ نَحَال سنجار: إنقاذ النساء المسروقات من العراق لنديا ميخائيل؛ أجسادنا، ساحات معاركهم: الحرب من خلال حيوات النساء لكرستينا لامب<sup>(1)</sup>. كما أشعر بامتنانٍ عميقٍ لعالم النفس ومعالج الصدمات البروفيسور جان كِزِلْهان على وقته وأفكاره. فقد قدّم هو وفريقه لسنواتٍ طويلةً جهدًا رائعًا ومثاليًا على نكران الذات، بالمساهمة في العلاج الفردي والجماعي، فكانوا يساعدون الأشدّ احتياجًا ممّن تعرّضوا للصدمات. وأودّ أيضًا أن أعبر عن امتناني لمونا كِزِلْهان وعارف إبراهيم ويلي فرمان ودوزن تيكال ووالدهما الحكيم، فقد أجابوا عن أسئلتي بكلّ لطفٍ وصبر، مهما كانت حمقاء أو صغيرة. زوّدتني الدكتورة ليلي فرمان (المؤسسة المشاركة للجنة العدالة اليزيدية ومديرة «نساء من أجل العدالة») بشهاداتٍ من سنجار، وهكذا عرفتُ الطريقة التي حاولت بها العائلات اليائسة المحاصرة على الجبل أن توزّع قطرات الماء للحفاظ على حياة أطفالها. وقد اتّخذت عائلة ليلي اسم العائلة نسبةً إلى جدّ وُلد في فترة إبادة جماعيّة، للحفاظ على ذكرى تاريخهم. لقد قرأتُ نصوصًا مكتوبةً لقصائد وأغانٍ يزيديّةٍ ما تزال حتى اليوم تحفظ ذكرى الفظائع الماضية. وأشعر بامتنانٍ هائلٍ لمحاميّ حقوق

---

Nadia Murad, *The Last Girl*; Farida Khalaf, *The Girl Who Beat ISIS*; (1) Dunya Mikhail, *The Beekeeper of Sinjar: Rescuing the Stolen Women of Iraq*; Christina Lamb, *Our Bodies, Their BattleFields: War through the*

الإنسان والناشطين والناجين الذين تحدّثوا معي وجهاً لوجهٍ أو عبر محادثاتٍ بالكاميرا. لقد تعلّمت كثيراً من شجاعتكم وصلابة روحكم وعملكم الشاق من أجل العدالة والإقرار بحقوقكم.

في الوقت الذي كنت أكتب فيه هذه الرواية، سُجن سياسيٌّ نيجيريٌّ بارزٌ وزوجته، وأدانتهما لجنة محلّفين في محكمة أولد بيلي تحت قانون العبوديّة الحديثة. وهذه أوّل إدانةٍ لتجارة الأعضاء في المملكة المتّحدة. فقد تأمر الزوجان مع طبيبٍ لإغراء بائع فقيرٍ من نيجيريا للحضور إلى المملكة المتّحدة لبيع كليته من أجل ابنتهما المريضة. ظللتُ أقرأ وأبحث عن هذه القضية الاستثنائيّة، وفوجئتُ حين وجدتُ أنّ تركيا (وطني الأصليّ) ظهرت في سجلّات المحاكمة كموقع رئيسٍ لشبكات تجارة الأعضاء غير القانونيّة. كنتُ أتابع هذه القصّة، وفي الوقت نفسه أتأمّل شهادات الناجيات اليزيديّات، فارتبطت القضيتان في ذهني. هناك اليوم ما يقرب من ثلاثة آلاف امرأةٍ وفتاةٍ يزيديّة مفقودة، كثيراتٌ منهنّ محتجزاتٌ في بيوت عائليّةٍ عاديّةٍ في مدنٍ وبلداتٍ في الشرق الأوسط. لكنّ حادثةً واحدةً بالتحديد هزّت أعماقي. ففي عام 2021، وُجدت صبيّةٌ يزيديّةٌ تبلغ من العمر سبع سنواتٍ في حالةٍ يرثى لها في حيٍّ عاديٍّ في أنقرة (في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن بيت جدّتي لأُمّي الذي نشأتُ فيه)، بعد أن أحبطت الشرطة مزادًا إلكترونيًا لبيعها لأعلى مُزايد. يتبيّن إذن أنّ الإبادة الجماعيّة لليزيديّين، على قسوتها وفظاعتها، لم تنته بعد.

أغمض عينيّ وأرى طاليس الملطيّ جالسًا على ضفاف نهر  
المياندر المتعرج (نهر المندريس الكبير في تركيا الحاليّة)، ومنه  
جاءت كلمة «يتعرج meander» من اليونانيّة مايندروش واللاتينيّة  
مياندر). أتخيّله هناك، يراقب الماء بإحساس من الدهشة  
والاحترام، يلاحظ حركته وتجذّده القلقين. ثم أتخيّل قطيرةً  
صغيرةً تبلّل يد الفيلسوف... تلك القطيرة نفسها التي ربّما كانت  
في قهوتي هذا الصباح أو ربّما في قهوتكم، تربطنا جميعًا عبر  
حدود الزمان والجغرافيا والهويّة.



## شكرٌ وعرّافان

ثُمَّ أرواحٌ رائعةٌ شجّعتني على كتابة هذه الرواية. أناسٌ حظيتُ بنعمة العمل معهم. أقدمُ هنا عرفاني الدائم لمحرّرتي في المملكة المتّحدة إيزابيل وول ومحرّري في الولايات المتّحدة جون فريمن. صدقًا يا إيزابيل، لا أعرف من أين أبدأ. فتحريرُك المتأنّي والمتفاني والبصير، وقلبك السخيّ والطريقة التي تدعمين بها كتابك دائمًا ما تعني لي الكثير جدًّا. جون، أشعر وكأنّنا نتعارف منذ الأزل، وأقدّر كثيرًا عقلك وإخلاصك، بالإضافة إلى حدسك التحريريّ والأدبيّ العظيم. شكرٌ خاصٌّ أيضًا لجوني غيلر لأنّه وكيلٌ أدبيّ لامعٌ وشديد الاهتمام، ولأنّه يغذي أفكارِي بفطنة ووضوح وصداقةٍ عظيمة، حتى حين تكون مجردَ خواطر غير ناضجة. كما أشعر بالامتنان لصوفي بيكر الرائعة وكيّتي هاريسون في وكالة كيرتس براون التي تتولّى حقوق أعمالِي الدوليّة بكلّ جدٍّ ومحبة. وقد اعتنى إدورد كيرك بشغفٍ ودقّةٍ بكلّ تفصيلٍ وتصميمٍ

في هذا الكتاب. هناك أيضًا على جانبي المحيط الأطلسي من أدين لهم بالفضل في دار فايكنغ: توي أولاديني وسامانثا فانكن وأنا ريديلي وجاسمن ليندنماير ومايكل بيدو وروزاموند هتشيسن وكلوي ديفز (في إجازة أمومتها الآن)، وكذلك: أتلانتا هاتش وسيارا فينان وفيولا هيدن، والفريق الرائع في دار نوف: إيزابيل ريبيرو ولورا كيف وإرن هارتمن وتريشا كيف وماثيو سيارابا. خالص شكري أيضًا لريغن آرثر الرائعة الحكيمة، لا لدعمها فحسب، بل كذلك لمحادثات الرامن اللذيذة.

وأودّ أن أعبر عن تقديري العميق للفريدة التي لا مثيل لها: ليزا بابالس. عزيزتي ليزا، كم أحبّ سماحة روحك ولطفك حتى وأنا أمطرك بالرسائل الإلكترونية. أنتِ الأخت اليونانية لقلبي التركي، وأريد أن أشكرك بكلّ روحي. صديقي العزيز ستيفن باربر عقلٌ مدهشٌ في ما يخصّ عصر النهضة، وقد استجاب بكرم لاستفساراتي المتعدّدة، بدءًا من الألغاز اللغويّة إلى الحكم الفكتوريّة. شكري العميق أيضًا لصديقتي الذكيّة كاثرن على اقتراحاتها القيّمة. المنقّح الرائع كنزٌ للكاتب، وهنا يأتي دور دونا پوبي الرائعة. المشكلة الوحيدة يا دونا أنني أدمنتُ محادثتنا الطويلة والمحفّزة حول متاهات اللغة. شكرًا أيضًا لإيلي سمث اللامعة، التي قرأت كلّ شيءٍ بعينٍ ثاقبة.

أريد أن أقول لكم جميعًا: لقد منحني الأدب طول حياتي ملاذًا، وأرضَ حكاياتٍ أستطيع التنفّس فيها والشعور بالحرّيّة، ووجودكم يساعدي ككاتبة مهاجرة تكتب بلغةٍ غير لغتها الأم، كي أجد وطنًا جديدًا، وإحساسًا متجدّدًا بالانتماء.



شكرٌ خاصٌّ جدًّا للباحث الرائع والإنسان الرحيم ديفد دامروش. أشعر بامتنانٍ كبيرٍ لملحمة گلگامش لأنها كانت السبب في تعارفنا يا بروفيسور، فشكرًا لك. كما أجاب الدكتور سيباستيان راي (القيّم على بلاد الرافدين القديمة في المتحف البريطاني) بصبرٍ شديدٍ على استفساراتي الكثيرة حول علم الآثار والتاريخ والجغرافيا ونيوى، وكثيرٍ غير ذلك. والحقُّ أنني أقف مذهولةً من كرمه وإخلاصه لمجّاله. كلمةٌ حبٌّ وشكرٍ كبيرةٌ لفرانثيسكا ستافراكوپولو على عملها الأكاديميِّ الرائع حول النساء اللواتي تناساهنَّ التاريخ (بما في ذلك الإلهة نيسابا)، وكذلك على أخوتها في الكتابة. أريد أن أشكر الدكتورة موضي الراشد لتجاوبها مع استفساراتي المرتبكة بدفءٍ شديد. كما كانت ماري بيرد (التي أحترم عقلها جدًّا) كريمةً لدرجة أن تقرأ الرواية في مسودّتها المبكّرة، وتقدّم حولها أفكارًا نيّرة. ولا أنسى رتشارد أوفندن، رئيس مكتبة بودليان في أكسفورد، فهو من أطيب الناس الذين عرفتهم. حين كان هذا الكتاب مجردَ بريقٍ لفكرةٍ في رأسي، أطلعتُ رتشارد عليها، فكان لتشجيعه أثرٌ كبيرٌ عليّ. لقد تعلّمتُ كثيرًا من الأكاديميّين والخبراء المذكورين آنفًا، لكنّي أنا المسؤولة وحدي عن أيِّ أخطاءٍ ترد في الرواية.

أدين بالفضل كذلك لامرأتين استثنائيتين: ليلي فرمان ومونا كيزيلهان، وهما من أولئك الأفراد النادرين في الحياة الذين يجمعون الطيبة واللفظ مع صمودٍ وصلابةٍ مدهشَيْن. وكما قلتما: أولئك الذين بدوا الأضعف، تبَيَّنَ أنَّهم هم الأقوى. كانت نعمةً أن تعرّفتُ إليكما، فشكرًا لكما.

وإلى أمي وعائلتي أقول: شكراً لكم على وجودكم كما أنتم في حياتي، وعلى حبكم ودعمكم وإلهامكم، وعلى تحمُّلكم تلك الموسيقى الصاخبة. شكراً لكم من كل أعماقي يا أورورا، وزلدا، وأمير ز، وأيوب الحبيب.

يقولون إنَّ الروائي لا ينبغي أن يقع في حبِّ موضوعه، لكنني رغم إعجابي بالفكر وتقديري لعالم الأفكار، لا أؤمن أنَّ المرء يمكن أن يكتب روايةً بالعقل المنطقي وحده. لا بدَّ للقلب من أن يكون فيها أيضاً، وإذا ما حلَّ القلبُ فيها، لن تعرف إلى أين يأخذك.

هذه الرواية هي المكان الذي أخذني إليه قلبي.

هذه الرواية أغنيةٌ حبِّي للأنهار، تلك التي ما تزال حيَّة، وتلك التي رحلت منذ زمنٍ بعيد.

مكتبة

t.me/soramnqraa



قصيدة مفقودة، ونهران عظيمان، وثلاث حيوات استثنائية، تربط بينها كلها قطرة ماء واحدة. فهناك في أطلال نينوى، كسر من قصيدة منسية منذ زمن سحيق، مدفونة تحت الرمال. يُولد طفل وحيد عصره في لندن في القرن التاسع عشر، على حافة النهر الأسود القاتم، ولا فرصة لديه كي يهرب من الفقر سوى ذاكرته المذهلة. وحين يعمل آرثر في دار نشر ومطبعة، يفتح عالمه بعيداً عن العشوائيات، ويجد نفسه في رحلة في ما وراء البحار بسبب كتاب واحد: نينوى وآثارها.

وفي تركيا، صبيّة إيزيديّة تعيش بجوار دجلة، تنتظر تعميدها بماء من الوادي المقدس في العراق. أمّا زليخة، عالمة الهيدرولوجيا، فتنقل إلى العيش في بيت عائم في نهر التمر، هرباً من حطام زيجتها. تأتينا الرواية ثريّة شاملة في إنجاز سرديّ مبهّر، عبر قرون وقارات وثقافات، تشابك فيها الأنهار والأمطار وقطرات الماء. "الماء لا ينسى، لكنّ النسيان شيمة البشر".

أليف شافاك: كاتبة تركيّة - إنكليزيّة. صدر لها عن دار الآداب عدّة روايات أهمّها: "قواعدُ العشق الأربعون".

www.elifshafak.com



مكتبة

t.me/soramnqraa

دار الآداب